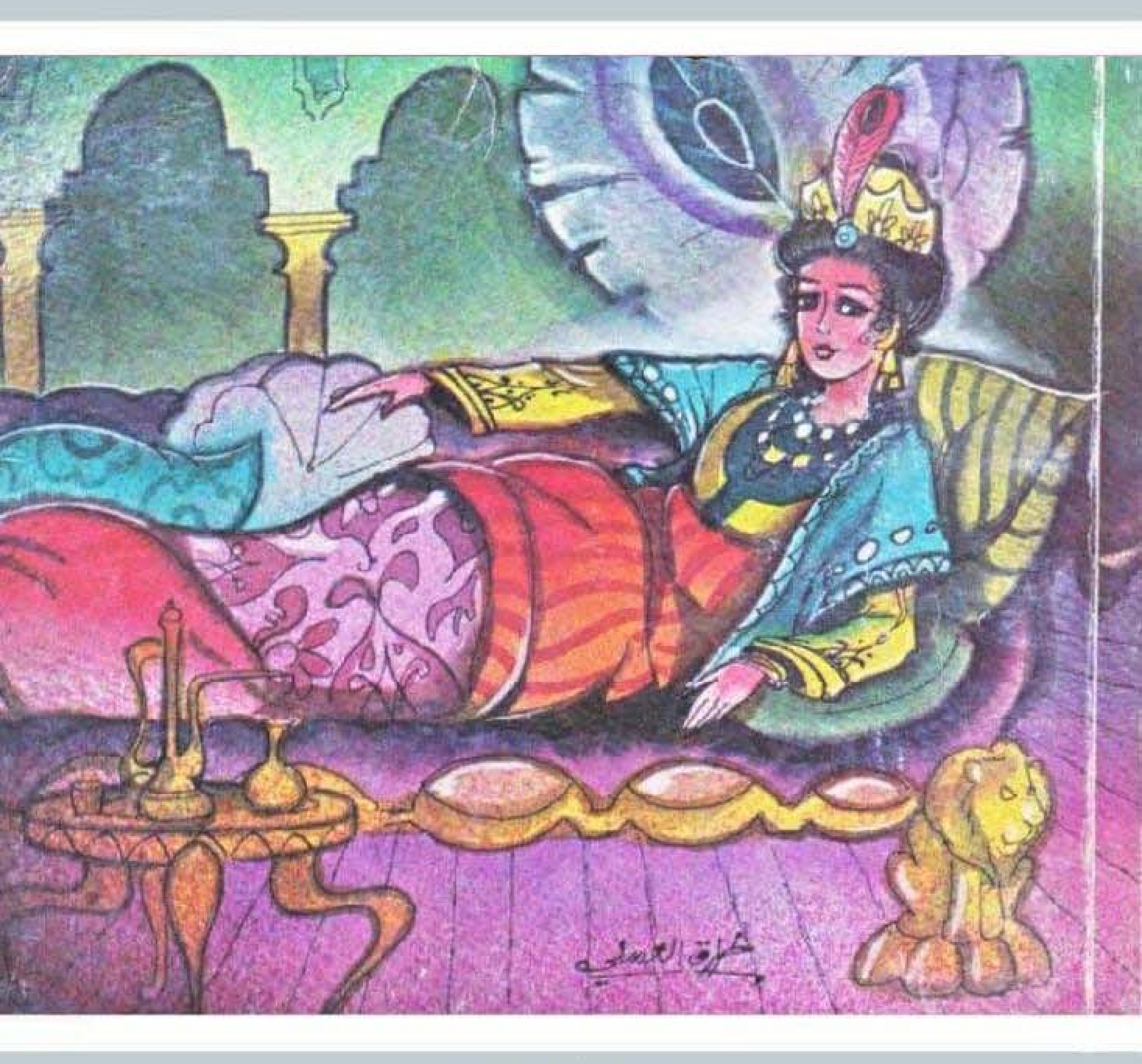
إميل حبشي الأشقر

تاريخ العرب والإسلام

بلقيس ملكة اليمن

١



دار الأندلس


بلقيس ملكة اليمن
رواية تاريخية أدبية غرامية

روايات تاريخ العرب والاسلام

أميل حبشي الأشقر

بلقيس ملكة اليمن

روايةٌ تاريخيةٌ أدبيةٌ غراميةٌ

الجزء الأول

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

اليمن في التاريخ القديم

●

عندما ذكر المؤرخون العرب ، بلاد اليمن في التواريخ التي كتبوا ، قالوا :
اليمن هي الجزء الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب .

وليس في هذا القول خطأ فقد كانت اليمن ولم تزل الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة ، وكانت حدودها ، في الزمن القـــديم ، تتسع باتساع النفوذ والسلطان وتضيق بالخمول والضعف في الدول المالكة التي تربعت على العرش اليمني .

وهكذا تخضع الحدود في كل دولة وفي كل جيـــل ، لهذين المظهرين اللذين ذكرت .

اما مؤرخو اليونان ، فقد ارادوا باليمن ، في التاريخ القديم ، العربية السعيدة « Arabia Felix » ولعلهم ارادوا بها بلاد البركات واليمن « بضم الياء وسكون الميم » او لعلهم جعلوا بلاد العرب قسمين ، اليمن قسمها الزاهي الزاهر والبوادي قسمها الآخر ، وهو لا يدخل في التعريف .

وجعلوا حدودها من الجنوب بحر العرب ، ومن الشمال بادية الشام والعراق وبلاد بطرا ، ومن الشرق خليج العجم ، والبحر الاحمر ويسمونه خليج العرب من الغرب ، فدخل في تحديدهم ، اليمن ، ومعظم الحجاز ، وتهامـــة ، ونجد ، والشحر ، وعمان ، وحضرموت وغيرها ، وهي القسم الغربي الذي كان زاهراً ، في ذلك الزمان .

اي انهم حددوا الجزيرة ، لم يتركوا منها غير بعض الاطراف .

اما حدود اليمن اليوم ، فخط يمتد جنوبا من المخـــا على البحر الاحمر الى تعز لماوية فقعطبة . وخط يمر شمالا في بلاد خولان وبني بشر الى نجـــران . اما من الغرب فبلاد الادريسي ، ومن الشرق الربع الخالي .

المخاليف اي الاقضية

ألم تر سوريا ولبنان « مثلا » كيف جعلوهما الوية واقضية على رأس كل لواء وقضاء حكومة صغيرة هكذا جعلت حكومة اليمن بلادها في زمنهـــا الاول ، اقضيـــة ويسمونها مخاليف ، في كل مخـلاف منهـــا المدن والقرى والسدود والجبال ، هذا ضيق وهذا واسع ، هذا صغير والآخر كبير ، فيه الاغنياء والفقراء والصعاليك والامراء ، وفيـــه الجيش يشبه في نظامه الاحتياطي جيوش القرن العشرين .

وقد ذكر اليعقوبي مخاليف اليمن ، كما كانت في اواسط الجيل الثالث للهجرة ، فاذا هي اربعة وثمانون مخلافاً ، وقام المؤرخ الهمداني ، في اوائل الجيل الرابع ، يذكر في تاريخه «صفة جزيرة العرب» جميع هذه المخاليف بما فيها من قرى وسدود واودية ، كالجغرافي الصادق الذي لا ينسى قيد ذراع من الارض التي يصف .

ولكن هذين المؤرخين ، لم يستطيعا ان يذكرا كل شيء ، على رغم الجهـــد الذي بذلاه ، فقد كان في اليمن مدن زاهرة دفنتها العصور تحت التراب ، وقبائل كثيرة فرقها الزمـــان ولم يبق لها في اليمن غـــير الاثر البالي ، ومن اين لليعقوبي والهمداني وابن الاثير والطبري والاصفهاني وغيرهم من المؤرخـــين ، اجل من اين لهؤلاء ان يبذلوا الذهب الكثـــير لينقلوا تراب هذا البلد الغـــائص في الارض ويستنطقوا آثاره ، ويستخرجوا انقاض البلد الآخر ويقرأوا السطور التي كتبت فيهـــا ، بل من اين لهم ان يفعلوا ، مثلما يفعل رجال المال والعلم في هذا الجيل ، الذين يحملون ذهبهم واموال دولهم ويطوفون في الارض باحثين عن الامجاد التي ترقد في جوفها .

نعم : كان هنالك قبائل ومدن ، في شرقي البلاد وقلبها ، في اليمن ، والجوف وحضرموت ، ومـــا وراءها لم تر عيون المؤرخين غير انقاض اشهر هذه المدن مأرب ، او سبأ ، ومعين وصرواح وشبوة وشبام وتريم وظفار التي تهدم معظمها قبل الاسلام .

اليمن الخضراء

يقول الهمداني : سميت اليمن الخضراء لكثرة اشجارها وثمارها وزروعهـــا والبحر مطيف بها من المشرق الى الجنوب فراجعاً الى المغرب .

ومن الجزائر التي في البحر المحيط بهـــا ، دهلك ، وكمران، وهي حصن منيع لملوك تهامة ، وجزائر فرسان ، وجزيرة زيلع ، وفيها سوق يجلب اليهـــا المعزى من بلاد الحبش فتشترى جلودها ويرمى باكثر مساليخها في البحر وجزيرة بربرا وهي قاطعة من حـــد سواحل اليمن ملتحقة من البحر بغدن ، وجزيرة سقطرى واليها ينسب الصبر السقطري وطول هذه الجزيرة ثمانون فرسخاً .

ويذكر من القبائل العدد الكثير ، منها خولان وهمدان وذوال المعقر والاشعر ، وحكم بن سعد ، وغيرها .

ومن الاوديـــة المشهورة ، التي تجري فيها المياه الى السدود، موزع والشقاق ووادي زبيد ، ووادي رمع ، ووادي سهام ، ووادي اذنـــه ، ووادي سردد ، ووادي مور الذي يدعى ميزاب تهامة الاعظم ، ثم يتلوه في العظم وبعد المـــأتي زبيد ، ومساقي مور شكيل غربي همدان ، ووادي نحياة .

ويقال عن صنعاء ، انها ام اليمن وقطبها لانها في الوسط منها ، وكان اسمها في الجاهلية « ازال » ويسميها اهل الشام صنعاء القصية وتقول العرب لا بد من صنعاء ولو طال السفر .

وينسب الى صنعاء صنعاني لانهم رأوا النون اخف من الواو كما تقول في بهراء بهراني وهي اقدم مدن الارض ويقولون ان الذي وضع الحجر الاول فيهـــا سام ابن نوح .

وعرف حضرموت بقوله : انها جزء اليمن الاصغر نسبك الى حضرموت بن حمير الاصغر فغلب عليها اسم ساكنها كما قيل خيوان ونجران « وهذان رجـــلان لسبت اليهما البلدان » فيها من القبائل : بنو الصدف ، والعباد ، ووهب ، وبدا ابن الحارث . وبنو الرائش بن الحارث ، وبنو عمرو بن الحارث ، وبنو ذهل ،

والمحايل وبنو سهل .

وفي كتاب نهاية الارب ، في اخبار العرب ، ان اليمن سميت يمناً لوقوعها عن يمين الكعبة اذا استقبلت المشرق، كما سميت الشام باعتبار وقوعها عن شمالها .

وهنالك رأي ، ان « يمن » اسم يعرب به قحطان سميت البلاد به ، وان لفظة « يعرب » لقب غلب عليه لاستنباطه العربية .

وقد رأيت في الروايات السابقة ، وفي الاسلوب التاريخي الذي قرأت اننا نذكر لك باختصار جميع اقوال المؤرخين ، في البلد الذي نكتب تاريخه وندلك على الاشخاص ؛ والقبائل والمدن التي كانت معروفة في ذلك التاريخ ليسهل عليك فهم الرواية التي تقرأ .

اجل ، وخير لك ـ اذا وقعت عينك على اسم بلد يمني ، او عشيرة من عشائر اليمن ـ ان تعرف مقام هذه العشيرة وموقع ذلك البلد ، دون ان تحتاج الى كتاب آخر غير الليالي التي هي بين يديك .

* * *

دول اليمن في التاريخ العربي

•

لم يجد المؤرخون طريقا اصعب مسلكا واكثر خطرا من الطريق الذي يؤدي الى العصور الاولى في اليمن .

ان التاريخ العربي قبل الاسلام وعر المسالك في مجموعه كما قرأت ، غير انك تجده سهل المنال، عندما تتصدى فيه للتاريخ اليمني الذي يرافقه الغموض والابهام ويسود الغلو معظم حوادثه واخباره .

هنالك المؤرخون الذين كتبوه يعترفون بالتعب الذي احسوا به عندما تغللوا فيه . بل يعترفون بذلك الغلو الوارد في حكاياته ، حتى ان ابن خـــلدون ، وهو من اصحاب الفضل على امته لم يتردد في القول :

في انساب التبابعة تخلط واختلاط .

وقد صدق في هذا ، فالتخليط والاختلاف يكاد يلمسهما العاقل بيديه . ولولا الآثار الخالدة التي هي دعامة التاريخ وركنيه لما قام لبعض اقوال المؤرخين وزن. ولما آمن العقلاء بالاعمال الجبارة التي اتاها الانسان .

اجل ، ان في كلمةواحدة تقرأها محفورة على حجر، ايمانا بتاريخ لا يتزعزع، وحجة ثابتة لا يذكر معها انشاء المؤرخين وبيانهم الخلاب .

ولولا هذه الآثار التي عبثت بالزمان ، لكان التاريـــخ اليمني قصة نصفهـــا صحيح والنصف الآخر كاذب ، لما فيه من خرافة وضعف .

يقول قائل : كان في اليمن ملك يدعى القليص ، مثلا ، ويقول آخر : ان القليص لم يكن من اولئك الملوك فتقف بين القولين ، مضطربا في ايمانك ، ضعيفا في عقيدتك ، حتى يعثر احدهم على تمثال حجري للقليص او على كلمة حفرت في

الصخر تدلك على وجوده ، فيضمحل الاضطراب والضعف مـــن صدرك ، ويزول الريب الذي علق في الذهن .

لاجل هذا ، ولكي تقرأ جميع اقوال المؤرخين التي تتناول القطر اليمني نورد لك في تمهيـــدنا هذا ، قبل ان تقرأ الرواية ، آراء العرب واليونان والفرنج المستشرقين ، ونبسط امامك الآثار التي لا تكذب ، لتزول الاوهام والخرافات العالقة في بعض الصدور .

عندما نزل بنو قحطـــان بلاد اليمن ، كما قرأت في الجزء الاول من حسناء الحجاز ، كـــان فيها بقية من العرب العاربة ، اولئك الذين نزحوا من بابل وهم قوم عاد .

وكانت هذه البقية ، صاحبة السلطان في اليمن وسيدة الموقف .

غير انها كانت قد استسلمت الى الترف ، مثل جميع الدول التي تبطرها النعمة والعز ، واستخفت بجميع الاسباب التي تحفظ العرش .

وبنو قحطان كثار ، ملأوا مدن ذلك القطر وقراه ، وانتشروا في جبله وسهله، يضعون على مهل ومن وراء الستار ، الحجر الاول من الملك الذي يفكرون فيه، دون ان يرتفـــع لهم في ذلك صوت ، ودون ان يبـــاح سر ، حتى زاد عددهم ووفرت عدتهم ، فوثبوا الى العرش فنحوا اصحابه عنه ، واستولوا بعدهم على الملك . . .

ثم ما لبثوا حتى ابادوا عدوهم وانشأوا دولتهم وذهب في ذلك صيت وذكر .

واول ملوكهم يعرب بن قحطان .

ويعرب لم يرض باليمن فحسب ، بل ارسل نظره الى العمالقة في الحجـــاز ينظر اليهم كما ينظر الفاتح الطامع الى الاقطار ، ثم ارسل خيـــله تحطم العرش الحجازي فكان له العرشان .

وولى اخوته امور الاقليم التي دانت له ، جعل اخـــاه جرهما سيد الحجاز ، واخاه عاداً سيد الشحر ، وتولى اخوه حضرموت ، جبال الشحر وحضرموت ، واخوه عمان ، أمر عمان .

ويقول : ان اول من نطق بالعربية يعرب ، وكان فصيح اللسان صادق الرأي وهو الذي عناه الشاعر العربي حسان بن ثابت الانصاري بقوله :

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب ابينا فصرتم معربين ذوي نفر
وانتم قديماً ما لكم غير عجمة كلام ، وكنتم كالبهائم في القفر

وكان يعرب مغرماً بالبناء وهو اول من بنى المدن والقصور في اليمن .

ومن وصيته لبنيه قوله :

« اتركوا الحسد ولا تلتفتوا اليه فانه داعية القطيعة بينكم . وتجنبوا الشر واهله فان الشر لا يجلب عليكم الا الشر ، وانصفوا الناس من انفسكم فانهم ينصفونكم من انفسهم ، واجتنبوا الكبرياء فانها تبعد قلوب الرجال عنكم ، وعليكم بالتواضع فانه يقربكم من الناس . واذا استشاركم مستشير فاشيروا عليه بما تشيرون به على انفسكم في مثل ما استشاركم فيه فانها امانة قد القاها في اعناقكم » وكان ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة .

يشجب بن يعرب

وقام بعده ولده يشجب وكان ضعيف الرأي واهي العزيمة كثير الغفلة وليس له في ايامه ما يستحق الذكر. فلما مات خلفه ابنه عبد شمس، الذي يقال له (سبأ)

سبأ

وكان مهيباً فاتحاً كثير الغزوات شديد التيقظ محبوباً من الجيش ، غزا الديار المصرية اكثر من مرة واكثر المصاب في اهلها وحمل السبايا الى بلاد اليمن واقتاد اليها اكثر من عشرة آلاف اسير ، فقيل له : سبأ ، وهو الذي اغار على بابل وفتحها واخذ الجزية منها وفيه يقول الشاعر :

لقد ملك الآفاق من حيث شرقها الى الغرب منها عبد شمس بن يشجب
سعى بالجياد الاعوجية والقنا الى بابل في مقنب بعد مقنب

وكان لا يسمع ببلد الا قصدها وساق خيله اليها فاستظهر على كثير من البلاد ودانت له الاقاليم الكبيرة ، القريب منها والبعيد .

وهو الذي بنى السدّ في مأرب، وفجّر اليه سبعين جدولا تصب مياهها فيه. وعاش سبأ على الارض خمسا وثلاثين سنة ثم انتهى الملك بعده الى ولده .

حمير

وكانت حياته طويلة ، بنى فيها حصونا ومدنا ، وفتح بلادا كثيرة ، وخفق لواء نفوذه في ما وراء بلاد العرب ، على ما يقولون .

وهو جد الاسرة الحميرية ومؤسس الدولة التي تولى امرها من ذريته الرجال المشاهير اصحاب، الذكر الخالد الذي لا يبلى .

وملوك حمير ، عند العرب فئتان : فئة الملوك ، وفئة التبابعة .. وقد اختلفوا في عددهم وزمان ملكهم كما اختلفوا في اعمارهم وتعاقبهم حتى لا تجد مؤرخين اثنين ، توافقا في امر مما ذكرت .

الا الحارث الرائش ، الذي هو اول التبابعة ، فقد توافقوا في امره واجمعوا على انه « تبع الاول » كما سيجيء .

ويقول حمزة الاصفهاني ان دولة حمير ، كانت قبل الحارث الرائش دولتين احداهما في مأرب ، والاخرى في حضرموت ، فلما ظهر الحارث الذي ذكرنا ضم حضرموت الى سبأ ، وتبعه في ذلك قومه فسمي تبعاً كما مر .

وعدد التبابعة عند حمزة ستة وعشرون اولهم الرائش وآخرهم ذو جدن الذي حكم بعد ذي نواس وسلبته الحبشة ملكه وقد قرأت شيئاً من هذا في روايتنا الاولى ، الحارث الاكبر .

وحكاية استيلاء الحبشة على اليمن ، حكاية صغيرة نختصرها لك من جديد

عند اعتقادنا ان هذا الاختصار ، خير من رجوعك الى رواية الحارث تستعيد فيها خبر الحبشان الذي نرويه الآن .

« اضطهد تبع ، ذونواس، جماعة النصارى المقيمة في نجران اضطهاداً شديداً هربيا بلغ فيه الحد الاخير من القسوة والعنف ، فخرج رجل منهم اسمه ذو ثعلبان يقص على صاحب الحبشة اخبار ذلك الاضطهاد ويدعوه باسم الدين الى فتح القطر اليمني ...

فارسل قواده بسبعين الفاً من الرجال ، ففر ذو نواس ثم اقحم فرسه البحر وغرق فيه ، فخلفه تبع ، ذو جدن ، فغلب على امـــره ، واستولى ابرهة الاشرم على ملك اليمن واستقام له ذلك الملك .

وبعد اعوام خطر له ان يهدم الكعبة ، فقاد جيشه اليها في عـــام الفيل فهلك ذلك الجيش .

ثم خلفه ابنه يكسوم ، وكان قاسيا ظالما يستحل دمـــاء اهل اليمن ويستبد باموالهم لا ينهاه عن ذلك شيء .

فلم يطق الامراء وابناء الملوك ذلـــك الاستبداد والظـــلم ، فذهب احدهم ، وهو سيف بن ذي يزن الى كسرى يستنصره ، فقبل كسرى وبعث بالجنـــود المحربين يحملون قوته التي لا تغلب ، فطردوا الحبشة وولوا سيفـــاً باسم مولاهم الملك الفارسي .

ولكي يذل سيف بن ذي يزن ، اولئك الحبشان ، جعل حراسه وحجـــابه منهم ، يمشون بالحراب امامه ووراءه .

غير ان اولئك الحراس غدروا بسيف فقتلوه ، ولم يملك احد بعده ، بل استقل اهل كل مخلاف بما عندهم ، تحت سيطرة الفرس ، حتى ظهر الاسلام » .

اما عدد الفئة الاولى ، فئة الملوك الذين تقدموا الحارث الرائش ولم يكونوا تبابعة ، اي منذ ظهر حمير ، الى ان ظهر الحارث المشار اليه ، فخمسة عشر ملكاً على ما ورد في القصيدة الحميريـــة المشهورة لنشوان بن سعيد الحميري « من اهل القرن الخامس للهجرة » وعشرة ملوك على رأي المؤرخ ابي الفداء ، وسبعة على

رأي ابن خلدون ، واربعة ملوك لا غير ، على رأي المسعودي .

وجميع هؤلاء المؤرخـــين لا يذكرون « بلقيس » التي نكتب تاريخها ، بين ملوك الفئة الاولى ، كذلك لم يعدها حمزة الاصفهاني سهم ، بل جعلهـا جميع من ذكرنا ، من ملوك الفئة الثانية ، اي التبابعة .

واما كتاب « نهاية الارب في اخبار العرب » فقد جعلها من فئة الملوك فكان قوله بعيدا عن الصحة ، كما اثبتت الآثار التي عثر عليها المستشرقون وستقرأ ذلك فيما يلي من الفصول .

اذن فقد رأيت التناقض والاختلاف في اقوال المؤرخين ، ولو لم يكن هنالك تناقض ، في تاريخ العرب قبل الاسلام ، لما كان هذا التاريخ صعباً ، كما قلنا .

على ان هذه الصعوبة لا تلبث حتى تزول ، عندما تقرأ اراء المستشرقين الذين طافوا في ارض اليمن ولمسوا الآثار الباقية في الانقاض ؛ واتحفوا دولهم بنقوش كبيرة جداً حملوها اليها من الجزء الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب ، واستطاعوا بفضل العناية التي بذلوا ، ان يذكروا اسماء الملوك ويذكروا عددهم بعد قراءة المسند المعروف بالحميري .

اعظم هؤلاء المستشرقـــين ، ادورد غلازر ، وجوزيف هاليفي ، وارنو ، ويوليوس اويثين وغيرهم من الباحثين طلاب العلم .

وانت لا تستطيع ان تستخرج الواقع الذي لا ريب فيه الا اذا قابلت بـــين اقوال العرب ، واقوال الفرنج المسلحين بالسلاح العظيم الذي هو الآثار .

رأي اليونان في اليمن

لم يكتب المؤرخون ، عـلى رغم كثرتهم واختلاف اجناسهم تاريخاً خاصاً يبحث في احوال اليمن ، او في احوال قطر من اقطار الجزيرة ، ولكنهم ذكروا العرب ومروا بشؤونها كما يمر الكرام ، عندما يبحثون في الجغرافية العامة وعلى اثر الرحلات الى تلك البلاد .

الا العرب ، فقد كتبوا الكتب الخاصة عن بلادهم ، وجاء بعدهم المستشرقون فدرسوا وقرأوا ثم نشروا ما رأوه ولمسوه بالايدي فجاء درسهم وافياً بالغرض التاريخي من كل نواحيه

ولم يوافق هؤلاء الفرنج ، اولئك العرب في الرأي ، فقد ذكروا امماً ودولا لم يعرفها العرب ولم ترد في كتبهم،ولم ير الجميع رأياً واحداً الا في الاحوال الظاهرة كظهور القمر والشمس .

ولليونان ، مثل سترابون ، وبطليموس وبلينوس ، فضل على التاريخ العربي فقد عرفوا من امر الجزيرة مـا لم يعرفه اهل الجزيرة انفسهم ، ووصفوا الطرق والتجارة والاجتماع وصفاً مستفيضاً ، دل المستشرقين في الجيلين الاخـيرين على الآثار الباقية في اليمن

اجل ، ذكر اليونان دولة المعينيين التي لم يعرفها العرب قط ، وذكروا دولة سبأ التي لم يعرف العرب عنها غير الشيء القليل ، كما انهم ذكروا أمماً غيرها لم يقل مؤرخو العرب عنها كلمة .

خذ لك مثلا ما قيل عن ، مأرب المدينة التاريخية العظيمة التي كانت اعظم مدن اليمن وابعدها شهرة ، ان العرب لم تذكر مـأرب ، الا عند مـا ذكرت انفجار السد الاكبر فيها ، وتفرق القبائل بعدانفجاره ، مع ان اليونان لم يكتفوا بذكرها بل صوروها باقلامهم تصويرا صادقا بليغا ، وهي عندهم «Lariana» كما صوروا « Sabatta » شبوة ، والقرن «Garnus» وغيرهـا من المدن الـتي

عاشت في ظلال العظمة والمجد ، في الزمن القديم .

على ان الامم والمدن التي ذكرها اليونان ، وحدهم ، لم يقدر المستشرقون ان يضعوا ايديهم على انقاضها ، الا بعد ان بذلوا راحتهم وذهبهم، وقضوا الاعوام الكثيرة يتمرغون في الرمال ويهامسون الانقاض .

حتى عثروا من النقوش ، على اكثر من الفين ، معظمها كتابات ونقود وتماثيل ، حملوها كلها الى اوروبا كما مر .

وحتى ظهرت لهم معين عاصمة المعينيين ، ونشق ، والقرن ، وظفار وشبوة ومدن اخرى لم يرد ذكرها في تاريخ من تواريخ العالم .

وخدمهم الحظ فعرفوا ملوكاً ودولا لم يعرفها المؤرخون ، وهكذا ترى التاريخ يرتقي من قمة الى قمة ، حتى يبلغ اخيراً ، بعد زمن قصير ، المستوى الذي يرغب فيه ، اهل المعرفة والعلم .

دولة معين

« يقول كتاب العرب قبل الاسلام » نقلا عن استرابون اليوناني في كلامه عن بلاد اليمن :

« يشمل القسم الجنوبي من جزيرة العرب اربعة شعوب . المعينيون « Minaei » وعاصمتهم قارانا ، والسبانيون « Sabaei » وعاصمتهم مأرب والقتابيون ، « Cataban » وعاصمتهم تمناء ، والحضرميون وعاصمتهم شبوه » .

وذكر استرابون في مكان اخر ان المعينيين كانوا يحملون التجارة الى بطرا مدينة الانباط ، التي ورد ذكرها كثيراً في الروايتين ، الحارث الاكبر ، وزينب ملكة تدمر .

وقال بلينيوس : كان المعينيون يقيمون ببلاد كثيرة الغاب والاغراس ووصف غيره من المؤرخين سلطتهم وتجارتهم الواسعة .

ولم يكن العلماء يعرفون « معين » ولا اكتشفوا انقاضها فذهب بعضهم الى ان المراد بلفظ « Minaei » نسبة الى منى قرب مكة ، وقال آخرون غير ذلك حتى ارتاد المستشرق هانيفي بلاد الجوف الجنوبي شرقي صنعاء واكتشف انقاض « معين » وقرأ اسمها عليها بالحرف المسند ، ، وبجانبها مدينة براقش ، فاتجهت اليها الانظار .

وبلغت النقوش الكتابية التي عثر عليها هاليفي في بلاد الجوف وحدها للاثمائة وثلاثة : تسعة وسبعون منها في معين نفسها ،ومائة واربعة وخمسون في براقش ، وسبعون في السوداء وهي « القرن » وكارنا او قارنا عند اليونان .

واكتشف مدينة نشق ، وهي « Nascus » عند اليونان ويسميها العرب الآن « البيضاء » فذهب هاليفي ووافقه غلازر وغيره ان « معين »عاصمة المعينيين وان هذه المدن التي اكتشفها هاليفي في الجوف مدن معينية ولا سيما براقش .

يؤيد ذلك ورود اسم معين وبراقش معاً في جملة ما ذكرته العرب من اسماء المحافد في الجوف . (المحافد جمع محفد وهو الموضع الذي يقيم فيه الخدم والاتباع)

ويقول الهمداني في كتاب الاكليل : محافد اليمن براقش ومعين وهما باسفل جوف الرحب ، وفيها يقول مالك بن حريم :

ونحمي الجوف ما دامت معين باسفله مقابلة عرادا

وقرأ هاليفي على الانقاض ، كثيراً من اسماء ملوك هذه الدولة وآلهتها وعادات اهلها حتى لم يبق هنالك شك في ان المعينيين ينسبون الى هذا المكان وهو الرأي الصادق المعول عليه .

وعثر المنقبون على اسماء ستة وعشرين ملكاً من ملوك الدولة ، يحمل معظمهم اسما واحدا ويتميز البعض عن الآخر بالالقاب اذا كان لملوكهم نعوت تفخيم على مثال ما يقولون : الغازي والفاتح ، والناصر والمنتصر وغير ذلك .

وقد رأى الاستاذ ميلر ، بعد درس النقوش ، وحل رموزها ان الابن كان يرث اباه في الجلوس على العرش ، وقد يتولى الوالد والولد امر الملك في وقت واحد، وان هؤلاء الملوك كانوا يعرفون في اول عهدهم بلقب « مزواد ، كما كان ملوك

سبأ يسمون « مكرب » . ولعل هذين اللقبين يتضمنان معنى الكهانـــة والملك ، كما كانت الحال في بابل ، ايام الامارات الصغرى .

وامتد نفوذ هذه الامة في ابان دولتها ، الى شواطىء البحر المتوسط وشواطىء خليج العجم وبحر العرب ، اي انها بسطت سلطانها فوق الجزيرة ويظهر انها لم تكن دولة استعمار وفتـــح بل دولة تجارة كما كانت دولة الفينيقيين على شواطىء سوريا ، ودولة الانباط في بطرا .

وثبت ان ذلك السلطـــان شمل اعالي الحجاز بدليل تلك النقوش المعينية التي عثروا عليها في العلاء قرب وادي القرى ، وفي الصفا ، وفي حوران في الشمال .

ولكن لم يكن هنالك اثر تاريخي يثبت زمان نشأتها ، بل استدلوا عـــلى قدم عهدها بالنقوش التي ذكرنا .

وقد فهم من كتابة قرأها غلازر ان السبائيين « دولة سبأ » افنوا المعينيـــين واستولوا على ما كان لهم يوم كان اولئك الملوك يلقبون « مكرب » وان القوم ظلوا يتعاطون التجارة على عاداتهم فقد ورد ذكرهم في اواسط القرن الثاني قبل الميلاد ودولة سبأ في عنفوان المجد .

ويرى الاستاذ ميلر ايضاً ، ان كارنا التي ذكر استرابون انها عاصمة المعينيين كانت عاصمتها الحديثة ، وان «معين» عاصمتها القديمة .

ولغة المعينيين كثيرة الشبه بلغة حمير ؛ وحروفها واحدة تقريباً لكنها تختلف عنها اختلافاً واضحاً في ضمير الغائب . .

وبنو معين اقدم من بني قحطان ، في اليمن ، فقد ورد ذكرهم في سفر الاخبار الثاني الاصحاح ٢٦ حيث يقول :

« واعانه الله اي عزيا ، على الفلسطينيين وعلى العرب المقيمـــين بجوار بعل وعلى المعونيين » وقد يكون هذا الشعب اقدم من ذلك ايضاً لانهم عثروا عـــلى امة بهذا الاسم ذكرت في آثار بابل بين اخبار نرام سين سنة ٣٧٥٠ قبل المسيح .

فلما دالت دولة بابل ، غادر المعينيون العراق واتخذوا لهم بلادا يقيمون بها فطابت لهم الاقامة بالجوف وبنوا الحصون والقصور على العادة التي الفوهـــا في

بابل،ثم جعلوا يتاجرون ويطوفون في الاقاليم ، ثم اضطروا الى الكتابة فاقتبسوا الابجدية الفينيقية لسهولتها ودونوا بها لغتهم .

وبتوالي الاجيال تنوعت تلك اللغة حتى صارت الى الحرف المسند .

وقد ساعدهم تمدنهم البابلي في نشر نفوذهم ومـــد رواق ملكهم قبل ان تنشأ دولة سبأ .

وللعلماء آراء في يقين عمر هذا الشعب ، فذهب بعضهم الى انه يبدأ في القرن الرابع عشر ، ويقول «Dassaud» ان البعض الآخر يذهب الى انه يبدأ في القرن السابع والثامن قبل المسيح .

والثابت من الآثار ، ان اصل ذلك الشعب بابلي .

دولة سبأ

يقول المسعودي : ان دولة سبأ عاشت ٤٨٤ سنة ثم جاءت بعدها دولة حمير .

ولكن العرب واليونان لم يذكروا احـــدا من ملوك هـــذه الدولة بل اكتفى اليونان بان قالوا ، حوالى تاريخ الميلاد ، ان السبائيين امـــة من اكبر الامم في اليمن ، عاصمتها «أرب» ، ووصف استرابون هذه العاصمة ، واحوال التجـــارة والاجتماع كما تقدم .

والمعروف عند العرب، ان سبأ ، من ولد قحطان ، وقحطان ابو اليمن كلها. ويزعم بعضهم ان « قحطان » تعريب يقطان من ابناء سام بن نوح وليس لنا ان نبحث في هذا .

على ان الآثار اظهرت للناس ان هذه الدولة لم تكن معروفة قبل الجيل الثامن ، قبل الميلاد ، اذ لم يجدوا اثرا واحداً يدل على انها كانت قبل ذلك العهد .

اجل ، يجوز الظن ان امتهم اقدم عهدا ، ولكن الدولة لم تكن كذلك ، ونحن انما نعني في هذا البحث ، دولتهم ليس غير .

كما انه يجوز الظن ، ان هؤلاء « القحطانيين » عرب نزلوا الحبشة ، في الزمان

القديم ، بطريق صحراء مصر الشرقية التي كانت قسما تابعا جزيرة العرب ثم عبروا مضيق باب المندب الى اليمن ومكثوا فيها اجيالا طويلة لا يسمع لهم صوت حتى كثروا وظهرت قوتهم فانشأوا الدولة .

وقد يكونون من عمالقة مصر الذين ظفر بهم المصريون فلجأت طوائفهم الى بلاد الحبشان ، ثم انتقلت منها الى القطر اليمني فدان لهم اهله .

وليس هنالك وجه للغرابة ، فالحبشة اقرب جيران اليمن ، والاتحاد الذي بين البلدين قديم جداً ، حتى انهم كانوا يعدون اليمن جزءاً من اثيوبيا .

ويجب ان تعلم ان لفظتي تبع وحمير حبشيتان ،الاولى معناها القادر والثانية « ظلام يخالطه بياض » وذلك لون بشرة الحبشان ...

آشور وسبأ

ذكر الاستاذ ميلر ، انه ورد ذكر دولة سبأ في اخبار آشور ، على قرميدة ذكرت فيها الامم التي تؤدي الجزية الى الملك الآشوري سرجون الثاني « ٧٢١ ــ ٧٠٥ قبل المسيح » وبين هذه الامم او الدول ، فرعون ملك مصر ، وشمسية ملكة العرب ويثعمر ملك سبأ ، ذلك الملك الفاتح اسرحانو ملك غزة .

ان هذا القول يثبت ان السبائيين كانوا دولة ، في الجيل الثامن قبل يثعمر ملك سبأ .

اما عدد ملوك سبأ الذين قرأوا اسماءهم على انقاض مدينتي مأرب وصرواح فاكثر من ثلاثين ملكاً ، عرف من القابهم انهم تدرجوا في الحكم من الامارة الصغيرة او الكهانة الى الملك الواسع الضخم .

ويظهر ان هؤلاء القحطانيين كانوا من قبل امراء اصحاب قصور ومخالف كما كان المعينيون ، فلما نبغ « سبأ » صاحب قصر صرواح شرقي صنعاء ، وكان قوياً ، مد يده الى ملك جيرانه فاستولى عليه ، ثم نهض خلفاؤه بعده فحطموا

عرش المعينيين ، وانتقلت عاصمتهم من صرواح الى مأرب .

وللدولة سبأ اربعة ادوار فيما يعني سعة الملك ، فقد كان الملك منهم في الدور الاول يدعى مكرب سبأ ، ثم دعي في الدور الثاني ، ملك سبأ ، ثم قالوا : ملك سبأ وريدان ، « وريدان »مقاطعة كبرى في اليمن ، ثم قالوا : ملك سبأ وريدان وحضرموت .

وهذا معنـــاه انهم كانوا في اول عهـــدهم مكارب ، ثم ارتقوا فصاروا ملوكاً ، ثم توسعوا فصاروا ملوك سبأ وريـــدان ، ثم امعنوا في التوسع فضموا حضرموت الى الملك .

وقد رأى صاحب كتاب العرب قبل الاسلام ، نقلا عن غلازر وسواه من المستشرقين ، ان يجعل هذه الادوار الاربعة دورين اثنـــين ، يشمل الاول منهما المكارب والملوك ويسميه دولة سبأ ، ويشمل الثاني ملوك سبا وريدان وحضرموت وهو العصر الحميري .

العصر السبائي

لم يستطع المؤرخون ان يعينوا الجيل الذي ظهرت فيه دولة سبأ ، فاذا كان « يثعمر » الذي دفع الجزية لسرجون الآشوري اول ملوكها كان ظهورهـــا في الجيل الرابع قبل الميلاد .

ولكن ، تجيء التوراة فتذكر ملكة سبأ في ايام سليمان اي في القرن التاسع ، وهذا يفضي الى الاعتقاد ان العرش السبائي كان موجودا قبل يثعمر .

على اننا لا نعلم اذا كان التاريخ المقدس اراد بلفظة «سبأ» جزيرة العرب .

ومع ذلك فالقول ان الدولة وجدت في الجيل التاسع والثامن لا نعبأ به ،لان الشك يكتنفـــه من جميع النواحي ، بل نعبأ بالقول الصريح الذي قامت حوله الشواهد التي لا ترد .

اجل : وعلينا ان نكتب الحقيقة التي لا يكتنفها الريب ، ونرسلها الى القارىء

حلية ظاهرة تغذي نفسه ، ونحن مستندون الى مـــا يستند اليه العالم الراقي ، من الآثار الصادقة الحاملة الى هذا الجيل ، اخبار الاجيال التي طواها الزمان .

لقد نقلت النقوش والآثار الى الاجيال الحاضرة ، اسماء سبعة وعشرين ملكاً من ملوك « العصر السبائي » الذي تقدم العصر الحميري .

وقالوا ان عمرهم كان سبعة اجيال .

ثم نظر غلازر ، في امر الجيل الذي انتقلت فيه الدولة الى حمير ، فثبت له ان ملوك سبأ انتهوا سنة ١١٥ قبل المسيح ، وفي ذلك التاريخ ظهرت دولة حمير .

اما سبب انقضاء دولة سبأ ، فمثل جميـــع الاسباب التي تنتهي بالدول الى الاضمحلال .

كانوا اصحاب تجارة وعز ، نشروا تجارتهم في الهند والحبشة ومصر والعراق والشام ، وشادوا الحصون والقصور والهياكل وجعلوها في فنهم من الاعاجيب ومهدوا طرق البادية وحولوا الصحاري الى جنات غناء .

ولكن تجارتهم نزلت عن عزها ، بتحولها من البر الى البحر في اواخر الجيل الثاني ، قبل الميلاد .

وكان اصحاب ريدان وهم من حمـــير ، فرع من سبأ ، قـــد اشتد ساعدهم ووفر مالهم ، وامتد نفوذهم ، وريدان اقرب الى البحر من الجنوب ، فوثبوا الى العرش السبائي فقذفوا به الى هوة الفناء . ثم بنوا عرشهم الرفيع العالي على انقاضه

وكانت عاصمة سبأ ، صرواح ، فلما انشأوا الدولة بنو مأرب واسمها سبأ ايضا فدعي سيدهم مكرب سبأ ، ونقل الى عاصمته الجديدة عرش الملك .

ومن الواجب ان تعلم ، ان جميع نقوش واثار العصر السبائي التي نقلوها الى اوروبا ، لم يعثر فيها على اسم الملكة بلقيس ، التي اراد بعض المؤرخين ان يجعلها من ملوك الدور الاول ، بل التي اراد ان يجعلها « ملكة سبأ » التي زارت سليمان في فلسطين ، ولكن عثر على اسمها بين ملوك الدور الثاني الذي هو العصر الحميري ، والذي ابتدأ سنة ١١٥ قبل المسيح كما قرأت .

اذن فبلقيس التي نكتب روايتها ، ليست هي « ملكة سلـــيمان » بل لا تعرف

سليمان ولا يعرفها وليس بينهما عهد ، ان سليمان من اهل الجيل التاسع قبل المسيح وبلقيس هذه من اهل الجيل الرابع بعده وبينها وبينه اكثر من اثني عشر جيــلا كما ترى .

نعم لقد وردت قصة بلقيس ملكة سبأ ، مع سليمان في معظم تواريخ العرب ، ولكن ليست بلقيس هذه بطلة روايتنا وليس لنا بها شأن . وستقرأ كل ما يهمك الاطلاع عليه في الفصول التي تجيء .

العصر الحميري

حمير عند العرب ، ابن سبأ .

على ان المؤرخين اليونان لم يذكروا الحميريين في كتبهم الا في اواخر الجيــل الاول قبل المسيح .

والثابت ، كما قرأت ، ان الحميريين كانوا قبل ذلك التاريخ باجيال ، اصحاب ريدان ، وهم امراء ليس لهم من النفوذ ما يحجب نفوذ السبائيين .

حتى آنسوا غفلة الزمان ، فسلبوا الملك السبأي تاجه ، وضموا دولته الى مــا يملكون ، ثم اصبح لقب سيدهم « ملك سبأ وريدان » .

وليس بين الدولتين ، سبا وحمير ، تشابه في النظام والمبدأ الا من بعض الوجوه فدولة سبأ دولة تجارة ، ودولة حمير دولة تجارة وفتح ، وقد لمع بين ملوكها افراد هم المثل الاعلى في قيادة الجيوش وحكمة الحرب ، بل هم الابطال الميامين ، الذين يقل وجود مثلهم في كل جيل .

نقول هذا ونحن معترفون بان هناك غــلوا في ايراد قصصهم نشير اليــه ولا نكتمــه . . .

اجل ، واولئك الابطال الذين خلدت الكتب فعلهم ، حاربوا الفرس والحبشة وغيرهما من دول ذلك الزمان ، وكانوا في معظم حروبهم القادة الظافرين الذين كتبوا اسم اليمن على صفحات المجد والفخار .

ولدولتهم دوران كما عرفت ، دور ملوك ؛ « سبأ وريدان » ودور التبابعة ، ملوك سبأ وريدان وحضرموت .

وقد ذكرنا لك ، ان ذا جدن اخر ملوك التبابعة ، استولت الحبشة على بلاده سنة ٥٢٥ بعد المسيح .

فيكون عمر العصر الحميري ، من سنة ١١٥ قبل الميلاد ، الى سنة ٥٢٥ بعده ، ستمائة واربعين سنة .

نصف هذه المدة « تقريبا » للطبقة الاولى من الملوك ، والنصف الإخر للطبقة الثانية التي هي التبابعة .

على ان الحارث الرائش ، الذي هو اول التبابعة في نظر مؤرخي العرب ، لم يعثر على اسمه في النقوش الباقية ، بل كان « الملك شمر يرعش » اول ملوك الطبقة الثانية اي تبع الاول .

وقد تربع في العرش سنة ٢٧٥ وبقي عليه خمسا وعشرين سنة .

اذن لم يبق لنا الان ، بعد درس آراء المستشرقين ، وقراءة الآثار المحفوظة في متاحف اوروبا ، الا الاعتراف الصريح الجريء ، بان العصر الحميري الثاني عصر التبابعة ، لم يبدأ الا في اواخر الجيل الثالث كما تقدم .

وشمر يرعش اول ملوكه ، وهو في نظر حمزة الاصفهاني الملك الثامن بعد الحارث الرائش ، اي « تبع الثامن » .

على ان حمزة وسواه من المؤرخين ، اجمعوا على ان شمر يرعش اعظم التبابعة واشهرهم وابعدهم نفوذا ، وانه دخل العراق وفارس وخراسان فاتحا مظفرا تستسلم اليه الملوك وتنحني له الرؤوس .

وستقرأ اسماء التبابعة في غير هذا الموضع من الليالي ، قبل ان نبدأ بالاسلوب الروائي . . .

الحبشة في اليمن

ليس في التاريخ العربي ذكر لاستيلاء الحبشان على اليمن الا في ايام ذي نواس، اي في اوائل الجيل السادس للميلاد .

بل ليس في التاريخ المشار اليه ، ذكر لصلة تجارية اقتصادية بين الامتين . مع ان الامتين كانتا في نظر العالم القديم ، امة واحـدة ، حتى ان « رنان » يقول ، نقلا عن الاستاذ « سالت » والاستاذ « ريتر » وغيرهما من العلماء : ان الحبشة مهد الساميين واصل منبتهم .

ويقول اخرون : ان الحبشان عرب ، نزحوا الى الحبشة من اليمن قبل عصر التاريخ ، يؤيد قولهم تشابه اللغتين ، واحرف الكتابة التي تكاد تكون واحـدة عندهما .

وهنالك رأي ، ان دولة سبأ حبشية الاصل ، قدم رجالها اليمن قبل المسيـح باجيال ، وبقيت الصلات محترمة بين الامتين .

ولكن ، لم يظهر الى اليوم . برهان يؤيد هذا الرأي .

ويظن البعض ، ان طائفة من الحبشان، وضعت يدها في الجيل الاول قبل المسيح على شاطىء اليمن الجنوبي عند « مهرا » ومعها السلاح والجند تعد العدة للوثوب عندما يغمض القدر عينيه .

على ان الاستاذ ميلر يقول : ان طمع الحبشة في اليمن لم يثبت للمؤرخين الا في اوائل الجيل الثاني بعد المسيح ، حيث زحف نجاشي « النجاش تعريب نجوس بالحبشة اي ملك » الى شواطىء اليمن راغبا في فتـح ذلـك القطر الزاهر الغني بكل شيء .

يثبت ذلك كتابة محفورة على صخر في « زيلع » .

وفي اواخر الجيل الثالث ، زحف نجاشي اخر فاتحـا مدمرا واستولى عـلى بعض اليمن وبعض تهامة ، وجعل بلاده والاقـاليم التي دانت له ، بلدا تجـاريا واحدا لها نظام واحد .

لكن الحميريين لم يستسلموا الى الذل ، فقد استطاعوا ان يخرجـــوه من بلادهم ويسترجعوا شرفهم بعد حين .

ومضى على ذلك الحادث نصف جيل ، فساقت الحبشة خيلها من جديد الى ارض حمير تطأ بحوافرها معظم اليمن ، وتهدم وتدمر ما طاب لها الهدم والتدمير ، لا تبقي على شيء .

وهو فتح عظيم قرأوا آثاره واخباره بلغة اليونان ، على ابنية اكسوم عاصمـــة الحبشان ، ودعي النجاشي بعد ذلك الفتح « ملك اكسوم وحمير وريدان واثيوبيا وسبأ وزيلع الى اخر ما هنالك من الالفاظ »

وقد عثروا على اثر كتب بلغة الحبشة في ذلك الزمن فيه ان النجاشي « مـــلك اكسوم وحمير وريدان وسلحين »

ثم كثرت الوقائع بين الامتين في الجيل الرابع وكانت الحرب سجالا بينهما حتى انتهت اخيرا الى تخلي الحميريين عن الملك بضعة وعشرين عاما استعادوا خـــلالها القوى واسترجعوا ما كانوا يملكون .

وقد عرفت مما مضى كيف فتـــح الحبشان اليمن في اوائل الجيـــل السادس وكيف سلبهم اياها الفرس بعد حين ورفعوا ابن ذي يزن الى العرش .

حكومات اليمن

لقد ذكرنا لك ان اليمن كانت في القديم مخاليف ، اي اقضيـــة تختلف في السعة والكبر .

وكانت هذه المخاليف مقسومة الى محافد ، جمع محفد ، وهو الموضع الذي يقيم به الخدم والاعوان والاتباع .

وفي المحفد قلاع وحصون وقصور يحيط به سور له ابواب الحجر والحديـــد وفي اعظم قصوره يقيم اميره وصاحب الامر فيه .

ويعرف هذا الامير بلفظ « ذو » يضاف الى اسم المحفد فيقال ذو غمران وذو

صرواح اي صاحب غمدان وصاحب صرواح ، كما كانت الحال في اوروبا وفي هذه البلاد ، في ايام الاقطاع .

ولهذه المحافد حكومات تقوم بنفسها على نظام « اللامركزية » وقد يستقوي احد اولئك الامراء فيستقل ويستأثر بالحكم لا يعبأ بالاخرين ثم يمد يده الى المحافد التي تقوم في جواره فيضمها الى محفده ويقال عندئذ لمجموعها مخلاف ويرتقي لقب « ذو » فيصير « قيل » جمع اقيال كأنك تقول : ملك صغير .

وينسب المخلاف الى المحفد الذي يقيم به هذا الملك الصغير ، وقد يصبح القصر او المحفد ، بعد ظهور الدولة ، مدينة وقد تتغير الاسماء كما جرى في قصر ريدان الذي امسى مدينة « ظفار » وسلحين الذي تحول الى مدينة مأرب .

وهؤلاء الاقيال ، او الملوك الصغار ، يتحاربون ويتنازعون السلطان ، على مر الايام ، جريا مع الطمع والطموح اللذين يملان الصدور ، فينتهي ذلك التنازع بالفشل او الفوز ، على قدر همة الغازي الطامع وقد يرجع هذا الطامع عن غزوه لعذر لا يصح ان يكون سببا للرجوع .

ولم يكن لملوك المخاليف نظام خاص يسمونه نظام العرش ، بل لم يكن لهم في سيادتهم رابط يحترمونه وشريعة يتبعونها .

نظامهم الغزو ، وشريعتهم السيف الذي هو اصدق الشرائع . . . والقوة ، سيدة الاحكام ، والضعيف ــ ويل للضعيف ــ لا يقدر ان يتمتع بالحق الذي يتركه له اباؤه . . .

وقد ذكر الطبري شيئاً من هذا بقوله :

يكون الرئيس في اليمن ملكا على مخلاف لا يتجاوزه ، وان تجاوز بعضهم عن مخلافه بمسافة يسيرة من غير ان يرث ذلك الملك من اباته ولا يرثه ابناؤه انما هو شأن شداد اللصوص يغيرون على النواحي باستغفال اهلها فاذا اقعدهم الطلب لم يكن لهم ثبات . كذلك كان امر ملوك اليمن ، يخرج احدهم من مخلافه بعض الاحيان ويبعد في الغزو والاغارة فيصيب ما يمر به ثم يتشمر عند خوف الطلب زاحفا الى مكانه من غير ان يدين له من احد من غير مخلافه او يؤدي اليه خراجا» .

وكانت اسباب العيش في اليمن موفورة للناس بنوع عام ، وللامراء بنـوع خاص ، اعظم هذه الوسائل واصدقها التجارة .

واليمن تقع بين الحبشة والهند ، وبـلاد الصومال ومصر ، والشام والعراق ، فكانت تجارتها تنقل الى هذه الاقطار في طرق يعرفونها ، بقوافل كبيرة يرأسها « الاذواء » او الاقيال ، حتى اذا عادوا الى اليمن بعد سفر تطول ايامه ، حمـلوا الذهب بالاكياس .

وعلى تعاقب الرحلات والاسفار ، يكثر مال الملك الصغير ، ويبعد صيته ، فيبذل لمن حوله بعض ماله ، ثم يمد رواق سلطانه فوق جيرانه ، ثم يتوسع فيجاوز اولئك الجيران الى المخاليف التي تبعد عنه فيدين اهلهـا له ، ثم يخلق دولة ويبني عرشا ، يطول عمر هذا العرش او يقصر ، ويتولى الامر بعده ابناؤه واحفـاده ، على قدر ما يبسم لهم الحظ .

هكذا انشئت دول المعينيين والسبأيين والحميريين ودول غيرها لم يذكر التاريخ عنها شيئا يستحق الذكر .

وقد يبقى بعد ظهور الدولة ، مخاليف ومحافد عليها الاذواء والاقيال ، يتبع بعضها الملك المتوج ، ويحفظ البعض الاخر شيئا من الاستقلال فيه الخوف الدائم والضعف ... مع الاعتراف بسيادة الدولة .

اما اشهر المحافد التي كان لها الشأن في اليمن ، فغمدان وصرواح ، وسلحين وناعظ وتلغم وظفا . وبراقش ، ولا نعدها كلها اذ ليس لنا حاجة الى ذلك .

وبعض هذه المحافد او القصور ، بقي الى ما بعد الاسلام ، وذكرتـه العرب كما بقي نفوذ اصحابها وثروتهم الى اوائل القرن الثـاني للهجرة على ما يقـول ابن خلدون .

تمدن الجزء الجنوبي الشرقي

جاء في الجزء الاول من كتاب العرب قبل الاسلام ، ، نقـلا عن الهمداني وسترابون وميلر وغيرهم ، ان اهل اليمن كانوا كما رأيت ، اهل تمـدن ودولة ،

لشبه دول معاصريهم في آشور وفينيقية وفارس ومصر ، وكان تمدنهم هذا صورة مصغرة عن تمدن « حمورابي » الملك البابلي العربي الذي تقدم ذكره ، في احـــدى رواياتنا السابقة .

اجل ، وهذا التمـــدن الذي ذكره العرب والمستشرقون ، ثابت ظاهـــر كالشمس ؛ في المدن والهيا كل والقصور التي بنوها ، وفي السعـــة والترف اللذين انبسطوا فيهما .

على ان تمدنهم القديم لم يكن حربيا كتمدن آشور وفارس ومصر ، بل كان تجاريا كتمدن الفينيقيين ، في تجارتهم بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب .

وكانوا اهل عناية وجهـــد في كل مـــا يصنعون . يستثمرون ارضهم بغرس الشجر والحبوب ؛ ويحفرونها ليضعوا ايديهم على المعادن التي فيها ، ويعالجون الطيوب والعطور حتى يستقيم لهم امرها ، ثم يركبون الخيل والبغال في القفار ، والسفن في البحار ، ينقلون سلعهم الى العالم البعيد .

وانقضت اجيال كثيرة كانوا هم وحدهم فيها تجار العالم ، كما كان الفينيقيون في اجيال اخرى .

ونحن نكتب لك الان ؛ شيئاً عن انظمتهم واجتماعهم وعاداتهم قبل ان ينصرف ذهنك كله الى ما ستقرأ من الحادث الروائي .

كان الملك ، رأس الحكومة في ايامهم ، كما هو رأس كل حكومة ملكية اليوم . وكان مطلق اليد لا يرد له امر وليس عنده وزراء ومستشارون يشاركونه في الرأي ، اللهم الا رجال بلاطه واعوانه الذين نستطيع ان تسميهم كما تشاء .

ولم يكن يخرج من قصره في « مأرب » او غيرها من العواصم الا لحادث او فتح جديد .

والدول التجارية لم تكن تعبأ كثيرا بتجنيد الجند وتنظيم اموره ، لانصرافها الى الفتح التجاري وحده ، بل لم يكن جندها غير طوائف قليلة تدافع بهـــا عن العرش عند الحاجة ، وتتخذها درعاً لحماية القوافل في الاسفار .

بلى ، كانت تجند الناس للتسخير ، في بناء المدن والقصور وفي انشاء السدود

التي هي حياة اليمن ومنبع البركات .

والعرش عندهم في الدول الكبرى التي ذكرناها ، يتوارثه الابناء وقد يتوارثه الاخوة ، الا حضرموت ، فقد كان نظام العرش فيه قبل النصرانية ، غريبا كما يقول استرابون .

نعم كان الملك في حضرموت ؛ غريباً بصورة دائمة ، عن الاسرة المالكة وكان النظام يقضي بان ينتقل التاج ، بعد موت الملك ، الى اول مولود من الاشراف يجيء الى هذا العالم ، في اثناء ملكه .

والعادة في ذلك انهم يرفعون الى الملك ، على اثر تتويجه ، اسماء النساء الاشراف الحوامل فيجعل لكل منهن الجواري يراقبن وضعها ويعلن ايتها كانت السابقة الى الوضع ، فاذا وضعت غلاما ، امر بالعناية به وتربيته كما يربى ولي العهد ...

وقد ضرب الملوك اليمنيون نقودا نقشوا عليها صورهم واسماءهم واسماء المدن التي ضربت فيها بالحرف المسند ، وتوجودا برمز سياسي او اجتماعي كصورة البومة أو الصقر او رأس الثور رمز الزراعة او صورة الهلال الذي هو رمز ديني ، وفي متحف فينا مجموعة كبيرة من هذه النقود .

ويستدل من صورهم على النقود ، انهم كانوا يجعلون شعرهم جدائل يرسلونها على الاكتاف او الظهور او الخدود ، كما يستدل انهم لم يكونوا يرسلون اللحى والشوارب ، فهم يشبهون المصريين والحبشان في هذا اكثر مما يشبهون الاشوريين ؛ وهذا فيه بعض الظن ان اصل السبائيين من الحبشة .

وكانوا اذا ارادوا الخروج لصيد او لامر ، ركبوا الافراس عليها السروج واللجم من الذهب ، والمركبات تجرها الخيل او الافيال .

وذلك مظهر من مظاهر ملوك الحبشة في ركوبهم .

وقد روى تيوفان ، خبر الوفد الذي ارسله يوستين قيصر الى الملك الحميري في اوائل الجيل السادس للميلاد ، واسم رئيس الوفد يوليانس ، قال :

« رأى الملك واقفا على مركبة يجرها اربعة افيال وليس عليه من الثياب غير متزر محوك بالذهب حول حقويه وفي ذراعيه الاساور الذهبية الثمينة .

وكان يحمل بيده اليمنى ترسا ورمحين « ولعلها الصولجان عندهم » وحوله رجال حاشيته عليهم الاسلحة ينشدون له اناشيد الاطراء والشكر .

فلما اقبل سفير القيصر ، ناوله الكتاب ، فقبله ثم قبل السفير ، وقبل الهدايا التي يحملها اليه »

وقد جاء في الكتاب ان القيصر يسأله ارسال رجاله لارجاع الفرس عن حدود بلاده ، ويحفظ طريق التجارة مفتوحا لاهل الاسكندرية .

طبقات الامة

اما الامة فطوائف اربع ، الجند المسلح لحفظ النظام وحراسة القوافل والقلاع وطائفة الفلاحين الذين يستثمرون الارض ، والصناع والتجار ، ولكل طائفة منها حدود لا تجاوزها وقد لا تجد رجلا ينتقل من هذه الطائفة الى تلك .

ولعل اغرب ما ذكره استرابون ، تلك الاشتراكية الغريبة عند اولئك العرب المتمدنين ... اسمعوه يقول :

« يشترك افراد كل عائلة في الاموال والمتاع ورئيسهم اكبرهم سنا ...

وليس هذا القول غريباً كما ترى ، لكنه يعود فيقول :

« والزواج مشترك عندهم يتزوج الاخوة امرأة واحدة فمن دخل الى حجرتها ترك عصاه بالباب ... ومن تزوج من غير عائلته عوقب بالموت » .

ثم يورد حكاية يثبت فيها قوله ، لا نجد ما يدعونا الى نشرها ...

الفلاحون

هم الطائفة الاولى في العدد ، وهم اركان عمران القطر اليمني وغناه .

جعلوا الجبال سهولا زاهرة وحولوا الرمال الى بساتين ، وغرسوا في ارض اليمن من الاشجار والازهار ، ما جعلها جنات غناء كما قرأت .

وليس في اليمن انهار .. ولكن تلك السدود (الخزانات) التي بنوها في الاودية والباقية انقاضها الى اليوم ؛ كانت بحرا فياضا يروي ماؤه الارض الجدباء فيصير الجدب خصبا .

اجل ، والعرب اول من بنى السدود يحفظون فيهـا للصيف ، ميـاه الشتاء ويرسلون تلك المياه في أقنية طويلة عجيبة تسقي سفوح الجبال وما يجاور الاودية من السهل .

ويستغرب المرء اليوم ، عندما يرى تلك المواضع التي كانت فيهـا من معين وسبأ وحمير ، رمالا محرقة ، وجبالا جرداء ، نعم يستغرب ذلك وهو يقرأ عنها في كتب الفرنج والعرب انها كانت في عهد ذلك التمدن الذي وصفوه ارضـا تنبت لاهلها البركات .

وارض اليمن ، اخصب بلاد العرب على ما يقول استرابون ، وعلى مايذكر الهمداني الذى رأى بعينيه ، ولمس بيديه .

الصنائع

كانت صناعة اليمن قائمة بصنع الطيوب والسيوف وبعض الاسلحة ليس غير؛ ولم يكن ، بين الامم القديمة من يجاري اليمنيين في صناعتهم هذه .

وفي اليمن ، البخور ، واللبان ، والمر ، والبلسم ، يجنون كل هذه الانـواع بجهد وتعب ، ويرسلونها طيبة حسنة الى جميع الاقطار .

اما المعادن فكثيرة جدا وارض العرب فيها الذهب بالقناطير . وقد كان ذهبها سببا لطمع الفاتحين في العصور التي تقدمت الميلاد .

المدن

لقد رأيت ان المدن كانت عامرة وكثيرة في ذلك الزمان ، اعظمها كلها مأرب ثم يجيء بعدها في العظمة ، معين وبراقش وناعط وبلبون وشبوة وظفار وغيرها . وكل واحدة منها ، بما فيها من قصور وهيا كل وقلاع اعجوبة في الزخرف والفن ،

ويقول استرابون وغيره ان قصورها تشبه في وضعها وبنائها قصور مصر حتى ان زخرفها يكاد يكون واحدا .

ويظهر ان الشعب اليمني ، كان مولعا بالبناء واقامة الاثار الخالدة لآلهته مثل جميع الشعوب التي لم تزل هياكلها الجبارة مظهرا من مظـاهر الاحترام الديني والمدنية التي لا يبليها الدهر .

ولعل آلهة اليمن اوفر حظا من آلهة البابليين والمصريين ، بدليل انهم بنوا لها في مدينتين اثنتين ـ ناجية وتمناء ـ خمسة وستين هيكلا وفي شبوة عاصمة حضرموت وحدها ستين هيكلا ليس غير ... !!

ونحن لا نستطيع ان نصف لك جميع المدن التي ذكرها المؤرخون ؛ بل نصف لك مأرب ـ صناعة بلقيس ـ كما عرفناها ؛ لتلمس بيديك تلك العظمة التي جعلتها في صف المدن الكبرى بل التي جعلتها محجا للعلماء والمؤرخين .

مأرب ، « التي يقال لها سبأ » لفظة آراميـة هي ماء وراب اي المـاء الكثير سميت كذلك لان المياه كانت تنحدر الى سدها العظيم ، في وادي اذنة القائم على جانبها الشرقي .

وتثبت الانقاض والاثار ، انها كانت مستديرة قطرها لا يجـاوز الكيـلومتر الواحد ولها سور ضخم يدخل منه من بابين ، احدهمـا من الشرق والاخر من الغرب كما كانت الحال في جميع المدن التي تشبه مأرب .

وعلى ذلك الباب الغربي ، كتابة ذكر ميلر تفسيرها .

« هذا بناه يثعمر بن سمهعلي ينوف مكرب سبأ »

وفي قلب مأرب ، انقاض هيكل عظيم يدعوه اهل تلك الناحية اليـوم ، هيكل سليمان وفي مأرب يقول الطمحان :

اما ترى مأربا ما كان احصنه   وما حواليه من سور وبنيـان

واغرب ما تقرأ وتسمع ، ان قصور مأرب كانت من الرخام !! وهي قصور الملوك الذين استووا على عرشها ، يبني احدهم فيها قصرا يقيم به ويجعله بلاطا له، لم يجيء غيره فيبني غيره حتى امسك قصورها كبيرة ،منها سلحين ، قصر بلقيس،

والنهجر والقشيب وفيها قال علقمة .

رمنا الذي دانت له الارض كلها بمأرب يبني بالرخـــام ديارا

وقد طاف الهمداني بين انقاض مأرب في الجيل الرابع للهجرة فـــذكر في كتاب الاكليل اعمدة عرش سلحين قائلا :

انها لا تزال قائمة ولو اجتمع جيل على ان يصرعوا واحدا منها لم يقدروا لانهم نقبوا لكل عمود في الصخر وصبوا النحاس في اسفله »

نعم ان قصر سلحين يسمونه قصر بلقيس ، وهو اعظم قصور العاصمة وقد اشار اليه علقمة بقوله :

وقصر سلحين قـــد عفاه ريب الزمـــان الذي يريب
تعوي الثعاليب في قراهـــا ما في مسا كينهـا غـريب

ويقول فيه علقمة ايضا ، وقد ذكره الاستاذ ميلر :

اوما ترين وكل شيء للبلا سلحين خاوية كأن لم تعمر

وهنالك اثر آخر لبلقيس ، يقال له حرم بلقيس ، لا يبعد كثيرا عن مأرب وهذا الاثر احد هيا كل العبادة .

وعظمة سلحين وزخرفه ، وكثرة قاعاته ومقاصره ودهاليزه تكاد تضيع كلها عندما تذكر قصر غمدان في صنعـاء ، وقـد وصفناه لك في رواية الحـــارث الغساني .

ولكن ننشر لك شيئاً عنه ، فقد يكون بين انصار الليالي من لم يقرأ روايـة الحارث التي ذكرناها .

اثبت ارنو وهاليفي وغلازر ، ان الهمداني صادق في كل ما ذكره عن اثار اليمن بدليل انهم شاهدوا تلك الاثار بعد ان وصفها في كتابه .

والهمداني يقول في وصف غمدان :

ان بانيه اليشرح يحصب ، « من ملوك الجيل الاول للمسيح » وظل قائماً الى ايام الخليفة عثمان بن عفان « رضي الله عنه » في اوائل القرن الاول للهجرة فيكون عمره اذاً اكثر من ستمائة سنة .

كان غمدان عشرين سقفاً غرفاً بعضها فوق البعض الآخر « اي عشرين طابقاً مثل الابنية التي تراها اليوم في نيويورك وغيرها » .

وبين كل سقفين عشرة اذرع ، وان بانيه لما بلغ غرفته العليا اطبق سقفها برخامة واحدة شفافة وكان يستلقي على فراشه في غرفته فيمر به الطائر فيعرف الغراب من الحدأة « الشوحة » وهو تحت الرخام ، وكان فيه اربعة تماثيل اسود من نحاس مجوفة، رجلا الاسد في الدار ورأسه وصدره خارجان من القصر ، وما بين فمه الى مؤخره حركات مدبرة ، فاذا هبت الريح ودخلت اجواف الاسود لسمع لها زئير كزئير الاسد ، وكانت غرفة الرأس العليا التي هي في مجلس الملك اثنا عشر ذراعاً ولها اربعة ابواب قبالة الصبا والدبور والشمال والجنوب عندكل باب منها تمثال من النحاس اذا هبت الريح زأر .

وكان فيها ستور لها اجراس اذا ضربت الريح الستور تسمع الاصوات من بعيد ، ومما قيل في وصف غمدان :

يسمو الى كبد السماء مصعدا	عشرين سقفا سمكها لا يقصر
ومن السحاب معصب بعمامة	ومن الغمام منطق ومؤزر
متلاحماً بالقطر منه صخره	والجزع بين صروحه والمرمر

ويلي غمدان بالعظمة والشهرة قصر « ناعط » وهو في همدان ، وتتبعه قصور كثيرة تزيد على العشرين .

وفي تلك القصور بقايا مسامير حديد قيل انها كانت مراقي الى رؤوسها فاذا ارادوا الدعوة الى امر او الى حرب ، وضعوا على تلك المسامير الشمع واشعلوه ، ليرى الناس النار من جبل سفيان وغيره من الجبال .

وناعط اقدم من غمدان لان الملوك الذين كانت لهم يد في اصلاحه ، هم من اهل القرن الثاني قبل الميلاد .

افلم تر الآن ، ان اثار اليمن تشبه اثار مصر واثينا وتدمر وبعلبك وغيرها من الآثار التي هي مفخره الاجيال ؟

بلى : وقد رأيت ايضاً ان اهل اليمن لم يكونوا في مجموعهم من البدو بل من

الحضر اصحاب المدن والقصور والهياكل الـتي هي مضرب المثل من الشعوب اهل الترف والبذخ الذين لبسوا الديباج والخز وافترشوا الحرير واتخذوا الفضة والذهب آنية لهم .

قال اغاثر سيدس : «للسبأيين في منازلهم ما يفوق التصديق من الانية والاوعية على اختلاف اشكالها من الفضة والذهب .

وعندهم الاسرة والموائد من الفضة والرياش من افخر الانسجة واغلاها .

قصورهم قائمة على الاساطين المحلاة بالذهب او المنزلة بالفضة ، يعلقون على افاريز منازلهم صحائف الذهب مرصعة بالجوهر ، ويبذلون في تزيين قصورهم اموالا طائلة لكثرة ما يدخلونه في زينتها من الذهب والعاج والحجارة الكريمـة وغيرها من المواد الثمينة » .

وليس في ذلك غلو ، فقد اثبتت التواريخ هذا القول وجاء في شعر العرب ما يؤيده كقول تبع في عرش بلقيس :

عرشها رافع ثمانون باعا	كللته بجوهر وفريـد
وبدر قد قيدتـه وياقو	ت بالتبر ايمـا تقييـد

وقوله في وصف مأرب :

ومأرب قد نطقت بالرخام	وفي سقفها الذهب الاحمر

ولم يتمرغ اهل اليمن في احضان الترف والغنى ، الا لان بلادهم كانت بلاد البركات كما تقدم، ولان المال وفر لهم وكثر في ايديهم حتى تفننوا في بذله وتمادوا في انفاقه .

والفضل الاول في الغنى للسدود ، التي جعلت معظم بلاد اليمن رياضا مثمرة خضراء كما قرأت .

وسد العرم اعظمها واشهرها وقد ذكرته جميع التواريخ .

اجل ، تلك فكرة للعرب يذكرها لهم اهل الجيل العشرين المتمدنون ، فهم الذين اخترعوها للعالم وجعلوها سببا من اسباب العمران والرقي .

ارادوا ان يحيوا ارضهم وليس في ارضهم ماء فعمدوا الى الاودية يحجرون

سبرلها بالسدود لم يدعوا واديا منها الا واستثمروا مياهه .

فكانت لهم في هذه الفكرة الجداول والانهـــار ، في فصل الصيف ، تسقي بساتينهم وجناتهم على مر الايام .

وهكذا فعلت مصر من قبل ، وهكذا تفعل اليوم .

لقد رأى المصريون ان النيل ينخفض في بعض الاودية فلا تستفيد ارضهم من مائه ، فبنوا الخزانات فارتفع ذلك الماء ثم اطلقوه يجري على الجانبين ويلبث الذهب للمصريين .

وجاوزت سدود اليمن المئات الى حـــد انك لا تمر ببلد الا وترى حولـــه بضعة منها يختلف الواحد عن الآخر بالطول والسعة على قـــدر امتداد الوادي او قصره .

وفي مخلاف يحصب وحده ، اي في قضاء واحد من اقضية اليمن ثمانون سدا ذكرها الهمداني باسمائها واشار اليها الشاعر بقوله :

وبالبقعة الخضراء من ارض يحصب ثمانون سدا تقذف المـــاء سائلا

اما سد العرم أو سد مأرب ، فقد اختلف المؤرخون في خبره :

قال بعضهم ان بانيه سبأ بن يشجب وقال البعض الآخر : بناه لقمان بن عاد وجعله فرسخاً في فرسخ وجعل له ثلاثين منفذا وجعل بناءه بالصخر والقار « اي الزفت » يحبس سيول العيون والامطار ثم يصرفون الماء من خروق في ذلك السد على مقدار ما يحتاجون اليه في سقيهم .

ويقول ياقوت : انه ظل كذلك الى ايام حمير ، فلما انحل نظام ملكهم وتقاص ظلهم وذهب الحفظة القائمون بامر السد انذروا بخرابه على عهد عمرو بن مزيقياء ملكهم .

وزعموا ان كاهنة اسمها طريفة انذرتهم بذلك في حديث طويل جاء فيه انهم رأوا الجرذان تنقب في السد فخافوا انفجاره .

كذلك اختلفوا في عهد ذلك الانفجار ، وتفرق قبائل اليمن .

ان حمزة الاصفهاني يقول : حدث الانفجار قبل الاسلام باربعة اجيال اي في القرن الثالث للميلاد .

وذكر ياقوت ان السد تهدم في ملك « حبشـــان » اي الحبشة .



أسماء الملوك

•

بدأ ملوك الطبقة الاولى من حمير ، اي ملوك سبأ وريــدان ، في اواخر الجيل الثاني قبل المسيح ، سنة ١١٥ ، كما مر .

وقد اثبتت النقوش والآثار ان الملوك الذين جلسوا على العرش الحميري من ذلك التاريخ الى سنة ١٧٠ بعد المسيح ، كانوا ثلاثــة عشر ملكاً اولهم « علهان نهفان » وآخرهم « وهب ايل يحز » .

ومن سنة ١٧٠ الى سنة ٢٥٠ ، تولى امر الملك ، مــلوك لم يعثر على اسمائهم ولم يرد لهم ذكر .

ثم لبس التاج من سنة ٢٥٠ الى سنة ٢٧٥ ، ياسر انعم آخر مــلوك العهــد الحميري الاول ، وبدأ في السنة نفسها العهد الحميري الثاني واول ملوكه شمر يرعش ملك سبأ وريدان وحضرموت .

ولم يظهر في الاثار اسم للحارث الرائش الذي قالت العرب انه اول مــلوك العهد الثاني اي عهد التبابعة .

كما ان ملوكا كثارا ذكرتهم العرب ولم تذكرهم الاثار .

والسبب في هذا ان العرب جعلت بعض اصحاب المخاليف في صف المــلوك ونقلت اسماءهم الى الاجيال ولم يكونوا ملوكا متوجين .

نعم ، ونحن لا ننظر الآن الى اقوال المؤرخــين فحسب ، بل ننظر الى تلك الاقوال المحفورة على انقاض اليمن ، فهي مع الاستعانه بالتواريخ ، تخرج لنــا الواقع كما هو لا كما شوهته الخرافات والاوهام .

وليس لنا ان نثبت وجود الحارث الرائش او ننفيه ، فقد يكون من اولئك

الملوك الذين طمس اخبارهم الزمان ، وقد يكون من الاقيال الذين جعلهم المؤرخون في جدول الملوك .

ان الليالي لا ترسل الكلام الطائش الذي يعوزه البرهان ، بل تتخذ الآثار المكتوبة التي يستند اليها العالم حجة لما تكتب ، ليكون الضمير راضيا عن الخدمة التي نؤديها الى الامة .

اذن نبدأ بالعهد الحميري الثاني منذ تولى شمر يرعش امر الملك :

شمر يرعش

هو في نظر العرب اشهر ملوك حمير واعظمهم شأنا وابعدهم نفوذا وهيبة غزا فغنم ، واستولى بقوة السيف على الاقطار البعيدة النائية ينتقل من فتح الى فتح ومن نصر الى نصر لا تقف في وجهه القوى الكثيرة التي تصدت له في فتوحه .

ويقول المؤرخون ، منهم ابن خلدون ، انه غزا العراق وفارس وخراسان ففتح ودمر وخرب مدينة « الصفد » وراء جيحون فقالت العرب « شمركند » اي شمر خرب ، ثم بنى هنالك مدينة سميت باسمه وعربها العرب فصارت « شمرقند » .

ويقول بعضهم انه اخضع لسلطانه بلاد الروم وهو قول لم يرد له ذكر في كتب الامم الاخرى .

اجل ، لقد فتح الغزاة من العرب ، بلاد لم يخطر للناس انهم يستطيعون اخضاعها بالسيف ، ولكن لا نستطيع ان نصدق ان فتحا مثل هذا الفتح الذي ذكروه ، تسكت عنه الاقلام ، ويغفل عن ذكره ، جميع الادباء الذين خلدوا في كتبهم اخبار الدول والشعوب .

وعاش شمر يرعش على العرش خمسا وعشرين سنة ، حتى نهاية الجيل الثالث فملك بعده افريقس الصعب ، الذي يسمونه :

وهو عندهم فاتح بلاد المغرب وناقل قبائل العرب اليها !!
وانت ترى ان في هذا القول غلوا لم نجد له اثراً واحــداً بين جميع الآثار التي عالج امرها المؤرخون .
ومن يعلم ، فقد يخلق الزمان آثاراً جديدة تثبت هذا الخبر الذي نعده غلوا .
وسمي ذا القرنين ، لضفيرتين من شعره كان يرسلهما على قرنيه اي جــانبي رأسه ، وكان كثير الاسفار والغارات لا يطيق الاقامة بالقصر شهرا واحدا فكأنه خلق ليطوف في البلاد والاقطار كما يطوف الاسد في الغابات .
ملك طامع لا يهدأ ولا يستريح ، وليس في اليمن كلها من يجسر على الوقوف في وجهه . .

* * *

نحن الآن في اوائل الجيل الرابع للمسيح ، سنة ٣١٥ ، وذو القرنين على عرش اليمن كما قرأت .
وهو في عنفوان القوة والمجد ، يغزو كلما طاب له الغزو ، ويضرب عندمــا يطيب له التذمر والضرب ، والناس حوله راضون بسلطانه ، مطمئنون الى اعمال الفتح والغزو في ظل ملكهم الجبار .
وجنوده كثار ، وكلهم ابطال الميادين ، يرأسهم قواد بسلاء يستهينون بالموت في سبيل نفوذه ، ونشر لواء ملكه في الاقاليم .
وهم الاغنياء اصحاب الذهب ، يسعى اليهم سعيا على اكتاف الزعماء والعبيد كما يسعى الى سيدهم ذي القرنين .
ولكل واحد منهم قصر يجاوز قصر الملك ، فيه طوائف الجواري والغلمان ، وما يتبع هذه الطوائف من ازواج وانسباء .

اجل : ان قصور القواد بمن فيها من هؤلاء ، مدن صغيرة في قلب عاصمة الملك الواسعة الاطراف .

والقائد ملك صغير يعيش في ظل الملك الاكبر ، يطيعه الناس كما يطيعون مولاه ، ويخضعون لارادته القاسية التي لا ترد .

ان ذا القرنين لا يختار قواده الا من الاقيال ، اصحاب المخاليف الكبيرةالذين الفوا سياسة الحكم ، وتعودوا النظر في شؤون اليمنيين .

هكذا كان يفعل الملوك الذين تربعوا قبله في عرش حمير ، في العهد الاول وهكذا كان يفعل شمر يرعش نفسه ، الملك الغازي العظيم الذي رفع الاسم الحميري الى ذروة العلياء .

وان ترى ان في هذا الاختيار دهاء وحكمة ؛ فاصحاب المخاليف ملوك هم السلطان والسؤدد ، واهل الكلمة النافذة في القبائل المنتشرة في سهول اليمن والجبال ...

نعم ، يختار الملوك قوادهم من هذا الصنف ، ليستغلوا نفوذهم في ادارة الملك ويكفوا انفسهم شر هذا النفوذ .

وغاية كل ملك ان يفرق بين اولئك «الاقيال» ان كان في اجتماعهم خطرا على عرشه ، لا يستطيع في كل ساعة — بل لا يريد — ان يتصدى له .

يساعده من وجه اخر ، طبيعة الانسان التي ترغب في الاستئثار ..

فهؤلاء الامراء لا يحب بعضهم البعض الآخر ولو اظهروا هذا الحب ، وليس بينهم من يرضى ، مختاراً بامارته ، بل ليس في صدورهم عاطفة الاخاء .

هذا يريد ان يترك « مخلافه » غازيا مخلاف جاره ، وهذا يلعب من وراء الستار لتقوم الفتنة في البلد القريب منه ، والآخر ينفخ في بوق الثورة لتتم له الغاية التي يمهد اسبابها ، ولولا الملك ، اجل لولا الملك لفعلوا كل هذا في كل يوم ولم يبالوا ...

ان غرض التفريق الذي يجول في صدر الملك الحميري ، يقف عند هذا الحد

عند الحد الذي تبدأ منه الحرب بين اصحاب المخاليف ...

ليكن الامير نماماً واشياً اذا شاء ، وليكن ظالماً سفاحاً عندما يشاء ، ولكن ليس له ان يشهر الحرب على اخيه ويرسل جنوده الى الساحة الا اذا امره الملك بأن يفعل .

ان الحرب نار .. لا يلبث لهيبها حتى يمتد الى البلاط ، وهذا ما لا يريده الجالس على العرش .

ولكن ، لا يستطيع الملك مهما تكن قساوته وحزمه ، ان يمنع هذه النار من الظهور ، ففي اليمن امراء لا يطيب لهم الا العصيان ولا يفكرون الا في الثورة ، يغلي الحسد في صدورهم ، وتطل الشهوة والطموح من عيونهم فهم يقولون كلما هبت الريح في الفضاء : علينا وعلى اعدائنا يا رب ...

كأنهم لا يريدون الا ان يكونوا دائماً سادة الموقف في اليمن ...

او كأنهم من اولئك النـاس الذين لا يرضيهم الا ان تهبط السماء الى الارض او ترتفع الارض الى السماء .

والملك يستعين عليهم بالسيف فيسكت مطامعهم ويعيدهم الى الهدى ، واذا عجز ، قلبوه عن العرش وولوا غيره، وهم يضمرون له ما كانوا يضمرونه للرجل الذي خلعوه .

وكثيراً ما يغض الملك طرفه عن مظاهر العصيان التي يرى ، عندما تكون في هذا الغض سلامة العرش .

تلك كانت حال اليمن في ذلك العهد ، ولعمري انها لحال جميع الدول التي يتنازع النفوذ فيها اصحاب « المقاطعات » طلاب الشهرة والمجد .

بلاط الملك

كان ذو القرنين في بلاطه ، غيره خارج القصر وفي ساحات الوغى .

ان الملك الطماح الفاتح ، الذي يقود خيله الى البلاد الامنة فتطأ حوافرهـا

التيجان وتحطم العروش ، الملك القاسي الذي لا يعبأ بالجثث يدوسها بقدميه ، والدماء تصبغ وجهه وثيابه ويديه ، كان في بلاطه ، بين نسائه وجواريه ورجال مشورته ، الملك الهادىء المستسلم الى الترف واللذة لا يبالي بما يسمعه ويراه .

كأن امر البلاط لا يعنيه ، او كأنه غريب ليس له شأن مع اهل قصره الذين هم نبلاء الناس واشرافهم.

يدلك على هذا ، ان هؤلاء الاشراف كانوا احراراً ، لا يعرفون في البلاط نظاماً ، ولا تسودهم عادة من عادات الملوك في القصور .

الا نساءه ، فقد جـــار عليهن حتى رأى اخيراً ان يمنعهن من ان ينظرن الى الشمس او يستقبلن الهواء الحر .

وكل شيء ، عدا هذا ، يراه اهل القصر حسناً فهو حسن ..!!

وكانت نساؤه ، على رغم هـــذا الجور ، يحترمن امره وفي ذلك الاحترام شيء من الحب ...

لقد احاطهن بجميع اسباب العز وهذا يكفي ...

ولم يكن لذي القرنين ولد غير عمرو ولي عهده ؛ وعمرو في السابعـــة عشرة من عمره ، يحسب الارض صنـــع يديه ، وما على الارض من انسان وحيوان ملكا له ..!

انه ابن ذي القرنين ، رب اليمن ، ومالك رقاب اهله ..!

وسيلبس التاج الذي يلبسه ابوه ، بعد حين .

وعندئذ يصبح في بلاده السيد الاكبر الذي ليس في اليمن اعظم منه غـــير الالهة .

ولكن الالهة لم تكن اعظم مقاما منه . . العبيد حوله في نهاره وليله والبخور يحرقه اتباعه عند قدميه ، والطيب تفوح رائحته في الجناح الذي يقيم به وامراء اليمن والاشراف بين يديه ينشدون له اناشيد التكريم والاعجاب .

واذا خرج من القصر ، فعلى العجلات الذهبية او على اكتاف الغلمان . . .

حياة دلال وعز تجاوز الحد في كل شيء .

وعمرو ، في مجموعه ... حسن الصورة ، ابيض الوجه ازرق العينين يشبه امه التي اهديت الى ابيه من الشام .

غير ان الغرور والكبرياء الباديين في كل مظهر من مظاهره ، حجبا صورته الحسنة فلم يبد منها غير الجانب الخلقي القبيح .

اجل ، ان ولي العهد كان مغرورا . والنفوس الصغيرة تبطرها النعمة ويستهويها الغرور عندما تحيط بها اسبابه .

العرش ينتظر عمرا ، والمال كثير لا يفنيه الزمان ، والناس يسجدون له في رواحه ومجيئه ، وانت تعلم ان السبب الواحد من هذه الاسباب يخلق الغرور .

وقد شاءت الاقدار ان تلبس ولي العهد حلة غريبة لا يلبسها عادة ابناء الملوك . كان قاسياً لا تثبت قوة من القوى في وجه قساوته وطائشا لا يقف عند حد في طيشه ، ومستهترا لا يبالي بما يفعل ، ومتهتكا لا يعبأ بالهوة التي يقذف به اليها هواه .

وكان شبابه ، على رغم صغر سنه ، سلسلة جرائم ، بعيدة الغور ، عظيمة الاثر ، يجلد عبده بسوطه حتى يسيل دمه ، ويضرب البريء بسيفه حتى يلفظ روحه ؛ وهو لا يسمع عند هذه المشاهد الرائعة غير الفاظ الثناء والاطراء ؛ من رجال البلاط المتمتعين بخيرات ابيه .

وولي العهد شديد البأس ، يصرع الفارس الذي خبر الميادين ، ويقتحم بفرسه الجيش الجرار فيجعله شطرين .

وهذه ساحات اليمن تشهد لعمرو بن ذي القرنين .

وكما ملأ ابوه بلاطه من النساء اللواتي هن آيات الجمال ، هكذا ملأ عمرو جناحه الخاص ، من فتيات اليمن بنات الاشراف .

يعبث زمنا ، بهذه الفتاة ثم يملها ، وينتقل الى غيرها ، ودخان البخور بين هذا العبث وهذا الانتقال ، يتصاعد في الاروقة والدهاليز ، تكريما للفتى المستهتر وارث التاج الحميري .

وكلما وصفت له عذراء ، في ذلك القطر الواسع الارجاء ، ارسل الى ذويها

من يحملها اليه ، ويكفي ان يقول وليالعهد كلمة ، فتبذل له الاعراض،والدماء ، والارواح .

والويل لمن لا يطيع الامر العالي الصادر عن اله حمير ! ان الموت بالحبل المعلق بالشجرة ... خير جزاء له .

وجميع الامراء الفتيـــان الذين يعيشون في ظل عمـــرو ، مثل عمـــرو ، كلهم مستهترون اغرار ، لا ينظرون الا الى اللذة الزائلة يتمرغون في احضانهـــا حتى ترتوي القلوب .

ولولي العهد ، بين هؤلاء ، فتى هـــو امينه الاول وصاحب سره ورجـــل مشورته اسمه ناشر ، هو صاحب مخلاف ظفار ، واحـــد امراء اليمن اصحاب النفوذ والعز والسلطان في القوم .

وناشر هذا ، صورة « طبق الاصل » لسيده ولي العهـــد ، في الغرور وفساد السيرة . وفي القساوة الغريبة والكبرياء .

وهو رفيقه في لهوه وصيده ، واسفاره ولعبه ، لا يتركه في العـــام غير شهر او شهرين ينصرف فيهما الى مخلافه ، للنظر في شأنه الخاص .

وليس في فتيان اليمن ورجال البلاط ، اعز من ناشر على قلب عمرو ... انه شريكه في اللذة وعشير صباه ؛ والاثنان اخوا مودة وولاء ، الواحد منهما عون للآخر في كل ما يعرض له من حادثات ...

وبقوة هذه الصحبة ، وفرت لناشر كل اسباب الجاه ، واصبحت كلمته في البلاط وخارج البلاط كلمة ولي العهد نفسه ، يحترمها رجال الرأي والمقربون من الملك ، ويطيعونها كما يطيعون امر الجالس على العرش .

الا واحدا من هؤلاء ، لم يكن يعبأ بالاثنين ، على رغم منزلتهما في دولـــة اليمن ، وادلالهما على ذي القرنين ، هو « ذو تبع » صاحب مخلاف همـــدان ، الذي يعد في اليمن من اعظم المخاليف وارقاها .

ونحن نصف لك هذا الفتى ، في السطور الآتية :

امير همدان

فتى اسمر الوجه ، اسود العينين ، تقرأ المروءة في عينيه ، ويلمع الكبر وعظمة النفس على جبينه الزاهي .

وهو ربعة ، في كل مظهر من مظاهره جمال جذاب ، وفي كل كلمة من كلماته بيان خلاب ، فكأنه اختار بنفسه تلك الصفات الطيبة التي وهبت له ...

وذو تبع ،من مشاهير اليمنيين ، ورث الكبر والاباء عن ابيه ، واستوى بعده في عرش امارته ، وهو لم يجاوز العام السادس عشر من العمر .

ولم يمض على جلوسه في عرشه الصغير ، غير سنة واحدة .

اما ابوه ، فلم يكن من رجال البلاط بل لم يكن من المخلصين للملك كما انه لم يكن من اولئك الخصوم الذين يجردون في وجه الملك ، سيف التمرد والعصيان.

كان راضياً بما قسم له الله ، همدان بلد طيب كثير الخيرات موفور البركات ، واهل همدان اهل سلام وطاعة ، وصدق واخلاص ، وهو بينهم كالصنم في الهيكل يقوم حوله المصلون والعباد .

وفي اي شيء يطمع الامير الراضي بامارته ؟؟ انه يطمع في حب شعبه ، وتمهيد السبل التي تؤدي الى عمران بلده ، ويكفيه انه ذلك الغني الذي لا يحتاج الى رضى الملك ليكثر ماله ...

اجل : انه لم يكن طماحاً الى المجد يبذل دماء قومه ليبنيه ، بل كان راغباً في الحياة الهادئة البعيدة عن متاعب الزمان .

وقد مضى في سبيل تلك الرغبة ، بشرف وعز ، لا بضعف وذل ، كما يفعل الادنياء الساقطون .

وكان يرى ذا القرنين عاتيا مستبداً في حكمه ، وفاتحاً قاسياً في فتحه ، فلا يهتم له ولا يبالي بما يفعل .

ان القساوة والاستبداد والفتح لم تكن من رأيه .

وتعب ذو القرنين كثيراً ليجعله من رجال البلاط فلم يستطع .

كان عذر امير همدان انه لا يترك قومه ، وكان عذر الملك في سكوته عنه انه لم يظهر عصياناً ولم يخرج عن الطاعة .

وبقيت الحال بينهما كما رأيت ، الوعود تتبع الوعود، والاعذار تتبع الاعذار، حتى مات امير همدان في ساعة لم يكن فيها شيء من الانذار بالموت .

فارتاحت نفس الملك الى موته ، لكن دهاءه املى عليه ان يظهر اسفه ، ويذهب بنفسه الى همدان ، ــ وهو الملك الذي لا يخرج من القصر الا لحرب او صيد ــ ليشيع جثته الى القبر .

ثم مضى شهران ، وهو يحاول ان يضم ذا تبع الى رجاله .

واعترف على الاثر ، بامارة ولده ، واجلسه بيده في مقعد ابيه وزين له العيش في البلاط الحافل بالنبلاء والاشراف من الجنسين .

وقد رأيت ان الامر انتهى برضى الامير الصغير ، وكان رضاه نظراً بعيداً وحكمة غفل عنها ابوه في حياته .

ان الاصرار على البقاء في همدان ، جفاء للملك ، وآخر الجفاء حرب . . .

فخير له ان يترك امارته بضعة اشهر في العام ، وينظر اليه الملك كما ينظر الى المخلصين ، من ان يبقى فيها الى الابد ويكون من الاعداء .

ومهما يكن سلطانه وعزه في قومه ، فهو اعجز عن ان يثبت في وجه الملك ، اذا فاجأته الحيل .

ولكنه عندما رضي كان واثقا بحب الملك وايثاره اياه على سواه من الامراء ، وعلى هذا الرجاء ترك امارته بعد ان عهد الى اخيه مالك الذي لم يبلغ الثالثة عشرة ، وعمه عبيد في ادارة الشؤون .

ومنذ وطئت قدماه بلاط ذي القرنين ، عرف اي بلاط هو ، واحس ان ولي العهد المستهتر القاسي لا يستطيع ان يرضي قومه وله مثل الاخلاق التي رأيت .

بل احس ان روحه لا تستطيع ان تتحد بروحه ، وان الاخلاص الذي حدث به نفسه ووضعه امام عينيه ، يكاد يضمحل عند مشاهد الفساد التي لمسها بيديه .

غير ان امير همدان لا يكون خائنا ، ومن المروءة ان ينصح لعمرو بترك غروره ، واحترام نفسه في بلاط ابيه .

وهكذا فعل ، لكن نصيحته ضاعت كما تضيع قطرة الماء في البحر . وانتهى امر هذه النصيحة بانصراف ولي العهد عنه .

كان ذلك الامير المتكبر لا يطيق ان يسمع نصائح عبيده ...! او كأنه لا يشاء الا ان يسموا الظلام نورا ، اذا قضت ارادته بذلك .

ولم ينته الامر عند هذا الحد ، فان ناشرا امير ظفار ، طلب الى عمرو ان يهين صاحب همدان على مرأى ومسمع من الامراء ، كي لا يعود الى مثلها مرة اخرى ...

والا فهيبة ولي العهد تضيع في بلاط الملك ...

فلم يتردد عمرو في الامر ، بل قال لابيه وهو في مجلسه وبين رجاله :

ان ولي العهد لا يريد ان يكون هذا الفتى من غلمانه ...

واشار الى ذي تبع .

فعرف الملك كل شيء لان الامير كان قد أخبره حكاية نصيحته، فقال :

اذن يبقى ذو تبع من رجال الملك .

ولكن الهمداني لم يسكت ، بل وقف قائلا :

ايكون امراء اليمن يا مولاي ، غلمانا ، في نظر ولي العهد ؟

فلجأ ذو القرنين الى الدهاء بقوله :

كلكم غلمان يرأسكم عمرو .

ثم اومأ الى ولده وقال : انصرف يا عمرو واعلم ان تبع من ابناء الملك .

وقام فخرج من المجلس وامر سيد همدان بان يتبعه .

فعل هذا ليكفي نفسه مؤونة الاخذ والرد ، بينه وبين ولي عهده الذي يعرف ان يرضيه بعد حين .

اما ذو تبع ، فقد رضي بما رأى ، واضمر من تلك الساعة اخلاصاً للملك يقل وجود مثله في صدر ، كما اضمر لولي العهد بغضاً واحتقاراً لا حد لهما ...

وكان قادراً ... فلم يصعب عليــه ان يحب الاب الحب كله ويبغض الابن البغض كله ...

كما ان الملك كان قادراً على نفث السم وزرع بذور التفريق ...

***

ترك ذو القرنين المجلس وذو تبع وراءه حتى انتهيا الى مقصورة وراء جناح النساء فقعد الملك على كرسي من الابنوس وامر الهمداني بالجلوس ثم قال له : لقد جاء دور الملك الآن في النصيحة ...

فأجابه قائلا : مر يا مولاي بما تشاء .

قال : الا تعلم يا بني ان الملك لا يريد اغضاب ولي عهده ؟

ــ ومن اغضبه يا مولاي ؟

ــ انت : فقد اردت ان تقول له ان سلوكه في القصر لا يشبه سلوك ابناء الملوك وهذا يكفي .

ــ ولكني اردت ان اخدم مولاي الملك في ذلك القول ..

قال : الملك يعرف كل شيء فهو لا يحب ان تخدمه الا بما يأمرك به .. لقــد تعبنا كثيراً وبذلنا الجهد كله لاصلاح ولي العهد فلم نستطع ... فآثرنا السكوت ريثما تمر هذه السحابة السوداء التي ترافق الشباب في حياته ... انه فتى مثلك لا يعرف من دنياه غير اللذة ، فليجرع من كأس اللذة حتى يرتوي ثم ننظر بعــد ذلك في امره .

ثم قال : والآن فقد دعوتك لاقول لك ان امير ظفار الذي خصه ولي العهد بحبه لا يطيق ان ينظر اليك ..!

ــ انا يا مولاي ؟

ــ اجل وهو الذي [illegible] ولي العهد ان يتصدى لك في مجلس الملك .

ــ [illegible] اعلم ان اباه كان صديقاً لابي ، وظفار وهمدان امــارتان لم تعكر الحادث[illegible] صفوهما من قبل .

فابتسم ذو القرنين قائلا : لا تراجع الملك في ما يقوله لك يا بني ، لقد قلت ان ناشراً عدوك ، فاحفظ هذا القول ولا تتردد في امرك ، واعلم ان عين الملك ترعاك فلا تخف .

قال : اترى امير ظفار ينصب لي شركاً يا مولاي ؟

ــ انــه لا يغفل عن عدوه طرفة عين ، وقد تخلق قريحته المكائد التي لا تخطر لك .

ــ وكيف يطيق الملك ان يبقى في بلاطه ؟

ــ لان ولي العهد قد اختاره اميناً له ، وولي العهد لا يقول في البلاط كلمة الا تكون امراً .

وجعل يصف له دهـاء امير ظفار وبغضه ، حتى قام في ذهن الفتى ان ذلك الامير الذي وثق به ابن الملك ، غول غادر يلبس لباس الامراء .

وعندمـا انصرف من المقصورة ، كان الحقد يغلي في صدره ، وقـد تحول هدوءه الى هياج النمر الثائر .

ومنذ ذلك الحين ، اصبحت حياة امير همدان وامير ظفار في القصر ، حياة عدوين ، يغذي عداوتهما ذو القرنين نفسه ، ويضرم النار بين الاثنين .

وكان الواحد منهما يحذر الاخر ويخاف ان يغدر به ..

هكذا كان الملك يصرع امراءه الواحد بعد الاخر ، ويخدر اعصابهم بسياسته الناعمة المفرقة التي تضمن اخلاصهم للعرش .

ان الامارتين اللتين يرأسهما الفتيان ، ذو تبع وناشر ، من اعظم امـارات اليمن ، فعلى الملك ان يبعد الواحدة منهما عن الاخرى خوفا من ان تتحدا فيصبح هذا الاتحاد خطرا يضطرب له التاج الحميري .

وقد تم للملك ما اراد ، فكان ذو تبع ، من رجاله ، وناشر من رجال ولي العهد ، والامراء جميعهم لا يعلمون شيئاً عن سياسة التفريق .

بل يفهم الواحد ... انه خصم للآخر . ذلك ما قاله له الملك والملك لا يكذب ...

شرحبيل بن عمرو

من سلالة يعفر بن حمير ، امير عظيم له في بلاده الكلمة المسموعة والرأي المتبع ، هو شرحبيل بن عمرو .

اي انه سليل الملك الذي بنى العرش، ومد نفوذه فخفقت ألوية ملكه في سماء القطر العربي .

وشرحبيل من عقلاء الناس وحكمائهم الذين ينظرون الى منتهى الافق .

وكان طامحا طامعاً في العرش ، يسعى مع الانصار الذين حوله الى التربع فيه لان حق ذي القرنين لا يزيد عن حقه . . ولان البلاط الذي يعيش فيـــه ، بلاط ملك لا يعني بشؤون قومه ، مثلما يعني بشؤون نسائه .

ولكن للوصول الى العرش صعب كما رأيت ، وبـــين شرحبيل وبينه ، هوة بعيدة الغور تقوم حولها السيوف والحراب .

ومع ذلك ، فالهمة والمال يجب ان يبذلا ليبلغ الامير غايته او يفشل .

وكيف يستطيع ان يبلغ هذه الغاية اذا لم يستعن بالجماعة القوية من الامراء ؟

بل كيف يبلغها وهو لا يجسر على ان يبوح بالامر الا لواحد من المخلصين يدعى « ذا مغار » ؟

وذو مغار وحده لا يكفي ولو كانت جنوده اكثر من الرمال . .

اذن فليصبر ريثما ينقلب الزمان ، او فليبح بسره لكل قوي ، ولينفخ روح الثورة في صدور القوم ثم يفاجيء البلاط بالجيش فيظفر او يموت .

وفي ذلك من الخطر ما فيه ، وشرحبيل العـــاقل لا يقذف بنفسه الى البحر الهائج الذي يزعزع امواجه جبال اليمن .

وذو مغار نفسه ، الذي خبر الحياة وعالـــج الحادثات في السنين التي عاشها لم تكن القوة من رأيه بل كان من رأيه الصبر ، واعـــداد العدة بالهدوء من وراء الستار .

وكان لشرحبيل ولدان : بلقيس وهي في زهـــرة الصبـــا وفجر الشباب ، والمدهاد ، وهو في الخامسة عشرة من العمر .

وقد اراد ابوهما ان يطلعهما على الامر ثم يستشيرهما فيه .

فدعاهما اليه ، في ليلة كثر مطرها وعصفت فيهـــا الرياح ، وهو في حجـــرة واسعة تشبه حجرة ذي القرنين لما فيها من الديباج والخز والآنية المذهبة ، ومعه ابيها ذو مغار وابنه غالب ، وابن عم له يدعى ياسر .

وفي تلك الحجرة الكبيرة ، وقد ارخى الليل سدوله ، عقد شرحبيل بن عمرو مجلس شوراه ، المؤلف من انصاره القلائل الذين عرفته .

ووقف بالباب عبد جبار ، يمنع اهل القصر وضيوفه من الدخول .

وقد سادت السكينة ، واستولى الهدوء على مأرب النائمة .

بلقيس

لا تقع العين في اليمن كلها ، سهلها وجبلها ، على اجمل من بلقيس واحسن وجها ...

عينان فيهما الفتور والعذوبة ؛ ووجه يتدفق منه نور الجمال والجلال ،وابتسامة تغمر ثغرها الذي يفيض سحرا .

وكأنك ترى ، عندما ترى بلقيس ، صورة للجمال رسمتها يد نابغ في التصوير او تمثالا خلابا خلع عليه صانعه حلة من الحسن لا نرى مثله .

ان بلقيس سيدة العذارى الحسان ؛ فاتنات العقول في اليمن ؛ بل هي انشودة الجيل الرابع ... بل هي الجمال العربي بروعته وسحره .

وليس في جزيرة العرب كلها؛ فتاة تشبه بلقيس في ثغرها الضاحك ولسانها الفصيح ومنطقها العذب ؛ وليس بين صدور النساء صدر يحمل ما يحمله صدرها من شعور عال ؛ وطموح ؛ وعظمة نفس .

كل ما كان في بلقيس يدعو الى الاعجاب ؛ الا طبيعة واحدة غلبت عليها

وضيعت الشيء الكثير من محاسنها التي ذكرناها ؛ هي طبيعة القساوة التي تشبه طبيعة ذي القرنين وولي عهده .

ولو لم تكن من النساء لكان لها عذر ؛ وقد تكون تلك القساوة في نظر بعض الادباء وعلماء النفس ؛ مظهراً من مظاهر الحزم .

يشفع في قساوتها انها لم تكن تقدم على امر الا اذا قتلته درسا وانفرد به العقل لا تشاركه العاطفة ؛ ثم تمضي فيه بالعزيمة التي لا تعرف التردد، والقوة الجبارة التي لا تلين .

وتلك صفات الرجـــال الذين يمشون في طريق المجد ؛ كما يمشي التيار القوي لا يلوي على شيء .

اوكما تمشي النار الآكلة تلتهم اليابس ولا تعف عن الاخضر ...

وبلقيس ؛ كبيرة في رأيها ؛ كبيرة في قلبها ؛ كبيرة في عاطفتها واحساسها وانك لتستطيع ان تلمس عظمتها وانت لا تعرف من هي ! .

اجل ؛ انها خير فتاة انجبتهـــا ام في اليمن ؛ واعظم شخصية ظللتهـــا سماء الجزيرة في ذلك الجيل .

وكانت بلقيس في مارب ؛ في قصر ابيها الذي ورثه من آبائه الملوك ؛ تعيش فيه كما تعيش الملكات ؛ وتحفها الجواري والغلمان ؛ بالخضوع والاحترام .

وكل يمني في مـــأرب ؛ يحب بلقيس ؛ وينحني اجلالا اذا ذكروهـــا له ؛ الا ذا القرنين ؛ الملك المستبد الذي لم يكن يطق ان يرى لها صورة او يسمع لها ذكرا ...

مع انها لم تبصر لهذا الملك وجها ؛ غير مرة واحدة رأته فيها راكباً جواده بين حراب حراسه ؛ وهو في طريقه الى سد العرم يتلهى بصيد الظباء .

ولكنها كانت تعلم ؛ انه لا يحبها ؛ ولا يريد ان يذكر اسمها رجل في بلاطه؛ لرواية عجيبة رواها لها ابوها منذ عام .

وهذه هي الرواية :

***

كان الملك في ليلة من ليالي الصيف ؛ يشرب مع ندمائه واصحاب سره وقد خيل الى من حوله ان الخمر اخذت فيه

فقيل له : ان شرجيل في الباب يستأذن في الدخول .

فنهض عن مقعده وهو يتهادى بين اثنين ؛ وجعل يقول :

اهلا بابن عمنا الذي لا نراه غير مرة في الشهر .

فعرف شرجيل من تلجلج لسانه ، ومن الكؤوس التي تتلألأ في المجلس ان ذا القرنين سكران : فقال :

ان اهل اليمن يعيشون في ظل ملكهم وان لم يروه .

ــ ولكنك من ملوك اليمن ونحن نريد ان نراك كل يوم ، بل نريد ان تقيم بهذا القصر كما يقيم غيرك من الامراء ..

قال : ان مولاي الملك يعلم اني لست قادراً على هذا ..

ــ لا يعلم الملك شيئاً من ذلك .. بماذا تعتذر يا ابن العم ؟

ــ بولدي الصغيرين اللذين ماتت امهما وليس لهما من يقوم بامرهما من الاهل غيري ...

فقهقه ذو القرنين ضاحكاً واحمرت عيناه ...

ثم قال والسكر يعقد لسانه :

الا ترى ان في بلاط الملك من نساء اليمن والفتيات من هو اصغر سناً من ولديك ؟.

فتردد في الجواب واصفر وجهه ...

فاعاد الملك قوله والغضب في عينيه : عذرك يا شرجيل !!

ــ هذا عذري يا مولاي وانا ارى ان بلقيس والهدهاد لا يصلحان للعيش في البلاط .

ــ بل رأيت انك اعظم من الملك فانفت من خدمته ..

قال : انها فكرة لم تخطر لي يا مولاي .. الا تذكر بلائي في الحروب التي اضرمت نارها وقيادتي فرسان اليمن في سبيل الدفاع عن عرشك ؟؟ الا تذكر

ذلك الرمح الذي وضعه عدوك في صدري يوم كنت اذود عنك في مخلاف شبوة وكان القواد قد تفرقوا عنك والاعداء يحيطون بك .. افلا تذكر يا مولاي كيف انتزعت رمح القاتل بيدى وارجعته الى صدر صاحبه فخر صريعاً عند قدميك.. الك عندما تذكر كل هذا يا مولاي تعلم ان شرجيل بن عمرو لا يأنف من خدمة ابن عمه ومليكه ...

فصور السكر لذي القرنين ان الامير يمن عليه بذكر دفاعه عنه ، في حروبه مع الامراء الخارجين عن طاعته ، فوضع يده على جبينه وهي اول بادرة من بوادر غضبه ، ثم قال : اعد كلامك يا ابن عمرو ..

فلمس شرجيل عندئذ غضب الملك بيديه واجابه بهدوء :

ذكرت لك ذلك يا مولاي لاثبت لك اني عبدك وان دمي ابذله في سبيل طاعتك ...

ونظر الى القوم فرأى السكر يلمع في العيون ...

فأومأ الملك اليه بالسكوت قائلا لمن حوله وهو يتظاهر بالغضب :

اشربوا على شرف ابن عمنا الذي يزعم ان تاج حمير ، لم ينبت لولا سيفه على هذا الرأس .

وقد يظن القارىء ، ان الملك سكران ، وقد ذهبت بعقله الخمر في تلك الساعة فلا يعلم ماذا يصنع ... لا ... كان مظهره مظهر سكران وقدفعلت الخمر فعلها في دماغه ... ولكنها لم تضيع له رشداً ولم يفقد ذلك الدماغ قوته ودهاءه .

ان غضبه اسلوب له يلجأ اليه عندما يريد ان يبلغ غاية له ..

ولسانه المتلجلج المضطرب ، لم يكن يشبه في تلك الساعة ، ادراكه الهادىء الذي عجزت عنه الخمر .

فجعل شرجيل يتمتم الفاظاً معناها الطاعة والخضوع وقد زاد وجهه اصفراراً .

والملك يقوم ويقعد كأن الغضب يرفعه بيديه الحديديتين . ثم قال :

انك تطيع الملك يا شرجيل ، بالقول الذي يضيع كما تضيع الرؤوس التي تظهر العصيان .

ـ بل يتبع فعلي قولي يا مولاي .

قال : اشهدوا يا رجال حمير .. ان ابن عمنا يظهر طاعة ثم يأبى ان يعيش في بلاطنا مع ولديه كما تعيشون ..

قال : ارجو من مولاي ان يقبل العذر الذي سألته قبوله .

ـ قال : نأمرك ان تطيعنا في واحد من امرين ، امـــا ان تجيء الى البلاط وتقيم فيه ... واما ...

ـ واما ماذا يا مولاي ؟

ـ واما ان ترحل عن مأرب ولا ترجع اليها الا عندما ندعوك ...

وغاية الملك ظاهرة في طلبه ... انه يريد ان يجعل جميـع الامراء الاقوياء في قصره . لينشر فوقهم ظله ويسوقهم عن كثب ، بعصا حيلتـــه ومكره ، فيسلم تاجه ويصفو له الزمان .

وكان « حاشد » نديم الملك وساقيه ، ساكتا لا يقول كلمة ، فلما سمع تهديد ذي القرنين ، اقبل عليه فهمس في اذنه كلمة افتر لها ثغره ثم عاد الى مقعده كأنه لم يقل شيئاً .

وتغيرت لهجة الملك فجأة بقوله لشرجيل :

قيل لنا ان « بلقيس » اجمل نساء اليمن وجها ونحن لا نعرفها وانت تحجبها وراء جدر القصر كي لا يراها الملك .. أجميلة هي كما يقولون يا ابن العم ؟

فاحمر وجه الامير وقد كان مصفراً ... ثم قال :

اعترف انها من اجمل النساء يا مولاي .

ـ اذن فالملك يعدل عن طلبـــه الاول ويسألك ان تهبها له او تبيعها لتكون الحظية الاولى في البلاط .

فارتجفت شفتاه قائلا : اما ان ابيعها فابناء الملوك لا يبيعون ابناءهم ؛ واما ان اهبها فما كنت لاهب قطعة من قلبي الذي احيا به ...

قال : وتعلم ماذا يتبع هذا القول يا شرجيل ؟

ـ اجل اعلم يا مولاي ؛ ان وراءه النفي او الموت ...

ــ ولا تبالي ؟؟

ــ لا ورب اليمن لا ابالي نفيت ام قتلت ..!

قال : سنعمد الى اعظم من النفي والقتل لو تعلم :

قال : ماذا ؟

قال : نقول للجند اذهبوا ودمروا قصر شرجيل بن عمرو واحملوا بلقيس الى هذا البلاط على الرغم منه .

ــ وهل تظن يا مولاي ان الجنود يدخلون قصري وانا حي ؟

ــ وهل تظن انت ان موتك ينقذ فتاتك من يد الملك ؟

ــ نعم ؛ ان الساعة التي يموت فيها شرجيل تموت فيها بلقيس . . ومع ذلك فانت تستطيع ان تقبض علي الان وتبعث رجالك ليحملوا اليك ابنة عمك جثة مضرجة بالدماء ؟

وكان يتكلم وصوته يملأ المجلس وقد احاطه اولئك السكارى بنطاق من عيونهم الحمراء . . .

ويظهر ان تلك اللهجة الحادة التي كانت دليلا على نبالة شرجيل وعظمة في نفسه ، اثرت في ذي القرنين الى حد انه ابتسم بعد غضبه ، واشار الى حاشد بان يسقي الامير وهو يقول :

اسقه يا حاشد فقد غضب ونحن اردنا ان نمازحه .

وضحك عندئذ ضحك سكران ضيع رشده .

اتدري في اي امر كان يفكر ذلك السكران في تلك الساعة ؟ انه كان يرى نار الفتنة ترسل السنتها الى مأرب ؛ ثم الى البلاط ، ثم تجاوزهما الي المخاليف الكبرى فتلتهمها التهاما .

يشعل تلك النار قتل شرجيل او حمل بلقيس الى القصر . .

وهو بغنى عن الثورة تكرهه على حمل السيف لاجل فتاة .

فلتبق بلقيس اذاً في قصر ابيها ريثما يرى له رأيا آخر ؛ وليفعل شرجيل الان ما يطيب له فسيأتي يوم يندم فيه على موقفه الجريء .

وكان الساقي قد ملأ القدح ومد يده به الى شرجيل .
فتناوله قائلا : اشربه جرعة واحدة لانه دليل على حلم الملك .
وشربه وهو غير خائف من السم الذي يقتل به ذو القرنين رجـال القصر عندما يخرجونه عن حده .
فقال الملك : نفعل اكثر من هذا لنثبت لك ان حلمنا فوق ما تظن . لقـد وهبنا لبلقيس وصيفة من نساء حضرموت هي خير وصائف البلاط .
فانحنى شرجيل حتى لامس الارض .
ـ ووهبنا لها ملء راحتي هذه الوصيفة لؤلؤا من لآلىء التاج .
قال : هذا كثيريا مولاي .
ـ هكذا يكافىء الملك رجاله المخلصين .
ثم قال : والان فلك ان تبقى لتشرب معنا او تنصرف .
ومعنى ذلك انه يأمره بالذهاب .
فنهض قائلا : اسأل مولاي الملك ان يعفو عن ذنبي .
ـ ونحن نسألك ان تنسى ما قلناه لك يا ابن العم .
ومد اليه يده فقبلها وخرج وهو يقول في نفسه :
افعل ما تشاء اذا بقي لك العرش .
لك يوم ولبلقيس يوم يا ابن عمرو .

* * *

عندما دخل شرجيل قصره دعا اليه ابنته وقال لها :
تهيأي يا ابنتي للدخول الى قصر الملك .
ـ انا ؟
ـ نعم انت ، انت بلقيس سليلة الملوك .
ـ وماذا اصنع فيه ؟
ـ تصبحين حظية بين حظايا ذي القرنين .

فابتسمت قائلة : اراك تهزأ بي يا مولاى .

ــ بل اقسم اني لم اقل لك غير ما سمعت .

فتصاعد الدم الى وجه بلقيس وجعلت تنظار الى ابيها كمن اصيب بالذهــول ثم قالت :

ملك حمير يطلب اليك ان ترسلني الى بلاطه لاكون حظية له .

ــ بل امرني بما تقولين وسأفعل .

ــ اذن وعدته يا مولاي ! !

ــ نعم نعم ، ومن يجرؤ على الوقوف بوجه ذي القرنين ؟؟ انه الملك القاسي كما تعلمين وهو ابن عمنا ولا اظن انك تطمعين في زوج اعظم منه .

فسكتت ، وعيناها تختلجان ثم احست ان الارض تهوي من تحتها ، بل احست ان الحياة التي كانت تبسم لها ، اشباح مرت كما يمر السحاب ثم تلاشت .

وكان شرجيل يريد ان يمعن في الاختبار • فقال :

ماذا ترين يا بلقيس ؟ اني اريد الجواب فالملك بالانتظار .

فعادت اليها رصانتها واجابته قائلة :

لقد وعدت يا مولاي وانتهى الامر فانا ذاهبة .

ــ ولكن لا اريد ان تذهبي الا وانت راضية .

ــ وانا لا اريد ان ابقى وانت غير راض . انك لو اردت ان تخيرني بــين البقاء والذهاب لما وعدته .

قال : لقد كان سكران عندما امرني بذلك وكان مجلسه حافلا بالناس فــلم اشأ ان اغضبه .

ــ بل لم تجسر على اغضابه يا مولاي . ! !

ــ اجل فالموت جزاء من يغضب الملك . .

ــ اذن لم يبق الا ان اقول كلمتي قبل ان انصرف ، لقــد شئت يا ابي ان تقذف بي الى هوة عميقة ملوثة فليكن ما شئت ، ولكن اعلم ان هــذا الملك الذي تخاف غضبه والذي ينتقل من حضن الى حضن لن يستطيــع ان ينظر الى بلقيس

بنت الملوك نظرة واحدة . ! !

ــ ماذا تقولين ؟ ؟

ــ اقول ان ذا القرنين السفاح اعجز من ان يضع يــده بيدي اسمعت .. قم الان . فانا سألبس حلة تليق بالملك واخرج من قصرك لادخل الى قصره ولكن اتعلم ماذا اصنع فيه ؟؟ سأطرح بنفسي بين يدي الموت قبل ان تمتد الي يدا الملك. قم يا ابي . ان الساعة التي تثبت فيها بلقيس لاهل اليمن انها سليلة يعفر بن حمير قد اتت الان .

فخنقت الدموع ذلك الوالد البار ومد اليها ذراعيه .

فنهضت وهي تحاول الهرب منه .

فقال : بلقيس .

قالت : منذ سبع عشرة سنة وانا ادعوك ابا لي . اما الان فقد عرفت انك لم تكن ابا بل كنت جبانا يبيع شرفه وشرف آبائه خوفاً من الموت . قم ان الملــك ينتظرك الان وسيغضب كما قلت وقد يضيع رأسك .

فرفع صوته بالبكاء ثم قال : لتباركك الآلهة يا سليلة المجد وابنة المــلوك .. ان ذا القرنين لا يصل اليك وانا حي .

فجعلت تتفرس فيه كأنها تستعيد قوله .

اما هو فكان يقول : تعالي يا بلقيس فقد شرفك اباك وقومك واحييت ذكر يعفر . اني اردت ان المس من جديد عظمة هذه النفس التي تتغلل في صــدرك .

ــ ولكنك اقسمت انك لم تقل لي الا الذي سمعته .

ــ اجل لقد اسمعنى الملك امره فاسمعته ما يكره . اجلسي اقص عليك مــا جرى بيني وبينه في مجلس الشراب .

فزها جبينها المكفهر وجلست بالقرب منه يروي لها حكاية الملك معه ويصف لها سكره .

حتى انتهى الى ذكر الوصيفة التي وهبها لها ذو القرنين فقال :

وهذه الوصيفة التى هي خير وصائف البلاط ؟

قالت : لا اجد في وصيفة من وصائف قصر الملك خيراً يا مولاي ، انهـا جاسوسة ذي القرنين تحصي له انفاس اهل شرحبيل وتحمل اليه اخبارهم وتطلعه على كل ما يجري في قصرك من همس واسرار .

فابتسم قائلا : ولآلىء التاج ؟

ـ اما هذه اللآلىء التي اهداهـا الي فدفعة يريد ان يشتري بها حب بلقيس واستسلامها اليه ...

ولمع الشرف في عينيها السوداوين وارتسمت على جبينها صورة العظمة والعزء للذين تكتنف مظاهرهما نفسها وحياتها .

وقد رأى ابوها نوراً غريباً ترسله تانك العينان ، فقال :

اتظنين ان هدية الملك شرك ينصبه لابن عمه ؟

فجعلت تهز رأسها وهي تقول :

اقسم لك بجميع الآلهة ان ذا القرنين لا ينظر الا الى غرضه ولا يذكر ان في اليمن ابناء عم له .. اجل ، اني لا اعرفه يا مولاي ولم اره غير مرة واحدة يوم خرج الى الصيد ، ولكنك وصفته لي وانا ابني حكمي على وصفك وهذا يكفي .

وخرجت الالفاظ في تلك الساعة ، من فمها ، شديدة متقطعة تقذف بها نفس مضطربة وكانت تقول :

ان ابن عمك يريد ان يجعلني حظية له ثم لولي عهده ثم لرجال بلاطه كما هي الحال مع نسائه اللواتي بعن شرفهن بالذهب الوهاج والابتسامـات الكاذبة ، الا فليعلم هذا الملك النذل ان ذهبه كلـه لا يساوي نعل بلقيس ، واني اعظم من ان اجعل تاجه عصابة لرأسي وعرشه الذي يفاخر به عروش الارض مقعدا لي .

ثم هدأت فجأة ثورة نفسها واخذت تنظر الى ابيها وهي تبتسم بكبر ، كأن ذا القرنين لا يستحق ان يخرجها عن هدوئها غير لحظة قصيرة تمر كما يمر الظل ، فقـال :

لقد ذكرت صفات الملك كما هي دون ان تعرفيه .. انه رجل طمع وحيـلة يرغب ، من الناحية الاولى ، في ان يجعل النفوس والاعراض والشرف في يـده

يعبث بها كيف شاء ويرسلها الى حيث يشاء، ولا يأنف ، من الناحية الاخرى من ان يحني رأسه للذل اذا كان في ذله بلوغ غايته .

ثم قال : ولكني اريد ان اسألك سؤالا يا بلقيس .

ــ هات يا مولاي .

قال : ستجيء وصيفة الملك في صباح اليوم الثاني ومعها لآلىء التاج وستقول انها قادمة بأمر ذي القرنين ، فماذا تصنعين ؟؟

ــ ليس لي ان ابدي رأيا قبل رأيك .

قال : هدية الملك لا يردها غير المتمردين الذين هم اعظم منه .

ــ وانت ترى ان لقبلها يا مولاي ؟

ــ نعم : ولكن هذا القهول خضوع له ورضى بماطلب .

ــ بل هو دهاء يشبه دهاءه الذي يحاربنا به .. الم تكن بلقيس بنت شرحبيل فتاة يمنية ؟

ــ بــلى .

ــ اليس من شرف هذه الفتاة ان يعطف عليها الملك ويغدق عليها نعمتــه وعطاياه ؟ ؟

بــلى . .

ــ اذن فبلقيس تنتظر وصيفة البــلاط لتثني على الملك الذي بث بها اليهــا وترفع اليه فروض الشكر ..!

قال : ما هذا يا بنية ؟

ــ ارجو ان لا تستغرب المظاهر الكثيرة التي سترى. سيكون في قصري عبدة لذي القرنين وحظية من حظاياه .

فهم بالكلام فقاطعته قائلة :

ولكني حظية بعيدة عن البلاط لا يستطيع هذا الملك ان يرفع الي نظــرة .. افهمت الآن ؟

اى انك ستلبسين يا بلقيس حالتين مختلفتين .

ـ اجل ، سألبس حلتين مختلفتين يا مولاي ، احـداهما بيضاء يرى الملـك وصيفته وراءها قلبا يحافظ على الحب ، والاخرى سوداء تحجب قلبا ملتهبا بنار البغض الذي لا يموت ...!

ـ ولكنها حلة لا يراها الملك .

ـ لا يا مولاي ، انه لا يرى غير الاخلاص والاستسلام . وستعرف بلقيس سليلة الملوك كيف تصيد هذا الحميري الوقح ، الذي يحاول ان يجعلها مضغـة في الافواه ... اما الان فقل لي متى تجيء هذه الوصيفة ؟

ـ قلت انها ستجيء غدا اذا بقي الملك على رأيه .

ـ اذا تبدأ غدا حياتي الجديدة وسنرى لمن يكون الفوز يا ذا القرنين .

ونهضت وهي تقول : اتخشى ان يلجأ الملك الى القوة فيبعث رجاله ليحملوني اليه بغد حين ؟

قال : لا يخطر لي انه يجرأ على هذا .

ـ وماذا تصنع اذا فعل ؟

ـ اعمد الى السيف فاذود به عن شرفي ثم اموت .

ـ وانا ..؟

ـ اما انت فتموتين بالسم قبل ان يفتح لك ذراعيه .

فضحكت قائلة : يطيب لي أن اموت في قاعة العرش او في المقصـورة التي يشرب فيها الخمر .

فجعل يحدق اليها كأنه لم يفهم مغزى ذلك القول .

قالت : سأخفي خنجري القصير تحت الثياب ثم اخرج من هذا القصر عـلى العجلة المذهبة الى بلاط الملك ..!

ـ وبعد ذلك ؟

ـ اطلب ان اري ابن عمي الجالس عـلى العرش قبـل ان ارى الوصائف والغلمان .

ـ وهذا ما يرغب فيه ذو القرنين .

ــ اجل ، ولكن عندما امثل بين يديه اتناول خنجري لاضعه في قلبه على مرأى ومسمع من رجاله ، ثم اقول لمن حضر ، اغمدوا الآن سيوفكم في هذا الجسم الذي لا اريد ان يلتحف بالعار .

ــ واذا عمدوا الى ما هو افظع من القتل ؟ ..

ــ امزق احشائي بالخنجر نفسه ثم اغمض عيني ...

فضمها ابوها الى صدره ، وطبع على جبينها الوضاح قبلة الاعجاب والحب.

وانصرف كل منهما الى حجرته يفكر في ذلك الحادث الغريب الذي فاجأه به الزمان .

وقضت بلقيس ليلتها هادئة ... ولكن لم يغمض لها جفن .

• • •

خرج من البلاط ، في صباح اليوم الثاني ، اميران من امراء اليمن ، يحرسان وصيفة بلقيس في طريقها الى قصر شرحبيل .

احدهما ناشر امير ظفار ، وامين سر ولي العهد . الذي ذكرنا لك شيئا عنه في الجزء الماضي .

والوصيفة بينهما على مركبة يجرها اربعة من عبيد ذي القرنين .

وكانت سافرة ليس على وجهها حجاب كالحجب التي تغطي بها نساء البلاط وجوههن .

كأن الملك امرها بالسفور ، ليفتن بجمالها الساحر قلب شرحبيل وقلب ولده الهدهاد ، قبل ان تسحر بلقيس بعذوبة الحديث وفصاحة اللسان .

وامر الملك شريعة لا ترد كما رأيت ، يخفي وجوه نسائه عندما يشاء ، ويرسلها سافرة عندما يشاء ، دون ان يكون للقوم وجه للاستغراب .

الموت والحياة بين شفتي ذي القرنين ، شبح اليمن المروع ، وبطلها العظيم وحامي جزيرة العرب .. ؟

وكان ناشر يريد ان يرى وجه بلقيس الذي وصف له وهو لم يره قط ، ولم يخطر له ان يزور شرحبيل ليبلغ غايته .

وكان يعلم ان مولاه ولي العهد لم يبصر ذلك الوجه ، فهو اذا رآه استطاع ان ان يقص عليه حكاية جماله . ويغريه بالحب .

فلما وصل الموكب الصغير الى القصر ، استأذن الاميران في الدخول ففتح لهما باب السور ودخل الجميع الا العبيد .

وشرحبيل والهدهاد في الدهليز ، ينتظران رسولي الملك . اللذين يرافقـــان الوصيفة الفتانة حاملة لآلىء التاج .

ووقعت العيون على العيون ... فتصافحوا ... ثم انحنى الامير وولده عندما ذكر ناشر عطية الملك التي هي دليل رضاه .

وجلست الوصيفة ، وهي تتظاهر بالخجل ، على وسادة من الارجوان وضعها لها شرحبيل نفسه ..

نعم ، ويكفي ان تكون تلك الوصيفة ، هدية ذي القرنين ، لتكتنفها في قصر الامير مظاهر التكريم والاحترام .

ولم تكن غير لحظة ، حتى خرج الهدهاد يدعو بلقيس الى القاعة .

فاقبلت ... ونور الجمال والجـــلال يتدفــق من ذلـــك الوجه الذي لم تر مثله العيون ...

فوقف الاميران . وقد رأيا فتاة لا تذكر عندها نساء البلاط ، عـــلى رغم جمالهن الخلاب الذي اختاره ذو القرنين لنفسه .

بنان هما عينا غزال . وجبين عال تقرأ عليه سطور العز .. ووجـــه مستدير جعل الله من ما فيه فتنة للالباب .

وكأن لقيس لم تشأ الا ان ترسل سحرها . فنظرت اليهما نظرة قصيرة فيها الرصانة والعظمة ، افتر ثغرها عن ابتسامة اقصر ، فيها الرضى والعذوبة .. ثم قالت لهما :

اني بين يديك يا مولاي .

قال : لقد اراد مولانا الملك ان يهب لك احدى وصائف بلاطــه وبعض لآلىء تاجه . .

فاجابته قائلة : حِسب بلقيس شرفا ان يذكرها مولانا الملك . ولكن لآلىء التاج لا يستحقها غير رأسه .

فقاطعها ناشر قائلا لو لم يكن رأس الاميرة اهلا لهــا لمــاانعم عليه بها الملك.

قالت : ارجو ان تنقلا الــيه شكر عبدته بلقيس واحترامها اياه . وخضوعها لسلطانه .

والتفتت الى ابيها كأنها تدعوه الى القول ، فقال :

وخضوع شرحبيل بن عمرو ومن حوله ؛ له ولولي عهده . . .

ثم احست كأن ناشرا يريد ان يفترسها بعينيه ، فقالت له ألا تذكر اسمك ايها الامير ؟ ؟

فقال : ناشر امير ظفار .

وزاد شرحبيل بقوله : انه رفيق مولانا ولي العهد وصاحب سره، اما الاميرالاخر فعتيك بن روضة صاحب مخلاف نحلة .

فرفع ناشر رأسه تيها وكبرا .

ــ وهي تشبه همدان في السعة وكثرة الجيش .

فاضطرب ناشر لذكر همدان . ان اميرها في البلاط غدو له كما قرأت فــلا يطيق ان يذكر اسمه . فقال :

اری سيدتي الاميرة تحسن وصف المخاليف .

ــ نعم فقد سمعت هذا الوصف من ابي ومن الامراء الذين يزورونه في هــذا القصر كل يوم .

ــ ولكن ظفار يا مولاتي اعظم من همدان .

ــ لقد رددت ما سمعته من الناس وليس لي شأن بالامر .

وفي تلك اللحظة جولت نظرها الى الوصيفــة الحسناء التي لم تجد عليها منذ دخولها القاعة ، بنظرة واحدة ... فرأت عينين ساحرتين ووجهــاً خلاب

المحاسن يفيض الجمال منه . فقالت لها وهي تنظر الى ناشر : ارفعي رأسك ايتها الفتاة فانت هدية مولانا الملك .

فرفعت الوصيفة رأسها وارخت نظرها الى الارض .

فقالت بلقيس في نفسها :

لقد اعطاك ملك حمير شيئاً من دهائه .

ثم خاطبت اباها بصوت هادىء يسمعه القوم قائلة له : اذا اردت يا مولاي ان تأذن لي في الانصراف فر هذه الوصيفة بان تلحق بي الى الجناح الآخر .

فكأنها قالت للاميرين : ان المهمة التي قدمتما لاجلها قد انتهت فانصرفا الآن ونهضت قبل ان تسمع جواب شرحبيل .

وماذا يفعل ناشر في ذلك القصر اذا حجبت جدره ذلك الجمال الفتان عن عينيه ؟؟

فنهض بدوره وعيناه تتبعان بلقيس وقد ملأ ذلك الجمال نفسه وقلبه حتى خيل اليه ان صاحبته من نساء الجنة .

ثم صافح شرحبيل والهدهاد ، وصافحهما بعده امير نحلة وهما يسمعان الفاظ الثناء على الملك وولي عهده .

غير ان ناشرا لم يكن يبالي بما يسمع ، بل كانت روحه وذهنه يطوفان في تلك الاروقة التي تغلغلت فيها الاميرة الساحرة .

وليس غريباً ان يحب ناشر بلقيس ويملأ الاعجاب بمحاسنها نفسه ، بل الغريب انه احبها لمولاه ولم يحبهـا لنفسه ، كما يخيل اليك . وآثر ان تكون هذه الحورية السماوية لولي العهد على ان تكون لسواه من اشراف اليمن .

وكان يفكر ، وهو خارج من القصر ، في امر واحد ، هو ان شرحبيل ابن عمرو اذا رفض اليوم ارسال حسنائه الى البلاط ، فهو لا يستطيع ان يصر على رفضه غدا ، وسينتهي الامر بان يتلألأ نور بلقيس في ذلك القصر العظيم ، ويحجب تلك الانوار الكثيرة التي يعيش في ظلها ذو القرنين ، وابنه عمرو ، والرجال الذين يحيطون بالاثنين .

ولم يقم في ذهنه ان في اليمن قوة تستطيع ان ترد امــر الملك الذي هو اعظم من الآلهة .

حتى امسى خارج السور وعاد شرحبيل والهدهاد الى الدهليز ، فقال لرفيقه : ماذا رأيت يا عتيك ؟

قال : ليس في بلاط مولانا الملك فتاة تشبه الاميرة الحميرية التي رأيت اليوم ، انظن ان الملك يسكت عن امره مع شرحبيل وينسى هذا الجمال الذي وصف له ؟

ـ سيقوم ولي العهد بامر تذكير ابيه عندما ينسى ... اني سأنقل اليه كل ما رأيت وسأفعل في وصف جمالها كما تفعل الشعراء .

قال : الم تسمع من قبل ان بلقيس لا تسفر ؟

ـ بلى ، وقد رأيتها اليوم سافرة ترسل الي نظرات السحر ...

ـ وما معنى هذا ؟

ـ معناه انها تريد ان نقص على الملك وولده من روعة الحسن .

ـ ولكن اباها لم يشأ ان يجعلها حظية للملك .

ـ ومن قال لك انه خبرها ما دار بينه وبين الملك من الحديث ؟

افلا يجوز ان تريد بلقيس غير ما يريده شرحبيل ؟

فسكت عتيك ، ثم ركب الاثنان سفريهما وجرت العبيد المركبة وراءهما الى البلاط وهما يفكران فيما رأيا .

* * *

٣

ما وراءك يا ناشر ؟

قالها الملك وولي العهد جالس بين يديه .

فقال : ورائي فتاة لو جمعت الحسن الذي وهبته الآلهة لنساء اليمن كلهن لما كان عند جمالها شيئاً .

قال : بلقيس ؟؟!

ـ نعم يا مولانا ، ولو غزوت الشرق من ادناه الى اقصاه وسبيت اجمل نسائه لما وقعت العين على وجه يستهوي القلوب مثل وجه بلقيس . . انها يا مولاي اشد بهاء من الشمس التي تطلع من وراء جبال العرم ، وابعـد نورا من القمر الذي يبسط ظله فوق مأرب في ليالي الصيف . بل قل يا مولاي انها جنية هبطت من الفضاء لتكون فتنة لاهل اليمن !!.

فجعل ذو القرنين ينظر الى ولي عهده وعيناه تختلجان .

ثم قال : ماذا تصف لنا يا ناشر ؟

ـ اصف بلقيس يا مولاي وانها لاعظم مما وصفت !

قال : ومع ذلك فشرحبيل بن عمرو يبخل بها على مليكه ولا يريد ان يهبها او يبيعها بما عندنا من الذهب .

ـ ومن يستطيع ان يبخل بروحه اذا ارادها الملك ؟

ـ الناس يجودون علينا بالدماء والارواح وابن عمنا يبخل بابنته ؟ .

واطرق ساعة يفكر فيما سمع . ثم رفع رأسه قائلا :

وانت يا عتيك ، ارأيت ما رآه ناشر ام ماذا ؟

ـ رأيت ما رآه يا مولاي وازيد على قوله ان الشرق لا يخلق في عشرين جيلا فتاة مثل بلقيس !

ـ وماذا سمعتما ؟

ـ سمعنا كلمات الشكر تسندها مظاهر الخضوع .

ـ انها مظاهر كاذبة لا نبالي بها .

ـ واذكر كلمة قالتها الاميرة انقلها الى مولانا الملك .

ـ هـــات .

سمعتها تقول انها العبدة الخاضعة للملك ما دام على العرش .

فبرقت عيناه كأن تلك الكلمة الجوفاء ابقت على الامل الذي كاد يضيع .. ثم

استعادها فاعادها عتيك ووجه الملك يزهو وثغره يفتر حتى ظن القوم ان بينــه وبين بلقيس عهداً .

ثم قال : انصرفا ايها الاميران وليبق عمرو .

فقبلا رداءه وخرجا .

وكان عمرو ساكتاً وقد انصرفت قواه كلها الى قصر شرحبيل ،

فقال الملك : اليس لك رأي في هذا يا بني ؟

قال : لقد جاوزت الحد في حلمك يا مولاي واخشى ان يطمع فيك ابن عمك بعد حين !!

فضحك قائلا : لم يكن سكوتنا حلماً بل دهاء املاه الغضب .

ــ ولكني اسمي هذا الدهاء ضعفاً يا مولاي .

قال لا تعد الى مثل هذا يا عمرو فذو القرنين الذي حطم عروش الملوك وداس تيجانهم بنعله لا يخاف احــدا ولا يعرف الضعف . انسيت اباك الذي جعل لك هذا الملك الواسع قذى في عيون ملوك الشرق انك لا تعرف هذه الحياة يا بني الا كما كنا نعرفها ونحن في فجر الشباب نتمرغ في احضان الترف والدلال . . . افتظن ان الملك الجالس على عرشه ليس له سلاح غير السيف ؟

ــ واي سلاح يتخذه الملك في امر مثل هذا ؟

ــ سلاح الحيلة التي لا يذكر عنده السيوف .. اسمع يــا بني ، اليس العرش في نظرك اغلى من الحسان تجعلهن في قصرك ؟

ــ بــلى . . .

ــ وهل يخطر ببال ولي العهد ان يزعزع اركان عرشه قبل ان يتربع فيه ويخضع له القوم ؟؟

ــ ومن يفعل ذلك يا مولاي ؟

ــ انت : انك تؤثر ان تبلغ الغاية من شرحبيل بحد السيف وانت لا تعلم ان له في مخاليف اليمن سيوفاً قاطعة يشهرها الامراء عــلى الملك دفاعاً عنه .. نعم ليس بين هؤلاء الامراء من يثبت في الساحة الى النهاية ، ولكنهم يستطيعون ان

يسفكوا الدماء وينشروا الجثث حول مأرب . ويجعلوا الناس في المخاليف فريقين هذا يغضب على صاحب التـاج وهذا يغضب له .. واي شيء يكره الملك على الغوص في هذه اللجة الحمراء ... قل يا عمرو ... ايغوص فيها من اجل فتـاة يأنف ابوها من ان يجعلها حظية في البلاط ؟؟! ومن هي هذه الفتاة التي تبذل في سبيلها نفوس القواد والزعماء ؟ انها من سلالة يعفر بن حمير الذي كان لـه بعد جدك الحق الاول بالتـاج الذي تراه على رأس ابيك .. اذن فذو القرنين الذي يسعر نار الحرب في بلاده طمعاً في عينين فاترتين ساحرتين لا يصلح للملك الذي تركه له آباؤه ، ولا يستحق ان يلبس التاج الحميري الباسط نفوذه في البر والبحر تحت كل سماء ! واذن فالملك الذي يقتل شعبه ليضم ابنة عمه الى نساء قصره جدير بان يموت تحت اقدام النبلاء .

وجعل ينظر الى ولده ضاحكا ضحك الساخر .

فحنى عمر رأسه وظل ساكتاً .

فظن ذو القرنين انه رضي بما قيل له ، فقال :

اما وقد فهمت يا بني كل شيء فاذهب الآن .

ونهض عن وسادته وهو يهم بالخروج ، فاستوقفه قائلا :

بقي شيء آخر لم افهمه يا مولاي .

ــ ما هو ؟

هو هذه الحيلة التي ذكرتها لي دون ان تقول عنها كلمة .

ــ اي انك تريد ان تعلم كيف تصبح بلقيس حظية في القصر ؟

ــ نعم .

ــ لقد نسي الملك بلقيس على رغم ذلك الجمال الفتان الذي ذكر له فارتجف صوت الفتى وهو يقول :

ما كنت اظن ان مولاي الملك يطلب اليوم امراً ثم ينزل عنه في اليوم الثاني .

قال : نزلنا عن هذا الامر لولي العهد الذي رأينا غرامه ظـاهرا في عينيه .. ومع ذلك فقد قلنا لشرحبيل امس ان ابنتـه ستبقى في قصره وقد وهبنـا لها ما

علمت .. اي ان الملك طلب امراً ثم نزل عن ذلك الطلب في ساعة واحدة .
ـ اذن لم يبق لولي العهد شيء يا مولاي !.
ـ بقي ان نظهر الرضى لابن عمنا حتى لا يفاجئنا بالعصيان ، ثم نسأله بعد ذلك ان يجود بابنته زوجة لولي عهدنا بدلا من ان تكون حظية للملك .
فاشرق جبينه قائلا : ومتى فكرت في ذلك يا مولاي ؟
ـ في هذه الساعة عندما ذكر ناشر وعتيك جمال بلقيس ، لقد عرفت ان شرحبيل سيمنع ابنته وسيقتلها بيده اذا عجز عن الدفاع فلا نبلغ الغاية . فخير لنا ان تكون زوجة لك وان يبقى شرحبيل من انصار الملك ، من ان تسفك الدماء في مأرب وترتفع السيوف والاصوات في المخاليف .
ـ واذا لم يرض شرحبيل بان يزفها الي .
فاسود جبين ذي القرنين قائلا : الويل لشرحبيل اذا خطر له ما تقول انه يصبح في تلك الساعة عدو العرش الذي يهدر الملك دمه ولا يرجع عنه حتى يمحوه ويمحو ذريته من الوجود . ويلك يا عمرو اتظن ان على الارض رجلا يأبى ان يجعل بنته زوجة لوارث التاج الحميري ؟ واذا وجد هذا الرجل فكيف يستطيع ان يعيش وذو القرنين غير راض عنه ؟ اما والذي رفع هذه السماء لئن فعلها شرحبيل لاربطن عنقه بوتد في جدار القصر واجعلن رجليه في سور من الجلد تجذبها صدور الخيل بالشدة والعنف حتى تنزع اعضاء جسمه واحداً بعد واحد وعيون الاشراف ترى كل هذا ..! ثم احمل بلقيس مقيدة اليدين والرجلين واطرح بها تحت ارجل الفيل « هوزه » فتمسي في ساعة واحدة جسما مهشما لا يبصر الناس له لا يد ولا وجها ..!
ثم عاد فجأة الى الابتسام وخفض صوته قائلا :
ولكن الوصيفة التي بعثنا بها الى ابن العم ستحصي عليه وعلى ابنته انفاسهما وتنقل الينا كل ما تسمعه من الاثنين ومن اهل القصر .. فاحذر ان تقول لاحد ان الوصيفة جاسوسة الملك. ولا تذكر ذلك لناشر . كثير الكلام لا يحفظ الاسرار ولا يخاف الاقدار .

ــ وكيف تستطيع الوصيفة الخروج من قصر شرحبيل عندما تشاء ؟
ــ ان لها في البلاط اختا تخرج لتراها بامر الملك .
ــ ومتى تنظر في امر الزواج يا مولاي ؟
ــ لا تعجل في امرك يا بني .. ان الوصيفةستبدأ بذكر ولي العهد امام بلقيس لتقرأ ما في نفسها وتسمع رأيها فيك .
ــ ثم ماذا ؟
ــ تقص علينا حكاية حبها اذا احبت ... فيعمد الملك الى دعوة شرحبيل وولديه وطائفة من الاشراف لقضاء يوم كامل عند انقاض السد نصيد في واديه الوحش والطير ...
ــ وفي ذلك اليوم يصافح عمرو بلقيس ويهمس في اذنها كلمة الحب .
ــ اجل : ثم يزورها بعد ذلك في قصر ابيها ويشكو اليها هواه ما طابت له الشكوى حتى توثق الايام عرى الغرام .
ــ ولا يبقى عندئذ الا ان تنتقل من قصر شرحبيل الى بلاط الملك لتصبح ولية للعهد ..
فضحك قائلا : لقد سلبت لبك بلقيس وانت لم ترها بعد ..
ــ نعم يا مولاي ومن لا يعشق تلك الحورية الهاربة من السماء .
فاصبح ضحك الملك قهقهة وانصرف وهو يقول في نفسه : يريد ولي عهدنا ان يتخذ الفتاة التي لم يشأ ابوها ان يهبها لنا ، زوجة له .. انه لا يهتم لكرامة الملك بل يهتم لنفسه وقد نسي ان اباه لا يغفر لشرحبيل ذنبه الا بعد ان تصبح بلقيس احدى حظاياه !!! اذن فليصبر ولي العهد .. ان الفرج يعقب الصبر .. ولكن بلقيس لا تزف اليه والملك حي ...

***

٤

تقدمت بلقيس وصيفتها الجديدة الى حجرتها وهي تبتسم باستخفاف فيه كل الدهاء .

وقد قام في ذهنها ، ان لهذه الفتاة الحسناء شأناً في بلاط ذي القرنين . ولو لم يكن لها هذا الشأن لما خطر له ان يجعلها موضع سره ، ويختارها لمثل هذه المهمة الصعبة التي لا يظفر بها غير المجربين .

وهي تعلم ان اهل حضرموت اهل ذكاء وفطنة . وخبث ودهاء وان الملك ارسل اليها ادهى نساء بلاطه لتحمل اليه الاسرار .

فلما وصلت الى حجرتها اشارت اليها قائلة : هذه لي ، واومأت الى حجرة بالقرب منها تقول : وهذه لك مع ما يجاورها من المقاصير ...

فانحنت الفتاة ساكتة .. ولو حولت بلقيس نظرها اليها لرأت على خديها الدموع ..!

نعم : كانت تلك الوصيفة تبكي بهدوء وبلقيس لا تعلم حتى دخلت الاثنتان فجلست بنت شرحبيل على مقعدها الذي يشبه مقاعد الملكات واومأت اليها بالجلوس .

ولكنها رأت في تينك العينين الجميلتين آثار الدموع . فهمت بان تسألها عن ذلك ثم عدلت عما همت به وخاطبتها قائلة : انك لا ترين في هذا القصر ما تعودت ان تريه في بلاط مولانا الملك من مظاهر العظمة والعز .. البلاط يغص بالفتيان النبلاء والجواري الحسان .. وليس في هذا القصر غير بعض الغلمان وجارية لي تدعى نائلة .. هنالك السعة والبذخ اللذان ليس لهما حد ، وهنا العيش الهادىء الذي رضي به رب القصر وولداه ... فاذا اردت ان تعيشي في هذا كما كنت تعيشين في ذاك فاذكري حاجاتك مهما تكن هذه الحاجات لاسأل ابي ان يقضيها لك الساعة .

فتمتمت قائلة : اني ابحث يا مولاتي عن العيش الهادىء فلا اجد له اثرا في بلاط الملك .

فقالت بلقيس في نفسها :

هذا اول مظهر من مظاهر الرياء ، ثم قالت لها :

سمعت انك من حضرموت أليس كذلك ؟

ـ نعم يا مولاتي .

ـ واسمك ؟

ـ نعمي بنت الريان .

ـ وليس لك من العمر اكثر من سبع عشرة سنة .

ـ بل انا في الثانية والعشرين .

ـ متى قدمت مأرب ؟

ـ كنت يا مولاتي في الخامسة عشرة .

ـ اذن مضت عليك سبعة اعوام وانت في البلاط .

ـ نعم وانا احسب انها سبعة اجيال :

وشهقت بالبكاء . !

قالت : انا اعلم لماذا تبكين . ان الاقامة بهذا القصر لاتطيب للحسان اللواتي قضين الاعوام في قصور الملوك . ولك في ذلك عذر يا نعمى فان الجمال الذي وهب لك لم يخلق الا للجالسين في العروش .

قالت : انا لا اشكو غير هذا الجمال الذي كان بلية علي .

ـ ولكن البلايا لا تطول في بلاط الملك . انه احاط نساءه بجميع اسباب النعم ، وملأ احضانهن ذهبا يعيش به اهلهن الى الابد .

ـ الا نعمى بنت الريان فقد ملأ قلبها حِسدا وصدرها بغضا وحقدا يبقيان ما بقيت .!

ـ انت ؟

ـ اجل انا .. انا التي انحنت عند قدمي رؤوس الفتيان الاشراف في حضرموت

وبذل كل واحد منهم ما يملك من المال لاكون له .

وكان ذلك ــ في نظر بلقيس ، مظهراً آخر من مظاهر الدهاء .

فقالت وهي لم تخرج عن رصانتها وماذا جرى لك بعد ذلك ؟

ــ ارسل ذو القرنين نديمه جاشداً الى حضرموت يشتري له العذارى الحسان ويعطي اهلهن المال الكثير للحصول على غايته والويل للوالد الذي لا يبيع بنتــه لنديم الملك .. ان جزاءه الموت في السوق .. ثم تساق العذراء بالسيف الى مأرب ويقذف بها الى ذلك الاتون الملتهب بنار الشهوات .!

وكانت الدموع تتساقط على خديها فلا تمسحها ولا تعبأ بما تقول حتى خيل الى بلقيس ان تلك الالفاظ المتقطعة لا تصدر الا من نفس متألمة تسودها الكآبة الدائمة ...

ولم تسكت نعمى ، بل كانت تقول وهي ترسل الزفرات :

نعم ، لقد كره الريان سيد حضرموت في ذلك الحين ان يبيع ابنته . . فقال لحاشد : ليس لي من الولد غير نعمى فلا ابيعهــا . . وفي ذلك القول يا مولاتي جرأة غريبة هي السبب في هذه الكآبة التي لا تزول .

فتظاهرت الاميرة بالاستغراب قائلة :

ان لوجودك في البلاط حكاية فاعمدي الى الجلاء .

قالت : خلاصة هذه الحكاية ان ابي قتل في سوق حضرموت ضربــا في السوط . .!

ــ ومن هو قاتله ؟

ــ حاشد ... ولم يشأ ان يصغي الى الشفاعات .. ثم امر فضمني عبيده الى العذارى اللواتي اشتراهن وحملت الى هــذا البلاط الاسود الذي لم اخرج منه الا اليوم .

فدب الريب في صــدر بلقيس ، ان نعمى رسولة الملك فليس من الرأي ان تصدق ذلك الحديث الذي روت . ولكن .. ولكن الوموع التي تذرفها الفتاة ،

دموع صادقة لا تستطيع العينان ان تجعلها سلاحاً كاذباً ... الا اذا كانت نعمى ادهى واخبث النساء ، فقالت لها :

ـ الم تقصي ما جرى لك ولابيك على الملك ؟

فابتسمت بألم قائلة : خبرت الملك ورجال الملك فلم اسمع من الجميع غير كلمات الاستهزاء ...

ـ ومن المرأة التي كنت وصيفة لها في البلاط ؟

فاخفت وجهها بيديها وهمست تقول :

كنت حظية لذي القرنين ثم امسيت وصيفة لاحدى نسائه .

فدهشت قائلة : من حظية للملك الى خادمة في القصر ؟؟ انه قول لا يصدقه الناس عن ذي القرنين الذي يحب الجمال .!

اقسم لك بتربة ذلك الولد المسكين الذي قتل ظلماً اني لم اكذب ولم ازد حرفاً واحداً على ما جرى لي .

ـ اذن رأى الملك خيراً منك بين حظاياه فصرفك عنه الى خدمة المرأة التي احب ...

ـ لقد ملني يا مولاتي ومل بكائي فحطني من مقامي كما ذكرت .

ومع ذلك فليس لي ان اشكو ، ان البعد عن الملك هناء لي وانا اهب نصف حياتي لمن ينقذني منه ومن بلاطه .

فجاء دور بلقيس في الدهاء ، فقالت :

لا تهيني صاحب التاج ايتها الفتاة ..!

ـ لقد قتل ابي بامره ثم اهانني وعبث بي ..

قالت : ان ارواح الناس واموالهم واعراضهم للملك فليس لاحد ان يشكوه او يذكره بغير التكريم والاحترام ...

فرفعت رأسها بكبر قائلة : يقتل ابي .. ويلوث عرضي ! ! وانا خاضعة للقوة لا اقول كلمة ؟؟ ..

ـ افعلي ما تشائين في غير هذا القصر ان بلقيس التي هي عبدة الملك لا تسكت

عن الاهانة التي توجه اليه . . . ولو كان الفاعل ابي ، شرحبـيل بن عمرو . . .

ـ اراك شديدة الاخلاص لذي القرنين ايتها الاميرة !!

ـ نعم كما ان ابي عبد من عبيده وسيف قاطع بين سيوفه . . .

ـ ولكنك تقذفين بنفسك الى اشداق الموت وانت لا تعلمين .

ـ اني من سلالة يعفر بن حمير والشريف لا يخون مليكه . .

ـ وانا من سلالة الامراء يا مولاتي وقد ورثت الشرف من آبـائي . . الذين كان امر حضرموت في ايديهم قبل ان يظهر ذو القرنين الى هذا الوجود .

ـ ومعنى هذا ؟

ـ معناه اني كنت احترم الملك واحبه قبل ان تطرحني الاقدار بين يديـه ، اما الآن فقد رأيت انه لم يكن اهلا لذلك الحب بل رأيت انه لا يستحق الا . . اللعنة . . ان الشريف لا يخون الشريف ولكنه يخون النذل الذي يدوس الشرف ويستحل الاعراض والدماء .

واسود وجه الفتاة ، وجعل صدرها يعلو وينخفض من شدة الغضب ، والالم ، الظاهرين في كل كلمة من كلماتها الجارحة .

وكان صوتها يملأ الحجرة ، حتى ان شرحبيل الجالس في الغرفة المجاورة كان يهم بالخروج ليأمرها بالسكوت .

اجل : لقد سمع شرحبيل كل شيء . وكان يرغب في ان يرى وجهها ليتبين في تلك الساعة ملامح ذلك الوجه .

وقبل ان يغادر موقفه سمع ابنتـه تنادي جاريتها نائلة ثم سمعها تقول لهـا : ارسلي الي اخاك نائلا وقولي لابي وللهدهاد ان يحضرا الآن .

فقالت نعمى وقد خفضت صوتها :

اصبري يا نائلة ريثما اقص على الاميرة حكاية جديدة عن مولاهـا الملك لم تسمعها بعد .

والتفت الى بلقيس وهي تقول :

يخيل الي انك تريدين ان تطرديني من هذا القصر .

ـ نعم فانا لا احب ان اسمع اكثر مما سمعت .

ـ والى اين تبعثين بي ؟

ـ الى البلاط فانا لا اطيق النظر الى وصيفة خائنة .

قالت : خير لي ان تأمري بقتلي يا مولاتي من ان يحملني رجـالك الى القصر الذي خرجت منه .

ـ ان الملك وحده يأمر بالقتل ، اما انا فقـد عرفت الآن انك لا تصلحين للخدمة في قصر شرحبيل وهذا يكفي .

ـ واما انا فقد جئت الى هذا القصر على امل ان لا اعود الى الاقامة بالبلاط يوماً واحدا .

ـ وستعودين الآن الا اذا اعترفت بان حديثك عن الملك كان جنوناً .

ـ سأعترف لك بكل شيء ثم ترين بعد ذلك من هو المجنون انا ام الملك .

قالت : علي بنائل وليخرجها الساعة .

فغمرت ثغرها ابتسامة قصيرة ثم رفعت يدها اليمني الى العلاء قائلة :

لا تغضبي الآلهة ايتها الامـيرة . اني لن اعود الى بلاط الملك ولو ارسلتني اليه السماء .

ـ ولكني لا اريد ان تبقي في هذا القصر .

ـ وانا لست باقية .. لقد اقسمت اني سأنقذ فتاة من العار وسأفعل ثم اخرج من قصرك الى الابد !!

ـ ماذا ؟. تنقذين فتاة من العار ؟؟

ـ نعم وامنع اليد الجانية من ان تلوث شرفها ثم اموت .!

ـ ومن هي هذه الفتاة ؟

ـ هي انت .. انت بلقيس الحميرية التي ذهب لك في البلاد صيت وذكر .

وكأن الصاعقة انقضت على بلقيس . اتبوح لها نعمى بذلك السر الهائل الذي لا يعرفه غير الملك ثم تظن بها الظنون ؟؟

انها اذن فتاة بلهـــاء لا تستطيع ان تكيد ذا القرنين الذي يبذل دهـــاءه كله ليجعلها بين نسائه .

وكأنها عرفت في تلك الساعة ما يجول في صدر نعمى لكنها ظلت على جفائها خوفاً من ان يكون ذلك الغضب دورا تلعبه الفتاة بامر الملك فقالت لها : انـــا هي الفتاة التي تريدين انقاذها من العار ؟

ـ قلت انك هي ، واعيد قولي الآن ...

ـ ومن يستطيع ان يهدد شرفي وانا في قصر ابي ؟

فنظرت الى نائلة نظرة قصيرة ثم سكتت .

كأنها لم تشأ ان تبوح امامها بما في الصدر .

فأومأت بلقيس الى جاريتها تأمرها بالخروج ثم هامستها قائلة : قولي الآن من هو الذي يهدد شرف بلقيس .

ـ هو الملك الذي تذكرين اسمه كما تذكرين اسماء الآلهة .

ـ الملك نفسه ؟

اجل وقد ارسلني اليك لأنقل اليه كل كلمة تقولينها لابيـــك او لاخيك او لاحد الغلمان !

ـ ولكن ليس للملك شأن مع بلقيس .

ـ ان للملك شأنا مع هذا الجمال الفتان الذي تسحرين به قلوب الفتيان .

ـ اي انه يريد ان يكون هذا الجمال له لا لسواه .

نعم ، وقد طلب الى شرحبيل ابن عمه ان يبعث بك الى البـــلاط لتكوني من حظاياه .

قالت : لم يذكر لي ابي شيئا من هذا .!

ـ اما انا فقد ذكرته الآن ولا ابالي . . وسأموت بعد ساعة قريرة العين لاني احبطت مساعي الملك الظالم القاسي القلب .

ومدت يدها الى كمها فاخرجت خنجراً كالخنجر الذي تخفيه بلقيس في ثوبها وهي تقول :

قلت اني لن اعود الى بلاط الملك وسأثبت هذا القول .

فاجابتها بهدوء قائلة : ستموتين بعـــد ان تقصي علي كل شيء . قولي ، ولا تنسي كلمة مما حدثك به ذو القرنين .

ــ سأفعل ، على رجاء ان تذكري قولي بعد ان اترك هذا العالم وتعملي به .

ــ اعدك بهذا ...

ــ بل اسألك يا مولاتي ان تقسمي لي بشرف جـــدك يعفر انك ستكونين عدوة للملك .

ــ اقسم لك اني سابغض الملك اذا هو حاول ان يهين شرفي كما تقولين .

قالت : لقد رضيت فاسمعي :

كان الملك يسكر عندما طلب من ابيك ان تكوني له .

ــ ومتى كان ذلك ؟

ــ امس ، ولكن اباك اغلظ له في القول حتى نزل عن طلبه واوهمه ان ذلك الطلب كان مزاحا .

ــ نعم .

ــ ثم اظهر له رضاه بقوله : لقد وهبت لبلقيس خير وصائف البلاط وخير لآلىء التاج وقام ابوك فخرج وانا لا اعلم ماذا يضمر لذي القرنين .

ــ ومن كان حاضراً من الامراء ؟

ــ اولئك الذين تعودوا ان يشربوا معه الخمر كل يوم بينهم حاشد اللعين نديم الملك وساقيه .

ــ ثم بات يشرب على عادته حتى انتصف الليل .

ــ لا يا مولاتي بل ترك الكاس غاضبا وامر نديمه بان يدعوني اليـــه بعد ان صرف رجاله ثم باح لي برغبة نفسه التي هي رغبة ابليس .

ــ وكان حاشد يسمع ؟

ــ لقد امره بان يترك القاعة فخرج منها ولكن ليضع اذنه على الباب .

ــ ماذا قال ؟

ــ بدأ بذكر الدموع التي يراها في عيني كل صباح ، ثم طلب الي ان اصفح عن ذنبه ، كالذليل الجبان يحني رأسه حتى يلامس الارض لينـــال غاية لـــه . فعرفت ان وراء ذلك الاستغفار عار آخر يريد ان يلحقه بي ، وجريمة جديـــدة يؤثر ان يمد اليها يدا ناعمة كيد نعمى المسكينة . التي قتل اباها وفضح كرامتها ، ولكني لم اظهر له غير الخضوع ، ولم انظر اليه الا والابتسامة الكاذبة على شفتي . . وقد وعدني اللعين انه يعيد الي مقامي في بلاطــه ويجعلني من جديـــد حظية له ولولي عهده .. ثم قال :

اتعرفين بلقيس بنت شرحبيل ؟

ــ لا يا مولاي .

ــ وهل تعرفين شرحبيل نفسه ؟

ــ نعم وانا اراه في قصرك واعرف انه ابن عمك .

قال : لقد سألناه ان يبيعنا ابنته فلم يرض . . .

فقلت : اقتله يا مولاي ومر رجالك بان يحملوا اليك بعد موته تلك الفتاة التي احببت . . !

وخفت ان يغضب لذلك القول فيضرب عنقي ، غير ان السكر كـان عونا لي فلم يدرك مغزى كلمتي بل اجابني قائلا : انه من انسباء الملك ولـــه في اليمن الاعوان والانصار فليس من الرأي ان نشهر الحرب لاجل بلقيس .

ثم قال : ولكني اريد ان ابلغ بالدهاء ، ما لم استطع بلوغه بالقوة ، وقد تركت رجال الرأي والامراء واخترت لهذه الغاية فتاة من فتيات البلاط هي انت ! ! .

فترددت في الجواب يا مولاتي . . ثم خطر لي ان اتصدى له في امره واجرب دهائي في احباط مسعاه فقلت :

اني عبدة الملك فليأمر بما يشاء . . .

قال : ستصبحين غداً في قصر شـرحبيل وصيفة لابنته وتحملين اليها بعض اللآلىء هدية من الملك.

ثم قص علي ماجرى بينه وبين ابن عمه ، ولكني لم اعلم في تلك الساعه ما هي المهمة التي ندبني اليها..

أأكون وصيفة في بلاط الملك ثم اصبح وصيفة في قصر شرحبيل ؟؟ وما هي الغاية من هذا الانتقال الذي لا معنى له ؟ ! بلى لقد عرفت ، ان الغاية منه شريفة طاهرة مثل جميع غايات ذي القرنين اتعرفين ما هي ؟

ـ لا ..

ـ انه يريد ان انفخ في صدر بلقيس روح الحب ، واقص عليهـا حكايات الغرام التي تجري في البلاط ، واصف لها الملك وصفـا يحملها على هجر ابيهـا واخيها لتلقي بنفسها بين ذراعيه ! أفهمت الآن يا مولاتي ما هي غاية الوصيفةالتي ارسلها اليك الملك .

قالت : وماذا يصنع ان لم يخفق هذا القلب على حبه ؟

ـ يعمد الى حيلة افظع من هذه هي انـه يبعث رجـاله في ليلة من ليـالي الشتاء الى هـذا القصر فيعصبون عيني بلقيس النائمة ، ويحملونها اليه قبل ان يبزغ الفجر ..!

ـ وحراس القصر ورجاله ؟؟

ـ ابعدهم عنه في تلك الليلة بامر من مولاي شرحبيل .

ـ ومن ينقل اليهم هذا الامر ؟

ـ انا !

ـ ومن يفتح ابواب القصر ؟

ـ انا !

ـ اذن كان الملك يتآمر على بنت عمه ؟ !

ـ نعم ، ولكني سمعته يقول:

لا الجأ الى هذا الامر الا اذا اكرهتني عليه بلقيس .

ـ اي انه يهاجم القصر في ظلام الليل عندما يعلم اني لا احبه ولا ارغب فيه ..

ـ نعم

– وينسى عندئذ ان لشرحبيل الاعوان والانصار في اليمن ؟

– ينسى عندئذ كل شيء ويشهر السيف في وجه كل امير يرفع صوته .

والآن فارجو ان تذكري نعمى بنت الريان يا مولاتي كلما ذكرت الملك .

وهمت بأن تغمد خنجرها في صدرها المضطرب .

فانتهرتها قائلة : لي كلمة اخرى اقولها لك قبل ان تفعلي .

– قولي كلمتك .

– لقد ذكرت الآن انك لم تعرفي بلقيس التي تخاطبينها الساعة .

– اجل لم اعرفها الا اليوم .

– اذا لم يكن هذا الموقف دفاعاً عنها ، بل كان عاطفة بغض تضمرينها للملك ، وتحجبينها وراء مظاهر الطاعة والاخلاص .

– هو ذاك وانا لم اقل قط اني فعلت ما فعلت دفاعاً عن بلقيس .. ولكن لماذا تسأليني عن هذا ؟

– لاني اريد ان اعلم اذا كنت مدينة لك بحياتي .

– لست مدينة لي بشيء يا مولاتي .. لقد كان غرضي ان ابوح لك بسري ثم نرد نحن الاثنين كيد الملك ... اما الان فقد عرفت انك الفتاة الصادقة في الاخلاص له ، فلم يبق الا ان يفصلني القبر عن الناس لان العيش لا يطيب للمرأة الغريبة التي ضيعت شرفها وخسرت اباها وقل حولها وجود الاصدقاء الذين يمدون اليها يد المعونة والحب .

فلمست بلقيس بيديها الاثنتين نفس الفتاة الثائرة ، وايقنت انها في تلك الصراحة والجرأة ، تؤثر الموت على الحياة .

وقد اضمحل الريب الذي قام في صدرها ، وحل محله الوثوق بانها ستكون عوناً لها على الملك الجاني .

وكانت نعمى قد عادت الى البكاء ، فتركت بلقيس مقعدها ، والشفقة في عينيها ، وجلست بالقرب منها وهي تقول :

اذا قل الاصدقاء في قصر ذي القرنين ، فقد كثروا في قصر آخر حول نعمى بنت الريان . .

فتنهدت قائلة : ما عرفت في مأرب غير قصرين ، بلاط الملك وقصر شرحبيل . . .

ــ وفي قصر شرحبيل تجدين من ذكرت .

ــ هنا يا مولاتي ؟

ــ نعم هنا ، فانا بلقيس بنت حمير امد اليك يدي واسألك ان تعاهديني على الطاعة كما اعاهدك على الوفاء !!

فجعلت تقول : عار على بلقيس ان تهزأ بالفتاة التي تتهيأ للموت .

قالت : اقسم لك برأس شرحبيل وتربة يعفر اني لست هازئة .

فرفعت رأسها والدموع تتلألأ على خديها ثم قالت لها :

اذن اموت وانا واثقة باني قهرت الملك .

ــ ان الموت لا يمد اليك يده وانا بالقرب منك ، قلت لك عاهديني على الطاعة فانت اخت بلقيس منذ الان .

ــ ولكن هذه الاخت لن تعيش !

ــ لماذا ؟

ــ لان الذي يخون الملك لا يبقى حيا .

ــ بل تخونينه من وراء الستار ويبقى راضيا كما سترين .

ثم قالت : والان فاقسمي لي كما طلبت لنبدأ بعهد جديد ، ولا تخافي ذا القرنين فهو لا يستطيع الوصول اليك وانت في ظل شرحبيل .

فابتسمت وهي تمسح دموعها وتقول :

اقسم بذلك الدم الطاهر الذي سفكه نديم الملك ظلما ، اني اطيع الاميرة بلقيس بنت شرحبيل في كل ما تأمرني به والا فانا بريئة من دم الريان .

فاشرق جبين الاميرة وتناولت الخنجر من يدها ونهضت قائلة :

بقي ان ادعو والدي فيعرف كل شيء .

وكان شرحبيل كما عرفت، يسمع حديثهما كلمة كلمة وقام في ذهنه ان الاقدار تخدم بلقيس في غايتها التي قرأت .

ولم يبق له ما يصنعه في تلك الحجرة الصغيرة التي تجاور حجرة ابنته ، فخرج منها بهدوء الى الرواق ثم مشى يريد الحجرة الاخرى التي تتحادثان فيها وهو ينادي بلقيس .

فلما رأته ، عرفت من وجهه انه سمع حكاية نعمى ففاجأته قائلة : كنت اهم بان ادعوك الآن لأقص عليك خبراً جديدا .

قال : ومن يأتيك بالاخبار وانت بين اربعة جدران ؟

فاومأت الى الفتاة وهي تقول :

نعمى ، انها وصيفة تصلح للعيش في قصور الامراء ولا تصلح للخدمة في قصور الملوك .

قال : لعلها ملت عيش الترف في قصر مولانا الملك !

ــ بل قل انها ملت تلك المفاسد التي تسود اهله .. اجلس يا مولاي اقص عليك الخبر الذي ذكرت .

وجعلت تعيد عليه ما سمعه منذ ساعة وهو يتظاهر بالاستغراب حتى انتهت بقولها :

لقد كان في مأرب فتاة واحدة تكره الملك الجائر فارسلت اليها الالهة فتاة اخرى من حضرموت .

ــ اذن اصبحت بلقيس ووصيفتها الجديدة متآمرتين .

ــ نعم واصبح شرحبيل بن عمرو سيد المتآمرين .!

ــ ولكن الملك سيفضح المؤآمرة وينتهي الامر بيننا وبينه الى السيف .

ــ بل ينتهي الامر بيننا الى ما نحب وسترى يا مولاي ان ذا القرنين ليس اشد دهاء من ابنتك .

قال : افعلي يا بلقيس ما تشائين فانا لا ابالي ، غضب الملك او رضي ، ان الشرف عندي فوق كل شيء وليس احب الي من الموت في سبيل الدفاع عنه .

ولكن لم تقل نعمى متى يريد الملك ان يراها ..

قالت : يريد الملك ان يكون لي اخت في بلاطه .!

فضحكت بلقيس قائلة : وستذهبين الى هذا البلاط كلما طاب لك الذهاب لتري هذه الاخت .

ـ نعم وانا استأذنك في هذا الامر منذ الساعة .

ـ لقد اذنت لك على امل ان لا يدفعك الشوق الى الذهاب في كل يوم .

ومكث الثلاثة في تلك الحجرة ساعتين طويلتين وضعوا في خلالهما منهاجهم الذي يريدون ان يضيعوا فيه دهاء الملك .

***

٥

لم تشأ بلقيس ان تطول غيبة نعمى عن البلاط اكثر من عشرة ايام ، فدعتها اليها في صباح يوم وقالت لها :

لقد رأيت في منامي ، ان اختك ترغب في ان تراك وستزورينها في هذا الصباح ...

ـ وانا قد رأيت يا مولاتي اني لا اطيق النظر الى اختي ولا اريد ان اراها ،

ـ بل تريدين كل ما اريده وان لم تكن لك رغبة فيه ، تذهبين الان وتقولين لحراس هذا القصر ان لك اختاً في البلاط كما امرك الملك بان تقولي .

ـ ولكني اخشى ان ينم وجهي على ما في الصدر .

قالت : احذري ان يعرف الملك شيئاً من ذلك .. ان الموت من يده ، يتبع الشك الذي يدب في نفسه .. لقد اراد وهو الملك القادر المسلط على الارواح والاجساد ، ان يجعل دهاءه سلاحاً يصيدنا به ، فلنعد لصيده هذا السلاح نفسه ولنظهر بمظهر الخضوع الدائم والطاعة الصادقة التي لا يشك فيهما .. اذهبي ولا تنسي كلمة واحدة مما حدثتك به وخاطبيه والاعجاب في عينيك والابتسامة في

ثغرك ، حتى يقوم في ذهنه انك لا تفكرين الا فيه ، ولا تنظرين الا الى الناحية التي يكون فيها رضاه وستصفين لي بعد ان تعودي امراء البلاط الذين يعيشون حوله .. وجميع الرجال اصحاب المشورة والرأي وانت تعرفينهم .

ـ اجل : وقد درست في الاعوام السبعة التي قضيتها في البلاط اخلاق اولئك الرجال .

فاومأت اليها بالخروج وهي تقول :

اذكري اباك ولا تنسي شرفك الذي اهين .

فخرجت الفتاة ونار الحقد تتقد في الاجشاء .

***

كان ذو القرنين ، في ذلك الحين ، بين عاملين .

الحب ، الذي جرح كبرياءه والتاج .

احب بلقيس ، على السماع ، حباً اوحى اليه به ذلك الجمال الذي وصفوه له ، فتصدى له شرف شرحبيل وشرف ابنتـــه ، فامسى حبه جرحاً في القلب ، بعيد الغور ...

انه الملك لا يسأل عما يفعل ولا يرد له امر ! فكيف يقول ابن عمه ان موت بلقيس خير من ان تكون في بلاطه ؟!

ايقوم تحت سمـــاء اليمن رجل مثل شرحبيل يغضب الملك ولا يبالي ويجرح كبرياءه ذلك الجرح الدامي ويبقى حياً ؟؟!

انها جرأة لا يفكر فيها غير اليمني القومي الذي تحميه سيوف قومه ، او اليمني المجنون المستخف بكل ما حوله !

وان كرامة الملك وكبرياءه ، تقضيان عليه بان يضرب ذلك القوي او المجنون ضربة قاتلة لا يقوم له بعدها شأن .

ولكن الثورة .! الثورة التي تسعر تلك الضربة نارها ماثلة امام عينيـــه وهو

كانت الايام العشرة التي مرت على وجود نعمى في قصر شرحبيل ، كافية لدرس ما اراد الملك ان يعرفه ، من رغبة بلقيس عنه او رغبتها فيه .

وكان واثقا بدهاء حظيته بالامس ، ووصيفة احدى نسائه اليوم .

كما كان واثقا بان بلقيس ستكون له ، وسيلوث شرف ابيها ، ولو طال على دلالها الزمان .

وذلك بفضل المال الذي سيبذله لاجل هذه الغاية .

وقد جلس في صباح ذلك اليوم على احدى الشرفات ، وحاشد بين يديه ، والاثنان ينظران الى اسد هائج يدور في قفصه في فناء القصر .

وكان حاشد يقول له :

لقد سلبت الاسود تيجانها يا مولاي وجعلتها في الاقفاص ...

فقال : ولكنا تركنا بعض الثعالب تطوف في الغاب .

فعرف نديمه انه يعني شرحبيل ، فاجابه قائلا :

انا حاشد نديمك يا مولاي اصيدها لك .

ـ ان زمان الصيد لم يأت بعد ، والويل لهذه الثعالب عندما يحمل الصياد سهامه .

وبينما هما يتحدثان ، اقبل يقول : لقد جاءت نعمى بنت الريان .

فنهض عن مقعده وهو يقول :

انصرف يا حاشد وقل لها انت ايها العبد ان تتبعنا الى قاعة الملك في الجناح الغربي ..

وكانت تلك القاعة احب قاعات القصر الى الملك لبعدها عن الجناح الذي يغص بالنبلاء والامراء . ولانها في الجناح الذي تقيم به نساؤه وحظاياه .

فمشى اليها والرؤوس تنحني له في الاروقة والدهاليز ، حتى جلس على مقعده فيها ودخلت وصيفة بلقيس .

ونعمى تعلم عادات الملك في استقبال اهل البلاط ... فجثت على ركبتيها ولامست جبهتها الارض .!

فاذن لها في النهوض ، وهو يبتسم ثم امرها بالجلوس قائلا :

خيل الينا انك لا تعودين الى هذا القصر .!

فخفق فؤادها ، وعرفت ان الملك يريد ان يفاجئها باسلوب من اساليب الخبث التي الفها في حديثه ، فقالت له :

لقد آثرت قصر شرحبيل على بلاط الملك الذي ربيت في نعمته .

قال : وانستك الايام العشرة ، السنوات السبع التي قضيتها في ظل الملك .

فذكرت عندئذ اباها وشرفها وتمتمت قائلة :

اقسم ان الحياة كلها ، بما فيها من عظمة ومجد وذهب ، لا تستطيع ان تنسيني مولاي العظيم الذي غمرني بالاحسان والفضل .

وقد صدقت نعمى في قسمها ، فهي لم تنسه ولن تنساه .

ومن اين له ان يعلم ان ذلك القسم كان تهديداً .

فاشرق جبينه وقال : لو لم يكن الملك واثقاً باخلاص نعمى بنت الريان لما باح لها بسره الذي لم يبح به الا لولي العهد ، ولما عهد اليها في تنفيذ غايته ، مـا وراءك الآن ؟؟

قالت : سل يا مولاي .

قال : كيف رأيت القصر الذي ارسلناك اليه ؟

— ان المرأة التي تنشأ في قصر ذي القرنين لا تعبأ بما تراه في غيره من قصور الاشراف !

— لا نسألك عل القصر بل عن سكانه ... ابدأي بشرحبيل .

فخفضت صوتها قائلة : رجل انس يا مولاي ولكنه خائف .!

— وما هو سبب خوفه ؟

— انه يخاف الملك والذعر يملأ قلبه .

فجعل ذو القرنين ينظر الى عطفيه .. ان في خوف شرحبيل اثراً ظاهراً من آثار هيبته في نفوس القوم ، ثم قال :

حدثينا بكل ما تعلمين عن هذا .

ــ لقد قص علي يــا مولاي كل ما جرى بينك وبينه في هذا القصر وكان يقول : لقد اغضبت الملك والذنب ذنب الشرف الذي خلقنا لنصونه . !

قال : ويلك ايذكر شرفه وتقولين انه يخافنا ؟.

ــ نعم يا مولاي ولو لم يكن هنالك شرف يريد ان يصونه كما قال لمــا كان سبيل الى الخوف .

ــ اذن يرى ابن عمنا ان وجود بلقيس في البلاط يضيع شرفه .

ــ لا يا مولاي بل يقول غير ذلك .

ــ ماذا ؟

ــ يقول ان نسبه لاحق بنسب الملك وهو يطمع في ان يكون له اكثر ممــا لسواه . . .

قال : اذكري طمعه .

ــ انه يكره ان تكون بلقيس حظية في القصر مثل جميع النساء .

ــ وهل يريد ان يجعلها ملكة ؟

ــ بل يريد ان يجعلها ولية عهد !

فاصفر وجه الملك وخفق قلبه .

ان ولده عمرا يرغب في بلقيس وشرحبيل يرغب فيها ، وشرف الملك يقضي عليه بان يرد طلب الاثنين .

وهنالك غاية اخرى كانت تجول في صــدره ، هي انه يأبى ان تكون بنت شرحبيل ملكة حمير ، وان يكون لذرية شرحبيل علاقة بالعرش .

وماذا يصنع ليبلغ غايته ؟ يعالج الامر بالدهاء والحيلة حتى يستتيم له كما يشاء ثم ينظر بعد ذلك في شأن الزواج .

فقال : ورأي بلقيس ؟؟

ــ اما بلقيس فقد خالفت اباها في هذا الرأي فهي لا تستطيــع ان تتزوج اليوم ولو طلبها الملك نفسه .

فبرقت عيناه قائلا : ولكنها جاوزت العمر الذي تتزوج في مثله فتيات اليمن ؟ .

ـ اجل ، غير انها نذرت نذراً يا مولاي .

ـ ما هو ؟

ـ ان لا تتزوج قبل ان تبلغ الثانية والعشرين .

ـ وماذا تبلغ من العمر الان ؟

ـ الثامنة عشرة .

ـ وسبب هذا النذر ؟

ـ لم تذكره لي يا مولاي ، ولكني سمعت جاريتها قائلة تقول انها احبت فتى من فتيان قومها وعاهدته على الوفاء ولكنه قتل في صنعاء .

ـ متى كان ذلك

ـ منذ ثلاثة اعوام ، فحلفت وعاهدت الالهة انها لا تتزوج الا بعد ان تمحو السنون من ذهنها ذلك الحبيب .

ـ اذن نرى انك ستفشلين في المهمة التي ارسلناك من اجلها الى قصر شرحبيل ...

ـ من يعلم يا مولاي فقد ترضى الفتاة غدا بان تصير حظية لمولانا الملك .. اما الان فليست راضية .. وعذرها في ذلك ان اعظم فتاة في اليمن لا تكون حظية ....

فجعل يمضغ كلماته مضغاً وهو يقول : لقد نسيت بلقيس انها لا تصير اعظم فتاة الا اذا اصبحت في بلاط الملك .. ومع ذلك فلننس هذا الان ولننظر في امر الزواج .. ان الملك لا يريد ان تكون بنت شرحبيل زوجة لولي العهد ...

ـ ولكنك لا تستطيع يا مولاي ان تجد له زوجة مثل بلقيس .

قال : للملك نظر آخر لا تفكرين فيه ويجب ان لا تعرفيه .. يكفي ان تعلمي انه ليس لنا رغبة في ذلك وهذا الزواج لا يتم ونحن في الوجود .. ولكن نريد

ان يصبح الاثنان عاشقين وان تشعل نار الغرام في الصدرين ٠

ــ لماذا يا مولاي ؟

ــ لتذل بلقيس في هذا الحب ويذل ابوها في استعطاف الملك ليرضى بالزواج، بل للملك رغبة اخرى هي ان يذيع امر حبهما ويملأ اليمن كلها فتتحدث به الامراء والنساء ٠

ــ وبعد ذلك ؟

ــ يطلب الملك بعد ذلك ان تزور بلقيس البلاط ثم يأذن في الزواج .

ــ ولكن الفتاة اليمنية لا تفعل هذا يا مولاي ..

ــ تعرف ذلك وهذه غاية الملك .. اتعلمين ماذا يحدث عندئذ ؟ يحدث ان بلقيس تصبح بعد دخولها البلاط على رغم ابيها وكبرياء الاثنين ، احدى حظايا ذي القرنين .. وينتهي الامر .

قالت : المهمة صعبة يا مولاي كما نرى .

ــ انك تستصعبينها في هذه الساعة .. ولكن عندما يوحي اليك الملك برأيه يهون الامر الذي تستصعبين .

فحنت رأسها تنتظر ذلك الرأي .

فقال : اعلمي اولا ان ولي العهد يريد بلقيس زوجة له .

ــ يريد ذلك وهو لم ير وجهها من قبل ؟

ــ اجل وقد احبها بعد ان وصفها له ناشر امين سره .

ــ وطلب ذلك من مولانا الملك ؟

ــ وطلب ذلك من ابيه فوعده بان يمهد له جميع الاسباب .

قالت : وهو يجهل غايتك يا مولاي ؟

ــ نعم والويل لك اذا عرف هذه الغاية .

ــ ان نعمى بنت الريان لا تخون المحسن اليها وليس اشهى لديها من ان تخدم مولاها الملك باشد ما في صدرها من اخلاص وعاطفة ووفاء ولو كلفتها هذه الخدمة شرفها وحياتها ٠٠ ولكن ما هي هذه الاسباب التي وعدته بان تمهدها له؟

ــ تمر الايام الان وانت في قصر شرحبيل تروحين وتجيئين الى البلاط دون ان يعلم احد ما تصنعين ·· ثم يأتي يوم يأمر الملك فيه جميع رجال البلاط ونسائه بالذهاب الى سد العرم ويــدعو ابن عمه واهل بيته الى قضاء ذلك اليوم معهم يتنزهون في الوادي حول تلك الانقاض فيرى عمرو بلقيس ويزداد بها غراماً ··

ــ وان لم تذهب يا مولاي ؟

ــ هذا الذي نأمرك بأن تفعليه ·· يجب ان تذهب عندما يأمر الملك بذلك دون ان تتردد في الامر ·· وعليك ان تصفي لهــا جمال عمرو وعظمة نفسه حتى يتغلل الهوى في قلبها قبل ان يجيء ذلك اليوم ·

ــ سأفعل يا مولاي ·

ــ اما نحن فقد قام البغض في صدرنا مقام الحب ولا تخطر لنــا بلقيس كما ذكرنا فاما ان تصان كرامة الملك واما ان يظفر شرحبيل ··

ــ اذن لقد انتهت مهمتي الاولى يا مولاي ··

ــ لا لم ينته شيء ·· ان السعي لاجل الزواج يفضي الى جعل بلقيس حظية لنا افهمت الان ؟

ــ اي انه لم يبق الا ان اسلك طريقاً آخر ···

ــ اجل وهو طريق الحب ، وان تنسى بلقيس نذرها وتفكر في الزواج ·

قالت : لي رأي اخر يا مولاي هو ان يزور ولي العهد شرحبيل ابن عمــه في قصره فيرى بلقيس ··· وذلك خير من ان تخرج الى العرم ··

قال : نؤثر ان ترى ولي العهد في موكبه يحف به الامراء والقواد من ان تراه في قصر ابيها ومعه عبد له ليس غير ·· ولكن ان لم يكن هذا فليكن ذاك وستنظر في هــذا الشأن ··

ثم قال : والان فقد بقي سر آخر يتعلق بالعرش ··

فقالت في نفسها : وهذا ما تريده بلقيس ايها المغرور ·· انها تنظر الى عرشك بعينين يلمع فيهما الطمع ولا تعبأ بك وبولي عهدك ·

وتظاهرت بالاستغراب قائلة : ايجرؤ احدهم على خيانة عرشك ؟

قال : ان في اليمن رجلا يفكر في هذه الخيانة هو شرحبيل !

فذعرت نعمى لهذا السر الهائل يبوح لها به الملك ، ثم قـالت : شرحبيل نفسه يا مولاي ؟

ــ هو لا سواه وقد نقل الينا رجال القصر انه يظهر الطاعة ويتهيأ من وراء الستار للعصيان .

ــ انه شيء جديد لم اعلم عنه شيئاً في الايام العشرة التي مرت على وجودي في القصر وسأبذل الجهد كله بعد رجوعي للاطلاع على هذا السر ·

قال : تظاهري انك تخونين الملك لتقرأي افكار القوم ·

ــ ايجوز لمثلي ان يفعل هذا يا مولاي ؟

ــ يجب ان تفعلي كل ما يأمرك به الملك · وقولي لشرحبيل ان ذا القرنين لا يصلح للعرش وان معظم الذين يقيمون ببلاطه لا يترددون في الخـروج عن الطاعة وتحطيم ذلك العرش اذا دعاهم احـد الامراء الى تحطيمه ·

فجعلت الفتاة تهزأ بسرها ببلاهة هذا الملك الذي يثق باخلاصها له وكادت تفضح نفسها باظهار ذلك الاستهزاء ·· ثم قالت :

لقد فهمت الان كل شيء وسيعرف مولاي الملك بعد حين جميـع اسرار اهل القصر ·

فقال : اذهبي اذن وخبري بلقيس ان الملك يثني على جمالها وولي العهدشغوف بها وقد اذابه الحب ·

وقام فخرج وهو يخاطب نفسه قائلا :

لا يقدر شرحبيل وبلقيس ان ينجوا مـن ذي القرنين الذي اخضع الانس والجن ···

* * *

٦

كان ذو مغار ، صديق شرحبيل في قصره ، يوم مر بذلك القصر ، ذو تبع امير همدان ، في طريقه الى امارته ٠

وذو مغار صديق الامير ، يعود عهد هذه الصداقة الى الزمن المـــاضي الذي كان فيه ذو تبع فتى يلعب في فناء قصره ، وكان ابوه سيـــد القوم وحاكمهم المطاع .

فلما خبروا ذا مغار ان امير همدان يستأذن عليه خرج من القاعة التي كان فيها مع ولده غالب يستبقلانه في الرواق .

وتعانق الفتيان ، ثم فتح له ذو مغار ذراعيه ، ووضع يده بيده ودخل الثلاثة الى قاعة الجلوس .

وكان ذو مغار البادىء بالحديث فقال : متى تركت البلاط؟

ــ منذ ثلاثة ايام .

ــ وهل تبقى في همدان حتى ينقضي الصيف ؟

ــ اجل ، فقد اذن لي الملك في هذا وسأقوم في الوقت نفسه بجمع الخراج على عادتي في كل عام .

قال : اظن ان جميع الامراء غادروا البلاط في هذه الايام .

قال : يخرج الواحد منهم وراء الاخر فلا يمر الشهر حتى يكون الجميـــع في المخاليف ٠

ــ وكيف رأيت ذا القرنين في بلاطه ؟

فهامسه قائلا : رأيته كثير العطف علي وانا لا اعلم ما في نفسه ٠

فابتسم وهو يقول : كما رأيناه كثير العطف من قبلك ، على الامراء الذين كانوا من رجاله ، ولكن ذلك العطف انقلب اخـــيرا الى غضب ولم يلبث الملك حتى حطم نفوذهم بحد السيف ٠٠٠ ومع ذلك فقد يكون حبه هذه المرة حبا صادقا لا رياء فيه ٠٠٠ ثم قال :

وولي العهد ؟

ـ اما ولي العهد فلا شأن لي معه وهو في بلاط ابيه بعيد عني كما اني بعيد عنه .

ـ اتخاصم عمراً ولي العهد وتطيع اباه ؟

ـ وماذا يمنعني من ذلك ؟

ـ غضب الملك .

ـ ان الملك راض وهو يعلم كل شيء .

قال : الا تذكر لي اسباب هذا العداء ايها الامير ؟

ـ اذكرها لك كما وردت وهي هذه :

وقص عليه حكايته مع ولي العهد ، فقال :

ـ اذن فعمرو ابن الملك لا يصون كرامة ولاية العهد .

ـ بل هو لا يعلم انه سيصبح ملكا ولا يعبأ الا بالحسان اللواتي جعلهن الملك حوله .

ـ تلك هي حياة ابيه في البلاط ، انها حياة اللذة والهوى واللهو والاستهتار وقد تكون ايها الامير من عشاق هذه الحياة .

ـ لقد مللت العيش في القصر ، ولولا حب الملك وايثاره اياي على معظم رجاله لخرجت منه على ان اعود اليه ولو قتلت ..

قال : انك شديد الاعجاب بذلك الحب الكاذب الذي يظهره ذو القرنين .

ـ لا : ولكني اقابل المعروف بالمعروف ولا اريد ان يقال ان امير همدان لا وفاء له . واعترف لك باني لا احترم الملك في بلاطه ، كما احترمه في فتوحه وحربه ، وقيادته الجيش الى الميادين ، ويكفي ان اذكر حادثته مع الامير شرحبيل ابن عمرو ، لنضعف هذا الاحترام ويزول اثره من الصدر .

فدهش ذو مغار قائلا : واية حادثة هذه ؟

ـ لقد خرج شرحبيل عن حده في حديث له مع الملك وكاد الملك بدوره يخرج عن هذا الحد ..

قال : عهدي بشرحبيل انه رجل رصانة وادب ، يخضع للملك ويطيعه لانه ملك وان يكن على غير دعوته ...

فخفض صوته قائلا: ولكن الملك اهان ابن عمه وصفع شرفه صفعة لا يحتملها مثل شرحبيل .

فاستوى ذو مغار في مقعده وهو يقول لقد اراد الملك اذن ان يشعل النار . . هات ايها الامير .

قال : طلب اليه الملك ان يقيم ببلاطه كما يقيم غيره من الامرأ فلم يرض . . .

ــ ليس في هذا الطلب اهانة كما قلت .

ــ نعم ولكني لم اقص حكايتي بعد ..

قال : لي كلمة اقولها قبل او تفعل .. ما هي غاية الملك من جعل امراء اليمن كلهم في البلاط ؟

ــ ليفاخر جميع الملوك بمظاهر العز التي تحيط به .

فضحك قائلا : اخطأت فذو القرنين لا يفكر في هذا ولا يعبأ به ، ولكن غايته ان يراهم بعينه ويسمع اقوالهم باذنيه ، ويخدر اعصابهم بالوعود الخلابة والنعم الكثيرة حتى اذا انصرفوا الى مخاليفهم بعث وراءهم عيونه وجواسيسه ينقلون اليه كل كلمة يقولونها في تلك المخاليف .

ــ وماذا يفعل ذلك ؟

ــ ليكون امر اليمن في يده . لا ينقل احدهم قدماً الا باذنه ، ولا يرتفع في البلاد صوت الا للدعاء له ... والا فما هو العز الذي يكتنفه اذا احاط بهامراؤه في قصره ؟ انه سيد اليمن وملكها سواء اعاش وحده ام حفت به الرجال .. وانه الملك المستبد القاسي الذي يريد ان يقضي على أمرائه الواحد بعد الآخر ، ويمحو هذه الامارات التي هي قذى في عينيه من صفحة الوجود .! هذه غاية الملك يا بني اترا بأمر قواده بالاقامة بالقصر ليحادثهم بشؤون الحرب والفتح ام ليجعل نساءه شركاً يقعون فيه ؟؟ قل لي ايها الامير ماذا يصنع ذو القرنين ورجاله في

ذلك البلاط العظيم.. انا اعلم ماذا يصنعون.. يتمرغون في احضان اللذات والنعم. يلعبون ويسكرون ، ويعبثون بالحياة واهل الحياة ، والخبث والرياء يسودان القصر وسكانه وهم لا يعلمون .

ثم خفض صوته قائلا : اني احبك يا بني كما كنت احب اباك فانصح لك بان تترك ذلك القصر الذي تمثل وراء جدره ادوار الحيلة والفساد ، وتقيم بقصرك في همدان للعناية بامور قومك كما افعل انا وكما يفعل ذلك الامير الكبير شرحبيل ابن عمرو ...

وكان وجه الفتى يحمر خجلا وشفتاه ترتجفان .. ان ذلك القول صحيح لا ريب فيه والبلاط بلاط مكر وخداع وجب .. ولكن الملك يعطف عليه ويؤثر على سواه فليس من المروءة ان ينسى عطفه واحسانه . وكيف يخرج من بلاط الملك بدون عذر يكرهه على الخروج منه ؟؟ اجل كانت حادثته مع ولي العهد عذراً غير ان اباه محا تلك الحادثة بحلمه فلم يبق هنالك شيء يتخذه وسيلة لترك القصر والالتجاء الى همدان فقال للامير : يصعب علي ان اغادر الملك المحسن الي.

ـ وبماذا احسن اليك يا بني؟ ابا لكلمات تقذف بها شفتاه الملوثتان ام بالوعود الكاذبة يرسلها لسان كاذب لا يعرف صاحبه ما هو الوفاء ؟!! اذكر يا بني هذا هذا الاحسان الآن ..

ـ اذكر شيئا واحدا هو ان مقامي في البلاط يشبه مقام ولي العهد ومقعدي من الملك لا يبعد عن مقعده .

قال : لا يليق بامير همدان ان يعد قربه من الملك احساناً .. انك يا بني ملك في قومك ولهمدان المقام الاول بين امارات اليمن فاذا لم يعرف الملك هذا فهو الجاهل الذي لا يعرف شيئا .

فاحس الفتى انه مغلوب ، لكنه لم يشأ الا ان يكون ذلك المخلص الوفي الذي لا يخون للملك عهدا ، فقال :

ومع ذلك فانا اعترف للملك بالجميل واحفظ له الفضل .

فعرف ذو مغار ان وفاء الفتى النبيل يملي عليه ذلك القول ، وان من الرأي ان

يترك الحديث في هذا المعنى الى وقت اخر ، فقال له :

لنعود الآن الى الحكاية ، لقد ذكرت ان شرحبيل لم يرض بما امره به الملك ولكنك لم تذكر عذره .

ــ كان عذره انه لا يترك ولديه .

ــ وعندئذ اهان الملك شرفه كما قلت .؟

ــ لا بل جعل يعتبه بنعومة ولين ثم سكت .

ــ وبعد سكوته ؟

ــ قام حاشد يهمس في اذنه كلمة خرجت من فمه بعدلحظة كما تخرج الصاعقة واصفر لها وجه شرحبيل .

قال : ما هي ؟

ــ هي انه سأله ان يجود عليه ببلقيس او يبيعها له .

ــ انه طاب يشبه الصاعقة ... وماذا قال ؟

ــ رأيت وجهه يسود ثم سمعته يقــول : لم تخلق بلقيس يا مولاي لنهبهــا او نبيعها .

واخذ الفتى يروي للاثنين كل ما حدث في تلك الساعة .

فقال ذو مغار : صدق شرحبيل ان بلقيس لم تخلق الا لتكون ملكة اليمن .

ــ يقولون انها من اجمل النساء .

ــ بل هي اجملهن جميعا ولا يستطيع ذو القرنين ان يرى مثلها في جميع الاقطار التي تخفق فيها الوية ملكه .

قال : ايعرفها ؟

ــ اجل ، فشرحبيل احب الناس الي وانا انزل في قصره كلما قدمت مأرب واقيم به الشهر والشهرين .

ــ اما انا فلم اعرف شرحبيل قبل ان ادخل البلاط . رايته فيه بضع مرات يزور الملك كما رأيت النبالة مكتوبة على جبينه . ولكني لم احدثه ولم اختبر عــزة نفسه غير تلك المرة التي ذكرت ..

ــ ان شرحبيل بن عمرو عظيم في كل شيء ، ولو لم يعمد الملك الى الحلم واللين في حديثه معه لرأيت رجلا لا يخاف احدا ولا يحترم ملكا في سبيل الدفاع عن شرفه ... انه ابن يعفر يا بني ، ويعفر مفخرة من مفاخر اليمن . وامير من امراء البيت المالك الذين كان لهم شأنهم في هذا القطر .

ــ ولكنه لا يحب الملك على ما ظهر لي .

ــ يكفي انه يحب بلاده وقومه اكثر مما يحبها ذو القرنين وله عليه وعليهما فضل لا ينكره صاحبك ... الم يخمد النار التي اشتعلت في شبوة وكادت تمتد الى مأرب نفسها فتزعزع العرش ؟ الم يقتحم بصدر جواده صفوف العدو في جميع الحروب التي اثارها ابن عمه على الملوك والامراء ؟ ان شرحبيل الظافر لا يفاخر الناس بظفره ولكن الملك لا يذكره له ولا يعترف بجميله وبلائه .

ثم قال : اجل لقد احسن الى ابنته بالوصيفة التي ورد ذكرها في حكايتك ووهب لها بعض اللآلىء التي يجود بمثلها على نسائه في كل يوم ، ولكن هذه الهبة هبة ملك يريد ان يبلغ بالمال ما لم يستطع بلوغه بالقوة من غايات نفسه .. ولو عرف بلقيس التي احب ان يجعلها حظية له ، لاخفى وجهه بيديه خجلا ، ولجثا امامها كما تجثو له القوم ، وحنى لها رأسه كما تنحني له الرؤوس وهو على العرش .

ــ اذن بقي ان تقول ان بلقيس من صف الآلهة !.!

ــ اجل ، هي كما تقول وليس في هذه الكلمة من غلو كما يخيل اليك حكمة لا تجدها الا في صدور الآلهة !! وعقل لم يكن لشيوخ اليمن مثله ، ووجه يحجب جماله كل جمال تحت هذه الشمس .

فبدأ الفتى يشعر ، بمثل ما شعر به ولي العهد ، عندما وصف له ناشر امير ظفار ، جمال بلقيس ، واستيقظت في صدره عاطفة جديدة لم يحس بها وهو في بلاط الملك بين حسان اليمن والحجاز والعراق .

وكأن ذا مغار عرف ما يجول في خاطر الامير الشاب فاستطرد قائلا : تلك هي بلقيس ايها الامير ، ولو لم يكن ولدي غالب صغير السن لطلبتها من

شرحبيل زوجة له وملأت هذا القصر حكمة وجمالا .

قال : والهدهاد ؟

ــ اما الهدهاد فصورة ابيه في النبالة وعزة النفس ، ولكن بلقبس في نظــري خير من الاثنين ..، نعم خير من الاثنين .

قال : ساقضي هذا الصيف في همدان ثم اعود الى مأرب لازور شرحبيل بن عمرو قبل ان ادخل البلاط ، افلا تمهد لي سبيل التعارف يا مولاي ؟

ــ سافعل ولكنى اخشى .

ــ ما الذي تخشاه ؟

ــ اخشى ان تنسى الملك وبلاطه عندما ترى بلقيس .

ــ قال : اتظن ؟

ــ بل اثق بان هذه الفتاة لا يراها احدالا ويخفق قلبه على الحب .

فقال في نفسه : صدق مغار .. لقد خفق هذا القلب الآن وانا لم ارها فماذا يصنع عندما اراها ؟ انه يثب من الصدر .

وبات الفتى ليلته في قصر ذي مغار ثم انصرف عند الصباح قاصداً همــدان وصورة بلقيس الخيالية امام عينيه .

***

٧

قصت نعمى على اميرة القصر جميع ما سمعته من الملك دون ان تزيد حرفا او تنسى كلمة .

وكانت بلقيس تضحك لبلاهة الرجل وتهزأ برأيه .

غير انها وقفت عند قوله : « ان البغض يقوم مقام الحب » وكانت تظن من قبل ، ان امتناعها من الذهاب الى البلاط يزيده شوقا وغراما .

ثم استعادت كلمات الملك الاخرى القائلة :

« ان ولي العهد يحب بلقيس ويطلب ان تكون زوجة له .

وقام في ذهنها ان الذي لا تستطيع ان تناله من ناحية الملك ، تناله من ناحية ولده ، وان الامر ينتهي الى خصومة تقع بين الاثنين بفضل العاطفتين التي تناقض احداهما الاخرى .

وذلك ما تسعى اليه بلقيس وتتهيأ له .

انها تريد ان يغضب ولي العهد اباد في غرامه ، ويغضب الملك ولي عهده في منعه عن ذلك الغرام ، فيسود الخلاف بلاط ذي القرنين ويضطرب العيش بين اهله .

اجل ، وليس في البلاد من لا يعلم ان لذي القرنين انصارا ولعمرو انصارا يشدون ازرهما ويلتفون حولهما عندما تدعو الحاجة .

بل ليس هنالك من لا يعلم ان صغار الامراء يمشون خلف ولي العهد في حالتي الرضى والغضب ، وان فريقا آخر من قواد الملك يشهر سيفه دفاعا عن ذلك الملك اذا ندبه للدفاع .

والملك عندما يقسو ، لا يرجع الى اللين الا بعد ان يفرغ كنانة قساوته الى النهاية ؛ ويمعن في التهشيم حتى تتم له الغاية .

واما عمرو ، فقد جعلت له التربية الحرة المطلقة ، والدلال الغريب فطرة جديدة قوية لا تنزعها يد الموت ، وروحا متمردة ثائرة على كل نهي وكل امر ، فهو لا يستسلم الى القوة الا اذ ضيع قوته وخسر كل شيء .

ولو لم تكن في القضية كرامة للملك ، لهان الامر ونزل الملك عن رأيه ليرضى وحيده . ولكن سيد اليمن لا يذل ، وصاحب التاج لا يجعل عزته تحت الاقدام .

وماذا يحدث بعد ذلك ؟ يزداد النفور ويشتد ، ويبسط الجفاء ظله فوق الوالد والولد ، وتقوم السعايات في القصر على ألسنة الرجال والنساء وفي افواه العبيد والغلمان ، فلا يبقى عندئذ الا ان يخرج ولي العهد من البلاط طريدا مغضوبا عليه .

اضف الى هذا كله ، ان نعمى ، بفضل سيدتها الجديدة توغر الصدرين .

وتبعد الواحد من الرجلين عن الآخر ، فيرتفع الستار اخيراً عن خروج ولي العهد عن طاعة الملك .

وتلك هي امنية بلقيس الطامعة في عرش حمير .

نعم ، كانت بلقيس طامعة في العرش ، وهي لا تستطيع ان ترضي نفسها الكبيرة الا اذا اصبح بيد ابيها الصالح ، صولجان الملك الحميري العظيم .

وبعد ذلك ، ينتقل الى يدها ذلك الصولجان ، وتجلس في المقعد الذي اعدته الالهة لطموحها الغريب الذي لا ينتهي عند حد .

وقد تخدمها الاقدار في كل ما تفكر فيه وينتهي الامر .

تطلق الابن على ابيه الذي يريد بلقيس لنفسه ، وتملأ صدره غراماً مبرحاً يقذف به الى الموقف الذي تشاء ، وهو لا يعلم ان ذلك الغرام امل كاذب لا رجاء له به .

والغريب انها تريد ان تفعل كل هذا دون ان يراها ولي العهد او تراه ، ودون ان تسمع ذلك المسكين كلمة حب تلفظها شفتاها الساحرتان .

ذلك ما خطر لبلقيس في تلك الساعة ، ولكنها لم تستسلم الى ذلك الخاطر الاستسلام كله ، عند اعتقادها ان ولي العهد لا يرضى الا بان يرى وجه تلك الفاتنة التي تملي عليه ارادتها من وراء الستار ويسمع من فمها كلمات الحب .

وهذا حقه . وبلقيس لا تقدر ان تمنعه من الوصول الى هذا الحق اذا هو لج في طلبه .

اذن فلتفعل الاقدار ما تشاء ، ولتأذن بلقيس لولي العهد في اللقاء اذا اكرهتها الحادثات .

ولكل مقام مقال . . .

* * *

خبرت بلقيس اباها ما عرفته من افكار الملك ثم قالت له :

لقد كان ولي العهد عاشقا كما رأيت ، قبل ان تضرم في صدره نار العشق .

ــ اجل ، ولكني اخشى ان يتغير الموقف بعد حين .

ــ اي موقف هذا يا مولاي ؟

ــ موقف الملك . اتظنين ان الكلمة التي قالها لنعمى اليوم ، ستكون كلمته الاخيرة عندما يسأله ولي عهده ان يأذن له في الزواج ؟

قالت : لم افهم شيئاً يا مولاي .

قال : الم يقل لنغمى ان بلقيس لا تزف الى ولده وهو حي ؟

ــ نعم .

ــ ومن يعلم انه لا يقول غدا غير ما قاله اليوم ؟

ــ واذا فعل ؟

فابتسم قائلا : اذا تغير رأيه بعث الي باميرين من امراء بلاط، يطلبان بلقيس لعمرو . ثم يدعوني الى مجلسه ليعيد علي هذا الطلب ويأمر بما لا نرضاه .

قالت : لقد نسيت يا مولاي ان لبلقيس نذرا ذكرته له نعمى .

ــ ومتى كان ذو القرنين يحفل بالنذور ؟. انه الرجل الذي لا يبالي بشيء ولا يهتم الا لنفسه .

ــ بل هو الرجل الذي لا يغضب آلهته لمثل هذا ، ومع ذلك فانت القائل ان الشرف قبل الحياة وشرحبيل بن عمرو لا يخاف احدا .

ــ ولكني لا اعلم ماذا اقول له .. لقد طلب الي ان اكون من رجال قصره فلم ارض ، ثم طلب ان اهب له بلقيس فلم ارض ، وقد يطلب غدا ان اجعل ابنتي زوجة لولده فلا ارضى .. وهذا معناه اني اشرف منه نسباً واعز مقاماً وان بلقيس اعظم من ان تزف الى نذل مثل ولي عهده !!

قالت : اظهر الرضى يا مولاي ولكن اجعله رضى معلقاً على ارادة بلقيس .

ــ اذن اعود الى حكاية النذر .

ــ نعم .

ــ وان لم يقبل ؟

ــ تذكر عندئذ موقفك الاول معه وتقف مثله من جديد .

ـــ ولكنه يعمد عندئذ الى السيف .

ـــ ونعمد نحن مثله الى سيوفنا ولا يغمدها الا الموت .

قال لي رأي اخر يا بلقيس .

ـــ ماذا يا مولاي ؟

ـــ ارى ان ترضي بولي العهد زوجاً لك فتصبحي بعد حين ملكة اليمن وتبلغي الغايـــة . . .

ـــ ما خلقت لا كون زوجة للفتى المغرور مثل عمرو ؟

ـــ واي امير من امراء اليمن تختاره بلقيس زوجاً لها ؟

ـــ لم افكر في الزواج بعد .

ـــ ارجو ان تفكري فيه فقد يأتي يوم تؤثرين فيه عمرا على جميع النبلاء .

ـــ سأرضى بعمرو عندما لا اجد خيراً منه اما الآن ، فهب اني اردت الزواج فانا لا استطيعه !

ـــ وكيف ذلك ؟

قالت : تحفظ بلقيس نذرها عندما تشاء وتنساه عندما تشاء ؟؟

ـــ لقد فهمت الآن فانت لا تقدرين على الزواج الا في الثانية والعشرين .

ـــ اجل وقد لا نستطيع الوصول الى العرش الا اذا جعلنـــا ولي العهد سلما نصعد فيه ٠٠ اتعلم يا ابي اني لم افكر قط في ان ارى وجه الامير الذي تذكره لي؟

قال : وجه لا بأس به لولا غرور صاحبه .

ـــ اذن سنراه في هذا القصر كما قالت نعمى للملك .

ـــ او عند انقاض العرم كما قال الملك نفسه . .

ـــ اما عند العرم فلا . . ان بلقيس لا تخرج من قصرها لترى احداً ولا تبالي بدعوة ذي القرنين . . . ومن يعلم ، فقد تفعل هذه ولا تفعل الملك والحكم للزمان .

قال : انك تترددين في الامر يا بلقيس .

ـــ نعم وساظل على هذا التردد حتى ارى ولي العهد ! .

قال : كلمة واحدة تقولينها له تدفعه الى هذا القصر !

ــ ومن يقول هذه الكلمة يا مولاى ؟
ــ نعمى .
قالت : سأفعل هذا عندمـــا تأتي ساعته ، اما الان فلننظر في امر اخر يشك فيه الملك .
ــ في امر شرحبيل الذي يخونه اليس كذلك ؟
ــ نعم فماذا تقولي ؟
ــ لا اقول الان شيئاً ولكني اصبر ريثما يعود ذو مغار .
ــ واي شأن للرجل يا مولاي ؟
ــ سيكون عونا لي في الامر الذي تسألين عنه .
ــ انا لا اسألك عن هذا يا مولاي فالعهد بينك وبينه اعرفه كما تعرفه انت ، ولكني اسأل عن الكلمة التي ذكرها الملك عنك واريد ان اعـــلم من هو الساعي الذي نقل اليه انك تظهر الطاعة وتتهيأ للعصيان .
قال : ليس في القصر من يعلم هذا السر الذي احفظه في الصدر .. ان الخروج عن الطاعة ، فكرة لم ابح بها الا لذي مغار وذو مغار لا يخون .. وانا لم احدث الناس بها بعد لينقلوها الى ذي القرنين ولم يخطر لي ان اجعلها مشاعاً تتناقله الافواه في البلاط .
ــ وكيف عرفها هذا اللعين ؟
ــ انه لا يعرف شيئـــاً يا بلقيس ، غير انه يعـــلم ، عندما يعود الى نفسه ان شرحبيل بن عمرو لا يطيق ان يراه عـــلى العرش بل لا يطيق ان يكون سيده .. وليس ذلك عن حسد كما تظنين انما هنالك نفس ابية تأنف من الخضوع للنفس الساقطة ، مثل نفس الملك ، وذو القرنـــين يعرف النفسين ومن حقه ان يظن الظنون .
قالت : اخشى ان تنم عليك المظاهر يا مولاي قبل الاوان .
ــ ان مظهري خارج القصر مظهر يمني خاضع لمليكه مخلص له ، الخضوع والاخلاص الصادقين ، واما داخل القصر فقد كتمت امري جميع من فيه ، ولم

اذكره الا لك وللهدهاد الذي هو احرص عليه منا نحن الاثنين .
ـــ ولكنني لا ادري كيف يدب الريب في صدر الملك دون ان يسمع كلمة في هذا الشأن .
ـــ لقد ذكرت لك سبب الريب فلا تعودي الى البحث عنه .
قالت : يهمني ان يظل الملك واثقاً باخلاص ابن عمه حتى تأتي ساعة العصيان،
ـــ اي انك تخشين ان يفاجئنا بالسيف قبل ان نتهيأ له وقبل ان نعد الرجال .
ـــ اجل واذا حدث ذلك غاصت مأرب في الدماء وملأت الجثث الساحات والاسواق ، وخرج ذو القرنين ظافراً رافع الرأس .
ـــ يخيل الي ان الجوف يملي عليك هذا الكلام .
ـــ لو قال هذه الكلمة غيرك يا مولاي لكان له عذر ، اما انت فقد علمت ان بلقيس تخاف شيئاً واحدا هو الفشل ... قل يا مولاي من هم الرجـــال الذين اعددتهم للحرب اذا حمل لواءها الملك ؟
ـــ لم احدث غير ذي مغار كما قلت .
ـــ ولكن ذا مغار وحده لا يكفي والجيش الذي يقوده لا يستطيع ـ بالنظر الى عدده ـ ان يثبت امام جيش عدوك .
ـــ ويتبع ذا مغار ابن عمه ياسر .
ـــ وهذا اضعف من الاول ، وانت تحتاج الى عشرة من الامراء ، بما عندهم من الجنود والاتباع لتقدر ان تخلع الملك عن العرش وتلبس تاجه .
ـــ سنرى بعـــد ان يعود ذو مغـــار من هم الامراء الذين يحملون السيف لاجل هذه الغاية .
ـــ ان جنود ذي القرنين لا يغلبون الا اذا حاربوا الكثرة التي لا تغلب فاذا وفر لك العدد يا مولاي فقد بلغت غايتك ؛ والا فانا مكرهة على المضي في المنهاج الجديد الذي وضعته اليوم بعد رجوع نعمى من البلاط .
ـــ ولكن لنفرض ان الملك نزل عن طلبه ونسي كرامته واطلق يد ولي العهد في ان يتزوج من يشاء ؛ فماذا تصنعين ؟

قالت : اسمع يا مولاي ؛ سأبذل جهدي كله لا فرق بين الاثنين ؛ فتضعف في هذا التفريق تلك القوة التي يستند اليها الواحد منهما ليغلب الآخر . ثم انفخ في صدر ولي العهد روح الثورة ، فتشتعل النار ، ويقف العاشق فيوجه ابيه ، موقف العدو الذي لا يترك الميدان الا اذا نال غرضه .

ــ وعندئذ ؟

ــ وعندئذ يحدث واحد من امرين ، اما ان يتراجع ذو القرنـــين مغلوبا بقوة السيف او بقوة العاطفة، واما ان يزداد غضبا لكرامته فيسحق ولده تحت حوافر جواده ولا يبالي .

ــ واي شيء يكون لشرحبيل بعد ذلك ؟

ــ ان شرحبيل في تلك الساعة يبرز الى الساحة مع انصاره ؛ ويبـــدأ بالملك فيضربه ضربة لا قيام له بعدها ثم ينثني الى ولي العهد فيرسل اليه ضربة مثلها ويثب بعد ذلك بين دهشة الناس واستغرابهم ؛ الى العرش ويتربع فيه .

ــ وهل يستطيع شرحبيل ان يضرب الاثنين في ساعة واحدة ؟

ــ نعم فانت لا تخوض المجال الا عندما تخور العزائم وتنهك القوى .

ــ ومن قال لك ان الفريقين لا يتحدان على شرحبيل الواثب الى العرش ؟

ــ عندما تموت الرؤوس تضمحل القوة وتموت الهمم .

قال : يطيب لي ان اقول ان الامر انتهى بفشلي وقتل ولي العهد .

ــ نعم .

ــ ثم يقوم الملك التاسي فيمد يده الى بلقيس .

ــ ولكن بلقيس في ذلك الحين تكون في القبر !

ــ واذا طاب لي ان اقول ان ولي العهد ظفر بابيه واستولى بعده على الملك ثم خطر له ان يمد يده اليك .

ــ امد يدي اليه واصبح ملكة !

قال : خير لك اذن ان تلبسي التاج نقيا ابيض غير مصبوغ بالدماء .

قالت : انك كثير النسيان يا مولاي ؛ ان ذا القرنين لا يريد هذا الزواج ولا

يرغب فيه ، وانا .. وانا من الناحية الاخرى ، لا يخطر لي ، الا اذا انتهى الامر كما تقول .. اذكر ما حدثتك به يا مولاي منذ ايام ولا تنسى . . الم اقل لك ان الصولجان لا تحمله غير يد واحدة وان التاج لا يوضع الى على رأس واحـدهما يدي ورأسي ؟ ! اتريد يا مولاي ان انتقل اليوم من قصرك الى قصر الملك لأصير ولية العهد ثم اصبح ملكة بدون تاج الامر والسلطان والقوة لعمرو بن ذي القرنين وعلي الخضوع والطاعة ؟ اتريد ان يقال ان عمرا ملك اليمن وان بلقيس زوجـة الملك ؟ ام تريد ان يقال ان بلقيس بنت شرحبيل ملكة اليمن تخضع لهـا سلالة حمير ويطيعها الامراء والقواد الطاعة العمياء ؟ لا اني اذا قدرت ان اعصب رأسي بتاج حمير فقد صدق الامل الذي اعلل نفسي به ، والا فسأرضى مكرهـة بولي العهد على ان انظر بعد ذلك في امر آخر لا اجسر على التفكير فيه الان .

ــ اذن نحن امام امرين لا ثالث لهما يا بلقيس ؛ امـا ان يظفر ابوك بخلـع الملك وولي عهده ويستولي على الملك ثم يهبه لك بعد ذلك ، واما ان تظفري انت بما تقولين ، من الطريق الآخر ، الذي ذكرت .

ــ نعم ولكن يجب ان تعلم ، اني اتردد كثيراً في امر الزواج كما علمت ولا الجأ اليه الا اذا خانني القدر في جميع ما اصنع .

ومشت الى غرفتها لتتحدث مع نعمى في بعض الشؤون ، كما سيجيء .

***

٨

اذكري يا نعمى من تعرفين من امراء القصر ولا تنسي احدا .

ــ انك تريدين يا مولاتي ان اصفهم لك واحداً بعد واحد اليس كذلك ؟

ــ اجل ، ولا تعرضي لذكر ما تعلمين من الاوصاف .. لقـد قلت لي ان الاميرين اللذين رافقاك الى هذا القصر بامر الملك ، اميرا ظفار ونخلة فايهما اعظم من الآخر واقرب الى ذي القرنين ؟

ـــ ناشر امير ظفار يــا مولاتي ، انه من اعظم الامراء ومن احبهم الى ولي العهد ...

قالت : رأيت المكر في عينيه الصغيرتين اللتين لا تهدآن ؟

ـــ وهو كما تقولين فليس في البلاط رجل شر ومكر مثله .

ـــ وكيف عرفت ذلك ؟

ـــ من رجال البلاط انفسهم فكلما ارتفــع صوت احدهم بالشكوى عرف الاخرون ان ناشرا كان السبب في شكواه .. واظن يا مولاتي ان الفتى لا يحب احداً ولم تجل في صدره ، منذ خلق الى هذه الساعة عاطفة حب !.

ـــ وانا اظن انه لو لم يكن كما تذ كرين لما وضع ولي العهد يده بيده وجعله اعظم المقربين ..

ـــ اجل ولما وافق الواحد منهما الآخر في كل شيء حتى في الاستخفــاف بالملك وقد سمعت يا مولاتي ان ذا القرنين يظهر الحب لناشر ليس لانه امين ولي العهد بل لان تخلافه اربعة الاف من الجنود .

ـــ صدقت فجنود ظفار كثار كما يقولون والملك لا يعبأ الا بهذا .

ـــ وناشر يا مولاتي في القصر ، كالنمر في الغــاب لا يجرؤ احد على الدنو منه واذا داناه فلكي يتملقه ويحرق له البخور .

قالت : كفى فقد عرفت من هو الرجل .. وامير نحلة ؟

ـــ اما الآخر فعتيك بن روضة وهوهادىء الطبع قليل الكلام يحمل في صدره قلباً من الفولاذ .

ـــ وماذا يضمر للملك ؟

ـــ لا يعرف النــاس ماذا يضمر له من خير او شر .. اذا رأيته في مجلس الملك رأيته ساكتاً .. واذا مشى مع الامراء في الرواق ارخى نظره الى الارض ومشى ساكتاً . واذا خرج الى الشرفات لم يسمع له الناس غير تردد الانفاس .

ـــ انه اذن رجل تفكير ورأي !

ــ بل هو رجل صمت دائم لا يقرأ ما في نفسه غير الآلهة ولم يقل رجل في القصر ان لعتيك رأياً .

ــ وكيف يعيش هذا الرجل في البلاط ؟

ــ يعيش كما وصفت وينشر حوله ظلا خفيفاً لا يشعر به اقرب الناس اليه.

قالت : اقسم برأس ابي ان في صدر عتيك سرا من الاسرار .

ــ لقد ظن الملك كما ظننت يا مولاتي وسأله اكثر من مرة فلم يسمع جوابا وكثيراً ما كان يمازحه قائلا لمن حوله :

يريد الملك ان يسمع صوت عتيك فيبخل عليه به ...

قالت : لك لؤلؤة من لآلىء الملك اذا استطعت ان تعرفي سر الرجل .

ــ اعترف بعجزي عن هذا يا مولاتي فالحجر لا يتكلم .. ولكن انقل اليك خبرا تردده بعض الافواه وراء الجدر وانا لا ادري اذا كان كاذبا .

ــ ما هو ؟

ــ يقولون ان ابا ذي القرنين قتل ابا عتيك يوم كان هذا طفلا عند اخواله بني خولان .

فاشرق جبينها قائلة : ذلك هو السر . وبعد ذلك ؟

ــ وان اهل عتيك واخواله الذين ذكرت كتموا هذا الطفل خبر القتل ، عندما اصبح رجلا وخلف اباه ، ولم يريدوا ان يقصوه عليه حفظاً لحياته وخوفا من غدر ذي القرنين .

ــ ثم خبروه اياه بعد حين ؟

ــ بل خبرته عجوز من عجائز قومه قتل ولدهـا في حرب شبوة دفاعا عن الملك .

ــ كأنها ارادت من وراء خبرها ان تثأر بالقتيل .

ــ نعم فلقد قالت له على مرأى ومسمع من رجاله :

ان والد الملك يقتل اباك وانت تقذف برجالك الى اشداق الموت دفاعا عن عرشه ! ! ؟

فتغيرت حياة الامـــير ، من ذلك اليوم واستسلم السكوت والصبر ريـــثما يغفل الزمان فيطلب بدم ابيه .

هذا ما يتهامس به بعض رجال القصر وغلمانه يا مولاتي وقد يكون ولي العهد وناشر مطلعين على هذا الهمس .

ــ وهل تعلمين ما هو الخبز الاول الذي نقلوه اليه عن موت ابيه ؟

ــ كانوا يقولون له ان اباه قتل في ساحة الشرف .

ــ بقي ان نعلم ما هو سبب القتل ؟

فضحكت وهي تقول : المرأة يا مولاتي .. ان والـــد الملك اراد ان يسلب ابا عتيك زوجته الحسناء فغضب الرجل لعرضه وذلك هو ذنبه .

ــ كما اراد ابنه ذو القرنين ان يسلب ابن عمه ابنته .

ــ ولكن اتعلمين يا مولاتي كيف قتله ؟ انه امر به فطعن بالرمـــاح ثم سلخ جلده كما يسلخ جلد الشاة وجعل في الوادي طعاما للسباع ! !

ــ وعتيك يعرف هذا يا نعمى ؟

ــ يقولون انه يعرف كل شيء . !

فاطرقت مليا ثم رفعت رأسها قائلة :

واحد لنا وواحد للملك .

كأنها ارادت ان تقول :

ناشر من انصار الملك وعتيك من انصار بلقيس .

وقد فهمت نعمى معنى ذلك القول وقوته ، واكتفت بالابتسام .

ثم قالت بلقيس : لقد انتهينا الآن من الاثنين فاذكري اميراً ثالثا .

ــ اذكر الآن معدي كرب صاحب مخـــلاف صرواح وهو في الخمسين من عمره .

قالت : لم اسمع بهذا الاسم من قبل .

ــ وخير لك ان لا تعرفي صاحبه ... انه يشبه الملك وولي عهده بالكبرياء ، والقساوة والاستهتار وهو من اغنى الامراء .

ـــ يجب ان اعلم مصدر هذا الغنى قبل ان تصفيه .
ـــ مصدره ذو القرنين الذي يهب له المال بدون حساب .
ـــ وسبب ذلك ؟
ـــ ان معدي كرب رسول الملك الى الاقطار يبحث له فيها عن الحسان وهو رفيق حاشد اللعين .
ـــ اذن خضب سيفه بدم ابيك الريان .
ـــ لا .. فهو لم يرافقه الى حضرموت في ذلك الحين .
قالت : كفى فهذا لا يخون الملك ولنصف غيره .
قالت : هنالك امير يدعى عبد شمس يحب الملك كما يحب نفسه .
ـــ واسم مخلافه ؟
ـــ ناعط ولهذا الحب حكاية يرويها رجال البلاط ونساؤه .
ـــ ابدأي بها .
ـــ يقولون ان عبد شمس هذا كان فلاحاً !
ـــ ماذا ؟
ـــ نعم وقد خلف هذا الفلاح امير ناعط وجلس في كرسيه بامر الملك .
وكيف كان ذلك ؟
ـــ لقد قيل للملك منذ بضعة اعوام ان مخـــلاف ناعط يتهيأ للثورة وسينضم الى مخلاف شبوة الذي شهر الحرب .
ـــ وبعد هذا ؟
ـــ لجأ الملك الى البحث عما قيل له ، فمنع ناقل الخبر من الخروج من بلاطه ، وبعث الى ناعط رجالا يستطلعون اسرار صاحبها من وراء الستار .
ـــ ثم عرف بعد ذلك ان الناقل كان صادقاً في حكايته فارسله الى ذلك البلد ليقتل اميره بالسم ووعده بان يهب له كرسي امارته وقد وفى بوعده كما ترين .
ـــ اذن كان ذلك الواشي عبد شمس الذي تصفين ..
ـــ اجل هو نفسه ولم يكن يدعى عبد شمس من قبل بل كان يدعى زهيراً .

ــ وكيف رضي اهل ناعط ان يستولي على الامارة فلاح وفيهم النبــلاء والاشراف اصحاب الجاه والمال ؟

ــ لقد كان سيف الملك كفيلا بذلك الرضى وانتهى الامر .

قالت : انه رضى تكمن النار وراءه .

ــ اصبت يا مولاتي ولكن الملك لا يبالي لان جيشه يملأ ناعطا كما عرفت .

ــ نأخذ علماً بهذا على ان نسأل عنه في وقت آخر ، من بقي في البلاط من الامراء ؟؟.

ــ بقي امير ترك قصر الملك الى مخلافه منذ بضعة ايام .

ــ ولم يبق هنالك سواه ؟

ــ بلى ولكنهم جميعهم لا يستحقون الاهتمام والوصف .

قالت : اليس لهذا الامير الاخير حكاية يا نعمى ؟

ــ ان لوجوده في البلاط سبباً لا تجدين فيه شيئاً من الغرابة .

ــ ما هو ؟

ــ كان له اب لا يحب الملك ولا يبغضه وقد بذل ذو القرنين جهده كلــه ليحمله على الاقامة بالقصر فضاع ذلك الجهد .

ــ ثم ماذا ؟

ــ ثم مات الامير الذي ذكرت وخلفه ولده الذي استطاع الملك ان يقنعه بما لم يقنع به اباه من قبل ، وانتقل الى البلاط . ذلك مــا قصه علي الملك نفسه في ساعة من ساعات رضاه .

ــ قالت انه خامل ضعيف لم يرث عزة ابيه .

ــ بل هو اعز امراء البلاط يا مولاتي واعظمهم نفسا وابعدهم عن غــرور الهوى وطيش الشباب .

ــ لعله جاوز العمر الذي يملي الغرور والجنون .

ــ اعتقد انه اصغر امراء البلاط سنا .

ــ وما اسمه ؟

ـــ ذو تبع صاحب همدان .

قالت : صفيه لي .

ـــ وماذا اصف يا مولاتي . انه جميل في مشيه ووجهه وعينيـــه ، وعذب في حديثه وابتسامته حتى لاستطيع ان اقول انه اجمل من في البلاط من النـــاس لا استثني امرأة منهم او رجلا .

ـــ يخيل الي ان في هذا الوصف غلوا .

ـــ اقسم لك اني لا اغالي في الامـــر بل احسب اني ضيعت في وصفي الشيء الكثير من صفات امير همدان ، وهو شجاع يا مولاتي كما عرفت وعرف اهـــل القصر ، وجريء لا يخشى احدا ولا يعبأ بولي العهد نفسه .

ـــ انها حكاية جديدة عن الجرأة على ما ارى .

ـــ نعم فقد نصح لعمرو بترك غروره فهزأ به عمرو وشكاه الى الملك على مسمع من بعض الامراء ، ويقول اهل البلاط ان ناشرا امير ظفار كان السبب في هذه الشكوى بل في هذه الاهانة التي وجهها ولي العهـــد الى الهمداني في مجلس ذي القرنين .

ـــ وماذا صنع الملك ؟

ـــ عمد الى اللين والدهاء قائلا : « ان ذا تبع من ابناء الملك » وعندما نهض امير همدان ليرد الاهانة بمثلها قام الملك فخرج وامره بان يتبعه الى مقصورته ثم خرج منها الفتى بعد قليل والابتسامة على شفتيه .ولم يره الناس منذ تلك الساعة، يحادث ولي العهد او يوجه اليه نظرة او كلمة ، كأن الفتيين المقيمين بقصر واحد لم يتعارفا ... وهذا معناه ان امير همدان يذكر عزه ويثق بنفسه وبالقوة الـــتي تسنده .

فجعلت بلقيس تلوك لفظة همدان وترددها كأنها تعرض ما ذكر لها عنهـــا من عظمة ومنعة ومجد .

وقد عرفت نعمى غايتها فقالت لها : ان همدان من اعظم مخاليف اليمن يا

مولاتي وقد ذكرت شيئاً من هذا لناشر امير ظفار يوم مثل بين يديك في هـذا القصر .

قالت : لقد كره ناشر في ذلك اليوم ان تذكر همدان على مسمع منه .

ـ اجل وهذا يثبت انه لا يطيق ان يسمع اسم عدوه .

ـ اذن كيف يعيش ذو تبع هذا في بلاط الملك ؟

ـ يعيش بشرف وكبر ليس للامراء مثلهما .. وقد سمعت احدى الوصائف تقول لعتيك صاحب نحلة .

لقد كاد ذو تبع يغضب لكرامة شرحبيل وبلقيس دون ان يعرفهما ..

فخفق قلب الاميرة وعهدها ان ذلك القلب لا يخفق الا على ذكـــر العرش والتاج ، اللذين تحدث النفس ببلوغ الغاية منها .

ثم قالت : ومن اين لى ان اعرف اخلاص ذي تبع للملك ومبلغ وفائه له ؟..

ـ ذلك امر سهل ينقضي في ساعة؛ لقد سمعت مولاي شرحبيل يذكر صديقا له يدعى ذا مغار .

ـ نعم .

ـ وهو من اوفى الناس لمولاي اليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ اذن ارى انك تقدرين ان تعرفي مبلغ اخلاصه من ذي مغار نفسه .

ـ ومن قال لك انه يعرفه ؟

ـ سمعت الملك يذكر له ذا مغار فيقول : لقد أبى ان يقيم بالبلاط وهو من اصدقاء ابيك وانت قادر على اقناعه .

ـ وهل تحفظين جواب الهمداني .

ـ اجل لقد كان جوابه ان ذا مغار لا يترك مخلافه الا الى القبر .

فقالت : احس ان في الصدر رغبة في التعرف بهذا الفتى .

ـ سيعود الي البلاط بعد ان يجمع خراج قومه .

قالت : وعندئذ ننظر في هذا الامر بالاشتراك مع ذي مغار .

* * *

٩

جرت هذه الحادثات التي قرأت في السنة السابقة اي في سنة ٣١٤ .

وذلك قبل ان يجتمع شرحبيل في قصره ؛ بولديه بلقيس والهدهاد ؛ وذي مغار وابنه غالب وابن عمه ياسر .

وقد وقفت تلك الحادثات عند حدها الذي عرفت ، لانصراف الملك مكرها عن اغراضه الخاصة ، واهتمامه بامر الدفاع عن عرشه الذي تهدده الملوك كما سيجيء .

اذن نعود الى ذلك الاجتماع السري ... الى مجلس الشورى الذي عقده شرحبيل بن عمرو .

كان ذو مغار قد قدم امس من مخلافه ، وهو يعلم حكاية الملك مع شرحبيل وبلقيس ، عرفها من ذي تبع ، يوم مر به قاصدا همدان .

فلما جلس القوم قال شرحبيل :

لقد استخف بنا الملك في غيبتك يا ذا معار ، وكاد ينتهي الامر بيننا الى حمل السيف .

فاجابه قائلا : لقد عرفت بعض هذا وانا في ارض قومي .

فاستولى عليه الاستغراب وهو يقول : انقلت اليك الجن ما جرى بيننا وبين الملك ؟

فقال : لي بين رجال الملك اصدقاء يطلعونني على كل ما يجري في البلاط ؟

ــ ولكنني اسألك عن الذي خبرك هذا ..

قال : امير من امراء القصر احبه كما احب غالباً ، « يعني ولده » .

ــ من هو ؟

ـــ امير همدان الفتى الذي هو اصدق الامراء .
ـــ ليس بيننا وبين هذا الفتى صلة ولاء .
ـــ لقد قدم معي امس من همدان .
فلمع بريق غريب في عيني بلقيس وظلت ساكتة .
اما شرحبيل فكان يقول :
واي شأن لنا معه سواء اقدم امس او اليوم .. اني لا اصدق ان بين رجال ذي القرنين رجلا واحدا تجول في صدره عاطفة حب شريف ..
فهمت بلقيس بالكلام فقاطعها ذو مغار قائلا :
سترى صاحب همدان غدا في قصرك ايها الامير فتعلم اي رجل هو .
ـــ ماذا تقول ؟ ارى الهمداني غدا في هذا القصر ؟؟
ـــ نعم ، وسيخرج غالب عند الصباح ثم يعود معه ..
ـــ ويذهب غالب الى البلاط ؟
ـــ لا فذو تبع لم يدخل البلاط بعد وهو في منزل احد اخواله .
ـــ واي شيء يصنعه هنا .
ـــ انه يرغب في ان يرى الامير ويحادثه ويلمس بيديه عظمة نفسه التي حدثته بها يوم زارني في مغار ...
ـــ بل يرغب في ان يلمس بيديه اخلاصي لمولاه ... ان ذا القرنين يستعين برجال بلاطه ونسائه ليعرف ما في هذا الصدر من اسرار .
ـــ اخطأت ايها الامير فذو تبع اعظم مما تظن .
ـــ لو كانت له هذه العظمة التي ذكرت لما رضي بالاقامة بالبلاط كالاسير المقيدة يداه وروحه ، ولما صبر ذليلا خاملا على ما يراه من مشاهد الذل والعار التي تمثل في حجر القصر ومقاصيره .
وكانت بلقيس تصغي بقلبها الى ذلك الحديث .
فقال : ولكنك لا تعرف والد الفتى الذي تهينه؛ لقد كان اعز امراء المخاليف وابعدهم عن الملك ، نعم لم يكن عاصيا ، ولكنه كان راضيا بامارته وكان ينظر

الى ذي القرنين بعينين ليس فيها شيء من الاحترام .

ـــ ثم جـاء ولده فحا عز الوالد واستسلم الى الهـوى الذي يسود البـلاط ومن فيه ..

قال : اصبر ايها الامير حتى ترى الفتى غدا .

قال : ليأت غدا ، ولكنه سيجد رجلا اشد اخلاصا للملك منه .

ـــ اذن تظن انه من جواسيس ذي القرنين .

ـــ بل اعتقد وهذا شأن جميع الامراء الذين يعيشون في القصر .

قال : لك ان تقول انه وفي للملك مخلص في الطاعة .

ـــ وهذا معناه انه أغتر بمظاهره الكاذبة فاسترسل في الوفاء له .

ـــ اما هذا فقد اصبت به ، لقد قربه الملك وآثره على من حوله من الفتيان فقام في ذهنه ان مظهر الملك مظهر عاطفة وحب ولم يعلم انه اسلوب ناعم مـن اساليب الحيلة والدهاء . نعم ايها الامير ، لقد خدع الفتى بابتسامة ذي القرنـين فاعطـاه وفاءه واخلاصه بـدلا من ابتسامته ولكنه لم يشأ ان يظهر مثل هذا الاخلاص لولي العهد عندما رأى انه لا يستحق غير الاحتقار والاستخفاف .

فذكر شرحبيل قول نعمى لبلقيس ان صاحب همدان لا يحب ولي العهدولا يريد لو استطاع ، ان يراه ، فقال :

يبغض هدا ويحب ذاك فلا فائدة لنا منه . افلاتعلم اننا نسعى لتكثير انصارنا وان هؤلاء الانصار لا يكثرون الا اذا ابغضوا الملك واثروا الموت على الاخلاص له والخضوع لارادته ؟ ؟

ـــ اعلم هذا كما تعلمه انت ، ولكني اجد له علاجا .

قال : صف لنا علاجك .

قال : يجيء الفتى غدا فيعطف عليه الامير كما يعطف على الهدهاد ، ويحفـه بجميع مظاهر الترحيب .

ـــ وبعد ذلك .

ـــ ثم ينصرف ، وقد استأنس ، على ان يعود مرة اخرى الى هذا القصر .

ـ ونحن نغمره في المرتين بعواطف الحب .
ـ اجل ثم نجول معه في الحديث جولة نعرف فيها اسراره .
ـ وان لم يعد ؟
فالتفت الى بلقيس قائلا : بل يعود ليرى في قصر الامير شرحبيل ما لم يره في قصر الملك من ... صراحة في القول .
وكاد يقول من نور وسحر يبعثهما وجه بلقيس .
فعرفت بلقيس من نظرته انه يعنيها بكلمته .
ولكنها آثرت السكوت ريثما يتسع لها مجال الدخول في البحث .
فقال شرحبيل : لقد نسيت امرا يا ذا مغار .
ـ ما هو ؟
ـ نسيت ان الهمداني من رجال البلاط وانه لا يخرج منه الا باذن من الملك .
ـ واذا كان هذا ؟
ـ اذا كان هذا فاي عذر يعتذر به كل مرة عن خروجه .
فتردد في الجواب .
اما الامير فاستطرد قائلا : ايجسر على ان يقــول له انه يزور شرحبيل بن عمرو ؟ .
فخرجت بلقيس عندئذ عن حيادها قائلة :
اذا كان عزيز النفس كبيرهــا كما وصفه ذو مغــار فهو يجسر على اعظم من هذا ...
ـ ولكن الملك يظن به الظنون .
ـ وهذا ما تريده انت يا مولاي ، انك لا تستطيع ان تجعله من رجال دعوتك الا اذا شك الملك في اخلاصه ودفعه هذا الشك الى امتهان كرامته .
ثم قالت : وقد يكون صريحاً الى حد ان يقول للملك ؟
اقيم ببلاطك على ان ازور شرحبيل بن عمرو عندما اشاء .
قال : ما اظن ان رجلا يجرؤ على مثل هذا غير شرحبيل وذي مغار .

فقال ذو مغار : ستری ايها الامير ان الجرأة والشرف يقومان جميعاً في صدره ...

قال : لم يبق الا ان نصبر لنری .. والآن فقد عرفت ما صنعه الملك ونحن بحاجة الى الرأي .

ــ قل لي اولا من هي الوصيفة التي وهبها الملك لبلقيس ؟

ــ فتاة من حضرموت وقد كانت من حظاياه .

ــ انها اذن تنقل اليه كل كلمة تقال في هذا القصر .

ــ اجل وتفعل ذلك بامر بلقيس !

ــ ومعنى ذلك ؟

ــ معناه انه ارسلها جاسوسة علينا فامست جاسوسة عليه تنتزع الاسرار انتزاعاً من صدره الذي تتأجج فيه نار البغض .

واخذ يقص عليه حكايتها مع حاشد ومع الملك في البلاط .

ثم قال : لقد رأينا من قبل ان نعد العدة للثورة ونتهيأ لخلع الملك يوم تجتمع تحت لوائنا القوى التي تصلح لهذا الامر ، اما الآن فقد رأت بلقيس رأياً آخر احب ان استشيرك فيه .

ــ يخيل الي اني اعلم هذا الرأي ... ان الحيلة في نظرها خير من السيف .

ــ السيف يتبع الحيلة على كل حال غير ان هنالك شيئاً جديداً لم يعرفه ذو تبع ليقصه عليك هو ان ولي العهد يريد بلقيس زوجة له .

فاستوی في مجلسه قائلا : وهذا وهو السبب الذي دعاها الى تغيير الرأي ؟

ــ اجل : وستخبرك الآن اي امر ستقدم عليه للحصول على الغاية التي تعلم .

وجعلت بلقيس تروي روايتها حتى انتهت الى قولها : انها ستتزوج ولي العهد اذا اكرهتها الاقدار .

فقال ذو مغار : اذن لا ينتهي الامر الا بالسيف كما قال الامير . ولا بد من ان تتولى الرجال امر حمل التاج من رأس الى رأس .

قالت : اصبت وسيمد شرحبيل بن عمرو يده في قضية التاج سواء اظفر ذو

القرنين في النزاع او ظفر ولده .. والآن فلنفرض ان امراء اليمن اصبحوا فريقين هذا ينتصر للملك وهذا ينتصر لابن يعفر فاي فريق منهما يكون لنا ؟

فاجابها دون ان يتردد : الفريق الضعيف في عدده وقوته .

ــ اعرف ان امر اليمن في يد الملك ونحن لا نستطيع ان نجعل حزبنا اعظم قوة واكثر رجالا من حزبه . ولكن اردت ان اعرف الرجال باسمائها لاتبين التأثير الذي يحدث في القوم عند خروج هؤلاء الرجال عن طاعة ذي القرنين .

ــ نحن اليوم في الخطوة الاولى ولم نر احداً .

ــ ومع ذلك فانت قادر على النظر في الامر الآن .. من هم الامراء الذين تظن انهم يمشون وراءك ووراء ابي الى ساحة القتال ؟

فنظر الى ابن عمه قائلا : رأيك يا ياسر .

فتمتم قائلا : تريدون ان تندبوا الناس الى خلع الملك وانتم وراء جدر القصور لا تنقلون الى الاقاليم قدماً .

قالت : لكل امر دوران ، دور القول ودور العمل ونحن في الدور الاول الآن ...

ــ اخشى ان يضيع الامل عندما ينتهي الدور الاول الذي تذكرين .

ــ لا تضيع الآمال وولي العهد يحب بلقيس ... اذكر من تعرف من الرجال .

قال : ابدأ بالامراء الذين يقيمون بالبلاط .

ــ بل تبدأ بالامراء المقيمين بالمخاليف وتترك من ذكرت .

ــ قلت لذي مغار ان جبار بن دوير يبغض الملك وله عليه ثأر لا ينساه ..

ــ من هو جبار هذا ؟

ــ امير بينون وعنده الرجال البسلاء الذين يستهينون بالموت .

ــ وغير جبار ؟

ــ الغوث بن راهط صاحب براقش وقد سلبه ذو القرنين فتاة من بنات عمه هي احب النساء اليه .

فجعلت بلقيس تردد الاسماء قائلة :

ذو مغار وياسر ، وجبار بن دوبر ، والغوث بن راهط ، وشرحبيل بن عمرو. خمسة امراء يتبعهم بضعة عشر الفا من الرجال! انهم لا يثبتون في وجه ذي القرنين عندما ينفخ في بوق الحرب . عنده اكثر من عشرين اميرا يجرون اذيال النفوذ والجاه وعندنا خمسة ليس غير ، هو الملك الذي يمد رواق سلطانه في فضاء اليمن، ونحن الرعية الضعيفة التي تفكر في الثورة لتنزع منه التاج ! هو القوي بالمال والجيش ونحن الضعفاء بكل شيء الا بالعاطفة الطامحة والعقيدة الثابتة وهذا وحده لا يكفي، نعم لا يكفي فلنصبر ولنعلل الملك وولده بالوعود حتى يستقيم لنا الامر كما نشاء .

وكان ياسر صريحا كما رأيت ، فقال :

للقدر ارادة لا ترد فيجب ان نعد له العدة قبل ان نستسلم الى الاحلام .

ـ وماذا يفعل هذا القدر ؟

ـ يغضب ، ثم يثور ، ثم يخرب ويهدم ولا يبقي على شيء .

فاعجبها هدوء الرجل وحكمته فقالت :

وهل نستطيع ان نعد العدة لامر لا نعرف ما هو ؟ اذكر مخاوفك .

قال : افرض ان الملك وولي عهده لم يصدقا وعود بلقيس .

ـ وماذا ايضا ؟

ـ ان الملك استطاع ان ينتزع الاسرار من صدر الوصيفة .

ـ وعندئذ ينسى الملك غرام ولي عهده ويعمد الى الضربة القاضية التي ترسل شرحبيل ومن حوله الى الفناء ، اليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ ولكن نسيت ما قلته منذ ساعة ، ان الملك عندما يتغلل الشك في صدره ويعمد الى ما ذكرت اعمد انا الى التضحية واتزوج ولي العهد .

ـ بل انت التي نسيت ما ذكرته لك نعمى ، الم تقولي الآن ان ذا القرنين لا يسلم بهذا الزواج ؟

ـ بلى ، غير اني لا ابالي بقوله ولا اعبأ به .

ـ اي انك تتزوجين على الرغم منه .

ــ اجل ويوافقني ولي العهد في ذلك دون ان يبالي بابيه !

ــ يعز عــلي ان تستسلم بلقيس الى الغرور .

ــ ويعز على بلقيس ان ينسى ياسر امير ريام ان في صدر ولي العهد حبا يبيع في سبيله العرش والتاج . افلا تذكر ان الرجل من ابناء هذاالبيت ، البيت المالك يبذل ملكه ونفسه وماله في سبيل غرامــه ، ويخرب اليمن كلها اذا استطــاع ليبلغ غايته ؟

ــ بل اذكر ان الملك يبيع اليمن والجزيرة كلها ليبقي التاج على رأسه ، الم تري ماذا صنع هو وولي عهده عندما بلغهما خبر ســابور بن هرمز الزاحف الى بلاد العرب ؟ وخبر ملك الحبشة الجديد «العلي اسكندي» الذي يفكر في الاستيلاء على ملك حمير ؟ الم تري كيف ارسل ولي عهده على رأس فريق من الجيش ، الى البلاد البعيدة . الى بلاد عبد القيس ثم الى اليمامة ليتبين امر ذلك الفارسي الزاحف ويتهيأ لقتاله اذا حدثته النفس بدخول بلاده؟ الم يرسل عبد شمس الذي كان فلاحا ومعدي كرب صاحب صرواح الى الناحية الاخرى يستطلعان اخبار الحبشة ويحملان اليها تلك الإخبار ؟ الم تري كيف نسي غرامه وحسانه ، بل كيف نسي بغضــه وحقده على بلقيس وترك نعمى تروح وتجيء في البلاط دون ان يسألها عنك او يقول كلمة واحدة ؟ ان في هذا وحده دليلا على ان التاج في نظره فوق كل شيء وليس في العالم امر يستحق ان يحول بينه وبين الحرص عليه .

ثم قال : وارجو ان تعلمي ايتها الاميرة ان ذلك الحب الذي وصفت تأثيره ، حب وحشي ليس فيه اثر للعاطفة ، وسحابة صيف لا تظهر اليوم الا لتزول غداً.

وكانت لهجته لهجة رجل خبر دنياه فوثق بنفسه .

فابتسمت قائلة : وماذا ترى الآن ؟

ــ ارى ان تنظر الاميرة الى هذا الامل الذي تحلم به ، كما ينظر اليه الآن ياسر امير ريام ..

ــ اي انه امل كاذب ..

ـ نعم وليس من الحكمة ان تسند المؤامرات الى الآمال وتبنى العروش على عواطف الغرام ..!

قالت : ان الحيلة التي الجـأ اليها تستند في النهاية الى قوة السيف وهذا مـا تريده انت .

ـ ولكنك تظنين ان ولي العهد سيغضب اباه وسيعمد كل منهما الى سيفه لينال غايته وهذا ما لا اصدقه .. انا اعلم ان السيف ينقل التـاج من رأس الى رأس فاعمدي اليه وحده ليتم لنا الامر او نموت .

ـ لقد بدأت ان انظر الى الشعب اليمني كأنه رعية لي .. فلا احب ان تغوص اليمن في بحر من الدماء لترفعني او ترفع ابي الى العرش .

ـ ولكن هذه الدماء ستجري كالانهار عندما تنتصرين لولي العهد يوم يغضب اباه ويبرز الاثنان الى الميدان .

قالت : لا تنس اني احارب في ذلك اليوم الملك وحده الذي تضعف قوتـه ويخسر الفريق الكبير من رجال حربه .

ـ بل تحاربين الملك وولي عهده . تبدأين بالاول ، ثم تنثني الرجال الى الآخر ليخلو لك الجو .

ـ اجل : ولا يتم الامر الا بالتفريق بين الاثنين ، اي انه خير لي ولك ان نحاربهما منفردين الواحد منهما عدو الآخر ، بدلا من ان نحاربهما مجتمعين ومعظم اليمنيين تحت لوائهما .

فاطرق ياسر ملياً وقد رأى ان الصواب في ذلك الرأي ، ثم قال :

ومع ذلك فانا اخاف الاقدار ولا يخطر لي ان الحب يقـدر على هذا التفريق الذي تفكرين فيه .

قالت : سنظفر في الحالين ،اما ان يستقيم لنا الامر كما اظن ، واما ان نفشل فارضى بعمرو زوجاً لي .

وهمت بان تقول كلمة اخرى فوقفت عند شفتيها ولم يسمعها القوم .

فقال الهدهاد : اما نحن فلا نرضى بان تصبح بلقيس بنت شرحبيل عبـد لهذا النذل ..

فاجابته قائلة : ارضى به لاصير سيدة اليمن ..!

فخيل الى ذي مغار انه ادرك معنى ذلك الكلام ، فقال : اما انا فقد عرفت الغاية من هذا الرضى .

ــ ماذا عرفت ؟

ــ ستتزوجين عمرا لتمهدي السبيل للمتآمرين عليه وعلى الملك .

فبرقت عيناها ولم تجب .

فقال ياسر : لو لم تكن بنت شرحبيل لسألتها بان تصير حظية لذي القرنين في هذه الساعة .

قالت : وفي ليلة واحدة اقلب العرش .!

ــ نعم وهذا الذي اعنيه .

فبانت العظمة على جبينها وفي عينيها وهي تقول :

خير لبلقيس ان تكون جارية في منزل فلاح من ان تكون حظية في البلاط ..

وعادت الى حديثها الاول قائلة :

لنعد الى النظر في امر الحرب .. الا تجدون من الامراء غـير اولئك الخمسة الذين ذكرتهم ؟

قالتها وهي تنظر الى ياسر ، فقال :

في اليمن امراء كثار كما تعلمين ولكن لا نعلم ماذا يضمرون ولا نجسر على ان نخاطبهم في هذا الامر .

ــ يجب ان ينضم الينا عشرة امراء على الاقل .. انتقلوا الآن الى مخاليف غمدان وتلغم وشبام وارياب وعمران اليس بين امرائها واحد يضمر البغض للملك ويحمل سيفه ليدافع به عن كرامته ؟

ــ ان هذه الاقاليم جميعها مخلصة للملك وهي التي ارسلت جنودها يحارب بها اقليم شبوة يوم حمل لواء العصيان .

ـ اذن لننتقل الى البلاط فعسى ان نجد فيه واحداً .

قال : قد يكون عتيك بن روضة من اعداء ذي القرنين وهو يكتم عداوته في صدره لا يبوح بها لاحد .

ـ ومن يحدثه بالامر ؟

ـ نرسل اليه رجلا من ابناء قومه .

ـ وهل يعرف احد منكم سبب عداوته ؟

ـ لقد قتل والد الملك اباه وهي قصة يعرفها معظم اهل اليمن وقد كتموه اياها من قبل .

قالت : انه لنا ولم يبق الا ان ترسلوا اليه نسيبا له .. وذلك الفلاح صاحب ناعط ماذا تصنعون به ؟

ـ عبد شمس ؟ انه بعيد عن البلاط اليوم وهو اشد الناس اخلاصاً للملك واصدقهم طاعة .

ـ ولكن قومه لا يعبأون باخلاصه كما علمت .

ـ اجل : غير انهم فوضى ، وليس لهم رئيس يرجعون اليه .. نعم .. ولولا تفرقهم لما استطاع الملك ان يولي امورهم فلاحاً ذليلا لا شرف له ولا نسب . ومع ذلك فجيش الملك في ناعط لا يخرج منها وعندما يرفع احدهم رأسه يخفض السوط ذلك الرأس او يفصله السيف عن جسده .

قالت : هاتوا غيره فلا خير فيه .

وهي تريد ان يتناولوا في بحثهم امير همدان الذي تملأ صورته ذهنها وقلبها كما تملأ الاحلام العذبة اذهان العاشقين .

فقال : امير همدان وقد وصف لك ذو منار الآن .

ـ واي رأي لك فيه ؟

ـ لقد اسرته ابتسامة الملك كما تعلمين فهو لا يخونه !

قالت : يظهر انه يبيع نفسه بابتسامة كاذبة .

قال : عندما يقوم في ذهنه ان ابتسامة الملك ابتسامة مكر ورياء يصبح

اخلاصه بغضا وحبه حقدا .
ـ هب انه اصبح منا .
فقاطعها ذو مغار قائلا : اذا اصبح منا ضمنت الظفر .
فاشرق جبينها قائلة لنفسها :
لقد امسى تاج حمير لبلقيس بنت شرحبيل .
وكان الليل قد مضى نصفه فقالت لابيها :
لم يبق الا ان ننصرف على امل ان نجتمع غداً بذي تبع .
قال : اترين ان نخاطبه بالامر غدا ونحن لا نعرفه ؟
ـ ليس لي ما اقوله الآن فلنصبر .
وقامت فانصرفت الى غرفتها وقلبها يخفق .
فرأت نعمى بالباب فقالت لها : سأحاول غدا ان اشتري سيف الفتى الهمداني الذي وصفته لي .
قالت : ذو تبع ؟
ـ نعم وسيجيء الى هذ القصر كما وعد ذو مغار .
فقالت في نفسها كما كان ذو مغار في تلك الساعة يقول في نفسه :
سيدخل صاحب همدان قصر شرحبيل وهو خلي القلب . ولكنه يخرج منه وهو اسير الغرام .

***

١٠

مرت بضعة اشهر لم يعبأ ذو القرنين في خلالها بنعمى واخبارها كما تقدم ، ولم يجالس نساءه وجواريه ، ولم يخطر له الا ان يحافظ على عرشه .
وتلك هي الاسباب التي جعلت تلك الحوادث تقف عند الحد الذي قرأت .
ان الحبشان من جهة يطمعون في بسط نفوذهم على اليمن ، وملكهم الجديد ،

العلي اسكندي يريد ان ينشر النصرانية التي دخلت الحبشة من عهد قريب .

اجل يريد ان ينشرها في القطر اليمني بمساعدة كاهن رومي اسمه فرومنتوس بشر في الحبشة باسم الناصري ، وساموه اسقفا عليها في اواسط ذلك الجيل .

وسابور بن هرمز الذي يعرف بسابور ذي الاكتاف ، يقود جيشه الصغير طائفا به في بلاد العرب ، يضرب بيمناه ويسراه ، ضرب ثائر مجنون يستلذ الدماء ويطيب له اللعب فوق جثث الابرياء .

وسابور فتى في عنفوان صباه ، يبتسم للمعارك الحمر ويستهين بالموت وله على العرب ثأر لا يضمحل تأثيره ولا تخمد ناره .

فذو القرنين اذن بين طامعين لا يعرف ايهما يسبق الآخر الى دخول بلاده ليضع السيف في رقاب اليمنيين .

وقد علمت انه لا يخاف كما يخاف الجبناء . بل كما يخاف الحكماء . فهو فتى الحروب اذا استعرت نارها وصاحب السيف القاطع الذي تعود ان يغمده في صدور الاعداء .

وكان يعلم ان الحبشان لا يرجعون عن اليمن الا اذا دهمتهم الرجال وان الثأر الذي لهم والبغض الذي يغلي في صدورهم لا يذكر معهما ثأر سابور وبغضه .

ألم تقرأ من قبل ، ان ملك الحبشة في اواخر الجيل الثالث ، فتح بعض اليمن وبعض تهامة ولم يلبث حتى رده الحميريون واخرجوه ؟

اذن فالحبشان لا يطيب لهم الا ان يسترجعوا ما خسروه ، ان لم يكن اليوم فغدا ، والويل لصاحب التاج الحميري اذا كان ضعيفاً او تردد في الدفاع .

انه يخسر تاجه ويضيع العرش الذي ورثه من الاجداد .

وكان بعض اليمنيين ، الذين يحملون اشياءهم الى الحبشة للتجارة قد خبروا ذا القرنين ان الكاهن فرومنتوس ينشر مذهب الناصري في القوم ، وان الحبشي الذي اضحى نصرانياً يطيب له الموت في سبيل مذهبه الجديد .

وقصوا عليه في الوقت نفسه ان القيصر الذي تخضع له نصف الارض ، يرسل المال الى العلي اسكندي بدون حساب ليستعين به على الفتح .

واعدً له جيشاً جراراً يبعثه الى الحبشة عند الحاجة لينضوي الى الجيش الحبشي ويمشي بقيادة النجاشي الى الميادين .

وتلك اخبار رهيبة كما ترى تملي على ملك حمير الحذر ، ان لم تبعث الخوف .

وكان عليه ان يتدبر امره قبل ان يفاجئه الخطر الذي لا مفر منه . فارسل ولي العهد الى بلاد عبد القيس ، ومعدي كرب وعبد شمس الى ناحية الحبشة كما قرأت .

وامر الجميع بان يرسلوا اليه الرسل اذا ابصروا الخيل .

على انه كان يخاف شيئاً واحداً هو دخول الملكين الطامعين اليمن ، في وقت واحد فيضطر الى جعل جيشه فريقين ، يولي احد امرائه قيادة فريق منهما ويرأس هو الفريق الآخر .

ولكن ايقود الجيش الذي يتصدى لسابور ام للعلى اسكندي ؟

هذا ما لا يعرفه وسيصبر حتى ترد عليه الاخبار الاخيرة في هذا الشأن .

وفي الشهور التي مرت على الحال التي ذكرنا ، لم يكن له هم الا دعوة الامراء من ادنى اليمن الى اقصاها ، يأمرهم بان يتهيأوا للقتال وينتظروا امراً آخر .

وملأ بلاده جواسيس ، يقبضون على كل حبشي يشتبهون في امره .

واقام صابرا ، لا يعنى الا بشؤون الجيش ، وبذل النصائح الحربية للامراء .

***

١١

سابور ذو الاكتاف

•

مات هرمز بن نرمي من سلالة سابور ملك الفرس ، ولا ولد له يرث ملكه وتاجـــه ..

بلى ، كانت احدى نسائه حبلى ، وذلك الجنين الذي يختلج في احشائها كان الملك بعد ابيه ، بقوة الحق الشرعي ، وبقوة تلك الوصيـــة التي تركها هرمز قبل موته ، بين ايدي انسبائه ووزرائه .

ورجال الدولة ، مكرهون على تنفيذ وصية الملك ، سواء اكان المولود ذكراً ام انثى .

على ان المرأة ولدت طفلا هو سابور .

وقد تولى كبير الوزراء امر الملك ، وتقـــلد الموظفون الذين كانوا في عهـــد هرمز اعمال الدولة ، على ان يكبر الملك الطفل ويستوي في عرش اجداده .

فشاع في بلاد العرب ان الفرس لا ملك لهم ، وان الامر فوضى بينهم ليس في الدولة عهد او نظام .

وكان ذلك ، في اوئل الجيل الرابع اي في سنة ٣٠٩ للمسيح .

ولم يبلغ الخبر العرب فحسب ، بل تجاوزهم الى قيصر الروم الطامع في ارض فارس كما كان يطمع فيها القياصرة الذين تقدموه .

وقد لا تقرأ رواية من روايات العرب قبل الاســـلام ، الا وتجد فيها ذكراً للرومان والفرس فالدولتان كانتا سيدتي العـــالم كما عرفت ، تتنازعان النفـــوذ

والسلطان في بلاد العرب الخصبة الكثيرة الخيرات .

وفارس اقرب الى العرب من روما ، ولملكها في جزيرة العرب وما حولها ، اغراض لا تشبه اغراض قيصر ، الا من ناحية التوسع والفتح .

وكانت تلك السنة مجدبة ، وقد شمل الضيق معظم القبائل العربية النازلة في بلاد عبد القيس وكاظمة ، والبحرين .

وماذا تصنع العرب اذا اصابها الجدب ، انها تنتقل من ارض الى ارض وتهجر الاقليم الذي تعيش فيه الى اقليم آخر فيه السعة والمرعى ، ثم ترحل عنه الى سواه ، عندما تضيق في وجوهها السبل ويطيب لها الرحيل .

وتلك عادة القبائل اهل البادية ، من قديم الزمان الى اليوم .

فلما عرفت ان فارس ليس لها ملك ، وان ملوكها وزراء هرمز واهل بيته ، استهانت بالدولة التي لا رأس لها ، فتركت بلاد عبد القيس ، الى سواحل اردشير خرّه وشواطىء الفرس .

وفي تلك الشواطىء الواسعة نشرت العرب الذعر ، وملأت قلوب اهلها خوفا ورعبا . ان نزولها فيها لا يختلف في شيء عن نزول الغزاة الفاتحين .

ولم يكن هنالك جيش فارسي ، بل لم تكن هنالك هيبة للوزراء المتربعين في العروش .

اهل الشواطىء اهل زراعة ، منصرفون الى استثمار الارض التي يكمن فيها الذهب ، وتغمرها مياه الانهار الفياضة .

وهم لا عهد لهم بالحرب ولا يحملون السيف الا اذا اكرههم ملكهم على حمله في الايام السود .

ففروا من وجه العرب كما يفرون من وجه الموت ، وحملوا الى سادة الموقف اخبار الذعر والتخريب والقتل .

ولكن رجال الدولة لا يشهرون الحرب ولا يبرزون الى الميادين ، في زمن هم احوج الناس فيه الى السلام يمد رواقه في فضائهم البعيد الواسع الاطراف .

ووضعت العرب ايديها على كل ما كان لاولئك الزراع ، من ارض وماشية

ومال ، لا تبالي بما فعلت ، ولا تحسب حسابا للزمان .

واي شيء تخافه في ارض فارس ؟ الملك طفل في مهده ، والقـــوم حوله مستسلمون الى لذة الحـــكم لا ينظرون الا الى النفوذ والجـــاه اللذين وهبتهما لهم الاقدار .

والجند الفارسي الذي جعله هرمز في الثغور والاقاليم لا يترك مواضعه !

فقد طابت له الاقامة باحضان الراحـــة ، وآثر الخمول على حمل السيف في وجوه الاعداء .

وكان الزمان يمـــر ، والعرب في الشواطىء لا يغزوهـــا احد حتى ترعرع سابور « و هو غير سابور الذي مر ذكره في روايـــة زينب » وعرف انه سيـــد للقوم وملكهم .

وكانت عاصمة الملك طيسبون ، وهو في قصره فيها ، فـــاستيقظ صباح يوم يسمع اصوات الناس من جهة دجلة تملأ الفضاء .

وهو لا يعلم معنى لتلك الاصوات .

فقال لاحد وزرائه : اي شيء هذا الذي اسمع ؟

قال : الناس مقبلون مـــدبرون على جسر دجلة وهذه اصوات تزاحمهم في المرور ...

ففاجأه بقوله : اتخذوا جسراً جديداً للمقبلين واجعلوا الاخر معبراً للمدبرين فلا يزدحم الناس ولا ترتفع الاصوات .

وذلك اول مظهر من مظاهر الفطنة .

فقال وزيره : لا يمر هذا الشهر حتى ترى الجسر .

فضحك قائلا : لا اريد ان اسمع مثل هذه الكلمة بعد .. لقد امرت بان يبنى هذا الجسر فليبن اليوم ويجب ان ارى الناس يمرون عند غروب الشمس .

وهذا مظهر اخر من مظاهر الحزم وعدم التردد في الامر .

فخرج الرجل ينفذ امر مولاه واستبشر الناس بما رأوا من ملكهم الصغير الذي له حكمة الشيوخ .

وجعل الوزراء يعرضون عليه الامر بعد الامر وهو ينصف الناس ، حتى عرض عليه امر الجنود الحاملين المقيمين بالقرب من اعدائه .

فعمد الى الحلم واللين يشتري بهما قلوب جنوده ، وكتب اليهم يقول :

لقد انتهى الي طول مكثكم في النواحي التي اقامكم بها ابي هرمز ، واستغناؤكم عن اخوانكم واوليائكم ، فمن احب ان ينصرف الى اهله فلينصرف مأذوناً لـه في ذلك ، ومن احب ان يستكمل الفضل بالصبر في موضعه عرفت له ذلك .

ثم ختم كتابه قائلا : وعلى كل من يختار الانصراف ان يلزم اهله وبلاده الى وقت الحاجة اليه .

فقال الوزراء في انفسهم : لو كان سابور قد اطـال تجربة الامور وسياسة الجنود لما زاد رأيه وصحة منطقه على ما سمعنا منه .

ثم تتابعت اخباره الى الاقطار بما اصلح ومـا فعل حتى تمت له ست عشرة سنة واطاق حمل السلاح وركوب الخيل .

فجمع اليه رؤساء اصحابه وجنده وقام فيهم خطيباً قال :

اذكروا ما انعم الله به علي وعليكم ، بابي واجدادي ، وما اقاموا من ادبكم ، ونفوا من اعدائكم ، ثم اذكروا ما اختل من اموركم في ايام صباي وما ضاع منها بين ايدي العرب التي استخفت بالفرس .

ولكن ارجو ان تعلموا اني سابتدىء بالدفاع عن الشرف الذي استهان بـه الناس ، وسأختار رجال الحرب فاقودهم الى المواضع التي نزل فيها العدو،فاسأله عما صنع في بلاد الطفل سابور .

فدعا له القوم ، وسألوه ان يبقى في قصره ويوجه قواده الى ساحة الحرب ولكنه ابى ، ولم يرض الا ان يخرج الى الميدان ، على رأس الرجال الابطال .

ثم غادر طيسبون مجنوناً ثائراً كما قرأت ، ونهى رجاله عن الابقاء على عربي مهما يكن امره .

حتى وضع قدميه في تلك الشواطىء التي غصبتها العرب ، وفاجأ اهلهـا في ساعة غفلوا بها عن جور الزمان ، فقتل من تصدى له منهم ، ابرح قتل ، واسر

عنف الاسر ، لا ترده استغاثة النساء وبكاء الاطفال .!

حتى اقفرت الشواطىء الزاهرة لم يبق فيها احد ، ولم يسلم من اهلها غير الذين لجأوا الى الفرار .

غير ان ثورة سابور لم تهدأ ، بل قطع البحر في اصحابه وورد بلاد البحرين . يرسل الموت من سيفه الوانا لا يقبل فداء ولا يلوي على غنيمة كأنه قضاء الله .

ثم مضى على وجهه فاستقر في هجر ، وبها ناس من اعراب تميم وبكر بن وائل ، ينتقل فيها من ارض الى ارض يغشي في اهلها القتل ويسفك الدماء حتى تسيل كما يسيل الماء وحتى كان الهارب منهم يرى انه لن ينجيه منه غار في جبل ولا جزيرة في بحر .

ثم عطف الى بلاد اهل القيس . فاباد اهلها الا من هرب منهم بالرجال .

ثم اتى اليامة فقتل بها مثل تلك المقتلة ولم يمر بماء من مياه العرب الا غوره ولا بئر من آبارهم الا طمها . !

ثم انتقل الى البلاد التي تجاور المدينة « يثرب » فافنى من وجد فيها ولم يبق على شيء من الزرع والماشية والماء .

ثم تمادى في جنونه وقسوته فجعل ينزع اكتاف العرب ويترك الجثث في الاسواق فسمي ذا الاكتاف .

وفي ذلك الحين بلغت اخباره اليمن ، ونقل الناس الى ذي القرنين حكايات غزوته المدمرة ، فخيل الى الملك الحميري العظيم ان سابور من الجن .

وعمد الى فريق من الجيش ، يرسله كشافا بقيادة ولي عهده كما مر .

غير ان الملك الفارسي لم يفكر في الوصول الى اليمن ، بل لم يكن يفكر في الاستيلاء والفتح . ولم يخطر له الا ان يرضي حقده . وينشر هيبته في الاقطار التي تجاور بلاده .

ولم يكتف بكل ما فعل ، ان ثورة نفسه لم تهدأ ، وغضبه لم يضمحل ، وتلك النار التي تتأجج في صدره ، لا يخمدها غير الدماء التي تصبغ حوله الساحات ...

اجل ، لم يرض الغازي القاهر بما صنع ، بل مشى قاصداً بلاد بكر وتغلب ، بين حدود الفرس وحدود الروم من ناحية الشام ، فاباد سكانها الذين لم يهربوا منه ...

وعندما كان شبح الحرب ماثلا امام عيني ذي القرنين ، كان الغازي الفارسي قد لان وكانت ناره الآكلة قد اطفأتها الدماء .

على ان العرب التي نفرها لم تجسر على الرجوع الى البلاد التي خرجت منها بدون اذنه ، فعمدت الى الاسترضاء . ولكنه لم يرض الا ان يختار بنفسه ، بلادا جديدة يجعلها لها وطنا .

فاسكن قوما من بني تغلب بلدين هما هيج والخط في البحرين ، وجعل بعض عبد القيس وطوائف من تميم ، في هجر ، وطوائف من بني بكر في كرمان ويدعون ببكراباان . .

ثم عقبت ثورته عاطفة جديدة من عاطفة البناء والتعمير ، فبنى في السواد مدينة سماها بزرج سابور وهي التي عرفت بعد ذلك بالانبار .

وبنى بالاهواز مدينتين هما الكرخ والسوس ، وبارض خراسان مدينة اخرى دعيت نيسابور . .

وذو القرنين لا يعلم شيئا عن هدوء هذا الغازي الفارسي وولي عهده لم يعد .

* * *

١٢

خرج غالب بن ذي مغار من قصر شرحبيل في صباح اليوم الثاني ثم لم يلبث حتى عاد مع ذي تبع صاحب همدان .

وكانت بلقيس سافرة ، وهي في مجلس ابيها تنتظر قدوم ذلك الامير الذي وصف لها ، وفي صدرها عاطفتان . عاطفة شوق لا تعرف سببه ولا رابط له . وعاطفة طمع في اخراج الفتى عن طاعة الملك .

فلما اقبل ، جثى رأسه لشرحبيل وهم بتقبيل يده ، ثم انثنى فصافح الدهاد ولم يجرؤ على مد يده للفتاة التي تملأ المجلس جمالا وهيبة .

ثم قال لشرحبيل : لقد سألت ذا مغار ان يستأذن لي عليك وجاءغالب يحمل الي هذا الاذن الساعة ، فأتيت وأنا فخور بان اصافح الامير العظيم سليل الملوك وسيد الاشراف بعد مولانا الملك .

فأجابه قائلا : اما انا فقد عرفت انك اعز فتيان البلاط واصدقهم عاطفة فلم اتردد في طلبك ... اجلس، فذو مغار يحبك ومن استحق حبه فقد استحق في الوقت نفسه حب شرحبيل بن عمرو .

فجلس ، وقد رفع رأسه ناظراً الى بلقيس ، فتلاقى النظران .

انها عاطفة هوى كانت كامنة في الصدرين ... فاستيقظت فجأة ، ثم وثبت بقوة الشباب يضطرب لها القلبان ... ولولا مجلس شرحبيل ، لباح الواحد منهما للآخر بما احس به .!

احبها كما يحب اليمني آلهته ، واحبته اكثر مما تحب العرش الطامعة فيه ، فلا تعجب للنظرة القصيرة تحمل جميع معاني الغرام .

احب ذلك الجمال وذلك الجلال الساحرين ، واحبت تينك العينين السوداوين ، وذلك الوجه الذي تغمره الخلابة ، وتلمع فيه عظمة النفس .

اجل : لقد صدق في تلك الساعة حديث القلبين ، وحقق القدر احلام النفسين ، فعلق الواحد الآخر كأن غرامهما مرت عليه الاعوام .

وكان ذو مغار ينظر الى الاثنين وهو يبتسم ابتسامة الظفر .

ثم قال شرحبيل : متى قدمت البلاط ايها الامير ؟

ولعله اراد ان يسبر غوره ليعرف اسرار نفسه.

فقال الفتى : لقد انقضى العام الاول على وجودي فيه وهذا هو العام الثاني .

ـ ولكن اباك لم يكن من امرائه ولم يشأ ان يترك مخلافه على رغم طلب الملك وسؤاله كما عرفت .

ـ لقد كان ابي راضياً بهمدان ولولا الامارة التي ورثها من ابيه لآثر الاعتزال

في واد من اودية اليمن لا يرى فيه احداً على الاقامة بالقصور .

ــ واما انت ؟

فقالت بلقيس : اما هو فقد آثر البلاط على كل شيء .

وفي تلك الكلمة معنى عرفه الهمداني ، فقال :

لم يخطر لي من قبل ان اعيش في ظل الملك بين المقربين والامراء .

ــ ثم خطر لك بعد ذلك ان تفعل ففعلت .

ــ بل خطر للملك ان يلج في طلبه فلم اشأ أن اعصي .

فاشار الامير على ابنته بالسكوت قائلا :

قيل لي انك تحب ذا القرنين كما كنت تحب اباك .

ــ نعم ، وانا اعلم انك لا تضمر له الحب يا مولاي .

ــ وكيف علمت هذا ؟

ــ رأتك عيني وسمعتك اذني تخاطب الملك بلهجـــة الابي الغاضب لشرفه .

ــ انك تعني حادث العام الماضي على ما اظن .

ــ اجل اذكر انه طلب اليك الاقامة بالبلاط ثم نزل عن ذلك وسألــك ان تبيعه الاميرة بلقيس او تهبها له لتكون بين حظاياه .

قالها وعيناه ترسلان شعاعا غريبا لم يره ذو مغار من قبل .

فابتسمت بلقيس ابتسامة الاستخفاف .

اما شرحبيل فكان يقول : لقد ندمت على ذلك القول ولولا حلم الملك وعدوله عن طلبه لجعلت بلقيس في اليوم الثاني حظية له .

فاحمر وجهه قائلا : لقد رضي الملك بما كان وانتهى الامر .

ــ ولكن شرحبيل بن عمرو لم يرض. ان الملك فوق الشرف والكرامة وفوق كل شيء . وليس من الرأي ان ابخل عليه بفتاة يرغب في ان يضمها الى نسائه ، وهي من بنات عمه . !!

فزاد احمرار وجهه وقال : ان البلاط يغص بالحظايا من جميع الاقطار .

ــ ومع ذلك فهو يرغب عنهن ، وليس بينهن واحـــدة تستحق اعجابـــه كما قيل لي .

فاجابه وشفتاه ترتجفان : ان الذي خبرك هذا كاذب يا مولاي ... لان الملك لا يحادث احدا من امرائه باموره الخاصة التي تتناول امورغرامه وهواه ،واعجابه بحظاياه وجواريه .

ــ ولكنه يحادث وصائف البلاط ونعمى بنت الريان التي اهداها الى بلقيس هي التي نقلت الي ما في صدر مولاها من لواعج الحب .

فكاد الفتى يختنق لهذه المفاجأة . اتصبح بلقيس ، هذه الفتاة الفتانة التي احبها سلعة تباع للملك ثم يملها فيهبها لسواه ؟!

ايحب في لحظة ، ذلك الحب الذي ملأ قلبه ، ثم يخسر من احب الى الابـــد دون ان يبوح بغرامه او يذكر كلمة واحدة عنه ؟

اهذا هو شرحبيل الابي ، الذي قال ذو مغار عنه انه اعظم الامراءنفسا واعز اهل اليمن ؟؟

انه مظهر من مظاهر الضعف والذل ، لم يقم في ذهنه قط ، ان سليل المـــلوك يظهر به .

وماذا يبقى من غرامه الجديد اذا انتقلت بلقيس الى البلاط ، بل ماذا يبقى من قلبه الذي لم يخفق على الحب خفقانه الاول الا ليموت ؟ ؟

لقد فكر امير همدان في كل هذا وهو يتردد في الجواب .

ايصف شرحبيل فساد البلاط واهل البلاط وهو المخلص لذي القرنين المحسن اليه ، ام يسكت وفي سكوته قضاء على تلك العاطفة القوية العذبة التي استيقظت في صدره ؟ ؟

لا . ان خير ما يلجأ اليه : تصوير البلاط كما هو على مسمع من بلقيس دون ان يهين الملك او يقول عنه كلمة سوء .

لعل بلقيس تأنف من الذهاب الى ذلك البلاط فينتهي الامر .

فقال وهو مضطرب : اتقذف بالاميرة الى اتون النار يا مولاي ولا تبالي ؟

ـ بل ابعث بها الى قصر ابن عمها لتكون ربة الحسان وسيدة النساء والرجال.
ـ ليس في ذلك القصر غير سيد واحد هو الملك .
ـ والحظايا اللواتي يملأن مقاصيره وحجراته ؟
ـ ليس لهـــن شأن ولا تقـــدر احداهن ان تبصر نور الشمس الا اذا اذن لها في ذلـــك .
ولكن نعمى التي ذكرتها لك تقول غير هذا !
فذكر الفتى قول ذي مغار ان نعمى جاسوسة الملك ، فقال :
لتكذب نعمى ما شاءت فهي لا تجسر على ان تقول شيئاً .
قال : احذر ايها الامير فانت تهين الملك .
ـ اني اقول ما اعلم يا مولاي دون ان اهين احدا .. ومع ذلك فانت تستطيع ان تسأل بنت الريان عما جرى لها في البلاط .
وماذا جرى لها ؟ انها الوصيفة التي آثرها الملك على جميع وصائف القصر .
ـــ نعم ، غير انها كانت حظية الملك نفسه قبل ان تمسي وصيفة وهذه نهايـة النساء اللواتي ترسلهن الاقدار الى قصور الملوك .
فتظاهر بالتفكير ، وذو مغار وبلقيس يتبادلان النظرات وهما يبتسمان .
ثم قال شرحبيل : اذن لم تكن نعمى صادقة فيما ذكرته لنا ؟
ـــ لا يا مولاي .
ـــ وما هي غايتها من هذه الاكاذيب ؟
فاطرق ولم يجب .
لقد اتت الساعة التي يخون فيها مليكه من حيث لا يريد .
فاعاد الامير سؤاله وهو يتفرس فيه .
ومع ذلك فلم يشأ ان يجيب .
فقال : اتأذن لي يا ذا تبع ان اجاوب عنك ؟
قال : تريد ان تقول ان بنت الريان لا تستطيع ان تقول غير ما امرت بقوله .
ـــ ولكن يجوز ان يكون آمرها غير ذي القرنين .

قال لقد نسيت قولك الان ان في القصر سيداً واحداً هو الملك .

ـ عنيت بذلك ان للملك الكلمة الاولى في البلاط ولم انس ان لولي العهـد الكلمة الثانية .

ـ وهل يجرؤ ولي العهد على امر لا يستشير اباه فيه .

ـ اذا كانت له بذلك الامر غاية فهو يفعله دون ان يستشير احدا غير ناشر امير ظفـار .

ـ ايطيب لك ان تقول ان نعمى جاسوسة عمرو ؟

ـ لا اعرف هذا ولكني اعلم انها كاذبة .

فكاد الامير يلمس ترددة الذي يدفعه اليه اخلاصه للملك واعترافه بجميله كما خبره ذو مغار عندما وصفه له .

ولكنه لم يرد ان يقف عند ذلك الحد ، بل عمـد الى اسلوب اخر يقرأ بـه افكارة فقال له :

لقد قال لي ذو مغار انك فتى تميل الى الصراحة والجلاء في كل ما تفعل .

ـ تلك منة لذي مغار اذكرها له .

ـ بل اريد ان تثبت لي قوله بما اسألك عنه الان .

ـ سل يا مولاي .

ما هو غرضك بزيارة شرحبيل بن عمرو وانت لا تعرفه ؟

فاصفر وجهـه قائلا : لقد حبب الي التعرف به ، ذو مغار نفسه بما ذكره لي عنـه .

ـ مع انك تعلم اني لا احب الملك وقد ذكرت ذلك الان .

ـ واي شيء يمنعني من هذه الزيارة ؟

ـ يمنعك الخوف من الملك !!

فجعل يهز رأسه وهو يقول : لو عرفت ذا تبع من قبل لما خطر لك ان توجه اليه مثل هذه الظنون . ان ابي لم يخف الملك لاخافه ، ولم يكن جبانا وذليـلا

لينتقل الى جبنه وذله . لقد اسأت الي يا مولاي وليس من حـــق الامـــير الكبير شرحبيل بن عمرو ان يستخف بالامراء الفتيان .

قال : عمدت الى الصراحة لاسمعها من فمك . انك اذا اردت ان تلمس اخلاصي لصاحب التاج الذي هو ابن عمي فارجو ان تعلم اني اصدق الناس في خدمتـــه واشدهم اخلاصا له ، واقربهم اليه يوم تتلاحم السيوف .

فقاطعه قائلا : انك يا مولاي كفء للملك في النسب وتكاد تكون كفؤاً له في المقام فليس لى ان ابحث عما تضمره له من جفاء او حب وتأبى نفسي ان اكون عينا على احد من الناس مهما تكن منزلته ومقامـه . تريـــد ان تسمع صراحتي يا مولاي اليس كذلك ؟ اذن فاعلم انه لو خطر للملك ان يجعلني جاسوسا لخرجت من مجلسه دون ان التفت اليه وذهبت الى همدان اجمع فيها الرجال لارد اهانته الى صدره . لقد خيل اليك وانت تراني في البلاط ، من اولئك الناس الذين يضعون رؤوسهم تحت قدمي الملك متمرغين في الذل ، ليجود عليهم بابتسامته او ليحسن اليهم بذهبه !! اجل ، وانت تحسب اني لم ادخل البلاط الا لاجل هذه الغاية واني ابذل مروءتي وشرفي في سبيل الحصول على المال !! لا يا مولاي .. لقد وفر المال بين يدي صاحب همدان حتى ليهب منه لعبيده مثل ما يهب الملك للمقربـــين اليه وانا لم ارض بترك قومي والاقامة بين امراء القصر الا للحاجـــة ذي القرنين التي تشبه الالتماس والرجاء . !

ثم قال : اما غرضي بزيارتك الساعة فغرض فتى يستهويه الاباء وعزة النفس ويستسلم بكل قوته الى عاطفة نبيلة تجول في صدره هي عاطفة الاعجاب بكل ابي مثل شرحبيل بن عمرو ... فاذا رأيت اني كاذب فيما ذكرت الآن فليس الا ان تأمر عبيدك بطردي من قصرك وانا احلف لك اني لن اعود اليه ولو قتلت .

فبرقت عينا ذي مغار اعجابا بالهمداني وحول وجهه ليبتسم ابتسامة اخرى هي ابتسامة الظفر .

وجعل قلب بلقيس يرقص في صدرها وهي تحدق اليـــه بعينين يلمع فيها الحب ...

غير ان شرحبيل اراد ان يتمادى فقال :

قد يكون في دفاعك هذا شيء من الصراحة التي ذكرت لي . ولكني لا استطيع ان اصدق ان فتى مثلك يعيش في ظل الملك ويستخف به !

قال : لم اجد اثرا لهذا الاستخفاف يا مولاي .

ــ اما انا فقد وجدته الآن ... الم تزر شرحبيل بن عمرو وهو عدو الملك ؟

ــ لم تخطر لي هذه العداوة من قبل ، وقد قام في ذهني ان مولاي الامير غضب لشرفه في ساعة تغضب في مثلها الرجال ثم تزول آثار هذا الغضب بعد حين . . ومع ذلك فقد قالت لي الآن انك اقرب الناس الى الملك واصدقهم اخلاصا له !

ونظر الى بلقيس بكآبة وألم كأنه يستمد قوة لبيانه ولسانه .

فالتقى النظران مرة اخرى وتمشت كهرباء الغرام الجديد في عروق العاشقين .

فقال الامير : واذا عرفت الآن اني غير مخلص .؟

قال : لا يطيب لي ان اعرف شيئاً من هـــذا . ان امير همدان يعرف نفسه وهذا يكفي .

ــ بل ارجو ان تمعن في صراحتك وتجود بالجواب !

ــ وانا ارجو ان تسأل ذا مغار عن موقفي معه .

ــ واي شأن لذي مغار بهذا ؟

ــ انه احب الناس الي وانا اعلم انه لا يحب الملك .

وهو جواب بليغ كما ترى ، كاد ينتهي معه دور الاختبـــار لولا سؤال آخر خطر لشرحبيل فقال : الا يعلم الملك ان ذا مغار يضمر له البغض ؟

ــ وهذا لا يطيب لي ان اعرفه يا مولاي .

ــ اذن لم تنقل اليه خبر بغضه !

قال : لا تعد سؤالك هذا يـــا مولاي فانا لا اطيق ان اسمعه .. قلت اني لم اكن جاسوساً ، وعندما يخطر للملك ان يستثمر اخلاصي ويجعلني نماماً واشياً ، استعين عليه بسيوف قومي وينهي امري معه .

ذو مغار : كفى ايها الامير .

قال : دعني اتكلم فقد بدأت اشعر بصراحة .. قل الآن يا ذا تبع ، انت من المخلصين للملك ام ماذا ؟

ـ للملك فضل علي لا انساه .

ـ ويقوم هذا الفضل بانه قربك اليه وادنى مقعدك من مقعده .

ـ نعم وذلك هو الرضى والاحسان .

ـ وهل تصف لنا اخلاصك لولي العهد ؟

ـ ليس في الصدر اخلاص لهذا الفتى لاصفه لك .. انه في واد وانا في واد والامراء الذين يحيطون به اعداء لي .

ـ ونعيش في البلاط بين اعداء ؟

ـ اجل : ولكني لا ابالي بهم ولا اعبأ الا بالملك .

قال : يعز علي ان تكون بين عاطفتين تناقض الواحدة منهما الاخرى . انك تحب ذا القرنين وتبغض عمرا ، وهـذا معناه ان الاخلاص بين الحب والبغض لا وجود له .

ـ ان الذي يعرف ان يبغض يعرف ان يحب يا مولاي .

ـ نعم ولكنك لا تستطيع ان تسمي حبك اخلاصاً .. ان الاخلاص للملك لا يعني الا الاخلاص لعرشه !

ـ هو ذاك .

ـ تنتهي مهمتي عندما تنتهي حياة الملك .

قال : اي امر احب اليك في دنياك تكثير الاصدقاء ام تكثير الاعداء ؟

ـ احاول ان اجعل الناس كلهم انصاراً لي..

ـ وانا اقول لك انك ستخسر هؤلاء الانصار من حيث لا تريد ولا تعلم .

فنظر اليه نظرة استفهام كلها استغراب .

فقال : لنفرض ان في اليمن اميراً يطمع في عرش حمير وان امراء كثاراً يمشون تحت لواء هذا الامير ليبلغ غايته .

ـ ولكن من يجرؤ على هذا وامر اليمن في يد الملك ؟

قال : لا تسأل عن هذا فنحن نفترض ... اتحمل السيف عندئذ لتدافع عن ذي القرنين ؟

ــ نعم يا مولاي !

ــ واذا كان ذلك الامير من اصدقائك ؟

ــ افعل ولا ابالي .

ــ واذا كان شرحبيل بن عمرو ؟

فتردد في الجواب . ان بلقيس تنظر وتسمع وهو لا يريد في الساعة الاولى ، ان يعكر الجو بينها وبينه .

ولكن الامير يتعلق بوفائه وشرفه ولا بد من ان يجيب .

وقد ادركت بلقيس سبب ذلك التردد وهمت بان تقول لابيها :

انه يحمل سيفه ليضرب به عدوك .

غير انها لم تشأ ان تتعجل في امرها على تلك الصورة وكانت قد وثقت بان الفتى اصبح لها مثلما هي اصبحت له .

وآثرت السكوت في تلك الساعة على ابداء الرأي واصغت الى ذلك الجواب الذي تلفظه شفتاه .

واذا به يقول : ان سيفي للملك وللامير شرحبيل .

فابتسم ابتسامة الهزء قائلا : انها كلمة لا معنى لها فكأنك لم تقل شيئاً ونظر القوم بعضهم الى البعض ولم يعجبهم جوابه .

الا بلقيس ، فقد علمت ان وراء هذا الجواب برهانا لا يرد .

ولم يتردد الفتى في اظهار ذلك البرهان فقال : اذا اردت ان تسلب ابن عمك تاجه طمعا بالسلطان وحده فسيفي أدافع به عنه حتى اموت .

ــ ومتى يكون هذا السيف لشرحبيل بن عمرو ؟

ــ عندما يعبث الملك بشرفه وينهض هو ليصون هذا الشرف بقوة الرجال .

وخاف ان يسأله سؤالا آخر فيفضح نفسه ، فنهض قائلا :

استأذنك الآن في الذهاب يا مولاي .

ـ بل تجلس فالحديث لم ينته بعد ولم نعلم اصديق انت ام عدو ؟
ـ عدو وصديق كما قلت ٠
ـ قل ان العداوة باقية واما الصداقة فستزول غدا او بعد غد .
ـ لماذا ؟
ـ لان الملك سيمنعك من الرجوع الى هذا القصر عندما يعلم انك تحب صاحبه .
ـ لا اظنه يفعل ذلك يا مولاي .
ـ اتضمن سكوته ؟
ـ نعم وسيدالك على هذا اني سأعود بعد يومين اذا اذنت لي .
قال : انصح لك يابني بان تبتعد عن شرحبيل فهو عدو الملك في باطنه وأحد المخلصين له في ظاهره ، ولولا وثوقي بك الآن لما بحت لك بامري فافعل ما تشاء وكن وفيا للملك ما طاب لك الوفاء .
قال : كن كيف شئت فانا لا اقبل نصحا وسأزورك يا مولاي ما دامت ابواب قصرك مفتوحة لي .
ـ واذا جفا الملك ؟
ـ اجفو .. ان اللين يعلمني اللين ، والجفاء يملي علي الجفاء .
وحنى رأسه كما فعل عند دخوله وقد استطاع ان يوجه نظرة ثالثة الى ذلك الجمال الفتان الذي غير حياته . وخرج وهو يقول في نفسه :
ويل لي من وفائي .. وغرامي ...

* * *

رأيك ايها الامير فيما سمعت ورأيت .
وذو مغار لا تفارق الابتسامة شفتيه .
فقال شرحبيل : رأيته كما وصفته لي .. ولكنه يحب الناس ويبغضهم في وقت

واحد وانا اخشى ان تغلب عاطفة البغض عاطفة الحب فيه .

قال : ان في العاطفتين وفاء وشرفاً ومروءة كما ترى .

ـ اجل : وكنت اتمنى ان يكون الفتى لنا اكثر مما هي لذي القرنين .

فقالت بلقيس : سيكون كما ذكرت يا مولاي ، ألم يقل انه سيهب لك سيفه اذا عبث الملك بشرفك ؟

ـ بلى :

ـ افلا ترى ان الملك عبث بهذا الشرف يوم سألك ان تجود عليه ببلقيس ؟

ـ بلى :

ـ اذن فانت لا تمد يدك الى العرش الا في سبيل الدفاع عن شرفك وعندئذ يضع ذو تبع سيفه وقومه بين يديك كما وعد وتغلب عاطفة الصديق عاطفة العدو .

ـ ولكن الكلمة التي قالها الملك لي لا تعد سبباً للثورة التي سانفخ في بوقهـا عندما تأتي ساعتها .

ـ وهل تظن ان الملك وقف عند هذا الحد ؟ سيطلب اليك بعد حين ان تبعث ببلقيس الى بلاطه ليزفها الى ولي العهد وهو يرغب في ان يجعلها حظية له ، فتغضب كما غضبت من قبل ، ويترك بدوره مظاهر الدهاء ليستعين بالقوة .. وتلك هي الحرب ، وذلك هو الدفاع عن الشرف .

ـ ومن قال لك ان الامر سينتهي كما ترين ؟

ـ ليس له وجه آخر يا مولاي ، ان الرياء والدهاء في العمل ، يقومان الآن مقام كل شيء ، ولكنهما لا يثبتان الى الابد ، فسيأتي يوم يرفع فيه الستـار عن المظاهر الكاذبة وتبدو على الوجوه عواطف الصدور .

ثم قالت : وهنالك شيء آخر يضمن لك اخلاص الهمداني ساذكره لك في هذا المساء .

فقال ذو مغار : اما انا فاذكره الآن .

قال : ما هو ؟

فأجابه وهو لا يتردد ولا ينظر الى بلقيس : هو الحب !

ـ واي حب هذا ؟

ـ حب ملك قلب الامير الفتى عندما وقعت عينه على الاميرة الفتاة بلقيس بنت شرحبيل !

قال : اراك تصف ما في القلوب يا ذا مغار .

ـ بل اقرأ ما في العيون من اسرار ... ان نظرة واحدة من عيني الفتاة الفتانتين جعلت الفتى صريع السحر .

والتفت الى الاميرة الضاحكة وهو يضحك .

فجعل شرحبيل يتفرس في ابنته وهو يقول : ماذا اسمع ؟

ـ تسمع كاهناً يمنيا يشرح لك السحر يا مولاي .

ـ ومتى كان لذي مغار عهد بالكهانة ؟.

ـ لقد تعلمها الآن اوحت بها اليه نظرة الهمداني الى بلقيس .

قال : اجاد انت يا ذا مغار ؟

ـ نعم ولم يخطر لي ان امزح في مثل هذه الساعة ،لقد خرج الفتي وهو عاشق واقسم ان الاميرة في ذهنه وقلبه لا تبرحهما بعد الآن .

ثم قال : وستأتي ساعة تسمع فيها اعتراف ذي تبع بغرامه ، ثم يسألك ان تزوجه ...

فقال مازحا وهو يظهر الرصانة والهدوء :

انترك ولي العهد ، الذي هو اعظم امراء اليمن ، لنزوج امير همدان ؟

ـ وهل تؤثر عمرا على ذي تبع ايها الامير ؟

ـ اجل ، فبلقيس عند عمرو تكون ملكة ، وعند الآخر تكون اميرة ليس غير ...

وكانت بلقيس قد عرفت لهجة ابيها فظلت ساكتة .

قال : ولكن الاخطار في بلاط الملك كثيرة كما تعلم ، وانت القائل ان بلقيس لا ترضى بولي العهد الا اذا اكرهها القدر على هذا الرضى .

ـ لست انا القائل بل بلقيس. فاترك رأيها الآن وخبرني حكاية هذه‌الاخطار التي ذكرت ...

ـ خطر الطلاق من جانب وحظايا ولي العهد من جانب آخر .

ـاما الطلاق فقد يلجأ اليه ذو تبع كما يلجأ اليه عمرو .

ـ واذا تزوج ذو تبع الاميرة تزوجها عن غرام وهوى طـاهرين وليس كما يتزوجها الآخر ، ثم ان امير همدان لا يستطيع ان يتخذ له جارية الا اذا لم تلد زوجته‌اولادا له وولي العهد قادر على ذلك في اي زمن شاء وتلك هي شريعة اليمن التي تسود جميع اليمنيين الا الملك وبنيه !

قال : الا تأذن هذه الشريعة لليمني في ان يشتري ما يطيب له من الجواري ويجعلهن ملكا له ؟

ـ بلى ، ولكن ذا تبع لا يفعل هذا .

قال : هذا مظهر آخر من مظاهر الكهانة . ومن قال لك ذلك ؟

ـ قاله لي ماضي الفتي واخلاقه وانصرافه عن كل قبيح .

ـ وكل هذا لا يكفي فقد صغرت النفوس في هذا الزمان حتى لترى الملوك انذالا والامراء تباعا لهم في النذالة والشر !

ثم قال : لقد ورثت حمير هذه الشريعه من دولة سبأ ، وورثتها سبأ من دولة المعينيين وانت تعرفها كما يعرفها الناس أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ ولكنك نسيت ان المرأة ، بقوة هذه الشريعة ، تستطيع ان تطلق زوجها اذا ابغضته بقولها له : « لست لك » .

ـ وهذا يعني ان بلقيس تقدر ان تطلق ولي العهد !

ـ اجل ويفصل بالامر كاهن مأرب .

فضحك قائلا : اي كاهن يجرؤ على اغضاب ولي العهد بالحـكم لزوجته ؟ انك في قولك هذا تهزأ بي .

ونظر الى بلقيس كأنه يسألها ان تقنع اباها فقالت :

ليست الشريعة على الملك يا مولاي ... لقد اخذ بعضها وترك البعض الآخر كما فعلت الملوك قبله ، في الدول الثلاث التي سادت اليمن .. ومع ذلك فانتما تنظران في امر لا وجود له في ذهني وقد لا يكون له وجود في ذهن صاحب همدان ...

فقال ذو معار : اقسمت انه عاشق وسترون .

قالت : اذن ننظر في امر عشقه عندما يبوح به .

ولو تفرس فيها القوم لرأوا صورة ذلك العشق في عينيها الصافيتين .

ونهضت وهي تهم بالانصراف .

فقال ابوها : لي كلمة اقولها لك يا بلقيس بعد ساعة .

قالت : انتظرك في حجرة الهدهاد يا مولاي .

وانصرفت لتخلو بغرامها الذي خلقه القدر وتناجي فتى همدان .

اما ابوها فكان يقول لذي مغار :

لقد ملأ صاحبك نفسي اعجابا فارجو ان يترك البلاط ..

فاجابه قائلا : سيتركه عندما تشاء بلقيس .

قال : اراك واثقا كل الوثوق بما تقول .

— نعم فالحب الذي يتغلغل في صدور الفتيان يفعل العجائب

وقام غالب والهدهاد يعدان عدة الخروج الى الصيد في صباح اليوم الثاني ، وبقي ياسر وشرحبيل وذو مغار يتآمرون

* * *

١٣

كانت شرائع اليمن في ذلك الجيل ، ارثا يتناقله الشعب اليمني ، من دولة معين الى دولة حمير .

وواضع تلك الشرائع وصاحب الفضل الاول فيها ، حمورابي العربي ملك

بابل ، صاحب اقدم كتب الشريعة في العالم كله .

وحمورابي هذا من اهل الجيل الثالث والعشرين قبل المسيح ، وقد قرأت شيئاً عنه في الروايات التي ظهرت قبل بلقيس .

وكان فاتحا مشى بفتوحه ، من بابل غربا الى البحر المتوسط ، وضم اشور الى ملكه ، مستعينا بقوة غريبة على نيل غايته من التوسع والفتح .

وكان مصلحا مجددا ، عني بالاصلاح ووضع النظم كما عني بنشر الوية نفوذه وسلطانه في الاقطار ، وجمع الشرائع التي اتخذ بعضها الملوك الذين تقدموه ، وجعلها في ٢٨٢ مادة ، مظهرا من ارقى مظاهر الاجتماع في تلك العصور .

فلما غلبت دولة بابل على امرها ، خرج بعض اهل الدولة لاجئين الى اخوانهم النازلين في جزيرة العرب ، وانشأوا في اليمن دولتهم العربيـــة التي عرفت بدولة معين ، كما تقدم في الجزء الاول من هذه الرواية .

وحملوا معهم شريعة حمورابي التي تتناول الزواج والطـــلاق والتبني والارث والتجارة والعلم ، وجعلوها شريعة يرجع اليها الشعب الذي حكموه حتى انقرضت دولتهم وخلفتها دولة سبأ .

على ان سبأ لم تتخذ شريعة غيرها ، ولكنها اتخذت ما طاب لها منها وتركت البعض القليل الذي لا يصلح لها كما فعلت بعدها دولة حمير .

وهي الشريعة التي ذكرها ذو مغار وشرحبيل .

اذن يجب ان تقرأ شيئاً من الشريعة التي اتحف بها حمورابي العالم منـــذ اثنين واربعين جيلا ، نأخذها لك باختصار عن كتاب العرب قبل الاسلام ، لتفاخر بذلك الملك العربي ، طائفة كبيرة من الملوك ، قبله وبعده .

وقد عثروا على نسخة منها سنة ١٩٠١ في بلاد السوس « من بـــلاد العجم » منقوشة بالحرف المسماري على مسلة من الحجر الاسود الصلب طولها سبع اقدام .

نظام الاجتماع

كان الناس في عصر حمورابي ثلاث طبقات . ألاحرار والعبيد ، بينهما طبقة اخرى تشبه طبقة الموالي في صدر الاسلام .

كان المولى ارقى من العبد وادنى من الحر ، واسمه عند البابليين « ماشنكك » وقد فسر الاب شايل المستشرق الشهير هـذه اللفظة بمـا يشبه لفظة « مسكن » العبرانية ومعناها صعلوك او فقير مسكين .

وقد يتبادر الى الذهن انهم يريدون بهذه الطبقة ، عامة النـاس ، لا . انهم يعبرون عن العامة بلفظ اخر هو في لسانهم « مار اومية » اي ابن الامة اوالصانع وربما كان ذلك اقرب الى ما يعبر عنه عند الرومان بلفظ Plebe .

على ان المولى عند البابليين كان يقتني العبيد ويتلك الارض ، وقد يتزوج من بنات الاحرار كما سيجيء .

ولكنه احط منزلة واقل مسئولية منهم في نظر القضاة ، فالمجروح اذا ما تمن جرح وكان حرا فالدية تسعون مثقالا من الفضة واذا كان مولى فالدية ستون .

واذا عالج طبيب مريضا وشفى على يده وكان حرا دفع عشرة شواقل فضة واذا كان مولى دفع خمسة شواقل او كان عبدا فشاقلين .

واذا كسر احد عظم رجل حر ، يكسر عظمه ، فاذا كان المكسور عظمـة مولى يغرم الضارب مائة وثمانين مثقالا واذا كان عبدا فنصفها وقس على ذلك .

ويشبه هذا ماكان عليه اليهود في عصر التوراة ، فقد ذكروالهم ثلاث طبقات الاحرار والعبيد ، وطبقة بينهما يسمونها بالعبرانية « جر او غر » ، وقد ترجموها بلفظة « غريب » او اجنبي .

وكثيرا ما كان اهل التقوى من اليهود يسمون انفسهم بهذه الكلمة مضافة الى اسم الله او الملك فيقولون مثلا « غرملك » او « غرعشتروت » على نحو ما يراد من قولنا عبد الملك او مولى اللات .

ولكن الماسنكك عند البابليين ارقى في الهيئة الاجتماعية من الغر عند اليهود .

المرأة والزواج

العادة في الامة المؤلفة من طبقات مختلفة ان اهل كل طبقة يتزاوجون فيما بينهم ويندر ان يحصل تزواج بين اهل طبقتين الا ما قد يقتنيه الاحرار من الجواري على سبيل التملك .

ولكن يؤخذ من شريعة حمورابي ان العبيد عند البابليين كانوا يتزوجـون من بنات الاحرار احيانا زيجة شرعية ، غير ان ذلك خاص بعبيد القصر الملوكي ومن هم في مقام مثل مقامهم .

والزواج عندهم في كل حال ، لا يعتبر نافذاً ، الا بعقد مكتـوب شأن ارقى الامم المتمدنة اليوم . والمحافظة على الحقوق الزوجية شرط واجب .

عقاب الزنى القتل ذبحا او غرقا الا اذا التجأت المرأة الى رجل اخر وزوجها غائب في اسر وليس عندها ما تقتات به ، فان الشريعة تجيز لها المعيشة مع ذلـك الرجل عيشة الزوجين حتى اذا عاد زوجها من اسره عادت اليه واذا كانت قد ولدت له اولاد تركتهم له .

اما اذا كان غياب الزوج فرار من الحرب او ما يشبه هذا فالمرأة لا ترجع اليه اذا عاد ، وذلك ترغيبا في الشجاعة .

ومن شروط الزواج عندهم ان الرجل يقدم للفتاة مالا من قبيل المهر الشائع في الشرق يسمونه حق العروس اي ثمنها وهي تأتي من بيت ابيها بمال يسمونـه المهر « الدوطة » فكأن البابليين جمعوا في حقوق الزواج عندهم بين عـادات الشرق والغرب .

والمهر وحق العروس ، كلاهما للمرأة ويحفظان باسمها عند الحاجة ، فـان لم تتزوج الفتاة تأخذ المهر من ابيها كانه حق مفروض لها منذ الولادة واذا لم تأخذ مهرها فلها سهم في الارث .

كذلك حق العروس للفتى ، فانـه يعين له من صغره ليقدمـه الى عروسه عند الزواج .

اما الطلاق ففي يد الرجل ، فاذا اراد تطليق زوجته وقد ولدت اولادا دفع اليها مهرها وقال لها : انت طالق : انت طالق فتطلق .

ولكنها تتولى تربية اولادها بنفسها ولها في مقابل ذلـــك حصة من دخـــل زوجها ..

فاذا شب اولادها استولت على سهم مثل اسهمهم من الارث ، واذا لم يكن له اولاد منها دفع اليها حق العروس وارجع اليها المهر وطلقها .

على ان المرأة اذا بغضت زوجها استطاعت ان تطلقه بالحق فتقول له « لست لك » ويتقاضيان الى الكاهن او القاضي ، فـــاذا كانت دعواهـــا افتراء تطرح في المـــاء .

والرجل ليس مطلق الحرية في الطلاق من كل نواحيه ، فهو لا يستطيع ان يطلق زوجته اذا كانت مريضة ، بل يتزوج سواها اذا اراد وتبقى هي في بيتـــه وهو يعولها ، واذا ابت البقاء دفع اليها المهر واعادها الى بيت ابيها .

والزواج وثيق العرى عند البابليين ، فحقوق الزوجـــين متبادلة ، وواجباتهما مشتركة ، وكل منهما مسؤول عن الآخر حتى في الحقوق المدنية .

فاذا كان على احدهما دين فالآخر مسؤول بـــه ، اي ان الرجل اذا تأخر عن وفاء دين عليه قبض الدائن على زوجته حتى تفيه .

كذلك المرأة اذا عجزت عن دفع دين عليها يقبض الدائن على زوجها حتى يفيه حقه ولو كان الدين قبل الزواج .

الا اذا تعاهد الزوجان على ان لا يسأل احدهما الآخر عما عليه من دين قبل الزواج .

واما الدين الذي يحدث بعد الزواج فهما متضامنان فيه .

وليس للرجل عندهم ان يقتني سرية الا اذ لم تلد له زوجته اولادا ، فاتخاذه السرية لاجل النسل فقط ، ولذلك فقد تهب المرأة لزوجها جارية تلد اولادا ولا يجوز له بعد ذلك ان يقتني سرية .

على ان الجارية ولو ولدت اولاداً ، فليس لها حقوق الزوجة ولا منزلتهـــا

واذا ادعت ذلك فلمولاتها ان تكبلها بالحديد وتعيدها الى منزلة الاماء .

اذن فالمرأة عندهم تكاد تساوي الرجل في الحقوق !!

تتعاطى كثيراً من اعماله التجارية والزراعية ، وهي تنظم في سلك الكهان بدرجات اربع .

اولا ــ الكهانة الكبرى ولا يشترط فيها ان تكون الكاهنة بتولا ، ولا تمنع من مهرها الذي هو حق لها من بيت ابيها ، واسم كاهنة هذه الدرجة في اللغة البابلية « نينان » اي السيدة المقدسة ويشترط في سيرتها الطهارة والقداسة ولهذا كانت الحكومة تحميها وتدافع عنها .

ثانياً ــ كهانة العذارى واسمها « كالاتي » وليس لصاحبتها مهر من ابيها .

ثالثاً ــ الكهانة المقدسة ويشترط فيها ان تكون الكاهنة بتولا لا تتزوج وتستولي على ثلث سهم الولد من الارث .

رابعاً ــ النذر للاله مروداخ ، وصاحبته كالكاهنة المقدسة لكنها ترث من ابيها ارثاً كاملا .

التبني

كان التبني شائعاً عند البابليين في عصر حمورابي ، فاذا لم يرزق احدهم اولاداً وكان في نفسه ميل الى البنين لغرض من الاغراض ، اخذ من بعض الوالدين طفلا يربيه عنده ويتبناه .

ولهم في التبني شروط حسنة راقية ، منها :

رعاية حرمة الوالدين فاذا تبنى احدهم غلاماً ثم آذى ابويه يرجع الغلام الى بيت ابيه .

ويشترط في ثبوت حق التبني ان يسمى الولد باسم الوالد الجديد فاذا رباه وسماه باسمه لا يسترجع .

واذا كان المتبني صانعاً فعليه ان يعلم الولد صناعته فاذا فعل ذلك فالولد له .

واذا تبنى الرجل ابنا وسماه باسمه ، ثم تزوج ذلك الرجل وولدت له زوجته اولادا ، واراد ان يخرج الولد من بيته فلا يستطيع ذلك الا اذا اعطاه ثلث حصة الولد من مال ابيه غير العقار .

على ان الرجل عندهم كان يتبرأ احياناً من ابنه لصلبه ، ولكنه لا يقدر على ذلك الا بين يدي القاضي فيقول له :

انا اتبرأ من ابني .

فينظر القاضي في الاسباب فاذا لم يجد مسوغاً رفض الطلب واذا وجد ذلك المسوغ اجل الحكم في القضية لعل الوالد يرجع عن عزمه ، فاذا لم يرجع اجاز له التبرؤ منه .

واولاد الرجل من جاريته لا يكونون اولاده في نظر الشرع الا اذا دعاهم اولادا له ، فاذا فعل ذلك كان لهم ما لاولاد الزوجة من حقوق الارث ، واذا لم يدعهم فلا يرثون شيئاً ، ولكنهم يعتقون .

الارث

لا يميز البابليون في حق الارث بين الذكر والانثى ، ولكن للوالد ان يمنع بعض اولاده من الارث اذا ثبت ما يستدعي هذا المنع .

على انهم كانوا يختلفون عن سائر الامم بمسألة المهر وحق العروس .

فان الرجل اذا ولد له اولاداً ، فاول ما يفعله ان يفرض للذكور « حق العروس » وللاناث « المهر او الدوطة » .

فمن تزوج منهم في حياة والده اخذ حقه او مهره .

فاذا توفي الاب فللعزاب من اولاده ان يستولوا على حق العروس او المهر فضلا عن اسهمهم من الارث .

ثم ان المهر الذي تأتي به المرأة من بيت ابيها يكون ملكها وحدها ويورث على مقتضى ذلك الملك .

فاذا تزوج رجل امرأة وولدت له اولادا وتوفيت ، فمهرها لاولادها .

واذا توفيت ولم تلد اولاداً فالمهر يرجع لابيها وليس لزوجها .

والهبة عندهم نحو ما هي عندنا الآن ، فاذا وهب الاب شيئا لاحد اولاده ثم مات ، تقسم تركته على اولاده وتبقى الهبة لصاحبها .

التجارة ونظام الحكومة والعلم

والتجارة كانت عندهم قانونية بعقود وصكوك !!

وعندهم للوديعة والرهن شروط لا تختلف كثيراً عما عند الامم المتمدنة اليوم مع مراعاة الحال في ذلك الزمان .

فالبيع بلا عقد باطل ، والدين بلا صك لغو .

ومن شروط وفاء الدين عندهم ان المدين اذا عجز عن دفع ما عليه يقبض الدائن على زوجته وبنيه فيخدمون في بيته حتى يستوفي حقه ، واذا لم يفوه يخدمون ثلاث سنوات ثم يطلقون .

ومما يدلك على رقي الحكومة في ذلك العصر البعيد انها كانت تتولى تسعير السلع وتقدير اجور الصناع واصحاب المهن حتى الاطباء والبياطرة، فقدفرضت للطبيب اجرة ، وللبناء اجرة ، وللنجار اجرة ، والقت عليهم تبعة ما يقع على يدهم من الخطر او الضرر .

فاذا عالج الطبيب مريضاً بسكين من المعدن واتلف عينه بها تقطع يدا ذلك الطبيب .

واذا بنى البناء بيتاً وسقط على صاحبه فقتله يقتل البناء .

واذا سقط البيت ولم يقتل صاحبه بناه البناء من ماله .

واذا بنى النجار سفينة وجاءت مختلة فهو المسؤول عن تصليحها .

وقس على ذلك اجور الرعاة والملاحين والدواب والسفن وغيرها مما يطول شرحه ووصفه .

وكانت ادارة الحكومة منظمة في عهد هذه الدولة وفيها بريد لضبط المراسلات وسرعتها ...

واعجب اعمال هذه الدولة انهم قد اكتشفوا في آثار زيبارا ، انقاض مدرسة لتعليم الاطفال ، وهذه اول مرة سمعنا بمدرسة مثل هذه في التمدن القديم اي منذ اربعة الاف ومئتي سنة .

امـــا دروس الاطفال فكانت محفورة على « قرميدات » وهي دروس في الحساب والهجاء وجداول الضرب ونحوها .!

واكتشفوا كثـــيراً من الكتب والرسائل المنقوشة على الاحجـــار والقرميد واكثرها لحورابي ، وفيها الصكوك والعقود والمسائل الرياضية والارصاد الفلكية والنصوص التاريخية والادعية الدينية وغير ذلك من الامور .

ومن اعظم ادلة الرقي في ذلك العهد ان المرأة كانت متمتعة بحريتها واستقلالها مثل نساء هذا العصر المتمدنات .!

وكن يتعاطين المهن القلمية ، وانخرط جماعة منهن في خدمة الدواوين والمصالح الاميرية كما يقول العلامة « كلاي »

اذن فقد كانت العرب اسبق امم الارض الى سن الشرائع وتنشيط العلم وقد بلغوا في نظم الاجتماع ما لم يبلغه اهل تلك الاجيال ، وادركوا من الرقي الاجتماعي ما لا يزال بعض الامم المتمدنة في هذا الجيل بعيدا عنه .

تلك هي الشريعـــة التي حملها بنو معين من بابل الى اليمن ، ونشروهـــا في الامة ، وورثتها بعدهم دولتا سبأ وحمير ، الا بعض النظم التي لا تعيش في الجو اليمني .

غير ان الملك الحميري لم يكن خاضعاً الا لما يريد من هذا النظام ، فهو دائماً فوق الشرائع وفوق النظام ، بل لم يكن يريد ان يخضع شعبه الا لما يراه متفقاً مع ميله وهواه .

* * *

١٤

لقد عرفت بلقيس تلك الكلمة التي يريد ابوها ان يقولها لها بعد ذلك الاجتماع ...

انه رأى الغرام في عيني ذي تبع وعلى وجهه ، كما رآه ذو مغار ، فاحب ان يسألها رأيها فيه .

وكانت تؤثر ان تبوح له بغرامها الفجائي ، على السكوت الذي لا يثمر والذي لا تطيقه عاطفتها الوثابة .

اجل : ليس في ذلك عار ، وبلقيس لا تخجل من ان تعترف لابيها باسرار قلبها الخفاق .

وكيف لا تبوح له بكل شيء ، وهو صاحب سرها ، ومرجعها الاعلى في طموحها وطمعها وعاطفتها بغضاً كانت هذه العاطفة ام حباً .

فلما اقبل على حجرة الهدهاد التي تنتظره فيها ، اغلق بابها بهدؤ وهو يبتسم ، ثم قال : لقد ارسلت الينا السماء نصيراً جديداً كما ترين .

قالت : اتعني صاحب همدان يا مولاي ؟

ـ نعم فقد قرأت الشرف على وجهه والشريف لا يضع يده بيد ذي القرنين الى الابد .

ـ واذا كان هذا الشرف مظهراً من مظاهر الدهاء الذي تختفي وراءه نفس خبيثة غدارة ؟

ـ ان ذا مغار يعرف الفتى وقد وصفه لنا ونحن واثقون بما قال .

ـ ولكني رأيتك منذ ساعة غير واثق .

ـ ذلك اسلوب لي في قراءتي الاسرار .

ـ اذن ماذا تريد الآن يا مولاي ؟

ـ اريد ان اسمع رأيك فيه من ناحيتين ، ناحية اخلاصه الملك ، الذي نشك فيه ، وناحية اخرى ذكرها ذو مغار وهي اعظمهما خطرا .

قالت : تلك ناحية غرامه على ما اظن .

ـ نعم وقد بدت لي مظاهر هذا الغرام كما بدت، لذي مغار ولكني لم اشأ ان اذكرها قبل ان اسمع رأيك في الامر .

فاجابته وهي لا تتردد: غرام صحيح لا ريب فيه يا مولاي.

ـ اذن قرأنا جميعنا سطوره على جبين الهمداني !

قالت : قرأت وقرأ ذو مغار هذه السطور يا مولاي ، اما انا فقد رأيت غير ما رأيتما .

ـ ماذا ؟

ـ رأيت ان نار الغرام تضطرم في فؤاده وسيذيبه الهوى كما اذاب سواه من الفتيان ...

قال : وهذه ايضاً مثالة في الكهانة تعلمتها من ذي مغار .

ـ تعلمت ان اقول ما اعلم وانا واثقة بقولي ... ان صاحب همدان سيترك اخلاصه وينسى ملكه ، ويفدي بلقيس بدمه ، اذا قضت الحاجة بذلك .

ـ وما الذي يدعوك الى هذا الوثوق يا بلقيس ؟

ـ يدعوني هذا القلب الذي يخفق الآن على الحب .!

ـ انت ؟

ـ نعم انا يا مولاي وليس هنالك ما يدعوني الى الكتمان .. فدهش قائلا : اما انا فلا استطيع أن اصدق ان الحب يملأ قلب بلقيس في ساعة ..

ـ وبلقيس مثلك يا مولاي لم يخطر لها من قبل ان فؤادها يعرف الحب ..

قال : يخيل الي انك رأيت ذا تبع قبل اليوم .

ـ رأيته في الفكر والذهن يا مولاي ، وكانت صورته ماثلة امام عيني ، منذ حكت لي نعمى حكاية وجوده في البلاط .

ـ اذن احببته قبل ان تريه ؟

ـ اجل : كان القلب يخفق على ما ذكره يا مولاي ، ولكني عندما رأيته احسست ان قلبي لم يكن لي بل كان ملكا له .

فارخى نظره الى الارض يفكر فيما سمع ؟

فقالت : اتستغرب هذه الصراحة يا ابي ؟

ــ لا بل اعجب لهذا الهوى الغازي الذي لا تذكر معه قوى الفاتحين !

وعاد الى الاطراق .

فقالت : اذكر كل ما يجول في صدرك يا مولاي .

ــ وماذا اذكر ؟ لقد كان موقفنا ثابتا فتزعزع الآن .

ــ وكيف ذلك ؟

ــ الم تفكري في الاقدام على التضحية اذا لم يخلق لنا الزمان انصاراً .

ــ اي ان ازف الى ولي العهد ؟

ــ نعم .

ــ بلى فكرت في ذلك ولا يمنعني هذا التفكير من ان احب .

فجعل يحدق اليها وهو يقول : اني لا افهم ما تقولين يا بلقيس .

ــ وانا لم افهم ما تقول يا مولاي .

قال : كيف تستطيعين ان تصيري زوجة لولي العهد وانت تحبين سواه .

فاشرق جبينها قائلة : ان بلقيس تستطيع ان تفعل كل شيء !

ــ ومع ذلك فابو بلقيس يريد ان يعرف شيئاً .

قالت : لقد تغير الموقف الذي ذكرت بانضمام صاحب همدان الى المؤامرة .

ــ ومن يضمن انضمامه ؟

ــ انا .

ــ ثم ماذا ؟

ــ وسنستطيع بقوة هذا المتآمر الجديد ، ان نضع ايدينا بيد امير اخر من الامراء الذين يجاورون همدان ..

قال : هذا استسلام الى الاحلام .

ــ لي ان افترض ما اشاء وليس عليك ان تصدق كلمة واحدة .

اسمع يا مولاي ، ساوغر صدر امير همدان على الملك وسيتم لي ذلك في زيارته الثانية ...

ــ ولكن امير همدان وحده لا يكفي كما تعلمين .

ــ اجل : غير انه سيوغر بدوره صدر امير اخر كما قلت .

ــ وهذا الامير الآخر لا يفعل شيئـاً .. ان المؤامرة تحتاج الى عشرة من الامراء يقود كل واحد منهم الفي رجل الى الميدان .

قالت : كلما انضم الينا امير سألناه ان يضم معه صديقاً .

ــ واذا ضاع هذا الامل الذي تفكرين فيه ؟

ــ اعود الى الرأي الاول وازف الى عمرو !

ــ والحب ؟؟

ــ اما الحب فقد يطيب لي ان انساه عاماً او بعض العام !

ــ انه اذاً حب غرض لا حب عاطفة.

ــ بل هو دوى لا ينزعه من الصدر غير الموت ، لقد احببت ذا تبع يـا مولاى حباً لم يخفق لمثلـه قلب عذراء ... ولك ان تقول ان الفتى امل بلقيس ونعيمها ، وحياتها ونور نفسها .. بل لك ان تقول ان عظمتها وكبرياءها وعزتها تبذل عند قدمي ذلك الهمداني في سبيل نظرة واحدة منه ... ولكني تهيأت لهذا الحب من قبل ، وجعلت العرش فوق العاطفة ، وانا اعلم ان القلب سيتمزق ، وان النار ستحرق الاحشاء .

قال : خير لك يا بلقيس ان تعودي عن هذا الغرام الذي يقتل صاحبه .

ــ بل خير لي ان امضي فيه الى النهـاية وسترى يا مولاى اني ساستوي في العرشين عرش الغرام وعرش الملك .

قال : لا تنسي انك ستصبحين ملكة اذا تزوجت ولي العهد .

ــ وماذا تعني بهذا ؟

ــ اعني انه لا يجوز للملكة ان تفكر في غير زوجها الملك ... اتحلمين بانك ستتزوجين عمراً وتستطيعين ان تطلقيه بعد حين ؟

ــ لم يخطر الطلاق لي يا مولاي .

ــ وكيف توافقين بين الاثنين ، العرش والحب ؟

فابتسمت قائلة : اجرؤ على القول اني لا استطيع الجواب الآن . .

ــ ومتى تفعلين .؟

ــ لا اعلم يا ابي فقد يبقى هذا السر في الصدر لا اذكره لاحد حتى يعرفه ، عندما تأتي ساعته ، جميع الناس .

ــ انه سر هائل على ما ارى .

ــ قد يكون هائلا كما قلت ولكنه لا يعني احدا وليس لاحد شأن به .

ثم قالت : الا تأذن لي في كتمانه ؟

ــ لك ان تكتميني جميع الاسرار اذا لم تكن خيبة الامل في هذا الكتمان ...

ــ والآن مـــا هو رأيك في الرجل ؟ اليس في نسبه ما يجعله اهلا لان يكون زوجا لي ؟

قال : لو ذكرنا هذا النسب لرأيناه يتصل باجدادنا الملوك من حمير ، ولكني اريد ان اعرف موقفه الاخير .

وجعل يتمتم كلمات لم تسمع منها كلمة فقالت :

وتريد ان تعلم كيف ينتهي امر بلقيس مع الامير الهمداني وولي العهد ؟

ــنعم ولا اتردد في التسيلم بامر الزواج الا من هذه الناحية .

ــستكون راضيا يا مولاى وستعلم كل شيء . .

ــوهذاالحب من يضمنه في صدر الفتى ؟

ــاثق بوجوده كما اثق بحبي وسيعترف به .

فنهض قائلا : لم يبق الا ان نكتب عقد الزواج يا بقليس .

فتنهدت وهي تقول : قد يكتب هذا العقد لعمرو ولا يكتب له . .

ــ ولكنك تقولين انك ستستوين في العرشين .

ــ اجل ولا ابالي اكتب العقد لهذا ام للآخر .!

فخرج وهو يردد ذلك القول ولكنه كان واثقاً بابنته ومستسلماً الى رأيها كما يستسلم الجندي الى قائده الظافر .

***

١٥

جميع الامراء الذين يملكون المخاليف والجيش قدموا مأرب في ذلك الحين بدعوة من الملك ليحادثهم بشأن الحرب التي يخشى ان يوقد نارها الفرس او الحبشان ...

الا شرحبيل وذا مغار ومن يتبعهما ، فالملك لم يدعهم اليه، ولم يرد احدهما ان يدخل البلاط بدون دعوة منه .

وللملك في دعوته الناس ، وسكوته عن شرحبيل ومن معه : غاية ظاهرة يريد ان يجعلها احدى الوسائل التي يبلغ بها غايته من ابن يعفر ، وابنته بلقيس . كان يريد ان يعد ذلك السكوت ذنباً على شرحبيل ومظهرا من مظاهر الجفاء او العداوة ، ثم يمن عليه بالتجاوز عن ذلك الذنب ، ليحيطه بنطاق من الحلم والفضل ، كلما علمت .

فلما حادث جميع الامراء وعرف ما اراد ان يعرفه من احوال الجيش خطر له ان يدعو ابن عمه ، ليسأله رأيه في ذلك الجفاء .

وانتهى امره الى شرحبيل في مساء ذلك اليوم .

فقال لذي مغار وبلقيس في المجلس : اي رأي لك في هذه الدعوة ؟

فاجابته بلقيس قائلة : ليس لك ان تخشى شيئا مهما يكن امرها .

وقال ذو مغار : انها دعوة لحيلة جديدة تستطيع ان تعالجها بما شئت .

فقال ؟ لا اجد سببا لها الا الحرب وسيسألني عما اذا كنت اتردد في حمل السيف والدفاع عن اليمن .

ـ اتذهب الليلة ام في الصباح ؟

ـ في الصباح وقبل ان تطلع الشمس ، هكذا نقل الي الغلام الذي حمل امره .

ـ وهل فكرت في الدفاع اذا اشتعلت النار ؟

ـ لم افكر في شيء من هذا بعد .. ان الدفاع يعلي شأن الملوك ويرفع منزلته في عيون الناس وهذا ما لا اريده . والسكوت عن امر اليمن في محنتها خيانة

وضعف وهذا لا يليق بشرحبيل بن عمرو .

فقالت بلقيس : اليمن لنا فلا نطيق ان يضع الغريب قدمه فيها ويرفع في فضائها اعلام ملكه . أنا اذا اردنا ان نحطم عرش ذي القرنين فلكي نبني لنا عرشا حميرياً جديداً تقوم دعائمه على الاخلاص لليمن ، والوفاء للشعب اليمني الضعيف الذي سلبه الملك ماله وداس شرفه بقدميه . واما ان نمهد السبل لعرش اجنبي فهذا ما لا نفعله وسلالة يعفر لا تخون امتها وفي عروقها دماء الملوك .

ثم قالت : يجب ان يعلم العلي اسكندي ويعلم سابور ، ان اليمن دولة لا تمتد اليها الايدي ، وان الفلاح اليمني الذي لا يعرف غير محرائه يغار على عرش ملوكه كما يغار الملك ويبذل في سبيله ما يبذله الملك نفسه من دم ومال .

وباتوا يتحدثون حتى انتصف الليل ، فانصرف كل واحد منهم الى حجرته وشرحبيل يفكر في دعوة الملك ، وغرام بلقيس .

ولما طلع الصبح غدا على البلاط ، وكان ذو القرنين على شرفة مقصورته التي تعود الجلوس فيها في الصباح والمساء .

فلما وقف شرحبيل بين يديه ، تكلف الابتسام وامره بالجلوس دون ان يمد اليه يده ليقبلها كما هي عادته مع ابناء البيت المالك .

ثم قال وقد اختفت ابتسامته :

شرحبيل !!. تعلم ان سابور الفارسي يغزو العرب في ديارها وقد تطأ حوافر خيله بلاد اليمن ولا تسأل ملكك عن ذلك ؟

فابتسم الرجل بدوره لتلك اللهجة الغريبة واجابه قائلا :

ـ ليس لي ان اوجه الى مولاي الملك رأياً لا يسألني اياه .

قال : الملك لا يطلب رأياً بل يريد ان تغضب لعرش اليمن الذي تهدده الفرس والحبشة وتظهر هذا الغضب لصاحب العرش .. قل اعلمت كل ما ذكرنا الآن ام ماذا ؟

ـ بل علمت ان مولانا الملك لم يترك اميراً من امراء بلاده الا دعاه اليه وامره باعداد عدته والتهيؤ للدفاع ! غير انه نسي شرحبيل بن عمرو فلم يوجه اليه

امراً كأنه لا يثق باخلاصه والوفاء له .

ـ اذن تنتظر الملك ان يأمرك باظهار اخلاصك ووفائك ؟

ـ بل انتظر ان يذكرني كما يذكر سواي .

ـ وان لم يفعل ؟

ـ لزمت قصري واقمت على الولاء الصامت الذي يرافقه الالم والكآبة .

ـ ولكن للملك تفسيراً آخر يا شرحبيل .

ـ ما هو يا مولاي ؟

ـ تريد ان تثبت لمولاك انك اعظم منه .

ـ هذه كلمة لا اطيق ان اسمعها من ملك ليس في اليمن والجزيرة كلها رجل اعظم منه .

ـ ومع ذلك فنحن نقولها مكرهين .. ألم تكن اعظم منا يوم سألناك ان تقيم بالبلاط او تجعل بلقيس حظية لنا ؟ انك حسبت الحلم الذي احطناك به من مظاهر الضعف فتماديت في الاستخفاف وقام في ذهنك اننا لا نستطيع ان نجد لاستخفافك دواء .

ـ اقسم برأس الملك اني لا استحق هذا منك .

ـ تحلف برأس يحاول بعض اليمنيين ان يسلبوه التاج .

ـ مولاي !

ـ نعم ان بعض اليمنيين يتآمرون على الرأس الذي تحلف به الآن .

ـ وانا منهم ؟

فهم بان يفاجئه بقوله : انك سيد المتآمرين .

ولكنه ذكر الفتنة التي يخافها كما يخاف ابليس . ولم يشأ ان يوغر الصدور في زمن تهدد فيه الاعداء عرشه .

وتردد في جوابه ثم قال :

لو كنت منهم لملأنا قصرك جنوداً ورفعنا جثث آن يعثر على اسنة الرماح .. ولكن سمعنا هذا ونحن نبحث عنه حتى نعرف كل شيء .

فتجلد شرحبيل وهو يقول : لا ادري لماذا يعمد الملك الى التهديد كلما مثلت بين يديه .. اني عبد الملك الطائع الذي لا يستحق غير عنايته وعطفه .
ــ اجل والطاعة هذه هي التي تعلمك الجفاء وتملي عليك الانزواء في قصرك عندما تجتمع الامراء في قصر الملك للنظر في شأن الحرب .
فتجلد ايضاً وقال : لقد عرفت يا مولاي اني لا اريد ان ازعج الملك الا اذا امرني بالمجيء اليه
ــ وانت قــد عرفت ان الملك يرغب في ان يراك كل يوم وانت لا تفعل ، فلم يبق الا ان نظن الظنون ونضع حداً لهذه المظاهر الكاذبة التي نراها كل يوم .
فبذل الامير عندئذ جهده كله ليخفي غضبه وظل ساكتاً .
ثم اصفر وجهه وارتجفت شفتاه
فقال الملك : ايسوؤك يا شرحبيل ان تسمع هذا ؟
فاجابه قائلا : يسوؤني ان يجفو الملك لامير مخلص له .
قال : اخلاص تذكره الشفتان ولا يعرفه القلب .
فخرجت الكلمات من فمه شديدة متقطعة وهو يقول :
لا تنس اني ابن عمك يا مولاي .
ــ ومعنى قولك ؟
ــ معناه ان ابن عم الملك لا يسكت على الاهانة . قلت اني عبد الملك الطائع وهذا يكفني وعلى الملك ان يصدق ما قلت .
قال : تظهر هذه الطاعة يا شرحبيل عندما تخاف .
ــ ماذا اخاف يا مولاي ؟
ــ غضب الملك الذي يعقبه الموت .
فنظر اليه بعينين تتقد فيهما النار وقال له : دلني على هذا الموت ايهــا الملك لاقتحمه وعيناك تنظران .
ــ سأدلك عليه بعد ساعة .
ــ بل الآن يا مولاي .

فتناول سيفه الذي كان الى جانبه وقال : انظر الى الموت انه يلمع في هـــذه الشفرة ...

فابتسم قائلا : ولكنك لا تضرب وانا اعزل .

ــ واذا اعطيناك سيفاً ؟

ــ اعطني اياه وافعل ما تشاء .

فقال : يا غلام . اعط شرحبيل سيفاً من سيوف الملك وتهيأ لحمل جثتـــه الى العماد وبلقيس .. والآن فاوض يا ابن العم .

قال : اوصي بان تنقل جثتي الى قصري كما ذكرت ... وبماذا توصي انت ايها الملك ،

ــ انا ؟

ــ نعم فستموت قبل ان يموت ابن عمك .

قال : سنرى اذا كنت تجسر على الدفاع .

ــ بل سيرى اهل البلاط ملك حمير مضرجاً بدمه .

ــ اذن فانت اطول باعاً في الحرب من الملك .

ــ اجل وكان عليك ان تستبقي سيفي لعدوك .

قال : خبرني كيف نموت نحن الاثنان؟

ــ نموت انت من يدي ، واموت انا من ايدي الرجال الذين يملأون بلاطك.

قال : هات يا غلام .

فاقبل الحاجب يحمل سيفاً وهو مضطرب .

فامره ذو القرنين بان يطرحه بين يدي شرحبيل ويقف بالباب .

ثم قال : قم يا شرحبيل فهذا سيفك ...

فجرد الامير ذلك السيف وجعل يهزه وهو يقول : ستنـــدم ايهـــا الملك اذا اتسع لك مجال الندم ، وسيندم ولي عهدك

قال حدثنا بهذا قبل ان تسيل الدماء .

قال : اما انت فسيستولي عليك الندم عندما تحس بضربات شرحبيل واما ولي

عهدك فلا يشعر بمثل هذا الا عندما يستوي على العرش ويرى اتباع شرحبيل بن عمرو يحملون في وجهه السيف .

ثم نهض كما ينهض الليث واستطرد قائلا :

كنت لك عبداً ايها الملك فصيرتني عدوا وكنت مخلصاً ادافــع عن عرشك وابذل دمي في سبيل تاجك فلم تشأ الا ان تجزي الخير بالشر والحب بالبغض ، والاخلاص بالرياء ، فاضرب الآن ان التاج لا يثبت على رأس ولدك بعد موت شرحبيل .

ووقف كما يقف الرجل الشجاع المستهين بالموت .

غير ان الملك لم ينهض عن مقعده ، بل كان يبتسم ابتسامة مكر وخبث وهو يتفرس في عينيه المتقدتين .

فقال : اغمد سيفك ايها الملك في صدر ابن عمرو .

فاجابه وهو يضحك قائلا : اتعلم ماذا رأيت الآن ؟

ـــ ماذا ؟

ـــ رأيت شجاعاً لا عقل له ٠٠ ايقوم في ذهنك ايها الابله ان الملك يدعوك الى بلاطه ليضع سيفه على عنقك ؟ افلا يستطيع هذا الملك ان يفعل هذا وانت في قصرك بين غلمانك وجواريك ؟ انك عزيز النفس يــا شرحبيل ولكنك جاهل قصير النظر وقد ضيع جهلك اباءك وعزة نفسك .. اجلس واجعل السيف على ركبتيك ان كنت خائفاً .

فقال في نفسه : بل انت الخائف الجبان ايها الملك .

ثم تكلف الابتسام وهو يقول : انجوت من الموت ؟

ـــ اجل وفي نجاتك منه فضل جديد لمولاك .

ـــ ولكني ارى ، عندما ارجع الى نفسي ، اني لا استحق الموت يا مولاي .

قال : لقد قيل انا انك اجبن امراء اليمن عند الشدة فاردنا ان نلمس بيدنــا هذا الجبن ٠

ـــ والآن ؟

ـ اما الآن فقد ثبت لنا انهم كانوا هم الجبناء فيما نقلوا الينا عنك ٠
ولعله اراد ان يسبر غوره من جانب آخر ، فقال :
بقي امران نسألك عنهما فنختبر من جديد اخلاصك للملك ٠
قال : لم يتردد شرحبيل بن عمرو في اظهار هذا الاخلاص من قبل ، قل يا مولاي ٠٠٠
ـ ايطيب لك ان نعود الى ذكر الحرب ٠
ـ كل شيء يطيب للملك يطيب لي ٠
قال : لقد عرفت اننا ارسلنا ولي العهد الى بلاد اليمامة يتبين احوال سابور الفارسي ٠
ـ نعم ٠
ـ ونحن نخشى ان يتلاقى الجيشان في ذلك القطر فتخسر اليمن جنودها وتسلم ولي العهد الى عدوه ٠
فأيقن شرحبيل عندئذ انها احدى حيله وانه يكذب ٠
لقد كان يعلم ان ولي العهد لا يتصدى لسابور ولا يفكر في قتاله ، فقال وهل اذن الملك لولي عهده في القتال ٠
ـ اذنا له فيه عندما يرى انه لا بد له منه ٠
ـ وفي اي شيء يرغب مولاي الآن ؟
ـ نبعثك الى اليمامة في مهمة جديدة ٠
فاجابه هادئاً وهو واثق بانه لا يفعل ٠
ما هي مهمتي يا مولاي ؟
ـ تسعر نار الحرب ان لم يسعرها الفارسي وتكون عوناً لولي العهد ٠
ـ تسعرها في اليمامة وانت في مأرب لا ترى شيئاً ؟
ـ اجل فنحن نحب ان يتهيب سابور ملك حمير وهو بعيد عنه ٠
ـ ولكن الشرق والغرب يخضعان لدولتين احداهما دولة الفرس ٠
قال : ماذا تريد بقولك هذا ؟

ـ اريد ان اقول ان الفرس اكثر جنوداً وابعد نفوذاً من اليمن .

ـ اذن فانت تخوف الملك يا شرحبيل .

ـ لا يا مولاي بل التمس منه ان يسمع رأيي في ذلك انك تستطيع ان تحارب من حولك من امراء اليمن المتمردين وانت في قصرك لا تنقل الى الميادين قدماً واما ان تفعل مثل هذا مع سابور فهذا خطأ وليس من الحكمة ان تقذف بالجيش اليمني الى اشداق الموت .

قال : لقد نقلوا الي ان الجيش الفارسي الذي يملأ قلوب العرب ذعراً لا يزيد عدده على عدد الجيش الذي يقوده ولي العهد .

ـ ولكن سابور يستطيع ان يمـلأ ارض العرب جيوشاً عندما يشاء . اتراه يغزو الاقليم ويفتحها بالجيش القليل الذي يقوده ثم يعجز عن اليمنيين بالجيش الكثير الذي يدعوه اليه ؟؟ اني وانا العبد الطائع كما قلت اخالفك في ما رأيت ولا اتردد في الذهاب الى عاصمة الفرس نفسها اذا كنت تؤثر ذهابي اليها .

قالها ليزيده وثوقاً بطاعتـه واخلاصه وهو متحير في امره ، مستغرب ذلك الموقف الذي يقفه الملك معه مرة اخرى والذي لا يعني غير الريبـة التي تقوم في صدره .

فقال الملك : ومع ذلك فنحن نأمرك بالذهاب غداً ولا نبـالي ربحنا الحرب ام خسرناها قل اتذهب او نختار سواك ؟

ـ اذهب يا مولاي ..

ـ عند الصباح ؟

ـ بل قبل ان يبزغ الفجر .

فاشرق جبينه قائلا : اذن اصبح سابور في يدي فانت لا ترجع الا ورأسه بين يديك .

قال : سيحمل اليك القوم بدلا من رأسه ، رأس شرحبيل بن عمك .

قال : خير لك ان تبقى فقد استولى عليك الخوف .

ـ بل استولى علي ما يشبه اليأس يا مولاي ، اترسلني الى اليمامة احارب فيها

الفارس الظافر الذي مد فوقها رواق ملكه وتجعلني بعيداً عن بلادي تفصلني عنها السهول والجبال وانا لا اجد حولي غير الاعداء ثم تـأمرني بان احمل اليك رأس ملك ؟ اتريد يا مولاي ان اكذب فاقول لك اني قـادر على ذلك ثم ينقل اليك الناس اني قتلت وقتل ولي عهدك وزالت هيبة حمير من نفوس العرب ؟ قل لي يا مولاي كم هو عدد الجيش الذي بعثته مع ولي العهد؟

. يجاوز الالفين .

. والجيش الذي تجعلني قائداً له ؟

الف .

. وتريد ان ترد التيار الفارسي بثلاثة آلاف رجل ؟

ـ اجل وليس هنالك ما يمنعنا من ذلك الا اذا ترددت في الامر .

ـ وهل اعددت الرجال يا مولاي ؟

. اعددنا كل شيء ولم يبق الا ان ترضى بالذهاب .

. لقد رضيت وسأبذل دمي في سبيل العرش .

قال : لقد انتهى الامر الاول الآن وبقي الامر الآخر .

فجعل شرحبيل يهامس نفسه قائلا : اذكر امورك كلها ايها المغرور فاناادهى منك وابعد نظراً ، ثم قال له :

ماذا بقي يا مولاي ؟

. بقي ان تجود اليوم بما بخلت به امس .

فارتجف صوته وهو يقول : من هو الذي يستطيع ان يجود على الملك ؟

ـ انت .. فنحن نحسن الى العرب كلها وانت تحسن الينا •

قال : لا تهزأ بي يامولاي .

ـ ليس في الامر شيء من الهزء كـما تظن ألم نسألك من قبل ان تهب لنـا بلقيس ؟...

ـ نعم فعلت ذلك يا مولاي ثم عدلت .

ـ اما الآن فقد عدنا الى الطلب ونحن نسألك ان تهبها لنا .

فتظاهر بالتفكير ثم قال : اتريدها حظية ؟

ـــ نعم .

قال : لا تسألني امراً لا استطيعه .

ـــ وكيف لا تستطيع وبلقيس ابنتك وهي ملك لك ؟

ـــ ولكني لا املك الاستهانة بشرفي يا مولاي .

ـــ مع انك تملك الاستهانة بحياتك وتذهب الى اليمامة لتموت فيها ..

ـــ استهين بهذه الحياة لاصون هذا الشرف .

ـــ واذا غضب الملك ؟

ـــ اذا غضب من هذه الناحية فانا لا ابالي بغضبه ، لقد قلت لك يا مولاي ان الموت اهون لدي من العار وخير لي ان تموت ذرية شرحبيل وتفنى من ان احيا حانياً رأسي للذل الى الابد .

ـــ ولا ترجع عن هذا القول يا شرحبيل ؟

ـــ لا ارجع عنه ولو حمل جسدي على الاسنة .

فبرقت عيناه قائلا: لقد آثرت الموت في اليمامة على العصيان فوثقنا باخلاصك واثرت الموت على الاستخفاف بالعرض فوثقنا بشرفك فانت في نظر الملك خير الرجال وهو لا يريد ان تترك اليمن كما انه لا يريد ان تجعل ابنتك حظية له ..

فتبين الامير من ذاك الحديث دهاء الملك كله ، واجابه قائلا :

اذن ماذا يريد مولاي الملك ؟

ـــ يريد ان يجعل بلقيس ملكة .

فجعل يعيد تلك الكلمه كالمجنون وكأنه لم يفهم مغزاها .

اما الملك فاعادها مرة ثانية وشفتاه تنفرجان .

فقال : بلقيس ملكة ؟ .. اتصبح زوجة لمولاي ؟

ـــ بل تصبح زوجة لولي العهد ثم تتربع في العرش بعد ان يموت ذو القرنين واخذ يحدق اليه في عينين تلمعان وهو ينتظر ان يرى مظاهر الفرح ويسمع كلمات الشكر .

غير ان شرحبيل لم يستغرب ، ولم تخرجه تلك البشري عن رصانته وكبر نفسه. وبدلا من ان يعمد الى الجواب ، حنى رأسه يفكر في امره وقد بــدت على وجهه مظاهر التردد في ذلك الامر .

فكاد الملك يخرج عن حده لذلك المظهر الغريب .

انه مظهر استخفاف يجرح عزة الملك . فقال :

يخيل الينا انك لم تسمع ما قلناه يا شرحبيل .

ــ هل سمعت يا مولاي وقام في ذهني اني نائم وان هذه البشرى كانت حلماً.

قال : اتعدنا بان بلقيس ستكون زوجة لعمرو ؟

ــ وهل يوجد في اليمن رجل لا يرضى بان تصبح ابنته ملكة ؟

ــ اذن فانت تعد الملك بهذا .

ــ اما انا فليس لي الا ان اشكر مولاي عــلى هذه النعمة . وامــا بلقيس فسأسألها قبل ان تسمع جوابي الاخير .

قال : اتراها تؤثر فتى على عمرو ؟

ــ لا اظن يا مولاي ولكن الزواج امر لا استطيع الا ان اشاورها فيه .

ــ واي عربي يشاور ابنته ؟

ــ لو لم يكن هنالك نذر لما فعلت .

قال : لقد عدنا الى حكاية هذا النذر وكنا قد نسيناه .

ــ وماذا اصنع يا مولاي والآلهة لا ترضى الا بالوفــاء وليس فينا من يجسر على اغضاب الآلهة .

ــ ومتى نسمع جوابك ؟

ــ عندما ارى بلقيس واسألها رأيها في قضية النذر .

قال : ان الملك يريد ان يزوج ولده في هذا العام ولا يطيق الصبر .

ــ ولكن لا حيلة لي في الامر يا مولاي كما ترى .

قال : ان لكاهن اليمن رأياً في هذا وسندعوه الساعة .

فخاف الامير ان يغلبه الكاهن على امره ويكرهه على القبول والوعد وهو لا

يريد ان يعد قبل ان يخاطب بلقيس ، فقال :

اي شأن للكاهن بما ذكرت يا مولاي ؟

ـ انه وحده يستطيع ان يجد لبلقيس حلا للوفاء بما نذرت دون ان يكون في ذلك عار .

ـ اتفعل هذا يا مولاي قبل ان نسألها ؟

ـ اجل فالكلمة الاخيرة له وليست لها .

ولم يشأ ان يسمع جواباً بل امر غلامه بان يدعو الكاهن الاكبر الى القصر قائلا له :

اذكر له حاجة الملك اليه في هذه اللحظة .

فعرف شرحبيل ان الداهية يريد الا يبقي له عذراً .

فاطرق وهو يعد عدة الاعتذار من جانب آخر .

ولولا ذو تبع ، وتحير بلقيس في موقفها بينه وبين ولي العهد لما تردد في جوابه ...

ان بلقيس احبت امير همدان وقد يمنعها هذا الحب من الرضى بما يريد الملك ...

وكان قصر الكاهن مجاوراً للبلاط ، وهو في عظمته وكثرة اروقته وابراجه ، يشبه ذلك البناء العظيم الذي يقيم به ذو القرنين .

والكاهن صنيعة الملك ، يبيع هيا كله وآلهته ، ويخون ضميره وشرفه ، عندما يرى ان في ذلك البيع وهذه الخيانة رضى مولاه .

وذو القرنين يهب له المال ، ويعطيه ما يشاء ، ويحيطه بنعمه وعطاياه ، احتفاظاً بقوته المعنوية التي لا تقف عند حد .

لقد كان الكهان في ذلك الزمان انصاف آلهة وكثيرا ما كانوا يقلبون العروش ، ويرفعون اليها انصارهم من الرجال واشباه الرجال .

ويكفي ان يبتسم الكاهن لقومه فتبتسم لهم الحياة ، ويغضب فتسقط السماء على اهل الارض

والويل لمن يتصدى للكاهن في امره . ان ارادة الكهان ارادة الاله الخالق القادر على كل شيء .

***

اقبل « وتار ذمر » كاهن اليمن الاعظم على الرواق الذي يجلس في آخـره الملك وشرحبيل .

فمشى ذو القرنين للقائه ، وصافحه كالملك يصافح ملكا مثـله ، وانحنى ابن يعفر سليل الملوك ، امام ذلك الرجل الهائل القابض بيده ، بعد ذي القرنين على صولجان القوة والنفوذ في دولة الحميريين .

ووتار ذمر ، طويل القامة جميل الوجه ، يغمر الجلال قامته ووجهـه وترسل عيناه الهيبة الى من حوله .

وهو في الاربعين من عمره يحسبه الناظر اليه في الثلاثين .

فلما جلس الملك في مقعده ، اومأ اليه بأن يجلس عن يمينه وخاطبه قائلا : لو لم نكن بحاجة اليك لما سألناك ان تجيء . أتعلم لماذا دعوناك الآن ؟

وكانت لهجته لهجة احترام فيها تملق . فقال :

ان الملك لا يدعوني الا للمشورة عندما يريد ان يسمع آراء المخلصـين له ، اذكر يا مولاي ما دعوتني لاجله .

ونظر الى الامير نظرة قصيرة ايقن شرحبيل بعدها ان الاثنين متفقـان وان هنالك حديثا جرى بينهما قبل ذلك اليوم .

فقال الملك : في هـذا القصر فتاة في عامهـا الثامن عشر هي آية من آيات الجمال .

فقطب حاجبيه وتظاهر بالاصغاء .. ثم قال :

ابنة من هي يا مولاي ؟

ـ ابنة حظية من حظايانا يريد احد امرائنا ان يتخذها زوجة لولده .

ـ اي انها ابنة الملك ؟

ـ اجل ولكن الملك لا يستطيع ان يرضى بهذا الزواج الا اذا شاورك . .
ـ انه عطف لمولاي اذكره ولا انساه .
ـ ليس في الامر منة وفضل بل هنالك نذر ، ان طالب الزواج عزيز على الملك ولا يريد ان يرده . غير اننا نذرنا منذ عامين ان لا نزوج هذه الفتاة الا في عامها الثاني والعشرين .
ـ انت ايها الملك ؟
ـ اجل .
ـ وهل تذكر لي سبب نذرك هذا ؟
ـ خطر لنا ان نفعل وعاهدنا الآلهة على الوفاء به .
والآن فانت تريد ان تصبح في حل مما نذرت ؟
ـ نعم ولاجل هذا دعوناك.
فوضع يده على جبينه كأنه يستوحي آلهته ثم قال :
تستطيع هذه الفتاة ان تتزوج عندما يشاء الملك .
ـ وكيف ترضى الآلهة ؟
ـ يذبح صاحب النذر عشر مرات ويدخل الهيكل مستغفراً عشرين مرة فيغفر له ذنبه .
قال : اشهد يا شرحبيل .
قال : لا يحتاج الملك والكاهن الاعظم الى شهود .
قالها وهو لا يظهر شيئاً من الريب الذي قام في نفسه .
ونهض وتار ذمر في تلك اللحظة يريد الانصراف وهو يتظاهر بان مهمته قد انتهت ولم يبق له ما يصنعه في بلاط الملك .
فقال ذو القرنين : اتذهب الآن ؟
ـ نعم وارجو ان يأذن لي الملك في الذهاب فقد تركت ببابي وفود الاقاليم من جميع انحاء اليمن .
فنهض ونهض شرحبيل يشيعانه الى الرواق ثم رجعا الى مقعديهما والملك يقول :

لم يبق لبلقيس عذر كما رأيت فهي تستطيع ان تذبح الذبائح وتزور الهيكل عشرين مرة كما قال وتار ذمار .

- ومن قال لك يا مولاي انها لا ترضى ، لقد قلت لك اني سأستشيرها في الامر واعيد قولي الآن .

قال : انه تردد لا معنى له ، ان الملك يريد ان يتم هذا الزواج في هذا العام وليس لبلقيس ان تجعله بعد اربعة اعوام وقد قلنا لك هذا منذ ساعة افلا تعد الآن ...

فاملت الحكمة على شرحبيل ان يعده ثم ينظر بالاشتراك مع ابنته في امر آخر يحول معه ذلك الوعد ، فقال :

لقد ذكرت لمولاي اني راض بكل ما يرضى به وسأحمل بلقيس على القبول .

- وتنقل الي جوابها بعد يومين .

- نعم يا مولاي .

فاراد ذو القرنين ان يمن عليه قبل ان يصرفه فقال :

أرأيت كيف آثرك الملك على سواك فجعل عرشه مقعداً لحفدتك الى الابد ؟

قال : لقد اردت يامولاي ان يطوق فضلك وفضل آبائك اعناق آل شرحبيل فنحن عبيد عرشك ما بقينا .

قال : كانت للملك عاطفة فخنقها في صدره لتتم لك الغاية التي اردت .

وقهقه ضاحكاً ليكون في منّه شيء من الاستهزاء .

فقال : ما هي غاية شرحبيل يا مولاي ؟

قال : انسيت انك عتبت الملك يوم سألك ان تهب له بلقيس ؟

- ولكن كانت غايتي ان اصون شرف آبائي .

- بل كانت غايتك ان تجعل ابنتك ولية للعهد وقد ذكرت ذلك لحبّى فباحت به لاختها التي تقيم بالهلاط .

فتظاهر بالجزع قائلا : ما كنت احسب ان حبى تفضح الاسرار .

قال : انها اقرب اليك منا واحب شيء اليها ان تصف للنـــاس جمال بلقيس

وتذكر لهم اخلاقها التي هي اخلاق الملكات

ــ ولكنها باحت بما لا ابوح به لاحد من الناس .. نعم يا مولاي لقد قلت لبلقيس ان الملك يريــد ان يجعلك من حظاياه وكنت اوثر ان يجعلك زوجــة لولده •• ولكني لم اقل ان هذا الزواج غاية سأسمى اليها لدى الملك انها ليست غاية يا مولاي بل امنية تمنيتها بالنظر الى القرابة ولما اعرفه من عطف الملك على وعنايته بي .

ــ اما نحن فقد وهبنا لك مــا تمنيت ولم يبق الا ان ترضى بلقيس فنجعــل موعداً للزواج .

فتمادى الامير في تجاهله قائلا :

الا يجوز ان يختار ولي العهد فتاة غير الفتاة التي يختارها الملك له ؟

ــ بلى ولكن الفتاة التي يختارها لن تكون ولية للعهد .

ــ اي ان الملك لا يهب ولاية العهد لغير بلقيس ؟

ــ اصبت فبلقيس احب الفتيات الى الملك واجدرهن بالعرش ••

ــ اتريد ان انقل اليك الجواب قبل ان يعود ولي العهد من اليمامة ؟

ــ بل نريد ان تنقله الينا بعد يومين فلا تعد الى السؤال عن هذا .

قال : خير للاثنين ان يرى احدهما الآخر قبل ان نعد .

قال : اضمن رضى عمرو ، وتضمن انت رضى بلقيس وينتهي الامر .

وبينا هو يهم بالنهوض ، اقبل رئيس حراس القصر وهو يقول : لقد قبض الجند في مأرب على فتى حبشي يقول انه قدم ليشتري البخور من نحلة والصمغ من همدان .

قال : احسن الجند فقد امرنا رؤساءه بان يقبضوا على كل حبشي مهما يكن امره وغايته •• اين هو الآن ؟

ــ بباب القصر يا مولاي ؟

ــ ادخله فسننتزع اسراره من صدره ثم ندفعه اليك لترسله حيث تشاء .

قال : ومعه فتى يمني من براقش هو صديق له .

فاهتز الملك لذكر براقش ، ان امـــيرها الغوث بن راهـــط لا يحبه ولا يبالي به ...

واطرق لحظة ثم قال : اين كان هذا اليمني ؟

ـ له منزل في مأرب اعده لنزول الفتى الآخر فقبضوا فيه على الاثنين .

قال : اتستهين بنا براقش الى حد ان يضع فتيانها ايديهم بايدي الحبشان ولا يبالون؟ انه اذاً مظهر عداء جديد تبدأ به، وشراء البخور والصمغ حيلة لا نصدقها وسننزع عنها الحجاب بعد قليل . ادخله مـــع رفيقه وامكث في الرواق فيتولى الملك بنفسه امر البحث معهما .

ثم قال لشرحبيل : اما انت فابق لترى وتسمع .

قال : اتظن يا مولاي ان هذا الحبشي جاسوس ملكه ؟

ـ اثق بهذا كما اثق بان اليمني الآخر شريك له في مهمته وسترى في هذه الساعة اني لم اكن مخطئاً فيما ظننت .

ودخل الفتيان وراء رئيس الحراس وهما في زهرة العمر وعلى وجهيهما دلائل الجرأة وعدم الاكتراث .

* * *

بدأ الملك حديثه مع اليمني قائلا :

ما اسمك ايها الفتى ؟

فاجابه وهو ينظر الى رفيقه : اسمي جرول .

ـ ممن انت ؟

ـ من بني سعد .

ـ سعد براقش ؟

ـ نعم .

ـ واسم بلدك ؟

ـ ربوة .

ـــ وماذا تصنع في مأرب ؟
ـــ اتسألني ايها الملك عما اصنع في بلاد قومي ؟
ـــ ان الملك يسألك عما يشاء فلا تتردد في الجواب .
ـــ لي في مأرب منزل تركه لي ابي وانا اقيم به الشهرين والثلاثة في كل عام .
قال : وتبيع فيه البخور والصمغ ؟
ـــ ليس عندي منهما ما ابيعه .
ـــ وماذا تفعل اذاً ، اتبيع اليمن؟
فنظر اليه بوقاحة وهو يقول : لم اسمع قط ان يمنياً باع وطنه !
ـــ اما الملك فقد سمع هذا الآن ألست صديقاً لهذا الرجل ؟
ـــ بلى ..
ـــ متى عرفته ؟
ـــ منذ بضعة اعوام عندما كان ابي يزور اباه في الحبشة .
ـــ الا تعلم ان الحبشان يطمعون في اليمن ويعدون العدة للاستيلاء على عرش حمير ؟.
ـــ لم اعلم شيئاً من هذا يا مولاي ومع ذلك فهذا الفتى لا يقدم مأرب الا ليبيع فيها ما يحمله وينقل الى بلاده منها ما يطيب له .
ـــ اجل ينقل الى بلاده ما يطيب له من اخبار قومك . خبرنا الآن ما هي مهمة هذا الحبشي ؟
ـــ لقد خبرتك الآن ما اعرفه عن مهمته .
فتناول سوطه قائلا : سيعلم هذا السوط ما تريد ان تكتمنا اياه .
فمشى رئيس الحراس بضع خطوات يريد ان يتولى الضرب بالسوط عندما يأمر الملك .
فأومأ اليه بان يقف بالباب قائلا :
سترى ان الملك يحسن الضرب .. اعترف يا جرول بمهمة رفيقك .

ـ اعترف بما ظهرمنها يا مولاي .. انها مهمة تاجر لا يعبأ الا بالبيع والشراء
كما قلت .
فهم بان يداعبه بسوطه ، فاستوقفه شرحبيل وهو يقول :
الا تأذن لي في القول يا مولاي ؟
قال : احذر ان تشفع فيه .
ـ لا ولكني التمس من الملك ان يسأل هذا الحبشي قبل ان يضرب .
قال : اصبت فخير لنا ان نصبر ساعة من ان نتعجل في الجزاء .
ثم قال للفتى : انظر الى هذا السوط انه ان لم يحل عقدة لسانك حلها هذا ..
واشار الى سيفه .
فقال : سل عما تشاء ايها الملك .
قال : من انت ؟
ـ فتى من الحبشة كما رأيت اصيد السباع في بلادي وابيع جلودها في بلادك .
ـ ثم ماذا ؟
ـ ثم اعود حاملا بخور اليمن الفاخر وصمغها المشهور .
ـ اتعرف ملك قومك ؟
ـ اجل وانا ابيع البخور كله لرجال قصره .
ـ اذن يعلم هذا الملك متى تترك الحبشة ومتى تعود اليها .
ـ قد لا يعلم شيئا مما تذكر يا مولاي .
ـ ولكن قيل لنا انك من رجاله وانك تحمل مع جلود السباع رسالة الفتنة
والدعوة الى مذهب جديد نشره رجل من فلسطين يقال له المسيح .
قال : لقد ذكروا لي هذا المذهب ايها الملك ولكني لست من رسله وانا اوثر
دين آبائي وادعو الناس اليه اذا استطعت .
ـ ان الرجل الذي نقل الينا خبرك ليس كاذبا ..
ـ بل هو اكذب الناس ، ألم يجد ملك الحبشة في بلاده رجلا يعهد اليه في
امر الدعوة التي ذكرت غير صياد السباع ؟

قال : رآك تحسن صيد القلوب فاختارك لغرضه .

وامر رئيس حرسه بان يدنو منه ثم قال له :

ماذا رأى الجند مع هذا الرجل عندما قبضوا عليه ؟

ــ رأوا قطعا من النقود فتركوها له وهي في كمه .

فخطر للملك عندئذ خاطر فجائي ، فقال :

في اي بلد بعت جلود سباعك ؟

فادرك الحبشي مغزى سؤاله فاجابه قائلا :

ــ بعت بعضها في ريام والبعض الآخر في بينون .

فاضطرب شرحبيل لهذين الاسمين. ان صديقه ياسراً امير ريام والغوث بن راهط صاحب بينون وكلا الاثنين عدو للملك كما عرفت ، وذلك الفتى يقذف بنفسه الى الهوة وهو لا يعلم .

وقال الملك في نفسه : يكفي ان تذكر بينون وريام لتكون مجرما ..

ثم اومأ الى رئيس الحرس يقول : اعطنا نقوده .

فاخرجها من كمه وهو ساكت وجعل الملك يقلبهـا بين يديه والغيظ يلمع في عينيه ..

ومرت لحظة ساد فيها السكوت حتى قال ذو القرنين :

اذكر الرجال الذين بعتهم جلودك .

ــ لقد تم البيع في السوق وانا لا اعرف الاسماء .

قال : اليس في كمك غير هذه ؟

ــ لا يا مولاي .

ــ انها نقود قليلة ليست ثمنا للجلود .

فتردد في الجواب ...

ــ أأنفقت الثمن في مأرب ام اشتريت به صمغاً ؟

فلم يجب . .

ــ الا تعلم ان نقود اليمن عليها صورة الملك الحميري ؟

فارخى نظرة الى الارض كأنه لم يسمع .

فاستشاط الملك غيظا ومد يده الى سوطه قائلا :

لم نجد في جيبك نقوداً حميرية وهذا معناه انك لم تبع في اليمن شيئا .

فتمتم الفاظا لم يفهمها القوم ثم قال :

دفنت بعض نقودي في موضع في مأرب واشتريت بالباقي اشياء لي .

ــ اين هذه الاشياء ؟

ــ في منزل صديق لي بعيد عن مأرب .

ــ اذن لك في اليمن اصدقاء كثار ايها الحبشي ؟

ــ نعم كما ان لليمنيين اصدقاء في الحبشة فنحن جميعنا من التجار وابناء البلدين يتزاورون في كل عام .

ولم يكن هنالك برهان يستند اليه الملك في حديثه غير سوء ظنه .

ولكنه كان واثقاً بان الحبشان بدأوا يزرعون الفتنة في بلاده .

فعمد الى الشدة للحصول على ذلك البرهان : فقال :

اجعلوا القيد في رجليه كما يجعل في رجلي الدابة .

ففعلوا ، فتناول سوطه واقبل يضربه على ظهره ثم على صدره ثم انتقل الى وجهه حتى تفجرت الدماء من جراح مستطيلة غمرت النصف الاعلى من جسده وهو يتململ ويتألم دون ان يشكو او يستغيث .

وكانت عاطفة القسوة قد جاشت في صـــدر الملك فنسي نفسه ومشى وراء وحشيته لا يبالي بذلك الدم يسفح عند قدميه الى ان تــلاشت قوى ذلك الفتى المسكين واغمي عليه .

ولولا نفس ضعيف يتردد في صدره لظن القوم انه لفظ الروح .

غير ان الملك لم يلن ، بل تحول الى الفتى الآخر الذي هو من رعيته وفاجأه بالضرب المبرح وهو يقول :

اعترف بما تعلم ايها اللعين والا فالسوط لا يهدأ حتى تموت .

فخان الجلد ذلك اليمني وانطرح على قدميه قائلا :

كف عن الضرب يا مولاي فسأعترف بكل شيء .

فبرقت عيناه ورمى بالسوط المخضب بالدم الى رئيس الحرس وجلس في مقعده ويداه ترتجفان من التعب والقسوة الحيوانية تلمع في عينيه الصغيرتين .

ولم يلبث حتى قال : ابدأ باعترافك ايها الخائن واذكر اسم رفيقك الذي قتله الكتمان .

فقال : اسمه اميناس .

ــ أليس هو من رجال العلي اسكندي ملك الحبشة ؟

ــ بلى يا مولاي .

ــ وما هي مهمته ؟

ــ جاء بامر ملكه يعد العدة للمذهب الجديد الذي ذكرته ، ويتبين ما في اليمن من اصدقاء واعداء لمولاه .

فتنفس الصعداء وقال لشرحبيل : لقد صدق الظن كما رأيت ويخيل الينا ان جواسيس العلي اسكندي تملأ مأرب .

ثم قال لجرول وهو يتكلف الابتسام : متى عرفت اميناس ؟

ــ لم اكذب عندما قلت للملك اني اعرفه من بضعة اعوام .

ــ ولكن كيف رأيته وهو في مأرب وانت في قومك ؟

ــ زار براقش قبل ان يجيء الى مأرب ثم رافقته اليها .

قال : خبرنا من لقي من الامراء .

ــ لم ير الامراء يا مولاي لانه لا يعرف احداً منهم .

قال : يكفي ان تنظر الى هذا السوط لتعترف بما تعلم دون ان تكذب .

ــ اقسم لمولاي الملك اني لم انس كلمة .

ــ سمعنا ان اميناس نزل في قصر الغوث بن راهط صاحب براقش وحدثه بالشأن الذي قدم لاجله .

ــ قال لقد كذب الرجل الذي قص على الملك هذه الحكاية .

قال : هات السوط يا شرحبيل .

فقال الفتى : ايطيب لمولاي ان اتهم الغوث وهو بريء ؟ ان هذا الحبشي لم يره ولم يحدثه بأمره .

ــ اذن هو لم يحدث من اهل اليمن احدا ؟

ــ لا يا مولاي لانه لم يشأ ان يبدأ مهمته الا في مأرب .

ــ واذن كنت انت وحدك اليمني الخائن ؟

ــ لم يكن في الامر خيانة ايها الملك ، لقد وصف لي مذهبه الجديد كما يصفه لبني قومه فترددت في الجواب وعولت على استشارة الغوث بن راهط في هذا الشأن .

ــ اجل ونسيت ان لليمن ملكا يجب ان تقص عليه ما علمت .

ــ لو سألني ان اخون مليكي لدخلت هذا القصر واستأذنت في المثول بين يديك ، ولكنه لم يفعل ولم يعبأ لا بمظاهر البغض او الولاء لملك الحبشة يتبينها من وراء الستار كما قلت وليس في ذلك خيانة لاحد يا مولاي .

فتميز ذو القرنين غيظاً ومد يده ليتناول السوط ثم عدل عما همّ به وخاطب رئيس حرسه قائلا :

مر الغلمان يحملوا اليك هذين الخائنين الى ساحة القصر وائتني برأسيهما بعد ساعة ...

فهامسه شرحبيل قائلا : لا تخرج الحبشة عن حدها يا مولاي فخير لك ان تعمد الى الحلم وتطرد اميناس من مأرب عندما يصحو .

قال : اقسمنا اننا لا نرى في اليمن حبشيا الا قتلناه .. اذهب ايها الرجل ولا تتردد .

قال : ولا تسيء الى الغوث بن راهط بقتل احد رجاله قبل ان تخبره بامره وتذكر له ذنبه .

قال : أيتآمر ابن براقش على الملك والغوث لا يعلم ؟ اننا لا نصدق هذا والويل للغوث اذا صدرت منه كلمة سوء .

واومأ الى حارسه بالانصراف كأنه لا يطيق ان يراجع في الامر .

فخرج الحارس وما هي الا لحظة حتى اقبل الغلمـــان فحملوا الحبشي وهم لا يحسون انه حي وجعلوا القيد في يدي جرول ودفعوه بالحراب .

فنهض شرحبيل يستأذن في الخروج .

فمد اليه يده ليقبلها وهو يقول : أرأيت يا ابن العم كيف تنتهي حياة الخائن؟ اجلس لترى رأسيهما يشخبان دما ..

فقال : موت الخائن خير من حياته .

ــ ولماذا اردت ان تنقذ الاثنين ؟

ــ لاني لا اريد ان تشتعل نار الحرب في الخارج والداخل .

قال : اما الغوث بن راهط فهو اضعف من ان يشعل النار واما الحبشة فان لم تشعلها اليوم اشعلتها غدا ونحن بالانتظـــار . . اخرج الآن ولا تنس ان تعود بعد يومين .

فخرج وهو يقول في نفسه : انلم تمت من يد حبشي مت من يد يمني .

وجعل يتلفت في الاروقة التي مر بها عله يبصر ذا تبـــع فلم يره ، وليس من الحكمة ان يسأل العبيد عنـــه .

لقد احب ان يدعوه الى زيارته عند المساء لتقرأ بلقيس اسرار نفسه قبل ان تعد الملك بما اراد فلم يخدمـــه الحظ .

فعول على ارسال حبى في اليوم الثاني الى البلاط لعلها تراه . وهي تعلم كيف تحمله على الذهـــاب .

على ان ذا تبع ابصر شرحبيل ، ابصره عندمـــا اقبل الى البلاط ، ولكنه لم يشأ ان يحادثه خوفا من ان يثير ظنون الملك .

وآثر الذهاب الى قصره ، على اثارة هذه الظنون ...

١٦

عاد اميناس الى رشده عندما حلوه ، ولكنه كان متألماً ذاهلا عن كل مـــا حوله ، ولم يذكر موقفه مع الملك الا ساعة وضعوه في ساحة القصر وقام احد الجنود الى جانبه يعبث بسيفه .

اجل : لقد صحا المسكين في تلك الساعـــة ، وجعل ينظر الى جلاده بعينيه الغائرتين وقلبه يخفق مضطرباً وهو لا يعلم ماذا يقول :
ثم رأى جرول بالقرب منه وكان يبكي ، فقال بصوت ضعيف لا يسمعه سواه ...
احكم علي ذو القرنين بالموت ؟
فاجابه هامساً : حكم علينا نحن الاثنين .
فحول وجهه عنه وهو يقول : ان الذي يخون ملكه يخون صديقه . مت فلا اسف عليك .
قال : وثقت بحلم الملك فبحت له بامرك فكان جزائي الموت .
فلم يجبه ولم يلتفت اليه . بل اخذ يجيل نظره بالقوم الذين غصت بهم الساحة كأن بينه وبين احدهم عهداً .
فعل ذلك بلحظة دون ان يشعر جلاده ، وكأن عينيه عينا نسر حتى ابصرتا الى قصير القامة يلبس لباس اهل مأرب قائما وراء الجنود الذين يمنعون الناس من الدنو الى ساحة الاعدام .
فلمع البشر في تينك العينين وغمرت ثغره ابتسامة عذبة هي ابتسامة الطمأنينة والراحة بعد الالم ..
ثم خاطب جلاده قائلا :
اضرب بأمر ملكك ايها الجلاد فسيأتي يوم يسقط فيه السيف على عنقه .
وكان الفتى القصير القامة يصغي الى ما يقول وقد حاول الدنو منه .
فمنعه الجند واتجهت اليه الانظار .
فتراجع قليلا وكان اميناس يقول : اضرب يا ذا القرنين ان عرشك لا يلبث حتى يتحطم تحت سيوف الحبشان وسيرفعك قومك على اسنة رماحهم لينقذوا اليمن من ظلمك .. اضرب فقد عرفت الامراء الذين يبغضونك وستطأ الحبشة بلادك بعد .
ووقفت الكلمات في صدره لان رئيس الحرس امر الجلاد بان يسكته فبرى

السيف عنقه وقبل ان يجف دمه رفعه ذلك الجندي ليبري به عنق جرول وهكذا انتهت في لحظة قصيرة حياة الرجلين .

وخرجت صيحة ذعر من فم الفتى الذي عرفت .

فاحاط به الجند بأمر رئيسهم ورفع ذلك الرئيس صوته قائلا :

احملوه الى مولانا الملك ليرى رأيه فيه .

ثم امرهم على الاثر بتركه ودنا منه قائلا له :

وجهك وجه يمني فمن انت؟

فظهر التردد والخوف في عينيه ثم قال : عفوك يا مولاي فانا من اليمن كما قلت ...

ــ ولكن اريد ان اعلم من انت واي امر قذف بك الى مأرب ؟..

ــ انا . من . براقش ..

فقال : يظهر ان براقش ارسلت فتيانها الى مأرب لتجعلهم فيها جواسيس الحبشة ... اراك خائفا وارى الدموع تجول في عينيك .

قال : لقد هالني هذا السيف الذي يبري الرقاب يا مولاي .

ــ أتعرف جرول ؟

ــ اعرفه فهو جار لي ولم اعلم في اي شيء استحق الموت .

فهز رأسه قائلا : لو لم تكن لك صلة بالاثنين لما بكيت .. ستعلم ما تجهله بعد قليل ...

واشار على الجنود بان يدفنوا الجثتين ثم مشى راجعا الى قصر مولاه يتبعه جنديان معهما ذلك الفتى المنكود الحظ ...

* * *

قصّ رئيس الحرس على ذي القرنين حكاية الفتى ودفعه اليه .

فجعل يتفرس فيه فخيل اليه ان وجهه يشبه وجه جرول ، فقال :

الثار الى دماء اميناس انها لم تغسل بعد ٠٠ ألست اخا لجرول الذي ضربت عنقه الساعة ؟

فاعد ينظر الى السوط المصبوغ بدم الحبشي وقد عقّد الخوف لسانه ...

وكان الملك يعيد سؤاله وقد ظهرت القسوة في لهجته .

ولكن الفتى لم يتكلم ، بل كان وجهه يصفر وركبتاه ترتجفان ، حتى خاف رئيس الحرس ان يموت من الخوف .

فرأى ذو القرنين ان الدهاء خير من الجفاء ، لعله يعترف له بما لم يبح به جرول واميناس ، فقال هادئا :

قل ما تعلم فنحن نعدك بالعفو اذا اعترفت .

فرفع نظره قائلا : الا تهزأ بي يا مولاي ؟

ـ ان الملك لا يهزأ ...

ـ ولكن قيل لي انك تعد ولا تعفو .

ـ بل نفعل فاجب عما سألناك أليس جرول اخاً لك ؟

فارتجفت شفتاه قليلا ثم انطلق لسانه وقال : بلى يا مولاي .

ـ وكنت شريكا له في خيانته ؟

ـ لم يكن خائنا ايها الملك بل كان ضعيفاً لا رأي له .

ـ وانت ؟

ـ اما انا فخادم اميناس وقد تركت اليمن من عشرة اعوام :

. لم قدمتها معه في هذا العام لتخون قومك فخانتك الاقدار .

والآن قل لنا من هو اميناس هذا وما هي منزلته من العلي اسكندي ؟

لقد كان قيم بلاطه يا مولاي ومن اصحاب سره .

ـ وهل تقيم معه في ذلك البلاط ؟

ـ نعم واعرف كل ما يجري فيه .

ـ اذن فانت تستطيع ان تصف لنا ملك الحبشة وتقص علينا بعض ما تعرف من اسراره . ماذا يعلم العلي اسكندي عن اليمن ؟

ـ اما الذي يعلمه فكثير . واما الذي لا يعلمه فقــد بعث اميناس لينقله اليه كما رأيت .

ـ وبعد ذلك يوجه جيشه الى اليمن ليفتحها ويضمها الى بلاده .

ـ اجل هذه هي غايته يا مولاي .

فرأى الملك ان يجعل لهذا الفتى مهمة خطيرة في مأرب يخدم بهــا العرش ثم ينظر في شأنه عندما تتم ، فقال :

ـ يكفي ما ذكرته الآن فقد عرفنا كل شيء .

واومأ الى الفتى بان يتبعه الى احدى قاعاته قائلا لحاجبه ولرئيس حراسه : انصرفا فالملك لا يحتاج الآن الى احد .

ودخل القاعة واخو جرول وراءه واغلق الباب .

* * *

وبعد ساعة خرج الاثنان فــاذا الفتى يبتسم ابتسامة الظفر ولو استطاعت العيون ان تخترق الاثواب ، لرأى الناس في كمه قبضة من ذهب الملك الوهــاج الذي يجود به على عدوه وصديقه ، في سبيل نيل غرضه .

ولم يمكث الفتى في البلاط ، بعد ذلك ، غير لحظــة ، بل انصرف حراً يجر خيلائه كأنه احد الامراء المقربين ، ولم يجسر الغلمان الذين ابصروه ان يوجهوا اليه كلمة او يسألوا الملك عنه .

غير انه عندما بلغ آخر الرواق وهم بالخروج من باب القصر ، التقاه ذو تبع وجهاً لوجه ، فانكره ، وجعل يتفرس فيه ، وهو لا يعلم اية علاقة لهــذا القصير القامة ببلاط الملك .

وكاد يستوقفه ويسأله عن اسمه ، لكن الفتى لم يعبأ بوقوفه ومفاذر استغرابه بل تعجل في خروجه كأنه اعظم من ان ينظر الى ما حوله .

وبعد ان اصبح ذو تبع في الرواق رأى الغلمان يروحون ويجيئون فقال لاحدهم : اتعرف هذا الرجل الذي خرج من القصر الآن ؟

ـ اعرف ان رئيس الحرس قبض عليه عندما ضربت عنق الحبشي اما اسمه واسمه فلا اعرفهما ولا اعلم من اي بلد هو .

فقال غلام آخر : سمعت رئيس الحرس يقول لحـــاشد نديم الملك : انه من براقش وان له صلة بالرجلين اللذين قتلا .

ـ وكيف يخرج حراً من قصر ذي القرنين ؟

ـ لخيل الينـــا ان حياته ستنتهي كما انتهت حياة رفيقيه .. ولكن الملك دعاه الى قاعته الخاصة ولم يلبث حتى خرج ضاحكاً كما رأيت :

فمضى امير همدان قاصداً حجرته وهو يقول في نفسه :

ان له لشأناً وان للملك غاية في اطلاقه .

وطبعت تلك اللحظة القصيرة صورة الفتى في ذهن الهمداني كأنه يعرفه منذ اعوام ومضت ساعتان طويلتان وتلك الصورة امام عينيه .

• • •

١٧

قبل ان تغرب شمس ذلك اليوم ، اقبل على قصر شرحبيل بن عمرو ، رجل في مقتبل عمره ، قصير القامـــة عريض الصدر ، له شعر اسود طويل جعله ضفائر وارخاها الى الجانبين .

ولو رآه امير همدان في تلك الساعة ، لعرف انه صاحبه فتى براقش .

وكان سافراً غير متنكر وغير خائف ، وهو الذي قبض عليه لتهمة تستحق الموت ثم اطلقوه .

وكان خبره قد ملأ مأرب ، ونقل الناس ، بعضهم الى البعض الآخر ، ان هنالك فتى يمنياً آخر ارسلته براقش ليخون مليكه ، وستضرب عنقه .

وروي لشرحبيل ان الجنود قـــادوا ذلك الفتى الى البلاط ليرى الملك رأيه فيـــه ...

وماذا يرى الملك غير القتل ؟ اتراه يبتسم لليمني الخائن ويحسن اليه وهو الذي يمهد للحبشة سبل الاعتلاء على العرش ؟

لقد سمع شرحبيل باذنه ، ورأى بعينه ، كل ما جرى بين ذي القرنين وبين جرول واميناس ، قبل ان يفصل رأساهما ، فقام في ذهنه ، عندما خبروه حكاية الفتى الثالث ، انه قتل على الاثر بضربة سيف .

ولم يخطر له ان الملك استعان بدهائه وعفا عنه ليبلغ احدى غاياته .

فلما قيل له ان رجلا من براقش يستأذن عليك اقبل على قاعة الجلوس وهو يظن انه رسول الغوث بن راهط، واذن له.

وكان الفتى رابط الجأش فصيح اللسان ، مع كل ضعيف ، وجبانا ذليلا مع كل قوي ، وليس في مظهره ما يدل على ضعفه .

فدخل . . ثم انحنى مسلماً وهو ينظر كالخائف الى جانبيه ثم قال :

ارجو من مولاي الامير ان يغلق بابـه فالامر الذي قدمت من اجله يرافقه الموت . .

فنهض دون ان يجيب ، وتقدمه في دهليز طويل حتى وصل الى قاعة قائمـة بين حجرات بلقيس ففتح بابها وادخله اليها وهو يدعو ابنته .

وكانت بلقيس تحدث حبى بامر الهمداني وتسألها ان تصف لها من جديد حياته في قصر ذي القرنين .

فلما سمعت صوت ابيها خرجت من غرفتهـا فاذا هو امامها يومىء اليهـا بالصمت ويقول هامساً : ادخلي الى هذه القاعـة ففيها رسول اوفده الغوث بن راهط .

ــ امير براقش ؟

ــ اجل وقد شاء ان نكتم حديثه جميع من في القصر .

فدخلت وهي تقول : لعل الغوث اراد ان يخرج عن حيـاده فبعث باحـد اصحاب سره يستشيرك في هذا الامر .

ولكنها عندما اصبحت في الداخل ورأت تلك القامة القصيرة ، والضفائر

الرسالة الى الكاهنين ، تجهم وجهها وايقنت ان الرجل نذير سوء .
وجعلت تحدق اليه كما يحدق النمر الى فريسته ، فاصفر وجه الرجل وما لبث ان اخفى اصفراره وراء ابتسامة كاذبة شوهاء .
ثم قالت بلقيس وقد افتر ثغرها : ماذا يريــد الغوث بن راهط من شرحبيل بن عمرو؟
فالتفت الى الامير قائلا : لا اعلم من اخاطب يا مولاي .
قال : هي بلقيس بنت شرحبيل فقل ما تشاء ولا تخف .
فقال : ليس للغوث بن راهط شأن بما سأقول .
قالت : ومن ارسلك الينا ؟
ـ رجل هو اعظم من الغوث واشرف نسبا واعز مقاما من جميع الامراء ..
ـ اذن هو الملك .
ـ نعم ولكن ملك الحبشة لا ملك حمير .
فاشارت الى ابيها قائلة : سأتولى امر البحث مع الرجل ان شئت .
قال : افعلي .
فخفضت صوتها وهي تقول : اتعني العلي اسكندي لا سواه ؟
ـ اجل هو الذي اعنيه ، وقد ارسلني الى مأرب لأحادث الامــير شرحبيل ببعض الشؤون .
ـ ولكن ابي يقول انك من براقش .
ـ صدق يا مولاتي فانا منها ولكني غادرتها الىالحبشة وانا صغير السن وأقمت بلاط ملكها اخدم فيه رجلا من عظماء دولته .
فدب الريب في صدر بلقيس ونظرت الى والدها نظرة خفية ثم قالت :
ألم يجد العلي اسكندي في بلاطه رجلا غيرك يبعثه الينا وبلاطه يغص بالنبلاء والقواد والزعماء ؟
قال : بعث معي رجلا آخر هو ذلك النبيل الذي جعلني خادماً له .
ـ واين هو الآن ؟

ـ اختاره ذو القرنين لمهمة لن يعود منها .
قالت : ويلك اقتله ؟
ـ نعم ولو قتله لهـان الامر ولكنه قتل اخي معه وهم بقتلي لو لم اعمد الى الحيلة ...
ـ ومتى فعل ذلك ؟
ـ في هذا اليوم وقد ضربهما جلاده في ساحة القصر ؟
فقال شرحبيل : ما اسم اخيك ايها الرجل؟
ـ جرول .
واسم رفيقه اميناس أليس كذلك ؟
ـ نعم يا مولاي .
ـ اذن انت هو الفتى الذي قبضوا عليه عنـد حدوث القتل وذهبوا به الى الملك ...
ـ نعم يا مولاى .
فايقن كما ايقنت بلقيس ان في الامر حيلة ، فقال له :
لا تقص علينا اسباب القتل فقد شهدت مجلس الملك مع القتيلين وانا اعرف هذه الاسباب ولكن خبرني كيف نجوت من الملك قبل ان تذكر مهمتك .
ـ اقص حكايتي ثم افعل . ان ملك الحبشة يطمع في اليمن وهو يريـد ان يضمها الى ملكه بقوة السيف ، وقد اعد عدته وتهيأت الرجال للحرب .
ـ اعرف هذا .
ـ ولكنه لم يشأ ان يوجه الجيش قبل ان يضع يده بيد امير يمني له في اليمن الاتباع والانصار وتطيعه الرجال كما يطيعون ذا القرنين ، وهو يعلم يا مولاي ان امراء اليمن واصحاب المخاليف فريقان هذا ينتمي الى الملك وهذا يضمر لـه البغض فاستشار اصحاب سره ثم عهد الى احدهم امينـاس في ان يفضي برغبته الى الامير اليمني الذي اختاره ويحمل اليه جوابه .
ثم جاء امينا‌س لاجل هذه الغاية فخانه الحظ وانتهت مهمته بان ضربت عنقه

فهمرله ، وهو مولاك ، وخسرت اخاك .
فقالت بلقيس : ثم رأيت انت خدمـــة للعلي اسكندي ان تطلع شرحبيل بن عمرو على تلك الرسالة التي ذهب ضحيتها مولاك الحبشي .
ـ نعم يا مولاتي هذه هي غايتي وسأقوم بهذا الواجب حسبما يملي علي الوفاء ،
واشهد على مسمع الامير كلام ملك الحبشة لأميناس كلمة كلمة .
قالت : اما الآن فيجب ان نعلم كيف نجوت .
قال : خبرت الملك كل شيء دون ان اكـــذب ، ثم سألته والدموع في عيني ان يستبقيـــني لخدمته ، ويرسلني الى الحبشة احمـــل اليه من حين الى حين اسرار ملكها الطامع بالعرش الحميري ، فرضي ، واثبت رضاه بقبضة من الذهب هي هذا .
وارسل يده الى كمه فسمع للذهب رنين عذب .
ـ ولكنك اخطأت في مجيئك الساعة وكان عليك ان تصبر ريثما يسدل الليل حجابه ويستسلم اهل البلاط وحراس الملك وجواسيسه الى الكرى
ـ ان الملك لا يشك في يا مولاتي بعد الآن .
فقالت في نفسها : اما نحن فسنشك فيك ايها اللعين .
ثم ابتسمت ابتسامة خلابة وهي تقول : متى تعود الى الحبشة ؟
ـ اترك مدينة مأرب عند الصباح .
ـ ومن يضمن لنا انك صادق في قولك ؟
قال : رأس اخي الذي سقط في الساحة .
قالت : اصبت فحزنك عليه خير برهان .. ولكن الا تذكر لنـــا ما الذي دعاك الى خيانة قومك ؟
ـ ان قومي كما تعلمين لا يحبون ذا القرنين وانا قد نشأت في اليمن بعيداً عن الحبشة لا اعرف لي وطنا غير القصر الملوكي الذي ربيت فيه .
ـ وكيف عرف العلي اسكندي ان شرحبيل يبغض الملك ؟
ـ ان العلي اسكندي ورجاله يعرفون كل شيء .

فاستوت في مجلسها قائلة : أعد الآن ما قاله مولاك لأميناس .

ــ لقد اعدّ العلي اسكندي اربعين الفاً من رجاله يغزو بهم هذا القطر ويحطم عرش ذي القرنين ، ولكنه يريد قبل ان يفعل ، ان يسمع جواب الامير ويتبين استعداده للاتفاق معه .

قالت : اذكر شروط الاتفاق .

ــ يريد ان يكون له في اليمن انصار يحملون السيف ويكونون عونا لجيشه .

ــ وعددهم ؟

ــ عشرة آلاف .

فقالت لابيها : كم هو جيشك يا مولاي ؟

ــ عشرون الفا .

قالت : نعطي مولاك عشرين الفا من الرجال .. وبعد ذلك ؟

ــ تحطمون العرش تحت الاقدام ويتربع فيه مولاي شرحبيل ثم يجعله لابنائه من بعده فيعيد مجد جده يعفر .

وسكت قليلا ثم قال : والعلي اسكندي في مقتبل عمره يا مولاتي وهو يحب الجمال وقد وصف له جمال بلقيس الفتان وحسنها الذي ليس له مثيل في اليمن .

ــ وما معنى هذا ؟

ــ معناه انك ستكونين ملكة الحبشة ويكول لهذا البيت عرشان عرش ملوك حمير وعرش ملوك اكسوم .

ــ اسمعت العلي اسكندي يقول هذا ؟

ــ لا يا مولاتي بل خبرني اياه اميناس وطلب الي ان انقله اليك اذا هو لم ينج من ذي القرنين .

فخطر لها ان تسبر غروره الى النهاية فهامسته قائلة : اتقسم انك صادق فيما قلت ؟

ــ اقسم بجميع الآلهة .

ــ وتقسم انك ستغادر هذا البلد عند الصباح ؟

ــ نعم ...

ــ اذن اعدك باسم شرحبيل بن عمرو اننا سنكون من اخلص الناس للعلي اسكندي وسنعد له داخل جدران القصور عشرين الفاً يحملون السيوف .

ــ وانت ؟

ــ اما انا فسأكون عبدة له لا زوجة . .

فبرقت عيناه وجعل يقول: هنيئاً لشرحبيل بن عمرو فقد عصب رأسه بتاجين يطمع فيهما الفرس والروم .

ــ ولكن ابي كثير الظنون ايها الفتى .

ــ وما هي ظنونه ؟

ــ يخيل الي انه يفكر الآن في امرين اثنين ، احدهما انك خنت اليمن لتخدم العلي اسكندي ، ثم خطر تلك اليوم ان تخون الحبشة لتخدم ذا القرنين الا تفكر في هذا يا مولاي ؟

فقال شرحبيل : هذا ما خطر لي .

فاصفر وجه الفتى وتمتم قائلا : لو استطعت ان اضع خنجري في صدر ذي القرنين لفعلت الساعة ... انه قاتل اخي فلا اخدمه وسأطلب بدم جرول ولا ارجع حتى اجعله صريعاً بين يدي وانقذ اليمن من جوره وظلمه .

قالت : مهلا فسيتولى العلي اسكندي امر قتله عنك .

ــ اجل ولكنه لا يموت الا من يدي وسأقضي حياتي جاثياً عند عرشك يا ابنة جهيل بن يعفر .

وحاول ان يرخي العنان لفصاحته ويستهوي قلب بلقيس .

فاسكتته قائلة : اذا كان هذا فانا اقترح عليك اقتراحاً .

ــ ما هو يا مولاتي ؟

ــ هو ان تبقى الليلة في هذا القصر .

ــ وماذا اصنع فيه ؟

ـ تنام كما ينام جميع الناس ثم تنهض قبل ان يبزغ الفجر فتسير بين رجلين من رجال شرحبيل في الطريق الذي يسيران فيه حتى تجاوزوا حدود اليمن .

ـ وما هو القصد من هذا ؟

ـ القصد منه ان لا يكون ابي آخر رجل تخونه .

ـ اني لا افهم يا مولاتي ما تقولين .

ـ بل تفهم كما يفهم الفتيان اصحاب الحيلة والدهاء .. ومع ذلك فانا اذكر لك مخاوفي ومخاوف ابي والشك الذي تغلل في الصدرين .. اننا نخشى ان تنصرف الساعة من هـذا القصر لتدخل بلاط الملك وتقص عليه مـا جرى بينك وبين شرحبيل بن عمرو .

قال : ثقي يا مولاتي بان الموت اهون علي من رؤيته .

ـ اذن تقضي هذا الليل عندنا ثم ترحل غداً كما قلت .

ـ ولكني اريد ان ارحل في هذا الليل نفسه .

ـ وانا اريد ان يسير معك الرجلان اللذان ذكرت .

فثبت للفتى ان بلقيس ادهى منه ومن الملك ، فقال : ارجو من مولاتي ان تأذن لي في الانصراف وان تنسى مجيئي الى هذا القصر باسم العلي اسكندي .

فضحكت ضحكة القوي يهزأ بالضعيف ونهضت ففتحت باب القاعة ونادت وصيفتها حبى قائلة لها :

قولي لذي مغار ان يحضر الآن مع ولده غالب وابن عمه ياسر والهدهاد .

ثم رجعت وهي تقول : في القصر ضيوف نريد ان نستشيرهم في امرك وامر مولاك الحبشي .

قال : لا تبوحي بسري يا مولاتي فذو القرنين لا يعفو .

قالت : وهل تظن اننا نسمع من فمك حكاية الخيانة ونسكت ..؟ ان ابن يعفر لا يبيع وطنه ولم تكن العداوة بينه وبين ذي القرنين الا لاجل هذا الوطن . لقد كذبت ظنون الملك عندما ارسلك الى هـذا القصر تنصب لصاحبه شركاً ، وكان عليه ان يعلم ان اليمن لنا مثلما هي له واننا نفدي العرش الحميري بالدم والمال

وان كنا خصوماً للجالس عليه .

فحاول ان يدافع لأمرته بالسكوت وحولت وجهها الى الباب قائلة لاخيها والصيالها الذين اقبلوا : ارجو ان تسمعوا ما ارويه لكم عن هـذا الجبان النذل الذي اراد ان يضرم النار بيننا وبين الملك .

فقال ذو مغار : من هو هذا ؟

ــ الم يقص عليك ابي خبر جرول الذي قتل اليوم ؟ . انه اخوه وقد اختاره ذو القرنين ليحدثنا بامر تسليم اليمن الى ملك الحبشة ونعاهده على الخيانة .

قال : لعله الفتى الذي قبض عليه وحمل الى الملك ؟

ــ اجل ، وقد رأيت ان نقبض عليه من جديد ونرسله الى الملك نفسه .

فاطرق مليا ثم قال : مسكين هذا الملك فقد حسب اننا اذا ابغضناه ابغضنا اليمن ...

ثم دنا منه وهو يقول : اتكون من براقش وتفعل هذا ؟ ويلك الا تخـاف الغوث بن راهط الذي لا يطيق ان يذكر له ذو القرنين ؟

فاستولى على الفتى الرعب وجعل يقول : لا تظلموني فانا بريء وانا خـادم امهناس وقد ارسلنا العلي اسكندي لهذه الغاية .

ــ اذن ليس من العدل ان يموت اميناس وتبقى .

وعمدوا الى السلاسل فقيدوه وهو يصيح ويستغيث وهم لا يبالون .

ثم هامست بلقيس اباها فخرج ودعا عبدين من عبيد القصر فحمـلا وراءه ذلك المسكين وانصرفوا جميعاً الى البلاط

وكان الليل قد ارخى سدوله عندما امسى شرحبيل واسيره في مجلس الملك.

* * *

كان صاحب همدان جالسا بالقرب من الملك وحاشد ينادم مليكه ويسقيه ، كأن السوط الملوث بدم القتيلين لم يكن سوطه ..

وعندما وقعت عين الملك على شرحبيل وابصر غلمان البلاط يدفعون اسيره ثبت له ان شرحبيل لم يقع في الشرك الذي نصبه له .

ولم يتردد في الابتسام كأنه ذاهل عن كل ما جرى .

وعرف امير همدان صاحبه القصير القامة فتحير في امره وجعل ينظر الى الملك وهو ساكت .

اما شرحبيل فانحنى وهم بالكلام ، فسبقه الداهية قائلا له :

أهذا اسيرك ام اسير الجند ؟

ـــ اسيري يا مولاي .

فقطب حاجبيه وقال : اليس هو الرجل الذي عفونا عنه صباح اليوم ؟

ـــ جئت اسألك عن ذلك يا مولاي .

وكان الاثنان يتحفظان في مظهريهما كأنهما يتسابقان في ميدان الدهاء .

فقال الملك : لقد اعترف هذا الرجل بانه رسول الحبشة مع مولاه اميناس الذي امرنا بقتله ، وكانت غايته وغاية مولاه نشر مذهب جديد ونفخ روح الثورة في صدور القوم .

ـــ وماذا فعل الملك بعد اعترافه ؟

ـــ عفونا عنه ليعود الى الحبشة ويقرأ اسرار ملكها ثم ينقل الينا هذه الاسرار ...

ونظر الى الاسير نظرة هائلة يدعوه بها الى الصمت .

فرأى شرحبيل نظرته وكأنه لم يرها ثم قال : لقد تعجل الملك في عفوه فالفتى لا يضمر الاخلاص والوفاء للعرش .

فرفع صوته قائلا : اواثق انت بهذا ؟

ـــ نعم يا مولاي لقد سألني ان ابيع اليمن للعلي اسكندي واخون مليكي .

فاوحى الدهاء الى الملك بان يقف عند هذا الحد لئلا يفضحه الاخذ والرد ، فنادى حاشداً وخاطبه بصوت لا يسمعه القوم فلم يلبث حتى خرج من القاعة ثم رجع بعد قليل يتقدمه رئيس الحرس .

وما ذو القرنين الى الاسير وهو يقول : هذا هو .
ولن الفتى انها احدى حيل الملك ، فراح يجر سلاسله وهو مطمئن القلب .
ولكنه لم يجاوز الباب الخارجي حتى ضربت عنقه دون ان يقول كلمة .
وكان منكود الحظ ، وتلك هي نهـاية كل خائن ، وكان الملك داهيـة في
الدهاء ...
ثم عاد مع رئيس الحرس يقول : لقد تم الامر كما اراد مولاي .
قال : امرناك بان تحمل الينا رأسه فاين هو ؟
— بين يدي الحراس ..
— مرهم بان يدفعوه الى ابن عمنا ليرفعه على رأس احدى الحراب في فناء
القصر ...
فقـال الامير ليس لي حاجـة اليه يا مولاي فحسبي اني اثبت للملك اني لا
اخونه ...
قال : انه برهان لا ننساه ولا نستطيع الا ان نجزيك على وفائك ... فاعطه
يا ماشد سيفاً من سيوف جدنا حمير .
والتفت الى الهمداني قائلا : أرأيت اغرب من هذا يا ذا تبع ؟ نعفو عن الخائن
ونطلقه فيعمد الى مكافأة هذا العفو بالسعي لتحطيم العرش ؟ انها حال لا ترضاها
الملوك وسنبحث عن الخونة في جميع انحاء اليمن فنضرب اعناقهم على مرأى ومسمع
من الامراء فتعلم الجميع ان الملك لا يغمض عينيه الى الابد .
فأجـابه ذو تبع : رأيت هـذا الفتى اليوم خارجاً من الرواق وهو يبتسم
للامير ...
بل كان يبتسم لفكرة الخيانة التي تأصلت في صدره وكان يظن انه عبث
بالملك وهزأ به .. ماذا تريد غير ذلك يا شرحبيل ؟
— لا اريد غير رضاك يا مولاي .
— اما نحن فراضون وانت قد رضيت الان أليس كذلك ؟
— اجل ارضى ان يموت جميع الذين يخونون للعرش .

ونهض يستأذن في الخروج فصرفه باشارة منه وعندما امسى في الرواق قال للذي تبع :
اذا رأيت ان تتبعه وتعرف ما يحدث به اهل بيته فقد خدمت الملك .
فأجابه دون ان يتردد : اما ان اتبعه يا مولاي فليس هنالك مـا يمنعني من ذلك ، واما ان اعرف ما يحادث به قومه فذلك ما لا استطيعه .
ـ لماذا ؟
ـ لاني لست من اهله ليحدثني بما يطيب له ، ولاني لم اكن قط من اصدقائه ليبوح لي باسراره .
وهم بان يقول : وامير همدان اعظم من ان يكون جاسوساً لاحد ؛
غير ان الملك اسكته بقوله : اما الملك فلا يجد ما يمنعـه من ان يبوح لك باسراره ... ان شرحبيل يلبس ثوب المخلصين للعرش ولكنه عدوه .
ـ انه ابن عمك يا مولاي .
ـ اجل ولو لم يكن ابن عمنا لما قام الطمع في صدره .
ـ وفي اي شيء يطمع يا مولاي ؟
ـ يريد ان ينتزع الصولجان من يدنا ليجعله في يده .
فذعر قائلا : لو خبرني اعظم الامراء ما تقصه علي الآن يا مولاي لما صدقته. من نقل الى الملك هذه الحكاية ؟
ـ نقلها الينـا بعضهم ورأى الملك في عيني شرحبيل مـا لا يستطيع سواه ان يراه .
قال : أيأذن لي مولاي في ان اقول ما اثق به ؟
ـ قل ..
ـ اكان الذين وشوا بشرحبيل من اهل بيته ام من اين ؟
ـ بل هم من رجال البلاط .
قال : يخشى هؤلاء ان يقرب الملك شرحبيل اليه فيضيع نفوذهم في القوم .
ـ اذن كذبوا فيما نقلوه ؟

ـ هذا ما اظنه يا مولاي اذ لا يقدر احد منهم ان يثبت الطمع الذي ذكرت.

ـ ولكنهم يستطيعون ان يثبتوا بغضـــه على الاقل كما اثبتـــه الملك بنفسه ولمسه بيده .

فعرف الفتى انه يريد ان يذكر حادثته مع شرحبيل بشأن بلقيس فقال :

وكيف كان ذلك يا مولاي ؟

قال : اشرحبيل فتاة هي احسن فتيات اليمن واجملهن وجها ..

ـ نعم .

ولقد وصفت هذه الفتاة للملك فارادها لنفسه وطلبها من ابن عمه ، أفتعلم ماذا كان جوابه ؟

ـ اجل فقد تحدث بهذا الجواب رجال البلاط لانه لم يكن سرا مـــن اسرار الملك ولم يهامس به شرحبيل يا مولاي بل سألته ذلك على مسمع من رجالك .

ـ الآن ماذا يستحق اليمني الذي يبخل بابنته على مولاه ؟

فاستيقظت عاطفة الحب في صدر الهمداني وعول على الدفاع ، ولكنه رأى الموقف صعبا فتردد في دفاعه ولم يشأ ان يتصدى للملك القاسي في عزته وكبريائه.

فارخى نظره الى الارض وآثر الصمت على الكلام .

فاعاد الملك قوله : ماذا يستحق يا ذا تبع ؟

قال : لو فعلها غير شرحبيل يا مولاي لاستحق الموت ، ولكنه من ســلالة يعتز له في اليمن المقام الاول بعد الملك وولي عهده فارى ان تجفوه يا مولاي وتمنع عنه احسانك وهذا يكفيه .

قال : ان في هذا القول دفاعاً عن شرحبيل .

ـ لا يا مولاي ولكنه تذكير للملك ليصون حرمة الاشراف ويعذر ابن عمه فيما صنع عن خطأ وجهل .

ـ لم يكن ما صنعه جهلا بل هو الغرور .. أتراه كان يدافع عن شرفه عندما رفض ان يقيم بالبلاط مع اشراف القوم ؟

قال : لعله يعلم ان هؤلاء الاشراف خدم له .

قال : حسبك فهذا دفاع ونحن لا نريده .
قال ؟ هب انه عدو الملك كما قلت ، افلم يكن موقفه الليلة مع هذا اليمني الخائن موقف وفاء واخلاص لمليكه وقومه ؟
فظهرت على شفتي ذي القرنين تلك الابتسامة الصفراء وجعل يقول :
نعم ، انه موقف اخلاص ووفاء .. ولكنك لو علمت اي داهية هو شرحبيل لتناولت سيفك الساعة ولحقت بـه قبل ان يصل الى قصره وفصلت رأسه عن جسده .. قم فانصرف .. انك فتى لا تعرف من دنياك غير الصيد في الاودية وعلى رؤوس الجبال . ولكن اذكر قبل ان تخرج ان حديثنا هذا سر من اسرارنا لم نبح به لاحد قبل الآن وانك تستحق اذا فشيته غضب مولاك .
ــ اي سر تعني يا مولاي ؟ ان حديثك الاول مع شرحبيل يعرفه البلاط كله. واهل البلاط كلهم وانا منهم يعلمون انك لا تحب ابن عمك ولا تطيق ان تراه . لقد نسيت يا مولاي اني كنت في مجلسك يوم سألت شرحبيل ان يهب لك ابنته كما نسيت ان ذلك المجلس كان غاصاً بالنبلاء وان هذا الذي تسميه سراً كـان حديث القوم وقد رددته افواه النساء والرجال في هذا القصر .
ــ ومع ذلك يجب ان تتناسى ما قلناه الآن ، ولا تقل لاحد اننا حدثناك به .
قال : اذكر يا مولاي ان بيننا رجلا ثالثاً هو هذا .
واشار الى حاشد .
قال : اما هذا ففي صدره جميع اسرار الملك وهو لا يعرف ان يبوح بواحد منها ...
وأومأ الى حـاشد بان يسقيه وحول وجهه عن الامير الفتى كأنه يطرده من مجلسه . .
فنهض ذو تبع وهو يقول : أأنصرف يا مولاي ؟
ــ اجل ، ولا تعد الينا الا اذا دعوناك ..
فكره الفتى ان يخرج ذليلا على ما رأيت ، فقال وصوته يرتجف :
أيخرج ذو تبع من مجلس الملك مغضوباً عليه ؟

قال : يغضب الملك على كل من ينتصر لشرحبيل ويستحسن عمله . . . فاذا اردت ان نرضى فاستقبح ما يستقبحه مولاك واستحسن ما يستحسنه .

ثم قال والحدة تبدو في قوله : انك ترى شرحبيل اليوم في قصره الذي يشبه قصر الملك تكتنفه العظمة ويحيط به العز ، ولكنك ستراه بعد قليل ذليلا عندقدمي الملك يسأله الرفق به ، ومهشم الكرامة يطلب الى مولاه ان ينقذه من العـــار . . وعندئذ تتخلى انت ويتخلى انصاره عنه وتعلم مأرب ومن ورائها اليمن كلها ان ضليل يعفر لم يكن الا جبانا لا حول له ولا قوة .

وتمادى في حدته قائلا : لقد ظن النذل ان وجود بلقيس بـــين حظايا الملك خرق لحرمته وهذا معناه انه يعد نفسه كفؤاً لنا في كل شيء .. الا فليعلم ان هذا الشرف الذي يزعمه سيداس بالنعال وانبلقيس التي هي في نظره شيدة نساء اليمن ستصبح اذل وصائف البلاط ويمسي شرفها مضغة في الافواه .

ثم خرج عن حده فقال : يطمع هذا اللعين في ان يزف ابنتـــه الى ولي العهد لتستوي في عرش حمير بعد موت ذي القرنين وتعبث ويعبث ابوها واخوها بالملك كما يملي عليهم الهوى . ولكن فاته ان الملك حي وانه يسلب ولده ولاية العهد اذا اصبحت بلقيس زوجة له . نعم . لم يكن العرش مقعدا يتربع فيـــه الانذال مثل شرحبيل ، ولم تكن بلقيس اهلا لهذا الشرف الذي تطمع فيه .

فرأى الفتى ان يعود الى الجلوس لئلا تفضحه ركبتاه المرتجفتان وخطر له ان يغتنم الفرصةفيقرأ من وراء حدةالملك جميع اسرار نفسه ، فقال وهويتكلفالهدوء :

اذن فماذا يصنع ذو تبع في بـــلاط الملك ؟ خير له ان يعود الى بلاد قومـــه فيعيش في همدان هادئا بعيدا عن مأرب من ان يكون قريبا من مولاه وهو غير راض عنه . اتتهمني بالانتصار لعدوك يا مولاي ؟

قالها وفي لهجته دالة وعتب لاعتقاده ان الملك لا يمضي في غضبه الى النهاية . وقد احسن فـــيا صنع ، فان الملك ابتسم له بعد حدته وشرب كأسه وهو يقول :

لقد كرهنا ان تغرك المظاهر فاردنا ان نطلعك على كل شيء لتكون شريكاً

لمولاك في حبه وبغضه .. لا بل كرهنا ان تنتصر لرجل ان لم يمت اليوم مات غداً من يد الملك نفسه .

فقال وقد كاد ينسى هدوءه : اتقتل ابن يعفر ؟

قال : لو كان جدنا يعفر حياً وفعل مثلما يفعل حفيده ابن عمرو لقتلنـــاه ولم نبال أفيطيق ملك حمير ان يكون في مأرب ملك آخر يهزأ بما يطلب منه ولا يعبأ به . ايظن هذا المغرور ان ذا القرنين يسكت عن الاهانة التي وجهت اليه ،ويمسح الدماء التي سالت من جرحه دون ان يحدث في صدر ضاربه جرحاً لا يزول اثره؟ اما والذي نفس الملك في يده لأجعلن شرحبيل مظهراً بليغاً من مظاهر الذل بين العرب واكرهه على غمس يده بدمه ودماء ولديه قبل ان يلفظ الروح ...

فقال وهو يضطرب : وتقتل ولديه يا مولاي ؟

فجرع كأساً اخرى وهو يقول : بل اقتل عبيده وغلمانه وجواريه لا اترك واحداً منهم حتى يضمحل ويتـــلاشى ذكر آل شرحبيل من اليمن وحتى يظن الناس انهم لم يكونوا ..

فقال وقد ظهر اضطرابه : اكاد لا اصدق ما يقوله مولاي الملك .

ـ ولكنك ستصدق غداً عندما ترى بلقيس حظية لنا تروح وتجيء في اروقة هذا القصر ، وعندما تراها بعد حين في صف الوصائف اللواتي نزلن عن مقامهن، ويوم نجعلها بين الجواري اللواتي يخدمن اهل البلاط .

فتميز الفتى غيظاً ، واضحت عيناه شرارتين من نار .

وقبل ان يثور ثورته الهائلة ، قهقه الملك ضاحكاً وافرغ كأسه في جوفه ثم مد يده الى حاشد ليصب له الخمر قائلا للامير :

لقد هزأنا بك يا ذا تبع ساعة طويلة وانت لا تشعر .. ايقوم في ذهنك ان الملك يقتل ابن عمه ويستبيح عرضه فيقوض بيده اركان ملكه ؟ انك اذن ابـــله ولست اهلا لتجالس الملوك .. اسقنا يا حاشد من خمرك الطيبة وقص علينا مـــا تحفظه عن اجدادك الذين كانوا ندماء الملوك ولينصرف ذو تبع فنحن لا نحتاج الآن الا الى من يشرب معنا من الرجال .. قم يا ذا تبع وارسل الينا عتيك بن روضة

الذي يشرب وهو ساكت .
واضطجع كما يضطجع السكران وقد اغمض عينيه .
فلم يجد الامير بدأ من الذهاب ، وهو مستاء ثائر النفس لما سمعه من وعيد وتهديد .
وقد احس ان حجابا وضع بينه وبين ذي القرنين ، وان ذلك الاخلاص الذي آنسه في صدره امسى احتقاراً فيه شيء من البغض .
وكيف يستطيع وهو العزيز الابي ، ان يصبر على الاذى ويغض طرفه عن موقف الملك السافل مع آل شرحبيل ؟
وماذا يصنع بغرامه الجديد ؟ وكيف ان يرى الفتاة الحسناء التي احبها جارية في قصر الملك يدوس شرفها من يشاء .
ان ذا القرنين ، في ذلك المظهر الذي رآه ، يحفر قبره بيده ، ويجعل انصاره والمخلصين له خصوماً للعرش وهو لا يبالي .
وكان ماشيا وهو يفكر في هذا حتى جاوز الرواق ، ثم خرج الى الساحة كأن قوة تدفعه الى الخروج بدون علم منه .
وفي ذلك الظلام ، والجو صاف والطبيعة هادئة. ذكر وعده بالرجوع الى قصر شرحبيل ، فمشى اليه دون ان يتردد ، وعاطفته الصادقة وحبه الجديد يبسمان على جبينه الوضاح .
ولو التفت الى الوراء لرأى شبحاً يتبعه بخطى هادئة وعينان تلمعان في ذلك الليل كعيني الذئب .
وكان ذلك الشبح نديم الملك وساقيه .

***

مرت لحظة كان الملك فيها يملأ قدحه بنفسه ريثما يعود نديمه فلما اقبل سأله قائلا : ألم يكن الملك صادقا في ظنونه ؟

ـ بلى يا مولاي فقد خرج الامير من البلاط قاصـــدا قصر شرحبيل لا يلوي على شيء .

ـ ونسي اننا امرناه بان يدعو عتيك بن روضة .

ـ بل نسي نفسه ويخيل الي ان بينه وبين ابن عمك عهداً .

قال : يكفي انه كان من المنتصرين له دون ان يعبأ بالملك . ايعاهد الخائن عدونا ويقيم بقصرنا ونحن نفتح له القلوب ونبوح له بالاسرار ؟

ـ لقد عرفت انه من الخونة يوم تصدى لولي العهد في شأنه الخاص .

ـ اما نحن فلم نعلم شيئاً من هذا الا في هـــذه الساعة . لقد رأينا الغضب على وجهه عندما ذكرنا له شرحبيل وبلقيس وكدنا نلمس اضطرابه وامتعاضه الظاهرين في حديثه . ولو لم نعمد الى اللين ونغير لهجتنا الحادة لوقف اللعين موقف عداء وانتهى الامر بالالتجاء الى السوط ثم الى السيف . ولكن اتراه شعر بان الملـــك كان جاداً في قوله ؟ نعم ، ولو لم يشعر بذلك لما غضب ولما ارتجفت ركبتاه . . اسمع يا حاشد ، ان الملك لا يريد ان يخرج الفتى اليوم عن حـــده وان ينظر الى مولاه نظره الى عدو له ، بل يريد ان يفهم ان مظهر الملك كان مظهر مزاح وان شرحبيل ووالديه اعز الناس عليه .

واطرق يتفرس في كأسه التي صفت خمرها ويتنهد كالرجل الضعيف تنهك الشدائد قواه وتذهب ببصره .

ثم رفع نظره وقال : الا تستطيع يا حاشد ان ترسل احـــد عبيد البلاط الى قصر شرحبيل ؟

ـ وماذا يصنع فيه يا مولاي ؟

ـ يرى حبيبي وينقل اليها ارادة الملك .

قال : اليس هنالك ما يمنعه من الوصول اليها ؟

ـ اجل ولكن لا نريد ان تبصره عيون شرحبيل والهمداني فانهما اذا ابصراه عرفا غايته

ـ نوصيه بان يقف بالباب ثم يرسل احد الغلمان فيدعوها اليه .

- ومن يوصي ذلك الغلام بالكتمان ؟

قال : اظن انه ينصرف فيدعوها دون ان يخطر له في الامر سر من اسرار الملك . .

فقال : ادعه الساعة ... ثم استوقفه قائلا :

بل تذهب انت فتقول له ان الملك يريد ان تسمع حبـى حديث صاحب همدان مع شرحبيل وآل بيته ثم تنقل ذلك الحديث اليه ، لينصرف في هذه اللحظة والويل له ولقومه اذا عرف احد مهمته . .

فخرج حاشد ولم يلبث حتى عاد قائلا :

لقد ذهب الرجل وسيعود بعد قليل .

- واوصيته بما ذكرت ؟

- نعم يا مولاي وسيبلغ امر الملك حبى دون ان يشعر به اهل القصر .

قال : اذا قامت حبى بما نأمرها به عرفنا كل شيء وانصرفنا الى اعداد العدة للقضاء على الاثنين . . اسقنا يا حاشد فقد طابت لنا الخمر الليلة وسنعود غـداً ، عندما تأتي حبى الى النظر في هذا الشأن .

وبات يشرب وهو لا يرتوي حتى نام كل من في الباط ما عدا الغلمان .

* * *

لقد صدق امير همدان في تلك الليـلة ، كل ما ذكره له ذو مغار عن قسوة الملك وجفائه .

ووثق بان اخلاصه له سيضمحل ، وانه لا يستطيع ان يبقي ذلك الاخلاص في صدره الى النهاية .

ان بلقيس في نظره تساوي اليمن كلها بما فيهـا من سهل وجبل ، والعرش والتاج ، والنفوذ ، والمال ، اعراض لا يعبأ بها اذا سلبته اياها الإقدار .

فكيف يستطيـع ان يكون مخلصاً للملك والملك كالنمر القـاسي لا يشبع

جوفه من فريسة له الا ليضع مخالبه على عنق فريسة اخرى يشرب من دمهـا ثم يقذف بجسدها الى الذئاب الخاطفة الجائعة تمزقه وتجعل اشلاءه طعاماً لكل نهاش ؟..

بل كيف يستطيع ان ينظر اليه وهو الطامع ببلقيس يريد ان يقتل شرفهـا ويلوث عرضها ثم يجعلها بين جواريه ؟

لا .. لقد جرت يا ذا القرنين وجفوت .. ومددت يدك الى القلوب الخافقة تسكتهـا ... والاصوات الحرة ، تخنقها ، والعاطفة الصادقة تخمـد نارها لتكون القلوب والاصوات والعاطفة قرباناً على مذبح ظلمك ، وبخوراً يحرق عند قدميك ..

لقد جرت يا ذا القرنين وجفوت .. وقام في ذهنك ان الشعب اليمني خلقته الآلهة ليكون عبـداً لاغراضك ... تذل قومك لتعز .. وتسلبهم مالهم ليكثر مالك ، وتقتلهم لتعيش .. ثم تسألهم بعد ذلك ان يهبوا لك نساءهم واعراضهم وارواحهم دون ان يسألوك عن شيء .

اجل : لقد رأيت بين رجالك من لا يعرف الشرف وليس له حرمة،ولكن اعلم ان صاحب همـدان الفتى غير من عرفت ، وان اليد التي تمدها الى بلقيس يقطعها بسيفه ولو كانت وراءها حراب الجنود وسيوف القواد .

وكان قـد وصل الى باب القصر وهو يخاطب نفسه بما قرأت ، فلما دخل ذكر حبه المبرح الذي يخفق له القلب ، وجعل يخاطب تلك النفس بلغة الغرام .

***

ان عبداً من عبد الملك يطلب ان يراك الساعة .

فقالت حبى للغلام : دعه يدخل فانا انتظر امر الملك .

ـ ولكنه لا يريد الدخول بل يريد ان تخرجي الى الفناء فيراك فيه .

فمشت وراءه دون ان تتردد ، وهي تعلم ان الملك لا يلجأ الى مثل هذا الطلب الا لأمر .

وكان العبد في الفناء ، فلما اقبلت هامسها قائلا :
لقد دخل ذو تبع قصر شرحبيل منذ لحظة .
وكانت تجهل ذلك ، فقالت : واى شأن لي بدخوله ؟
- يريد الملك ان تصغي الى كل كلمة يقولها لاهل القصر الليلة .
- وبعد ذلك ؟
- ثم تنقلين اليه حديثه معهم غدا عند الصباح .
فقالت في نفسها : لقد تعكر الجو بين الاثنين . ثم قالت له :
أتعرف لهذا سبباً ؟
- لا اعرف الا ان اقول ما امرت بقوله .
وهم بالرجوع ، فاستوقفته وهي تقول : ومن امرك به ؟
- الملك نفسه ... ثم خاف عاقبة كذبه فقال : لا . امرني به حاشد باسم الملك .
فحولت وجهها عنه وانصرفت الى حجرة بلقيس .
وكان شرحبيل قد دعا بلقيس اليـــه وهي تتهيأ للذهاب الى مجلسه فقالت عبس :
لقد اقبل ذو تبع يا مولاتي .
فاجابتها وهي لا تبالي : أقدم الآن ؟
- نعم .
- واين هو ؟
- في مجلس مولاي شرحبيل على ما اظن .
قالت : ايدخل القصر يا حبى وانت لا تعلمين اين هو ؟
- لا يا مولاتي فانا لم اره ولكن خبرني بدخوله عبد من عبيـــد ذي القرنين وامرني باسم مولاه بان احفظ كل كلمة يقولها لك ولمولاي الامير .
فابتسمت قائلة : لقد دبّ الشك في صدر الملك فجعل عيونـــه على الفتى الملاصق له ..

ـ اما انا فاظن ان امرا حدث بين الاثنين .

ـ سنعلم ما نريد ان نعلمه بعد ساعة .. لقد رجـــع ابي من البلاط وانا لم اره وقد تكون هنالك امور تشغل بال الملك وتخلق الريب في نفسه .

وقامت ، فمشت بخطى هادئة وامام عينها صورة امير همـــدان حتى دخلت قاعة الجلوس فتلاقى النظران واهتز القلبان .

***

كان الرجلان يتحدثان بامر ذلك البراقشي ، اخي جرول، الذي قتله الملك .

وكان شرحبيل يقول : لقد اعطاه ملء راحته ذهبا ثم استعاد ذهبه بعد ان صيره جثة خرساء .

اما الهمداني فكان يقول : اذن تظن ان الملك بعث به اليك .

ـ نعم فهذه هي حيلة ولا يجسر احد على الدخول الى هذا القصر داعيـــا صاحبه الى خيانة وطنه الا بامر ذي القرنين .

وسكت الاثنان عندما اقبلت ، ثم اقبل بعدها الهدهـــاد وضيوف القصر ذو مغار ومن معه ، فصافحوا جميعهم الفتى وجلسوا يصغون الى ذي مغار وهو يقول له والابتسامة على شفتيه :

لقد شهدت مقتل ثلاثة رجال في يوم واحد يا ذا تبع .

ـ اجل ايها الامير وهم يستحقون القتل .

ـ ولكن مولاك يجود به على من لا يستحقه عندما يشاء .

قال : اتريد ان يشعل اميناس نار الفتنـــة في اليمن ثم تبدو مهمتـــه للملك ويسكت عنه ؟ ام تريد ان يفتح ذراعيه لكل حبشي يفسد قومه ويمهد له الاسباب لنيل غرضه ؟

ـ بل اريد ان لا يوغر صدر الملك الحبشي بقتله رجاله لئلا يرى بعد قليل جيوش الحبشة تملأ بلاده وتفتك بنسائه واطفاله .

ـ اذن كان عليه ان يعفو ..

ـ اجل وذلك لمصلحة الملك الجالس على عرشه ، افلا يعلم ان الحبشة ستطالب بدم ابنائها في الميادين وان اليمن التي يهددها الفاتحون احوج الى السلام منها الى الحرب ؟ افلم يكن يستطيع ان يكتفي بطرد اميناس من بلاده فيبلغ بذلك غايته التي هي ابعاد كل حبشي .

قال : كان العلي اسكندي يتهيأ للحرب قبل ان يفكر في ارسال الرجال الى هذا القطر .

ـ اذا كان هذا فقد اخطأ ذو القرنين بتقريب يومها .

فقال شرحبيل : ايطيق صاحبك ان يحارب الحبشة والفرس في وقت واحد.

ـ لا اظنه قادراً على هذا .

ـ ومن قال له ان سابور لا يدعو جنوده ويقودهم الى اليمن غازياً ومدمراً كما فعل في الاقاليم التي هاجمتها خيله ؟

ـ واذا فعل هذا يا مولاي ؟

ـ اذا فعله عجز عن ان يثبت في وجه الاثنين وضاعت اليمن .

ـ وكيف يستطيع ان يمنع الملكين من الحرب ؟

ـ ليس له ان يمنعهما بل كان قادراً على ان يستعين بالحبشة ليرد سابور ثم يفعل بعد ذلك ما يطيب له .

ـ ولكن العلي اسكندي لا يضع يده بيد ذي القرنين وهو اقرب الى الاتفاق مع الفرس .

وكان يدافع عن مولاه والابتسامة على شفتيه .

فعرفت بلقيس ان ادب نفسه يملي عليه ذلك الدفاع ، فقالت له :

اي واحدمن الرجلين احب اليك ايها الامير ؟ الملك الذي ينفر قومه ويسومهم الهوان والذل ام الملك الذي يبسط فوقهم ظل عدله ؟

ـ هذا احب الي من الاول .

ـ اذن اسألك سؤالا ارجو ان تجيبني عنه .

فرأى الفتى الكآبة في عيني بلقيس ، فخفق فؤاده واجابها قائلا :

مري يا سيدتي بما تشائين .

قالت : اتستطيـع ان تدلني على مظهر واحـد من مظاهر عدل مولاك في اليمن ؟..

قال : نعم ادلك على الامن الذي تخفق الويته في السهول والجبال .

ــ تلك الوية الارهاب والظلم ينشرها سوط الملك وسيفه وقساوته وجوره وتصبغها الدماء البريئة التي تسفح في ساحات البلاط .

ــ اذن ادلك على السعة التي تمد رواقها على الشعب اليمني .

ــ ذلك نشاط الفلاح الذي يستثمر ارضـه ، والتاجر الذي يجوب الاقطار ليبيع سلعته ويرحل الى الحبشة حاملا اشياءه .

ــ ولكن اذكر ان ابواب الحبشة اغلقت في وجهه بفضل اميـنـاس الذي ضربت عنقه اليوم .

قال : يخيل الي انك ستغلقين في وجهي جميع ابواب الدفاع كما اغلقت الحبشة ابوابها في وجوه اهل اليمن.

ــ اجل ايها الامير ، وهل تعرف لماذا ؟

ــ لا .

ــ لانك تحاول ان تجعل الاسود ابيض وهذا صعب .

ثم قالت : دعني اصف لك عدل الملك وادلك عليه ، انظر الى الامراء في المخاليف ايجسر احدهم عن ان يرفع صوتـه بطلب او مظلمـة او رجاء ؟ ايجسر احدهم على الالتماس منه ان ينزل عن درهم واحد من مال الخراج في اعوام الضيق ، أرأيت في اليمن كلها اميراً يستطيع ان يحجب ابنته عن عيني الملك اذ كانت على شيء من الجمال ؟ اتراه ينسى هواه مرة واحدة فكيف عن طلب الحسان من قومه وهن بنات العز والشرف والجاه ؟ اتراه يصغي الى استغاثة المظلوم ونداء الضعيف واستعطاف المعوزين ؟ ان هذه المظاهر كلها مظاهر عدل كما رأيت فدافـع من مولاك ايها الامير ما طاب لك الدفاع وكن له عونا على تنفير الرجال الامنـاء وابعاد المخلصين .

قال : انها لهجة عداوة واسمعها من آل شرحبيل بن عمرو .

ـ وانت تعلم من قبل ان شرحبيل عدو الملك فكيف رضيت بان تدخل قصره وهو كما علمت .

قال : ارجو ان اعرف الآن يا سيدتي اسباب هذه العداوة .

ـ انها اسباب تتعلق بالشرف وقد ذكرتها انت نفسك لذي مغار .

ـ ولكن هنالك اسباباً اخرى كنت اجهلها قبل هذه الليلة .

ـ اذكرها الساعة .

ـ يقولون ان الامير شرجبيل يريد ان يخلـع ابن عمه عن العرش ليتربـع هو فيه ...

ـ وغير ذلك ؟

ـ وان تظاهره بالاخلاص للملك تصنع ورياء .

ـ ثم ماذا ؟

ـ وانه يعد العدة من وراء الستار حتى اذا استقامت له ارسل سهمـه الى صدر الملك واطلق جيشه الى الانصار الذين يحيطون به فينتهي كل شيء .

ـ وهل بقي لك ما تقوله ايها الامير؟

ـ بقي ان اسمع جواب مولاي شرحبيل عما قلت .

ـ ستسمعه الآن ولكن بعد ان تذكر لنا اسماء الذين خبروك .

ـ ان الذي خبرني واحد هو الملك .

فبدت الدهشة على وجوه القوم واستولى عليهم ما يشبه الذهول .

ان الملك يعرف اذاً اسرار شعبه ويقرأ ما في القلوب .

ومن هو الذي باح له بسر شرحبيل وليس هنالك من يعلم هذا السر غير ذي مغار وولده وياسر امير ريام ؟

ولكن هؤلاء الثلاثة يبغضون ذا القرنين اكثر مما يبغضه شرحبيل فليس من المعقول ان يخونوا انفسهم ويقذفوا بها الى النار .

وهل يعقل ان تخون بلقيس والهدهاد اباهما ويفضحاه ؟

اذن فحبى وحدها هي الخائنة ولم يبق غيرها في الميدان .

ذلك ما خطر لشرحبيل في تلك اللحظة .

اما بلقيس فقد خطر لها خاطراً آخر هو ان الملك لم يكن واثقاً بما رواه لصاحب همدان ولكنه يظن الظنون . فقالت للامير : ايروي الملك نفسه هذه الرواية ؟

ـــ نعم .

ـــ وهل كان سكران ؟

ـــ كان يشرب ، ولكنه لو جرع الزق كله لما استولى عليه السكر .

ـــ اذن كان يمزح ؟

ـــ بل كدت ألمس الغضب في عينيه عندما كان يروي روايته .

فأجابها دون ان يتردد : لقد وهبتها الآن يا سيدتي وانتهى الامر .

ـــ لمن ؟

ـــ لسيد نبلاء العرب شرحبيل بن يعفر .

فأخفت مظاهر الفرح التي بدت على وجهها وقالت : ان هذه الهبة خطراً عليك فاسترجعها الساعة اذا شئت .

قال : يطيب لصاحب همدان ان يقتحم الاخطار

ـــ ولا تنس انه عدو الملك ايها الامير وسيأتي يوم يشهر فيه السيف ويبذل ذلك الوفاء .. اني انصح لك مرة اخرى ان تسترجع ما وهبت .

ـــ كفى يا سيدتي فذو تبع لا يرجع .

قالت : ان في القضية طمعاً بالعرش كما ذكر لك الملك .

ـــ اذن كان الملك صادقاً فيما رواه .

ـــ اجل وهي هوة بعيدة الغور كما ترى لا يطيب لبعضهم ان يقذفوا بانفسهم اليهـا !..

فجاشت في صدره عواطف الغرام وجعل يقول : مرحباً بالموت اذا كان فيه رضى شرحبيل ... ان حياتي له فليقذف بها الى الاعماق .

ـ ولكن بماذا استحق ابي منك هذا الاخلاص ؟ انك لا تعرفه كما يعرفه سواك ولا عهد لك به من قبل !

قال : لقد وصفه لي ذو مغار في العام الماضي فاحسست اني له !

وكان يعنيها وحدها بذلك القول والحب يطل من عينيه .

فقالت : الا يجوز ان يكون ذو مغار مخدوعاً فيخدع غيره ؟

فتجهم وجه الفتى ومرت سحابة سوداء امام عينه .

لقد خطر في تلك الساعة ان بلقيس ستستخف بغرامه اذا باح به ، وستقابل اعترافه بالسخرية والاستهزاء .

ومع ذلك فقد اراد ان يعترف ، وبلقيس نفسها تدفعه بذلك السؤال الى الاعتراف فقال : لقد رأيت شرحبيل بعد ذلك وعرفت اي فتى هو .

ـ وهذا وحده لا يكفي ايها الامير فللرجال مظاهر كاذبة وقد لمست بيديك مظاهر الملك كما قلت !

ـ نعم ولكني تعودت ان امشي وراء عاطفة القلب ولو اخطأت .

ـ انه اذاً اخلاص عاطفة وهذا لا يدوم .

ـ والاخلاص بدون عاطفة لا وجود له .

ـ كان عليك ان تمشي وراء حكمة نفسك لا وراء قلبك ليثبت اخلاصك الى الابد .

فضيع الفتى هدوءه وصبره وجعل يقول : لقد كان اخلاصي يا سيدتي صنفاً لم تحس بمثله النفوس والقلوب قبل الآن ..! انه هوى تغلل في هذا الصدر فملأ جانبيه ومد يده الى القلب فقبض عليه . ولمس المشاعر فاهتزت له ثم استسلمت اليه ... انه غرام يذهب العمر ولا تخمد ناره ..! ويفنى الزمان ولا يعرف مقداره .. اني احبك يا بلقيس حباً لا تستطيع العرب كلها ان تصفه لك أفتريدين ان تعرفي شيئاً آخر عن هذا الاخلاص الذي ذكرت ؟

واطرق ، كان ذلك الاعتراف جريمة لا تغفرها له .

فاجابته وشفتاها ترتجفان : اذن فارفع رأسك ايها الحبيب فقد احسست بهذا

الغرام الذي تصفه لي ، منذ يومين ، وهيأت له اسباب الظهور الآن كما رأيت .
انظر ايها الحبيب تر غرامي في عيني ، ولو استطعت ان تبصر ما في الصدر لرأيت رسمك في القلب الذي يخفق فيه ...

فرفع رأسه ... وجعل الواحد منهما ينظر الى الآخر ، وقد عقد الهوى لسانيهما وتكلمت العيون ...

انها ساعة يعرفها المحبون . تغمر فيها اللذة الروحين . وتبسط نشوة الحب ظلها على القلبين ...

* * *

١٩

لقد تم لبلقيس ما ارادت وتم لامير همدان ما اراد .

انها تحبه اكثر مما تحب العرش الذي تفكر فيه . وهو لا يحب احداً في السماء والارض ، مثلما يحب بلقيس .

كأن الاثنين خلقا ليكون الواحد منهما معبود الآخر . او كأنهما كانا حبيبين قبل ان يتلاقيا .

* * *

باتا ساكتين ، والنظرات تنطق بلغة الحب . ساعة طويلة كانت في نظرهم لحظة حتى ليحسبهما الناظر اليهما جسمين جامدين .

ثم خرجت بلقيس عن سكوتها قائلة له : لقد قرأت لواعج القلب الآن ولم تقرأ مطامع النفس ايها الحبيب .

— قولي كل شيء ايتها الحبيبة ولا تنسي كلمة .

قالت : ابدأ بذكر الملك الذي كاد ينتهي الامر بينك وبينه . اني لا اريد

ان تظهر له الجفاء الآن .
ــ لماذا ؟
ــ لانك اذا جفوته غضب وليس من الحكمة ان تغضبه اليوم .
ــ واذا فاجأني هو بجفائه ؟
ــ لو اراد ان يضع الجفاء موضع الدهاء لجفا ابي قبل جميع الناس . ان جفاء الملك معناه الالتجاء الى السيف وهذا ما لا يفعله الآن ؟
ــ صعب علي يا بلقيس ان اجامل رجلا لا احبه .
ــ ولكن يجب ان تتعلم المجاملة منه لتستطيع ان تغلبه ، لقــد قلت لك اني لا اريد ان اغضبه اليوم وسأذكر الآن حاجتي الى رضاه .
فاضطرب الفتى اضطراباً رأته بلقيس واصفر وجهه ! فقالت :
ماذا جرى لك ايهـــا الحبيب ؟
قال : سأذكر لك بنفسي هذه الحاجة يا بلقيس . لقد ذكرها الملك لي قبل مجيئي اليك فبت اخشى ان يقودني غرامي الى الموت .
ــ اذن كان بينك وبين الملك اسرار .
ــ نعم وقد باح لي بها في تلك الساعة الرهيبةالتي ثارت بها نفسه علىشرحبيل وبلقيس ومن يتبعهما من اهل وانصار .
فاجابته وهي تبتسم : اعد علي ما ذكره لك .
قال : كان لابيك غرض خاص عندما ابى ان يهبك للملك ! وقد املى عليه غرضه طمعه بالعرش الحميري .
فعرفت انه يعني فكرة زواجها بولي العهد ، فعادت الى الابتسام وهيساكتة كأنها لا تعلم شيئاً !
فقال : يطمع ابوك بان يجعلك ولية للعهد .
فحافظت على هدوئها وهي تقول : واي رأي لك في هذا يا ذا تبع ؟
ــ لي رأي لا اذكره الا عندما اثق بصحة الرواية .
ــ هب انها رواية صحيحة فماذا تفعل ؟

فلمعت الدموع في عينيه قائلا : اخنق هـذا الغرام الذي فضحت نفسي به وامحو صورة بلقيس من هذا القلب ؟

فضحكت قائلة : ولكن امر غرامك ليس في يدك لتنزعه من صدرك عندما تشاء . ان الآلهة نفسها لا تستطيع ان تفعل هذا .

ــ اذن انصرف الى همدان واعيش في غاباتها فاسلو غرامي .

ــ بل تزيد نار غرامك ضرما وسعيرا.

ــ اذن اقتل نفسي فينتهي كل شي .

ومسح دمعة سقطت على خده وجعل يتنهد تنهد الجريح المحموم .

فقالت : بل تعيش لبلقيس وتعيش بلقيس لك .

ــ وولي العهد ؟؟

ــ يعيش ولي العهد لمطامعي وتعيش انت لقلبي العاشق !!

فكاد هدوء بلقيس يخرجه عن حـده .. انها تتمنى العيش للاثنين كان لها قلبين ...

وكيف يطيق ذو تبع ان ينازعه بلقيس فتى آخر هو اعظم منه شأنـاً واعز مقاماً واقرب الى القلوب بما يكتنفه من عظمة ومجد .

بل كيف يطيق ان يكون ولي العهد عدواً له في غرامه ، وهو عدو له في بلاط ابيه . وسيستوي في العرش والعداوة في صدره ؟

انه مظهر من مظاهر الاستهزاء لا يرضاه لنفسه .. فقال وهو يضطرب ونار الغيرة تستعر في فؤاده . اترغبين في العيش يا بلقيس بين عاشقين ؟

قالت : لا احب غير فتى واحد هو انت .

ــ اذا كان هذا فأي شأن للطامع مع هذا الحب .

قالت : لقد اخطأ الملك في قوله ان ابي يطمع في عرشه ، وكان عليه ان يعلم انه لم يفكر في هذا العرش لو لم تدفعه بلقيس الى التفكير فيه .

ــ انت !؟

ــ نعم ، واذا كان هنالك شخص غير عمرو بن ذي القرنين يجلس على عرش

عهد بعد الملك فهذا الشخص هو انا !

فهم بالكلام فاسكتته قائلة : ارجو ان تصبر ايها الحبيب ريثما تعلم كل شيء ان لي نفساً وقلباً اعطيهما ما يطلبان ... اما القلب فقد بلغ غايته ولم يبق له غاية سواها ، واما النفس فلم اعطها شيئاً بعد ولكني سأعطيها ما تسأل .. نعم ، ان بلقيس بنت شرحبيل هي التي تطمع في عرش حمير وسيكون هذا العرش لي بالرغم من ذي القرنين الذي ورثه من آبائه !

ـــ العرش يؤخذ بالسيف يا بلقيس .

ـــ اجل : ولكن مـــاذا يبقى لي اذا فشل السيف في مهمتـــه ؟؟ لا يبقى الا الرأي الذي يفعل ما لا تفعله السيوف .

ـــ ولكني لا افهم شيئاً مما تقولين ..

ـــ ستفهم بعد قليل ما لا تفهمه الآن .. ان ولي العهد يحب بلقيس دون ان يراها وقد طلب الى الملك ان يزوجه اياها ..

ـــ غير ان الملك لا يرضى بهذا الزواج .

ـــ ومن قال لك ذلك ؟

ـــ قاله الملك الليلة ، وجعل الفتى يقص عليها حديث ذي القرنين .

فقالت : لقد عرفت هذا قبل ان تعرفه انت ، نعم يريد ان يتظاهر بالرضى ليقودني الى قصره ويجعلني حظية له ثم يطرح بي الى ايدي رجاله .. ولكن فاته ان بلقيس لا تقع في شركه ، وانها ستضيع الحيلة التي يعمد اليها بحيلة اخرى تقضي على كل امل يقوم في صدره .

ثم قـــالت : الا يطيب لك يا ذا تبع ان ترى التاج على رأس الفتاة التي احببت ؟..

ـــ لا يطيب لي الا ان اصبح زوجاً لهذه الفتاة .

قالت : سيكون لك ما تشاء ايها الحبيب .. اني لك كما قلت ولا يستطيع ذو القرنين ومن حوله من امراء وجيش ان يبعدوني عنك .. ولكن ارجو ان تصغي الى مطامعي وان تكون عوناً لي فيما احلم به ليستقيم لي ولك الامر .

ـ اتسأليني ان اكون عوناً لك يا بلقيس وأنت نور حياتي وبهجتها وامني التي اجثو عند قدميها ، وخيالي الذي اناجيه ؟

ـ وتعدني بالصمت والصبر على كل ما تراه ؟

ـ افعل اذا وثقت بأنك ستكونين لي لا لسواي .

ـ اقسم لك برأس شرحبيل اني لا احب سواك ولن اكون لسواك .

ـ وانا اعدك باني سأصبر على ما اراه .

ـ اذن فاعلم اني مع ابي وذي مغار وابن عمه ياسر نتآمر على العرش وقد امسيت انت الآن احد المتآمرين .

فاطرق مليا ثم قال : ان الملك لا يغلبه هذا العدد القليل .

ـ اصبت فاذا عمدنا الى السيف كان علينا ان نضم الى المؤامرة غير الذين ذكرت .

ـ ومن بقي من الامراء الذين لا يحبون الملك ؟

ـ بقي الغوث بن راهط وجبار بن دوير امير بينون ورجل آخر من اعداء ذي القرنين وهو يقيم ببلاطه .

ـ من هو هذا ؟

ـ عتيك بن روضة الذي لا يسكت عن دم ابيه .

وروت له رواية والده القتيل كما خبرتها اياها نعمى بنت الريان .

فقال: يقضي هذا الرجل ايامه كلها في البلاط لا يقول كلمة .

ـ اجل هكذا قالوا لي فيجب ان نبحث عن رجل آخر يخاطبه بالامر ويسأله ان يخرج عن طاعة الملك .

قال : ليس في البلاط من تجسرين على الوثوق به .

قالت : ألست صديقا له ؟

ـ اعرفه كما اعرف سواه وليس بيننا صلة ولاء فاسألي عنه ذا مغار فقد يكون من اصدقائه واظن انه هو الذي قص عليك حكايته .

ـ ان نعمى حظية الملك بالامس ووصيفتي اليوم ، هي التي قصتها علي وليس

من الرأي ان تحدثه بشأن المؤامرة .
فجعل يتفرس فيها ثم قال : اما انا فسأحدثه فقد يكون له رأي .
ـ كما انك ستسأل الغوث وابن دوير ان ينضما اليك .
ـ عندما يعلم الرجلان اني اصبحت متآمرا لا يترددان في الانضمام ،
ـ وبعد ذلك ؟
ـ اوغر صدر ولي العهد على ابيه ، واهامسه في ساعة من ساعات جنونه
فاقول له : ان اباك لا يريد ان ازف اليك !
ـ وماذا يفعل هذا المغرور ؟
ـ يغض طرفه عن ابيه عندما يواجه جيش شرحبيل ، فنخلعه عن عرشه ثم
نشهر السيف في وجه ولي العهد نفسه وننحيه عن ذلك العرش .
فاستوى جالسا واخذ يحدق اليها كمن اصيب بالذهول .
فقالت : ماذا رأيت ؟
ـ رأيت الخطر يكتنف هذه المؤامرة من الجهات الاربع .
فهزت رأسها قائلة : اتكون من رجال السيف ايها الحبيب وتخاف ذا
القرنين ؟
قال : لقد نشأت بين السيوف يا بلقيس وربيت في ظلها فانا لا اخاف
اخطارها بل اخاف اخطار الغرام . اني افترض ان الحرب ستنتهي بالفشل وان
العرش يبقى لصاحبه فأخسر غرامي ويضيع هذا الحلم .
ـ وكيف ذلك ؟
ـ قال : خبرني ماذا يصنع الملك عندما يظفر بنا نحن اعداءه ؟
ـ يقتل منا من يشاء ويبقي على من يشاء .
ـ وماذا يفعل ببلقيس اذا اضرمت النار في مأرب ؟
ـ يرفع رأسها على رمح ويضعه في ساحة البلاط .
ـ بل يحملها بالقوة الى قصره ليلوث شرفها او يجعلها ، رغماً عنها ، زوجة
لذلك الامير الغر ولي عهده

قالت : عندما يحملني رجال الملك بالقوة الى البلاط يحملونني جثة مخضبة بالدماء .. ذلك ما قلته لابي من قبل واقوله الآن ويجب ان تعلم ان ذا القرنين اضعف من ان يمد الي يدا وانا حية .

ــ وهذا معناه اني اخسر هذا الغرام الذي احيى به ثم اخسر حياتي !

قالت : يحدثني هذا القلب باني سأعصب رأسي بالتاج !

وهمت بان تقول ، وسأتزوج ولي العهد اذا اكرهتني الاقدار .

ولكنها رأته مضطربا فلم تفعل واكتفت بقولها :

لقد عرفت الآن اني لك فارض بما عرفت وسيأتي يوم تطلع فيه على جميع الاسرار التي اكتمك اياها الان.

ــ ولماذا لا تبوحين بها في هذه الساعة ؟

ــ لاني اقسمت انها ستبقى في هذا الصدر الى النهاية ؟

فذكر الفتى وعده انه سيسكت ويصبر على كل ما يراه ، كما انه ذكر قسمها انها ستكون له وحده ، فطابت نفسه ، ولم يشأ ان يلح في طلبه ، خوفاً من ان يشوه ذلك الحب الجديد الذي ابصر النور منذ يومين .

ثم قالت له : بقي ان تعلم كيف يجب ان تقابل دهاء الملك وتعيش في بلاطه في الايام الباقية له .

ــ بل بقي ان اعلم متى تريدين ان اخاطب اباك بشأن الزواج .

ــ اما الزواج فانا اعين موعده ولا يتردد ابي في الرضى عندما ترضى بلقيس ...

ــ اذن فاذكري لي كلمة واحدة عن هذا الموعد .

ــ اتريد ان نتزوج اليوم ونحن نمهد الاسباب لزواج ولي العهد ؟

ــ ومتى اذن ؟

ــ عندما ينتهي هذا الدور الذي نتهيأ له .

قال : اخشى ان ينتهي يا بلقيس بما نكره ..

ــ بل ينتهي بما تحب فلا تتعجل في الامر .

واستظهرت في تلك اللحظة عاطفة القلب على مطامع النفس فجعلت تقول :
لا تزد ايها الحبيب ... ان في القلب من لواعج الهوى ما لا يحتمل العاشقون بعضه ، وسيثبت لك الزمان انه لم يقم في اليمن فتاة اشد اخلاصاً في حبها من بلقيس ، واطهر هوى وغراماً ..
ولعلها ارادت ان تترك حديث الحب فقالت :
سيسألك الملك بعد رجوعك عن شرحبيل أليس كذلك ؟
ـ ان الملك لا يترك كأسه الا ليأوي الى فراشه .
ـ اذن يسألك غداً وعيناه ترسلان سهاماً حمراء .
ـ اما عيناي فسترسلان نوراً هو نور الطاعة للملك والوفاء له .
ـ احسنت ولكن لا تنس ان تذكر له وفاء شرحبيل للعرش .
ـ سأفعل ، على ان تقول له نعمى مثلما اقول .
قالت : سآمرها بما يجب ان تفعل .
وجعلا يتهامسان ويضعان الحديث الذي سينقله الفتى الى الملك حتى الليل ولم يبق الا ان يعود ذو تبع الى البلاط .
فنهض قائلا : أأنصرف الآن دون ان ارى احداً ؟
ـ بل تراهم جميعاً وتقول لابي انك اصبحت نصيراً له .
ومشت امامه في الرواق الى الجناح الآخر وكان القوم في احدى قاعاته يتحدثون وذو مغار يقول لهم :
سيخسر الملك امير همدان في هذا الليل ..
كأنه كان واثقاً بان عيني ذي تبع كانتا عيني عاشق برح به هواه .
فلما دخل الاثنان مد الفتى يده الى شرحبيل وهو يقول :
اذا ذكرت ولديك يا مولاي فاذكر ان لك ولداً آخر هو صاحب همدان الذي يخاطبك الآن .
ـ فابتسم قائلا : وهل عرفت كل شيء يا بني ؟

– نعم ولم يبق الا ان تقول كلمتك فاترك بلاط الملك الى الابد واحمل السيف مع اهل همدان للدفاع عنك .

فقال ذو مغار مازحاً : وكيف ضيعت اخلاصك للملك في مثل هذه السرعة؟

قال : يظهر ان الملك لا يثق الا بالرجـــال الانذال الذين حوله ، ولو لم ينظر الي كما ينظر الى خصومه من الامراء لما خطر لي ان اهب سيفي لسواه .

وصافحهم جميعاً وهو يقول : سانصرف الآن وستحدثكم الاميرة بشأني فال اللقاء . ثم مشى وعيناه تنظران الى بلقيس حتى جاوز الباب وتغلغل في الرواق

فتنهدت بلقيس قائلة : لقد اصبح امير همدان لنا فانظروا فيما تصنعون من جديد ...

* * *

النفوذ الروماني

•

٢٠

كان النفوذ الروماني قد امتد في معظم اقطار الشرق ، كما رأيت .

وكانت رسل القياصرة تروح الى الحبشة وتجيء ، وهي تنقل الى النجاشي ، من القيصر رسائل الود والولاء تمليها السياسة .

انها رسائل دولة قوية تخفق ألويتها في الخافقين ، الى دولة ضعيفة تريد الظهور ، سائلها بها ان تسند نفوذها في الاقاليم التي حولها ، بالحيلة ، والدهاء وبالقوة عند الحاجة ، دون ان تعبأ بدولة اخرى مهما يكن امرها .

ولم يكن ذلك النفوذ الذي يريد الرومان ان يمدوا رواقه فوق بلاد العرب ، سياسياً فحسب ، بل كان هنالك نفوذ تجـاري يرغبون في ان ينشر ظـله ، في كل قطر .

وقد نشر هذا الظل في بلاد الهند ، فكان تجار الروم يحملون اشياءهم منها ، ويمرون في بلاد اليمن بين خليج العجم والبحر الاحمر ، قاصدين الحبشة ، ومنها الى مصر .

غير ان العرب لا تريد هذا . وكيف يطيق ان يسد الرومـان في وجوههم ابواب الرزق ، بل كيف يطيقون ان يجيء الرومي من بلاده فينتزع العيش مـن

افواههم وسلبهم حقهم وما يملكون من قديم الزمان !

وقد علمت ان دول اليمن جميعها كانت دول تجارة لا دول حرب ، وان تكن دولة حمير اقربها الى الفتح .

فبدأ النزاع بين الرومي والعربي ثم بين هذا والحبشي ، منذ ذلك الحين ، اي منذ اتخذ الرومان ارض اليمن ، طريقا لهم كما مر .

وكان نزاعاً تجاريا في اول عهده ، ثم اصبح صراعاً داميا بعد ذلك ، ثم عمد القوم الى السيف ، الذي كان في ذلك الزمان ، سيد الاحكام .

حمير تسند العرب ، والحبشة تسند الروم ، والضحية تنبع الضحية من الفريقين وتنازع البقاء لا ينتهي الا بسفك الدماء .

حتى اشتدت الازمة وكثرت الحوادث في ايام ذي القرنين ، وانتقلت اخبارها الى الروم والفرس ، فغضب القيصر للدم البريء يسفح في ارض العرب ، واراد الملك الفارسي ان يمد اصبعه ليمنع عدوه القيصر من بلوغ غرضه .

ولكن ذا القرنين لا يستطيع ان يقف ساكتاً عند الحد الذي انتهى اليه الامر بل امر جيشه النازل في ذلك الاقليم ، بين خليج العجم والبحر الاحمر ، بان يمنعوا كل رومي من المرور بارضــه ، ويجعلوا السيف آخر ما يلجأون اليه من وسائل المنــع ...

وكان يعلم ان التردد في الامر يفضي الى ما يكره ، فالدول الثلاث ، الحبشة والروم ، والفرس ، لا تحب ، وهي تنظر الى اليمن نظرها الى البلد الغني الخصب تريد ان تخفق اعلامها فوقه .

وذو القرنين شجاع لا يخاف ، كما علمت ، وداهيــة لا يغمض له جفن ، وعزيز لا يطيق ان يذله بشري ، مهما يكن جنسه وشأنه .

فوقفت تجارة الهند وقوفا ضيع الكثير مــن مال اليمن ومال الروم ، وكاد صدر القيصر يضيق ، لضعف الحبشان في الدفاع عن شعبه ، وعجزهم عن رد الحميريين .

وهم بان يوجه الجيش الى ذلك الاقليم النائي ، لا ليفتح اليمن بل ليثأر بالدم البريء .

غير ان رسل العلي اسكندي التمسوا منه ان لا يفعل ، ووعدوه باسم النجاشي ان يمهدوا لرعاياه سبل الرواح والمجيء .

كما وعدوه باسم ملكهم ، بان يعدوا معدات الحرب .

وعندما ارسل ذو القرنين ، معدي كرب وعبد شمس الى حدود ارضه عند البحر الاحمر ، ليتبينا طلائع الجيش الحبشي ، بل ليتبينا عن كثب ، استعداد الحبشة للقتال ، كان الجيش العربي في تلك الناحية ، قد قتل طائفة من تجار الروم وسلبها ما تحمله من اشياء .

وهذه الحادثة كانت الحادثة الاخيرة التي وقعت بعدها تجارة القوم .

غير ان معدي كرب ورفيقه ، لم يبصرا طليعة ولم يريا جيشا ، ولم يكن في الجند اليمني وفي رعية ذي القرنين ، في ذلك الاقليم ، من يعلم ان الحرب على الابواب .

فقام في ذهن الاميرين ان العلي اسكندي يتحفز للوثوب من وراء الستار ، بالرقدة والهدوء ، وان جيشه الزاحف لا يلبث حتى يملأ الشاطيء .

فجعلا على ذلك الشاطيء العيون ، في النهار وفي ظلام الليل تنتظر سفن العدو ومكثا بضعة اشهر والعين لا تقع على رجل من الحبشة او من الروم .

حتى وثقا بان الاخبار التي بلغت ذا القرنين اخبار كاذبة ، وان تلك الحرب التي خوفوه بها لم يكن لها وجود في اذهان الحبشان .

وكان قائد الحامية اليمنية من رأيهما ، اذ لم يكن يخطر له ان الحبشة تشهر حرباً ، ولكنه كان يعتقد بان القيصر لا يترك دماء رجاله ، وان العلي اسكندي لا يعترف لذلك القيصر ، بعجزه عن الطلب بهذه الدماء .

وكان يدعوهما الى قضاء بضعة اشهر اخرى في ذلك الاقليم فلم يرضيا واصرا على الرجوع الى مأرب مع الجيش الذي يقودان .

وبينا هما يعدان عدة الرحيل ، ولم يبق امامهما غير ليلة ، اقبل من الشاطىء احد رجال الحامية يقول لهما :

ان سفن النجاشي في عرض البحر !

فاضطرب القائدان وخيل اليهما ان الحبشان يزحفون اليهما في ذلك الليل .

فقال قائد الحامية لمعدي كرب : انهم لا يقدرون على ذلك ونحن نبعد عن الشاطىء بضعة فراسخ كما ترى .

ــ اذن نتهيأ للقتال في يوم غد عند المساء .

قال : من عادة الحبشة ايها الامير انهم لا يفاجئون الشاطىء الا في الظلام .

ــ وما هو رأيك ؟

ــ ارى ان نزحف الى الشاطىء في هذه الليلة ونجعل للجيش مواضع تحجبه عن العيون فلا يراه الجيش الزاحف من البحر .

ــ وغداً

ــ نبقى غداً وراء الحجب حتى يجن الليل وعندما تطأ اقدام الاحابيش رمل الشاطىء نعيدهم بالسيوف والحراب الى احضان المياه .

فاستحسن الجميع رأيه وما هي الا ساعة حتى مشت الصفوف تتقدمها الحامية الباسلة وقائدها الشجاع الى مخابىء جعلتها الطبيعة وراء الصخور .

وقد بلغوها والفجر لم يبزغ بعد .

وكان البحر هادئا ، مظلماً كأن السفن غاصت في اللجة !

فخطر للقائدين ان الرجل الذي روى لهما خبرها كان كاذباً .

وطلبا الى قائد الحامية ان يدعوه !

فضحك ذلك القائد وكان يقول : اسألاني عما تريدان ان تسألاه فانا واثق بصدقه واعلم من حيل الحبشه ما لا يعلم .

فقال عبد شمس : الا ترى هذا الظلام الذي يكتنف البحر ؟

قال : اراه وليس في ذلك شيء من الغرابة .

ــ واين السفن ؟

انها تروح وتجيء في الماء وانت لا تراها وأظن ان رجال الحبشة يستعينون بالانوار، في مثل هذه الحال؟

اذن ستبدو لنا عندما يتنفس الصبح.

.. قد لا تجد لها اثراً ايهــا القائد فهي تخوض العباب في النهار لتختفي عن عيون اهل الشاطىء، وتعود في اول الليل.

وكان الرجل صادقــاً فيما رواه فان البحر انكشف للقوم عند الصبــاح ولم يبصروا الا الامواج تعلو وتنخفض برفق وهدوء.

اصدر الامر بان ينــام الجيش في خيامه التي اعدها وراء الصخور وسادت السكينــة ذلك الشاطىء، من طلوع الشمس حتى المساء. كأن تلك الصفوف مشلولة الاعضاء.

ولكن الليل لم يرخ سدوله حتى استيقظت السيوف النائمة في اغمادها، وتولى القائد الحامية امور الجند العربي في ذلك الليل.

ولم ينقض الهزيع الاول حتى اقبلت السفن على الشاطىء ولا انوار فيها وانتشر اصحابها بالقرب من مخابىء الجنود طوائف وجماعات.

وكانت الحراب والخناجر في الايدي تنعكس عليها انوار السماء.

غير ان قائد الحبشة لم يكن قد جمع الشمل ونظم الصفوف.

ولماذا يفعل وهو يعلم ان حامية اليمن تبعد بضعة فراسخ عن شاطىء البحر.

فاغتنمت العرب هذه الفرصة، ومشت صفوفها بسرعة وشدة الى تلك الجماعات المتفرقة التي لا نظام لها تطعن صدور رجالها بالرماح الطويلة وتدفعها مخضبة بالدماء الى الماء الهادىء الذي خرجت منه.

فعلت اصوات الحبشان، وخيل اليهم في اول الامر ان الجن تكمن لهم، ثم ثاب اليهم الرشد فعرفوا انه كمين عربي طوقتهم رجاله من الشمال والشرق.

وانت تعلم ان الجيش يختل نظامه، وتضعف عزيمته في مثل هذه المفاجآت مهما تكن بسالة رجاله، وخبرة قواده.

اجل: ان الجندي الحبشي خواض الغمرات وهو شديد قوي في الميادين،

ولكنه اذا فتح عينيه على الرمح يمتد الى صدره ، يفقد حكمته ويتراجع مذعوراً الى الوراء ، ثم هو لا يعود الى نفسه ويسترجع حكمته حتى تكون الصاعقة قد انقضت عليه .

كانت العرب تصيح : يا لحمير ، وتهاجم تلك الاشباح المتحركة على الرمال، ثم لم تلبث في ساعة قصيرة ، حتى قذفت بها الى البحر بين هارب وجريح .

والحبشان في البحر كالاسماك ، وكأنهم نشأوا بين معترك الامواج . ولم تكن السفن بعيدة عن الشاطىء فكانوا يغوصون ثم يظهرون ثم يغوصون حتى بلغوها والسهام تتبعهم من الشاطىء ولكن لتضيع في المياه .

فلما خلا الجو للعرب ، وملأت اصوات هتافها الفضاء ، اضطجع الجند على الرمل المصبوغ بالدم ينتظر طلوع الصبح ليعد ضحاياه .!

ولكن هذه الضحايا لم تكن كثيرة كما اظن ، فان البحر قذف في ذلك الليل بضع جثث انضمت الى الجثث التي تركها الجيش الهارب في البر .

وهكذا قضى عبد شمس ومعدي كرب بضعة اشهر في مهرا وضواحيها لم يشهرا على العدو سيفاً الا في تلك الساعة .

ثم قضيا في ذلك الاقليم شهراً آخر وليس في البر والبحر ظلا للاعداء .

فعولا على الرجوع وكان قائد الحامية يقول : ان النجاشي لا يسكت ولا يمر هذا الربيع حتى تعود هذه السفن من جديد .

***

٢١

نام لهمداني ليله ملء عينيه وشفتاه تبتسمان للاحلام العذبة .

ان بلقيس امست له فليغضب ذو القرنين وليملأ اليمن غضباً .!

لكنه ذكر في الصباح، ذلك الخطر الذي يكمن له في حياته الجديدة ،وجعل يعد العدة للزمن الآتي ويفكر في وسائل الدفاع .

هنالك ملك جبار قاس تريد بلقيس ان تسلبه تاجه ، وعرش تريد ان تحطمه لتبني لها عرشاً آخر ، وقوة هائلة تقوم حول العرش لا بد لها من ان تسحقها بقوة السيف لتبلغ الغاية .!

فلتسلب بلقيس اذاً ما تشاء ، ولتحطم ولتسحق من تشاء، ان سيفه وسيوف قومه ملك لها لا تنازعها اياها قوة او سلطان !

ولتظفر بلقيس في المؤامرة التي هي دماغها ، انها اذا ظفرت، ظفر هو بامانيه، وقضى حياته كلها قريباً منهـــا يراها ويسمع صوتها في نهاره ، ويناجي طيفها في ليـــله ...

واما الخيبة ؟ آه من الخيبة ان وراءها ذيولا من الذل والعار يعقبها الموت كما يموت المجرمون الذين تلعنهم اليمن .

قد يظن القارىء ان امير همدان يخاف الموت في ساحة القتال ويخشى ان تفشل المؤامرة فيخسر حياته وهو في زهرة العمر ، لا .. فالشباب والحياة لا قيمة لهما في نظره اذا سألته بلقيس ان يبذلهما .. ولكنه كان يخاف ان تمسي بلقيس حظية الملك او زوجة لولي العهد وهذا هو العار الذي عناه .

وكان يضطرب عندما يصل في تفكيره الى هذا الحد ، كما يضطرب الجبان ثم يذكر ان بلقيس تؤثر ان يحتضنها القبر على ان تمتد اليها ايدي الانذال ، فيتعزى ويعود الى صدره الامل الذهبي الذي يعيش لاجله.

حتى خطر له خاطر فجائي اشرق له جبينه وابتسمت نفسه ، هو ان يوصي

احد اصحاب سره ، بان يقتل بلقيس اذا هي استسلمت للملك ، او رضيت بولي العهد زوجا لها ، بعد موته .

ذلك لانه لم يكن واثقا ، بانه سينجو من الموت، في تلك الحرب التي سيخوض غمرتها ، بعد حين .

ونهض من فراشه ليستأذن على الملك ، فينقل اليه ذلك الحديث الذي جرى بينه وبين شرحبيل في الليل الماضي .

اي انه اراد ان يمثل دور الدهاء الذي املته عليه بلقيس قبل ان يغادر القصر، فقيل له ان معدي كرب وعبد شمس قدما امس ، وهما بين يدي ذي القرنين ، فمشى الى الرواق الذي تعود ان يرى فيه امير نحلة ، ذلك الرجل الصامت ! فلم يره بل وقعت عينه على نعمى بنت الريان ، تحادث احدى وصائف البلاط .

فمر بهما كأنه لم يرهما ، وهو يعلم ان نعمى لم تجيء في تلك الساعة ، لو لم ترد حبيبته ان تجيء .

ثم دار دورة انتهى بعدها الى الرواق الملكي فابصر ذا القرنين بباب مجلسه يشيع الآمرين ، ووراءه حاجبه وساقيه .

فدنا من الباب حتى قاربه ثم قال : لي ما اقوله لمولاي الملك اذا اذن لي .

فابتسم الملك ابتسامة الحب ... واجابه قائلا : قيل لنا ان نعمى بنت الريان هنا ولم ترها ، فادعها ثم نراك بعد ذلك .

فانصرف الفتى دون ان يتردد وهو يقول في نفسه: الحراس والحجاب حول الملك وهو لا يختار احدهم ليدعو اليه وصيفة بلقيس .

واجتاز الرواق الى الرواق الآخر الذي ابصرها فيه فاذا هي باقية في موضعها تنتظر اذن الملك لتمثل بين يديه .

فجعل يمشي بخطى هادئة ، وقبل ان يدنو منها ، رأى في طرف الرواق الآخر رأسا يظهر ثم يختفي وراء الجدار وكان ذلك الرأس رأس حاشد اللعين !!

فتظاهر بانه لم يره ، ووقف قائلا بصوت عال : ان مولانا الملك يأمر نعمى

بنت الريان بالذهاب الى مجلسه الآن .

ثم حول وجهه عنها ورجع كأنه لا يبالي بجميع من في القصر .

وكان يقول : يظهر ان الملك يريــد ان يجعلني في بلاطه ، ضمن نطاق من العيون .

ولكنها خدمة اشكر عليها حاشداً فقد علمني ان احتاط لامري واهرب من الشرك الذي ينصبونه لي !.

لقد ظن ذو القرنين ان بيني وبين الوصيفة اسرارا وولاء فارسل ساقيه ليرى مظهراً واحداً من مظاهر هذا الولاء .

ولعله يشك في حظيته السابقة ويتهمها بالانتصار لآل شرحبيل .

ذلك ما خطر لذي تبع وهو يروح ويجيء في الرواق دون ان يفكر في موضع يتجه اليه .

وبينا هو في ذهوله ، رأى عتيكا امير نخلة يمشي متثاقلا كما يمشي هو ، وشفتاه تفرجان عن ابتسامة وراءها الكثير من الاسرار ...

فابتسم له بدوره ، ولولا ذلــك الرأس الذي رآه وراء الجدار لدعــاه الى حجرته وانتزع سره من صدره ، وقرأ ما في نفسه .

ولكن الملك لا يعفو وليس من الحكمة ان يلفت اليه نظر الرقباء .

فاكتفى بابتسامته وهو لا يقف ، غير ان عتيكا لم يكتف ، بل هامسه عندما حاذاه قائلا له : احذر فان عيني الملك تنظران اليك !.

فتراجع قليلا ثم قال : اعرف كل شيء وسأراك !.

وابتعد الواحد منهما عن الآخر وساد السكوت .

* * *

٢٢

كان الملك عابس الوجه مقطب الجبين عندما جئت نعمى على قدميه .

فقالت له وهي لا تبالي : جئت الساعة بناء على امر مولاي .

ــ اذن رأيت العبد الذي ارسله جاشد اليك ؟

ــ نعم يا مولاي وقمت بما امرني به باسمك .

وكان حاشد في القاعة لا يفارق الملك .

فقال ذو القرنين : وهل رآك احد من اهل القصر تهامسين الرسول ؟

ــ رآني حراس الباب الذين لا يعبأون بما يرون .

قال : حدثينا بمـــا تعلمين .

قالت : ايجوز لي ان اسأل الملك عن سبب غضبـــه ؟

ــ قولي فليس لاحد ان يسأل الملك عن شيء مما يفعل !

ــ ولكني خائفة يا مولاي وقد تعودت ان تبسم لي

فتكلف الابتسام قائلا : يغضب الملك لما يراه من خيانة هؤلاء الفتيان الذين قربهم اليه وا حاطهم بنعمه واحسانه .

فعرفت انه يعني امير همدان فقالت : لقد عرفت من تعني يا مولاي .

ــ نعني ذا تبع الذي اغضبنا ولدنا وارضيناه .

ــ سأعيد عليك حديثه يا مولاي دون ان يكون في الامر دفاع عنه .

ــ كيف استقبله شرحبيل ؟

ــ لا اعلم فقد دخل القصر قبل ان ينتهي الي امر الملك ولكني رأيتـــه في قاعة الجلوس كالضيف الغريب يرحبون به ويستقبلونه بالانس العربي .

ــ ومن كان في القاعة ؟

ــ صاحب القصر وولده الهدهاد ليس غير .

ــ وبلقيس ؟

ــ ان بلقيس لا تجالس جميع الناس يا مولاي فقد قيل لها ان امير همدان يزور

اباها لم تخرج من غرفتها ولم تهتم للامر .

قال : يظهر انها لا تعرفه .

ــ لا يا مولاي وهي المرة الاولى التي رأيته فيهــا في قصر ابن عمرو .

ــ تقولين انك ستعيدين علينا حديث الفتى فهل سمعت ذلك الحديث ؟

ــ وكيف انفذ امر الملك وانا لا اسمعــه ؟ !

ــ ولكنك لم تدخلي قاعة الجلوس .

ــ لا يا مولاي بل وقفت بالقرب من الباب وراء العمد الضخمة التي تقوم على جانبيه ، وكان هنالك صمت ، ثم همس لم اسمع منه غــير لفظة الملك ، ثم ارتفع صوت ذي تبع فسمعت حديثــه كلمة كلمة وجواب شرحبيل

فردد قائلا : لفظة الملك ؟

ــ نعم يا مولاي وقد سمعتها اكثر من مرة وانا لا اعلم الغاية منها حتى وضح الامر لي بعد ارتفاع الاصوات .

وجعلت تروي له حكاية طويلة مغزاها ان الهمداني كان يلوم الامير عــلى انصابه في قضية بلقيس وشرحبيل يدافع عن الملك بقوله : انه لا يغضب على ابن عمه وان حلمه اعظم من ذنبه .

فبان الفرح في عينيه قائلا : ولم يكن له عذر ؟

ــ بلى يا مولاي وكان عــذره كما خبرتك من قبل ان يشرف الملك بلقيس بجعلها زوجة لولي العهد .

فوضع يده عــلى جبينه ثم اخذ يقول : انها نغمة لا تقطع .. وماذا سمعت غير ذلك ؟

ــ ثم سمعت الفتى يتهم الامير بالخيانة .. نعم يتهمه بخيانة الملك ويسأله ان يعود الى رشده ولا يضيع حياته وحياة ولديه .

فنظر الى حاشد وقال : انه خبر غريب لم نكن ننتظره ولم يقم في ذهننا ان ذا تبع يجرؤ على التحدث به .. اتصدق هذا يا حاشد ؟

فضحك اللعين قائلا : وكيف لا نصدقه يا مولاي ونعمى ترويه ؟
قال : وبماذا اجاب شرحبيل ؟
ـ اذا كان الكلام الذي يخرج من فم المرء دليلا على ما في قلبه فانا احلف لمولاي الملك لم ار ولن ارى رجلا اصدق طاعة لمولاي من شرحبيل بن عمرو ، لقد اقسم لامير همدان انه لا يضمر لصاحب العرش الا الاخلاص والوفاء وان حياته وحياة ولديه ملك للملك يفعل بها ما يطيب له .
ـ سنرى اذا كانت هذه الحياة ملكا لنا كما يزعم .. ولكن نسألك سؤالا يا نعمى أتقسمين برأس الملك ان هذه الرواية لا غلو فيها ؟
ـ اقسم برأس مولاي اني لم اقل غير ما سمعت .. لقد اقسمت لك يا مولاي مرات كثيرة وانت لا تصدق كأن نعمى بنت الريان تخون مليكها الذي شرفها بعطفه واحسانه !..
ـ بل نصدق كما تقولين يا نعمى . اتعرفين امير همدان ؟
ـ اعرفه في البلاط يا مولاي كما اعرف جميع الامراء .
فاطرق مليا كأنه يتردد في تصديق ما ترويه ثم قال لها . أليس هنالك اشياء اخرى تذكرينها للملك ؟
ـ ذلك ما دار بين الاثنين نقلته اليك .
ـ ولكن يجب ان تنقلي الينا حديث شرحبيل مع ابنته قبل ان يزور الهمداني القصر .
ـ اجل فقد نسيت ان اذكر لك ان شرحبيل خاطب ابنته بشأن الزواج ولم اسمع جوابها لانها لم تشأ الا ان يتحادثا منفردين .
ـ اذن فانت لا تعلمين شيئا .
ـ لا يا مولاي ولم استحسن أن اسألها عن شيء .
ففاجأها بقوله : لقد انتهت مهمتك الآن فادخلي هذه الحجرة التي ترينها وراءك وامكثي ساكتة فيها ساعة واحدة .
ثم قال لنديمه : اما انت يا حاشد فادع صاحب همدان .

قالت : وماذا اصنع في هذه الحجرة يا مولاي ؟

— تسمعين منها صوت الهمداني وحديثه فالملك يريد ان يعرف الساعة من هو الكاذب من سكان البلاط الذين يتظاهرون بالاخلاص .

قالت في نفسها : افعل ما تشاء فامير همدان لا يخون بلقيس .

وانثنت فدخلت الغرفة التي اشار اليها الملك وحجبها عن العيون ستار وضع على بابها وقد جلست وراءه .

ولم تمر لحظة حتى كان الهمداني جالسا بحضرة ذي القرنين .

* * *

لقد اسمعناك امس ما لا تحب يا ذا تبع اليس كذلك ؟

فقال : شرف المخلصين للملك ان يسمعوا ويطيعوا يا مولاي . لقد نسيت كل ما حدث امس .

— وماذا صنعت بعد خروجك ؟

— ذهبت الى قصر شرحبيل كما امرني مولاي .

فتظاهر بالاستغراب ثم قال : وكيف لم تذكر لنا انك ستذهب اليه ؟

— وهل يقوم في ذهن الملك اني اتردد في تنفيذ ما يأمرني به ؟

فناوله وسادة كانت الى جانبه وهو يقول : اجلس اذن وخبرنا كل شيء .

— لم اعلم يا مولاي اي حديث جرى بين شرحبيل وبين اهله لاني لم الحق به على الاثر وكنت واثقا بانه لا يذكر لهم امامي شيئا .

— وبينك وبينه ؟

— اما بيني وبينه فقد حدث ما يطيب له نفس الملك . . لقد عرفت انه من اصدق الناس في خدمة مولاه ولا اتردد في القول ان الذين نقلوا اليك خبر خيانته وخروجه عن الطاعة كانوا يكذبون .

قال : احذر يا ذا تبع فقد بلغنا الآن غير ما تقول !

فأجابه وهو هادىء : وقد كذبوا مرة اخرى يا مولاي ، فانا واثق بما اقول ولا اكتم الملك كلمة واحدة من حديث الرجل .

— ولكن الذي خبرنا يقيم بقصر شرحبيل ويعرف اسرار القوم .

— ومن يقيم بذلك القصر يا مولاي ؟ اجل تقيم نعمى بنت الريان ولا اعلم اذا كانت هي صاحبة الفضل في نقل الاخبار الكاذبة .

وقد بدأ الفتى في تلك اللحظة بتمثيل دوره .

فقال الملك : اتظن ان الوصيفة التي وهبناها لبلقيس تخون ملكها ؟

— اذا كانت قد نقلت اليك غير ما انقله الآن فهي خائنة ، ولكنها لا تخون الملك بل تخون شرحبيل النازلة بين اهله .. لقد باح لي شرحبيل بجميع اسراره يا مولاي فاذا هو نبيل في ولائه ووفائه ولا اظن انه يبوح لوصيفة ابنته بغير ما باح لي ، الا اذا كان من اكذب الناس !

— واذا خطر للملك ان يدعو بنت الريان الى هذه القاعة الآن ويسألها عن هذا كله فماذا تقول ؟؟

— لا تخرج من في كلمة ، ولكني اسأل مولاي الملك وحاشداً ان يحفظا قولي الذي ارويه ، ثم يأمر الملك بشرحبيل فيحضر ويستعيده حديثه ، فاذا رأى اني جاوزت حدي بكلمة واحدة فليس له الا ان يأمر بضرب عنقي ويطرح بجثتي الى كلاب مأرب في احدى الساحات .

— أو نضرب عنق نعمى الكاذبة وينتهي الامر .

— لا يا مولاي بل التمس منك ان تعفو عنها فهي امرأة والملوك لا يبالون بالنساء .

وكانت لهجته لهجة فتى جريء صريح واثق بنفسه .

فثبت للملك ان الاثنين ، الفتاة والفتى ، كانا صادقين ، وانه تعجل في امر ذلك الشك الذي دب في صدره فقال : كنى يا ذا تبع فانت صادق .

قال : مر يا مولاي باحضارها فتعلم غايتها من الكذب .

— سننظر في هذا بعد ذهابك . ولكن الا تذكر ان الملك اوصاك بكتمان ما خبرك به عن خيانة شرحبيل ؟

ـ بلى يا مولاي ولكني لم اطق الكتمان . قد رأيت اني اذا صبرت على الخائن فقد اسأت الى الملك وكنت خائناً .

ـ وهل كنت تظن ان الرجل يعترف لك بما في ضميره ؟

ـ لقد همست في اذنه يا مولاي اني ابغض الملك وسألته ان يكون عوناً لي في بغضي وانا اضمن له العرش الذي يحلم به ، تلك كانت فاتحة حديثي معه يا مولاي ، ولكنه رفع صوته ولم يبال بهمسي واستغرب كثيراً تلك الجرأة التي فاجأته بها دون ان يكون هنالك عهد ماض بيني وبينه .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ قال لي بعد ذلك كلاماً حفظته كما ورد هو هذا :

اريد ان تعلم اليمن كلها ان شرحبيل بن عمرو لا يخون عرش اجداده وانه ليس في اليمن رجل يدافع مثله عن هذا العرش ! ثم قال : لا يليق بك وانت امير همدان وتعيش في ظل الملك وتخونه وخير لك ان تترك البلاط وتنصرف الى بلاد قومك فمثلك لا يجالس الملوك .

ـ وعندئذ؟

ـ رأيت ان ابوح له بامري ، وطلبت اليه ان يعذرني عما رأى وسمع ، ثم تعاهدنا على الوفاء للتاج الحميري وصاحب التاج .

ـ وانت قد صدقت ما قاله ؟

ـ نعم يا مولاي ولم يبق الآن الا ان يمتحنه الملك في شأن من شؤونه .

فذكر ذو القرنين حديث عبد شمس ومعدي كرب منذ ساعة ثم قال :

حسنا فسنختبر الاثنين بعد بضعة ايام .

ـ فتجاهل قائلا : نحن ننظر في امر شرحبيل وحده يا مولاي فمن هو الآخر الذي ستمتحنه ؟

ـ انت ! فلن يزول الريب من صدر الملك حتى يلمس اخلاصك بيده .

فأشرق جبينه وقال : مرني يا مولاي بما تشاء اكن عبداً .

ثم وضع وجهه بين يديه كأن ذلك الريب اهانة له .

قال : اتبكي يا ذا تبع ؟
ــ وهل تستغرب بكائي يا مولاي وانت تضع سهامك في صدري ؟
قال : انهض واترك البكاء ليوم يعرف فيه الملك انك تخونه .
ــ اذن لن ابكي يا مولاي فاليوم الذي تذكره لا وجود له .
فلم يجب ، بل خاطب حاشداً قائلا : اما انت فاركب فرسك الآن وخذ معك من تشاء من الرجال واذهب الى شبام ثم الى عمران فان لم تجد فيهما ولي العهد فامض الى ريدة واسأل عنه فقد طال غيابه وهذا ذو تبع يقوم مقامك في منادمة الملك وسقايته ريثما تعود !
فكاد الفتى يفقد جلده لهذا المنصب الجديد الذي جاد به عليه مولاه .
انه اسر في قفص ذهبي .. بل هي حيلة ضمن بها ذو القرنين بقاء امير همدان الى جانبه ، في الليل والنهار دون ان يسيء اليه .
أجــل ، ان ساقي الملك الحميري لا يستطيع ان يترك القصر الا اذا هجر الملك الخمر ،وذو القرنين لا يهجرها الا اذا اغمض الموت عينيه ؟
ولو لم يكن ذو تبع عاشقاً ، بل لو كان قادراً على الصبر في غرامه الجديد ، لعد وظيفة الساقي نعمة هبطت عليه من السماء .
ولكنه لا يطيق ان يقوم بالقصر الايام الكثيرة دون ان يرى ذلك الوجه الزاهي الذي فتنه جماله وتيمك العينين الجذابتين اللتان سلبتاه نهاه .
ومن يعلم متى يعود حاشد وولي العهد ايصبح حراً ، كما كان ؟ بل من يعلم اذا كان الملك قصدها ام صدرت منه عن غير عمد ؟
فمرت سحابة سوداء امام عينيه ثم قال : لا عهد لي من قبل بمنادمة الملوك يا مولاي كما اني لم اتعود الشراب .
فضحك قائلا : ولكنك تعرف ان تملأ الاقداح ، اذهب يا حاشد والويل لك اذا غربت الشمس وانت في البلاط .
وعندما هم حاشد بتقبيل ردائه قال له : احذر ان تعود قبل ان يعود عمرو اذا كان في اليمامة ، اما ذو تبع فسيبدأ هذا المساء ان يكون نديمــاً للملك ولكن

دون ان يشاركنا في الشرب .. اخرجا الآن .

فانصرف الاثنان ، حاشداً يملأ صدره الفرح لهذا الطواف الذي سيجريه .

وصدر ذو تبع يملأه الهم ، لذلك المنصب العظيم ، منصب صب الخمر في الاقداح .

وعند انصرافهما خرجت نعمى من ذلك المخبأ صفراء الوجه وهي تقول :

لم أر اعظم منك يا مولاي في قراءة الاسرار .

قال : ولكن كنتما صادقين فاستحققتما عطف الملك .. خذي هذا الخاتم الذي يساوي مأرب على ان لا تلبسيه !

ــ لماذا يا مولاي ؟

ــ لكي لا تظن بلقيس اننا نغدق عليك النعم .

فتناولته وهي تقبل اليد التي جادت به وكانت تقول في نفسها :

انك تحب بلقيس وتبغضها في وقت واحد يا مولاي فالويل لك .

وقبل ان تستأذن بالذهاب سألته قائلة : من كان يظن ان امير همدان يصبح نديماً للملك ؟

قال : ولكن عمر هذه المنادمة قصير كما ترين .

ــ يكفي ان ينادم مولاي يوماً واحداً ليصبح في نظر الناس سيد الامراء .

فجعل يهز رأسه ويقول : الملك كثير الظنون يا نعمى ولا يستطيع هؤلاء الشبان ان يخدعوه .

ــ وكيف ذلك يا مولاي ؟

ــ يخيل الينا ان الهمداني يحب بلقيس !.

فنزلت تلك الكلمة نزول الصاعقة على رأس نعمى وتراجعت بذعر الى الوراء .

اما هو فاستطرد قائلا : وسنضع يدنا على هذا الحب اذا كان موجودا . . ان نديمنا صريح في قوله وسيبوح لنا بهواه عندما يبرح به الشوق .!

ــ وكيف يحب المرء فتاة لا يعرفها ؟

ــ كما احبها الملك وهو لم ير لها وجها .
فضاق صدرها وارادت ان تعجل في الخروج لترى ذا تبع وتعيد عليه قول الملك قبل ان يتوارى في اروقة البلاط ودهاليزه ، فقالت :
ــ وبماذا تأمرني يا مولاي ؟
ــ أتذهبين الآن ؟
ــ ابقى اذا امرني الملك .
ــ لا . اذهبي وخبري بلقيس ان امير همدان لا يخرج من القصر الا عندما يعود عمرو .
ــ ولكنها لا تبالي بهذا الخبر لانها لا تعرف الفتى كما قلت .
ــ ومع ذلك فانقلي اليها ما سمعت وانصرفي الآن .
واغمض عينيه ليهضم ذلك الدهاء الذي يظن انه بلغ به الغاية .
ولم يدر ان خصومه ، كانوا حتى ذلك اليوم ، اشد دهاء منه .

* * *

خرجت نعمى فلم ترد ذا تبع ولم تجرؤ على السؤال .
وكانت تمشي متثاقلة علها تراه او تسمع صوته في احدى الحجرات .
فلم يخدمها الحظ ولم تبصر له ظلا .
فغادرت البلاط الى قصر الامير تقص على سيدتها تلك الرواية الغريبة التي مثل الملك فصلها الاول في ذلك الصباح .
ولكن بلقيس لم تضطرب ولم تجزع بل كانت تصغي اليها وثغرها ضاحك وهي مشرقة الجبين كأن الرجل الذي تذكره لها لا تعرف من هو !
ثم خبرتها انها لم تره في الاروقة لتحذره من الملك .
فقالت : اتظنين ان ذا تبع سيعترف للملك بغرامه وهو يكاد يكتم نفسه هذا الغرام ؟ انك لا تستطيعين ان تعلمي ما هو الهوى لانك لم تحبي . . ولو كتب

نك ان تعشقي احد الفتيان لاحسست انك اثبت جنانا واعظم قوة مما انت عليه الآن .. اجل سيبذل الملك جهده كله ويستعين بابتساماته ودهائه ليسمع اعتراف ذي تبع ولكنه سيفشل وسيتعثر باذيال الخيبة لان الفتى لا يعــترف بشيء والملك اضعف من ان يخدعه .

ــ ولكن الحكمة والدهاء لا يتحجبان دلائل الحب .

قالت : ان في صدري من الحب ما لو نزل بالجبل لزعزع اركانه ، ومع ذلك فلو لم اعترف لك ولأبي بحبي لما خطر لاحد اني عاشقة .

قالت : الا يجوز ان يخون الشوق امير همدان فيبوح بكل شيء ؟

ــ بلى يخونه كما تقولين ولكن عندما يصبح مجنونا.. وهل ذكر لــك الملك شيئا عن الزواج ؟

ــ اجل واعدت عليه القول الذي امرتني به .

نعم لقد خافت بلقيس ان تمر الشهور على غيابه فيبرح بهــا الشوق الى ذلك الحبيب .

انها اذا تظاهرت لمن حولها بالجلد وقلة الاكتراث فلكي تسلم عظمتها مــن الظنون ولكنها وهي العاشقة المفتونة ذات العاطفة الوثابة ، لا تستطيــع الا ان تتألم لذلك الفراق الفجائي الذي خلقه الزمان وهي في فجر الغرام .

وجعلت تستعرض الحادثات ، لترى اية واحــدة منها بعثت الريبة الى صدر الملك .

ولم يكن امامها غير حادثة واحدة هي ما قام به ذو تبع من الدفاع عــن شرحبيل ويكفي ذلك الدفاع وحده ليكون سهما للظنون .

ثم رأت اباها وذا مغار فقالت لهما : متى يعود ولي العهد من سفره ؟

فقال ذو مغار : لقد ترك ريــدة منذ بضعة ايام وهو اليوم في شهام على ما عرفت ...

ــ اذن يكون في مأرب بعد شهر .

ــ ولماذا تسألين عنه ؟

ـ لان الملك جعل حاشداً رسوله اليه وأمر ذا تبع بان ينادمه ويسقيه .
فقال : لقد خدمتنا الاقدار اذاً من حيث لا نعلم .. الذي ينادم الملك يشهد ساعات سكره ويعرف جميع اسراره .
فتمتمت قائلة : ويجب ان يشقى المحبون في سبيل الوصول الى هذه الاسرار.
ورجعت الى غرفتها لتسأل الآلهة ان تهب لها قلباً اشد من الحديد .

• • •

لم يكن هم امير همدان بعدان امره الملك بمنادمته ، الا ان يخلو بعتيك بن روضة ويسمع حكايته من فه ، ويتعاهدا على المضي في امرهما الجديد الى النهاية .
وكان يخاف حاشداً ولا يريد ان يحادث احداً من رجال البلاط وهو فيه .
فصبر ساعة حتى خرج من القصر ، ثم رآه على فرسه تحيط به الغلمان ، فطابت نفسه واقبل يسأل العبيد عنه ؟
وكان عتيك بدوره قد رآه ورأى حاشداً ، ولم تكن الا لحظة حتى تلاقيا ودخلا احدى الحجرات واغلقا الباب ، ثم رجع ذو تبع :
كيف عرفت ايها الامير ان عيني الملك تنظران الي ؟
ـ ليس لك ان تسألني كيف عرفت ذلك بل يجب ان تعلم اني اعرف كل ما يحدث في البلاط دون ان يفوتني شيء ..
ـ ولكن يجب ان اعلم على الاقل ما الذي يدعوك الى العناية بي .
ـ رأيتك تتصدى للملك في رأي له ، وتقف وانت بين يديه موقف دفاع لا يجسر سواك على الوقوف مثله .. ثم سمعت الملك يتهمك بالخيانة ويأمر حاشداً بان يحصي عليك انفاسك ويتبع كل اثر من اثارك في القصر وخارج القصر فعرفت ان الآلهة ارسلتك الي وهيأت لي اسباب الظفر بالغرض الذي اقيم بالبلاط لاجله ...
قال : يتهمني الملك بالخيانة ؟

ـ اجل ولو لم يكن ذلك لما رأيت حاشداً يمشي ووراءك كلما مشيت واللؤم والحقد يطلان من عينيه الخبيثتين اللتين تستقر فيهما النار .

ـ اذن فانا مدين لك بالحياة ايها الامير .

ـ لست مدينا لي بشيء فيد الملك لم تمتد الى حياتك بعد ، ولكني انصح لك بان تسمع لي فقد ذقت حلو العيش ومره وبلوت الزمان واهل الزمان

ـ ولكن من يثبت لي انك لست من رجال الملك الذين ينتزعون الاسرار من افواه الناس ؟

ـ سأثبت لك اني من اولئك الرجال الذين يحاولون انتزاع روح الملك من صدره. انا مصعب بن روضة .

ـ لقد عرفت هذا الاسم ولم اعرف شيئاً آخر .

ـ اي اني ابن رجل قتله والد الملك قتلا لم تتحدث بمثله العصور .

ـ واي ذنب لذي القرنين ؟

ـ ذنبه انه ابن القاتل الذي تشرب من دمائه قومه ما يملأ سد مأرب ! بل ذنبه انه مثل ابيه يسلب الاعراض وينتهك الحرمات ويدوس شرف الناس بنعله ولا يعبأ الا بما فيه لذته وهواه ... ذنبه انه الملك الظالم الذي يستحل ما حرمته الآلهة ويستبيح الكرامات لا يبالي باصحابها ولو كانوا من صلبه !.. واي ذنب يأتيه الملك افظع من ان يجعل بنت عمه العوبة في ايدي رجاله الذين لا يصلحون ان يكونوا لها عبيداً ! ؟

ـ اتعني بلقيس ؟

ـ اجل فانا لا اعني سواها ولا اصدق متى يجود الزمان علي بان اراها لاجثو عند قدميها كما اجثو امام الآلهة . انها اطهر من الآلهة واعز مقاما !

ثم قال : لقد ظن الملك ان شرحبيل بن عمرو سيخر ساجداً له عندما يأمره ببيع شرفه ويحني رأسه حتى يلتصق بالارض فيضع عليه قدمه ! ! ولكن طاش سهمه ، فقد كان شرحبيل اعظم منه وهو يهزأ به عندما يعده ببلقيس ويعد له سيف جده يعفر للقضاء به عليه .. ولكن ما لنا ولشرحبيل فقد يستسلم اخيراً الى

الظالم وينسى مجده ومقامه فيهوي الى الاعماق .. نعم ليس لعتيك بن روضة الا ان يهتم لامر نفسه ويسأل روح ابيه ان تهب له القوة ويبلغ بها غايته .

واحمرت عيناه كأن السيف في يده يضرب به عدوا له في ساحة القتال .

فقال الفتى : خير لنا ان نتحدث برفق ايها الامير فللجدران آذان تسمع همس الشفاه .

قال : اصبت فقد ضيعت صمتي وهدوئي اللذين اصبحا مثلا لاهل القصر ، اسأل عما تشاء .

قال : ما هي غايتك ؟

فوضع يده على صدره قائلا : غايتي ان اضرب الملك ضربة واحدة افصل بها رأسه عن جسده ثم ألحق بارض قومي .

فاجابه الفتى وهو يبتسم : تقول هذا وانت غير خائف ؟

ـ وماذا اخاف ؟

هذا الفتى الذي تخاطبه كأنه شريك لك في ثأرك .

قال : وهل اخذت عن الملك رياءه واسلوبه الكاذب يا صاحب همدان او تتظاهر بالاخلاص له وانت لا تحبه ولا تريد ان تجالسه او تسمع صوته ؟؟ ولكن لا فانت تحب ولي عهده الطاهر القلب النبيل القصد الذي سيخلف اباه في مروءته وعدله وعطفه على الابرياء .

فجعل ذو تبع يتفرس فيه وهو يعجب لاطلاعه على جميع الاسرار كأنه من الجن ثم قال له : ارجو الا تثق بي هذا الوثوق كله خوفاً من ان تندم بعد حين . اني احب الاثنين واحترمهما ؛ الاول لانه ملكي ، والآخر لانه وارث العرش وانا مكره على احترامه .

قال : اقسم بدم ابي الذي اراقوه ظلماً انك كاذب .. لقد قلت اني اعلم كل شيء ولا اغفل عن شيء ، اعرف كل كلمة تقال في مجلس الملك على مسمع من الامراء ، واعرف كل ما يدور بين الملك وبين نديمه في ساعات السكر ، اسمع الحديث الذي يهامس به الملك نساءه ، بل اكاد اعرف ما في هذه القلوب عندما

لعقل على البغض والحب ! ! أفهمت الآن ؟ اذن فاعلم ان هذه المظاهرة الكاذبة لا تخدع عتيكـــا واطلب اليك ان تعترف بالبغض الذي يجـــول في صدرك او فانصرف من هذه القاعة فانا لا حاجة لي اليك .

قال : انصرف واخبر الملك كل ما سمعت .

فنهض بعظمة غريبة وفتح الباب وهو يقول : اخرج وخـــبر الانس والجن فانا لا ابالي .

قال : لم يبق الا ان اعترف لك ببغضي فقد وثقت بكل ما تقول .

فاغلق الباب وقال : لقد اصبحت منذ ساعة نديما للملك وستجالسه عـــلى شرابه وتسقيه عندما يطيب له الشرب .

ــ نعم كما اصبحت انت في نظري ساحراً من سحرة اليمن .

فلم يبتسم بل قال : اجل ولهذا الساحر حاجة يسألك ان تقضيها له .

قال : ما هي ؟

ــ هي ان تسقي الملك بعد ثلاث ليال حتى يسكر ثم يغيب عن الرشد .

ــ ثم ماذا ؟

ــ ثم تنحي الحراس عن بابه قائلا لهم : انصرفوا فالملك يغط في نومه .

ــ وبعد ان افعل كل هذا ؟

ــ تخرج الى الرواق لحظة ثم تعود .أتعلم عندئـــذ ماذا ترى ؟انك ترى الملك غائصاً في دمه وهو جسد لا رأس له .

ــ أتقتله ايها الامير على هذه الصورة ؟

ــ نعم وبضربة واحدة كما قلت .

ورفع عباءته السوداء وتناول من حزامه خنجراً طويل الشفرة وهو يقول : انظر انه طويل كالسيف وضربة واحدة منه تكفي لان تفصل رأس الثور .

فابتسم قائلا : وأين تكون انت في تلك الساعة ؟

قال : يهمك ان تعـــلم قبل كل شيء اين اكون وكيف استطعت ان اعرف جميع هذه الاسرار اليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ اذن فاعلم اني اكون في تلك الساعـــة ، في الغرفة الصغيرة التي تطل على مجلس الملك الخاص والتي يحجبها الستار الاسود عن العيون .

ـ ويل لك يا ابن روضة !! كيف تستطيع ان تصل اليها والملك في مجلسه ؟

ـ الا تعلم ان لها باباً آخر من الدهليز ؟

ـ بلى ، وعلى الباب حارس من حراس الملك .

قال : سيزول عجبك عندمـــا تعلم اني اشتريت هـــذا الحارس بقبضتين من الذهب . . .

ـ واذا دخلها الملك فجأة لحاجة له ؟

ـ يدخلها ولا يرى احداً .!

ـ وكيف ذلك ؟

ـ لقد وضع الملك في تلك الحجرة صنـــاديق سلاحه فيها السيوف والرماح والخناجر والسهام التي اهداها اليه الملوك والامراء .

ـ نعم .

ـ حتى انك لا تستطيع ان تجلس فيها الا على احد الصناديق .

ـ واين تجلس انت ؟

ـ جعلت لي مخبأ بينها لا يقع عليه نظر الداخل .. ألم يقل لك الملك منـــذ ساعة انه سيدعو نعمى بنت الريان ليعلم من هو الكاذب ؟

ـ بلى .

ـ أتعلم اين كانت نعمى؟ انها كانت في تلك الحجرة أدخلها اليها ذو القرنين قبل ان تمثل انت بين يديه ، وكنت انا في مخبأي احبس انفاسي لئلا تنم علي هذه الانفاس فيصبح احد الصناديق قبراً لي ..

ـ اذن سمعت حديث الاثنين ؟

ـ وسمعت كل كلمة قالها الملك في قاعته قبل اليوم .. والآن فقد عرفت ما اردت ان تعرفه فما هو جوابك عما سألتك ؟

قال : اما جوابي فهو اني لا اغدر بمن وثق بي ولو كان عدوي ولا ارضى بان يكون عنيك بن روضة غادراً وهو ملك في قومه !

ـ وكيف ابلغ الغاية من قتل الملك ؟

ـ انك تقدر ان تضربه عندما تشاء الا في الساعة التي انادمه فيها .

ـ ولكني اموت بعد ان افعل .

ـ نعم فالذي يثأر بأبيه لا يخاف الموت !

قال : لو كنت تعلم من هو ابن روضة لما ذكرت الخوف .. اني لا اغدر بالملك لاني خائف بل لاني اريد ان اموت .

ـ أتكون الحياة عزيزة عليك الى هذا الحد ؟

قال : لي ولدان ، كبيرهما في العاشرة من عمره ، فاذا قتلت الملك ولم افر اليهما قتلني الانصار والجند ومدوا ايديهم بعد ذلك الى الولدين فقتلوهما واستولوا على المال .

ـ وهل تنجو من الموت اذا فررت من مأرب ؟

ـ نعم احارب انصار الملك وجنوده في جبال قومي عشرين عاماً .

ـ ولكن يقال انك غادر وهذا يكفي .

ـ عدني بانك ستغض طرفك عما يجري حولك وليقل الناس ما يطيب لهم قوله ...

ـ قلت انني لا اغدر بمن يثق بي فلا تعد الى مثل هذا .

ـ اذن يموت الملك وهو بين حراسه في الرواق ثم اموت بعده .

ـ والصغيران ؟

ـ وليفعل الصغيران ، ان الموت خير من حياة ليس لهما فيها نصير .

وتلألأت في عينيه الدموع .

قال : بل يبقى ولداك وتبقى فقد وجدت لك حلا .

فمسح دموعه وجعل يحدق اليه .

فقال : في مأرب امراء كثار يرغبون فيما ترغب ويفكرون في خلع الملك

الظالم عن العرش بقوة السيف .

فقاطعه قائلا : احلف لي بشرف قومك ان هؤلاء وجوداً ؟

ــ احلف لك بشرفي وشرف قومي .

قال : لقد نسيت اننا نتآمر على الملك ! ! اخفض صوتك فالموت لا يبعد عنا اكثر من خطوتين . . ان شرحبيل بن عمرو احد الامراء الذين ذكرت بل هو سيدهم الذي سيرفع لواء العصيان بعد حين ويرأس جنود للثوره .

ــ لقد فكرت فيه ولكني لم اجسر على ذكر اسمه . والآخرون ؟

ــ اما الآخرون فاهل المروءة والعز واصحاب المخاليف الكبرى في اليمن الذين لم يروا من الملك الا القساوة والظلم والرياء ، انهم ذو مغار وياسر بن عمه وذو تبع واخوه مالك وعمه عبيد ، وجبار بن دوير والغوث بن راهط ، وقد انضم اليهم اخيرا امير آخر هو عتيك بن روضة .

فظهر البشر على وجهه قائلا: اصبت انهم اهل الشرف كما قلت ومتى يبدأون؟

ــ اما هذا فلا استطيع ان اعرفه لان ليس في يدي ولا في ايديهم بل في يد بالقيس بنت شرحبيل !

ــ أتتآمر بالقيس ايضا ؟

ــ نعم ولا يجلس على العرش بعد ذي القرنين غير بلقيس ، هذه حكايتي قصصتها عليك الآن فعد الى سكوتك واترك ثأرك الى ان تأتي ساعته .

ثم قال : وارجو ان تعلم ، قبل ان تحول المنادمة بيني وبينك ، اني خرجت من قصر شرحبيل على امل ان اراك واسألك رأيك في المؤامرة بل لاسألك الخروج عن طاعة الملك والالتجاء الى السيف عندما نلجأ اليه .

ــ وكيف تجرؤ على ذلك وانت لا تعرفني ولا تعرف حكايتي ؟

ــ بل كنت اعرفها كما يعرفها شرحبيل ومن حوله .

ــ اذن فنعمى بنت الريان هي التي خبرتكم اياها .

ــ اجل وقد روت لبلقيس حوادث ماضيك كله كأنها كانت رفيقة لك في نخلة وانت صغير . .

قال : لم اجد بين رجال البلاط ونسائه واحـــدا يضمر البغض للملك غير امي : فبحت لها بسري وطلبت اليها ان تكون عونا لي .
ـ ولكن ماذا تظن ؟ ايذكر الملك ذلك الحادث الفظيع الذي اقدم عليـــه ابوه ام نسي الماضي بما فيه ؟
ـ لو كان يذكره لبث علي العيون وانا في بلاطه يحصي علي الانفاس .
قال : كم هو عدد جنودك ايها الامير ؟
ـ في نحلة من الجند مثلما في همدان .
ـ وانت مستعد ؟
ـ نعم على ان تصف لي المنهاج الذي وضعتموه :
فجعل يصف له ما يعلم حتى انتهى الى قولـــه : اذا تم كل ذلك كما نظن استولت بالقيس على كل شيء وكنا حول عرشها اصدق الرجال .
فلمس عتيك في تلك اللحظة دلائل الحب تبدو في كل مظهر من مظاهر الفتى العاشق فقال له :
اقسم بتراب روضة ان بلقيس احب نساء اليمن اليك .
فقال : اخطأت فهي احب الناس كلهم بل هي احب من نفسي !
ـ وماذا تصنعان بولي العهد الطامع في الزواج ؟
فتجهم وجهه لذلك السؤال وقال : اقسم لك بدوري انني لا اعلم الآن كيف ينتهي امر غرامه .
ثم نهض قائلا : اتعود الى صناديقك ؟
ـ اجل : فالجلوس بين تلك الصناديق يشفي غليلي ويبرد ما بي .
ـ اما انا فالجلوس مع الملك يجرح قلبي ويسعر النار فيه .
قال : في صدري نار الثأر ، وفي صدرك نار الغرام ، فالويل لنا من النارين.
وخرج ذو تبع وحده ، فلما تغلل في الرواق خرج عتيك ، وضاع الاثنان بين الجواري والغلمان الذين تغص بهم الدهاليز .

* * *

٢٢

الحبشة دولة قديمة العهد لها الملك الواسع والعرش الثـابت الاركان يخلف عليه الولد اباه ، ويحميه الرجال المجربون ، الذين حملوا في حفظ ملكهم وتوسيعه ألوية الفخار .

وجو الحبشة ، جو صاف هادىء ، ولكنه حار ، فيه شيء من الاعتدال .

وارضها خصبة ، تدر على اصحابها جميع الخيرات ، وتعيش في غاباتها ، في السهل والجبل جميع اصناف الحيوان .

وانك لتقدر ان تقول ، ان انواع الحيوان التي ذكرنا ، كانت مورد الحبشة وسبباً لتوافر المال بين ايدي الحبشان .

يصيدونها ، ثم يبيعون جلودها فيما يجاورهم من البلدان ، ويجعلون مـا يبقى منها اثاثاً ورياشاً للاكواخ والقصور ، ولباساً يحسنون صنعه ، للنساء والرجال.

والمرأة الحبشية تشارك رجالها في الصيد ، ولعلهـا اعظم صبراً على حوادث الزمان واكثر احتمالا منه .

وللصيد عندهم طرق كثيرة علمتهم اياها التجاريب ، وعندهم السلاح الكثير يجعلونه حاداً حتى يجاوز بك حد الدهشة والاستغراب .

وفي الغابات مغاور وكهوف اوجدت الطبيعة بعضها واعـد الانسان البعض الآخر وهي جميعها ممهدة الجوانب كأنها بيوت في البر .

فاذا ارادوا ان يصيدوا الفيل ، لاجل العاج البارز من بين فكيه ، جلس في كل كهف منها ثمانية اشخاص بايديهم الاقواس والسهـام المسمومة ، حتى اذا ظهر الفيل ارسلوا سهـامهم دفعة واحدة وقد تخترق هذه السهام الحجر وتسم الحديد ...

ثم يجعلون العيون على الفيل حتى يقتله السهم ، فينتهكوا حرمتـه وهو ميت ويخرجوا من فمه الهائل عاجه الثمين الذي يحمله .

واذا ارادوا صيد الاسد وما يشبهه من وحش ضار ، عمدوا الى السهـام

العادية او الخناجر الطويـــلة واغمدوها في جسده الندي ... فيصرعونه في طرفة عـــين ...

والصيادون في الحبشة طوائف تعرف كل واحدة منها الاخرى ولها الرؤساء والقواد الذين لا يهابون الموت .

هذه تصيد الفيلة ، وهذه تصيد الاسد وانواع السباع ، وهذه تصيد القرود والغزلان وكل حيوان صغير .

ولكن هؤلاء الصيادين لا يستأثرون وحدهم بالغنيمة ، فللرئيس حصة منهـا مهما يكن نوعها ، وللملك نصيبه الذي هو الخراج .

اجل لم يكن لملوك الحبشة خراج من المال ، بل كان خراجهم عاجاً وجلوداً وحبوباً ، على مثال العشر الذي يؤخذ في هذا الزمان .

على كل صياد بضعة جلود في العام يحملها الجباة الى الملك صحيحة لا نتن ولا رطوبة ، ويوضع نصيبـــه من العاج في بناء طويل عريض لـــه حراس يدعونهم « حراس الفيل » ثم تحمل هذه الاشياء الى التجار ، او الى الاقطار .

اما الجماعات الاخرى ، من التجار والصناع فخراجها يزيد على خراج الصيد في هذا العام ، وينقص في العام الآخر ، لحكمة يراها الملك وجباته .

وكان العلي اسكندي ، كثير العطف على الامة ، وله العناية الخاصة بالصيادين، فهم في نظره سياج الحبشة وحماتها ، ورجال القوة والبـــأس واصحاب السيف القاطع في اليوم العصيب .

اجل ، ان الرجل الذي يهاجم الاسد في عرينه ، لا يتردد في ان يهاجم عدوه في ساحات القتال

واحب افراد الجيش اليه ، اولئك الرجال الذين يحملون سهامهم كل يـــوم ويطوفون في الغاب بين الاسود والانمار .

وقد جعل معظم قواده من هؤلاء ، وخصهم بالعطايا والنعم ، حتى اصبحوا بعد الملك ، اغنى اهل اليمن بفضل ذلك العطاء .

وكما بز العربي ، جميع الشعوب التي حوله ، بضرب السيف ، هكذا بز الحبشي

بالرماية ، جميع اهل ذلك الجيل لا يجاريه فيه احد .

وكما روضت العرب خيلها حتى ضربت بها الامثال ، هكذا روض الحبشان افيالهم يرسلونها الى حيث يشاؤون كما يرسل العربي فرسه الى حيث يشاء .

وجيش العلي اسكندي ، فرق كثيرة لكل منهـا عمل من اعمـال الحرب ، ولكن ، ليس لها نظام كنظام ذي القرنين ، وقد تكون في الميدان ، اصدق طاعة من فرق الجيش اليمني .

غير ان هنالك شيئا آخر لا ننساه ، هو ان الفارس يستطيع ان يسكت فرسه اذا هاج ، ولكن الفيل اذا هيجوه لا يهدأ ولا يلين .

ولولا هذه الطبيعة الجامحة ، لكان صاحب الفيل سيد الموقف في كل حرب ، ولما استطاعت الصفوف ان تثبت في وجه فيل واحد يدفعه راكبه الى الامام ...

ولم يعن العلي اسكندي بجيش البر فحسب ، بل وجه عنايته الى صنف آخر من الجيش هو جيش البحر ، وليس في ذلك شيء من الغرابة ففي بـلاده امهر الملاحين الذين اخضعوا البحار .

وكانت له مراكب كثيرة عدا مراكب قومه ، يبعثها في تجارته الخاصة الى الشواطىء وينقل عليها الجنود عند الحاجة ، الى بلاد الناس .

وحياة الملك ، في بلاطه ، وبين شعبه ، حياة هناء وصفاء ، ومجد وعز كحياة اولئك الملوك الشرقيين الذين دانت لهم الارض فجروا اذيال الخيلاء .

مال لا تأكله النار كما يقولون ، وحاشية ، من نبلاء القوم واشرافهم ، وملوك الناس يحترمونه ويخطبون ولاءه ، وغابات بلاده تعطيه ما يشاء من الصيـد وقد اولع به الى احد الجنون ، ورجال الحبشة ونساؤها اطوع لهم من ظله .

الا امراً واحداً كان يهمه ويتهيأ له : هو الاستيلاء على العرش الحميري ونقله من مأرب الى اكسوم !

ان اجداده في اوائل القرن الثاني ، واواخر الثالث ، فتحوا بعض اليمن وبعض تهامه ، وجعلوا ذينك القطرين ميدانا للتجارة ومجالا للنفوذ ، امـا هو فيريد ان يفتحها جميعاً ، ويكتب الى جانب اسمه العظيم هذه الكلمة :

ملك اكسوم وسبا وريدان وسلحين !

ان هذه الكلمة ، كتبها اولئك الاجداد الى جانب اسمائهم ، ولكن وضع البل عليها يده ومحتها الاقدار ، فهو يريد ان يكتبها من جديد بحروف من الفولاذ لا يستطيع ان يؤثر فيها مر الزمان .

على ان هذا الملك ، الصياد ، الطيب القلب ، الذي كان ابا لشعبه لم يكن يطمع باليمن من قبل، ولم يفكر في الفتح لولا القيصر الجالس على عرش الروم .

اجل ، ان حليفه ملك روما يدفعه بيديه الاثنتين الى استرجاع ما خسره الجدود ، ليس « كرامة لسواد عينيه » ، بل لان مصلحة الروم تكاد تضيع ، في كل بلد يخفق فيه لواء ذي القرنين الحميري .

وهو لا يحتاج الى السلاح والمال ، وهب انه احتاج فالقيصر يبعث اليه بهما دون ان يكون بين الاثنين حساب .

وكان يعلم ان ذلك القيصر لا يحب الا نفسه ، وانه اذا دفعه الىفتحاليمنفانما يفعل لاجل الكسب كما قرأت ، ولكنه لم يكن يريد يغضبه خوفاً من ان يوجه اليه الجيوش من مصر فتعكر عليه الجو ، وحفظاً لمصلحة الحبشة وتجارتها في بلاد فرعون الزاهرة ، الكثيرة الخيرات .

على انه لم يكن يجرؤ على التوغل في اليمن الا اذا آنس ضعفاً في حكومته وعجزاً عن حماية الحدود الفاصلة بين القطرين .

والا فالحرب تبقى بينهما معارك صغيرة كما رأيت حتى تسنح له الفرص ، فيمشي الى الامام ويكتب له الظفر بعدوه او يموت .

فلما بلغه ان سابور يطوف في بلاد العرب معه ويطوف معه الفناء والدمار بعث بفريق قليل من جيشه الى الشاطىء اليمني كما مر ، ليسبر غور الحميري موقفه بين عدوين يهاجمان اليمن من الشمال والجنوب .

ثم انتهى اليه ان سابور في اليمامة فخيل اليه ان ساعة ذي القرنين قد دنت ، وعول على احتلال مهرا ، من الجنوب ، اذا غزا ، سابور اليمن داخلا اليها من الوادي الذي هو وادي الدواسر ، اليوم .

وعندئذ يقضي على جاره القضاء الذي لا قيـام له بعده ، ولا يلبث الملك الفارسيَ حتى يعود الى بلاده راضياً بالدماء التي اجراها في سبيل ثأره ، فيخلوله الجو ، ويستقيم له الامر ..

واقام ينتظر اخبار الشاطيء ، وهو واثق بان جنوده سيملكونه ، فـيرسل اليهم فريقاً آخر من ابطاله تتسع بسيفهم منطقة نفوذه وتمتد .

ثم يمشي بخطى موزونة هادئة ، والجيش يتبع الجيش ، حتى يخضع له الجنوب كله ويزحف منه الى مأرب فيدمرها ويحمل عرشها الى عاصمة ملكه .

وبينا هو يطوف في الغاب ، باحثاً عن الاسد والنمر والامل يملأ صدره بلغه النبأ الرائع بفشل رجاله ، وهربهم من السيف .

فرجع الى بلاطه وقد ترك صيده ، وذكر عز اكسوم ومجدها الماضيين ، وقوة آبائه الذين فتحوا لهم من قبل طريقاً الى القطر اليمني .

ثم جمع قومه يستشيرهم في الامر ، وقد تحول من ملك هادىء راض بما عنده الى ملك طامع لا يغذي طمعه غير الغزو والفتح .

ودعا القائد الهارب وامره بان يعيد عليه خبر هزيمته وفشله .

* * *

شرب ذو القرنين في تلك الليلة حتى نسي اسراره ، ونسي نفسه .

وذو تبع يسقيه بجود وسخاء كأنه ضيف له .

وهو يتناول الكأس فيجرع ما فيها ثم يجرع الاخرى على اثرهـا كالمحموم الظمآن يشرب ولا يرتوي .

حتى امسى حديثه عربدة وحتى عقد السكر لسانه فبات يمضغ الكلام مضغاً وينظر الى ما حوله كما ينظر المجنون .

وهذا ما اراده امير همدان ، فقد اعطاه الخمر ما لا يعطيه اباه حاشد بليلتين ليقرأ تلك الصفحات السود التي ينطبق عليها صدره .

ومهما يكن الملك داهية في السياسة ، فالسكر يمحو ذلك الدهاء ، ولا يبقي على شيء من ذلك الاسلوب الناعم الجذاب .

وذو تبع لا يهمه من امره ، الا ان يفضي اليه بما يضمره لبلقيس من بغض ، وما يعده لها من حيلة ، وغرض خبيث .

وقد خدمه القدر بالحصول على منصب يستطيع معه ان يدخل معه الى اعماق نفس الملك دون ان ينم عليه مظاهر غايته .

ولكنه لم يكن يجرؤ على السؤال ، خوفاً من ان يصحو الملك لسؤاله ، ويعود الى صدره من جديد ، ذلك الشك الذي كاد يضمحل .

غير ان الحظ كان حليفه في ذلك الليل ، فان اعصاب الملك لم تتخـــدر من هذه الناحية الا ليستفيق شعوره ، من الناحية الاخرى ويفضح نفسه .

وبدأ يقول بلسانه المتلجلج المضطرب :

الم تكن امس في قصر شرحبيل يا ذا تبع ؟ ! .

فدهش الفتى لذلك القول وايقن ان رشد الملك قد ضاع ، ، ثم قال : لقد سألتني يا مولاي مثل هذا السؤال وخبرتك هذا الصباح كل شيء .

فاضطجع على وسائده واجاب قائلا : نعم ، نعم لقـــد سألناك عن ذلـــك ولكنك قلت انك لم تر بلقيس ! أليس كذلك ؟

ـ بلى يا مولاي واعيدها قلته الآن اني لم ار غير شرحبيل وولده .

ـ وقلت انك لا تعرف هذه الفتاة .. الحسناء...

ـ نعم وانا لا اعرفها يا مولاي .

قال : كنا نؤثر ان تراها لتصفها لنا ، ولكن لا فخير لك ان تظل بعيداً عن هوة الموت . .

وخرجت تلك الكلمة كأنها حكم بالاعدام يصدره الظالم على بريء .

فقال : اشرب يا مولاي اذا شئت فالموت لا يجسر على الدنو من نديم الملك وساقيه . ومع ذلك فانا لا اعلم كيف يموت الفتى الذي ينظر الى بلقيس .

فمد يده المرتجفة قائلا : ضع الكأس بين الشفتين وارسل الى جوفنا ما فيــه

فيد الملك لا تقوى على حمله . واما كيف يموت النـــاظر الى بلقيس فذلك سر لا نذكره لاحد .. بل نذكره لك فانت نديمنا كما قلت وصاحب سر الملك .

ـ وكيف ذلك يا مولاي ؟

ـ لقد وصفت لنا بلقيس واثبت واصفها انها اجمل من في اليمن من نساء بل هي اجمل نساء العرب الم تسمع انها كذلك ؟

ـ لا . .

ـ اذن فمن حسن حظلك انك لم تسمع !

فكاد يضيق صدر الفتى لذلك الهذيان وهم بان يجلس صامتـــا حتى يغمض الملك عينيه فيأمر الحراس بان يحملوه الى فراشه .

ولكنه خاف عاقبة السكوت وخشي ان يفضي السكر بالملك الى غضب يضيع معه امله ويخيب رجاؤه ، فقال :

يظهر ان مولاي لا يريد ان يبوح بسره :

ـ لقد بحنا به ايها الابله ولكنك لم تفهم ، اسمع انـــك اذا رأيت بلقيس او وصفت لك احسست انك لا تستطيع العيش الا اذا اصبحت لك .

ـ اي ان وصف ذلك الجمال يخلق الحب في الصدور ؟

ـ نعم ، ولما كان الملك يريدها لنفسه ، كان ذلك الحب جريمة في نظره لا يغفرها لك او لسواك افهمت الآن ؟

ـ فهمت ان من يحب بلقيس كان جزاؤه الموت .

ـ هو ذاك واذا احبت بلقيس ايضا كان الموت جزاء لها .

فاحذر ، ولتحذر تلك الحسناء التي لم تطلع شمس الجزيرة على مثلها .

فدب الذعر في قلب العاشق . ان الملك يعرف حكاية غرامه وهو ينهاه ، في ذلك الاسلوب ، عن هذا الغرام .

والا فما هو معنى الغازه وتحذيره ؟

ولكن من اين للملك ان يعلم ذلك وجميع الذين يعرفون حكاية ذلك الحب لا يبوحون به ؟

ومن هم الاشخاص الذين يعرفونها ؟ هم شرحبيل وابنه ، وذو مغـار ومن حوله ، وعنيك بن روضة وبنت الريان ، وهؤلاء جميعهم يؤثرون الموت عـلى الانضاء للملك بما يعلمون .

اذن فالملك لا يظن ولا يتهم بل يهذي ، وعلى الامير الفتى ان يحـاربه الى النهاية ليبلغ الغاية ، فقال :

اقسم برأس الملك وتاجه اني لا احب بلقيس ولا افكر في هذا الحب،ولكن الحب انت بلقيس وهي الفتاةالتي انفت من العيش في ظل الملك ؟

فبان الحقد على وجهه وجعل يقول : اجبها نعم ، حبا يذيب قلبي ، ويخرق أحشائي : ولكن هذا الحب ، سينتهي .. أتعرف بماذا ايها الابله ؟ انـه ينتهي بالموت ... وسيحزن ولي العهد على زوجته ويبكي جمالها الفتان .

فأثبت الفتى لمولاه انه ابله بقوله : متى يتزوج ولي العهد ؟

قال : عندما يعود من سفره .

وقهقه ضاحكاً كما يضحك السكارى امثاله .

قال : يخيل الي انك تمازح نديمك يا مولاي .

ــ وما الذي دلك على هذا ؟

ــ قول الملك انه سيقتل بلقيس ثم قوله انه سيجعلها ولية للعهد .

ــ واي القولين تصدق ؟

ــ القول الآخر يا مولاي ؟

ــ اي ان الفتاة ستزف الى عمرو ، اجـل ستزف اليه ولكن دون ان يكون بينها وبينه عقد زواج !

ــ اذن تكون احدى جواريه .

ــ بل تكون حظية لنا قبل كل شيء ، لقد اراد الملك ان تكون بلقيس لـه وارادت هي ان تكون زوجةلعمرو فليكن ما اردنا نحن لا ما ارادت هي وليشمل امر الملك جميع من في اليمن من ولده حتى اخر فلاح في حضرموت : لقد قلنـا هذا من قبل ونقوله الآن وفي كل زمان فليسمع شرحبيل بن عمنا ولتسمع ابنته

وليتنظر كل واحد منهما ارادة الملك التي لا ترد .

ثم جعل يقول : سيجيء شرحبيل غداً حاملا الينا رغبة بلقيس في ما نتحدث به ، فاذا قالت نعم صبرنا حتى يعود ولي العهد وارسلنا رجال البلاط والامراء مع مركبة الملك ليحملوها عليها الى هذا القصر تحف بها نساء مأرب وبنات الاشراف ، واذا قالت لا ، بعثنا جنودنا ليحملوا رأسها ورأس ابيها الى الساحة تحف بهما السيوف الملطخة بالدماء ..! ثم ذكر ذلك المعربد ، تلك الفتنة التي تخيفه ، فقال :

ولكن .. النار .. نار الفتنة التي يسعرها ابن عمنا واتباعه .. النار التي تتعب الملك وتوغر صدور الامراء من يخمدها ويحقن دماء اليمنيين ؟ ومن يقف في وجه التيار الصخاب المنحدر من الجبال والمدمر كل ما يعرض له ؟؟ لا لا ، ان الملك لا ينفر ولا يضرب ، بل يفتح ذراعيه لعدوه ويبتسم له ثم يطعنه بخنجره طعنة تزهق لها روحه ويمسح بثوبه دمه الخبيث الذي تتلوث به يداه .

وتململ كانه يريد الجلوس فلم يقدر ، فتمتم قائلا :

ومن يتبع شرجبيل العاجز من اصحاب المخاليف ؟! لا وتربة حمير .. ان بينهم من يحمل وراءه السيف ونحن نعرفهم كما يعرفون انفسهم ولكننا نؤثر السكوت والصبر حتى يخرجوا عن الطاعة ويظهروا العصيان .! اما اذا شئت ان نعدهم فهم الامراء الخونة ذو مغار وياسر والغوث وجبار ولو كان امير شبوة حياً لكان منهم وجميع هؤلاء لا يرفعون رؤوسهم حتى يسحق الملك هذه الرؤوس .

فسنحت الفرصة كما ارادهـا ذو تبع ، اي ان البحث انتهى بهما الى ذكر الزواج ، فخفض صوته وهو يقول :

اتقتل شرحبيل وبلقيس وتقطع صلة الرحم يا مولاي ؟

بل نقتل كل من ذكرنا لا نترك احداً ... ولكن لا تظن اننا نقتلهم اليوم فلكل امر ساعة وساعتهم لم تأت بعد .

ــ وهل تفعل ذلك اذا اصبحت بلقيس لك ؟

ــ ان وجود بلقيس في البلاط لا يضمن وجود الاخلاص في صدور هؤلاء

اجل ايها الابله . حظية الملك .. او زوجة ولي العهـد شيء .. وقضية العرش شيء آخر وبلقيس اضعف من تحول بيننا وبين السيف .

اذن سيموت شرحبيل واتباعه في الحالين .

ـ نعم في الحالين واذا خطر لك ان تنتظر لهم ايها الابله كان نصيبك الموت .

فقال الفتى في نفسه : لولا اباء في هذه النفس لرفعت ستار هذا الباب واومأت الى عتيك بأن يدخل فيقضي عليه بضربة خنجر واحدة .. ثم قـال : ولكني لم افهم يا مولاي كيف يتم زواج ولي العهد بدون عقد وكيف تمسي بلقيس بعـد ذلك حظية للملك !

ـ اما بلقيس فستترك قصر ابيها كما قلنا لك لتصير زوجة لولدنا ولكنها لا تدخل البلاط حتى يأمر الملك ولده بالزحف الى بينون ثم الى براقش يتبعه رجال السيف المقيمون في مأرب وفي صرواح !

ـ لماذا يا مولاي ؟

ـ ليضعوا ايديهم على الامارتين ويقبضوا على جبار والغوث ويحملوهما اسيرين الى البلاط فيرى الملك فيهما رأيه !

ـ وما الذي يمنع الملك من ان يفعل ذلك في هذا اليوم ؟

ـ اذا فعلنا ذلك كما تقول حمل شرحبيل ابنته ولجأ بهـا الى الجبال ليجمع الخارجين عن الطاعة ويضرم النار فتفلت حسناؤه من يد الملك وتضيع هيبته ثم يطول اجل الحرب وتعم الفتنة جميع المخاليف .

قال : لقد فهمت الآن يا مولاي انك تريد ان تغلق ابواب قصرك على بلقيس لتضمن سكوت شرحبيل واستسلامه اليك .

ـ اجل ، وكيف يجرؤ ابن عمنا على ان يقود الجنود وابنته بـين يدي الملك يدفنها وهي حية عندما يشاء ؟

ـ والآخرون يا مولاي ؟

ـ من هم ؟

ـ ذو مغار وابن عمه ياسر ومن حولهما ؟

ـ اسمع ، ان ولي العهد لا ينتهي من امر براقش وبينون حتى يعود الى ريام ومغار فيقضي على اهل الاثنتين ويجعل القيود في ايدي الاميرين .

ـ وكيف يرضى ولي العهد بان يترك البلاط ساعة وصول بلقيس اليه ؟

ـ ومتى كان الامراء مثلك يسألون مثل هذا السؤال ؟ ان الملك اذا اراد امراً لا يبقى في البلاط رجل يسألونه ان يرضى بذلك الامر . يأمر الملك فيطيعه ولي عهده دون ان يتردد او يشكو ، واذا فعل ، اكرهناه على الرضى كما نكره احقر الرجال في الرعية حتى يعلم القوم ان امرنا فوق كل شيء .

وسكت قليلا ثم قال : وبعد ذلك ، اي بعد ان يغادر عمرو البـلاط تمشي حسناء العرب بين الحظايا . ويأمر الملك من جديد ، ولي عهـده بعد عودته ، بان يختار فتاة اخرى زوجة له .

ثم يجيء دور شرحبيل الذي يكون قد خسر جميع انصاره فيضربـه مولاه ضربة تهلع لها قلوب الخونة في القطر العربي ،وذلك بعد ان يرى ابنتـه العوبة في ايدي الامراء ثم في ايدي الغلمان .

قالها واغمض عينيه ، ثم غاص في لجة الكرى وهـو يتنفس تنفس المريض انشبت فيه الحمى مخالبها القاسية .

فجعل ذو تبع يتفرس في وجهه ، وصدره يغلي، وعاطفة المروءة تنازع عاطفة البغض في نفسه ، والشرف يصارع النذالة والغدر .

وليس بدعاً ان ينتصر شرفه ، فذو تبع من الفتيان الذين لا تخرجهم المواقف الصعبة عن ابائهم ، ولا تضيع الشدة عظمة نفوسهم وخلقهم النبيل .

وبينا هو مستسلم الى تفكيره ، رأى يداً تمتد من وراء الستار لترفعه وكانت يد عتيك بن روضة ، ثم رأى وجهه الاصفر وخيل اليه ان شفتيه ترتجفان .

فاومأ اليه بان يحتجب ، ثم ينصرف ، ونهض فنادى الحراس القادمـين بالرواق قائلا لهم : تعالوا نحمل الملك الى فراشه .

ولكن الملك فتح عينه في تلك اللحظة وجعل يهذي قائلا: احملوني الى فراشي فالنار التي ترسل السنتها الي لا يخمدها الا الدماء . !

واقبل الحراس فحملوه وهو يقول :
احذروا ان تلوثوا ايديكم بدم ملككم ايها الانذال .
وعندما وضع في فراشه واحاط به غلمانه وجواريه ، تراجع ذو تبع وهـو يخاطب نفسه قائلا : لقد كنت مخدوعا في اخلاصي لك ايها الملك السفاح الذي استحل الاعراض وتحتمي بعرشك العالي النائم على جثث الابرياء .
وكان يردد وهو ذاهب الى حجرته : ويل لليمن منك اذا هي لم تسلبك هذا العرش الذي يحميك ! .
ولم يدخل تلك الحجرة حتى اقبل عليه عتيك يحجبه الظلام عن عيون الغلمان، وبات الاثنان يتحادثان .

• • •

لقد وعد شرحبيل الملك ، انه سيحمل اليه غداً جواب بلقيس وانا لم اسألك عن هذا فهل تعلم ماذا يكون ذلك الجواب ؟
فقال ذو تبع : سيكون جوابه مطلا اذ لا يخطر لشرحبيل ان يرضى بما يطلبه ذو القرنين ..
ـ ولكن الملك سيثور لهذا المطل الى الجفاء .
ـ وماذا يفعل بعد ذلك ؟
ومن يعلم ماذا يصنع ، انه في النهار فريسة شهوته وكبريائه ، وفي الليل فريسة سكره وهو في الحالتين لا عهـد له ولا نظام .. ولكني ارى ان شرحبيل سيلقي بنفسه بين براثن الاسد وان الاسد سيبدأ بالعض والنهش .
قال : ستخدر بلقيس اعصابه بجواب تطيب له نفسه .
قال : اتظن ؟
ـ بل اعتقد فدهاء الملك وحيلته لا يذكر ان عند دهاء هذه الفتاة الفتانـه الجميلة بكل شيء .

قال : هو الحب يملي عليك ذلك يا ذا تبع .

ـ اصبت غير اني لست اعمى في حبي ولا يمنعني غرامي من ان اذكر لك ما رأيت وعرفت

قال : ابذل نصف حياتي لمن يجمعني مع بلقيس ساعة واحدة .

ـ لماذا ايها الامير ؟

ـ لاقترح عليها اقتراحاً ارجو ان تبلغ معه الغاية من سكوت الملك .

ـ اذكر لي هذا الاقتراح ان شئت ثم ننظر في امر نقله الى قصر شرحبيل ،

ـ يجب ان يقول شرحبيل للملك ان بلقيس لا تعد بالزواج قبل ان يعود ولي العهد وتراه وتسمع رأيه فيه !

لنفترض ان الملك رضي بهذا الجواب فماذا يحدث بعد رجوع عمرو ؟

ـ تقص عليه الفتاة كل ما جرى بينك وبين الملك في هذا الليل وتشرح له غرض ابيه وحيلته !

فتراجع مذعوراً وهو يقول : اذن تريد ان يضرب الملك عنقي عند ما يسأله ولده عن ذلك .

ـ واي شأن لك بهذا ؟

ـ ان الحديث الذي جرى بيني وبين الملك سر من اسراره كما تعلم لم يبح به الا لي فاذا انتهى اليه ان بلقيس نقلته الى ولي العهـــد عرف اني افشيته لها ولمس بيديه الاثنتين غرامي الذي اخفيه .. وهل تظن ان الملك يعدل عما يفكر فيه اذا فضح امره ولي عهـــده ؟؟ انه عندئذ يزداد غضباً ويأمر بان تحمل بلقيس الى البلاط ...

فضحك قائلا : لقد اخطأت من ناحيتين يا ذا تبع ، الاولى ان الفتـــاة لا تحمل الى هذا القصر الا اذا رضيت ، والاخرى ان ولي العهد يأبى ان يتزوج على هذه الصورة ولو اكرهـــه ابوه بالسوط على الزواج ... وبين حيلة الملك وتردده في امر يتسع المجال للمتآمرين ويتعجلون في اظهار العصيان .

ـ وانا ؟

ـ اما انت فستنجو من غضب الظالم بحيلة اذكرها لك الآن .

واطرق وهو يستعين بقريحته النارية ثم قال : لقد كان ولي العهد ، في الاعوام التي مرت على وجودي في البلاط ، راضيا عن سكوتي ، محدوعا بابتساماتي القصيرة وخضوعي لامره واعجابي بكل ما يفعل وكل ما يخطر له .

ـ نعم .

ـ وكان ناشر امين سره الذي هو شر رجل في البلاط يثق بي ويظهر رغبته في التقرب الي والافضاء باسرار القصر .

ـ واذا كان هذا ؟

ـ اذا كان هذا هان علي الامر واستطعت ان اقول لناشر عندما يجيء : ان بلقيس لن تكون زوجة لمولاك وابوه حي ، ثم اخبره كل شيء دون ان اذكر له ان لك علما بما اقول ..

ـ ولكنه سيسألك بدوره عن الرجل الذي باح له الملك بهذا السر .

ـ اجل وسأقول له ان الرجل ذو تبع نفسه الذي لا يحبه ولي العهد ولا يريد ان يرى وجهه .

فظهر التردد على وجه الفتى .

اما هو فاستطرد قائلا : سأصف له مجلس الملك في قاعة الشراب واعيد عليه حديثه بشأن بلقيس كأنه يسمعه من فمه . ولا اتردد في القول اني سمعت ذلك الحديث كلمة كلمة وانا في الرواق !..

قال : احذر ايها الامير فانت الذي تلقي بنفسك بين براثن الاسد .

ـ اعرف ذلك ولكني لا ابالي فولي العهد يستطيع ان يحميني ويحول دون وصول هذا الاسد الي .

ـ ومع ذلك فسيبوح لابيه باسمك ويطلب اليك الملك ان تصف له وقوفك بالقرب من باب مجلسه تنصت الى ما يهامس به نديمه وساقيه في ساعات لذته وسكره !.

قال : اعتقد ان ذامرأ وولي العهد سيكتمان الملك اسم عتيك .

ــ اما انا فاعتقد انهما لا يكتمانه شيئا .

قال : سأقذف بنفسي الى الهوة واحتاط لامري فلا تخف . ان الغاية من هذا أن يعلم ولي العهد حيلة ابيه فيغضب لكرامته اذا كان له شيء من كرامة الملوك ويتعكر الجو بين الاثنين .

ثم قال : اذن اطلب الى ولي العهد ان يقول للملك : ان حارسا من اولئك الحراس الذين يقومون بباب المجلس ، نقل اليك ذلك الحديث .

ــ واذن يموت الحارس وهو بريء .

ــ ليمت جميع من في البلاط ولتسقط السماء على الارض فانا مثل الملك لا اهتم الا لنفسي . ه آه كيف اصل الى بلقيس الليلة ام في الصباح لاخبرها ما اشاء قبل ان يجيء شرحبيل الى القصر .

قال : انها تعلم اسرار الملك كما تعرفها نحن .

ــ ذلك لا يكفي فقد يكون جواب شرحبيل جواب قبول .

فاستيقظت في صدر الفتى عاطفة الغيرة وجعل يقول في نفسه : اجل ، قد تنسى بلقيس قسمها ويكون الجواب جواب قبول ؟

وذهل عن عتيك وعن كل ما حوله ، وطارت روحه الى قصر بن يعفر ترفرف فوق فتاة القصر بألم وكآبة .

فقال عتيك مازحا : اين انت الآن يا ذا تبع ؟

ــ بين يدي شرحبيل بن عمرو اسأله ان يزوجني ابنته .

ــ وهل تحبك ؟

ــ لقد عرفت ما تريد ان تعرفه فاسكت اذا شئت .

قال : اذا كانت بلقيس تحبك فقد ضاعت آمال ولي العهد وانا اضمن لك انها لن تكون له ! انها اذا وعدت وفت وليست من اولئك الفتيات اللواتي يغررن العيش في البلاط ويستسلمن الى اللذات .. واما اذا لم يكن هنالك قلب يخفق

فالامير الذي سيلبس تاج الملك بعد ابيه لا يستطيع فتى من فتيان اليمن ان يسلبه بلقيس الا بقوة سلطان الحب الذي لا يغلب .

قال : لقد تأثرت المطامع في صدر بلقيس حتى لا اخشى ان تظفر بالغرام الذي اعترفت به ووثقت بقوته .

ـ اي انك تخاف ان يغرها التاج ..

ـ نعم .

قال : ان لك تاجاً صغيراً هو تاج همدان وقد ترضى بـه ولكن هذا القلب يكاد يذوب لهذه الغيرة التي تتأجج نارها فيه .

ـ اذن ارجو ان تثق بها كما تثق بالآلهة ولا تعد الى هذا .

ـ وعلى اي شيء عولت الآن ؟

ـ على ان اطرق باب شرحبيل في هذا الليل .

فلمع الامل في عينيه قائلا : بل اذهب انا فقد لا يصدق كلمة مما تقول له ولكن اخشى ان يستيقظ الملك ويسأل عن ساقيه .

قال : لو سقطت عليه جدران هذا القصر لما استطاع ان يفتح عينيه .

ـ واخشى ان ينتبه الحراس لخروجي ويبلغ الخبر الملك في الصباح .

قال : لي في البلاط غلام من قومي تلبس قلنسوته وثيابه .

ـ واين هو ؟

فخرج ولم يلبث حتى عاد والغلام معه وهو يقول : البس ثوبـه وسيبقى في هذه الحجرة حتى ترجع .

ففعل ولم يتردد ، وحجب جبينه بقلنسوة الغلام ثم خرج وهو يمشي بسرعة كما يمشي الغلمان حتى وصل الى الباب فقفز الى الخارج والحراس ينظرون اليـه ويعجبون بخفتـه وهم يظنون انه خرج في مهمـة بأمر الملك او غيره من امراء القصر ...

ثم دب النعاس في العيون فباتوا ينظرون الى الداخلين الى القصر والخارجين.

منه كما ينظر النائم الى اشباح تتراءى له في الحلم .
ولم يعلموا في اي هزيع من الليل رجع ذلك الغلام الى البلاط .

***

٢٣

ماذا تقولين يا نائلة ؟ امير همدان في القصر في مثل هذه الساعة ؟
ـ نعم يا مولاتي وقد امرني مولاي الامير بأن ادعوك الى قاعة القبة .
وكانت تلك القاعة لا تبعد عن الباب الكبير غير بضع خطوات وكان سقفها قبة مذهبة الجوانب يظهر فيها الفن القديم على انواعه .
وكثيراً ما كان شرحبيل يجلس فيها مع اضيافه .
فلما دخلت بلقيس رأت حبيبها يهامس اباها وهو اصفر الوجه وقد اغتصب ابتسامة بدت على شفتيه كأنها دليل استهزاء .
فجلست بالقرب من ابيها وقلبها يكاد يثب من موضعه ، واخذت تتفرس ذلك الوجه الاصفر الذي يجذب سحره القلوب .
ثم قالت لـــه وصوتها يضطرب : اي شيء حملك على المجيء الينا في هـــذا الليل ؟..
فأجابها وعاطفتـــه تشع في عينيه قائلا : جئت انقل اليكم اني اصبحت اسير الملك لا استطيع ان اغادر قصره الا اذا اطبق السكر والنعاس جفنيه .
فذعرت بلقيس لتلك المفاجأة وجعلت تنظر الى ابيها كأنها لا تصدق ما سمعت وهي تردد تلك الكلمة التي قالها ولا تجد معنى لذلك الاسر .
ثم خيل اليها ان الفتى يمزح ، فقالت : وما هذا الثوب الذي تلبسه ؟
فقال شرحبيل : هو ثوب غلام من غلمان البلاط والامير اذا اراد الفرار لا يستطيعه الا اذا لبس غير ثوبه وتنكر لحراسه !!

قالت : الا تحدثني بما جرى لك ؟

ـ بلى ، لقد جعلني الملك نديماً له اجالسه على شرابـــه واسقيه افلم تكن هذه المنادمة اشد وقعاً علي من الاسر كما ترين ؟

فابتسمت وهي تقول : واين ذهب حاشد اللعين ؟

ارسله ليستعجل ولي العهد .

ـ اذن فانت نديم لبضعة عشر يوماً ؟

ـ من يعلم فقد يطول اجل المنادمة شهورا .

ـ ولكن هذا الاسر الذي تشكوه هبة تخدمنا بها الاقدار افلا تعلم ان مجالسه الملك على شرابه مفتاح الاسرار ؟

ـ اعلم ذلك ولكني لا اطيق ان اسمع عربدته كل ليلة كما سمعت منذ ساعـــة واحتمل منه ما لا يحتمله الا الجبان .

واعاد على الامير حديث الملك ثم سكت .

قالت : اتخرج من البلاط بثياب الغلمان لاجل هذا ؟

ـ بل اتيت ليطلعني الامير على الجواب الذي يحمله غدا الى الملك .

فقال شرحبيل : وما هو رأيك في ذلك ؟

ـ ليس لي فيه رأي ولكن انقل اليك رأي عتيك بن روضة .

ـ أرأيته ؟

ـ نعم وهو على دعوتنا ولا يصدق متى تأتي الساعة التي يجرد فيها السيف على الملك الذي هو عدو اليمن .

فافتر ثغر بلقيس قائلة : وهذه هبة اخرى وهبتها لنا الاقدار ، واما رأيه ؟

ـ اما رأيه فهوانتظار ولي العهد حتى يعود ، ثم تظهرين بعد ان تريه رغبتك في الزواج او عدمه .

قالت : يظهر ان الرجل من اصحاب الرأي !.

ـ وهل تفكرين في رؤيته ؟

ـ اجل فسأحارب الملك بولده وستعلم كل شيء .

ـ والخطر يهدد يا بلقيس ؟

ـ اما الخطر فسأقتحمه وانا واثقة بالقوتين ، الحيلة والجمال .

ثم قالت : افلم اذكر لك هذا الخطر امس ؟

ـ بلى :

ـ افلم ترض ان تخوض المجال معي ساكتاً واثقاً بوعدي ووفائي ؟

ـ بلى .

ـ وما الذي طرأ عليك الليلة يا ذا تبع ؟

قال : ايأذن لي مولاي الامير ان ابوح بسري ؟

فاجابه قائـــلا : لقد عرفت هـــذا السر وانا اقسم لك ان بلقيس لم تفكر في الزواج الا بعد ان رأت امير همدان !

ـ ولكن الغيرة يا مولاي . .

فقالت : دعها للملك وولي عهده اللذين ستقضي عليهما ، والآن ارجو ان تعود الى القصر خوفاً من ان يستفيق ملكك وتسمع جواب ابي غدا قبل ان تطلع الشمس ، ثم تسمع رأي الملك في هذا الجواب عندما يستولي عليه السكر .

ـ وكيف انقل اليك ما اسمع ؟

ـ سترى نعمى في البلاط كل يومين فان لم تشأ ان تحادثها على مرأى من القوم فعتيك بن روضة يتولى هذا الامر عنك . قم فانا خائفة .

قال : بقيت لي كلمة هي ان امير نحلة يحاول ان يغـــدر بالملك من ذلك ولم استحسن هذا الغدر .

ـ ويل له وكيف ينجو من القتل ؟

ـ يضرب الملك عندما يصرعه السكر ثم يفر الى بـــلاد قومه فيمنعونـــه ويبذلون ارواحهم في سبيل الدفاع عنه .

ـ احذر ان تبدر منه بادرة . انه اذا فعل خرج القوم عن طاعتنا وقـــامت اليمن كلها تنتصر لولي العهد وتجلسه على العرش .

ـ لماذا ؟

ــ لان الذي يغدر بالملك لا يستحق عطف الاشراف واهتمامهم لامره ولا يلقى الا الخيبة من الصفوف . نعم ، فاذا حاربنا الملك حاربناه في وضح النهار وملأنا مأرب صياحاً انه الملك الجائر الذي يصعد في سلم الغنى والمجد على جثث الابرياء ودعونا الناس الى حمل السيف للدفاع عن حق الامة بخلعه عن العرش .

ثم نهضت كأنها تدعوه للانصراف .

فتردد في النهوض، ثم هم بالكلام فوقفت الالفاظ في حلقه .

فادركت بلقيس ان الخجل يمنعه من قول ما يشاء فقالت له :

لولا قسم اقسمته امام الآلهة لبحت لك بجميع ما في الصدر . ولكن اعلم ان السر الذي كتمتك اياه كتمته جميع الناس وهذا ابي يشهد انه لا يعرف من امري اكثر مما تعرف وقد احترم قسمي فلم يسألني عن السر الذي ذكرت . وها انا احلف لك برأسه ان ذا القرنين وولي عهده لا يساويان بنظري قلامة ظفرك ، أيكفيك هذا ؟

فقام عندئذ وقد وثق الوثوق كله، ولكنه تحير في امر ذلك السر الذي احتفظت به واخفته عن الناس .

وقبل ان يخرج استوقفته قائلة : اعيد عليك قولي السابق اني لا احب ولي العهد ولا اريده زوجا لي ، ولكني مكرهة على الوقوف معه موقف العاشقة التي برح بها الغرام، اتستطيع ان تحتمل ذلك يا تبع؟

وهمت بان تقول ايها الحبيب .

فقال : لو كان يرضيك احتمالي عذاب الموت لما ترددت في احتماله .

ــ اذن فاذهب مطمئنا واهزأ بكل ما ترى .

وعندما انصرف وجاوز الفناء اقبلت على ابيها تقول له :

يخيل الي انه سيتعذب كثيراً من اجلي ولكن ما حيلتي والقدر الساخر لا يرحم ولا يلين .

لقد قرأت ان نعمى حدثت بلقيس بكل ما دار بينهــا وبين الملك وقصت عليها حكاية حاشد وسفره الفجائي الى شبام ، وانصراف الهمداني الى منادمة مولاه .

ولكن بلقيس ، عندما زارها الحبيب في ذلك الليل ، لم تظهر له انهـــا تعلم شيئاً من امر تلك المنادمة ، كما رأيت ، بل كانت تصغي اليه اصغاء فيه الاستغراب كأن ذلك الحديث شيء جديد لم تسمعه من قبل !

وكانت لها في ذلك غاية ، هي ان يحتاط حبيبها لامره ، ويعتمد على نفسه ، لا على نعمى ، في نقل الاحاديث التي تجري في البلاط .

حتى انها لم تذكر له نعمى ولم تقل له عنها كلمة .

فلما غادر القصر كما مر التفتت الى ابيها قائلة له : علي بعبد من عبيد القصر يكتم الاسرار !

قال : الليلة ؟

ـ نعم يا مولاي وفي هذه الساعة .

ـ ليس بين عبيدنا الا المخلصون الامناء ، ولكن ما هي مهمته ؟

ـ اريد ان ابعث به الى شبام .. ثم قالت : ولكن لا ، فعبيد القصر يعرفهم جميع الناس وليس من الرأي ان يكون رسولي منهم .

ـ اتريدين ان يتبع حاشدا ويسمع ما يدور بينه وبين ولي العهد؟

ـ لا ، فانا لا ابالي بما يقال في شبام ، بل اريد ان اعلم الساعة التي يصل فيها ولي العهد الى مأرب .

قال : ان مع ذي مغار ثلاثة من العبيد لا يعرفهم القوم وهم اصدق الرجال المقربين اليه .

ـ اذن اختار احدهم واوصيه بما خطر لي ، ثم خرج الاثنان من قاعة القبـــة حتى اقبلا على الجماعة فقالت بلقيس لذي مغار :

ايريد الامير ان يأمر احد عبيده بأن يطيعني كما تطيعني زائلة ؟

فأجابها ضاحكاً : وكما يطيعك الامراء الذين يتآمرون على العرش .. اننـــا

عبيد الملكة!!.

قالت : اتمزح ؟

ــ بل اكاد ارى التاج يلمع على جبينك الوضاح .

ــ اذن فانا صاحبة الامر في اليمن وملكتها الآن .

ــ نعم .

ــ فارادت ان تجاريه في مزاحه فقالت :

ــ وانتم قواد الملكة وحراس عرشها .

ــ نعم، ونفدي هذا العرش بالارواح فقولي ما تشائين .

فجلست كما تجلس الملكات وهي تقول : لقد احسست الساعة ان التاج على رأسي والصولجان في يدي وانا املي ارادتي على القوم .

ــ والامر يا مولاتي كما تقولين .

فخاطبت الامير الصغير غالباً قائلة له :

قم ايها الامير وادع عبداً من عبيد ابيك .

وكانت العظمة والعز في تلك اللهجة .

فخرج الفتى ساكتاً والهيبة تملأ نفسه ولم يلبث حتى عاد والعبد معه .

فقال له ذو مغار : اتعرف من هي هذه ؟

وأومأ الى بلقيس .

فقال : هي سيدة القصر يا مولاي .

ــ بل يجب ان تعلم من الآن انها سيدة اليمن كلها وانك عبد لها أفهمت ؟

فلم يجب ، بل جثا عند قدميها على ركبتيه قائلا :

لتأمر سيدة اليمن اذاً بما تشاء .

قالت : سأجعلك رسولي الى شبام فهل تعرفها ؟

ــ اعرف بلادي كلها بالذراع .

ــ وهل تستطيع كتمان الاسرار ؟

ــ لا يستطيع الموت نفسه ان ينتزع كلمة واحدة من هذا الصدر .

ـ لقد قيل لي ان ولي العهد في شبام وسيتركها راجعاً الى مأرب في هذا الشهر ...

ـ وماذا تريد مولاتي منه ؟

ـ يهمني ان اعلم موعد رجوعه .

قال : أأساله يا مولاتي عن هذا الموعد ؟

فابتسمت قائلة : اذا فعلت ذلك كان الموت جزاء لك ، ولكن تسأل الجنود ...

ـ وبعد ذلك ؟

ـ تمكث في شبام حتى يرحل الجيش فتسير وراءه مع طوائف الفقراء والغرباء ذوي الحاجات ولا تتركه الا عند ما يقارب الوصول الى مأرب .

ـ لقد فهمت ولم يبق الا ان تأمربني بالانصراف .

ـ ولكن احذر ان يعلم احد انك عبد ذي مغار .

ـ بل انا من عبيد اليمامة يا مولاتي وقد هجرتها فراراً من جيش سابور ..

قالت : لقد وثقت بدهائك فانصرف ولا تنس ما امرتك به .

ثم قالت للهدهاد : اعطه شيئاً من المال يستعين به على قضاء اغراضه .

فاعطاه ، ثم خرج الى فناء القصر فاخذ جرابه وعصاه وهو يقول لرفاقه : لقد ارسلني مولاي ذو مغار في مهمة له الى الحجاز وسأعود بعد شهرين .

* * *

لم تكن غاية ولي العهد من سفره الى اليمامة ان يتصدى لسابور كما مر ، بل كان هو وجيشه طليعة من طلائع ذي القرنين تنقل اليه اخبار عدوه . وتدعو اليمنيين الى الاستعداد للحرب ، اذا دخل سابور اليمن غازياً .

على ان سابور ، لم يمر باليمامة ، الا كما تمر العاصفة الهوجاء التي تحطم وتهدم وتعفي الآثار .

بل كما يطوف الوباء بين الاحياء تاركاً وراءه الموت ، بصوره الهائلة وجفائه المروع .

ثم لم يلبث حتى غادرها الى ضواحي يثرب ، كما تقدم في الاجزاء السابقة ، لينشر الذعر بين قبائل العرب التي استخفت بملكه وهو طفل .

وكل بلد ينزل به سابور تنزل الصواعــق على رؤوس اهله لا ينجو منهم الا اولئك الذين يتعجلون في الفرار .

فلما وصل ولي العهد الى حدود اليمامة ، وكان الفارسي قد ضرب ضربتــه وزحف الى الحجاز دون ان يفكر في القطر اليمني ، وكانت هنــاك طوائف كثيرة نفرها الجيش الغازي فلجأت الى السهل والجبل للنجاة من الموت .

بين تلك الطوائف الشيوخ والفتيان والنساء والاطفال من جميع عشائر اليمامة والاحياء .

فخيل اليهم عند وصوله ، ان جيشاً فارسياً آخر يسد عليم منافذ السهل ،وان سابور ملأ البر خيلا وجنوداً .

فهموا بالالتجاء الى الوادي الكبير الفاصل بين القطرين لو لم يتبينوا الاعلام العربية الخافقة في الهواء .

وكانت الخيل قد احاطت بهم واقبل الفرسان يسألونهم عما فعلت الفرس في اليامة ...

فعاد الامل الى الصدور وارتفعت اصوات الاستغاثــة من النساء والغلمــان يطلبون الى الجيش العربي ان يحميهم من الفاتح .

فاشار ولي العهد على رجاله بالنزول ، وضربت له في ذلك الموضع المطل على الوادي خيمة دعا اليها شيوخ القوم .

ثم امر فحمل الطعام الى تلك الجماعات وبعث بالرسل الى ربدة تبتــاع من اهلها الزاد .

وضربت للاجئين خيام وراء المعسكر من جهة اليمن والناس يــدعون لذي القرنين ويهتفون لولده قائد الجيش .

وكان الليل قد ارخى سدوله وساد السكون والقوم يملأون خيمته وذل الهزيمة يبدو على الوجوه .

فقال لهم : اختاروا رجلا نحدثه .

فاومأوا الى شيخ بينهم قائلين : هذا كبيرنا .

فقال : ماذا يعلم الشيخ عن اليمامة ؟

ــ لم ار يا مولاي شيئاً اصفه لك ، ولكني اعلم ما يعلمه جميع الناس عن شدة سابور وجوره ، وقسوته وجفائه .

ــ ولكنه فتح اليمامة ..

ــ نعم فتحها واباد اهلها ونحن في هذه الارض لا تقع عيوننا على مشاهد التخريب والتدمير .

ــ اذن تركتم اليمامة قبل ان يصل اليها .

ــ اجل ، كان سابور في بلاد عبد القيس عندما لجأنا الى الفرار .

فابتسم قائلا : لقد كنتم يا رجال اليمامة ابطالا في ساحة الحرب .!

ــ ومن يجسر على الوقوف في وجه هذا الفارس وقد جعل ارض البحرين قبراً لاصحابها وخضب هجر بالدماء ؟

ــ لا يجسر على ذلك غير الرجال الذين ترأسهم انت !

قال : لقد اراد بعض قومنا ان يتولوا امر الدفاع فافناهم السيف حتى لم يبق احد منهم .

ــ وكان يجب ان تموت انت ويموت رفاقك وهؤلاء كما مات اولئك المدافعون تحت حوافر الخيل !! أليس من العار ان يفر العربي من سيف الفرس ويلجأ الى الجبال والاودية جاعلا بلاده ميداناً لجيوش الفاتحين ؟

فسكت الشيخ ولكنه كان يقول في نفسه : يظهر انه من الفتيان الاغرار الذين ليس لهم بالحرب عهد .

ثم قال ولي العهد : واين سابور اليوم ؟

ــ يقولون انه ساق خيله الى الحجاز .

ــ ولماذا لم تعودوا الى اليمامة ؟
ــ لاننا نخشى يا مولاي ان يسحق الحجاز ثم يرجع اليها .
فقام احدهم فقال : بل نعود اليوم ونحن لا نخافه .
ــ ومن وهب لك هذه الجرأة ايها الرجل ؟
فقال هيبة ذي القرنين والجيش الذي يقوده ولده !
قال : خير لكم ان تنشروا هيبتكم بقوة السيف من ان تستمدوا هذه الهيبة من ابناء اليمن الذين سينصرفون بعد ايام .
ثم قال : اما سابور فلن يعود الى اليمامة ؛ انه لم يكن فاتحا بل كان ناراً آكلة تحرق الاجسام وتلتهم الاشياء دون ان تهدأ . . لقد استخفت به العرب وهو غلام ، فغضب لكرامته عندما استطاع ان يحمل السيف وسينتهي امره مع العرب بعد حين.
والتفت الى رجاله قائلا : ومع ذلك فسنمكث في هذه الناحية شهراً كاملا يحمل الينا الرجال في اثنائه اخبار سابور .
وكأنه كان يسأل امين سره ناشراً ان يبدي رأيه .
فقال ناشر : اختر الليلة هؤلاء الرجال .
قال : لك ان تختار انت من تشاء
ــ سأجعل بينهم رسلا من ابناء اليمامة انفسهم اذا اذنت لي .
ــ افعل .
فقال ناشر للشيخ : ان الامير يحتاج الى خمسة عشر رجلا من قومك .
قال : كلنا رجال الامير فليأمر من يشاء منا ونحن نطيع .
قال : خمسة عشر رجلا منكم ومثلهم منا يذهبون فرقاً ثلاثا الى اليمامة وفي طريقي البادية والحجاز .
فخرج الشيخ من الخيمة ودعا الرجال فانضم اليهم اليمنيون وامرهم ولي العهد بان يبيتوا ليلتهم على ان يخرجوا عند الفجر .
ثم جعل يسأل الشيخ عن ماضيه وماضي اليمامة والرجل يقص عليه حكايات

الزمان الذي مر حتى دب النعاس في الجفون .

ولكنهم قبل ان يتفرقوا ، سمع في المعسكر صوت فتاة تستغيث بالامير اليمني ثم اقترب ذلك الصوت حتى امسى امام الخيمة يلج في طلب الدخول .

فظن ولي العهد انها ضحية احد الجنود ، فقال ضاحكا :

من هي صاحبة هذا الصوت ؟

فاجابه الشيخ وقد تجهم وجهه : انها عاتكة بنت خداش يا مولاي ، وهي سليلة الاشراف في اليمامة .

ـ ادخلوها فان لها حكاية .

ولكنها لم تتوسط الخيمة ، حتى استولت الدهشة والاعجاب على ولي العهد وناشر وجميع من حولهما من اركان الجيش .

فتاة سمراء ذات جمال ساحر ومحاسن فتانة لها وجه تشع الهيبة من جانبيه ، وعينان ذابلتان صافيتان ، تتلألآن كالدموع التي تجول فيهما .

وفي الفتاة حياء ، دل عليه اطراقها في ذلك المجلس الذي يغص بالناس .

فرقت عينا عمرو وجعل يتفرس فيها كما يتفرس المعجب الذي يستهويه الجمال، والمشفق الذي تملأ صدره عواطف الحب .

ولو رأى ولي العهد ناشراً في تلك الساعة ، لابصر في عينيه كآبة وألما هما الهوى بكل ما فيه .

كان الاثنان ينظران اليها وقلباهما يخفقان . وكل منهما يحس بالهوى يتمشى في دمه .

اجل ، كانت عاتكة فتنة ، تزيدها فتنة وجمالا ، تلك اللآلىء المنحدرة على الخدين

وكانت عيون اهل اليمامة ، القائمين بالمجلس ، قد اتجهت الى عمرو وتنتظر حكمه بقضية عاتكة .

وقد رأوا عاطفته في عينيه ...

فلما هدأ روع الفتاة ، فاجأها ولي العهد بقوله :

أأنت التي تستغيثين بقائد هذا الجند ؟
فاجابته وهي لا ترفع نظرها : نعم يا مولاي .
ــ وماذا جرى ؟
ــ عكر علي صفو العيش فتى لا قلب له .!
ــ ويل له فمن هو؟
ــ ابن عم لي يا مولاي .
فتنهد قائلا : لقد خيل الينا ان هذا الفتى جندي من جنود اليمن ، خبرينا ماذا جرى وكفي عن البكاء .
قالت :لي حكاية طويلة يعرفها هؤلاء القوم فارجو ان تسأل احدهم وتنصفني من الرجل .
ــ لا نسأل احداً بل تقصينها الآن دون ان تنسي منها شيئاً ... قولي اولا من هو صاحبك ؟
ــ عباس بن شعبة .
ــ وحكايته ؟
ــ اراد ان يتزوجني فأبى ابي ان اكون زوجة له .
ــ وانت ؟
ــ اما انا فخير لي ان يتزوجني جني من ان اصبح في بيته .
فاطرق ملياً ثم قال :
ــ اتعشقين سواه يا عاتكة ؟
ــ كنت عاشقة يا مولاي ، ولكن هذا العشق اختنق في صدري وهو في فجر العمر ...
ــ لماذا ؟
ــ لان ابن شعبة قتل الفتى الذي عشقت !
ــ وبعد ذلك ؟
ــ ثم قتل ابي بعد ذلك واقبل الوقح يسألني ان ارضى به زوجاً ويلح في

طلبه وانا اهرب منه حتى كرهت الحياة .

فنظر الى من حوله من القوم قائلا لهم :

ـ يقتل عباس فتيانكم لغاية في نفسه وتسكتون عنه ؟

فقال شيخهم : ومن يجسر على ان يتصدى لعباس ؟ انه طاغية الحي وحوله من فتيان اليامة طوائف تفديه بالمال والارواح .

ـ ولكنك شيخ القوم وسيدهم على ما نرى ؟

ـ نعم يا مولاي غير ان هـذه السيادة لا حول لها ولا طول فهي اسم لا مسمى له ...

فقال في نفسه : لم أر ضعفاً مثل هذا .

ثم قال لعاتكة : وماذا فعل عباس الليلة ؟

ـ تصدى لي وانا قادمة الى هذا الموضع وطلب الي ان ارضى به او يقتلني كما قتل الذين ذكرت .

ثم هم بان يقبض علي ليسمع جوابي فاستغثت ، فتركني وهو يقول : لم يبق امامك الا الموت .

ورفعت رأسها وهي تنظر بازدراء الى بني قومها قائلة : اما هؤلاء يا مولاي فليس لي بينهم احد .. كلهم جبناء وقد مات شرفهم ومروءتهم ونسوا ابي الذي كان حامياً قومهم وحافظاً اعراضهم بقوة سيفه .. اجل ، انهم يخافون ابن شعبة يا مولاي ولا يجرأون على مراجعته فيما يفعل لان خنجره يسبق قولـه . ولكن عاتكة لا تخاف احداً وستقتل نفسها عندما يخطر لعباس ان يمد اليها يده الملوثة بدم حبيبها وابيها !

وجعلت تشهق بالبكاء وتقول : لم يسمع في العرب قط ان فتاة تزف الى قاتل ابيها او تطيق النظر اليه ولو كان سيد الناس !

فجاشت المروءة في صدر ناشر ، وهو الفتى الذي لا مروءة له ، واخذ يحدق الى مولاه وعيناه تلمعان .

فقال عمرو : أكان ابوك يا عاتكة كبير قومه ؟

ـ نعم يا مولاي : وكان يحمي الجار ويغيث الضعيف ويبذل ماله لصعاليك اليمامة .

فقال : يا اهل اليمامة ! أليس فيكم من يطلب بدم سيده ويصون عرض الفتاة المظلومة التي كان ابوها اعز رجل في قومه ؟

فاخفى القوم وجوههم في ايديهم وساد السكوت .

ثم قال : انسألكم عما فعل سابور ببلادكم وانتم لا تستطيعون اخماد النار المضطرمة في صدر ابن شعبة ؟

وماذا يفعل سابور بقوم يقتل سيدهم وهم ينظرون الى ابنته كأنها ليست منهم وكأنهم لا اعراض لهم !

ومع ذلك فلم يجيبوا .

فقال : عار على العرب ان يكون فيها مثل هؤلاء ... قم ايها الشيخ وادع طاغية الحيّ الذي تخافونه .

فجعل المسكين ينظر الى جانبه وهو يتردد في الامر .

فقال : انه يخاف ان يدعوه وتربة حمير . اخرج معه ايها الفتى ولا تبال !

وأومأ الى احد الحراس القائمين بالباب !

ولكن الاثنين لم يخرجا . فان ابن شعبة كان قد توسط الخيمة وهو يقول :

ـ هذا عباس بن شعبة ايها الامير .

فدهش القوم لجرأة هذا الفتى واستخفافه ودخوله على ولي العهد دون ان يقول كلمة او يستأذن في الدخول !

وغضب ولي العهد لجرأته وارتجفت شفتاه ..

غير انه استطاع ان يخفي غضبه وراء مظاهر الهدوء فقال : ا كنت تسمع من الخارج يا عباس ما نقوله لهؤلاء ؟

فاجابه بوقاحة المجنون قائلا : اجل ولم اشأ الا ان امتثل بين يديك باسطا لك امري ...

قال : لا نريد ان تقول كلمة الا اذا سألناك .. أقتلت ابا عاتكة لانه لم يشأ

ان يزوجك اياها ام ماذا ؟

ـ قتلته !

وقتلت ذلك الفتى الذي احب عاتكة ؟

ـ نعم !

ـ وما هي غايتك مما فعلت ؟

ـ ان تصبح عاتكة لي ..

قال : الم تكن قادرا على ان تأخذها بقوة سيفك وانت طاغية الحي وفارسه وسيد فتيانه ؟

ـ بلى ولكن ابن شعبة لا يتزوج الفتاة التي لا تحبه ولا ترضى به !

ـ اعجب لوجود هذه العاطفة النبيلة في صدرك يا عباس ! تحب ابنة عمك ثم تقتل اباها وعاشقها وتسألها ان ترضى بما ترغب فيه ؟

ـ اجل فالحب شيء وسفك الدماء شيء آخر وسترضى عاتكـــة غدا ان لم ترض اليوم .

ـ اذن ستظل صابرا حتى يتم لك ما تشاء ..

قال : نعم ايها الامير !

ـ ولكنها تقول انها تؤثر عليك فتى من فتيان الجن .

ـ اذن تموت من يدي على مرأى ومسمع من هؤلاء .

ـ يظهر انك شجاع يا عباس لا تعبأ بالاخطار ؟

فجعل النذل ينظر بتيه وخيلاء الى اهل المجلس وهو يقول : لو لم تكن شجاعا يا ابن حمير لما عرفت من انا .

ـ ولكن قل لنا كيف هربت من وجه سابور ؟

ـ لم افر عن خوف وعجز كما ظننت ، بل خفت ان يتزوج عـــاتكة سواي فآثرت اللحاق بها على البقاء في اليمامة !

ـ اي ان عاتكه احب اليك من المجد واعز من الشرف ؟

فتردد الفتى قليلا ثم قال : مهما يكن الامر فاهل اليمن لا شـــأن لهم معنـــا

وليس لك ان تسألني عن هذا .

قال : اصبت فقد جاوز هذا اليمني الذي تخاطبه حده في السؤال .. خذه يا ناشر وتولّ امره وانصف عاتكة منه .. اخرجي يا عاتكة مع ناشر ، واخرج انت يا فارس اليمامة . فناشر لا يضيع لك حقاً ولا يغفل عن شيء .

ثم اومأ الى القوم بالانصراف واستلقى على فراشه يفكر في جمال عاتكة ، وذبول عينيها ، ودموعها البريئة التي فعلت في نفسه ما لا يفعله السحر .

ولكنه لم يغص في لجة تفكيره حتى مثلت بلقيس امام عينيه ، بقامتها التي وصفت له ، وجبينها الوضاح الزاهي الذي لا يعرفه ، وثغرها الضاحك الفتان الذي لم يره !.

وقام في ذهنه ان عاتكة ، بالرغم من جمالها الخلاب ، لا تستحق ان تكون جارية لتلك الفتاة التي اختارها لنفسه .

ولكن هذه الصورة لم تلبث حتى امحت من ذهنه ، وقامت مقامها صورة عاتكة من جديد ، كأن غرامه شهوة شباب تزول بعد ساعة ، وخاطر لا يخطر له حتى يضمحل .

وبات يتقلب في فراشه وهو يفكر في الاثنتين .. حتى عول اخيراً على ان تكون بلقيس زوجة ، وعاتكة حظية له .

والويل لمن تحدثه النفس بان يسلبه احدى الفتاتين .

• • •

٢٥

خرج ناشر وامر بعض الحراس بان يتبعوه الى خيمته وفي القلب ما فيه من عاطفة وهوى لم يحس بمثلها من قبل .

اجل ، لقد امسى ذلك الكاذب اللئيم عاشقاً ، وصار الذئب الغدار انساناً

له شعوره واحساسه !.

وهو الفتى الذي لم يعرف في حياته غير المخزيات ، ولم يهتم الا لما فيه الذل والسعاية والفضيحة والعار .

خرج وقلبه يخفق على ذلك الحب الجديد الذي فاجأه في خيمة مولاه ، ووعد نفسه بان عاتكة ستكون له لا لسواه .

وكان عباس بين الحراس يتمتم ألفاظاً لا يفهمها الذين حوله ، ولا يرفع نظره في ذلك الظلام عن ابنة عمه التي تغص بالدمع .

وناشر يهامس عاتكة قائلا : امسحي هذه الدموع فقد ارسلت اليك الآلهة نصيراً من اليمن هو ناشر امير ظفار .

فطابت نفسها وأحست انها بين يدي رجل شريف الغاية نبيل القصدينصفها من ابن عمها العاشق القاتل .

فلما وصل القوم الى المضرب الذي اعدوه لامين سر عمرو ، اشار ناشر على الحراس بان يحفظوا الباب ، وامر ابن شعبة وعاتكة بالدخول .

ثم جلس وهو يقول : ماذا تطلب الآن يا عباس ؟

ــ اطلب ان ترد عاتكة الى ابن عمها الليلة !

قال : الا تصبر ريثما يطلع الصباح ؟

قال : لا فان لم ترض بي الليلة ضربت عنقها وحلفت لا اشهد بعد الآن مجلساً فيه امرأة .

فقال وهو لا يبتسم : اسألك باسم ولي عهد اليمن ان تعفو يا ابن شعبة .

قال : هذا حقي لا ازل عنه ولا اعفو ! انها ابنة عمي وليس لها في قومها من تلجأ اليه !

ــ ولكن الا يطيب لك ان تصبح ابنة عمك زوجة لامير من امراء البلاط الحميري يملأ راحتيك مالا ؟

ــ ومن هو هذا الذي تعنيه ؟

ــ هو انا ...

قالها ناشر وعيناه تنظران الى الفتاة !

فاجابه قائلا : انها اذا كانت لا ترضى بي فهي لا تجسر على الرضى بسواي ولو كان الملك نفسه !

فرفعت رأسها وجعلت تتفرس فيه بعينين كأنهما جمرتان .

اما ناشر فقال : اذا كان هذا فانا اردها اليك لتفعل ما تشاء . . ماذا تقولين يا عاتكة ؟

قالت : خير لي ان يقتلني مولاي الامير وانا في خيمته من ان يطرحني بين يدي هذا المجنون الذي قتل عمه غدراً في ظلام الليل . ان الآلهة نفسها اعجز عن ان تكرهني على الرضى به .

قال : اسمعت ايها القاتل ؟

فلم يجب ، بل تناول خنجره وهم بان يطعنها به فسقط الخنجر من يده بضربة فاجأه بها احد الحراس من الوراء ، ثم احاط به اليمنيون والسيوف في الايدي وهم يقولون لناشر : مر ايها الامير فيطير رأسه .

فاسكتهم قائلا ؟ اغمدوا سيوفكم فابن شعبة الذي لم يجسر على شهر خنجره في وجه عدو قومه يريد ان يجرب هذا الخنجر بصدر ابنة عمه .

وكانت عاتكة قد تراجعت لتحتمي به ، فقال :

ــ اتخافينه وانت في جيش ذي القرنين ؟

فاطرقت وكأنها احست انها تحب ذلك الفتى الذي قرأت عطفه في عينيه وخيل اليها انها سمعت منه كلمات الحب !

ثم تمتمت قائلة : وكيف لا اخافه وهو يتبعني من موضع الى آخر كما يتبعني ظلي وليس في قومي من ينتصر لي ؟

فاراد ناشر ان يغتنم الفرصة ، فقال :

ــ لقد امسيت في ظل امير ظافر وانتهى دور الجزع والخوف الآن . . . قولي ماذا تريدين [illegible] صنع بابن عمك وكيف ننصفك منه ؟

ــ لو كنت اعلم انه يسكت عما تعود ان يفعله كل يوم لطلبت الى الامير ان

يجزيه ثم يرسله حراً الى اي بــلد أراد . ولكنه لا يرجع عن غيه ولا يستطيع الا ان يقابل المعروف بالاساءة ويكافىء الخير بالشر .

ـ اذن نفعل ما نشاء ولا نبالي . امسكوا ابن شعبة ايها الحراس .

وكانت عينا عباس في تلك اللحظة تشبهان عيني النمر الخائف وهو ينظر الى القوم نظرات المضطرب المذعور .

اجل : لقد كان واثقاً منذ ساعة ان قائد الجيش اليمني لا يجرؤ ان يمد يده وهو في عشيريه وبين قومه اهل اليمامة الذين يرهبون جانبه .

ولكنه رأى عندئذ ان ثقته كانت كاذبة ، وان قومه اضعف من ان يلجأوا في سبيل الدفاع عنه الى القوة والسيف .

رأى نفسه بين حراس ناشر ، اسيراً عاجزاً واهي العزيمة مشلول الاعضاء . والفتيان الذين يسندونه ويعيشون تحت لوائه ، يستسلمون الى الكرى وراء المعسكر الذي استخف بقواده .

اي ان ابن شعبة ، صحا من سكره ، بل من جنونه واستولى عليه الرعب الذي لم يكن له عهد به من قبل .

وقد اصفر وجهه وتلعثم لسانه ، عندما احاط به الحراس ووضعوا ايديهم عليه .

ثم قال ناشر : اوص يا ابن شعبة !

فارتجفت ركبتاه . وخيل اليه ان ارض الخيمة تهتز تحت قدميه !.

ثم استطاع ان يهمس قائلا :

أتحكمون علي بالموت ؟

فابتسم امير ظفار ، في تلك الساعة الرهيبة ، كأن شفتيه قد تعودتا الابتسام لاحكام الموت !

نعم ، لقد كان ناشر وسيده عمرو بن ذي القرنين يحكمان بالموت على الابرياء كل يوم لا يطرف لهما جفن ، ولا يخفق لهما قلب ! ولم يكن عباس بن شعبة ، غير واحد ، من فريق كبير ، ارسل بأمر منهما الى العالم الآخر .

ثم قطب حاجبه بعد ذلك الابتسام وهو يقول :

نعم ، لقد حكمنا عليك بالموت يا فارس اليمامة وستموت بعد ساعة !

فضيع المسكين رجاءه ومد يديه الى الامام يستعطف عاتكة قائلا : يموت ابن عمك يا عاتكة وأنت لا تقولين كلمة ؟

فاجابته وهي لا تنظر اليه لقد قتلت ابي يا ظالم ولم اقل كلمة ..!!

وكرهت ان تذكر ذلك القتيل الاخر الذي فجعها به ...

قال : ولكن الماضي لا يرجع وانا قـد ندمـت على ما فعلت فاسالي امير الجيش ان يعفو عن ذنبي !

قالت : لا تخرج من هذه الخيمة حراً الا لتنغص علينـا العيش من جديد وتهددني بخنجرك الملوث بالدماء .

ثم ذكرت عز ابيها وماضيه ، فهاجت كما تهيج اللبؤة وجعلت تقول : لا لا بل اسأل الامير ان يتعجل في قتلك لاستطيع ان اغمض عيني :

قال : رحمة يا ابنة العم .

قالت : لا تسألني امراً لا تعرفه ولم اجد في قلبك شيئا منه .

ـ وهل تريدين ان يقتلني بمني ؟

فقال ناشر : بل تقتلك هي بخنجرك نفسه ، اتريد ذلك ؟

ـ نعم ...

ـ اذن فاوص ، وخذي خنجره يا عاتكة وضعيه في القلب .

فبكى « طاغية الحي » وجرت دموعه على خديه ، ثم وقع على الارض قائلا: لا لا اريد ان اموت من يدها فليضربني الحراس وليحمل قومي جثتي الى اليمامة الى التراب الذي نشأت ونشأ آبائي فوقه .

فاغتنم امير ظفار الفرصة مرة اخرى ، فقال : الا توصي ابنة عمك بان تحفظ لك العهد وتكون وفية لك بعد موتك .

قال : لا تهزأ بي فالحب الذي تغلل في صدري هو الذي اوحى الي بان اكون قاتلا ..! أجل لقد كنت قادرا على ان اتزوج عاتكة على رغم اهل اليمامة واهل

اليمن ثم اغمد هذا الخنجر في صدرها والحق بهـا الى القبر ... ولكن غرامي لم يكن كاذبا ، ولم اشأ ان اكرهها على ما لا تحب فقضيت ايامي بـين مهده ومستعطف علها تجود علي بنظرة رضى واحدة فلم تفعل .

وهم بان يصف ذلك الغرام وهو يبكي .

فقاطعه ناشر قائلا : ولكنها ستجود علي بما بخلت به عليك وستكون بعـد موتك زوجة للامير اليمني الذي يخاطبك الآن .

وكان اللعين يريد ان يقرأ ما في نفس عاتكة قبل ان يضرب ضربته : يموت ابن شعبة اذا رضيت عاتكة به زوجاً لها .. ويبقى حياً ان لم ترض .

ولماذا يعبأ ناشر بتلك الفتاة الغريبة اذا هي آثرت غيره عليه وخرجت مـن خيمته لتعود الى اليمامة مع قومها يوم يصفو لهم الزمان ؟

بل لماذا يطلب بدم ابيها وينصفها من ابن عمها وهي ليست له .

ان العدل لم يتعوده امير ظفار . بل لم ير في حياته كلها وجهه الوضاح ...

لقد تعود ان يجعل معروفه خاضعاً للشهوة لا للعاطفة والا يعطي احداً درهماً الا اذا وثق بانه سيتناول بعد ذلك دينارين ..

وأخذ يحدق اليها ليلمس تلك الالوان التي تبدو على وجهها .

وكانت هي تنظر اليه فرأى من خلال كآبتها ، املا يلمع في عينيها الذابلتين وتشع منه انوار الاحلام والمنى .

فطابت نفسه ، وقام فوقف بباب الخيمة واومأ الى الحراس بان يجروا المسكين الى الخارج ويتخطفوه بالسيوف .

فصاح عباس مستغيثا ، ولكن استغاثته ضاعت في الفضاء ، ثم جعل صوته يضعف حتى اختنق ... وفاضت روحه على الشفار الحادة التي غاصت في جسده الجبار .

وعينا عاتكة تنظران ، واذناها تسمعان .. ولكنها لم تستغث ولم تخف ، بل جالت الدموع في عينيها لحظة قصيرة ، ثم زها جبينها وافتر ثغرهـا عندما حمل الحراس ذلك القتيل العاشق ليدفنوه !.

ولعلها احست في تلك الساعة ان الزمان سيعود الى صفوه ، وسيخلق لها عاشقاً جديداً ، غير ذينك العاشقين المنكودي الحظ .

* * *

نهضت مترددة وهي تهم بالانصراف .

وقد تفرق الحراس ولم يبق غير ناشر ، فقال لها وصوته يضطرب : اجلسي وقولي لي في اي شيء تفكرين الآن ؟

فنظرت اليه كالمرأة تنظر الى المحسن اليها قائلة :

افكر في امر واحد هو اني لا استطيع ان اقابل هذا المعروف بمثله .

ففاجأها بقوله : بل تستطيعين ان تحسني اليّ باعظم مما احسنت اليك .

ــ انا ؟

ــ نعم :

فتجاهلت غايته قائلة : وما هو هذا الاحسان الذي تستطيعه فتاة مثلي تستجير بالناس لينقذوها من الظالم .

ــ كلمة واحدة تقولينها . ألم تسمعي ما قلته لعباس انك ستصبحين زوجة لي؟

قالت : انك تمزح يا مولاي ؟

ــ لم يخطر لي هذا المزاح الذي تذكرين ، لقد خفق لك هذا القلب عندما كنت تستغيثين ، ثم اضطرب وزاد خفقانه حين ابصرت وجهك في خيمة ولي العهد . فبوحي الآن بما في صدرك من عاطفة واسرار . اتريدين ان تكوني اميرة في ظفار ام تؤثرين العيش في سهول اليمامة على قصور اليمن ؟

فسبحت الفتاة في فضاء الاحلام ساعة طويلة وهو ساكت ، على لذة وامل ، حتى رفعت رأسها قائلة :

ــ لا اجسر على ان احب احداً خوفاً من يكون حبي شؤماً عليه .

ــ اما انا فلا يطيب لي غير هذا الشؤم .

ــ اعترف لك ان قلبي يحدثني بانك ستندم على هذا الحب .

ــ هذا هو حبي الاول فليكن هناء دائماً او فليكن ندمــاً مراً قاسيا فانا لا ابالي ، ولكني كثير الغيرة يا عاتكة فاذا انتهى امرنا الآن بالرضى فاحذري من ان يتغير لك رأي . . .

فابتسمت وهي تقول :

ــ لو كنت تعلم من هي عاتكة لما خطر لك ان توجه الي مثل هذا التحذير . . ان لي ارادة يفنى الحديد وتثبت ، وتتلاشى حياتي وهي باقية . اسمع الآن اني احبك وسأموت عندمــا ارى ان يد القدر تستطيع ان تفصلني عنــك . أيكفيك هذا ؟

فجثا ناشر عند قدميها قائلا : وانا اقسم لك برأس الملك وولي عهــده اني سأكون عبداً لا زوجاً .

ثم نهض فوضع يده بيدها ومشيا الى الخارج .

فقالت : الى اين ايها الحبيب ؟

ــ الى المعسكر ثم الى الخيام التي يقيم بها اهل اليامة لاقول للفريقين : انك اصبحت لي والويل لمن يعرض لك بسوء بعد الآن .

ــ ولكن لي رغبة قبل ان تفعل .

ــ وما هي ؟

ــ هي ان نصبح زوجين قبل ان نعود الى مأرب .

ــ ان للزواج عندنا شروطاً فمن يكتب العقد ؟

ــ يكتبه ولي العهد الذي هو امير الجيش ثم يجيزه الكاهن اليمني عندما ندفعه اليــه . .

ــ سيكون غداً ، وغير ذلك ؟

ــ لم يبق لي ما اسألك اياه . فامش الآن وانا اســير وراءك الى حيث تشاء .

فسار الاثنان الى المعسكر ثم انتهيا الى حي اهل اليامة وناشر يقول للقوم : لقد

اصبحت عاتكة لي .
ولم يعلم القوم ماذا جرى لعباس . بل لم يجسروا على ان ان يسألوا عنه .
غير انهم وثقوا بان امره قد انتهى ، ولم يبق لعاتكة ما تخافه .
وعندما لجأت الفتاة الى خيمتها عـــاد ناشر الى المعسكر ليستسلم ، وهو في فراشه ، الى الاحلام العذبة والامل الضاحك .
واستولت السكينة على ذلك الوادي وساد الصمت والهدوء ...

***

٢٦

كانت الاقدار تساعد المتآمرين على عرش ذي القرنين .
فان ولي العهد لم يغمض له جفن في ذلك الليل . .
لقد اعجبته عـــاتكة كما قرأت فليس من الرأي ان تفلت من يـــده لتكون لسواه ، وقد لا يجد مثل عاتكة بـــين حسان العرب اللواتي يرسلهن الامير هدية اليـــه .
ولو لم تكن بلقيس اميرة الجمال ، كما قيل له ، لجعل فتاة اليامة ولية للعهد ، الا لا يمنعها ذلك النسب الشريف الذي تنتمي اليه ، من ان تجلس بعد حين عـــلى العرش الحميري .
وملأ الاعجاب صدره حتى امسى غراما .. وحتى احس انـــه لا يطيق ان يبعد عاتكة عنه !
فلما بزغ الفجر قال لحاجبه :
ـ قل لامير ظفار ان يحضر الساعة .
ولم تكن الا لحظة حتى اقبل ناشر وولي العهـــد في فراشه ، وآثار السهـــر والتفكير على جبينه وفي عينيه .
فقال : اجلس يا ناشر وخبرنا ماذا فعلت بعباس .

وكان الواحد منهما يجهل ما في صدر الآخر من عواطف الغرام !

فقال : لقد طوته الارض يا مولاي !

فاكتفى بان يبتسم لذلك الخبر ابتسامة الرضى ، وكانت ابتسامته ابلغ رثاه لابن شعبة المسكين ، ثم قال :

ــ متى قتلته ؟

ــ في هذا الليل الذي يتنفس صبحه .

ــ كان عليك ان تأمر بقتله عند الصباح على مرأى ومسمع من القوم • واين هي الفتاة الآن ؟

ــ في حيها وراء المعسكر .

قال : أرسل من يدعوها الى هذه الخيمة لان لنا كلمة نقولها لها قبل ان يستفيق الجيش !

ــ لقد عرفت بعض اسرارها فاسأل عما تشاء .

ــ ان هنالك امراً لا يعرفه سواها .

ــ وهل تكتمني اياه يا مولاي ؟

ــ لا ، سنسألها ان تعود معنا الى مأرب لتكون بين حظايا البلاط !

فاصفر وجهه قائلا : اي الك تريد ان تجعلها حظية لمولانا الملك ...

ــ بل حظية لمولاك ولي العهد .

فمد يديه المرتجفتين وهو يقول :

ــ انك تكاد تقتلني يا مولاي !

قال : لماذا ؟

ــ لاني احببت هذه الفتاة حباً ملأ نفسي .

فقهقه الفتى المستهتر ضاحكاً ثم قال :

ــ ولكن ولي العهد احبها الحب نفسه قبل ان تخفق في صدرك عاطفة !

قال : وتعاهدنا يا مولاي على الزواج .

فلم يبال بمظاهر الالم التي قرأها على جبين امين سره بل كان وقحاً الى حد

انه انكر عليه حقه بالحب وكان يقول :

ـ انس الآن ما فعلته امس وينتهي الامر !

ـ لا استطيع يا مولاي فهي اول خفقة لهذا القلب !

ـ ونحن مثلك لا نطيق ان تكون عاتكة لك .

قال : اذكر ماضيّ يا مولاي فنساء اليمن بين يديك وستكون لك بلقيس اجمل نساء العرب .

فتمادى في وقاحته قائلا :

ـ هذه زوجة ، وعاتكة حظية فلا تعد الى الرجاء .

ـ واذكر اني اخلص الامراء للعرش !

ـ ليس للاخلاص شأن مع الغرام ، ومع ذلك فـاذا كنت كما تقول فاخنق هواك ودع عاتكـة لمولاك فالاخلاص ان لم ترافقه التضحية يكون كاذبـاً لا قيمة له .

فأحس الفتى ان اخلاصه انقلب فجأة فصار حقداً !! حقداً تغذيه الغيرة التي لا تخمد نارها في صدره ويمليه الاستخفاف الذي جرح كبرياءه !

انه امير ابن امير ، وظفار احدى دعائم العرش الثابتة الاركان . افيستخف ولي العهد بكرامته وهواه ويعبث بالاثنين ؟؟ انه موقف مدهش غريب لم يقم في ذهن ناشر ان يقدم عليه .

فقال له وصوته يرتجف وعيناه تختلجان :

ابذل لك يا مولاي مالي كله وظفار كلها على ان تبقى لي عاتكة !

قال : قضي الامر فابحث لك عن فتاة اخرى بين اللاجئين الى هذا الوادي فنحن لا نرجع عما هممنا به .

ونهض فلبس ثيابه وهو يقول :

ادعها فنسألها عن الفتى الذي تختار .

ـ اتأذن لي في ان اكون رسولك اليها ؟

فأجابه دون ان يتردد : بل ترسل اليها احد الحجاب وتبقى انت في هـذه

الخيمة ريثما تحضر .

فقال في نفسه : ويل لك يا عمرو من هذا الحب الذي صيرته بغضاً .

ونادى حاجب الامير وامره بان يدعو عاتكة ، وقد مرت سحابة سوداء امام عينيه ..

ولولا بقية حكمة في نفسه ، لعمد الى سيفه ، وضرب به مولاه الغادر حتى يموت ..

ولكن العيون تراه ، وليس هنالك قوة تحفظ حياته وحياة عاتكة اذا هو قتل ولي العهد ..

وكانت الفتاة في تلك الساعة تحلم بامارة ظفار ، وتفكر في ذلك الحبيب النبيل الذي بعثت به الآلهة .

فلما نقل اليها امر ولي العهد ، خطر لها انه سيكتب عقد الزواج ، بطلب ناشر ، وان شمس ذلك اليوم لا تطلع الا وهما زوجان .

وقامت فانصرفت والابتسامة تغمر ثغرها الفتان .

على انها لم تبصر وجه ناشر حتى دب في قلبها الذعر ، واحست ان السعادة قد انقضت .

ولكن الاميرين ابتسما واذن لها ولي العهد في الجلوس وهو يكاد يفترسها بعينيه ثم قال :

أأنت راضية بما فعلناه من اجلك امس ؟

ـ بل انا شاكرة للامير انصافه وعدله ولن انسى هذا العطف الذي احاطني به .

قال : لا يستطيع الملوك والامراء الا ان يعطفوا على هذا الجمال الجذاب .

ـ لقد كان جمالي وبالا علي وعلى اهلي يا مولاي .

ـ ولكن الامراء لا يبالون بما تقولين ولا ينظرون الا الى هذا الوجه الساحر الذي يستهوي جماله القلوب .

فالتفتت الى حبيبها فرأته مطرقاً جامداً لا يطرف له جفن ، فظنت انه اعترف بهواه وقد جاء دورها بالاعتراف ، فقالت له :

لقد اراد امير ظفار ان يشرفني بحبه وانا اخشى ان يجرهذا الحب الى الهوة!
– ولكنك نسيت ان هنالك اميراً آخر برح به هواك في ليـلة واحدة هو
رئيس ناشر ومولاه .
فعرفت عندئذ سبب هذا الاطراق فقالت :
لا تستحق هذه الفتاة حب ولي العهد .
– بل تستحقين ان تكوني ملكة على عرش ، لقد ارادك ناشر لنفسه واردناك
لأنفسنا فاختاري لك واحداً منا قبل ان يطلع الصباح !
فابتسمت .. ولكن لليأس لا للأمل .. وادركت ان الموقف صعب وان كلمة
واحدة تقولها تصفع قلباً وتبعث الحياة الى قلب .
ولكن لا بد لها من ان تتكلم .. ولا بد للحادث الرائع من الوقوع ، فخير
لها ان تصافح ولي العهد وتداريه قبل ان يخرج من فمها ذلك الحكم القاضي ، في
وقت واحد ، بالحياة والموت ، فقالت وهي مذعورة خائفة :
انك انت الملك الآن يا مولاي وليس لاحد ان يختار شيئاً والملك حاضر .
قال : لقد نزلنا لك عن هذا الحق .
– خير لي ان اقص حكايتي على مولاي قبل ان افعل .
– ستقولين لنا انك عاهدت ناشراً على الوفاء أليس كذلك ؟
– نعم .
– لقد قص علينا ناشر ما تريدين ان تقوليه .
– وهل يطيب للامير الذي يقود جيشه الى ساحات الفخار ان انكث عهدي
واهدم عند الفجر ما بنيته امس ؟
قال : ان هذا الامير الذي تذكرين لا يعبأ بالعهود والوعود .. لقد احببناك
كما احبك امير ظفار ولم يخطر لنا انه سيكون اسبق منا الى الاعـتراف بهواه ..
أمرناه بأن ينظر في امر ابن عمـك في الليل الذي مضى ، على امل ان ينظر ولي
العهد في امر نفسه عند الصباح .
ولكن ناشراً لم يشأ الا ان يتعجل في غرامه دون ان يسأل مولاه عن رأيه في

هذا الغرام ... اسمعي يـا عاتكة . لقد كان ولي العهد قادراً ، لولا هواه ، ان يطلق يد عباس في كل شيء ولا يبالي بالفتاة التي تشكوه بل كان قادراً على ان لا يصدق كلمة واحدة من تلك القصة الطويلة التي روتها له . ولكنه رأى فتاة حسناء فاعجبته فامر بان يقتل ابن شعبة ، ليستطيع ان يقول لهذه الفتاة في صباح اليوم الثاني : انها حظية لي !

فانطرحت عند قدميه تذرف الدموع وهي تقول :

لقد مضى ما مضى يا مولاي فأنسى هواي .

فزادت قساوة عمرو ولم يرد ان يلين .

وكان القدر الذي لا يعرف الناس له هوى ، يدفعه بيديه الاثنتين القويتين الى هذه القساوة ، ليقل انصار العرش ويكثر انصار شرحبيل بن عمرو !

على ان عاتكة الجبارة ، الكبيرة في نفسها ووفائها ، لم تخن شرفها ولم تستسلم الى القوة بل كانت لهجتها لهجة فتاة تؤثر الموت طاهرة الخلق ، على العيش في ذل الخيانة والعار .

وكانت تقول : لقد احببت ناشراً ووعدته بان اكون زوجة له ، فلم يبق الا ان يأمر مولاي بالوفاء بما وعدت، او يأمر جلاده بان يفعل بي ، كما فعل الحراس بعباس بن شعبة .

قال : أليس لك ما تقولينه غير هذا ؟

ـ لا يا مولاي ، هذا ما اقوله الآن ، وما ساقوله بعد شهر وبعد عام فافعل ما يطيب لك !

فالتفت الى امين سره قائلا : وانت يا ناشر ؟

ـ انها لك يا مولاي اذا ارادت .

قالت : ليقل ناشر ما يشاء فان وفائي لم يكن ملكاً لاحد يشتريه من يرغب في الشراء ...

فاحمرت عيناه من الغيظ وجعل يقول :

بل يكون ملكاً لنا نبيعه او نهبه لمن نريد ... اخرج يا ناشر وتول النذار ،

دون الجيش ولا تعد الينا الا اذا دعوناك .
فتردد الفتى في الامر ، وكان صدره يهيج وقلبه يكاد يثب منه .
غير ان دهاءه كان يمنعه من الاسترسال في هياجه ويضع حـداً لتلك النار المضطرمة في احشائه .
اما عمرو فكاد يفقد صبره لذلك التردد ، فقال له: نأمرك بالانصراف وتبقى يا ناشر ؟ !
قال : انسيت اخاك ناشراً وامين سرك ورفيق صباك ؟
ـ لقد نسينا كل شيء فانصرف الآن .
فايقن الفتى عندئذ ان غرامه لم يخلق الا ليموت وان تلك الفتاة التي اراد ان يجعلها آلهة نفسه قد ضيعها الى الابد .
وخرج صامتاً مطرقاً يتعثر بخيبة الرجاء .
ولكنه لم يجاوز الباب حتى هم بالرجوع .
فقالت له : انصرف بامر مولاك ايها الحبيب فعاتكة لك لا لسواك .
ثم خاطبت ولي العهد قائلة له :
هذا هو الرجل الذي اخترت ! ! انه ينصرف بامرك الى المعسكر لا يعبأ بي ولا يبالي !
فخيل اليه انها نسيت عهدها فقال :
ومع ذلك فقد عاهدته على الزواج وانت ترفضين ان تكوني لولي العهد .
ـ قلت لك يا مولاي اني وعدت وخير لي ان اموت من ان ارجع عما قلت.
ـ ولكن حبك قد ضاع فنحن لا نرضى بان تصيري زوجة لناشر ولو قتلت.
ـ وانا لا ارضى بان اصير حظية لك ولو قتلت .
قال : الا يطيب لك ان تصبحي سيدة في البلاط ؟
قالت : عندك الحسان اللواتي يغص بهن قصرك فاله بهن ما شئت .
قال : ستندمين يا عاتكة .
ـ انا اعلم ان هذا الموقف سيبعث بي الى للقبر ، ولكن ما حيلتي وقد احببت

ناشرا وهو الامير الصغير ولم احب ولي العهد الذي سيلبس تاج حمير بعد حين . وانا يا مولاي لا اطيق العيش مع رجل لا احبه ولو جعلني سيدة الناس .

قال : الم تري كيف خرج ناشر الآن دون ان يلتفت الى الوراء .

ففهمت انه يوغر صدرها على امين سره ، فقالت :

وهل كان يستطيع ان يعصي امرك وانت مولاه ؟

ـ اجل ، كان قادراً ان يقول : لا اخرج الا بعد عاتكة .

ـ ولكنك تعمد الى حراسك فتقول :

اقتلوا المتمرد الخارج على قائده ...

قال : وكان يجب ان يستهين بالموت في سبيل من يحب .

فتفجر الدمع من عيني المسكينة وارخت نظرهـــا الى الارض ثم اصيبت بالذهول .

نعم ، لقد رأت ان حبيبها كان جباناً في غرامه ، وضعيفا في مروءته وابائه كما قال عمرو .

فآثرت الصمت على الدفاع ، واستسلمت الى الضعف تذرف الدمع وتشهق بالبكاء .

فغر عمراً ذلك الضعف . وعول على ان يسبر غور الفتاة من جانب آخر له تأثيره في حياة الفتاة العذراء ، فقال لها وهو يخفض صوته :

لنا رأي جديد نقوله فاسمعيه ..

فنظرت اليه دون ان تجيب .

ثم قال : خطر لنا ان نجعلك ولية للعهد لا حظية فماذا تقولين ؟

واستند الى فراشه يصغي الى ما تقول ...

واية فتاة يسعى اليها الملك فتأباه ، ويعرض عليها التاج فتغض طرفها عنه . بل اية فتاة عربية يقول لها ابن ذي القرنين انت حظية لي ولا تصغي الى هذا القول ؟

اتظن ان في العرب فتاة تقف موقف بلقيس فتصون عرضهـــا بارادة من

الفولاذ لا تزعزعها الحادثات ولا تلين مع الزمان ؟

نعم ، كانت عاتكة مثلها ، تؤثر الفقر مـــع الشرف على الغنى مع الذل ، وتؤثر الموت بريئة طاهرة كما رأيت على ان تطعن فيها الافواه .

ولم يخطر لها قط ان عمراً صادق في قوله ، وهب انه كان صادقاً فمن يضمن لها الراحة على سرير الملك ؟

ان الحياة مع فتى يبادلها العاطفة ، احب اليها من الحياة في قصور الملوك ، المصبوغة بجميع الالوان .

فرفعت صوتها قائلة : لو خطر لك ان تجلسني الآن عـــلى عرش ابيك لما رضيت .

وكان الصبح قد طلع وعاد الحرس .

فنهض دون ان يتكلم ووقف بباب الخيمة قائلا لهم :

في اي مكان وضعتم ابن شعبة ؟

فأومأوا الى موضع القبر الذي حفروه له .

فتراجع ثم تناول سيفه وهو يقول لحاجبه: عندما تخرج هذه الفتاة من الخيمة تخرج روحك .

وسدل ستار الباب ، وجعلت عاتكة تلعن جمالها وتندب حظها وهي تذرف الدموع .

• • •

لم يذهب ناشر الى المعسكر كما امره ولي العهد .

بل اتكأ على سيفه وراء الخيمة ينصت الى حديث عمر ويصغي الى كل كلمة تقولها عاتكة ..

حتى سمع كل شيء ولم تفته كلمة واحدة من حديث الاثنين .

فلما قالت عاتكة انها لا ترضى بالجلوس عـــلى عرش ذي القرنـــين ، ايقن

عندئذ ان وفاءها لا شك فيه ، ومشى يريد المعسكر وهـــو مضطرب ثائر لا يعلم اين يضع قدميه .

ولكن ذلك الاضطراب لم يخرجه عن حده ، بل استعان بكل ما يملك من جلد ودهاء وصبر ، ليخفي مظاهر ثورته وحقده ، ويضع ، وهو هادىء ، ذلك المنهاج الذي سيتخذه في حياته الجديد مع ولي العهد الخائن المستخف .

حتى ان حقده الفجائي ، كاد ينسيه ذلك الغرام الذي تغلل في نفسه ، وحتى كاد ينسى ان في صدره قلباً يحب !

وقد عول على ان يكيد ولي العهد بعد رجوعهم الى مأرب ، ويضع يـــده بايدي اولئك الامراء الذين يضمرون البغض لذي القرنين .

واغرب ما تراه من امر ناشر ، ذلك الهدوء الذي اعتصم به وهو الفتى الغر الذي لم يعرف الهدوء من قبل .

وكان ولي العهد قد ذهب الى المعسكر من الجانب الآخر وجعل يطوف بين الخيام لا يخاطب احداً ولا يحادث اميراً حتى انتهى اخيراً الى الموضع الذي دفن فيه عباس فوقف لحظة عند قبره ينظر الى ذلك التراب الذي يغطي جسده الجبار ويبتسم ابتسامة غريبة لخاطر هائل كان يخطر له .

وعين ناشر تراه من بين الخيام التي تجاور القبر ... وصدره يغلي وعينـــاه ترشلان النار .

فلما انثنى ولي العهد راجعاً ، احتجب امين سره عن عينيه وهو ذاهل الطرف ينتقل بالذهن الى خيمة ولي العهد مقر عاتكة ، ثم الى مأرب ، ثم الى البلاط يستعرض الرجال المقيمين به ...

ولكن ذلك الاحتجاب لم يطل ، فما هي الا ساعة قصيرة حتى تلاقى الاثنان عند بيوت المؤونة وهما يتظاهران بالاهتمام لشؤون الجيش

فاشرق جبين ناشر عندما رأى مولاه .. كأن ذلك الحادث الغريب بينهما لم يكن ، وكأن قلبه لم يخفق الا على الاخلاص لمولاه ..!

وافتر كذلك ثغر عمرو وخيل اليه ان عاطفة الحب التي احسها ناشر كانت

ذابلة فهي لم تظهر الا لتضمحل .

ثم قال له : لقد كانت عاتكة وفية لك فلم ترض ؟

فأجابه قائلا : كدت انسى عاتكة يا مولاي فافعل ما تشاء !

ــ وماذا افعل ؟ اني لا ارجع الى الخيمة الا عند المساء فاذا رأيتها راضية انتهى كل شيء والا .

ــ والا ماذا يا مولاي ؟

فقهقه ضاحكاً وهو يقول : انظر اين دفن عباس . ألا ترى الارض هنالك فاتحة ذراعيها لتحتضن جثة اخرى من اهل اليمامة الانذال ؟

فضغط امير ظفار قبضة سيفه حتى كاد يسحقها ثم لم يستطع الا ان يقول :

ــ اكتف يا مولاي بان تعيدها الى البلد الذي خرجت منه فهي لم تخلق لامل اليمن .

ــ بل نبعث بها الى ذلك العاشق الذي لم تحبه فتجود عليه وهما تحت التراب بما بخلت به وهما على الارض .

فقال الفتى في نفسه : لقد كتب لهذه المسكينة ان تموت يوم بسم لها الحظ وكتب لي ان اشحذ سلاحي لاطلب بثاري .

وارخى نظره ليخفي بريق الحقد في عينيه .

اما عمرو فاستطرد قائلا : كل فتاة لا تريد الاقامة ببلاط الملك يسوقونها بالسوط ، اما انا فلا احب ان افعل ذلك مع عاتكة لان ابن شعبة نفسه كان ارفع من ان يكرهها على اللحاق به .. امش يا ناشر فقد كادت هذه الفتاة تجعل ولي العهد وامير ظفار عدوين .

وبينما هما يتمشيان ابصرا كبير القوم الذي حادثه عمرو في خيمته في الليل الماضي فقال له :

ــ الا تسألنا عما جرى لابن شعبة ؟

ــ وماذا جرى له يا مولاي ؟

ــ انه يرقد شرقي المعسكر في حفرة لا تتجاوز الذراعين !

فتراجع الشيخ مذعوراً ثم تنهد قائلا :

ــ لقد نجت عاتكة !

ــ بل تلحق به هذا المساء اذا لم ترض بالذهاب الى مأرب والاقامة بها الى الابد !

فهم الشيخ بـان يلتمس العفو منه دون ان يعرف ذلك الذنب العظيم الذي جنته الفتاة .

غير ان التماسه وقف عند شفتيه كـأنه لم يجسر على ان يخاطب القائد المغرور الظالم ، بامر العفو !

رآه فتى طائشاً يقتل لرغبة له في القتل ، ويفاخر القوم بانه قاتل ، فكره ان يستعطفه لئلا يفضي به الاستعطاف الى حفرة تشبه حفرة عباس .

على انه حدث في تلك اللحظة ما غير موقف الثلاثة فقد اقبل احد الحراس يقول : ان الفتاة تستغيث وقد ملأت المضرب صياحاً !

فقال وهو هادىء : لا تبالوا ولو ملأت الفضاء بكاء !

ثم قال : ارفعوا الستار عن باب الخيمة وامكثوا عنده ولتفعل ما تشاء .

ــ لقد فعلنا يا مولاي وكانت قد همت بان تطعن قلبها بخنجر ذي حدين

ــ خذوا ذلك الخنجر واحتفظوا به ريثما اعود .

ــ ان الخنجر مع رئيس الحراس ولكن الفتاة لاتهدأ وهي تلح في طلبه !

فقطب حاجبيه قائلا لناشر : ابق هنا ولا تغادر هذه الخيام .

ولم ينتظر جوابه بل اكتفى بان يقول لحارسه :

ــ تعال فنحن نعطيها خنجرها ونجعلها حرة .

وعندما توارى عن نظر الاثنين قال ناشر للشيخ : ان عاتكة ستموت الساعة فالامير يريد ان يجعلها حظية له وهي لا ترضى .

فتردد قليلا في الجواب ثم قال :

ــ وماذا تفعل وهو ابن ذي القرنين والجيش وراءه ؟

قال : خذ شيوخ القوم وانطرحوا جميعكم على قدميه لعله يعفو .. اذهب ولا

تتردد فالموت لا يبعد عنا غير خطوة واحدة .

فتمتم قائلا : لقد خفنا من سابور فاذا نحن بين يدي رجل لا يطيب له الا ان تسفح الدماء .

قال : اذهب وافعل ما قلته لك قبل ان ينتهي الامر ..

فجعل الجبان يتلفت مذعوراً كأن الخيل تحيط به .

فدفعه بيديه الاثنتين وهو لا يعلم ماذا يفعل .

فمشى كبير القوم بخطوات متثاقلة ليدعو زملاءه الشيوخ ، وصدر ناشر يكاد ينشق وهو يقول : لم أر في العرب قوماً اجبن من هؤلاء !

وظل الشيخ ماشيـــاً وناشر يمشي خلفـــه حتى وصل الى خيام قومه فهامس الزملاء والابطال وانثنى معهم يريدون مضرب عمرو .

فخيل الى ناشر انهم ذاهبون الى عرس .

فوقف واخذ ينظر الى السماء يستوحي الهتهـــا وهو متحير في امره . أيلنتصر لغرامه فيقتل مولاه ثم يقتل وتقتل عاتكة بعده فيخسر كل شيء ، ام يسكت على من ويصبر على ذل حتى تسنح له الفرصة فيضرب ضربة تشفي غليله ؟

ان الصبر اولى ، فليختنق غرامـــه ، وهو في فجره . وليتفطر فؤاده الذي لم يشق من قبل !

ثم دار دورة طويلة ، وسار من الجانب الذي جـــاء منه ، ليصغي من وراء خيمة مولاه الى كل ما يقال .

* * *

كانت عاتكة تبكي وترسل الزفرات .

فلما اقبل ولي العهد نهضت كاللبؤة الجريحه قائلة له : ارحم ضعفي ايها الظالم ودعني اخرج من هذا السجن الذي جعلتني فيه .

فأجابها وعاطفته تطل من عينيه : انسيت ناشراً ؟

ــ بل نسيت اهــل الارض جميعهم وانا اؤثر الموت على الحياة .. لقد كان حراسك قساة فسلبوني سلاحاً كان في يدي قدرهم ان يردوه .

ــ ان الحسناء مثل عاتكة لا تحتاج الى سلاح . اتريدين سلاحاً امضى وابعد اثراً من عينيك الذابلتين ؟

قالت : انه خنجر ابي فلا انزل عنه .

ــ ولكن لا نريد ان تموتي وانت في زهرة العمر !

ــ واي نفع لحياة ليست ملكاً ؟ كانت ملكاً لعباس بن عمي ثم اضحت الآن ملكاً لك يا ابن ذي القرنين ، والموت احب الي من هذا .

قال : لا تعودي الى الجنون يا عاتكة .

ــ المجنون من يحاول ان ينتزع الحب انتزاعاً من صدر فتاة لا تحبه ولا تريده زوجاً لها ولا تفكر فيه ، بل لا تريد ان ترى وجهه .. المجنون هو انت !

ــ عاتكة ..

ــ ليس لك امل بان تسمع مني كلمة غير هذه .

قال : لقد اثرت ناشراً علي وانا لا اطيق ذلك .

فضيعت ذلك الهدوء الذي احتفظت به من قبل قائلة :

ان الارض التي انبتت عمراً انبتت ناشراً .. كلا كما نذل .. ولو لم يكن ناشراً نذلاً لما اختبأ في المعسكر الآن كما تختبىء النساء .

فلم يغضب الامير لكرامته الجريحة ، بل لم يبد على وجهه اثر واحد من اثار ذلك الغضب ، كأن عاتكة كانت تعني سواه بذلك الحديث الذي وجهته اا وجعل يقول : احبك وستكونين لي .

فهاجت وحاولت ان تخرج من الخيمة وهي تلعن الساعة التي ابصرت فيها وجهه ووجه ناشر الجبان .

ولكنه تصدى لها بيدين حديديتين واوماً الى الحاجب القائم بالباب بان يسدل الستار ففعل ، فساد المكان شيء من الرهبة والظلام .

ثم قال وصوته يرتجف : لقد اصبحت خائفاً من نفسي .

ـ اما انا فلا اخافك .

قال : واخشى ان اخرج عن حدي فتموتي .

قالت : استحلفك بشرفك اذا كان هذا الشرف موجوداً ان تفعل .

فجرد الوحش خنجره وقال : كلمة واحدة اقولها ثم اضرب . اتريدين ان تكوني لي ؟ .

فجثت ، ثم فتحت ذراعيها للموت وهي تقول :

اضرب يا ظالم فليس على الارض قوة تكرهني على هذا .

فاغمض الذئب المفترس عينيه واقبل يضربها وهو لا يبصر اين تقع ضرباته حتى وقع الخنجر من يده ، ثم استفاق من حلمه الرائع فاذا عاتكة جثة مخضبة واذا هو في حوض من الدماء .

فتراجع قليلا الى الوراء وهو يضحك ! ! ثم خاطب الجثة المكفنة بذلك النسيج الاحمر قائلا لها : لقد اردت أن تكوني لعباس فانتقام لك الامر .

ومشى الى الباب فرفع ستاره فابصر شيوخ اليمامة يترددون في الدخول .

ففاجأهم بقوله : ادخلوا واحملوا عاتكة الى القبر .

فجعلوا يحدقون الى الداخل وهم لا يصدقون .

واقبل الحراس ليروا تلك الفتاة التي قتلت دون ان يرتفع لها صوت .

فابصر الجميع جسداً مزقته الشفرة الحادة ... وصبغته الدماء التي خرجت منه .

ولكنهم لم يقولوا كلمة ، بل لم يخفق لاحدهم قلب ولم تجل في عين احدهم دمعة ! كأن الصبية الحسناء التي لفظت روحها ليست منهم ولا عهد لهم بها من قبل !

قلوب كالصخر ، لا شرف فيها ولا عاطفة ، وضعف يملأ الصدور ، فيه النذالة والذل .

وكان ناشر من وراء الخيمة ، قد عرف كل شيء ، فاصفر وجهه ، ثم بكى.

ثم وضع يده على قلبه ليسكت خفقانه وهو يقول :

اصبر يا قلب على ما رأيت ، فلهذا الظالم يوم .

ثم سمع صوت عمرو يقول لحراسه :

اقذفوا بالجثة الى الحفرة التي يرقد فيها عباس !

ومشى يريد المعسكر وهو لا يلتفت الى الوراء ، ولكنه كان يرسل نظره الى الجانبين لعله يرى ناشراً .

فمحا حقد ناشر في تلك اللحظة جميع عواطف قلبه ، واستطاع ان يستعيد قواه كأن عاتكة لم تكن .

ثم رجع الى خيام الجيش يحمل حقده وصبره ، وهو يتفرس في الارض التي تطأها قدماه ولا يريد ان يوجه نظرة واحدة الى خيمة مولاه لئلا يرى عاتكة محمولة على الاكف .

وكان عمرو يطلبه بين الخيام لينقل اليه البشرى بموت حبيبته .

فلما وقعت العين على العين قال له والشماتة في لهجته : اذهب وشيع عاتكة قبل ان يحجبها التراب .

فاجابه قائلا : وهل ماتت يا مولاي ؟

ــ لم تمت حتف انفها ولكن بخنجر مولاك .

فلم يضطرب ولم يعبأ بل كان يقول :

لتنم اذاً قريرة العين بالقرب من ابن شعبة !

فخيل الى ولي العهد ان حب ناشر كان كاذبا ، وان تلك العاطفة التي اختلجت في صدره تشبه عاطفته التي تلاشى اثرها في ساعة واحدة . فقال :

الا تذكر عاتكة يا ناشر ؟

ــ لقد نسيتها عندما رأيت مولاي يريدها لنفسه .

ــ وكيف قلت انك احببتها حبا ملأ نفسك ؟

قلت لك ذلك يا مولاي وكنت صادقا ولكن اخلاصي لك وايثاري اياك على كل شيء حملاني على ضغط عاطفتي والتخلي عمن احببت !

فاشرق جبين الذئب ، عندما كان الذئب الآخر يهزأ به . وعندما كانت نار البغض تضطرم في صدره وتحرق احشاءه .

ولم يزد على ما قاله كلمة ، بل انصرف الى خيام اهل اليمامة يفتش فيها عن عاتكة اخرى يشكو اليها الغرام .

ولم تغرب الشمس حتى عرف الحي ان عاتكة وابن عمها نائمـــان في السهل فارسلت العيون دموعها ولكن من وراء الستار .

ان اهل اليمامة ، الكبار النفوس ، لم يجسروا على ان يبكوا الفتى والفتاة اللذين ماتا بامر قائد الجيش .

وهذا ابلغ ما تراه من نذالة وضعف !

* * *

٢٧

مرت الايام واخلاص ناشر لم يتغير ، ولم ينم عليه حقده وكآبة نفسه .

غير انه كان يبكي عاتكة بدم قلبه ، كلما خلا الى نفسه ، ويذكر تلك الساعة القصيرة التي اعترف لها فيها بهواه ، ويلعن السماء التي تظلل عمراً ، والارض التي تدوسها قدماه .

لقد خنق عمرو غرامه وهو في المهد ، فليمت عمرو ، وليسقط عرش حمير على رأسه ورأس ابيه .

وانك لا تقدر ان ترى فتى قوي الارادة يستطيع ان يمسك على ما في نفسه من غيظ وبغض مثل ناشر .

يتظاهر بالوفاء . وهو غادر ، ويلبس لباس المخلصين وهـــو ثائر ، وينام على الاذى كأن الاذى فراشه الوثير .

وولي العهد مطمئن وقد نسي الماضي بما فيه ، حتى انقضى على وجود الجيش

في ذلك البر شهران رجعت بعدهما الرسـل الذين وجههم في اثر سابور الى الاقطار .

وكانت الاخبار التي يحملون ، اخبار قتل ونهب وتدمير حتى امسى الفارسي الغازي في نظر العرب ، قضاء جائراً يمحو من الوجود كل ما تقع عليه العين

غير ان هذا القضاء كان قـد تعب من جوره ، فترك يثرب الى ارض بكر وتغلب بين فارس والشام ، ثم رجـع الى عاصمة ملكه ، ليهضم فريسته وهو في البلاط .

فلم يبق الا ان يعود الجيش اليمني الى مأرب ، حاملا معه من تلك الرحلة الطويلة ذكرى مقتل عاتكة وعباس

وصدر الامر بالرجوع الى ريدة ، ومنها الى عمران ، ثم الى شبام ، ثم الى مأرب .

وعندما وصل حاشد ، ساقي الملك ونديمه ، الى شبام كان الجيش قد وصل اليها منذ عشرة ايام وهو يهم بالرحيل .

وكانت بلقيس قد عادت الى ذهن ولي العهد ، بصورتها الفتانة ، وجمالها الخلاب ، اللذين رآهما في خياله .

وبينا هو في مساء اليوم الاخير يعلل النفس بها ويحدث ناشراً بامرها ، اقبل حاجبه يستأذن لحاشد الذي قدم في تلك الساعة .

فأذن له وهو يعجب لقدومه وخاطبه عند دخوله قائلا :

عجل يا حاشد وخبرنا لماذا قدمت .

ــ : لخير يا مولاي !

قال : اذكر المهمة التي بعثك لاجلها الملك .

ــ : لقد طال غيابك يا مولاي فأراد الملك ان يستعجلك .

ــ وليس هنالك غير ما ذكرت ؟

ــ : لا يا مولاي .

قال : يخيل الينا ان للملك غرضاً آخر فهل تعرف شيئاً عنه ؟

ـ : لا يا مولاي ولكني اظن ..

ـ ماذا ؟

ـ سمعت الملك يحدث شرحبيل بن عمه بشأن الزواج

ـ وغير ذلك ؟

ـ : ويسأله ان يعده الوعد الاخير ببلقيس .

ـ : وسمعت جواب شرحبيل ؟

ـ : نعم فقد كان يقول انه لا يستطيع ان يعده بشيء قبل رجوع ولي العهد

فنظر الى ناشر قائلا : ما هي الغاية من هذا ؟

فرأى الفتى ان الفرصة سنحت له ليمد اصبعه فقال : يريد شرحبيل ان يخاطب ولي العهد بالامر ويسمع باذنه رغبته في بلقيس

قال : نخشى ان يكون هنالك غاية اخرى .. ماذا ترى يا حاشد ؟

ـ اني ارى ما يراه مولاي فشرحبيل لم يكن صريحاً في قولـه ، ولم يشأ ان يعاهد الملك على الوفاء بما سأله اياه .

ـ وكيف رضي الملك بذلك ؟

ـ لم يرض يامولاي بل امره بان ينقل اليه جواب بلقيس بعد يومين، وتركت مأرب قبل ان يحمل شرحبيل هذا الجواب .

ـ والآن ؟

ـ اما الآن فاطلب اليك باسم الملك ان تتعجل في الرجوع .

قال : نعهد اليك في تنفيذ هذا الامر يا ناشر .

ـ الليلة يا مولاي ؟

ـ نعم وسنبلغ عاصمة اليمن بعد بضعة ايام ؟

فنهض ناشر وهو يقول في نفسه .

سأقتل بلقيس ايها اللعين اذا رضيت بك .. نعم يا عمرو وانك ان تـتزوج وانا حي ، والويل للفتاة التي تحدثها النفس بالاستسلام اليك .

وخرج وهو يحلف ويردد ذلك القول . وكان واثقاً بأنه يستطيع البر في يمينه .

ثم قال ولي العهد لحاشد : من هو الذي ينادم الملك ويسقيه ؟

ـ هو ذو تبع يا مولاي امير همدان .

قال : ويلك اتهزأ بي ؟

ـ لا يا مولاي فقد عهد اليه في منادمته وانا حاضر ثم امرني بعد ذلك بان اكون رسوله اليك .

ـ اذن سينتهي الامر بان يجعل الملك هذا الهمداني شريكاً له في العرش !

ـ ان للملك غاية يا مولاي هي انه اراد ان يلزم الهمداني البلاط ولا يخرج منه الا لامر .

قال : لماذا ؟

ـ لانه يخشى ان يخدعه شرحبيل بقصصه واكاذيبه .

ـ اي انه لا يحب ان يزور ذو تبع قصر ابن عمرو .

ـ لا . كما انه لا يحب ان يكون بين الاثنين صلة وولاء .

فاحمرت عيناه قائلا : وكيف يخشى الملك ما يخشاه وذو تبع لا يترك البلاط الا الى همدان .

فحدثه عندئذ بما جرى بين الملك وشرحبيل ، وذهاب ذي تبع في اثر هذا الاخير ليسمع ما يقوله لاهله ، ثم قال .

وقد دب الشك في صدر الملك عندما سمع امير همدان يدافع عن ابن عمرو ويذكر اخلاصه للعرش .

وجعل يقص عليه ما يعلمه عن هذا الامر ، فأحس ولي العهد بالغيرة تنهش احشاءه وقام في ذهنه ان بين ذي تبع وبلقيس رابط غرام ، وان ذلك الغرام اوحى الى الفتى بذلك الدفاع .

لكنه لم يستسلم الى احساسه عند اعتقاده ان امراء اليمن جميعهم لا يستطيعون ان يجاروه في ذلك الميدان ، وان بلقيس لا تؤثر احداً منهم على ولاية العهد .

وبات ليلته يفكر في غرامه . مع ان تلك العاطفة لم تكن غراماً . بل كانت نزوة قلب طائش خفاق .

وعند الصباح نهض الجيش يعد عدة الرحيل ، ولم تمر بضع ساعات ، حتى كانت اعلامه تخفق في الهواء .

ولم يأو الى خيامه في المساء ، حتى كان عبد ذي مغار ، الذي ارسلته بلقيس، قد انضم الى صفوفه .

* * *

٢٨

الليل هادىء والسماء صافية ، والنسيم المنعش يبرد حر مأرب ، في ليالي الصيف

وكان قد مر على الملك ساعتان وهو يشرب الخمر مع معدي كرب وعبد شمس، وعتيك بن روضة .

والفتى الهمداني هو الذي يسقيه .

وقد سكر الاميران الاولان وسكر ذو القرنين .

اما عتيك فقد كان كاذبا في شربه ، كما كان كاذبا في اظهاره الطاعة والاخلاص لمولاه ..

وذو تبع يعلم كيف يصب الخمر في الاقداح :

اجل ، كان هنالك اتفاق بينه وبين عتيك على ان يكيد الخصوم ، ويطلعا على الاسرار التي يفضحها السكر .

ثم يجيء شرحبيل حاملا جواب بلقيس بشأن الزواج ، فيستطيع المتآمرون الثلاثة ان يقرأوا ما في صدر الملك السكران ، ويحتاطوا لامرهم من كل نواحيه.

وتلك هي المرة الاولى التي يجالس فيها عتيك بن روضة ذا القرنين على شرابه .

كان يعتذر له ان الخمر تضيع عقله . اما اليوم فقد طاب له ان يرضيه ولو ضيع كل شيء ..

والملك يشرب ثم يشرب ضاحكاً وهو يقول :
لقد وعدنا ابن عمنا ان يحضر الليلة ولم يفعل ، حتى ترنــح وهو قاعد . !
وجعل يتمايل ويهذي ثم يبتسم ويعبس وجهه وعيناه تلمعان .
ثم ادركه سعال فجائي شديد كادت كبده تتقطع من شدته حتى تلاشت قواه
وغشي عليه فنهض القوم مذعورين وهم يستغيثون بالحراس ولكنه صحا ويده
على صدره
وفي تلك اللحظة دخل شرحبيل بدون اذن . . لانه رأى الذعر على وجــوه
القائمين بالرواق
فبرقت عينا الملك ونسي ألمه ، غير انه كان مضطربا فلم يقل كلمة ، بل أومأ
اليه بالجلوس واشار على ذي تبع بان يسقيه .
ويظهر ان شرحبيل كان خائفاً من تلك الساعة ، وقد اراد ان تقوى الخمر
جنانه فشرب كاسه جرعة واحدة وهو يدعو لصاحب العرش .
ثم مضت لحظة اخرى كان الملك فيها ساكتاً .
ثم قال : أرأيت ماذا جرى للملك يا ابن العم ؟
ــ لم ار شيئاً يا مولاي .
ــ لقد فاجأنا سعال ملعون ضاقت له انفاسنا ونحن نحس ان سهامــاً [illegible]
تخترق هذا الصدر .
قال : لتحفظ الآلهة مولانا الملك . .
فتنهد قائلا : وقد بدأنا نشعر بتعب . .
ــ ذلك ما يحدثه السعال يا مولاي .
ــ لم يكن هذا السعال موجوداً من قبل . . هات يدك يا عبد شمس .
فمد اليه الامير يده فقبض عليها وهم بالنهوض فلم يقدر .
السكر من جهة . . وضيق الصدر من جهــة ، وقد تعاون عليــه الاثنان
فضعضعاه ونهكا قواه .
فقام شرحبيل فقال : أيريد الملك ان يأوي الى فراشه ؟

اجل فمدوا ايديكم واحملوا ملككم لذي يتمزق صدره ولا تغادروا البـلاط الليلة لان الملك يكاد يموت

قال . متى كان ذو القرنين يخاف ؟

فتمتم قائلا : كان ذو القرنين اسداً ماشي كالحمل الذي يساق الى الذبح . . هذا شبح الموت يدنو منا ولا مفر منه . . خذوا الملك . خذوه الى فراشه . . وحطموا هذه الكؤوس التي ترسل السعال الى صدور الملوك .

ثم استولى عليه ما يشبه اليأس فاسود وجهه ، وارتجفت يـداه ، وتلألأ الدمع في عيني الملك الجبار الذي لم يبال ، حياته كلها ، باحد ، ولم يخف الله .

نعم ، ان ذ القرنين ، الذي ابكى الامراء ، والفتيان ، والعذارى ، من كل جنس ، كان يبكي ..!

وكان يخشى ان تجور عليه الاقدار ...!

وكان الامراء والحراس حوله مضطربين ، وعتيك بن روضة ينظر اليه بعينين تتقد فيهما النار ...

ثم غمرت الابتسامة ثغره وخاطبه قائلا :

اعطني يدك الاخرى يا مولاي واترك قاعة الشراب الى قاعـة نومك فنبات جميعنا عند قدميك !

وقال معدي كرب : بل نموت عند فراشك ...

اما ذو تبع فلم يقل كلمة ، بل كان يظن ان ساعة الملك قد دنت ، وان ذلك الحادث نهايته الموت .

ولكن حدث في تلك الحفلة ما دهش له القوم ، فان الملك المرتجف الباكي رفع رأسه فجأة ، ولمع في عينيه الامل حاجباً مظاهر اليأس ، وانفرجت ازمة صدره بعد ما كاد يختنق ..

كان ذلك السعال ضيف خفيف الظل لم يشأ ان يبيت ليلته عنده ..

ثم اومأ فتنحى الامراء واستلقى على وسائده وهو يقول : لقد زال ما ألم بالملك فتعالوا نشرب .

وجعل يجيل نظره حتى وقع على شرحبيل فقال له : متى قدمت ايها الامير ؟!!
ــ : منذ لحظة يا مولاي .
قال : عرفنا من نعمى وذي تبع اشياء واشياء :
ــ : ماذا عرفت يا مولاي .
عرفنا انك ذلك الامير الصادق في خدمة الملك كما قلت لنا من قبل ، وان الذين سعوا بك كانوا خونة ...
ــ : حسبي هذا ايها الملك ..
ــ : ولكن ألا تسألنا عن اسماء اولئك السعاة ؟
ــ : لا اسألك عنهم لاني لا ابالي بهم ..
ــ : والملك لا يذكر اسماءهم لاحد لانه لا يخون المقربين اليه ... ولكن بلقيس آه اننا نشعر بالحمى تحرق احشاءنا .. ماذا فعلت بلقيس يا شرحبيل ؟
ــ : بلقيس عبدة الملك كما يعلم واحدى جواريه .
ــ : بل هي سيدة نساء حمير .. ارضيت بما طلبناه اليها .
ــ : امرتها يا مولاي فاطاعت وهي تنتظر قدوم ولي العهد من اليمامة .
قال : لتزف اليه ؟
ــ : بل ليسأله الملك رأيه في الزواج .
فوضع يديه الاثنتين على جبينه وقال : لقد زادت الحمى الان وزاد اللهيب .. ان ابن عمنا يعللنا بالامل ولا يعد كاننا نلتمس هـذا الامر التماساً او كاننا بحاجة اليه ... لقد قلت لنا مثل هذا القول يا شرحبيل قبل الان ولم نرد ان نصغي اليه أفتعود الى جواب سمعناه وهزأنا به وبقائله ؟؟
ــ : ذلك جواب بلقيس يا مولاي وليس لي رأي فيه .
قال : سيعود ولي العهد بعد بضعة ايام .
ــ : ليعد بعد يوم يا مولاي .
ــ : ولكن يخشى ان تعمد بلقيس بعد رجوعه الى حيلة اخرى تدعونا بها الى الصبر ..

قال: نظن يا مولاي اننا نلجأ الى الحيل فيما تأمرنا به

ـ : اجل ومع ذلك فقد سكتنا وسيستمر هذا السكوت يومين آخرين ريثما ينتهي الاجل الذي ذكرت . ولكن نقسم بالسماء والارض لئن خطر لك او لبلقيس ان تهزأ بالملك مرة اخرى لجعلناك مضغة في افواه اهل الجزيرة ..

وعاوده السعال الجاف فاستوى جالساً وهو يتلوى كما يتلوى الجريح والقوم يعجبون للحادث الذي اصابه ..

فصبر عتيك حتى هدأ سعاله ، ثم قال له :

اشرب يا مولاي فالخمر تطفيء النار ...

فقـال : هات الكأس يا ذا تبع ولا تنس ان تسقي ابن عمنـا الذي يملأ بوعوده .

فجاء دور عتيك في تلك اللحظة ، واتت الساعة التي يستعين فيها بدهائه لتتم له الغاية من انتزاع سر ذي القرنين ، فأخذ يقول :

لو رأى مولانا الملك بلقيس بنت شرحبيل، لكره ان تكون لسواه .. انهـا بهجة اليمن يا مولانا .

فأجابه وانفاسه تتقطع مع الكلمات :

ماذا تعني بقولك يا ابن روضة ؟

ـ اعني ان ولي العهد فتى في فجر حياته وهو يطوف في البلاد ويرى العذارى الحسان اللواتي يخلبن الالباب .

ـ اما الملك ؟

ـ واما الملك فهو مقيم بالبلاط لا يخرج منه الا الى الميادين فاذا طاب له ان يضع يده ، من جديد في يد فتاة ، فلتكن اعظم فتاة في العرب .. نعم يا مولانا انت سيد العرب وعلى الفتاة التي تنضم اليك ان تكون آية الجمال .

قال : اسمع يا شرحبيل ، ان الامراء يريدون بلقيس لنا وتريدهـا انت لولي العهد كأن الملك لا يستحق ان تكون له ..! ولكن سترى يا عتيك انها لن تكون لغير الملك .. ثم قال لمن حوله :

ماذا تقولون ايها الامراء ؟ اتريـــدون ان تكون اجمل فتاة في العرب للملك ام لسواه ؟

فقالوا جميعهم : بل للملك .

ومن يجسر على ان يقول غير ذلك .

الا شرحبيل فقد بات ساكتاً .

فقال له : مسكين انت يا ابن العم لقد خانك الحظ ولم تجد لك نصيراً بـين هؤلاء .. كلهم يطلبون ما يطلبه الملك وسيبلغون الغاية .

فقال عتيك وقد كثر كلامه .

أتصبح بلقيس ملكة يا مولانا ؟

فقطب حاجبيه قائلا : لقد ماتت ملكة حمير ولسنا بحاجة الى ملكة اخرى . ستصبح الملك وهذا يكفي ..!

قال : اليوم ، قبل ان يقدم ولي العهد ؟

ـ بل بعد قدومه .

فقال النعين : وكيف ذلك ؟

ـ ان الملك لا يقص اسراره على جميع الناس ... اخرج يا شرحبيل فقــد عرفنا ما اردنا ان نعرفه منك وقل لبلقيس اننا سنصبر ريثما يجيء عمي .. اخرج يا ابن العم واسأل الاقدار بان تبسم لك بعد الآن .

فابتسم ابن يعفر ابتسامة الاستخفاف وقد ايقن بان الملك سيبوح بسره للامراء وستردد هذا السر السنة الغلمان .

وخرج وهو لا يلتفت الى الملك المحموم .

فاخذ ذو القرنين يشرح للقوم تلك الحيلة التي اعدها لبلقيس وولي العهــد ، وصدره يعلو وينخفض وعيناه تشبهان عيني المجنون .

فاقبل امير نحلة يهامس عبد شمس قائلا له لم اكن اظن قط ان الملك يخون ولده !!

قال : لا تزد كلمة فهو يسمع الآن كل شيء ..

ـ ولكن عمراً لا يطيق ان يخدعه ابوه على هذه الصورة وقد يعلم ذلك عند وصوله الى البلاط .

ـ سنحفظ السر فلا نطلعه عليه .

ـ بل نذكر له كل ما سمعناه حتى لا يقوم في ذهنه بعد قليل اننا جميعاً وافقنا الملك في هواه .

ـ اصبت فخير لمن يريد العيش في البلاط ان يكون اقرب الى ولي العهد منه الى الملك .

فحدجهما ذو القرنين بنظره قائلا : الامراء لا يتهامسون في مجلس الملك .

فقال عتيك في نفسه :

بل يتآمرون ايها السكران .

وكان قد نفث سمه كما اراد ، فسكت وهو يفكر فيما سيحدث بين الوالد والولد يوم تفضح الاسرار .

ثم عاد الملك الى سعاله وهذيانه . ولم تمر ساعة حتى اطبقت الحمى جفنيه .

فحملوه كما تعودوا ان يفعلوا وهم يقولون :

لقد خلقت له الخمر الليلة هذا السعال الذي انتابه . وفاتهم ان الداء ، السل الذي تهلع له القلوب ، انشب مخالبه برئتي الملك المسكين !

اجل ، لقد امسى ذو القرنين مسلولا ! مسلولا بقوة وعنف ، كأن ذلك العدو الهائل كان كامنا برئتيه ، لم يشأ الا ان يصرعه في اول جولة .

وكان السعال الجاف ، في نظر اهل ذلك الزمان ، امراً عادياً لا يبالون به ، ولم يكن له دواء الا الخمر .

وعندما احاطت الجواري بفراش الملك وتفرق القوم قال عتيك لذي تبع ، لقد سقط الملك في الشرك الذي نصبناه له ، وسترى ان ولي العهد سيغضب لكرامته ، وسيتم الامر كما ارادت بلقيس .

فاجاب وقلبه يخفق : اما انا فاكاد اضيع هدوئي واشعر بان الغيرة تسد منافذ الصبر .

قال : كن رجلا واذكر ما اوصتك به بلقيس .

ـ : احاول ان اكون كما تقول فتخونني العاطفة .

ـ : احذر ، واذا كنت لا تستطيع الصبر فارحل الى همدان .

فسكت مكرهاً ، ثم انصرف الى غرفته ليحارب شعوره ويكون رجلا واستولت السكينة على البلاط بعد نوم الملك .

* * *

٣٩

في الليلة التي انتهى بها خبر فشل الجيش الحبشي الى العلى اسكندي ، ومرا الى بلاط الملك ، رجل من اولئك العمال الذين يرسلهم في تجارته الخاصة .

وكان الملك في تلك الساعة يستعيد خبر الهزيمة من فم القائدالذي غلبته العرب .

فلما ذكر له الرجل امر بأن يؤذن له وكان من اقرب المقربين اليه واصدقهم اخلاصاً وطاعة .

وكان اسمه مناع ، فقال له والكآبة على وجهه : متى قدمت ؟

ـ : في هذة الساعة يا مولاي .

ـ من اين ؟

ـ : من اليمن ، بلاد الملك المتكبر الظالم الذي يغلق ابواب مدنـــه ويمنع الحبشان من الدخول في ارضه .

ـ : ولكنك لم تقل لنا عندما تركت اكسوم انك ستذهب الى اليمن .

ـ : ان اليمن قريبة يا مولاي وقد تعودت ان ابيع فيها جميع اشيائي واعود قبل ان تعود رسل الملك .

قال : لا نسألك الآن عما بعت بل عما رأيت ..

قال : بعت القليل من العاج ثم رأيت اني عاجز عن بيع الباقي .. لقد كنت

.. راً للقوم يا مولاي والعدو لا يبذل حياته لاعدائه ..

قال : لقد سمعنا الليلة جميع اخبار السوء.. ماذا جرى لك في ارض اليمن يا مناع ؟

ــ : كنت اطوف في مأرب يا مولاي كأني في اكسوم والقوم لا يعبأون بي ولا يسألوني عما افعل ..

ــ : نعم

ــ وكنت اتردد في بيع ما معي لتزداد رغبة القوم في الشراء .

ــ وبعد ذلك ؟

ــ انتهى الي بعد ذلك ، وانا عند باب السور الكبير ، ان جنــد ذي القرنين قبضوا على رجل حبشي ورفيق له من اليمن .

فانتفض الملك لهذه الكلمة وقال :

رجل حبشي ورفيق له من اليمن ؟؟ انه اميناس .

ــ نعم يا مولاي انه اميناس وزير قصرك !

فتجلد بعد ذلك الذعر وجعل يقول :

لقد نمت على اميناس غاية نفسه فهو لا ينجو من الموت .

ــ لا يا مولاي .. انه لم ينج من الموت .

ــ اذن قتل اميناس ؟

ــ نعم ولحق به اثنان من براقش .

قال : ويلك ومن خبرك هذا ؟

ــ رأيت بعيني رأس اميناس يتدحرج في الساحة وكنت خائفــاً ان يعرفني الجند فيسقط رأسي ...

فنهض العلي اسكندي عن مقعده وجعل يروح ويجيء في تلك القاعة الكبيرة وهو يقول :

لم يترك لنا ملك حمير مجالاللصبر .. يفوز جيشه على الشاطيء ، ويقتل اميناس في مأرب والجند الحبشي باق في اكسوم ؟؟ انها حال لا يرضاها العلي اسكندي

ولا يسكت عنها ملك الروم ..

ثم قال لحاجبه : ليحضر الآن افرونيم وهر وسامور وجميع الصيادين .

وهؤلاء اسماء قواده الذين شرفوا قومهم بقوة السيف .

فمثل الثلاثة بين يديه تتبعهم طائفة من الرجال الاشداء ، فقال مخاطباً القائد الاكبر افرونيم :

لقد كتب النصر لجيوش حمير كما عرفت .

ـ وسيكتب لك النصر بعد حين يا مولاي !

ـ ولكنك لم تعلم ان ذا القرنين قتل امينداس في مأرب .

فضج القواد لهول ما سمعوه ، ولكنه اسكتهم قائلا : واجـد بمائة وسنطلب بدمه بعد شهر فهل تزحفون الى اليمن ؟

قالو : نفعل وسنتهيأ للحرب بعد بضعة ايام .

فقال سامور وهو الرجل الذي هذبته التجاريب :

لينظر الملك في امر الحرب الليلة اذا شاء .

قال : اجلسوا ايها القواد وليبد كل منكم رأيه .

فقال افرونيم : نفاجىء الشاطىء اليمني بالجيش ثم نزحف الى الجبل والسهل فنقتل وندمي ونضرم النار .

وقال زهر : بل نحاربهم على الشاطىء نفسه ونجعل المؤونة في المراكب وراء الصخور حتى تتلاشى قوى ذي القرنين .

اما سامور فكان اعقلهم اذ قال :

لا يستطيع الجيش الغازي ان يجعل الشاطىء وحده ميداناً لخيله . ان الحرب تخلق الحادثات وقد يكره الجيش على التوغل في ارض اليمن فتدور عليه الدوائر ويطوقه الحميريون من الجهات الاربع فيخسر كل شيء .

فقال الملك : اذن فانت تؤثر الحرب في الساحل كما قال وهر .

ـ نعم يا مولاي ، او في السهل ولكن لي رأياً .

ـ ما هو .

ـ اذا اردت ان نبقى على الشاطىء فاكتب الى ذي القرنين كتاباً وابعثه مع اثنين من فتيانك المخلصين .

ـ وماذا نكتب اليه ؟

ـ اما ان يدفع اليك وزيراً من وزرائه تضرب عنقه واما ان يوافيك بجنوده الى ضواحي مهرا .

قال : لا يكتب الى ذي القرنين مثل هذا الا الابله . اتراه يهب لنا احد رجاله وهو عز العرب ؟

ـ لا يا مولاي ولكنها وسيلة يوجه بها جيشه الى حيث تشاء .

ـ وقد لا يوجد هذا الجيش كما تقول :

ـ اذا لم يفعل نظرنا عندئذ في امر آخر على ان لا تكون الحرب في الاودية او على الجبال .

قال : احسنت ، فجيوش العالم كله لا تستطيع ان تقتحم جبال اليمن الوعرة الرافعة رؤوسها الى السحاب .

ثم قال : اجعلوا الجيش الذي تقودونه عشرين الفاً يحملون السيوف والرماح وليكن في المقدمة ألفا رجل من الرماة .

ـ سنفعل كل ما يأمرنا به مولانا الملك .

ـ واختاروا من الآن ذلك الرجل الذي يحمل كتابنا .

ـ لك ان تختاره انت يا مولاي !

وكان الملي اسكندي يعلم ان مثل هذه المهمة لا تطيب لرجال قصره ومـــن حوله الامراء ، فقال :

لقد جعلنا رسولنا قائداً من كبار القواد الذين يثق بهم الملك كما يثق بنفســـه أتعرف من هو؟

ـ هو انا يا مولاي .

ـ اصبت فانت هو ذلك الرسول الذي يدخل بلاط ذي القرنين ويتبين مافي ذلك البلاط من قوة واسرار وعظمة ودهاء .

فابتسم قائلا : أيغادر القائد ساحة الحرب لتكون رسولا الى مأرب ؟

ــ اجل فقد يفعل هذا الرسول في مأرب ما لا يستطيع جميع القواد ان يفعلوه في الميادين .

ــ ولكني أوثر ان اعد الصفوف ويذهب سواي .

ــ ونحن نوثر ان تذهب انت ويعد الصفوف هؤلاء الرجال . ان الغاية ليست في حمل الكتاب الى ملك حمير كما تعلم ونحن نخشى ان نبعث احـــدهم فيهزأ بــ ويقذف بكتابنا الى البحر ثم يعود قائلا :

ليس لكتابك جواب .

ــ ومن يقدم على هذا يا مولاي ؟

ــ لا نستطيع ان نسمي لك الرجال الذين يفعلون ذلك ، ولكننا واثقون بان في البلاط امراء كثاراً يخافون ان يغدر بهم ذو القرنين وهم ضيوف عليه .

ــ اذن سأموت في مأرب يا مولاي .

ــ اخائف انت ؟

ــ نعم ومن هو الرجل الذي لا يخاف الموت ؟

قال: ومع ذلك فنحن لا نبالي بخوفك ، وستذهب يوم يغادر الجيش اكسوم

قال : وانا لا ابالي ، مت في الحبشة ام في اليمن فالموت واحد في البلدين .. اكتب ما تشاء يا مولاي .

ــ سنفعل بعد ان يحمل الجيش سلاحه .

وباتوا يضعون منهاجهم ويتحدثون بامر الحرب حتى بزغ الفجر فانصرف كل قائد الى عمله وارسلت الرسل الى الغابات والجبال يدعون الرجال .

وراحت النساء يساعدن ازواجهن في اعداد العدة ويحرضنهم على القتال .

ولم يبق في الحبشة فتى لم يمد اصبعه في قضية الحرب .

* * *

٣٠

قبل ان يبلغ جيش ولي العهد عاصمة اليمن ، خرج جاشد نديم الملك من بين صفوفه ينقل الى مولاه خبر وصوله .

وخرج في اثره عبد ذي مغار ، يحمل الى بلقيس ذلك الخبر نفسه .

فجعلت بلقيس تسأله عن كل ما يخطر لها وهو يذكر لها كل ما يعلم كأنه قضى حياته كلها في الجيش .

ثم صرفته ،وارسلت نعمى الى البلاط ، لترى امير همدان وامير نخلة وتهامسهما بما حملتها اياه ..

وكان الملك لم يزل في فراشه ، وذو تبع وعتيك لا يخشيان عيون الرقباء .

فحدثتهما بما قدمت لاجله ، واستطاعت ان تدخل تلك القاعة التي ينام فيها ذو القرنين المسلول دون ان تقول له كلمة .

كان محموماً مضطرباً ، فلم يهتم لها ، ولم يبال بما في صدرها من اسرار .

ثم رجعت الى قصر شرجبيل وهي تقول : لقد رأيت الاميرين يا مولاتي وانتهى الامر كما تشائين .

— : وهل رأيت الملك ؟

— : نعم رأيته وهو في فراشه وقد صرعه سعاله .

— : ولكن السعال لا يصرع احداً وقد خبرني ابي انــه عالجه بالخمر في تلك الليلة فزالت آثاره .

— : اما انا فاقول ان الداء اشتد وقــد يخسر الملك في الصراع ويحني رأسه اخيراً مستسلماً الى القوة ..

— : ومن قال لك ذلك ؟

— : حدثتني به الجواري ورأيت بعيني كما ذكرت .

قالت : صفيه يا نعمى .

قالت : أرأيت يا مولاتي ذلك الوجه الذي كانت النضارة والقوة تتدفقان

منه ؟ لقد اصبح وجهاً اصفر فيه عينان صغيرتان غارقتان في محجريهما .. وخلق جعدهما الالم وبدت عليهما سطور الخوف .

ـ : ذلك تأثير السهر والسكر اللذين هما احب شيء الى ذي القرنين .

ـ : بل هو تأثير النار التي تشتعل في احشائه ، واقسم لك يا مولاتي اني كدت ارى الموت ظاهراً بصورته الهائلة على ذلك الوجه الشاحب اللون .

ـ : احذري ان تبالغي في الوصف يا نعمى فالامر خطير جداً وهو اعظم مما تظنين .

ـ : اني اعرف ما اقول يا مولاتي فالملك سيموت .

ـ وسيغير موته وجه المؤامرة التي نعالج امرها منذ حين .

ـ : ولكنه لا يموت اليوم بـل يعيش بضعة اشهر كأنه ميت وسترين اني لم ابالغ فيما وصفت .

فاطرقت ، واستولى عليها ما يشبه الذهول ثم قالت : اذا كان هذا فاحفظي ما قلته لك ولا تنسي كلمة منه

قالت : سأكون في البلاط يوم يصل اليه ولي العهد ، وسأراه بعد ان يراه عتيك بن روضة .

ـ : لقد غيرت رأيي الاول يا نعمى ، ان ولي العهد سيجيء وسيمكث بضعة ايام ثم ترينه بعد ذلك عند ما يوعز الي امير نخلة .

ـ : اذن سأبقى هنا يوم قدومه .

ـ نعم وستعرفين عند الحاجة ، كل شيء ، ولكني اريد ان احصي انفاس الملك كما امرتك واعرف كل كلمة تلفظها شفتاه وهو في فراشه ..

ـ لقد وعدني عتيك بان يفعل .

ـ ولكنك لم تذكري لي كلمة عن ذي تبع !!

ـ وماذا اذكر عنه يا مولاتي ، انه لا يبتسم لاحد الا كما يبتسم المرائي ولا ينظر الى الناس الا كما ينظر اليائس من الحياة .. مسكين هـــذا العاشق لقد كاد قدوم ولي العهد يفقده عظمة نفسه ويقضي عليه .

ـ مع اني اوصيته بالصبر واقسمت له اني لن اكون لسواه .. ارجعي الليلة الى البلاط وقولي له ان الغيرة التي تنم عليها مظاهره ستفضح بلقيس . وأوصيه نعم أوصيه من جديد ، بان يكتم ما في قلبه ، ويبتسم لكل شيء .

وجعلت تقول عجباً ، يعد بالصبر ثم ينسى ويثق بحبيبته الوثوق كله ثم يدب في صدره الريب ... اذهبي يا نعمى واعيدي عليه هذا القول واستحلفيه باسم حبنا ان يخنق غيرته فولي العهد عدوه اليوم ولكنه سيمسي صديقاً له بعد ايام .

ثم اخذت تقول في سرها . لقد حرمتني لذة الهوى ايها التاج وستسلبني الراحة والهدوء ايها العرش .

واغلقت باب القاعة واستسلمت الى احلام الشباب .

***

٣١

خرجت مأرب كلها وكل من البلاط من امراء وغلمان لاستقبال عمرو بن ذي القرنين !!

كأنه ملك يزور ملكاً ، او كأنه الغازي الذي مد رواق النفوذ اليمني فوق الاقطار !!

وكانت النساء والاطفال على السطوح وفي الشرفات ، يهتفون لذلك الفاتح العظيم الذي غير وجه الجزيرة .

غير ان عمراً لم ير اباه ، ومن عادة ذي القرنين ان يكون اسبق الناس الى مثل هذه المظاهر الخلابة التي تبعث الجلال والهيبة ، الى نفوس اليمنيين .

ولكنه لم يسأل الامراء عنه ، ولم يخبره احد منهم انه مريض ، بل كانوا يصافحونه وينحنون له ثم ينضمون الى الصفوف .

وهو يبتسم بكبر ، وينظر مغروراً الى عطفيه !.

حتى صافح امير نحلة ، فقال لناشر :
هذه هي المرة الاولى التي ارى فيها عتيكاً ضاحكاً .
فاجابه ابن روضة قائلا : ان قلب عتيك يضحك مع شفتيه .
قالها ثم مشى عن يمين ناشر والابتسامة لا تفارق ثغره ، وقد رأى ان ناشر ا يغتصب الكلمات اغتصاباً .
فلم يشأ ان يسأله عن شيء في تلك الساعـــة بل سكت كما كان الموكب كـ اه سا كتاً ...
وعينا ولي العهد لا تقفان . بل كانتا تفتشان عن الملك عنـــد باب القصر والملك غير موجود .
ثم دخل القوم والملك لا يبين له اثر في مأرب !
فقال عبد شمس : انه في الرواق يا مولاي .
وبعد لحظة ابصر الفتى أباه يتهادى بين جاريتين ويجر رجليه كالشيخ الما ـ اتعبته السنون الكثيرة التي يحمل ..
فخيل اليه انه رجل يشبه الملك ، ولكنه عندما داناه ذعر لذلك الخيال الا ـ يمشي وقام في ذهنه انه خارج من القبر !.
جسد ناحل هزيل ينوء بسقمه .. وشبح مسترخ اصفر تضطرب ركبتـــاه ويلمع اليأس والالم في عينيه ..
فتلعثم لسان ولي العهد .. ثم قدر بعد قليل ان يجثو عند قدمي ابيه ويتمتم قا ...
أهذا انت يا مولاي الملك ؟
فاجابه والدموع على خديه : هذا هو الملك يا بني فانهض ليراك .

* * *

لقد جعل الداء ذلك الجبار القاسي اباً . ووهبت العلة للحجر الاصم ما تجول فيه عاطفة حب !

ايه ملك حمير .. اين ذلك العز الذي ارتفعت معه الى السماء ؟ واين هو الملك الذي اجلسك في حضن الله ؟

ألا تذكر انك سيد اليمن وربها وصاحب العرش الذي استوت قائمتاه فوق الغمام ؟..

الا تذكر ان ابتسامتك كانت حياة ، وغضبك كان موتاً ، وان اللعنة التي تصدر من فمك كانت نعمة ؟!

ايه ملك حمير . أيستطيع هذا السعال الضعيف ان يمزق رئتيك القويتين ويعكر عليك صفو العيش وانت ابن الآلهة ؟

أكنت تحس من قبل ، ان لك نفساً تلين ، وفؤاداً يرحم ؟

لا . وهذا التاريخ يشهد ، انك لم تكن قبل السل انسانا !

***

نهض ولي العهد وارتمى بين ذراعي ابيه .

فاستند ذو القرنين الى جاريتيه كي لا يسقط .. واقبل يلثم جبينه بحنو وعطف غريبين تمليهما الحياة الزائلة .

اما اضطراب ولي العهد فلم يكن شعوراً صادقاً بهول المشهد ، بل كان استغرابا لما رآه من تغيير حال الملك .

وكان ينظر الى جانبيه وهو يقرأ الالم على الوجوه .. ثم قال للملك وهما يمشيان : ماذا فعلت بك الايام يا مولاي ؟

فكره المغرور ان يعترف بدائه على مسمع من القوم فاجابه قائلا : حادث ألمّ بي ولا يلبث حتى يزول .

ــ وهذا الضعف الذي اراه ؟

فهمس في اذنه يقول : انه ضعف يتقدم الموت يا عمرو . ولكن اسكت الآن فسندخل القاعة وتسأل فيها عما يطيب لك .

ثم وصل القوم الى آخر الرواق حيث تقوم قاعة الملك فدخلها ذو القرنين وأومأ الى ولده بان يتبعه ثم خاطب ناشراً قائلا :

اما انتم فانصرفوا الى قاعة الجلوس وامكثوا بها ريثما يخرج ولي العهد .

واغلقت الجواري باب القاعة واستلقى المسلول على فراشه وقال : لم اشأ يا بني ان اصف لك حالي امام الامراء لان فيهم من يشمت بي ! قلت اني سأموت لان الداء الذي اصابني لا ينتهي الا بالموت .

فارخى ولي العهد نظره كأنه يفكر في ذلك الموت .

وظن الملك ان كلمته اخترقت فؤاد ولده البار ، في حين ان ذلك الولد لم يكن يفكر الا في التاج .

ان الموت ، كلما مشى خطوة الى ابيه ، مشى هو الى العرش خطوة ، واستطاع في النهاية ان يتولى امر الملك ويصبح سيد اليمن .

والتاج يخلب العقول ويغر !

اجل ، ليمت ذو القرنين ففي موته حياة وعز لولي عهـــده ، وسلطان ليس له حد . .

وقد استسلم في تلك اللحظة الى حلمه العذب .

غير ان الملك ، الذي احسن ظنه به ، اراد ان ينقـــذه من ذلك الاستسلام فقال له :

كيف رأيت اليامة يا عمرو ؟

ــ لم اصل الى اليامة يا مولاي ولكني بقيت في ذلك السهل الصغـــير الذي يطل على الوادي « وادي الدواسر » وضربت خيامي في الجانب الشرقي منه .

ــ اذن لم تر احداً من اهل تلك الارض ؟

ــ بل رأيتهم جميعهم وقد فروا من سابور .

وقص عليهم حكاية هربهم وزحف سابور الى ضواحي يثرب .

فقال : وماذا كنت تصنع وسابور غير موجود ؟

ــ ارسلت الرسل في اثره وانتظرت رجوعهم .

ولعله اراد ان يغير حديث الملك ويخاطبه بذلك الشأن الذي كان يفكر فيه ، فقال :

ولكن ماذا جرى لك يا مولاي ؟

ـ جرى لي ما تراه وسينتهي امر ذي القرنين وتحمل انت صولجان الملك .

قال : لا اطيق ان اسمع ما تقوله . !

ـ بل يجب ان تسمعه فانت الملك بعد ابيك وان لم يمت ابوك اليـــوم مات غدا وعصبت رأسك بتاج الملك . اسمع يا بني اني اخشى ان اغمض عيني قبل ان اقول لك ما اريد قوله . لقد تركت لك مالا لا يفنى ... وملكا واسعـــاً عزيز الجانب تخفق فوقه رايات العز فارجو ان تحتفظ بما تركت لك وتصون عرشك من كيد اعدائك الذين تخفي ابتساماتهم الكاذبة ما في صدورهم من حسد وبغض.

قال : لا توصني الان يا مولاي .

وتظاهر بالاكتئاب ..

فاجابه قائلا : بل اوصيك بكل شيء قبل ان يغدر بي الداء . . ان في اليمن امراء كثاراً يستهينون بالعرش ويبذلون جهدهم مـــن وراء الستار ، ليقوضوا اركانه ..

ـ ولكن ايديهم لا تمتد الى هذا العرش ..

ـ بل يفعلون كل ما يطيب لهم اذا غفل الملك عنهم واستخف بأمرهم ..انهم رجال حيلة ودهاء وعندهم الجيش يحميهم بالسيف ..

ـ من هم يا مولاي ؟

ـ اعظمهم جميعاً شرحبيل بن عمرو .

ـ انه ابن عم الملك !!

ـ والملك لا يخاف احداً كما يخاف ابن عمه !

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

ـ لا تسألني عن هـــذا ، فقد علمني الجلوس على العرش ان اعرف صديق عرشي وعدوه ، والخائن والوفي .

ـ مع أني اذكر ان شرحبيل كان اطول الامراء سيفاً واثبتهم جناناً في حرب شبوة .

ـ لقد كنت في تلك الحرب ، غلاماً لا يذكر شيئاً .

ـ ولكني لم انس خروجه من الساحة والدماء تصبغ وجهه ويديه ، وثوبه وفرسه .

ـ ومع ذلك فقد كان يؤثر ان تكون تلك الدماء دماء الملك نفسه ، وان يكون رأس الملك بين يديه .

ــ اذن هو عدو العرش يا مولاي !

ــ نعم يا بني واحب شيء اليه ان يموت الملك ليجرد السيف في وجه ولده ويسلبه هذا الملك .

فذكر ولي العهد عندئذ ما جرى بين ابيه وبين شرحبيل ، فيما يعني بلقيس ، ثم ذكر ذلك الزواج الذي وعده به ، واستيقظت عواطف قلبه ، ولكنه لم يشأ ان يحادثه بهذا الشأن ، قبل ان يسمع حكاية ابيه الى النهاية ويعرف ما في صدره .

اجل ، كان يعلم ان هنالك امراء لا يرغبون في الاقامة بالبلاط ، ولكنه لم يقم في ذهنه قط انهم اعداء العرش .

ان اباه لم يذكر له شيئاً من ذلك من قبل ، وقد نهى رجاله عن ان يحدثوه بذلك الامر .

ومعنى ذلك ان ذا القرنين ، كان يخاف ان يخرج ولده عن حده ، فيضيع دهاءه ، وتشتعل نار الفتنة التي يخافها الملك الحميري ...

وكان عمرو ، قد تردد في الجواب وابصر الملك تردده فقال :

أفهمت الآن من هو شرحبيل ؟

ــ نعم يا مولاي ولكني لم اعلم من هم شركاؤه ..

قال : صاحب مغار وابن عمه ، وامير براقش وبينون ويخيل الي ، ان الفتى الهمداني الذي قربه الملك اليه انضم الى الجماعة واصبح من المتآمرين !

ــ اتعني ذا تبع ؟

ــ اجل فقد رأيت في عينيه شعاعاً غريباً لم اره قبل الآن وكدت ألمس عاطفة جديدة ينطبق عليها صدره .

فارتسم الحقد على وجهه وجعل يقول : لقد صبرت وصبر الملك على كبريائه حتى اصبحت هذه الكبرياء استخفافاً .

قال : اذا ذكرت الاستخفاف والكبرياء فاذكر بلقيس .

ــ ماذا تقول يا مولاي ؟

ــ اقول انه ليس في هذا البلد يمني يستخف بالملك كما تستخف ابنة شرحبيل الحسناء به .

ــ ولكني لا استطيع الا ان استغرب ما تقول يا مولاي .

ــ غير ان هذا الاستغراب سيزول ، عندما تعلم ان بلقيس شر فتاة ظللتها سماء اليمن .

قال : لا تنس يا مولاي انك اردتها لنفسك ثم نزلت عنها لولي العهد .

قال : اخطأت يا بني فالملك لم ينس شيئاً .

ــ وكيف ترضى بان تدخل هذه الفتاة قصرك وتكون من حظاياك .

فقهقه الملك قهقهة مريض متألم لا يطمع بالحياة ثم قال : اردت ان اجعلها من نساء البلاط لاخمد نار كبريائها واتخذها سلاحاً ارد به سلاح ابيها الخفي .. ولكنها ابت وابى شرحبيل فلم ار الا ان اعمد الى حيلة اخرى ابلغ بها الغاية .

ــ هي انك سألتها ان ترضى بولي عهدك زوجاً لها ؟

ــ نعم وقد وعدني شرحبيل بانه سيحمل الي جوابها بعد رجوعك ، فما هو رأيك الآن يا بني ؟

ــ في اي شيء يا مولاي .

ــ في هذا الزواج .

ففكر الفتى قليلا ثم قال : لقد خبرنا الناس ان بلقيس اجمل نساء العرب أليس كذلك ؟

ــ نعم .

ـــ وتقول انت يا مولاي ان شرحبيل عدو عرشك وانه اعظم الامراء خطراً على الملك

ـــ نعم .

ـــ اذن فمن الرأي ان تصبح بلقيس ولية للعهد ، لتجلس في عرش حمير اجمل امرأة في العرب ، وتخنق بهذا الزواج صوت ابيها واصوات رفاقه الى الابد ..

ـــ وهل تستطيع يا بني ان تضمن اخلاصها لعرشك ؟

ـــ واي ملك لا يضمن اخلاص زوجته يا مولاي ؟

فتنهد المسلول وهم بان يبوح بسره ، غير انه رأى رغبة ولده وهواه فآثر الصمت خوفاً من ان يصطدم بارادة من الفولاذ ، ثم قال : ألم تر في البلاد التي طفت فيها فتاة تصلح لك ؟

ـــ اعجبتني فتاة في اليمامة ولكنها لم ترد ان تترك قومها لتقيم باليمن .

ولم يذكر له شيئاً عن ناشر .

ـــ وماذا صنعت بها ؟

فعض على شفته قائلا : مزقت جسدها بهذا الخنجر وجعلت لها ولابن عمها حفرة واحدة .

قال كما انك جعلت ابناء اليمامة اعداء لك وهذا ما لا يفعله امير يخلف اباه على العرش !!

قال : تلك هي العادة التي ألفها رجال بلاطك يا مولاي .

ـــ ان اولئك الرجال لا يقتلون الحسناء بل يقتلون اهلها المترددين في الطاعة ثم يحملونها الى الملك .

ـــ ولكن العداوة يخلقها قتل الرجال كما يخلقها قتل النساء .

فأحس الملك انه مغلوب مع ولده ، وايقن بان بلقيس تملأ قلبه ونفسه ، فقال : أتصر على قولك يا عمرو ؟

ـــ لو لم تذكر لي بلقيس يا مولاي لما خطر لي ان اتخذها زوجة ، ان الرأي رأيك وانت الذي امرت به ثم رأيتك الآن تتردد في تنفيذه .

ــ اجل ، وذلك لاني اخاف عليك !

قال : سأسحق اعدائي الذين ذكرت عند ما تصبح بلقيس لي ..

ــ بل تسحقك بلقيس يا بني وانا انصح لك الآن .

فقال الفتى في نفسه : انه خاطر جديد لا اعلم اي حادث أوحى به الى الملك وهم ذو القرنين بان يبلغ الغاية من نصحه ، فأصابه السعال الملعون الذي تتلاشى معه قواه ، فأومأ اليه بالانصراف ، ثم استطاع ان يقول له :

لي ايضاً ما اقوله لك وسأدعوك ..

ودخلت الجواري في تلك الساعة ليعالجن الملك ..

اما عمرو فلم يبال بسعاله ، بل انصرف الى جناحه الخاص ليرى حظاياه .

وابوه يتقلب على فراش الاوجاع والآلام !!

* * *

تفرق الامراء في البلاط، بعد ان خبرهم ناشر امير ظفار ، ما يعرفه عن سابور الفارسي ولم يبق في القاعة غير عتيك بن روضة .

وكان صدر ناشر قد ضاق ، وقد احس انه كاد ينفجر اذا هو لم يجد رجلا من رجال القصر ، يبوح له بسر غرامه الذي خنقه ولي العهد .

وعتيك بدوره يريد ان ينفث سمه ..

فلما خلت القاعة ، كان امير نخلة هو البادىء فقال :

من كان يظن ايها الامير ان الملك يفاجؤه الداء وينتهي امره الى هذا الضعف الذي رأيت ؟

قال : ولماذا يصفو الزمان لذي القرنين وهو الزمان الغدار الذي لا يصفــو لا . . لقد قضى الملك حياته كلها والدهر غافل عنه والحادثات لا تمد يدها ويكفي ان سابور ، غول فارس ، لم يعرض له ولا يجسر على الدخول الى ارضه .

ــ ولكن الداء الذي اصابه لا يعرف الرحمة .

ــ من يعلم فقد يخشاه هذا الداء ويهرب منه .

وكانت لهجته لهجة شامت قاس يغلي الحقد في داخله .

فقال : ان الروح لا ترجع الى الاموات .

قال : خير لنا ان يبقى ذو القرنين من ان ينتقل الملك الى ولده !

فبرقت عيناه قائلا : يظهر ان عمراً لم يعبأ بما حدث لابيه .

ــ بل كاد يقتل نفسه ... ألم تره كيف جثا على ركبتيه عندما رآه ؟...

ــ بلى رأيته ، ولكن خيل الي ، في تلك اللحظة ، انه يبتسم ابتسامة غريبة تشبه ابتسامة الظفر .

فخرج ناشر الى الرواق وجعل يجيل نظره به ثم انثنى وهو يقول :

عتيك . سأفضي اليك بسر لا يعرفه احد افتعاهدني على كتمانه اذا بحت به الساعة .

فاجابه دون ان يتردد :

انصح لك بان تكتمني اياه لاني سأبوح به لمن اشاء من النساء والرجال .

قال : ومع ذلك فسأقوله ولا ابالي . ان ولي العهد لا يعبأ بالداء يقتل اباه بل لا يعبأ باليمن كله الآن لانه لا يفكر الا في الزواج !

ــ اتريد ان تقول انه سيتزوج بلقيس ؟

ــ نعم

فضحك قائلا : ان سرك يا ناشر حديث اهل البلاط افلا تذكر ان الملك خاطب ولده بشأن زواجه قبل ان يترك مأرب ؟

قال : ما اردت بالسر هذا الزواج .

ــ ولكن ماذا ؟

ولكني اردت ان احول بين ولي العهد وبين بلقيس ولو كان في ذلك موتي .

فرقص قلب عتيك من الفرح .

غير انه استعان بدهائه كله ليخفي مظاهر فرحه ، ثم قال :

الا تحدثني بما جرى بينك وبين الامير ؟

ــ بلى . انه خنق حبي وسأخنق حبه اذا قدرت .

واخذ يقص عليه حكاية عاتكة وشفتاه ترتجفان وصوته يضطرب .

فقال عتيك عندئذ : اذن فانتما عدوان الآن .

ــ بل صديقان لاني لم انفر الظالم ولم اخرج عن اخلاصي له .

ــ وماذا ترى ؟

ــ أرى ان احبط مسعاه كما ذكرت ، وانا اعلم يا عتيك انك لا تحبه ولا تحب اباه .

ــ ولكن اتقسم لي انك صادق في قولك ؟

ــ اقسم لك بعظام ابي وقبره ، والدماء التي تفجرت من جسم عاتكة ان الحياة لا تطيب لي الا اذا نغصت عيش عمرو وجعلت ايامه كلها تعباً وشقاء ... أتساعدني في هذا ؟

فمد اليه يده قائلا : ان القضاء نفسه يساعدك فيه ونحن الآن اخوان .

قال : هات رأيك .

ــ الرأي ان نضع ايدينا بيد شرحبيل بن عمرو الذي يسعى الى ما نسعى نحن اليه .

قال : سمعت انه رضي بما طلبه اليه الملك .

ــ انه رضى مزيف كاذب لا يلبث حتى تظهر آثاره .

ــ الا ترف بلقيس الى ولي العهد ؟

ــ لا ، فبلقيس لا تحبه ووعود شرحبيل وعود دهاء وحيلة ليس غير .. والآن فقل لي . اريد ان تحول بين عمرو وبين الزواج ام تريد ان تثأر لعاتكة ؟

ــ بل اثأر اذا وفرت لي اسباب الثأر .

ــ وتقسم ايضاً انك تطيعني دون ان تتردد او تسأل عما تراه .

ــ اجل ؟

ــ اذن فاجعل امير همدان صديقاً جديداً لك وانس ما كان بينك وبينه .

قال : انه صديقي منذ الآن وقد نسيت كل شيء .

ــ وقل لولي العهد ان يدعوه الليلة الى مجلس الشراب وعلي الباقي .

ــ ولكنه لا يفعل ذلك لانه عدوه .

قال : يجب ان يتم الامر كما اقول لنبلغ الغاية .

وأطرق قليلا ثم قال : متى ترى عمراً ؟

ــ بعد ساعة عندما يخرج من قاعة الملك ويصافح نساء البلاط ..

ــ ارجو اذن ان تهامسه عندما تراه قائلا له :

لقد ندم ذو تبع على ما بدر منه فيما مضى وهو يريد ان يستغفر .

ــ وما هو غرضك من هذا ؟

ــ ان احمل ولي العهد على الوثوق به ليستقيم لنا الامر كما نشاء .

قال : ايخون صاحب همدان ذا القرنين ؟

ــ بل ينفذ خنجره في صدره وصدر ولده عندما آمره بان يفعل .. ولكن احذر يا ناشر ان ينم عليك حقدك فالامر اعظم ممــا تظن وقد ينتهي بسقوط الاثنين عن العرش .

قال : لقد بدأت ان ارى ما لا افهم !

ــ اجل وبالقليل من الصبر تفهم كل شيء .

ــ ولكني اسألك عن الرجل الذي يلبس بعدهما تاج الملك اذا انتهت الحال كما قلت ؟

قال : قد يستولي الخوف على قلوب الرجال فلا يجسر احدهم على لمس هذا التاج !!

ــ وتبقى اليمن بدون ملك ؟

قال : ولكن في اليمن فتاة تفعل ما لاتفعله الرجال فتصعد الى العرش بضوء هدىء ، وقدم ثابتة ، وقلب كبير لا يتردد في امره ولا يعرف الخوف !

فايقن امير ظفار بانه يعني بلقيس . ولكنه لم يقل كلمة ، بل اكتفى بابتسامة قصيرة هي ابتسامة الراحة والرجاء ثم نهض وهو يقول :

سأظل في الرواق حتى يخرج ولي العهد فأحدثه بما اردت واسأله ان يقـابل ذا تبع ويصفح عنه .

ــ اما انا فسأرى ذا تبع وامهد السبل لهذا اللقاء ونحن بالانتظار .

وخرج الاثنان ، وقلب ناشر الذي جرحه قتل عاتكة يرقص من الفرح عند اعتقاده ان ساعة الانتقام قد دنت .

***

٣٢

كان ولي العهد ، في خلال الساعتين الطويلتين اللتين قضاهمـا بين حظاياه ، قد نسي مرض ابيه وتاجه ، وجميع ما حوله من مظاهر ، ومـا في البلاط من صور ! !

ولكنه ذكر كل ذلك ، عندما خرج الى الرواق ورأى ناشرا يروح ويجيء فيـه ...

واستيقظت في صدره ، عواطف كثيرة ، اعظمها وابعدها اثرا عاطفة طمعه بالعرش الذي سيتربع فيه بعد ابيه الفاني ..

وكان قد هم بان يدعو ناشراً قبل ان تقع عينه عليـه ليخاطبه بشأن الملك ، وينظر الاثنان في الامر من جميع نواحيه .

فلما ابصره ، اومأ اليه بان يتبعه ، وتقدمه الى احدى القاعات التي تطل على سور مأرب العظيم .

وفي تلك القاعة جلس الفتيان .. وولي العهد مطمئن هادىء ، وامير ظفار ثائر مضطرب ، ولكن اضطرابه لا تقرأه العيون .

ثم قال عمرو وهو يخفض صوته :

اي شيء هو اغرب ما رأيت بعد دخولك البلاط ؟

فاجابه والكآبة في عينيه : مرض الملك يا مولاي !
قال : هو ذاك وسأبوح لك بما قصه علي وهو في فراشه لترى رأيك فيه وتكون عونا لي .
قال : هات يا مولاي .
ـ ولكن قل لي قبل ان ابدأ كيف رأيت الملك ؟
فعرف اللعين غاية عمرو من هذا السؤال فقال في نفسه :
بل تقول لي انت كيف رأيته ..
اي انه اراد ان يسمع رأيه ليجاريه في هواه .
ثم قال له : كما رأيته انت يا مولاي .
قال : ان الملك في خطر ولا يلبث حتى يموت .
فتراجع مذعوراً وهو يقول : الملك يموت ؟ !
ـ نعم يا ناشر . ان صورة الموت في وجهه . وفي جسده الهزيل المتهدم الذي صرعه الداء !
قال : لا يستطيع الموت ان يضع يده على ذي القرنين !!
فاصبح ولي العهد فيلسوفا وكان يقول :
لم نسمع من قبل ان الحياة دامت لملك . الملك والعز يزولان وكل شيء يفنى ! وقد اعترف ابي نفسه بضعفه وهو يشعر بان الموت يدنو منه !
قالها والابتسامة تكاد تغطي مظهر كآبته الكاذب
فاجابه قائلا: وماذا نصنع يا مولاي ؟ لقد انتقل الملك اليه بعد ابيه، وينتقل اليك بعده فكأن الآلهة لم تشأ ان تعصب رأسك بالتاج وانت فتى في زهرة العمر ...
وبدت على جبين ناشر مظاهر الغبطة والابتهاج .
قال : ولكن الملك اوصاني بما تضطرب له القلوب وخبرني ان للعرش اعداء كثاراً يحيطون به ويتآمرون عليه .
قال : عرش حمير ؟ !

اجل عرش حمير وقد عجبت مثلك لحديث الملك واستغربت روايته، ولكني اعترف لك الآن باني خائف .

قال : لقد عشت في البلاط يا مولاي ونشأت في ظل العرش فلم اجد له عدوا كما تقول ..

ـ وانا لم يخطر لي من قبل ان له اعداء ..

قال : الا تذكرهم لي يا مولاي ؟

ـ ما اردت ان استشيرك في الامر ألا لاذكر لك كل شيء .. ان زعيم هؤلاء شرحبيل بن عمرو وهذا ما يثبته الملك !

فجعل يردد كلمته وهو يهز رأسه كأنه غير واثق برواية الملك .

فقال ولي العهد : اتصدق هذا ؟

ـ لا يا مولاي .

ـ ولكن الحذر لا بد منه وسأختبر بنفسي اخلاص شرحبيل .

قال : لقد نسيت يا مولاي ان بلقيس ستكون زوجة لك .

قال : ان الفتى الذي سيجلس على العرش لا ينسى شيئاً .

ـ ولكني لا افهم كيف يتآمر شرحبيل على عرش ابنته .

قال : الرجل الذي يفكر في العرش يدوس ابنته بنعله ولا يبالي .

قال : اعترف لك يا مولاي باني لا استطيع ان اصدق شيئاً من هذه الظنون . انه خوف لا سبب له ، واخشى ان تعمد الى الاختبار فتفضح نفسك وتخسر بلقيس الى الابد .

فاطرق ولي العهد يفكر في امره .

اما ناشر فاستطرد قائلا : لقد كان شرحبيل اول المدافعين عن الملك كما تعلم ولو كان طامعاً بالتاج لما فعل ذلك ولما نقل قدماً الى الحرب ..

ـ وما هي غاية الملك من وصيته ورغبته عن بلقيس ؟

قال : وهل حدثك بامر الزواج ؟

ـ نعم وهو يقول ان بلقيس تماشي اعداءه وتنفخ في الصدور روح التمرد والعصيان .

فابتسم وقال : مع انه هو الذي طلبها لنفسه ثم اراد ، بعد فشله بطلبه ، ان يجعلها ولية للعهد .

ـ وماذا تظن ؟

ـ اظن ان الملك يكره الفتاة واباها لان الاثنين لم يرضيا بما امرهما به !!

فبرقت عيناه قائلا : هذا ما خطر لي عندما قص الملك علي حكايته ، ولكي لم اشأ ان اغضبه وابوح له بما في الصدر .

فتمادى ناشر في اخلاصه وجعل يقول: وكيف يرضى الملك بان تكون بلقيس لسواك وهي اعظم فتاة انجبتها العرب !!

فهامسه المغرور قائلا : ستكون لي على رغم الملك نفسه ...

ـ ولكن أتثق يا مولاي بما ذكره لك عن شرحبيل ؟

ـ لا . فشرحبيل اضعف من ان يفكر في العرش ويطمع به .. غير ان هنالك اميراً آخر اخشاه ، وانا لا احبه .

ـ من هو ذا ؟

ـ امير همدان الذي صبرت وصبر الملك على كبريائه .

قال : لا تتعجل في حكمك اذا اردت ان تكون ملكاً :

قال : لقد حذرني الملك منه ...

ـ وانا اقول لك انه من اخلص الامراء ..!

قال : الا تذكر انه كان عدواً لي وعدواً لك ؟

ـ بلى ، ولكنه ندم على عداوته وهو يرغب في ان يراك ليسألك ان تنسى الماضي فيصبح خادماً للعرش .

ـ ومن خبرك ذلك ؟

ـ امير نحلة وطلب الي ان استأذن له عندما تأمر بالشراب .. انك يامولاي

ستصير ملكاً وعلى الملك ان يحيط الامراء الذين حوله بعنايته وفضله لتثبت اركان الملك .

اي انك ترى ان اغفر له واضع يدي بيده .

ــ نعم يا مولاي كما اني ارى ان تقرب جميع الامراء الذين يظن بهم الملك الظنون .

فرأى ولي العهد ان الصواب فيما يقوله ناشر وانه اذا كان لا بد له من الجلوس على العرش فخير لعرشه ان تسنده قوى القواد والزعماء ، من ان يعمل هؤلاء ، من وراء الستار على تحطيمه ، وسحق الرجل المتربع فيه .

فقال له والامل يلمع على جبينه :

لقد اذنت لذي تبع فليحضر مجلس الشراب عند المساء وليعترف بذنبه . ولتمت عظمته الكاذبة وكبرياؤه التي لم تقف عند حد !

ــ ولكني ارجو ان يبتسم له ولي العهد وان يستعين بحلمه على بلوغ غايته .

فافتر ثغره قائلا : سترى ان عمراً بن ذي القرنين ابعد نظراً من ابيه واكثر دهاء ، انصرف الآن على ان تدعو الى مجلس الشراب من تشاء .

ــ سادعو عتيكا وذا تبع ليس غير وهذا هو الرأي .

ــ افعل ما يطيب لك فانت اقرب امراء اليمن الى الملك الجديد .

فنهض ناشر والحقد يغلي في صدره وهو يخاطب نفسه قائلا : يطيب لي ان تموت يا عمر كما ماتت عاتكة .

* * *

٣٣

كان الغوث بن راهط رجل شدة وبأس ، ورجل حرب .

وجميع اهل براقش ابطال ورجال ميادين .

وقد عرفت انه كان ابعد الناس عن البلاط واقربهم الى الاستقلال بشؤ
قومه .

وهو واسع النفوذ فلا يحتاج الى البلاط ليغذي نفوذه . وهو ملك في ...
فلا يضيع ملكه ، بالعيش في ظل ذي القرنين .

حسب ذي القرنين ، انه هادىء لا يتعبه ولا يخرج عن طاعته ، بل حسـ
انه ينظر الى ما يجري في بلاطه . وهو ساكت لا يرتفع له صوت .

وعشائر براقش ، كثيرة نامية ، وقد وفرت له في ظل الغوث اسباب العيش
بالسعة والرخاء وبنو سعد ، اكثر هذه العشائر عدداً واعظمها شأنا ، وهم رهط
الغوث وانصاره واركان امارته .

وكان جرول واخوه ، اللذان قتلهما ذو القرنين مع اميناس الحبشي ، من بني
سعد ، ولهما في القوم منزلة الفتيان الاشداء اصحاب الجرأة والرأي .

وكان خبر القتل قد رددته الالسنة وتناقلته افواه العرب في كل بـلد ، فلما
بلغ بني سعد ثار ثائرهم ، واقبلوا على اميرهم يسألونه ان يثأر بالقتيلين ، بالخروج
عن طاعة الملك ، والاحتكام الى السيف .

ولكن الغوث كان حكيما ، فقد استطاع ، على رغم هياجه ، وثورة نفسه ،
ان يعيدهم الى الهدوء ، ويعدهم ، وعد الرجل الحر بانه سيهرق من دمـاء آل
الملك اكثر مما اهرقه من دمائهم .

وكان يقول : ان الغوث بن راهط ، لا يستطيع وحـده ان يبارز ذا القرنين
الكثير الجيش ، ولكنه يستشير سواه من الامراء ويضع يده بايديهم ، ثم يحمل
لواء العصيان خفاقاً في كل مخلاف ، فيزعزع اركان الملك ويحطم قوى الملـك
المنفر السفاح .

وعمد منذ تلك الساعة الى السعي في سبيل الحرب ، وكان جبار بن دوير ،
امير بينون اول من خاطبه بهذا الامر .

وجبار حليف الغوث ، وله رأي يشبه رأيه ، فيما يعني الابتعـاد عن الملك
ومفاسد بلاطه .

اضف الى ذلك تلك العاطفة الخاصة التي كانت تختلج في صدر جبار ، فقد كان يبغض الملك بغضاً غريبا لا تشعر بمثله القلوب الخبيثة السوداء !

يعود عهد هذا البغض ، الى زمان الشباب ، يوم كان ذو القرنين ولي عهد وقد جرح جباراً في ميدان السباق وفضحه على مرأى من ابطال اليمن والامراء.

ولكنه لم يشأ في تلك الساعة ، الا ان يلجأ الى الحكمة ، قبل ان يلجأ الى السيف فقال له :

ماذا يريد بنو سعد ؟

ـــ يريدون ان يطلبوا بدم جرول واخيه .

ـــ بالحرب ؟

ـــ نعم ، فالدماء التي تجري في الميادين تغسل العار .

ـــ ولكنك تستطيع ان تمحو عارهم بقتل الملك وحده ؟

ـــ بل اسألك ان تحقن دماء قومك وتبعدهم عن الهوة التي تبتلع براقش . ان انصار الملك كثار ، وجيشه جيش الغزو والنصر ، وفيه القواد المجربون الذين خفضوا لسيدهم جميع الرؤوس واخضعوا جميع المخاليف التي فكرت في الثورة ، من قبل ؛ فليس من الرأي اليوم ، ان نشهر عليهم السيف .

ـــ وكيف نصنع اذن ؟

ـــ يذهب احد بني سعد الى البلاط فيستأذن على الملك ثم يطعنه في صدره طعنة تخرج معها روحه ، ثم ينتزع خنجره فيطعن نفسه وينتهي الامر .

قال : ولكن ولي عهده وامراء البلاط لا يسكتون عند هذا الحد بل يزحفون الى براقش ليفتكوا ببني سعد ويعفوا اثارهم ، وهذه هي الحرب .

قال : اذا فعلوا عمدنا الى الدفاع حتى نظفر او نموت .

ثم قال : ومع ذلك فما هو ذنب الملك الذي تستعر نار الحرب من اجله ؟

ـــ ذلك القتل الذي اقدم عليه .

ـــ ان الملك يفعل ما يشاء ويقتل من يشاء ولا يسأل

ـــ اما انا فقد اردت هـــذه المرة ان اسأله ... لقد كان ابوه يستشير ابي في

كل ما يتعلق بسبراقش ... ولم يكن يجسر على قتل رجل منا الا ذا كان ابي حاضراً ...

قال : آلا ترى ان جرول واخاه يستحقان القتل وهما اللذان يخونان اليمن لينالا حظوة في عيني ملك الحبشة .

— بلى ولكني لا اطيق هذا الاستخفاف يظهره لي الملك كأني غير موجود.!

ومن يطيق مثل هذا يا جبار ؟ اترضى انت بان يقتل ذو القرنين رجلا من قومك دون ان يسأل عنك ؟

— لا

— واي امر تعمد اليه اذا فعل ؟

— ارسل اليه من يقتله وهو في مجلسه كما ذكرت ، بعد ان اخبر جميع الامراء الذين يبغضونه كما ابغضه .

قال : لقد جئت اليك على امل ان اطوف في البلاد واستشير جميع الانصار .

قال : لا تنس ذا مغار وابن عمه .

— وكيف انساهما وهما عدوا الملك .. ولكني اخشى ان يتصدى لنا امير همدان وينتصر لمليكه .

قال : استعن اذا شئت بابن عم الملك شرحبيل بن عمرو الذي يقال انه غير راض عما يحدث في البلاط .

قال : انه صديق ذي مغار وهو الذي يتولى امر استشارته في قضية الحرب.

— اذا رضي شرحبيل بان يبرز الى الساحة تقدمت انا جميع الصفوف برجاله بينون وزحفت الى مأرب .

— وان لم يرض ؟

— طلبت اليك للمرة الاخيره ان تستريح من الملك كما قلت لك .

ثم استدرك قائلا : بل انصح لك بان تتبع رأي شرحبيل بن عمرو وتسير على النهج الذي يضعه لك .

فاستحسن جوابه وجعل يقول : هذا هو الرأي فالملك لا يعارض الا اذا

انحد القوم وكثرت السيوف وسأذهب غداً فأرى ذا مغار واسأله ان يقابل شرحبيل ويسبر غوره .

ـــ ولكن تعجل في امرك قبل ان يعود ولي العهد من اليمامة .

ـــ سيعود على كل حال قبل ان ينتهي الامر ..

قال : لقد خطر لي خاطر آخر ارجو ان نبلغ به الغاية .

قال : ماذا؟

ـــ ان يخاطب ذو مغار امير همدان قبل ان يخاطب ابن عم الملك .

قال : هذا ما افكر فيه الآن وستعرف بعد رجوعي كل شيء .

ـــ اما انا فسأعد عدتي وآمر رجالي بان يتهيأوا للحرب اذا قضت بها الاقدار .

ـــ ولكن احذر ان يعرف هؤلاء الرجال اننا سنحارب الملك .

ـــ وماذا تخاف ؟

ـــ اخاف ان يحتاط الملك لامره ويفاجئنا بجيشه قبل ان نفعل شيئاً

قال : احسنت وانا اعدك بالكتمان .

وظل الاميران يتحادثان حتى غربت الشمس فأقبلا يشربان الخمر الى ان تخدرت الاعصاب ودب النعاس في الجفون .

ـ وهكذا ، كما رأيت ، كان نطاق المؤامرة يتسع ويمتد ، يدفعه القدر الساخر الى التوسع والامتداد .

وقد جهل الاميران في تلك الليلة ، ان الملك الذي يتهيئان لحربه ، ينخر عظمه الداء وان وفاء امير همدان امسى عداوة وحقداً .

* * *

٣٤

أقبل ذو تبع على مجلس الشراب وهو يتردد في الدخول .

لكن امير نحلة كان يدفعه بيده ويقول :

تجلد واصبر على كل ما تسمع وترى ، واذكر ان بلقيس تريد هذا .
فدخل يتبعه عتيك ، وفي المجلس ولي العهد وامير ظفار يسقيه .
وقد منع ناشر الغلمان والحراس من الدخول .
فابتسم ولي العهد للرجلين ، ابتسامة فيها العظمة ، وفيها الكبرياء والدلال .
فقابله صاحب همدان بابتسامة مثلها وانحنى قائلا له :
لقد استأذنت عليك يا مولاي لاثبت لك اخلاصي للعرش واسألك الصفح عما مضى .
قال : وما الذي يدعوك الى ذلك ؟
قال : جفاني الزمان عند ما جفاني ولي العهد !!
ـ واين ذهبت تلك الكبرياء يا ذا تبع ؟
فاصفر وجهه وتمتم قائلا : طرحت بها عند قدميك يا مولاي ...
قال : وعرفت ان المجد والعز يموتان ان لم يكن مصدرهما الملك ؟
ـ نعم كما عرفت ان السماء والارض تغضبان عند مـا يغضب ذو القرنين ووارث تاجه !!
فخيل اليمان الذعر يملأ قلب امير همدان ، وهو الذي يملي عليه ذلك القول .
فابتسم من جديد ابتسامته المعروفة واراد ان يعبث به فقال : انفترض ان ولي العهد لم ينس كبرياءك فماذا تصنع ؟
فوضع يده على جبينه ليخفي مظاهر غضبه ثم قال :
اخرج من البلاط الليلة على ان لا يرى احد وجهي بعد ذلك .
ـ واذا خطر لي ان اضرب عنقك ؟
لا اظن انك تفعل ذلك يا مولاي لاني في ظل الملك .
قال : أفلا تعلم اني سأصبح ملكاً .
ـ ان لم ينته اليك امر الملك اليوم انتهى غداً ... ومع ذلك فانا لا اخاف الملك الذي ابذل له حياتي وافديه بدمي ...
قال : لقد انقذك ابي من يدي بالامس ولكنه اليوم غير قادر على ذلك .

ـ اذن فافعل ما يطيب لك يا مولاي وهذه عنقي فاعمد الى سيفك !!

فالتفت الى ناشر وهو يقول : اتضمن وفاءه ايها الامير ؟

فتردد الآخر في الجواب ثم قال : نعم يا مولاي .!

ـ وكيف تفعل وهو عدوك ؟

ـ رأيت اخلاصه يجول في عينيه ..

فقال عتيك ، وانا اضمنه ايضاً يا مولاي لاني رأيت ما رآه الامير ..

قال : أتعد بالطاعة ياذا تبع ؟

ـ اعد ما تشاء .

ـ ولكن اعلم انك لا تستطيع ان تستغفر مرة اخرى وان ولي العهد لا يعفو اذا خطرت الخيانة لك .

ـ اعرف كل شيء يا مولاي فثق بما اقول .

فجعل يهامس ناشراً ثم قال : لي كلمة اخرى اقولها لك واسمع جوابك .

ـ ما هي يا مولاي ؟

ـ اية صلة بينك وبين شرحبيل ابن عمنا ؟

ـ صلة ولاء اوجدته اقامتي بالبلاط !

ـ قيل لنا ان هنالك غير ما ذكرت .

ـ يقولون ان شرحبيل يتآمر على العرش وانك شريك له في هذه المؤامرة!

فذعر الثلاثة لهذه المفاجأة .

ثم عرف الهمداني ان يبرىء نفسه فقال : لقد اصاب الذين حدثوك بهذا يا مولاي ولكن شرحبيل ليس من المتآمرين .

ـ اذن فانت تعرف الاشخاص الذين يخونون الملك .

ـ بل اعرف الرجال الذين يتآمرون يا مولاي .

قال : ان المؤامرة والخيانة شيء واحد ، من هم هؤلاء ؟

ـ اذكر لك منهم رجلين اثنين لا اعرف لهما ثالثاً هما عتيك بن روضة امير نحلة وذو تبع امير همدان .

فاضطرب عتيك وجعل ينظر اليه وقد استولى عليه الاستغراب !

وفتح ناشر فمه كما يصنع الابله الذي لا يعلم ماذا يجري حوله !

اما هو فلا يبال بل استطرد قائلا : ان هذين الاميرين يتآمران في ظلام الليل وقد عاهد الواحد منهما الآخر على الوفاء الى النهاية .

فقال : انت يا عتيك ؟

قال : لا افهم ما يقوله امير همدان يا مولاي .

ــ انه يعترف بخيانته ويقول انك شريك له .

فقاطعه ذو تبع قائلا : لقد اعترفت بوجود مؤامرة ولم اعترف بالخيانة .

ــ ومعنى ذلك ؟

ــ معناه اننا كنا متآمرين على اعداء العرش ومتعاهدين على الاخلاص لولي العهد الذي لا يلبث حتى يتربع في كرسي ابيه .

فظهر البشر على وجوه الثلاثة وقال ولي العهد : اتعلمون في اي شيء كنت افكر الآن ؟ كدت اعتقد ان الهمداني مجنون وقد املى عليه جنونه ان يعترف بخيانته ويبوح باسماء انصاره !

ثم قال : اذن فشرحبيل لم يخن الملك .

قال : لم اعلم عن هذه الخيانة شيئا يا مولاي ، ولكني علمت ان ابن عمك رجل يقل وجود امثاله بين الامراء . علمت انه يحب الملك ويخضع له ، وسمعت نعم سمعت يا مولاي انه سيزف اليك ابنته التي هي اجمل حسان اليمن كما يقولون

فافتر ثغر العاشق قائلا : الا تعرف بلقيس يا ذا تبع ؟

لا يا مولاي فقد زرت شرحبيل في قصره مرة واحدة بامر الملك ، ولكني لم ار هذه الفتاة !

ــ وانت يا امير نحلة ؟

ــ وانا ايضاً لا اعرفها يا مولاي .

قال : عجباً تقيم بلقيس بمأرب ولا يعرفها احد من الامراء ! ! انها اذن تعيش في السماء كما تعيش الآلهة .

قال : يعرفها حاشد يا مولاي وهو الذي ذكرها للملك فسأل الملك عندئذ شرحبيل ان يهبها له .

قال : لو لم تكن احسن النساء لما ارادها حاشد لمولاه .

فرأى عتيك ان الفرصة قد تيسرت له فقال : اجل يا مولاي ولكني اتمنى ان تصبح زوجة لك قبل ان تعصب رأسك بتاج آبائك .

قال سيكون لك ما تمنيت .

— اواثق انت يا مولاي ؟

فضحك هازئاً به ثم قال له : اظن ان ولي العهد يعرف نفسه .

— ولكني سمعت الملك يقول ..

ووقفت الالفاظ عند شفتيه كأنه خائف !

فقال له : ماذا سمعت ؟

فتردد في الجواب وهو ينظر الى الجانبين ويرسل بصره الى الاروقة

فرفع صوته قائلا : اذكر ما سمعت .

— لا اجسر على ذلك يا مولاي .

— امرتك بان تقول فافعل !

— ان الامر يتعلق بالملك وانا لا استطيع ان اغضبه .

— ولكن الملك في فراشه الآن !

— ومع ذلك فانا اخشى ان تنقل اليه الجدران ما اقول . اتعدني يا مولاي بانك لا تذكر للملك كلمة واحدة مما سأرويه لك ؟

لقد وعدتك .

— وتقسم لي بالتاج الذي ستضعه اليمن على رأسك ؟

— اقسم لك بالعرش والتاج وكل ما تشاء .

قال : كان الملك يقول انه لا يريد ان يتم امر زواجك ..

فاستوى في مجلسه قائلا ، أأنت سمعته ؟

— نعم .

ــ ولكنه هو الذي أراده كما تعلم انت ويعلم سواك .

ــ بل اراد ان يحتال ويكيد شرحبيل !

قال : انها حكاية هائلة يا ابن روضة ..

ــ اجل ، فهل اذكر كل شيء وانا آمن ؟

ــ اذكر كل ما سمعت دون ان تزيد او تنقص .. قل كيف أراد الملك ان يكيد شرحبيل ؟

ــ لم تكن غاية الملك ان يكيده وحده يا مولاي بل كان هنالك شخص آخر أحب ان ينتهك حرمته ويجرح كرامته ، هو انت !!

ــ انا ؟؟

ــ نعم انت ولي عهد ذي القرنين !

فقال ذو تبع : كفى يا عتيك !

قال : لقد أراد مولاي ان يعرف كل شيء ويكتم الملك ما يسمع فسأبوح له بكل ما اعلم !

فانتهره ولي العهد بقوله : خبرني حكايتك ولا تبال باحد .

قال : ألم يرد الملك ان يجعل بلقيس حظية له ؟

ــ بلى .

ــ ولكنه عندما رأى ابن عمه لا يوافقه في هواه سأله ان يزف ابنته الى ولي العهد كما رأيت !

ــ واين هي المكيدة التي ذكرت ؟

قال : لم يكن الملك راغباً في هذا الزواج يا مولاي، بل كانت غايته ان تدخل بلقيس البلاط، ليمنع ولده عندئذ من الزواج ويقول له : أمرناك بان تترك مأرب الساعة لحاجة لنا ، ثم يقول لابن عمه في الوقت نفسه : هذه ابنتك حظية لنا على الرغم منك فافعل ما تشاء !

ــ ومن قال له ان ولده يرضى بما يصنع ؟

ــ ليس للولد ان يراجع اباه فيما يفعل ، هكذا كان يقول لجلسائه وهو يشرب

وكان ذو تبع حاضراً .

قال : ماذا يقول امير همدان .

ـــ رواية صحيحة يا مولاي لم يكن من شأن عتيك ان يقصها عليك !

فتميز الفتى غيظاً وجعل يقول : لقد خبرني الملك اليوم انهم يتآمرون عليه ولكنه لم يخبرني انه يتآمر ـــ هو نفسه ـــ على ولي عهده ..

وثار ثائره ، وكانت الالفاظ تخرج من فـــه متقطعة مبتورة لا لون لها ولا وزن .. كالسكران المعربد أفقدته الخمر هداه .

ثم صحا فقال : لقد ذكرت الآن .. اسمعوا ايها الأمراء ، ان الملك يتهم شرحبيل بن عمرو بالخيانة ليبعدني عن بلقيس .. ولكني لم اعلم غايته من اتهامه امير همدان !.

واخذ ولي العهد ، الرصين ، يفضح اباه ويبوح باسراره كأن تلك الاسرار لا علاقة لها بالدولة والعرش !

والامراء الثلاثة يوغرون صدره ، وينفخون فيه تلك الروح السامة التي يعمد اليها المرائي النمام .

حتى انفجر البركان اخيراً ، وساعدت الخمر ، المتآمرين الثلاثة في قراءة مـــا خفي من اسراره وافكاره ..

كان يلعن وهم يوافقونه في اللعن ، وكان يهدد وهم يدفعونه ويشاركونه في التهديد ، وشاء ان يختم جنونه باستعجاله الموت لابيه الخبيث !

وكانت « الكلفة » قد ارتفعت في تلك الساعة كما يقولون ، فجعل ذو تبع يستعيد القصة التي رواها له ابوه وهو يعيدها ، وذو تبع يقول :

لم اكن قط ولن اكون خائنا كما اراد الملك ان يقول لك !

فاستيقظ الغرام في صدر السكران ، فقال :

لقد خيل الي من قبل ان ذا تبع يعرف بلقيس .. انه لو كان الامر كما ظننته لما خطر لي ان اغفر له !

ـــ لماذا يا مولاي ؟

ـــ لان الذي يعرف بلقيس من الفتيان يسيء الى ولي العهد ..!
ـــ ولكن الواجب يقضي علي بان اعرفها قبل ان تزف اليك وقد تجعلني انت رسولك اليها في احدى الساعات .. أليس كذلك يا مولاي ؟
ـــ بل ارسل امير نحلة دون سواه ..
فقال عتيك : ارسل من تشاء فكلنا عبيد لك .. ولكن ماذا تصنع بالملك ؟
ـــ سأسأله غداً ان يأذن في الزواج .
ـــ وان لم يفعل ؟
ـــ اذا لم يفعل سألت شرحبيل بنفسي ، ان يزوجني وجعلت بلقيس سيدة البلاط على الرغم من الملك !
قال : اخشى ان تتصدى لك بلقيس يا مولاي .
ـــ بلقيس ؟
ـــ نعم فقد تكره ان تزف اليك وابوك غير راض وقد يكون لشرحبيل هذا الرأي نفسه ...
فاصفر وجهه وقال : ايضيع شرحبيل وابنته رجاء فتى يجلس بعد ايام على عرش حمير ؟
ـــ لا اعلم يا مولاي ولكنه خطر خاطر لي .
ـــ اذن يجب ان تخاطب بلقيس واباها بهذا الشأن قبل ان اخاطب الملك .
بل تخاطبها انت يا مولاي وتمهد مع ابيها اسباب الزواج !
قال : تذهب انت اولا عند الصباح فتسألها رأيها في الامر ثم تنقل الي كل ما رأيت وسمعت !
قال : لي رأي آخر يا مولاي هو ان نعمى بنت الريان تعرف اسرار الفتاة بل تعرف ما في صدرها من بغض وحب .
ـــ وترى ان يحدثها ولي العهد بشأن زواجه ؟
ـــ نعم ، فهي وصيفة بلقيس بامر الملك ، واحدى الخطايا اللواتي كانت لهن الكلمة النافذة في البلاط .

قال : متى تجيء ؟

ـ غدا يا مولاي فاذا جاءت ارسلتها اليك لتبوح لك بما تعلم دون ان يعرف اهل البلاط شيئا مما نفعل .

فتنهد ثم التفت الى ناشر قائلا :

اسقني ياصاحب ظفار ، ان النار التي تحرق هذا القلب لا يخمد لهيبها غير الخمر . واشربوا انتم ايها الامراء ان ملك حمير الجديد يأمركم بهذا ويسألكم ان تكونوا له اعوانا على كل ما تحدثه النفس بالخروج عن طاعته .

فرفع عتيك كاسه وهو يقول :

اشربوا وليعش عمرو بن ذي القرنين ملك حمير !

وقال ناشر : اشربوا وليمت عدو الملك ولو كان ذو القرنين نفسه !

اما ذو تبع فقال : سأشرب دماء اعدائك يا مولاي كما اشرب كأسي هذه .

وطابت الخمر للملك الجديد ورجاله الامنـــاء ، .. ولم ينصرفوا الى مخادعهم الا عندما انتصف الليل .

وقد دب الشك في صدر ولي العهد ، وبات تلك الليلة وهو يبغض اباه .!

• • •

٣٥

عندما كان ولي العهد يحلم بالتاج الذهبي الذي سيضعه على رأسه بعـــد موت ابيه ، كان ابوه يتقلب على فراش اوجاعه ، وكان الدم الذي تقذف به رئتـــه يصبغ ذلك الفراش ويخضب شفتيه ويديه .

وقد استولت الكآبة والخوف ، على الجواري اللواتي يقمن عند رأسه وعند قدميه .

سعال دائم تخرج معه رئته قطعاً حمراء .. ويـــذوب له قلبه ، الذي اذابه

قسوته وجفاؤه : طائفة كبيرة من قلوب رعاياه ..

وليل المريض المتألم طويل لا يطلع صبحه حتى تزهق الروح .

انظروا الى الملك العظيم الذي استعبد شعبه وملأ قلوب قومـه رعباً ، انظروا الى ذي القرنين الجبار يتململ كالنعجة بين يدي الجزار وهو لا يستطيع ان يرد الداء ، ويبعد تلك الشفرة الحادة التي تلمع فوق رأسه !

ـ انظروا الى الملك العظيم الذي كـانت حراب حراسه ، وسيوف قواده ، تحيط به في نهوضه وقعوده ، انظروا اليه وهو بين اربع من جواريه ، في مخدع يسوده الصمت ، لا تحميه السيوف ، ولا تقوم ببابه حراب الحراس .

ولي العهد واعداؤه اللابسون ثياب الاصدقاء ، يسكرون ، والبـلاط يلهو بأباطيله ومفاسده ، وذو القرنين يتألم وحده ويشكو جور الزمان !

ولا يمر بمخدعه ، من حين الى حين ، من امرائه الكثار ، غير معدي كرب وعبد شمس المخاصين له ، ويسألان جواريه عنه ، ولا يبصران وجهه !

وهو ينظر الى الباب لعله يرى ولي عهده ..! ولكنه لم يره ..!

لقد كان ولده بعد نصف الليل ، يغط في نومه ، والخمر والاحلام تبني لـه القصور الشاهقة وترفعه الى السماء .

حتى كاد يتنفس الفجر .

فرفع المسلول رأسه وهو يمسح دمه الظاهر على شفتيه وقال :

اين ولي العهد لا اراه ؟! علي بولي العهد .

فقالت احدى الجواري : قد يكون في فراشه يا مولاي .

فقال : اذهبي وايقظيه فسينام بعد ايام ملء جفنيه ..

ووضع يده على جبينه وجعل يتمتم قائلا :

نم يا بني .. ان الداء يصرع اباك .. ولكن لا تنم عندما ينازعك الاعـداء السلطان ويصرعون عرشك .

وكانت الجارية قد خرجت لتدعو ولي العهد ، ولكن الحارس الواقف كالنصب بباب حجرته ، لم يأذن لها في الدخول ولم يجسر هو نفسه على ان يدعوه .

فقالت : آمرك باسم الملك ان تفعل .

فارتجف الجندي لهـذه الكلمة وتنحى مذعوراً فدخلت وهي ترتجف ايضاً ، فابصرت ولي العهد في فراشه ، يبتسم لاحلامه ، وعلى جبينه جلال الملك .

فترددت قليلا ثم نادت : مولاي .

فافتر ثغر مولاها لحلم جديد ولم يجب .

فاعادت قولها بصوت عال وتراجعت الى الوراء .

ففتح الفتى عينيـه واجالهما في الغرفة ثم استوى جالساً وهو يقول : ماذا جرى ؟ !

فانحنت له قائلة : امرني مولاي الملك بان ادعوك الى غرفته الساعة .

وكان الولد البار ينتظر بشرى موته !! ..

فقال : وكيف كان ليله ؟

ـ ليل وجع لا يطاق ، لم يغمض للملك معه جفن .

فالتف بعباءته ، وتقدمها الى تلك الغرفة التي لا يسمع فيها غير انين المسلول.

وكان النور يغمر جوانبها ، ويستطيع الداخل ان يتبين وجه الملك الاصفر وعينيه الغائرتين وشفتيه المخضبتين ...

فجلس الابن على سرير ابيه وهو يقول :

ها أنذا يا مولاي .

فقال الملك لجواريه : اخرجن الى الرواق .

فلما خلا لهما الجو قال له :

دعوتك لترى بعينيك حال ابيك ! انظر الى هذه الدماء التي تخرج مع السعال.

قال : دماء صدرك ؟...

ـ نعم ، بل هي حياتي تتلاشى امام عيني .. اسمع يا بني لقد نصحت لك امس بان تحذر اولئك الامراء الذين يبغضونك ويبغضون اباك .

فاراد الفتى ان ينجو من نصائحه ، فقاطعه قائلا :

سأفعل ما تشاء يا مولاي .

ـ ولكني نسيت اميراً آخر هو اشد خطراً من جميع من ذكرت لانـه من رجال البلاط المقربين اليك .

قال : معدي كرب ام عبد شمس ؟

ـ بل هـو عتيك بن روضة الذي يقضي ايامه بيننا طائفاً في الاروقة هائماً صامتاً لا يقول كلمة .

قال : ايكون عتيك من المتآمرين ؟

ـ لقد خيل الي في هذا الليل انه منهم !

ـ وكيف ذلك يا مولاي ؟

ـ ذكرت ان ابي قتل اباه وقد يخطر له بعد ان أموت ان يقتلك بأبيه !!

ـ ولكنك كنت سا كتاً عنه لا تخافه ولا تخشاه .

قال : لقد انساني الملك كل شيء .. ولكني استعرضت ماضي في هذه الليلة وذكرت جميع الاعداء والمحبين ، ثم خفت ان يغمض الموت عيني قبل ان ابوح لك بكل ما اعلم . احذر ابن روضة يا عمرو ولا تنس ما اقوله .

ـ لقد فهمت يا مولاي ..

ـ واذا كان لا بد لك من الوثوق بمن حولك من الرجال فثق بمعدي كرب وعبد شمس فهما اصدق الامراء طاعة واشدهم اخلاصا .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ اسألك بعد ذلك عن رأيك فيما حدثتك به امس .

قال : الزواج ؟

ـ اجل وهذا الزواج هو اعظم الاشياء في نظر الملك .

ـ أنسيت يا مولاي اني ذكرت لك امس ما افكر فيه ؟

ـ لا : غير اني ارجو ان تعدل اليوم عن رأيك وتختار لليمن ملكة اخرى غير بلقيس .

قال : دعني اتزوجها وانا ولي العهد ثم اطلقها عند ما اصبح ملكاً ..

ـ وما هي الغاية من هذا ؟

— ان افسد المؤامرة التي يدبرها شرحبيل واعوانه .

قال : لا تزد فانت اضعف من ذلك والملك لا يريد ان يتم هذا الزواج .

فاراد الفتى عندئذ ان يختبر اباه ، ويلمس بيديه صحة ما قيل له عنه ، في الليل الذي مضى ، فقال له :

وهل تريد ان تكون بلقيس حظية لولدك ؟

— وكيف تقدر على ذلك ؟

— : امنع عقد الزواج عند ما تحمل بلقيس الى البلاط .

قال : اصنع هذا اذا قدرت فانا اوافقك فيه ، واما ان تتزوج ، ثم نطلق ؛ لم تكون لكاهن مأرب يد في امرك وتقوم حولك الظنون فهذا ما لا اسلم بــه ولا ارضاه .

فقال في نفسه : لقد كان عتيك صادقا فيما رواه فليكن ما شئت انا ، لا ما شئت انت ايها الملك .

ثم قال : ولكن الا يجوز ان يصر شرحبيل على كتابة عقد الزواج في قصره قبل ان تخرج ابنته منه

فغضب ، وبدت اسنانه الحمراء وجعل يقول :

اذا اصر اللعين على هذا حملت بلقيس على رؤوس الاسنة .

وكأن ذلك الغضب اتعبه فاستلقى على الفراش وهو يئن ويردد قائلا :

اي وتربة حمير اذا فعلها شرحبيل حملت ابنته على رؤوس الاسنة ومشيت على جثث ابناء قومه .

ولكنه ذكر ضعفه وعجزه واخذ يقول :

ستتولى انت يا بني هذا الامر فابوك لا يستطيع ان يمــد يده الى عــدوه بعد الآن .

— وهل بقي لك ما تقوله يا مولاي ؟

— بقي ان تسمع لي ، خوفا من ان يصيدك عدوك بعد الوقوع في شركه

قال : لا تخف . فانت لم تزل ملكا والامر امرك في كل شيء .

ثم ضاق صدره فقال : أتأذن لي في الانصراف ؟

فاسود جبين الملك قائلا : انصرف، على ان ترسل الي الآن ، معدي كرب وعبدشمس.

فخرج عمرو وهو يقول في سره : لقد انتهى دورك يا ابي وجاء دور ولدك. واومأ الى الجواري بالدخول ، ثم تغلل في الرواق ليرسل الاميرين الى ابيه .

* * *

دخل عبد شمس ومعدي كرب وهما يسمعان انفاس الملك ويحسان باللهيب المتصاعد من صدره المحترق .

فلما وقع عليهما نظره ، اومأ اليهما بالدنو مـــن فراشه وخاطبهما بصوته الضعيف قائلا :

لقد كاد الملك يموت في هذا الليل وانتما لا تعلمان ؟

فجثا الاثنان على ركبهما وقالا : يعيش الملك .

فقال : انهضا فالحياة عندما تذهب لا ترجع ·· اني سأموت وانا لم امألكما المجيء الي لاندب نفسي وابكي عزي وملكي ولكني اردت ان اعهـــد اليكما في قضاء حاجة لي وانا على فراش الموت ، فقولا لي اتعاهدان مولاكما على الوفاء ام ماذا ؟

فارتفع صوت الاميرين المخلصين يقولان : عشنا للملك ونموت في طاعته

قال : ان السر الذي ابوح به الآن لا يعرفه احد من رجال البلاط ويجب ان لا يعرفه احد، أتقسمان على كتمانه ؟

— نعم يا مولانا .

فالتفت الى جواريه قائلا : سأذكره امام جواري ولا ابالي . ولكن الجارية التي تفشيه تضرب عنقها في ساحة القصر .

فارتجفت الجواري وخفضن الرؤوس.

ثم قال : اعلما ايها الاميران ان ولي عهد ذي القرنين سيخسر عرش اجداده!
تراجع الاميران ونظر احدهما الى الآخر وقد بدا الذعر في العيون .
اما هو فاستطرد قائلا : لقد استسلم الى اعدائه وليس بعد هذا الاستسلام ، غير الندم ثم الموت !
ــ من هم هؤلاء الاعداء يا مولانا ؟
ــ سأذكر لكما اسماءهم فاحفظاها ولا تنسيا منها اسماً .
وجعل يسمي اعداءه واحداً واحــداً حتى انتهى الى ذكر بلقيس فقــال : وهذه الفتاة التي اراد الملك ان يجعلها حظية له ليحارب بها اباها ، واراد عمرو الا يجعلها زوجة ستنقلب مع ابيها العرش الحميري .
فقال عبد شمس : ان العرش لا تصل اليه ايدي الاعداء .
قال : اما اذا كثر المخلصون فلا ولكن عندما يغص البــلاط بالخونة الانذال تهوي قوائم العرش الى الحضيض وينهار هذا البناء العالي الذي تتصل ابراجــه بالسماء . . .
ــ ليأذن لي الملك في ابداء الرأي ؟
ــ قل يا عبد شمس .
قال : ان عبدك هذا لم ير دليلا من دلائل الخيانة التي ذكرت ، اجل قد يكون شرحبيل طامعاً في العرش كما تقول ولكني لا ارى له انصاراً في اليمن غير قومه ، وقومه لا يثبتون ساعة واحدة في المجال .
ــ لقد تعود ذو القرنين ان يرى غير ما ترون ايها المخلصون ، قلت لك ان هؤلاء جميعهم يخونون مولاهم وستثبت لك الايام اني كنت على صواب .
ــ وماذا يريد الملك ان نصنع بهم ؟
ــ احدثكما الآن بشأن العرش الذي ستحطمه العاصفة ثم اوصيكما بما تصنعان! لقد عرفتما ولي العهد واثق بمن حوله ، ولكن هؤلاء لا يستطيعون ان يهــدموا عرشاً ويبنوا عرشاً الا اذا وضعوا ايديهم بيدي الملكة .
فقام في ذهن الاميرين ان الملك يهذي !

وعرف هو ما خطر لهما ، فقال :

ألا يصبح ولي العهد ملكاً بعد موت ابيه ؟

ــ نعم .

ــ وماذا تدعى الفتاة التي تزف اليه ؟

ــ ملكة حمير .

ــ اذن فاعلما ان العرش لا يسقط الا اذا كانت للمرأة يد في ذلك .

فقال معدي كرب : اتعني بلقيس يا مولاي ؟

ــ اجل فولي العهد يريد ان يجعلها زوجته وانا اريد ان احول بينه وبين هذا الزواج .

ــ وهل يخطر لولي العهد ان يتزوج فتاة لا يريدها الملك ؟

فقطب حاجبيه قائلا : لا يخطر له الا ان يجاري هواه ولو اغضب اباه ؟ انه ولد مستهتر اخطأ الملك في اطلاق يده وهو صغير وكان عليه ان يبعده عن بلاطه ويسلمه الى الامراء الذين يعيشون في جبال اليمن فينشأ بعيداً عن اسباب الترف واللهو والدلال وماذا يفعل الملك الآن ؟

اذا حرمه حقه بالملك انتهى امر العرش الى شرحبيل وولده ، وان لم يحرمه اياه مد شرحبيل يده الى هذا العرش بدهائه ودهاء بلقيس وخرج الامر من ابناء آل ذي القرنين الى الابد .

ــ ولكنك تستطيع يا مولاي ان تقطع يد شرحبيل قبل ان يمدها الى عرشك .

ــ اي انك تريد ايها الامير ان اسعرها حرباً تقضي على اليمن كلها في شهر واحد لا لا . اني لو اردت هذا لفعلته وانا قادر على حمل السيف وخوض الميادين . اريد الآن ان تحصيا على ولي العهد وعتيك بن روضة والهمداني انفاسهم ، وتحذرا شرحبيل واهل بيته ، وتمنعا ، اذا مات الملك ، بالحيلة او بالقوة ، هذا الزواج الذي ذكرت .

ثم قال : ولا تنسيا امير ظفار فهو مخلص للملك فلا تكتماه الاسرار .

ــ ايأذن لنا مولانا ان نخاطب ولي العهد بهذا الشأن .

ـ افعلا ما يطيب لكما على ان تستعينا بالدهاء ولا تفضحا الملك .

واطرق ملياً ثم قال : سأسبر غور شرحبيل لآخر مرة ، فاذا جاء الى البلاط ولم اره فقولا له ان الملك بحاجة اليك .

قال : سيجيء فهو لم يكن مع الامراء الذين استقبلوا ولي العهد

ـ حسناً ، فانصرفا الآن وابذلا الجهد كله لتعرفا اسرار ولي العهد .

فلما انصرفا خاطب جواريه قائلا :

اذكرن ما قلته لكن الآن، ان الجارية التي تبوح بما دار بيني وبين الاميرين ، تموت . . .

فاكتفين بالانحناء والصمت . .

اما الملك فاغمض عينيه وساد الحجرة سكون رهيب .

٣٦

عندما كان ولي العهد في غرفة الملك كانت نعمى بنت الريان في غرفة عتيك ابن روضة ومع الاثنين امير همدان

وقد اقبلت بامر بلقيس تسأل الاميرين ان يمليا عليها ما تقوله لعمرو .

وكانت توصي ذا تبع بالصبر ؛ على عادتها كلما وقعت عينها عليه وهو يتململ ويلعن الزمان . .

وبعد ساعة طويلة عرف الثلاثة ان عمراً ترك أباه واقبل على القاعة التي يجلس فيها الملك للناس .

فقال عتيك : اذهبي ونحن نلحق بك على الاثر قبل ان يغص المجلس برجال البلاط .

فخرجت وذو تبع يقول : لا تبالغي يا نعمى في وصف الغرام .
وهي تبتسم ، وتنصح له بان يخنق الغيرة التي تتأجج نارها في صدره .
وكانت مترددة في الدخول الى القاعة دون ان يأذن لها او يدعوها اليه .
اي انها كانت تؤثر ان تدخل ، بطلب منه،وقد فاتها ان ذلك العاشق المغرور ينتظرها وقد مضى ليله يفكر فيما سيقوله لها لتنقله الى بلقيس .
على ان الحظ كان خادماً لهـــا ، فان ولي العهد كان بباب القاعـــة عند ما وصلت اليه .
ففاجأها بقوله : نعمى بنت الريان . انك اليوم في قصر شرحبيل بن عمرو وقد نسيت ولي العهد .
فانطرحت جاثية عند قدميه وهي تقول : ان الجارية المخلصة لا تنسى مولاها الذي أحاطها بنعمته وغمرها بفضله .
قال : متى قدمت البلاط ؟
ـــ في هذه الساعة يا مولاي
ـــ وهل تجيئين كل يوم ؟
ـــ لا يا مولاي فقد اغيب يومين او ثلاثة وعشرة ايام على الاكثر .
ـــ وتنقلين الى الملك اسرار القصر الذي تقيمين به ؟
فارسلت نظرها الى جوانب الرواق ثم قالت :
ـــ نعم يا مولاي افعل ما يأمرني به الملك .
فتقدمها الى القاعة قائلا : ادخلي فان لي ما اقوله لك الآن .
ـــ الا تريد يا مولاي ان اقابل الملك ثم اعود ؟
ـــ ان الملك لا يقابل احداً في هذه الساعة لانه مريض وقد انساه الداء شؤون الملك !.
ـــ سيأذن لي عند ما يعلم اني ببابه . . .
قال : لقد امرتك بالدخول فاتبعيني وسترينه بعد قليل .
فلم تر بدأً من الدخول وكان يقول :

اجلسي وحدثيني بما تعلمين وسأبوح لك بما في البلاط اليوم من اشياء واشياء
قالت : مر يا مولاي بما تشاء .

قال : يقولون يا نعمى ان شرحبيل لا يحب الملك وولي عهده .

فصاحت صيحة ذعر وجمات تنظر اليه وهي لا تجيب ...

قال : اتخافين ؟

— وكيف لا اخاف يا مولاي وانت تتهم ابن عمك بما هو بريء منه .. لقد قام في ذهن الملك من قبل انه خائن فجعلني عينا عليه وعلى اهل بيته فلم ار اثراً لهذه الخيانة ولم استطع ان اسمع كلمة تنم على كره وبغض .

— وانا ارى ما ترين ولا اتهم شرحبيل ، ولكن الملك لا يصدق فليظن ما يشاء ... وبلقيس ؟

— وماذا اقول لك عن بلقيس يا مولاي ؟ انها حسناء اليمن التي لا يذكر مع جمالها جمال نساء الجن ، واعجب كيف يطيق ولي العهد ان تكون اسواه .

— ويلك ومن قال لك انها ستكون لسواي ؟

— لقد وصفت لسابور الفارسي وقد يطلبها لنفسه .

فاضطرب قائلا : واي عربي وصفها له ؟

— رجل من الحجاز كان ضيفاً على شرحبيل في العام الماضي .

— ان شرحبيل لا يزف ابنته الى سابور الذي هو عدو العرب .

— ولكنه لم يكن عدواً لليمن .

— وبلقيس نفسها لا ترضى بان تترك قومها .

قالت : ان التاج يغر وسابور من اعظم الملوك .

— ولكن الا تعلم ان في مأرب تاجا اعده لها عمرو بن ذي القرنين ؟ ؟ . انها لي ، وليس في العالم كله قوة تستطيع ان تنزعها من يدي !

ثم قال: وهل يجوز لها ان تفكر في سابور وانا حي ؟ الم يسأل الملك شرحبيل ان يزفها الى ولي عهده يوم يعود من اليمامة ؟

— بلى يا مولاي ، ولكن الملك كان هازئاً وقد سمعه الامراء يقول : ان

بلقيس لا تزف الى ولي عهده ما دام هو ملكا .

فعض على شفته قائلا : لقد ملأ حديث الملك المسامع والاذهان . ولكن من حدث بلقيس بما تقولين ؟

ـ انه خبر تناقلته افواه الغلمان يا مولاي .

قال : اسمعي يا نعمى ، ان الملك يرغب في ذلك وانا لا ارغب فيما لا يريده وسأتزوج بلقيس ولو خسرت العرش ، ولكني لا اعلم الى الآن اذا كانت هي تحب ولي العهد وتؤثره على جميع الناس .

فهامسته قائلة : انقل اليك الآن يا مولاي جميع ما اعلم واستحلفك بشرف آبائك ان لا تبوح به .

قال : ماذا ؟

قالت : اقسم لك انها تحبك ويكاد يذيبها هـذا الحب ، ولكنها لا ترضى بهذا الزواج والملك غير راض .

ـ وأي شأن للملك بذلك ؟

ـ ان ذا القرنين في نظر اهل اليمن كل شيء ، ومع ذلك فقد سمعتها تقول لابيها انها لا تسلم بان يكون زواجها سبباً لغضب ذي القرنين على ولي عهده وخير لها ان تبقى في ظل أبيها الى الابد .

فضغط وسادة كانت على ركبتيه ورفع صوته قائلا .

يجب ان تعلم بلقيس ويعلم شرحبيل ان ذا القرنين يصارع الموت ، وان الكلمة الاولى والاخيرة في البلاط هي لي ، انا الملك ...

فاجابته هادئة : ومن يعلم يا مولاي فقد يعيش الملك بضعة اشهر او بضعة اعوام .

ـ ليعش الف عام فانا لا ارجع عن رأيي ولا أترك بلقيس ..

وفي تلك اللحظة اقبل الهمداني وابن روضة وسمعا صوته ..

فتظاهرا بانهما يهمان بالرجوع ، فقال لهما .

ادخلا فانتما تعرفان السر الذي نتحدث به ، هذه نعمى بنت الريان جاسوسة

الملك في قصر شرحبيل تقول ان بلقيس لا ترضى بان تزف الي الا اذا رضي الملك» فماذا تقولان ؟

فاجابه عتيك قائلا : اقول ان الملك سيرضى .

قال : لا فقد كنت عنده هذا الصباح وامرني بان اعدل عن هذا الزواج او اكتفي بجعل بلقيس بين حظايا البلاط !

ـ اذن اصبحت يا مولاي بين اثنين لا يرضيان .

ـ نعم وانا اخشى ان امشي الى غايتي راكباً فرسي والسيف في يدي وورائي الجيش !!

ـ بل خير لك ان تقنع أحدهما لتبلغ الغاية .

قال : ان الملك يؤثر ان يموت اليوم على ان يرضى غداً .

ـ وماذا تقول بلقيس يا نعمى ؟

ـ لا اعلم ايها الامير فقد تؤثر الموت كما يؤثره الملك .

ـ واذا خاطبها بالامر ولي العهد نفسه ؟

ـ لا استطيع ان اقول شيئاً لاني لا اعلم ما في صدر الاميرة من شعور وعاطفة

قال : لم يبق الا ان تقابل بلقيس يا مولاي ، وتبوح لها بهواك ثم تنظران في الامر .

فبرقت عيناه قائلا : ومتى يكون ذلك ؟

ـ عند ما يشاء مولاي .

فاصفر جبين الهمداني وحول وجهه . . .

غير ان ولي العهد لم ير اصفراره ، فقال :

أتذهب يا عتيك مع ولي العهد ؟

ـ اذهب اذا اردت ويذهب ذو تبع .

ـ بل نذهب نحن الاثنين ويبقى الامير . . .

ثم قال لنعمى : ألا يجيء شرحبيل اليوم ليعود الملك .

ـ بلى وهو لم يرك يا مولاي بعد رجوعك .

ـــ اذن احدثه بامري واسأله رايه .

وبينا هم يهمون بالخروج ، اقبل شرطي يقول لولي العهد : لقد دخل مأرب الآن رجل من الحبشة يزعم انه رسول ملكها الى مولانا الملك .

ـــ واين هو الآن ؟

ـــ قبض عليه الحراس وهو داخل ولم يزل عند السور .

قال : علي به .

وفي تلك اللحظة ظهر على الباب معدي كرب وعبد شمس فقال لهما : أيقابل الملك احداً في هذا الصباح ؟

ـــ نعم وقد كنا الآن عند فراشه .

قال : لقد سألتنا وصيفة بلقيس ان نأذن لها في الذهاب اليه فلم نفعل ... اذهبي يا نعمى الآن .

وكان الاميران قد اصبحا جاسوسين للملك ، فقالا : ان نعمى تخرج من البلاط وتعود اليه بامر الملك ولها ان تراه عند ما تشاء .

فخرجت نعمى ، اما هو فقال : كيف رأيتماه الساعة.

فاجابه عبد شمس : لقد انشب الداء مخالبه به واخشى ان ينتهي الصراع الى ما لا نحب .

قال : رأيت ما لا اراه ، فالملك لا يغلب وسيجلس للناس بعد ايام ..

ـــ ولكني رأيت دمه على شفتيه يا مولاي ..

ـــ ذلك جرح احدثه السعال في صدره فلا يلبث حتى يبرأ .. اسمعاها الامر ان ولي العهد لا يريد ان يقول احدكم ان الملك سيموت ... ان في موته ويلا لليمن واهلها وخطراً على عرش حمير ..!

فعرف اللعين ان الفتى يريد ان يمتحنه ويقرأ اسراره فقال : اذا مات الملك كان لنا ملك آخر يقطع جميع الايدي التي تمتد الى عرشه ... انك من ابطال اليمن يا مولاي وحولك رجال يبذلون ارواحهم في سبيل تاجك .

فتظاهر بالغضب قائلا : ومن هم هؤلاء الرجال ؟؟

ان في هذه القاعة اربعة من الامراء بينهم اثنان خائنان يتظاهران بالاخلاص ويعملان من وراء الستار على تحطيم هذا الملك !

فايقن عتيك وذو تبع بان هذا الفتى المغرور الطائش اصبح بين ليلة وضحاها، داهيــة في الموقف الصعب ، وقد علما غايته من ذلك المظهر الجديــد ، الذي ظهر به ...

فلبثا ساكتين يتظاهران بالاصغاء .

اما عبد شمس فلم يسكت ، بل اراد ان يجاريه في الدهاء ليلمس غرضه بيديه. ولكن الحجاب الذي وضعه ولي العهد بين مظهره وغرضه كان كثيفاً جداً لا تخترقه العيون .

فقال عبد شمس : الا يذكر مولاي هذين الخائنين ؟

ـ اذكرهما ولا ابالي .

واومأ بوقاحة غريبة ، الى عتيك وذي تبع حتى كاد الاثنان يعتقدان انــه غير هازىء .

فهم عتيك بالكلام لتتم الرواية .

فاسكته قائلا : لا تقل كلمــة الا عندما يأذن لك ولي العهد .. انظر يا عبد شمس الى هذين الاميرين . انهــما يقيمان بالبلاط ويعيشان في ظل الملك ولو رأيا انهما قادران على سلبه تاجه وملكه على مرأى ومسمع من امراء المخاليف ورؤساء العشائر لما ترددا في ذلك . هؤلاء هم الرجــال الذين يبذلون الارواح في سبيل التاج .. وهؤلاء هم الرجال الذين اذا مــات ملكهم يشهرون سيوفهم ليحموا ملك حمير الذي شرف كل يمني ورفع اسم العرب فوق جميع الاسماء .

فقال عتيك : مولانا ولي العهد !.

فقاطعه بجفاء وهو يقول : اذا ارتفع لك صوت امرت الغلمان بان يحملوك الى خارج القصر وانت مخضب بدمك ! اني احادث عبد شمس فلا يتكلم سواه .

فاطرق الاميران .. والشفاه ترتجف . والجسمان يضطربان .

وبان الغضب على وجه الفتى بصورته الرائعة .

فاغتر عبد شمس بما رآه ، ولم يستطع الا ان يثق الوثوق كله ، بان ولي العهد ينظر الى الاميرين كما ينظر اليهما الملك .

ولكنه لم يشأ الا ان يتظاهر بالدفاع .. فقال :

أأستطيع يا مولاي ان اقول ما اعلم ؟

ـ نعم ، ويجب ان تقول كل شيء ليسلم العرش .

قال : اذكر للخائن خيانته يا مولاي ليعترف بها او يعمد الى الدفاع .. ماذا فعل عتيك وذو تبع ؟

ـ انهما يناصران شرحبيل بن عمرو ؟

ـ وماذا صنع شرحبيل ؟

ـ هذا ابن عم الملك وليس هناك رجل سواه يطمع في العرش بعد موت ذي القرنين .

ـ وهل يبلغ شرحبيل غايته بقوة سيفه ام بقوة الرجال ؟

ـ بقوة الرجال .

ـ اذن له في اليمن شركاء كثار .

ـ اجل والملك يعرف هؤلاء الشركاء .. وامير نخلة وامير همـــدان منهم ؟ أليس الامر كذلك يا ابن روضة ؟

قال : اتأذن لي في الدفاع الآن ؟

ـ نعم ، ولكن لا تذكر شرحبيل بن عمرو فالملك واثق بانه خائن والويل لمن يدافع عنه .

قال : ليدافع الرجل عن نفسه فانا لا شأن لي معه ، ولكني اقسم برأس الملك ورأسك يا مولاي اني لا اعرف شرحبيل الا كما يعرفه اهل البلاط وليس بيـــني وبينه عهد مودة واخاء او صلة ولاء ... أتستطيع انت يا مولاي ام يستطيع الملك ان يقول اني خرجت او حاولت الخروج من البلاط لقضاء حاجة لي ؟

ـ ومعنى ذلك ؟

ـ معناه اني لاأتآمر على الملك وانا في بلاطه ، وعيون رجاله تراني ، والغلمان

والحراس منتشرون في كل رواق من اروقة البلاط .

ـ ولكنك تراه وتحدثه في مجلس الملك وخارج المجلس .

فابتسم قائلا : وهذا معدي كرب وعبد شمس يفعلان كما فعل ويقصان عليه ما يطيب لهما من الحكايات ... انهما خائنان اذن قد عاهداه على القضاء ، على العرش ...

ـ غير ان الملك لم يشك فيهما ولم يخطر له ان يوجه اليهما التهمة التي يوجهها اليك ...

قال : خطر لي ان اتهمك انت نفسك بخيانة العرش ، أفلا تجلس شرحبيل عن يمينك ، وتسقيه بيدك وتستشيره في شؤون السلم والحرب ؟؟ قل يا مولاي ، ايكون كل امير يلثم لشرحبيل ويصافحه خائناً مليكه ؟.

فجعل الفتى ينظر الى معدي كرب وعبد شمس كأنه يستعين بهما على ذلك الدفاع البليغ ، ثم قال :

ولكن نسيت ان لك ثأراً ستطلب به .

ـ وما هو هذا الثأر يا مولاي ؟

ـ اتسأل عنه كأنك لا تعرفه ؟

قال : ان هذا الثأر لا يتعلق بالملك بل يتعلق بابيه وقد مات ، وليس على الملك ذنب .

ثم غير الحديث فقال : ومع ذلك فانا لا اعلم كيف تتهم شرحبيل وتريد في الوقت نفسه ان تتزوج بلقيس !

فرفع صوته قائلا : ان هذا الزواج معناه القضاء على هذا الرجل الطامع المستخف بالملك . هو يظن ابنته ستصبح ولية العهد وستنتهي اليها شؤون الملك واموره وقد فاته ان الملك وولي عهده ينصبان له شركا وسيقع فيه . نعم ، ستنتقل بلقيس الى البلاط ولكن لتمسي جارية لا ملكة ، بل لتكون عبدة لا سيدة ..!

فاشار عليه عبد شمس بحاجبيه ان يسكت ويحتفظ بسره ، فلم يعبأ باشارته ،

بل تمادى في الصراحة وكان يقول : سأعلم شرحبيل كيف تكون مطامع الامراء وكيف ينتهي امر الاستخفاف بمولاه .

ولكن ابن روضة لم يبال بذلك التهديد يوجه الى شرحبيل ، بل وان همه ان يبرىء نفسه امام ولي العهد والاميرين المخلصين للملك . فقال :

ارجو من مولاي ان يقول الآن امخلص انا ام خائن ؟

فتظاهر بالتفكير ثم قال : لنفترض انك من المخلصين وان حديث ولي العهد كان مزاحا .

قال : حسبي هذا فقد كدت اموت من الخوف .

وانطرح على قدميه يقبلهما ويذرف الدموع !

فتبادل الاميران المخلصان النظرات وكان كل واحد منهما يقــول في نفسه : لقد اخطأ الملك فعتيك بن روضة لم يفكر في خيانته .

وجاء دور ذي تبع فقال : وانا يا مولاي ؟

ــ اما انت فقد رآك الحراس ذاهبا الى قصر شرحبيل وانت تحاول الاحتجاب عن العيون .

ــ فعلتها مرة واحدة يا مولاي بامر الملك .

قال : احذر ان تكون كاذبا .

ــ يستطيع مولاي ان يسأل اباه الآن فيعلم اني است كاذبا .

ــ وماذا كان غرض الملك ؟

ــ ان يعلم ما يحدث به شرحبيل اهل بيته .

ــ ولكنك تبغض ولي العهد ولم تشأ الا ان تنكر عليه بعض ما رأيت منه .

قال : اذكر يا مولاي اني ندمت على ما مضى وسألتك العفو على مرأى من عتيك وامير ظفار فلا تبخل علي به .

قال : لا اعلم ما اقول الآن. ولكني انصح لكما بان تحفظا عهد الملك وتكونا عونا لولي عهده على كل عدو ، والا فليس جزاء الخائن غير المــوت . وانا لا ارعم احداً ولا اسمع لاحد .

ودخل في تلك الساعة امـــير ظفار ، وكان يحادث ، منـــذ لحظة ، احدى جواري الملك في الرواق ، وقد عرف منها ما قاله ذو القرنـــين لمعدي كرب وعبد شمس واشرق جبينه عندما ذكرت له ان الملك يحبه ، وانه اوصى الاميرين بالوثوق به .

فقال له ولي العهد : ناشر .. علم امير نحلة وامير همدان الطاعة والوفاء .

فاجابه وهو لا يعلم ما جرى : لقد عرفتهما مخلصين طائعين يا مولاي .

ـ ولكن الملك يراهما خائنين !

فاملى عليه الخبث ان يقول : الامراء الذين يعلمون ان الخونة يموتون معلقين باذناب الخيل ، لا تخطر الخيانة لهم .

قال : وكلت امرهما اليك فاحذر .

ـ وانا قد رضيت ، وليس لك الا ان تضرب عنقي عندمـــا ترى غير ما تراه ...!

وخفض الامراء اصواتهم عندئذ وساد الصمت ، فقد دخل الحاجب يقول : رسول ملك الحبشة ..

فاذن له الامير في الدخول ، واتجهت الى الباب الانظار .

• • •

٣٦

رجل ضخم الجثة ، قصير القامة ، تلمع الجرأة والذكاء في عينيه ، كما تلمع وجنتاه السوداوان .

وهو كبير الرأس ، وقد غطاه بقطعة من جلد النمر تشبه القلنسوة فيها طائفة من ريش النعام .

وفي وسطه حزام من جلد الاسد يتدلى منه خنجره وسيفه ، وفي الجانب الايمن منه جعبة سهامه .

اما قوسه فقد سلمها الى الحاجب قبل دخوله .

ذلك هو سامور ، احد قواد النجاشي العلى اسكندي الذي ذكرنا الك شيئاً عنه فيما تقدم من الفصول .

وكان يمشي بخطى ثابتة ، في تلك القاعة الفسيحة ، وقد دهش لعظمتها ولنقوش الذهب التي بدت على جدرها ، حتى مثل بين أيدي الامراء فوضع يديه على صدره وجعل ينظر اليهم وهو لا يرى بينهم ملكاً ...

ثم انحنى مسلماً ، ولم يجث كما يجثو لمليكه وتمتم قائلا : جئت من اكسوم احمل رسالة من مولاي الملك الى ملك حمير .

وكان الامراء جميعهم يعرفون لغة الحبشان .

فأومأ اليه ولي العهد بالجلوس وقال له :

أتكون من وزراء النجاشي ؟

ـ لا ، بل من قواد جيشه .

ـ وماذا يطلب مولاك اليوم ؟ أيريد ان يبعث جيشه مرة اخرى الى شراطىء مهرا ؟

ـ ستعلمون ماذا يطلب من رسالته التي احملها للملك .

قال : ما اسمك ؟

ـ سامور .

ـ انظر يا سامور الى هذين الاميرين ، انهما قائدا العرب اللذان قادا جنود مهرا بجيوش مولاك الى البحر .

واشار الى معدي كرب وعبد شمس .

فاخذ يتفرس فيهما وهو يقول : لا اعرفهما لاني لم اكن في مهرا ولم اشهد الحرب .

قال : اذا عاد مولاك عدنا ...

فسكت لانه لا يعلم من هو الفتى الذي يخاطبه ، ثم قال : متى استطيع ان اقابل الملك ؟

ــ وهل تعرف ملك حمير من قبل ؟

ــ لا ولكن يخيل الي ان الملك غير موجود ..

ــ ان الملك في مثل هذا اليوم لا يقابل احداً فاذا اردت ان تسلم الي رسالتك فهاتها وانا احمل اليك جواب الملك .

ــ ولكني لا اعلم من انت .

ــ انا عمرو بن ذي القرنين .

فاخرج رسالته وناوله اياها ، فقرأها وهو يقهقه ضاحكاً ويوجه الى سامور نظرات الاستخفاف .

فقال معدي كرب : ماذا يريد النجاشي ؟

ــ انه يدعونا الى الميدان او نرسل اليه احد وزرائنا ليثأر بأميناس الذي قتله الملك اسمعوا ايها الامراء .. :

« من العلي اسكندي ملك اكسوم وريدان الى ذي القرنين ملك اليمن :

« لقد قتلت في مأرب ، ايها الملك ، وزيرنا أميناس ، فعبثت بحق الحبشة واستخففت بالنجاشي الذي تهابه الملوك ، فاما ان توجه الينا احد وزرائك مع القائد سامور او توافينا بجيشك الى الموضع الذي غدر به الجند اليمني بجند الحبشة والويل لك »

ثم قال : هذه رسالة العلي اسكندي الذي تهابه الملوك .. فماذا ترون يا قواد حمير ؟

فقالوا : رأيك يا مولانا ورأي الملك ، ثم نقول ما نعلم .

فطوى الرسالة ونهض قائلا : هذا ضيفكم فكرموه ، واعطوه ما يشاء ، ريثما اعود ...

وغادر القاعة وهو مضطرب ، فقد فاجأته الحرب ، عندما كان يفكر في الحب ، ويهم بالزواج .

ودخل غرفة ابيه ، وفيها نعمى والجواري ، فلم يعبــأ بهن ، بل جلس على فراشه ومد اليه يده برسالة الملك الحبشي .

فقال ذو القرنين : ما هذه ؟

ـ رسالة من العلي اسكندي .

قال : أيطلب بدم اميناس ؟

ـ نعم يا مولاي .

قال : اقرأ . فقد جار الزمان ، ودهمتنا المصائب من كل مكان .

فقرأها عمرو ثم سكت، وحدقت العيون الى المسلول .

اما هو فاجال نظره بين جواريه ، ثم رفعه الى العلاء كأنه يناجي آلهته ، ثم رأوا ذلك الوجه الفائر ، يسود ، وتينك الشفتين الصفراويين تتمتمان قائلتين :

لولا خوفنا من ان يقول النجاشي ان ذا القرنين ضعيف جبان لارسلنا اليه .. شرحبيل بن عمنا .. ليقتله بوزيره !. .

فخفق قلب نعمى لتلك الكلمة الهائلة التي لفظها الملك والابتسامة على شفتيه .

اما ولي العهد فضحك ضحك المستهزىء ولم يجب .

ثم قال الملك : ارسل الي ناشراً وليبق الرسول مع الامراء في قاعة الجلوس .

ـ وارجع مع ناشر ؟

ـ بل تبقى مع الرجل ولا تقل له اني مريض .

ثم التفت الى نعمى قائلا: اذهبي يا نعمى واكتمي ما سمعت وقولي لشرحبيل ان يجيء .

فخرجت ، وخرج امامها ولي العهد ، ثم قال لها وهما في الرواق : مــا هو السر الذي يأمرك به الملك اتكتميه ؟

قالت : اخشى ان ابوح به فأموت !

قال : كوني من انصار ولي العهد ولا تبالي .. قولي ما هو ؟

فترددت قليلا في الجواب ثم هامسته قائلة :

يريد ان يبعد شرحبيل ابنته عن مأرب كي لا تقع عليها عين ولي العهد !

ـ لماذا ؟

ـ لانه يأبى ان تزف اليك .

فتمتم قائلا : لقد نسي الملك انه اعجز عن ان يغلب ولي عهده ... ليحضر شرحبيل وسيرى الملك بعد حضوره ان السلطان والنفوذ خرجا من يده واصبحا لي .

فقالت الفتاة في نفسها : لقد اشتعلت نار الحرب بين الاثنين وهذا ما تنتظره بلقيس .

ومشت تريد قصر شرحبيل والبهجة تملأ نفسها وقلبها يرقص من الفرح .

اما عمرو فقد اقبل على القاعة وقال لناشر : ان الملك بحاجة اليك فاذهب ولا تنس ان تعود .

فعرف عتيك ان ذا القرنين يريد ان يستشير امير ظفار قبل ان يبعث جوابه الى العلي اسكندي .

فاستأذن في الذهاب على ان يعود ومشى مع ناشر وهما يتهامسان حتى قاربا مخدع الملك فتركه ورجع الى مقعده الى جانب سامور وكان ولي العهد يقول له :

لقد امر الملك بان تبقى اليوم في مأرب وسيعطيك الجواب غداً .

فاجابه قائلا : وهل يأذن لي في ان اراه ؟

ـ لا ، انه لا يقابل اليوم الا رجال قصره كما قلت لك ، ولكنك تستطيع ان تثق من الآن بان الحرب ستكون جوابه .

ثم جعل يحادث امراءه بالعربية التي يجهلها القائد الحبشي ويسألهم رأيهم في الحرب وسامور يجيل نظره بالقاعة ويعجب لمظاهر الغنى التي تبدو في قصر الملك الحميري .

وكان ناشر قد مثل بين يدي مولاه ، فقال لـه وهو يتنفس بصعوبة ويشعر بان صدره يكاد يتمزق .

لقد فاجأنا الداء يا ناشر وفاجأتنا الحرب فما رأيك ؟

ــ اما الداء يا مولاي فسيزول بعد حين واما الحرب فقد تعود جيشك ان يخوض غمارها ويعود ظافراً .

ــ وهل قرأت رسالة النجاشي ؟

ــ قرأها ولي العهد وسمعت ما جاء فيها .. انها رسالة مغرور لا يعلم ماذا يصنع ولا يستطيع ان يخفي ضعفه .

ــ ولكن الموضع الذي سيرسل اليه جيشه يقوم في آخر اليمن وهذا يدل على حسن الاختيار ..

ــ انه الموضع الذي خسر فيه الحرب السابقة يا مولاي !

ــ اجل وقد عرف عبد شمس ومعدي كرب كيف ينتصران!

ــ وسيعرفان هذه المرة ايضاً ان ينتصرا .

قال : انها حرب تكثر فيها الجيوش وتبرز الى ساحتها قواد الحبشة ورماتها وافيالها حتى يصبح الشاطىء جنوداً .

ــ وفي اليمن يا مولاي قواد ورماة يغطون الشاطيء ويقذفون بالحبشان الى البحر كما فعلوا من قبل .

ــ ومن يقود الجيش اليمني هذه المرة ؟

ــ البلاط يغص بالقواد يا مولاي فاختر من تشاء .

ــ يرى الملك ان يجعل ولي عهده على رأس الجيش فماذا تقول ؟

ــ هذا هو الرأي يا مولاي .

ــ ولكن اخشى ان يتردد في الذهاب وانا لا اريد اليوم ان اجفوه واكرهه على الذهاب .

قال : ان ولي العهد سيد الحرب فلا اظن انه يفعل .

ــ لقد نسيت يا ناشر انه لا يفكر الا في بلقيس .

ــ غير ان شرف حمير اعظم من بلقيس يا مولاي وانا واثق بانه سيذهب وستخفق فوق جيشه ألوية النصر .

ــ اتضمن هذا ؟

ـ نعم يا مولاي كما اضمن الظفر .

قال : وستولي شرحبيل امر قيادة الفرسان .

فجعل ينظر الى الجواري نظرات الذهول ثم قال :

ان لي في هذا رأياً يا مولاى ، أليس شرحبيل في نظر الملك من الخونة الذين يتآمرون على التاج ؟

ـ بلى .

ـ وهل ترسل الى عدوك خائنا يتخلى عن موقفه في ساحة الحرب ليظفر ذلك العدو ؟..

وكان حزم الملك قد اضحى ضعفاً ، وارادته الحديدية التي لا ترد ، اصبحت ترددا وعجزاً ، فقال :

وماذا اذن ؟

ـ ايريد الملك ان يصغي الي ويسمع لي ؟

ـ قل ما يخطر لك .

ـ خير للملك ان يبقى شرحبيل في مأرب من ان يذهب الى مهرا على رأس فرسان حمير .

ـ ومن يكون عوناً لولي العهد في القيادة .

ـ عبد شمس ومعدي كرب وامير همدان على ان يبقى امير نخلة في البلاط

ـ وانت ؟

ـ اما انا فكما يشاء مولاي .

قال : لا اطيق ان ترحل ويبقى الملك مع امير نخلة وحدهما .

ـ سأبقى يا مولاي .

ـ ولكن امير همدان من انصار شرحبيل وقد سمعت دفاعه عنه في ساعة من ساعات الشراب حيث خيل اليه ان الخمر ضيعت هداي .

قال: انت تعلم يا مولاي اني لا احب هذا الهمداني وكنت اؤثر ان يطرده الملك من بلاطه على ان اراه فيه كل يوم ، ولكن يجب ان تموت عاطفتي الخاصة إزاء

بخدمة العرش وان اذكر لمولاي الملك جميع مـــا اعلم دون ان يكون لي في ذلك غرض ... ان ذا نبع مخلص لمولاي وفي لعرشه ومن الرأي ان يكون بين قواده الذين يحطمون قوى الحبشة ويشرفون الامم اليمني .

قال : سأموت وانا واثق بانه خائن ، ومع ذلك فسأبعث به مع القواد واوصي الجميع بان يحذروه ...

ثم قال : اذهب وقل لولي العهد ان يكتب الى العلى اسكندي هذه السطور :

« لقد اثبت لي كتابك ان الغرور يملأ نفسك ، فاذا كنت تريـــد ان تثأر بوزيرك ، فاختر لك ، اذا استطعت ، واحداً من القواد الاربعة الذين نوجههم اليك وراء رسولك ولكن احذر ان يخونك الحظ فتخسر قوادك ووزراءك الذين حجبتهم مياه البحر عن عيون الجيش اليمني في حرب الشاطىء ... »

اكتبوا هذا ولا تزيدوا كلمة ، وقل للامراء ان الملك يريد ان يوصيهم بما يعلم قبل ان يتهيأ الجيش .

وذكر عندئذ ذلك الحديث الذي افضى به الى نعمى وصيفة بلقيس ، فقال : لقد دعوت شرحبيل الي لآمره بابعاد ابنته الى البلد البعيد النائي كي لا يراها ولي العهد .

ـ وكيف تبعدها يا مولاي وولي العهد سيترك مأرب ؟

ـ لقد فكرت في ذلك قبل مجيء الرسول الحبشي ، اما الآن فقد عدلت عما هممت به وسأخاطب شرحبيل بشأن آخر فيه الحياة له او الموت .

فانصرف امير ظفار وهو يعلم ما هو ذلك الشأن ...

ولم يبلغ قاعة الجلوس حتى رأى شرحبيل في اول الرواق ، فدخل وهـــو يتظاهر بانه لم يره ، واتجه ابن عم الملك الى رواق آخر يصل منه الى مخدع ذي القرنين .

***

أعد علينا يا ناشر ما سمعت .

قال : هذه هي صورة الرسالة التي يريد الملك ان يبعث بها الى النجاشي .

فقرأها الامراء مرتين وثلاثاً وهم يرون شبح الحرب .

ثم قال ولي العهد :

من هم القواد الاربعة الذين ذكرهم الملك في رسالته ؟

ـ جميع من في هذه القاعة يا مولاي الا انا وامير نخلة .

قال : ولي العهد يذهب الى الحرب بدون امين سره ؟

ـ هذا ما اراده الملك يا مولاي وقد التمست منه ان ارافق الجيش فلم يشأ الا ان ابقى بالقرب منه .

ـ ولكنه نسي ان ولي العهد سيتزوج وان الحرب قد يطول امرها الى العام المقبل ..

ـ لم ينس شيئاً يا مولاي ولكنه ذكر لي اموراً فيها خير اليمن الذي هو قبل كل شيء .

ـ اتقول لنا شيئاً منها ؟

ـ اذكرها كلها فقد كان يقول : ان ولدي عمراً قائد اليمن وهو الملك الذي لا يخطو الجيش خطوة واحدة الا باذنه .

فقال عتبان : اي انه لا يريد ان يتولى امور الحرب الا الملك الجديد عمرو ابن ذي القرنين ..

فرفع الفتى رأسه تيهاً وعجبا وجعل ينظر الى سامور الذي لا يفهم من حديث الامراء كلمة .

ثم استطرد امير ظفار قائلا :

واما الزواج يا مولاي فسينجز الملك امره بعد الرجوع من مهرا وستصبر بلقيس حتى يظفر جيش ملكها ويعود لابساً اكليل المجد والفخار .

فتغيرت حال ولي العهد فجأة وملأت قهقهته القاعة ثم اخذ يقول :

لقد صدق الملك وصدق ناشر اني سأتزوج ابنة ... الخائن اللعين الذي يظن ان بلقيس اعظم من ان تكون حظية للملك .. نعم يا ناشر سأتزوج بلقيس ولكن ليس كما تظن ويظن ابي . وسيبكي شرحبيل عظمتـــه وكبرياءه عندما لا ينفعـــه البكاء .

فتحير ناشر في امره وعجب لذلك الانقلاب الذي فوجيء به ، وفتح فاه يريد ان يسأل مولاه عنه !

لكن امير نخلة سبقه فقال : لقد خبرنا مولانا ولي العهد بما يريد ان يصنعه في هذا الزواج ...

واومأ اليه بحاجبيه بان يسكت .

فعرف الامير ان هنالك حيلة فقال: ان شرحبيل سيبقى في مأرب فلا يشترك في شرف الحرب !

فاجابه عمرو قائلا : اجل ، فالرجـــال الذين يخونون وطنهم لا يشتركون في الدفاع عنه .

ثم بدأ يسمي مناصب قواده فقال :

سيقود معدي كرب جيش المشاة كما فعل في المرة الماضية وسيتولى عبد شمس قيادة الرماة واما ذو تبع فسيكون معي في قيادة الفرسان ... أعلمت فرسك يا ذا تبع ان يقتحم الصفوف في الميادين ؟

ـ سأعلمه ذلك عند الوصول الى الشواطيء يا مولاي .

ـ وماذا تقول انت يا عبد شمس ؟ أيظفر بنا هذا الاسود وجيشه ام نجعل الرمال قبوراً لهم ؟

قال : ان الجيش الذي ترأسه يا مولاي لا يغلب .

قال : صف لنا ذلك الموضع الذي جعلته مع معدي كرب ميدانا للخيل .

قال : الصخور تقوم حاجزاً بين البحر والرمال والشاطيء واسع فسيح يتسع للالوف من الرجال .

قال : اخشى ان يختبىء امير همدان بين تلك الصخور عندما تقع عينه على اولئك الرجال السود يحملون الحراب .

فاجابه الهمداني والنار في قلبه : بل الجأ الى ولي العهد فاختبىء تحت فرسه.

قال : احسنت ففرس ولي العهد خير ملجأ للجبناء .

وحول وجهه عنهم كأنه لا يريد ان يسمع جوابا ، وخاطب سامور بالحبشية قائلا : سيرسل الملك الى مولاك اربعة من قواده بينهم ولي عهده ليضرب عنق احدهم كما ضربت عنق اميناس . ولكن أتعلم اين يكون ذلك ؟ هنالك على الشاطىء نفسه الذي صبغت رماله بدماء رجاله .

فقال : ليفعل الملك مايشاء فالشاطىء لم يتغير ورماله باقية . اين هي رسالته؟

ــ نكتبها وندفعها اليك . اكتب يا ناشر رسالة الملك واعطه اياها وليقل لمولاه ان جيوش حمير ستزحف الى اكسوم . واما انتم ايها الامراء فانصرفوا الى شؤونكم وارسلوا رسلكم الى الاقاليم ليجتمع الجيش فقد طاب الموت في سبيل اليمن .

فذهب عبد شمس وتبعه معدي كرب ، وبقي في القاعة اولئك المتآمرون الثلاثة الذين وثق بهم ذلك العاشق المغرور ، فقال لهم :

لقد اصبح الاميران اللذان خرجا الساعة جاسوسين على ولي العهد وكل من ينتمي اليه . ولكنهما لا يستطيعان ان يخدعا احداً بمظاهرهما الكاذبة .

قال عتيك : اواثق انت بهذا يا مولاي ؟

ــ اجل فقد دعاهما الملك اليه ومكثا بالقرب منه اكثر من ساعة وهو يقص عليهما حكايات ولده .

فقال ناشر : صدقت يا مولاي وقد عاهداه على ان يمنعا زواجك .

قال : أرايت احدى جواري الملك ؟

ــ نعم يا مولاي وقد خبرتني انه يسيء ظنه بجميع من حوله الا بثلاثة .

ــ من هم ؟

ــ انا ، ومعدي كرب ، وعبد شمس .

– ليثق بهما ونحن نهزأ ، ولينقلا اليه كل ما يخطر لهما ، فهما غير قادرين على
معرفة الاسرار ، لقد اسمعناهما الآن ما يطيب له صدر الملك فليهنأ بتعذيب وا...
والكيد له .

وماذا يطلب الامراء غير هذا ؟ لقد ارادوا ان يعكروا الجو بين الوالد وال...
فعكروه وارادوا ان يفسدوا امرهما فافسدوه ، ولم يبق الا ان يقضي احدهما ...
امره فيثور الآخر ويتنازعا السلطان !

* * *

كتب ناشر رسالة الملك وسلمها الى سامور ، واليمن غافلة لا تعلم ان رجالها
وفتيانها سيخوضون غمار الحرب .

فحمل الحبشي رسالته وهو يلعن الاقدار التي لم تخدمه في درس احوال البلاط
الحميري كما امره مولاه .

وانصرف وهو يفكر في امر الملك الذي لا يقابل احداً في ذلك اليوم ..

ولولا ضحك الامراء ومزاحهم ، ودلائل البشر البادية على الوجوه ، لوثق
الوثوق كله بان ذا القرنين قد مات !

والا فما هي عادة الملك ، في استقبال الرسل الحاملين انباء الحرب بمثل ذلك
الشكل الغريب الذي رآه !

وكـــان يقول في نفسه : ان هؤلاء القواد الفتيان ، الذين يقسمون لتهديـــد
النجاشي ويستخفون به لا يرجعون من الساحة الا اذا اخضعوا عدوهم واذلوه .

وايقن من تلك الساعة بان موته سيخسر الحرب !

على ان ولي العهد ورفاقه ، لم يستخفوا بالحبشة كما ظن ، بل كان الاضطراب
يملأ قلوبهم عندما قرأوا رسالة العلي اسكندي .

ولكنهم تظاهروا بالاستخفاف كما رأيت ليبعثوا الرعب الى قلب القائد الاسود
وهي حكمة علمهم اباها ذو القرنين سيد ابطال ذلك الزمان .

فلما خرج الرجل من البلاط ، اقبلوا يتشاورون ويضعون منهاجهم » وانصرف معدي كرب وعبد شمس ليستعينا برأي الملك ، فقيل لهما ان في مخدعه شرحبيل بن عمر .

فجعلا يتمشيان في الرواق واحدهما يقول للآخر :

لقد اخطأ الملك فيما ذكره لنا عن ولي العهد ، فعمرو يكيد شرحبيل كما يكيده الملك نفسه ولكنه لا يريد ان يفضح سره .

اجل ، لقد سمعا تهديد ولي العهد عندما ذكر له شرحبيل ، ورأيا غضبه عندما ذكرت له بلقيس ، فاضمحل الريب الذي اوجدته ظنون ذي القرنين في صدريهما ..

وقد فاتهما ان هذا الفتى المستهتر الطائش ، كان اشد دهاء منهما ومن ابيه . كما فاتهما ان عتيكا ورفيقيه اشد دهاء من الجميع ..

وبينما هما يتحادثان ، اقبل ولي العهد يريد غرفة ابيه ، فاشار عليه بالانتظار ريثما يخرج ابن عم الملك ، فتراجع ثم رأى ان يعود الى قاعة الجلوس منتظراً فيها ذلك الامير الذي ستصبح ابنته ملكة .

وكان المتآمرون الثلاثة قد خرجوا الى احدى الشرفات وناشر يريد ان يعرف من عتيك كل شيء فقال له :

لقد عرفت اننا نحن الاثنين باقيان في البلاط وشرحبيل باق في مأرب ، وهذا ما اردته انت ولكني لم اعلم الغاية من ذلك .

قال : لا استطيع ان اخبرك الآن جميع ما يخطر لي لاني اخشى ان يخونني الحظ وتلعب بي الاقدار .

ــ ولكن ماذا يصنع شرحبيل في مأرب وما الذي نصنعه نحن في البلاط .

قال : عندما تشعل الحبشة نار الحرب ، يتدبر شرحبيل امر ابنته ويفعل لاجلها ما يطيب له دون ان يلج ولي العهد في طلب الزواج ، اما انت فستصبح خلال هذه الحرب بفضل مرض ذي القرنين وعجزه ملكاً او نائب ملك لانك امير ظفار والرجل لا يستسلم الا الى رأيك ... واما انا ، انا عتيك بن روضة فسأفعل

العجائب ، قبل ان يعود الجيش ...

ـ وكيف تطيق ان يكون امير همدان ، بعيداً عنك لا يشهد هذه العجائب ؟

ـ سيتزوج بلقيس بعد رجوعه وهذا يكفيه ..

قال : ذو تبع يتزوج بلقيس ؟؟

ـ نعم فهي معبودته الحسناء وقد برح بالاثنين الغرام .

وقص عليه حكاية ذلك الهوى المتغلل في الصدرين ...

فطابت نفس ناشر وقام في ذهنه ان هذا الحب وحده كاف لاذلال ولي العهد وقتل هواه .

واضحت ثقته بعتيك ، منذ تلك الساعة ، ثقة عمياء ليس لها حد .

وعول على ان يطيعه كما يطيع الملك دون ان يسأله عما يفعل ، ثم قال له :

وكيف يكون موقف ذي تبع مع عمرو في ميدان القتال ؟

ـ موقف امير شريف يدافع عن وطنه وقومه دفاع الابطال الذين يعلمون ان اليمن ليست للملك وحده .

ـ ولكن سيكون ولي العهد قائده وسيده !

ـ ومن يقدر على ان يفعل غير ذلك الآن ، ان ولي العهد سيد الامراء جميعهم وسيصبر أمير همدان على ما يراه منه لتتم له الغاية .

ثم قال له : احذر ان يغير عبد شمس ومعدي كرب رأي الملك فشرحبيل يجب ان يبقى في مأرب .

ـ لا تخف فأمير ظفار يستطيع ان يفسد عليهما كل ما يصنعان ، على رجاء ان يرى عجائبك بعد حين .

قال : سترى وستدوس بنعلك هذا الامير اللئيم الذي وهبت له الاخلاص كله فاستخف بك ...

وعادوا جميعهم الى القاعة فرأوا ولي العهد فقال عتيك : ألم تكن عند الملك يا مولاي ؟

ـ ان شرحبيل في غرفته الآن .

ـ ولكنه لا يلبث حتى يخرج منها ويجيء اليك .
قال : وسأحدثه بشأن الزواج قبل ان ارى بلقيس .
قال : افعل وانا واثق بانه سيكون عند حسن ظنك به .

***

٣٨

أكنت تنتظر يا ابن العم ان يموت الملك لتجيء وتقف عند جثته ؟
فاجابه شرحبيل قائلا : لا تقل هذا يا مولاي فانا لم اعلم انك مريض الا في الليل الماضي .
ـ وماذا رأيت الآن ؟
فكرة الامير الحر ان يكذب ، فقال :
أرى وجهاً ناحلا ، وضعفاً ظاهراً ، وداء قاسياً لا يرحم ..
ـ اذن فاشكر الآلهة التي اسبغت عليك هذه النعمة ... ان الموت في هـــذا الفراش ..!
ـ بل اشكرها لانها ستتولى امر شفائك ..
قال : ألك حاجة نقضيها لك ؟
ـ اما حاجتي فهي ان ترجع العافية الى الملك وتعود اليه بهجة أمسه .
فاضطرب قائلا : ستعود بعد حين فنكافيء المخلصين ...
والآن ، فان للملك حاجة أفتقضيها له ؟
ـ يأمر الملك فأطيع ...
قال : لقد عاد ولي العهد من اليامة وسألنا عن بلقيس .
ـ حسبي شرفاً يا مولاي ان يسألك عنها ..
ـ ولكن أتذكر وعدك يا ابن عمنا ؟

ــ اذكره يا مولاي وسأقوم بالوفاء به .
قال : لا تعجل فالملك يسألك الان ان تنسى ما وعدت ؟
قال : ألا تريد بلقيس زوجة لولدك ؟
ــ لا بل اريد ان تختار لها فتى غير عمرو ! ان الملك لم يبق له رأي في هـذا الزواج .
فعرف الامير غايته .. لقد كـان يخشى ان يموت فينتقل الملك من ولده الى ولد شرحبيل .. فقال :
وانت الا تذكر وعدك يا مولاي وقولك لي ان بلقيس احب الفتيـات الى الملك واجدرهن بالعرش ؟
الا تذكر انك امرتني بان انقل اليك جوابها بالرضى ام بالرفض قبل ان يعود ولي عهدك من اليمامة ؟
ــ بلى ، غير ان نظرنا اليوم ، غير نظرنا بالامس ، وقد رأينا ان زواج ولدنا العاجل ينسيه العرش الذي سيرثه ، والذي تهدده الملوك من جميع الاقطار ..
فقال وهو لا يتردد : ليكن ما يشاء الملك وليسلم عرشه .
ــ وهل تعدنا بهذا ؟
ــ اجل يا مولاي ولكني لا اعلم ماذا اقول لولي العهـد اذا هو ذكر لي امر زواجه بعد ساعة .
قال : يجب ان تعود الى حكاية النذر !
ــ ولكن الكاهن الاعظم فضح امره وقص حكايته على جميع الامراء .
ــ اذن تقول له ان بلقيس لا تفكر اليوم في الزواج .
ــ وهذا ما لا يفعله شرحبيل بن عمرو ، لانه لا يريد ان يشتري غضب ولي عهدك بمثل هذا الجواب الذي لا معنى له .
ــ اذن تقول له ان بلقيس وعدت اميراً آخر .
ــ واذا سألني عن اسم هذا الامير ؟
ــ تقول له : انه ذو تبع امير همدان .!

فانتفض قائلا : يظهر ان الملك يريد ان تنشب الحرب بين ولده وبين ذلك الهمداني لاجل فتاة .. لا يا مولاي .. بل اقول له ان الملك غير راض وينتهي الامر ...

ففكر قليلا ثم قال : تستطيع ان تقول له هذا فيكون لك عذر ، ولكن تقسم لنا الآن برأس بلقيس والهدهاد انك لا تزفها اليه الا اذا رضينا !

فوقف قائلا : اقسم اني لا ازفها اليه ولو سعرها حرباً تلتهم اليمن !

فبرقت عيناه وهو لم يدرك مغزى ذلك القسم وقال له : لقد كنت الآن صريحاً مع الملك وسنجزيك ..

وعندما هم شرحبيل بالانصراف استوقفه قائلا : نسينا ان نقول لك ان العلي اسكندي يدعونا الى البراز .

فلم يستغرب الامير هذا الخبر الفجائي ، بل قال :

ومتى كان ذلك ؟

ـ في هذا الصباح وقد كتبنا اليه ان الجيش سيوافيه الى مهرا بعد شهر .

ـ ومن يقود هذا الجيش يا مولاي ؟

ـ ولي العهد نفسه ! معه عبد شمس ومعدي كرب وامير همدان ، وستمكث انت بمأرب حتى تقضي الحاجة بذهابك .

قال : كنت اوثر ان اضع سيفي على عنق عدوك .

ـ اما نحن فلا نشك في هذا وسيأتي يوم تشهر فيه هذا السيف وتخضبه بدماء الحبشان .

فخرج وهو يقول في نفسه . نعم سيأتي يوم اشهر فيه هذا السيف ولكن لاخضبه بدمك ايها الملك الظالم الذى تستحل كل شيء ..

وكان الملك يقول : اذهب يا شرحبيل فالملك لم يمت بل هو لا يموت الا عندما يرى جثتك في وادي مأرب ، بين مخالب النسور .

ولم ينصرف شرحبيل ، حتى اقبل وتار ذمر ، كاهن مأرب ودار بينه وبين

ذي القرنين حديث طويل حفظته الجدران في اذهانها فلم يعرفه احد .
ولكن الايام فضحته وسنقصه عليك .

***

مشى شرحبيل يربد قاعة الجلوس وهو يفكر في ذلك الضعف الغريب الذي استولى على الملك في بضعة ايام .
وقد عرف عندئذ ان نعمى كانت صادقة في وصفها ذلك الضعف لبلقيس
وكان ولي العهد واقفاً في القاعة ومعه المتآمرون الذين يحفرون له القبر !
فصافحه وهو يبتسم ، وولي العهد يهش له ويكاد يفتح له ذراعيه .
ثم دعاه الى الجلوس وهو يقول : كدت اظن اني لا استحق ان ارى لــك وجها يا ابن العم .
فعجب الامير الكبير لهذه النعومة يهبها الزمان فجأة لهذا الفتى المغرور الذي لم يكن يعبأ به من قبل ، واراد ان يجاريه الى النهايــة ليجعله آلة في يــده ويد بلقيس ، فقال :
اما انا فقد كدت اظن ان ولي العهد لا يبالي بي بدليل انه قدم مــأرب ولم يخطر له ان يخبرني بوصوله كما هي عادة البلاط !
ـ ذلك شأن الملك يا شرحبيل ؟
وماذا اصنع اذا كان مولاي الملك لا ينظر الي كما ينظر الى المخلصين له المقيمين على طاعته !
قال : اعتذر لك عن الملك فقد صرعه الداء كما رأيت .
قالها والابتسامة لا تفارق شفتيه كأن في ذلك الداء قوة تدفعه الى الابتسام !
فانحنى شرحبيل قائلا : لا يكفي ان يكون الملك راضياً عن ابن عمه .
قال : انه لراض وارجو ان تحدثنا بمظاهر هذا الرضى التي رأيت .
وكان شرحبيل يريد ان يشعل النار وهو لا يصدق متى تأتي الساعة . ولكنه

لم يشأ ان يبوح بما عنده ، والقوم يسمعون .

فجعل ينظر الى الامراء وهو ساكت ، فقال عمرو : اتخشى ان تقص علينا ما قاله لك الملك ؟

ان الملك لا يكتمك شيئا وليس هنالك ما اخشاه .

قال : الى اين انتهى امر الزواج بينك وبينه ؟

فنظر الى الامراء ثانية ولم يجب ، فقال له :

اذكر كل شيء ولا تخف فهؤلاء رجال ولي العهد .

قال : ان امر الزواج قد انتهى الآن .

ـ ولكن الا تعلم اننا سنسير الى حرب الجبشة ؟

ـ بلي .

ـ اذن فقد جعل الملك موعد زواجنا بعد الرجوع منها .

ـ قلت لك يا مولاي ان الامر قد انتهى ومعنى ذلك ان الملك لا يريد ان تذكر له بلقيس بعد الآن .

فدهش قائلا : افعلها الملك ؟

ـ نعم وقد امرني بعدم الاصغاء الى ما تسألني اياه .

فاصفر وجهه وجعل الامراء يتهامسون .

غير ان ذلك الاصفرار لم يطل زمنه . ان الامر امره وهو لا يعبأ بابيه رضي عن زواجه او لم يرض !

وعادت الابتسامة الى شفتيه وهو يقول :

اية فتاة يرغب الملك في ان يزفها الى ولي عهده ؟

ـ هو يرغب في ان تترك امر الزواج اليوم لانه ينسيك العرش الذي تهدده الملوك .

ـ انها نغمة جديدة يعمد اليها ابي في هذه الساعة ، وماذا تقول انت ؟

ـ ماذا اقول يا مولاي؟ اذا قلت نعم اغضبت الملك ، وان قلت لا، اغضبت

ولي العهد وانا اخشى في الحالين ان يعمد كل واحد منكما الى القوة للوصول الى غرضه ...

ـ وهذه ايضاً نغمة غريبة اسمعها منك الآن . اريد ان اعلم الساعة اذا كانت بلقيس ترضى بان تكون لي على رغم اليمن كلها !

فخاف عتيك ان يخرج الامير عن حده ويفسد عليه امره ، فقال :

سألتك يا مولاي من قبل ان تزور بلقيس في قصر ابيها وتحدثها بهذا الشأن

قال : أتأذن لي في هذه الزيارة يا شرحبيل ؟

ـ انها شرف لابن عمك وقومه .

ـ اذن اذهب الليلة ويذهب معي عتيك .

فهامسه ناشر قائلا : خير لك ان يذهب ذو تبع ايضاً لترى بلقيس بعينيها ان معظم امراء البلاط لا يعبأون بالملك اذا كان في اغضابه رضاك ..

فرفع صوته وهو يقول : صدقت فليذهب امير همدان ..

وكان قلب ذلك الامير العاشق يخفق لهذه الزيارة ...

فاجابه قائلا : مرحباً بالموت اذا كان في طاعتك ...!

وهكذا عبثوا جميعهم بولي العهد المسكين،واوغروا صدره ، وايقظوا عاطفته وهيجوا كرامته التي أهينت. ومشوا فيمؤامرتهم خطوة واسعة يصعب بعدها الرجوع الى الوراء .

ثم قال شرحبيل : ولكن الملك سيعلم ما تحاولون اخفاءه ، واذا علم اهتز البلاط واهتزت مأرب لغضبه ..

فقال ناشر : سأقص على الملك بعض حكايات الحرب فيأوي الى فراشه مستسلماً هادئاً لا يسأل عن احد !

وقال ولي العهد : وقد يفاجئه السعال القاتل فينسيه نفسه !!

اما شرحبيل فكان يقول ، مسكين الملك . ان معدي كرب وعبد شمس يدفعانه بأيديهما الملوثة الى ما لا يعلم .

وجاء دور عتيك اللعين فقال : اذا سأل الملكعن ولي العهد ـ وهو لا يسأل،

فليقل له ناشر انه انصرف الى قلاع مأرب وحصونها لينظر في احوال الجيش ، في هذا الليل ، او فليقل له انه يتبع آثار سامور ، حتى يطلع الصبح ...

فقال له : طب نفساً فانا اعلم ماذا اقول .

* * *

٣٩

عاد وتارذمر ، الكاهن الاعظم ، الى منزله ، بعد ان رأى ولي العهد .

ولم تمر ساعة ، على دخوله ذلك المنزل ، حتى خرج منه غلام ضعيف الجسم حسن الوجه ، ومشى يريد قصر الملك .

وهو في زهرة العمر وميعة الشباب ، ذو جبين عال يدل على الذكاء ، وعينين صغيرتين براقتين لا تهدءان، هما عينا الماكر الخبيث، الذي فسد خلقه ، وصغرت نفسه .

فلما وصل الى القصر ، تنحى له حراس بابه ، كأنه من غلمان الملك ، وليس في ذلك ما يدعو الى الاستغراب ، فهو غلام الكاهن الاعظم الذي تعرفه اليمن وتخافه ، ويخطب وده الامراء والمقربون الى ذي القرنين .

أجل ، كان الكهان في ذلك الزمان اصحاب النفوذ والسلطان ، ليس لانهم خدام الآلهة فحسب ، بل لانهم اطباء الملوك ، وعرافو القصور ، الذين يذكرون لك الماضي بما كان فيه ، ويقرأون لك سطور المستقبل مكتوبة على صفحات القضاء .

واسم هـــذا الغلام عباد ، ويظهر انه يعرف جميع ما في البلاط من اروقة ، وقاعات ، ودهاليز ، وقد يعرف ما في صدور رجاله من اسرار ...!

وماذا يصنع عباد في بلاط الملك ؟! انه امسى غلام ذي القرنين . وقد وهبه له وتارذمر اقراراً بالفضل ، واعترافاً بالجميل ...!

وليس في البلاط من يجهل هذا الغلام الذكي الخبيث ، الذي هــو رفيق الكاهن الاعظم ، وامين سره ، ورجل مشورته .

وقد رآه الناس في ذلك القصر العظيم فاقبلوا يسألونه عن غرضه ، ثم وقعت عينه على عتيك بن روضة ، في اول الرواق الذي يؤدي الى حجرة الملك .

فقطب حاجبيه ، وبدت على جبينه دلائل التعب والهم ، غير ان عتيكاً ابتسم له قائلا : اين مولاك يا عباد ؟

فاجابه وهو مضطرب : مولاي في قصره وقد امسى لي الآن مولى آخر اعظم منه هو ملك حمير !

ــ اذن انت هدية وتارذمر الى مليكه ؟

ــ بل انا العبد الذي لا يخرج من القصور الا الى حفرته !

ــ قال : اتأنف يا عباد من خدمة الملوك !

ــ بل انفت من حياتي التي كانت شقاء ، ولدت في تهامة وانا عبد ، ثم قدمت اليمن وكنت عبداً ، وها انا ادخل الآن بلاط الملك لاموت فيه ؟

فخفق قلب عتيك لحديث عباد ... انه غلام ضعيف غريب لا يجسر على ان يبوح بما باح به ، الا اذا كانت له من وراء ذلك غاية يخدم بها احدالامراء !

ومن هو هذا الامير الذي يشتغل عباد لحسابه ؟

انه الكاهن الاعظم نفسه ، ولهذا الكاهن غرض ارسل غلامه الى البلاط ليتم له ذلك الغرض من وراء الستار .

وخطر له خاطر فجائي اهتزت له نفسه، ولم يجرؤ على التفكير فيه . فقال :

ولكن خدمة الملك شرف لك ايها الغلام ، وفي البلاط نفوذ ومال لا يصل الى يدك منهـــما ، وانت في قصر وتارذمر ، مثل مـــا يصل اليك وانت في قصر ذي القرنين !.

قال : خير لي ان اكون من صعاليك العرب وفقرائها وانا حر ، من ان ينتهي الي نفوذ الملوك وانا لا املك الحق بالحياة كما يملكه الناس !

وهي فلسفة لم يطمئن اليها امير نخلة ، فقال :

لك أسوة بالغلمان الكثار الذين يملأون بلاد العرب .

ـــ ولكن اولئك يروحون ويجيئون اما انا فقد كتب لي ان اعالـــج الملك المريض بما يأمرني به الكاهن .

قال : لقد نسي مولاك ان جواري الملك يتناوبن على السهر والحراسة .

قال : تنقصهن الخبرة بالمعالجة كما قال لي .

ـــ اصبت فلكل غلام عمل وليس لي الا ان ادعوك الصبر .

وحول وجهه عنه ومشى الى آخر الرواق .

فابتسم عباد ابتسامة خبث واتجه الى غرفة ذي القرنين كأنه في بيته ، او كأنه من رجال البلاط !

وعين عتيك تراه من وراء العمد القائمة في طرف الرواق وقد قام في ذهنه ان بين ذي القرنين ووتار ذمر ، معاهدة « هجوم ودفاع » وضعت شروطها في ظلام الليل .

وظل في موضعه وهو يرى كل شيء ، حتى اذنت الجواري لعباد في الدخول، ثم خرجن جميعهن وبقي وحده مع الملك .

فقال في نفسه : ان الملك يشك في جميع من حوله حتى في جواريه ، وانـــا اشك في جميع غلمانه ، حتى في غلامه الجديد .

وانصرف فخبر ناشراً كل ١٠ رأى ، واتفق الاثنان على ان يكتما ولي العهد وامير همدان ما عرفاه .

* * *

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

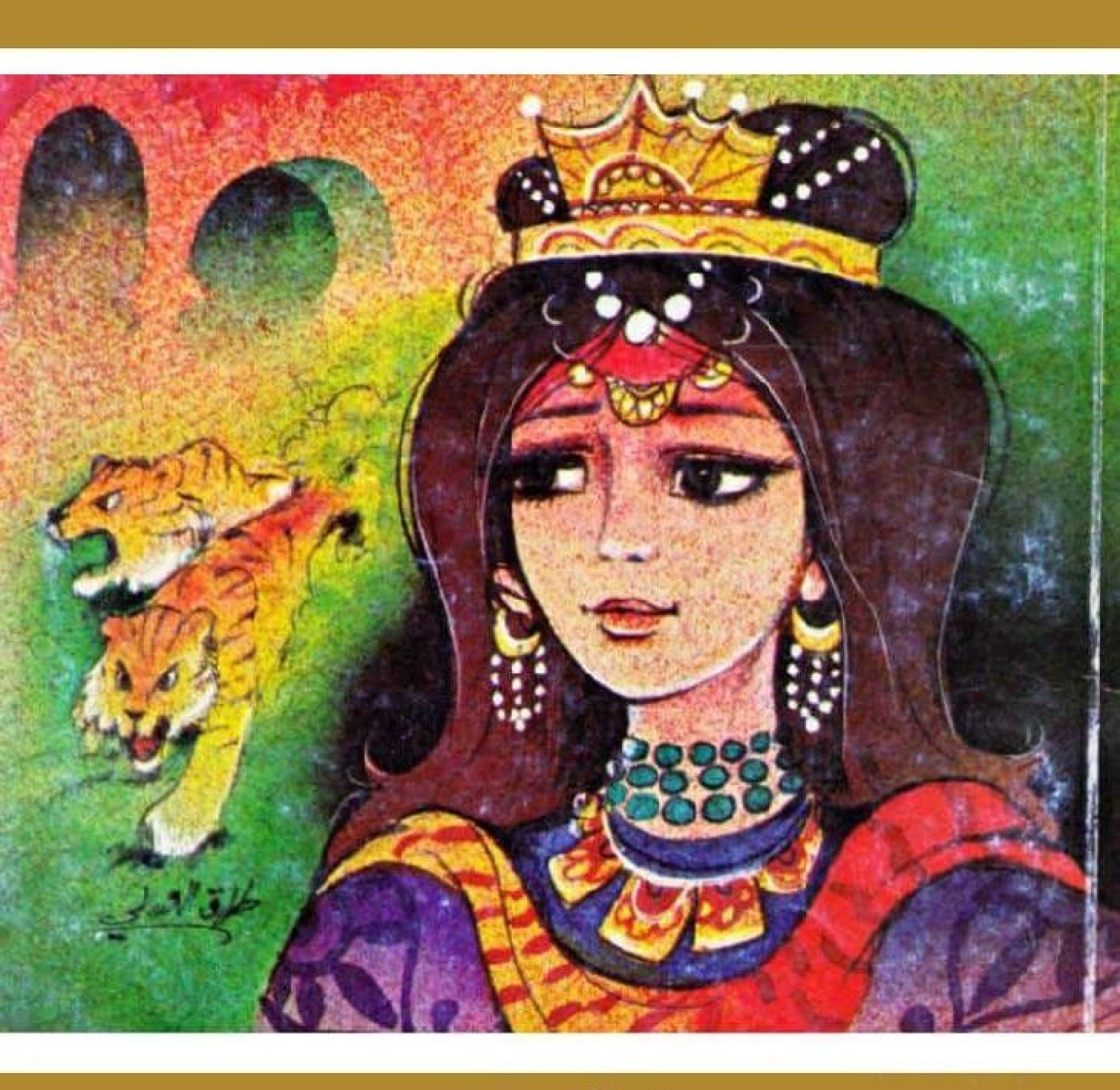
- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١ / ٢
- زينب ملكة تدمر ١ / ٢
- حسناء الحجاز ١ / ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١ / ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

أميل حبشي الأشقر

بلقيس ملكة اليمن ٢



دار الأندلس

روايات تاريخ العرب والاسلام

أميل حبشي الأشقر

بلقيس ملكة اليمن

روايات تاريخية أدبية غرامية

الجزء الثاني

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

ارخى الليل سدوله علـى مأرب ، وآوي بعض رجـال البلاط الى غرفهم مستسلمين الى النوم

فخرج ولي العهد مع الاميرين ، عتيك وذي تبع ، وجعلوا يطوفون في السوق ثم في الاحياء التي يكتنفها الظلام ، ثم داروا من وراء حي مهجور متجهين الى قصر شرحبيل .

ولكن عباداً ، غلام الملك ، كان وراءهم ، يمشي كلما مشوا ، ويقف كلمـا وقفوا ، حتى انتهوا الى فناء القصر !

أجل، ان غلام الملك ، انما وجد في البلاط لغاية واحدة ، هي قراءة الاسرار، واقتفاء الآثار .

على ان دهاء وتار ذمر وذي القرنين لم يحجبا دهاء امير ظفار ، ان عينه كانت عين ذئب لا تنام ، وعزيمته عزيمة ثابتة جبارة يغذيها حب الانتقام .

واللؤم والمكر من طبع ناشر ، والحيلة سلاح له فلا يستطيع غلام الملك مهما يكن داهية ان يهزأ به .

لقد رآه يترك البلاط بعد خروج ولي العهد منه وكان قد بدأ مهمته التي هي معالجة الملك والسهر على راحته .. ففعل كما فعل ، اي انه ترك البلاط مثله ومشى وراءه بلباس الغلمان عندما كان يمشي هو وراء الآخرين .

ولما تغلغل الامراء الثلاثة في فناء قصر شرحبيل ، رجع قبل ان يرجع، وخلع الثوب الذي تنكر به ، وسبقه الى غرفة الملك ، لينقل اليه حكاية تلك الزيارة قبل ان ينقلها ذلك الغلام ، فيحفظ بهذا تلك الثقة الغالية التي وضعها به مولاه .

وهي فكرة غريبة وجريئة ، لا تخطر الا لامثال امير ظفار .

فقال له الملك : ماذا فعل ولي العهد عندما بلغه امر ابيه بشأن الحرب ؟

ـ وماذا يفعل يا مولاي ؟ امر بالرسالة فكتبت لسامور ، ثم اقفل يحادث قواده وينظر معهم في شؤون الجيش .

ـ ولكني لم اره بعد ذلك ، فاين هو الآن ؟

ـ جئت يا مولاي لاقول لك اين هو . لقد غادر البلاط منذ ساعة الى احياء مأرب ثم الى قصر شرحبيل بن عمرو .

فكاد صدر الملك يتمزق من سعاله وغيظه ! ان ولي عهده لا يذهب الى قصر شرحبيل الا ليرى بلقيس ! ! وهي المرة الاولى التي يزور فيها هذا القصر .

ثم قال: وهل ذهب وحده ؟

ـ لا يا مولاي بل رافقه عتيك وذو تبع .

فجعل يهز رأسه ويقول : ولي العهد يزور عدو العرش بدون اذن الملك ؟! ـ ان بلقيس اذن ستصبح ملكة ... هذا .. اذا بقيت ! .

ـ مع اني عرفت يا مولاي انه سيجعلها من حظاياه ولو قتل شرحبيل ،

ـ اما انا فلا اصدق كلمة واحدة مما تقول، لقد تعلم عمرو الدهاء وهو يجرب دهاءه بابيه وبك انت امين سره .. واقسم بتربة حمير انه كاذب .. لا لا .. ان الملك لايرضى بهذا وسأحطم العرش بيدي اذا انا عجزت عن تحطيم عز شرحبيل ، ايه يا عمرو لقد خدعت الامراء جميعهم ولكنك لست قادراً على ان تخدع اباك الذي يعرف الرجال اكثر مما تعرفهم انت .. لك ان تزور بلقيس عندما تشاء ، ولك ان تضع يدك بيد شرحبيل وتعاهده على الوفاء . ولكن لا تنس انك تعاهد فتاة ورجلا يفاجئهما الموت بعد حين .

واستوى جالساً وهو يهم بالنهوض من فراشه والذهاب الى قاعة العرش ليعود ملكا كما كان . ولكن السل القاهر كان يقيد رجليه بقيود من الحديد لا تستطيع ان تجرها قواه .

اما ناشر فقد استلذ مظهر الملك وبدأ يهضم فريسته ولم يشأ الا ان يستغل الموقف من جميع نواحيه ، فقال وهو يتظاهر بالاكتئاب : لا تغضب يا مولاي فولي العهد لا يتزوج بلقيس وانا حي!

فتنهد قائلا : لقد اقسم شرحبيل في هذا النهار انه لا يزوجه ومع ذلك فقلبي

يحدثني بان هنالك شراً وباني لا اغمض عيني حتى يستولي ابن عمي على عرش آبائي ويطمس الزمان ملك ذي القرنين وذكره الى الابد .

قال : الا يجوز ان تكون حرب الحبشة هي التي دعت ولي العهد والاميرين الى زيارة ابن عمك ؟

واي رأي لشرحبيل في هذه الحرب وهو باق في مأرب لا ينقل اليها قدما . اني واثق بك يا ناشر فلا تغفل عن عمرو وانقل غداً امر الملك الى قواد الجيش بان يعدوا عدتهم ويتهيأوا للرحيل .

ـ سأفعل يا مولاي .

ـ ولا تنس ان تقول لولي العهد ان الجيش اليمني يجب ان يكون على ذلك الشاطىء قبل ان يصل اليه الحبشان .

ـ نعم يا مولاي .

واستأذن في تلك اللحظة غلام الملك ودخل .

ففاجأه مولاه قائلا : اين كنت يا غلام ؟

فرأى المسكين الغضب في عيني الملك فتردد قليلا ثم اجاب بصوت ضعيف قائلا : لم اترك البلاط يا مولاي .

فنهض امير ظفار عندئذ وطلب ان ينصرف ، فقال له الملك : أتعرف من هذا ؟

ـ اعرف انه من غلمان الكاهن الاعظم .

ـ اما اليوم فقد اصبح من غلمان البلاط .. اذهب يا ناشر واحذر ان تنسى ما اوصيتك به ..

فانصرف وهو يهزأ في سره بالملك وغلامه .

ثم قام عباد فقال : بل كنت خارج البلاط ولم ارد ان ذكر لـك شيئاً امام ناشر ا .

ـ آمرك بان تثق به كما تثق بي فهو يحب الملك ويفديه بروحه . . قـل اين كنت في هذا الليل ؟

ــ لقد خرج ولي العهد من القصر فلحقت به ...

ــ ثم رأيته يدخل قصر شرحبيل بن عمرو ، أليس كذلك ؟

ــ نعم يا مولاي .. ولكن من ذكر لك هذا ؟

ــ الامير الذي اردت ان تكتمه سرك

ــ وهل قص عليك حديث ولي العهد مع رفيقه ؟

ــ وما هو حديثه ؟

ــ كان يظهر للاميرين رغبته في رؤية بلقيس ويذكر لهما غرامه ..

ــ وانت تسمع ايها اللعين ؟

ــ كنت اسمع كل شيء يا مولاي .

قال : احذر يا عباد فالملك لا يطيق ان تكذب .

ــ وانا اقسم لك اني لا اعرف ما هو الكذب .

ــ حسناً ، فانصرف الآن على ان تعود الي عندما يرجع الامراء الذين ذكرت

ــ ولكن امرتني يا مولاي بان اثق بامير ظفار فهل افعل ؟

ــ احل ، ولا تكتمه كلمة مما تسمع .. ثم وضع يده على جبينه قائلا : لا تقل له شيئاً الا اذا امرتك .

فانحنى الغلام وخرج ، اما الملك فاستلقى عـــلى فراشه لا ليغمض جفنيه ، بل ليفكر في ولي عهده وفي هذا الداء الذي قيد يديه ورجليه .

***

٤١

كانت بلقيس قد تهيأت للقاء الحبيب ..

وقد سألت اباها ان يستقبل ولي العهد كما يستقبل الملك اذا خطر له ان يزوره.

فلما اقبل القوم عـــلى الفناء جثا العبيد والغلمان على ركبهم بامر شرحبيل ،

وصافحه الامير وولده الدماد بالاحترام والاجلال .

اما بلقيس فلم تظهر في الدهليز كما كان يظن ذو تبع بل وقفت في قاعة القبة كالملكة تنتظر ملكاً .

ونور وجهها يشبه تلك الانوار المتلألئة في كل رواق من اروقة القصر .

وكانت تنظر الى الباب لتتبين ولي العهد الذي يخدع اباه ويبذل ملكه كله في سبيل الفتاة الحسناء التي لم ير لها وجهاً .

والقلب يخفق غراماً ويكاد يذوب حباً .

ان حبيبها الهمداني مع ولي العهد فليس عجباً ان يضطرب، ذلك القلب العاشق الفياض بالعاطفة

وكان عمرو يتلفت عن جانبيه وهو في الدهليز عله يبصر بلقيس في زاوية من زواياه وامير همدان يرسل اليه سهاماً من عينيه ويحس بالنار ، نار الغيرة القاتلة تضطرم في داخله وتحرق احشاءه .

حتى بلغ القوم القاعة فرأوا فتاة هيفاء تغمر ثغرها الابتسامة العذبة ، وتنشر عيناها شعاعاً من الهيبة والوقار والجمال تمد يدها الى ولي العهد ، وتنحني له بعظمة الملكات .

ثم تصافح الاميرين الآخرين وتدعو الجميع الى الجلوس كأنها ربة القصر العظيم الذي يشبه قصر ذي القرنين ، وكأن أباها ابن عم الملك واخاها وارث امجاده ، لا وجود لها

ثم رأوا ولي العهد الرافل بثوب المجد والعز، المتمرغ في احضان النعمة والجاه ، رأوه وهو اعظم الامراء شرفاً وابعدهم نفوذاً ، يقف امام بلقيس الفتانة كما يقف اليمني في هيكل آلهته وقد بهر جمالها عينيه . .

وقد نسي مقامه ، بل نسي نفسه . . فجعل ينظر اليها نظرة العاشق المفتون الذي يملاء الحب قلبه والاعجاب نفسه .

ولكن بلقيس لم تشأ ان تستسلم الى احساسها الكاذب ، اكثر من لحظـــة ، فحولت نظرها عنه لتحي بعينيها الصافيتين ذلك الحبيب النبيل تحية الاخلاص

الصادق والوفاء الدائم .

ثم جلست بالقرب من امير نحلة وقالت لعمرو :

كيف هو مولانا الملك في هذا الليل ؟

فقال وهو لا يعلم ماذا يقول : لقد نهكه الداء واستولى عليه الهزال والضعف .

قالت ان اليمن كلها تدعو له بالشفاء .

ــ ولكنه لم ير بلقيس .. وهو لو رآها لرجعت اليه العافية .

فامست لهجتها لهجة عتب ولوم وهي تقول :

يخيل الي انه يؤثر الموت على ان يرى هذا الوجه .

فصبغ دم الخجل خديه ثم قال : انقل اليك شرحبيل بن عمنا حديث الملك؟

ــ اجل ولم يكتمني كلمة منه يا ابن العم .

ــ ولكنه حديث املاه عليه ضيق صدره ..

ــ بل هو حديث املاه بغضه وايثاره نفسه على ولي عهده !

قال : وما الذي تعلمه الاميرة عن هذا البغض ؟

ــ اعلم انه يرغب في ان اكون من حظاياه !

ــ وانا اعلم انك ستصيرين زوجة لولي عهده الذي سيجلس على عرش حمير!

ــ غير ان الملك لا يرضى وليس على ولي العهد الان يختار له فتاة من بنات الملوك ترضي أباه .

فاسودت الدنيا في عينيه وتمتم قائلا :

يختار الملك لنفسه من يشاء ويختار ولي العهد من يشاء .

قالت: لوكان لك يا ابن العم هذا الحق لما مد الملك اصبعه في امر زواجك، ولما اهان ابن عمه اليوم تلك الاهانة التي لا يزال اثرها في صدر العربي الشريف . اي ذنب جنته بلقيس حتى استحقت غضب الملك ؟ بلى ، انها ارادت ان تصون عرضها وتحفظ شرفها وشرف قومها فلم يطق الملك ان يرى ابنة عمه عالية الجبين شريفة النفس ولم يستطع الا ان يجاهر اباها بالعداوة بقوله : اقسم لي ان بلقيس لا تزف الى ولي العهد .. اتعرف ما معنى هذا يا ابن العم ؟ معناه ان اباك يخشى

ان يموت وتصبح بلقيس سيدة بلاطه .. ألا فلتطب نفس الملك ولتقر عينه فانا لا انتهك له حرمة ولا اخالف له امراً وهذا ولده سيـــد اليمن والنساء جميعهن بين يديه فليفعل ما يطيب له وليجعل زوجته اخت سابور الفارسي او بنت ملك الروم ...

ثم خفضت صوتها قائلة :

لقد بحت الآن بما كنت عولت على ان لا ابوح به لاحد ، ولكني اردت ان تحسن ظنك بي وتقول في نفسك يوم ينتهي اليك امر الملك: لقد كـــانت لبلقيس كرامة احسنت الدفاع عنها ، وعز عرفت كيف ترفعه عن مواقف الذل ..نعم، اقول هذا امام هذين الاميرين اللذين لا اعرفهما وأنا ارجو ان يكون لي عذر في دفاعي عن نفسي فبنت شرحبيل اذا كانت ادنى مقاماً من الملك فهي تساويـــه بالنسب ، وحمير جدي كما هو جده .

قال : ان الملك لم يقل شيئاً مما تذكرين .

قالت : لنفترض انه قال لك كل هذا فانت لا تذكره .. ومع ذلك فـــاي شأن لي مع الملك اذا اراد ان يبعدني عن بلاطه ؟

ــ ولكنه لا يستطيع ان يفعل ما تقولين .

ــ بل يفعل كل شيء فليس في اليمن ملك سواه .

كما انه ليس في اليمن ولي عهد آخر يفعل ما يشاء ولا يبالي .. قلت هـــذه الكلمة منذ لحظة واعيدها الآن .

قالت : انها كلمة يقولها الملك وحده ..

ــ ويقولها ولده الذي يخاطب بلقيس وسترين اني لا ارجع عمـــا قلت ولو استعان الملك علي بجنوده .

فابتسمت ابتسامة فيها شيء من الاستهزاء وسكتت ، وهي تنظر الى الاميرين نظرة حذر وخجل .

قال . الا تصدقين ما اقول ؟

ــ بلى ولكني لا اريد ان ينتهي بك الامر الى هذا الحد . اتظن انه ليس في

العرب فتاة تشبه بلقيس حتى تشهر السيف من اجلها في وجـه ابيك ويحرمك حقك بالعرش ؟

فبرقت عيناه قائلا :

اما اني لا اجد مثلها فلا . . واما ان الملك يحرمني حقي فهذا لن يكون والا فترية حمير لأملأن مأرب جيوشا وآخذ هذا الحق على رؤوس الحراب !

واطل غرامه من عينيه ، وراح ذلك المستهتر يشرح هواه كأن بلقيس وحدها في تلك القاعة وليس للقوم وجود .

وكان يقول :

مري ولي العهد بما تشائين فالعالم كله لا يستطيع ان يبعده عنك بعد الآن ، وان يغير كلمة مما سيقوله .

اسمعي ما اقول ، هذا ابوك حاضر وهؤلاء الامراء يسمعون . اني اسأل ابن عمنا شرحبيل ان يعدني وعد شريف بان يزفك الي بعد رجوعي من مهرا ، وانا اعد بشرف آل حمير اني اتخلى عن كل شيء لي اذا قضت الحاجـة بذلك ولا انكث لك عهداً

فارسلت عيناها شعاعا غريبا وهي تقول :

ولكني اسمع الناس يقولون ان الملوك ليس لهم عهد فهم يعدون عندما تطيب لهم الوعود ثم ينسون وعودهم عندما يبلغون الغاية وتقضى الحاجة .

قال : ليس لولي العهد غاية الا ان تمسي ربة القصر كما قلت .

فعرفت الاميرة مقامها . فابتسمت ثم جعلت تنظر الى القوم وهي تتردد في الجواب وفي ذلك التردد شيء من الدلال .

وكان هنالك قلبان تضطرم فيهما نار الحب ، قلب ولي للعهد العاشق الولهان وقلب ذي تبع الذي تنهشه الغيرة القاتلة .

وقد ذعر عمرو لذلك التردد الذي رآه ، فالتفت الى شرحبيل قائلا : كلمتك ايها الامير !

قال : اما انا فقد وعدت وانتهى الامر !

ـ ولكن الاميرة لم تعد كما رأيت !

فخافت بلقيس ان تجود بذلك الوعد الغالي فيخرج امير همدان عن حده فيفضحها ويفضح نفسه ، فقالت :

لا تتعجل في امرك يا ابن العم فبلقيس باقية في مأرب وانت قادر على استعطاف الملك حتى يرضى !

فحملته اجنحة الحب الى سماء العظمة والعز وجعل يقول : ان لم يرض الملك اليوم رضى غداً فالزواج لا بد منه وهو اعجز عن ان يحول بيني وبينه .

فقالت في نفسها : لقد اتت الساعة ...

وتفرست في ذي تبع قائلة : من هو هذا الفتى ؟

فاجابها قائلا : امير من اعظم امراء اليمن يا بلقيس انه صاحب همدان وهو من اصدق الناس في خدمة ولي العهد . اليس كذلك يا ذا تبع ؟؟

ـ بلى يا مولاي فانت مليكي ودمي ودماء قومي تبذلها عندما تشاء ...

فابتسم ابتسامة الرضى واومأ الى عتيك قائلا :

وهذا عتيك بن روضه امير نخله الذي يجود في كل ما يملك في سبيل مولاه !

ـ أيذهبان مع ولى العهد الى الحرب ؟

ـ ايذهب ذوتبع ويبقى عتيك الذي يطيب له ان يقص على الملك الحكايات

قالت : اخشى ان يقل حولك الانصار في مهرا فتظفر الحبشة .

وتظاهرت بالخوف .

فقال : اطبق شفتي في الحرب على اسم بلقيس ثم اخوض المجال وحدي واعود ظافراً ...

ـ ولكن هذا لا يكفي يا ابن العم .

ـ بل يكفي ، فعدي بانك ستكونين لي وانا اعبر البحر واغزو الحبشة ولا ابالي ...

فاطرقت قليلا ثم قالت : اخاف ان يدفعني هذا الوعد الى ما اكره .

ـ ماذا ؟

ـ بل اخاف ان ينتهي بي وعدي الى الموت .

ـ وكيف ذلك يا بلقيس ؟

فاجابته بهدوء : ستسأل اباك غدا ان يأذن في الزواج فيأبى فتصبح بين امرين اهونهما ان تترك بلقيس الى الابد .

قال : اهون علي الخروج عن طاعة الملك !

قالت : لا تهزأ بي .

قال : اقسم لك اني سأفعل اذا قضت الحاجة .

قالت : لا تنس ان الملك يستعين على اموره بالسيف ولا يعبأ بولي عهده اذا هو لم يسمع له !

ـ انه لم يعد قادراً على الالتجاء الى ما تقولين .

ثم بالغ في زهوه وقال : وولي العهد الذي ترينه الآن هو الملك !

فانحنت قائلة : اذن اسألك يا مولاي الملك ان تفكر فيما تقول قبل ان تعد به ...

ـ لقد فكرت في ذلك قبل ان اجيء ولست براجع الى البلاط الا اذا وعدت ...

فقالت لابيها : الا تخاف ان يغضب الملك يا مولاي ؟

ـ بلى ، ولكني لا استطيع الا ان اطيع ولي العهد .

فخرجت عندئذ من فمها تلك الكلمة العذبة التي ينتظراها الفتى المغرور قائلة له :

انا لك ...

واحس امير همدان ان سهما يخترق قلبه .

اما عتبك فقد بدت ابتسامة الظفر على شفتيه .

• • •

كان الملك يسعى الى تحطيم آمال شرحبيل بالعرش ، والداء الذي لا يلين يمشي بخطى واسعة هوجاء ويدفعه بيديه الحديديتين الى الموت .

أجل ، لقد كانت تلك الليلة ليلة ألم تغلغل فيها اليأس الى صدر الملك واستولت عليه ثورة الخيبة التي هي ثورة الجنون .

ايكون ملك حمير ، وهو عاجز عن انقاذ عرشه واضعف من ان يرد ولي العهد الى هداه ؟ وهل يقضي الفاتح الجبار لياليه بين جواريه يستند اليهن في قعوده ونومه يستعين بهن على رفع رأسه ؟

نعم ، تلك هي حال ذي القرنين .. وقد اشتد الداء في ذلك الليل وجار ، وخرجت دماؤه من صدره فيها قطع روحه ، حتى تلاشت قواه ونسي بلقيس وشرحبيل وولده وعرشه .

لقد عاد غلامه عباد ينقل اليه خبر رجوع ولي العهد ومن معه الى البلاط . فلم يشأ ان يفتح عينيه ، بل لم يستطع ان يعالج ألمه بشيء من الصبر .

كان يري شبح الموت وعيناه مغمضتان ، ويضع يديه على صدره ليسكت ثورة النار المضطرمة في داخله .

فرجع عباد الى الحجرة التي اعدت له ، على امل ان يخبره في الصباح ، ما لم يخبره اباه ، في ذلك الليل !

وكان ناشر قد قص على ولي العهد كل شيء فهم بان يدعو عبادا ويضرب عنقه في تلك الساعة ثم يأمر عبيده بان يحملوا جثته الى وتار ذمر !

ولكنهم منعوه ، واستطاع عتيك ان يقنعه بان الحكمة تقضي عليه بالاستسلام الى الصبر والهدوء ، والظهور بمظهر الجاهل الذي لا يعلم شيئا مما يحدث في البلاط .

كما انه وعده بانه سيحبط مساعي عباد ويضيع دهاءه ودهاء سيده الكاهن الاعظم .

ثم جعل الجميع يتهامسون ، وانتهى ذلك التهامس ، الى ان يزور عمرو اباه في تلك الساعة ويقص عليه خبر ذهابه الى قصر شرحبيل ، ثم يصف له تلك الغاية

التي دفعته الى الذهاب .

ومشى ولي العهد مترددا، وهو يرى غضب الملك ماثلا امام عينيه .

وكان الصمت الرهيب يسود حجرة المسلول ، حتى خيل الى الفتى ان الملك وجواريه يغطون في النوم .

فدخل وهو يحبس انفاسه ، فرأى الجواري حول الفراش ، ورأى اصفرار الموت يغمر وجه المريض الضعيف ، الذي انهكته الآلام .

فقال وهو لا يخفض صوته : لقد نام الملك وسأراه عند الصباح .

ففتح ذو القرنين عينيه لصوت وحيده وتمتم قائلا :

لقد جفاني النوم يا بني ولم يطبق الملك جفنيه الا على ألمه .

ومد يديه الى الجواري يستعين بهن على الجلوس .

فقال : صبراً يا مولاي فسيزول هذا الالم بعد حين .

ــ بل قل ان ساعة الملك قد دنت وان الموت يزحف اليه وسينشب مخالبه . اين كنت الآن يا عمرو ؟

ــ كنت في قصر شرحبيل يا مولاي !

فظهرت تلك الابتسامة الصفراء وجعل يقول :

نعم ، خير لولي العهد ان يسامر شرحبيل بن عمرو من ان يسامر اباه ! وماذا رأيت في قصره ؟

ــ رأيت فتاة ساحرة العينين فتانة المحاسن .

ــ اذن رأيتها كما وصفت لك ؟

ــ بل كان الوصف اضعف من ان يبلغ الغاية .

ــ وقد عولت على الزواج يا بني ، أليس كذلك ؟

ــ لا يا مولاي بل عولت على قهر شرحبيل بجعل بلقيس حظية للملك ولولي عهده من بعده .

فتنهد الداهية قائلا : ولكن شرحبيل سيقهر الملك وولي عهده بجعل بلقيس ملكة .

فقهقه الفتى ضاحكاً كأن اباه في مجلس شرابه وقال : سترى يـا مولاتي اي رجل هوَ ولي عهدك !

قال : ألا تحدثني يا عمرو بكل ما جرى لك ؟

ــ بلى ، لقد سألت ابن عمنا ان يفي بوعده ويأذن في الزواج .

ــ وكان ذلك الوفاء ، وانتهى الامر !

ــ ولكنه تردد كثيراً في جوابه وكان خائفاً !

ــ لماذا ؟

ــ لانه غير واثق بان ولي العهد سيتزوج بلقيس .

فبرقت عيناه قائلا : لا تكتم اباك ما فعلت يا عمرو فالامر اعظم مما تظن .

قال : لو اردت الكتمان لما أتيت في مثل هذه الساعة انقل اليك خبر ذهـابي وما حدث لي .

ــ وبعد ذلك ؟

ــ اقسمت لشرحبيل اني سأجعل ابنته زوجة لي فاستسلم اخيراً ورضي بما طلبت .

ولكن جاء عندئذ دور بلقيس فترددت ما طاب لهـا التردد ثم رأيت اخيراً ان ترددها كان دلالا !

ــ ومتى تصبح حظية لك ؟

ــ عندما تنتهي الحرب بيننا وبين الحبشان .

فقال في نفسه : اخدع اباك يا عمرو ما شئت ولكن لا تنس انك اضعف منه في ميادين الخداع .

ثم قال له : لقد احسنت يا بني فاذا مات ابوك مات قرير العين بولده الذي يصلح لعرش حمير .

فقام ولي العهد يستأذن في الخروج .

فاستوقفه قائلا : ألم تنظر بعد في امر الجيش ؟

ــ سافعل غداً كلما تشاء وسيكون الجيش اليمني عند حسن ظن الملك به.

قال : أرى ان ترسل الرسل الى الاقاليم في هذا الليل وليكن عددالجيش اكثر من عشرين ألفاً .

ـ سنجعله ثلاثين الفاً يا مولاي .

ـ وليدع صاحب همدان قومه جميعهم ليحملوا السيف ولا تنس هذا ..

ـ نعم يا مولاي !

ـ واذا رأيت ان تضم الى جيشك جيش ذي مغار والغوث بن راهط وجبار ابن دوير فافعل ..

ـ ولكنهم اعداء الملك يا مولاي !

ـ والملك يريد ان يرسل اعداءه الى الميادين .

قال : اخشى ان تستيقظ العداوة في صدورهم ونحن في ساحه الحرب .

فسكت الملك لحظة ثم قال : اي انك تخاف ان يخونوا اليمن وينضموا الى جيش العلي اسكندي ؟

ـ اجل ومن يعلم فقد يخطر لهم ان يفعلوا ذلك فنخسر الشرف وتهزأ بنا العرب .

فقال : اذن دعهم في مخاليفهم فلا حاجة لك الى احد منهم الآن !

ومد يديه من جديد الى الجواري فساعدنه في الاستلقاء وكان ذلك امراً لولي العهد بالانصراف الى حيث يشاء كأنه لا يطيق النظر الى ذلك الولد الخائن الذي يماشي اعداءه ! ..

وعندما أغمض عينيه ، اغمضهما على فكرة هائلة كانت تجـول في صدره المختنق ...

* * *

في مساء اليوم الثاني أقبل الغوث بن راهط على قصر شرحبيل ومعه عبدان له يقودان فرسيه .

وقد مر بذي مغار ــ وهو في مخلافــه ــ قبل قدومه ، وتعاهد الاثنان على المجيء الى مأرب ، الواحد وراء الآخر ، كي لا يلفتا اليهما العيون .

وكان شرحبيل يعرف مقام الغوث في بلاد قومه ، كما كان يعرف منزلته واباء نفسه ، وعظمة امارته .

فلما خبروه بوصوله ، عجب لهذه المفاجأة . ثم ايقن بانه ثائر ، وان قتل جرول واخيه أخرجه عن حده وهيج عشيرة بني سعد .

ومتى ثارت بر قش ثارت بينون ، وامتدت النار الى المخاليف التي تجــاور الامارتين ، وهذا ما يرغب فيه شرحبيل ورجال المؤامرة الذين عرفت .

ولم يكن بين الاميرين عهود ولاء ووفاء ، بل كان هنالك تعارف ، يضمر كلاهما معه للآخر ، شيئاً من الاعجاب والاحترام !

وشرحبيل ، في نظر الغوث ، اعظم امراء اليمن وابعدهم نفوذاً ، لانه من سلالة حمير ، وهو ابن عم ذي القرنين .

دخل امير براقش ، فهش له شرحبيل وابتسم وتقدمه الى قاعــة الجلوس ودلائل البشر تبدو على جبينه الوضاح .

ثم اقبلت بلقيس والهدهاد وتم التعارف بين الثلاثة .

ولكنهم لم يبدأوا حديثهم حتى دخل ذو مغار ، فقال له شرحبيل : يخيل الي ان بينك وبين الغوث عهداً على المجيء في هذا الليل .

ــ نعم وهنالك امر لم نستطع الا ان نشاورك فيه .

فنظر الى الغوث كأنه يسأله عن ذلك الامر فقال :

الا تعلم ايها الامير كيف استخف الملك بي وبقومي ؟

فأجابه قائلا : بلى ولكنها ساعة جنون ، وللملك ساعات يستخف فيها بجميع الناس .. أتعني قتل جرول ؟

ــ أجل ، وهؤلاء قومه بنو سعد لا يريدون الا ان يلجأوا الى السيف ليغسلوا عارهم !

قال : لا تتعجل ايها الامير فالملك لا يعبأ بالسيوف عندما يشفى ...

ـ ونحن لا نطيق ان نسكت على ذل ..

ـ خير لك ان تصبر من ان تغوص براقش في لجة الفناء !

وكان ذو مغار ساكتاً والابتسامة لا تفارق ثغره ؟

فقال الغوث : ولكن انصار براقش لا يسكتون وهم الامراء اصحاب المفاخر والجاه .

قال : اذكر هؤلاء الامراء يا ابن راهط .

قال : جبار بن دوير ..

قال : اراه يضن بدماء قومه فلا يبرز الى الساحة .

ـ لقد وعدني بذلك وهو ينسى ما وعد .

ـ وانا اقول انه لا يخوض المجال الا اذا رأى حوله نصف اليمن .

قال : كنت اظن ان الامير الاكبر سيغضب معي لكرامة بني سعد .

ـ وكيف اغضب لها وهي ليست لي ؟؟ أفلم يعلم الغوث بن راهط ان الملك استخف بي ، وانا ابن عمه قبل ان يستخف به ؟ فلماذا لم يغضب الغوث ويغضب بنو سعد معه لكرامة شرحبيل التي هي كرامة الامراء ؟؟ قل يا ابن راهط ..ماذا فعلت عندما اراد الملك ان يذلني ويعبث بشرفي ؟ احملت سيفك وتقدمت قومك الى مأرب لتدافع عن الكرامات ؟؟ ارفعت صوتك في براقش وملأت اليمن وعيداً وتهديداً ؟؟ ماذا فعلت ؟ لقد ضحكت في سرك وهزأت بشرحبيل الذي تسأله الآن ان يكون عوناً لك ؟

وكان الفرح يملأ قلب شرحبيل في تلك الساعة لظهور هذا الصبر الجديد الذي يساعده في امره .

وجعل يحدق الى الغوث ويحاول ان يقرأ ما في نفسه . فقال : لا اصدق ان ذا القرنين يحاول ان يذل ابن عمه ..

قال : اسأل ذا مغار ..

ـ بل اسألك انت ايها الامير وارجو ان تثق باني لا اعلم شيئاً مما ذكرت .

فقال ذو مغار : صدق الغوث فهو لا يعلم شيئاً كما قال .

فاوما شرحبيل الى بلقيس قائـلا : اترى هذه الفتـاة ؟ ان الملك ارادها حظية له !

ـ ألم يكتف بمن في قصره من نساء ؟

ـ لا بل كان يطمع في بلقيس ليذل اباها ويخفض رأسه !

فنهض قائلا : اقسم للامير ان براقش ومن فيها من عشائر ملك له ؟

ـ واذا ندبت هذه العشائر الى حمل السيف الآن ؟

ـ لا يمر شهر حتى ترى سيوفها تلمع في مأرب .

ـ ويفعل مثالك جبار بن دوير ؟

ـ نعم فقد تهيأ للامر وسيقود جنوده عندما تصل اليه كلمة الامير .

ـ اذن فانتم تلجون في طلب الحرب .

ـ اجل ولا نرضى بالخروج عن طاعة الملك . بل نرغب في قتله وقتل ولي عهده وجعل العرش لامير حميري تحترمه اليمن هو انت !

قال : ان الساعة التي تفكر فيها لم تأت بعد .

فقالت بلقيس : ولكنها آتية فليكن الامير على حذر وليتهيأ لها .

ثم قالت : ستنشب الحرب بين اليمن والحبشة بعد شهر عـلى الاكثر فهل تعرف هذا ؟

ـ عرفت ذلك في هذه الليلة وأنا في مأرب .

ـ وقد يخطر للملك ان يدعوك ويدعو جباراً الى اخمـاد نارها فماذا تصنع اذا فعل ؟

ـ اترك اليمن الى نجد او الحجاز ولا اعود الا بعد ان يرحل الجيش الى مهرا وتتلاحم السيوف .. ولكن الملك لا يفعلها ولا يخطر له ان يندبني الى حرب .

ـ وهل تعد الآن بان تطيع ابي في كل امر يأمرك به ؟

ـ لقد اقسمت ان براقش له ولست براجع .

ـ ويطيب لك ان يتربع ابي في العرش اليس كذلك ؟

ـــ نعم ولا يصفو لي عيش حتى يغطي التاج رأسه .

ـــ اذن فاعلم ان ملك ذي القرنين سيزول ، وان التاج الذي ذكرت سينتقل من رأسه الى رأس شرحبيل .

وجعلوا يتحادثون ويستعرضون القوى ، فرأوا كما قالت بلقيس ان ملك ذي القرنين سيزول .

ولم يخطر لاحدهم ان الاقدار ستغير ذلك المهناج الذي وضعوه .

* * *

٤٢

كانت صفوف الجيش تزدحم في مأرب ، وولي العهد يزور كل ليلة قصر شرحبيل فلا يرى غير مظاهر الحب ولا يسمع غير كلمات التكريم والاعجاب .

اما ذو تبع فقد استطاع ان يختلس في احدى الليالي بضع ساعات ، ويشكو الى حبيبته غيرته وهواه ، ويصغي من جديد الى تلك النصائح التي تعلله بالآمال والمنى .

وبعد بضعة ايام غادر الجيش مأرب ولم يبق في البلاط من الامراء غير ناشر وعتيك ومن انصار الملك غير ذلك الغلام عباد ، يسنده ويغذيه من وراء الستار ، مولاه وتار ذمر الكاهن الاعظم .

وكان الملك في ذلك الحين مشلول الاعضاء غير ان روحه الخبيثة لا تعرف الهدوء ، وحقده الغريب على شرحبيل لا يقف عند حد .

اجل ، كان يحاول وهو على فراش الموت ان يرسل هذا الموت الى الآخرين محمولا على رؤوس الخناجر الحادة .

كان همه ان ينجو من شرحبيل وبلقيس قبل ان يعود ولي عهده من ساحة القتال .

وكيف ينجو من الاثنين اذا لم يعمد الى الخنجر ؟ بل كيف ينقذ تاجه من

يد عدوه وعدوه حي ؟

ان ابن عمه طامع في العرش فيجب ان يموت !

وذو القرنين لا يثق باحد كما علمت ، وثوقه بناشر ، فدعاه اليه بعد سفر الجيش وباح له بتلك الفكرة الهائلة التي يستطيع ان يبلغ بها غايته وهي فكرة القتل !

فلم يعجب امير ظفار لتلك الفكرة ، ولم يبد على وجهه شيء من الاستغراب. ان القتل آخر ما يلجأ اليه ذو القرنين في جميع القضايا الصعبة التي تعرض له .

وليس اهون عليه من ارسال بضعة رجال يكمنون لعدوه ، ويخطفون روحه. وقد يرسل هؤلاء الرجال الى منزل ذلك العدو نفسه .. او يعمد الى قتله في ظلام الليل وهو في احد اروقة البلاط !

وكان الدهاء يملي على ناشر ان يجاريه فقال :

وفي اي موضع يريد الملك ان يقتل ابن عمه ؟

فقال وصوته الضعيف يتردد في صدره : ادعوه بعد بضع ليال الى البلاط لاباحثه بشأن الحرب ، ثم ارسل عبادا ومعه بعض الغلمان فيقضون على بلقيس وهي مستسلمة الى الكرى ويبقى شرحبيل في احد سراديب البلاط الى الابد ...

ولكن كيف يقتحم غلمانه قصر شرحبيل يا مولاي ؟

يدخلونه باسم شرحبيل نفسه بحيلة يمليها الملك ، وتفتح لهم نعمى الابواب التي تؤدي الى حجرة الفتاة !

ــ ومن تختار من الغلمان ؟

ــ يختارهم كاهن مأرب ثم تختفي آثارهم بعد ما ينتهي الامر .

ــ وعباد معهم ؟

ــ اجل ، فلم يبق من عمر عباد غير بضعة ايام .

ــ اي ان مولاي يستعين على اخفاء القتل بالقتل .

ــ نعم وستعلم كل شيء في الليلة القادمة بعد ان يجيء وتار ذمر واستشيره في ذلك .

ـ بقي علي ان اقول لمولاي كلمة .
ـ قل .
ـ من يقتل شرحبيل وهو في بلاطك ؟
ـ انت وعتيك ويتولى الغلمان امر دفنه في احد السراديب .
فضحك قائلا : لقد دنت ساعة هذا الامير المتآمر على العرش .
وكان يقول في نفسه : مسكين انت يا مولاي تحفر القبور للآخرين وقبرك فاتح لك ذراعيه ..
وظهرت علائم الفرح على وجهه ..
فقابل الملك فرحه بابتسامة اشترك فيها الالم ثم جعل يقول :
اما الملك فسيموت ولكن بعد ان يموت جميع اعدائه .
وأمره بالذهاب قائلا : اكتم الناس ما سمعت وسأدعوك عند الحاجة اليك .
وقال للجارية التي تقوم عند رأسه : لا تفتحي الباب لاحد الا بأذن الملك .
واخذت شفتاه تهمسان في اذن الفضاء الفاظ اللعنة والحقد ، ولو ظهرت تلك الالفاظ ، لظهرت عليها دماء كبده .
وبعد لحظة كان رجلان يتحدثان .. ويتآمران .. هما امير نحلة وامير ظفار .
وقد تهيئا لطوارىء الزمان ...

* * *

٤٣

الجيش الحبشي بقيادة افرونيم وعلى جناحيه سامور ووهز . والجيش اليمني بقيادة ولي العهد وعلى جناحيه معدي كرب وعبد شمس .
اما ذو تبع فن اركان الحرب ، ولكنه لم يتول قيادة الصفوف بل كان رفيقاً

ومستشاراً لقائد الاكبر .

وكانت حرباً راقية بين الجيشين .. لا حيلة فيها ولا خداع .. الصفوف تبارز الصفوف في وضح النهار، والسيوف تتبين على نور الشمس ، طريقها الى الرؤوس والاجسام .

وكل قائد يستعين بايمانه وقوته وصبره ، عـلى ان يقهر الآخر ويغلبه في الصراع .

وليس في القضية لين ومزاح .. فاما ان يفنى جيش الحبشة وترقد رجاله في جوف البحر وعلى الرمال، واما ان يسقط الجيش اليمني في الميدان ، جثثاً مهشمة مصبوغة بالدماء .

وكثيراً ما تكون الحرب في اول عهدها سجالا ، يوم لك ويوم عليك . ولكنها عندما تمر الايام وتخور القوى ، ترجح كفة أحدهما عـلى كفة الآخر ويهوي الضعيف وتدوسه الاقدام .

هكذا كانت حال الجيشين في الايام الاولى ، يبدو الحظ للعرب فتخترق رماحها صدور الاعداء ، وتفصل سيوفها الرقاب عن الاجساد ، ثم يكفهر لها الجو ويسود الافق فتتراجع الى الوراء متضعضعة مذعورة من سيوف الحبشان .

وافرونيم وعمرو ، قائدان لا يهي لهما عزم ولا يخونهما الصبر ، ولولا تلك الخفة وذلك الغرور اللذان هـما صفتا ولي العهد ، لكان في جرأته وشجاعته واستخفافه بالموت اعظم قواد اليمن .

اجل ، كان ذلك الفتى المستهتر الطائش ، فارساً تنحني له رؤوس الفرسان ، وتصغر عند قوتـه رؤوس الابطال المجربين ، كان بطلا في هجومه ، وبطلا في دفاعه وعزيمته ، في تقدمه وتأخره ، عزيمة جبار لا يلوى له عود .

وكان ذوتبع يجاريه في المجال ، ولا تراه الا في مقدمة الصفوف يطعن الرجال حتى مرت تسعة ايام وضاقت الصدور .

وكانت الليالي كلها هدنة بين الفريقين تحمل فيها الجثث وتطرح بين الصخور . ففي مساء اليوم التاسع قال ولي العهد لقواده :

لقد ثبتت الحبشة وانا اخشى ان تضيع العرب رجاءها اذا طال الزمان .

فجعل كل واحد من القواد يبدي رأيه ، ولكنه لم يعبأ بكل ما سمع بل كان رأيه العدول عن تلك الهدنة والبقاء في الميدان في اليوم العاشر ، حتى يظفر جيشه او يستسلم الى القوة .

وذو تبع اول من وافقه في ذلك الرأي .

ثم اقبل مع قواده الى خيام الجنود ينفخ القوى في صدور الرجال ويدعوهم الى الاستبسال في اليوم الثاني .

الى ان طلع الصبح وهو يطوف بين الصفوف

وكان ذلك اليوم يوم رهبة ورعب ، لا تذكر معه الايام التسعة ، فقد دهم جناحاً الجيش العربي صفوف الحبشة ، واقتحمت رجالها تلك الرماح الطويلة تفرق اصحابها بحد السيف وتبعث الذعر الى القلوب ..

هجوم عنيف غريب زعزع الاركان المتلاحمة واضطرب له الحبشان ..

انه صواعق تنقض على الرؤوس وتيار لا يرد ..

وقد ارتفعت اصوات افرونيم واركان حربه تستنهض الهمم وتعيد الآمال .

وقلب الجيش اليمني الذي يقوده ولي العهد لا يتحرك ولا ينقل قدماً الى الساحة .

كأن تلك الحرب لا يد له فيها ولا تعنيه .

حتى تغير النظام واشتركت صفوف الحبشة في رد التيار الصخاب ، وضاعت أصوات القواد في الفضاء .

والساعات تمر .. وجناحا العرب كالجبل الراسخ لا يرجعان الى الوراء ولا تفرقهما الرماح . وكلما حصدت السيوف صفاً تقدم الصف الذي يليه يطالب بدمه .

فلما رأى ولي العهد وذو تبع ذلك الاضطراب ، وذلك التغير والانقلاب ، تحرك القلب الذي يضم نخبة اليمنيين ، ووثبت الخيل وثبة واحـدة من الجانب الشمالي فغاصت مع فرسانها في تلك اللجة الرهيبة المتلاطمة الامواج ، وحجب

الغبار الفضاء من الجهات الاربع ، وملأت اصوات الاستغاثة والالم ذلك السهل الاحمر الذي تغطيه جثث المتحاربين .

وكانت ساعة تعب فيها ملاك الموت من خطف الارواح ..

ثم رفع ذلك الحجاب عن فلول الجيش الحبشي تمعن في الهرب ، وعن جثتي سامور وافرونيم تحت حوافر الخيل ، وعن ولي العهد الباسل ، مصاباً بجرح في كتفه اليسرى ومحمولا على ايدي رجاله

وقد جعلت السيوف والخيل جثث العرب والحبشان ، اشلاء تقشعر لهـــا الابدان !

ولم تغرب الشمس حتى لجأ الجيش العربي الى خيامه وقد خسر بضعة آلاف.

وفي ذلك الرواق الفخم الذي ضرب لعمرو بن ذي القرنين ، اجتمع قواد العرب ورؤساء الفرق ينظرون بشيء من القلق والخوف ، الى ذلك الجرح الكبير الذي احدثه في كتف ولي العهد ، سيف سامور الحبشي قبل ان يسقط ميتاً بضربة من سيف صاحب همدان .

أجل ! كان افرونيم وولي العهد قـــد تلاقيا في الميدان ، وكان القائد العربي اطول سيفاً من ذلك القائد الاسود الشجاع ، فهوى بطل الحبشة عند قدمي بطل اليمن ..

ولكن الظافر لم يبتسم لظفره ، حتى فاجأه سامور من الوراء بضربة اصابت كتفه ثم هم بأن يرسل اليه ضربة اخرى تصيب رأسه ، وكادت حياة ولي العهد تذهب كما ذهبت حياة افرونيم ، لو لم يعرض الهمداني لسامور ويبري عنقه .

اذن فعمرو بن ذي القرنين مدين بحياته لأمير همدان ، لعدوه بالامس ، وصاحب امره اليوم . ولولا اخلاص هذا العدو ووفاؤه ، لخسرت اليمن ولي عهدهـــا ، ومات ذو القرنين ولا وارث له ..

نعم قد يكون الفضل في ذلك الاخلاص لبلقيس التي اوصت حبيبها بـــه . ولكن الفتى الذي ينتصر على غرامه ، وتغلب وطنيته ذلك الغرام ، في مثل هذا الموقف الذي ينقذه من عدوه، هو الفتى الذي لا تغمط له نعمة ولا ينكر له فضل.

وولي العهد ، الذي لا يذكر معروفاً ولا يكافيء الجميل بالجميل ، لم يتردد ، وهو يتألم من جرحه ، في الوفاء الذي اظهره له ذو تبع .

وكان يقول لمن حوله : لولا هذا الهمداني لكان هذا السهل قبراً لولي عهد حمير ولمعظم الجيش الذي يقوده .

ووثق به منذ تلك الساعة كما يثق بالسماء ، وجعله اعظم المقربين شأناً وارفعهم مقاماً وبالغ في اظهار رضاه بقوله له على مسمع من اركان الحرب :

ساجعلك قائد جيش اليمن الاكبر عندما ينتهي الي امر الملك .

وذو تبع لا يعبأ بتلك الوعود ولا يبالي بذلك الرضى ، بل كان يفكر في بلقيس ويسأل الآلهة ان تجود على ولي العهد بالشفاء ليعود الجيش الى مأرب ، فيرى ذلك الوجه الذي منعته الحرب من ان ينظر اليه .

غير ان هنالك فتى آخر كان يفكر مثله هو ولي العهد ، وكان ذلك التفكير العذب يساعده في الشفاء .

كان واثقاً بانه سيتزوج بلقيس بعد رجوعه الى بلاط ابيه ، وذو تبع المسكين لا يعلم في اي يوم تأذن له بلقيس في الزواج .. بل في اللقاء ..

حب خفي لا يجسر على الاعتراف به الا لانصاره ، وارادة الفتاة التي احب، ارادة من الحديد لا تلين لعاطفة ولا تستسلم لغرام .

ومن يعلم كيف ينتهي الامر بينها وبين الملك ؟ انها ستستعين بالولد على الوالد كما قالت وقد تنشب الحرب بين الاثنين من اجل ذلك الزواج فيخضع الواحد منهما لقوة الآخر ، وتعمد هي الى القوي فتسحقه بفضل الرجال الذين حولها وتلبس التاج ، او يخونها الحظ فتسقط ويضمحل ذلك الحلم الذهبي ويتلاشى الامل .

واغرب من هذا كله ان ذا تبع سيحارب لحساب عدوه ولي العهد وهو لا يعرف اي جزاء تعده له الاقدار .

وكاد يتغلغل اليأس الى فؤاده ، لولا ذلك الامل الضعيف الذي يعلل نفسه به .

ومرت الايام وولي العهد لم يشف ، فقد قطع سيف سامور لحم كتفه وأثر في العظم .

وقواد الجيش والجنود لا يعلمون ماذا يحدث في مأرب حتى ان عمراً لم يخطر له ان يفكر في ابيه او يسأل عنه !

* * *

٤٤

قص عتيك على شرحبيل وابنته حكاية القتل الذي يتهيأ له كاهن مأرب العظيم وتارذمر وذو القرنين .

فضحكت بلقيس كما يضحك الواثق بنفسه ، والمستخف بقوة عدوه .

ولكنها ارادت بدورها ان تستعد للامر من جميع نواحيه ، دون ان يشعر ذو القرنين بان هنالك شيئاً من ذلك الاستعداد .

وكانت تعلم ان عتيكا صاحب تدبير ورأي فقالت له :

اي عذر تعتذر به للملك عن مجيئك الينا في هذا الليل ؟

ـ الملك لا يعلم اني خرجت من البلاط .

ولكنك تقول ان عين عباد لا تنام .

ـ وعباد نفسه لا يعلم فقد دعاه مولاه الكاهن عند المساء ولم يرجع واظن انه يساعده في اختيار الغلمان الذين سيغمدون خناجرهم في صدر بلقيس وهي نائمة ..

فابتسمت لذلك الموت الذي اختاره لها ذو القرنين وجعلت تقول : ليس لي الا ان اشكر للملك هذه العاطفة فقد عرف اني اؤثر الموت طعناً بالخناجر على الموت بالسم ..

ثم قالت : وكيف يقوم امير ظفار بتنفيذ الحكم الآخر القاضي بقتل شرحبيل؟

قال : يخرج شرحبيل مـــن حجرة الملك ويمشي في الرواق الكبير متجهاً الى الباب الخارجي فيطعنه ناشر طعنة قاتلة في ظهره ثم اطعنه انا طعنة اخرى يلفظ بعدهما روحه .

ـ وهكذا تنتهي حياة شرحبيل بن عمرو ايها الامير ؟

ـ نعم فالحياة لا يملكها غير ذي القرنين فهو يهبها لمن يشاء مـــن عباده ثم يسلبهم اياها عندما يشاء !

قالت : ماذا سمعت عن الحرب اني اسألك عنها قبل ان ننظر في قضية القتل !

فعرف عتيك ان الغرام يدفعها الى ذلك السؤال فقال :

وماذا اسمع عن الحرب وهي لم تبدأ والجيش لم يصل الى ساحة القتال ؟ بلى سمعت خبراً لا اذكره الآن ...

ـ بل تذكره دون ان تتردد .

ـ سمعت ان صاحب همدان كبابه جواده فكسرت يده اليمنى وشوهت وجهه جروح كثيرة في الجبهة والخدين والعنق .

ـ وبقي حياً أليس كذلك ؟

ـ نعم ..

ـ اذن يكفي انه حي ولو شوهته الجراح .

قال : اذكر للاميرة هذه الرواية التي ترددها الافواه ولا تبالي !

قالت : لو كان خبرك صحيحاً لدلني عليه هذا القلب قبل ان ترويه .

ثم قطبت حاجبيها قائلة : ما هو رأيك في الامر الذي قدمت لاجله ؟

فاطرق ملياً ثم قال : تفتح ابواب هذا القصر لعباد وغلمانه عندما يريد الملك.

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم تجيء نعمى بنت الريان وتتقدمهم الى حجرة بلقيس ثم تقف عند فراشها قائلة لهم : اضربوا جميعكم ضربة واحدة فتهوي الخناجر وتتراجع نعمى الى الوراء لتحتجب عن العيون خلف ستار اسود يقوم في الزاوية التي هي الى جانب الباب.

ـ وبلقيس ؟؟

ـ تكون بلقيس في تلك الحجرة لترى بعينيها خناجر الغلمان تخترق الوسائد النائمة في الفراش الوثير ؟

ـ اي انها تكون وراء ذلك الستار ؟

ـ اجل ، كما يكون وراءه اربعة من الفتيان الاشداء الذين يعرفون كيف توضع الخناجر في الظهور والصدور ...

فالتفتت الى ابيها قائلة : انه لرأي يا مولاي !

قال : ولكن عباداً ورفاقه يمسون جثثاً ولا يطلع الصباح حتى يعرف الملك ويثور ثائره .

فقال عتبك : اخطأت ايها الامير فالملك يريد ان تبتلع الارض عباداً ومن معه قبل ان يبزغ الفجر ..

ـ وكيف ذلك ؟

ـ يريد ان يمحو بالجريمة آثار الجريمة ، ويملأ مأرب في صباح اليوم الثاني وعيداً وتهديداً ، ويرسل رجاله للطواف في الاحياء والاسواق علهم يعثرون على الجاني قاتل بلقيس ..

ـ وماذا يصنع بقاتل شرحبيل ؟

ـ اما شرحبيل فتختفي آثاره ولا يعلم الناس اذا كان ميتاً أم هو حي .. هذا ما يفكر فيه الملك اذا نفذت احكام الموت كما أراد .

ـ والجثث التي تسقط في حجرة بلقيس ؟

ـ يحملها غلمان القصر الى الخارج وعلي الباقي .

قال : بقي ان نعلم كيف انجو انا من خنجرك وخنجر امير ظفار عندما اخرج من غرفة الملك وامسي في الرواق .

فبرقت عيناه قائلا : يتصدى لك ناشر وفي يده خنجر مكسور الشفرة ، ويضربك ضربة يخيل الى الناظر انها ضربة بطل ، وهي ضربة جبان ، فتقع شفرته في صدرك على جسم صلب هو الدرع التي تلبسها تحت الثياب ..

فاصغت بلقيس الى تلك الكلمات وهي تعجب لدهاء ذلك الامير الثائر على

مليكه .

وكان يقول : ثم يبرز امير نحلة الذي يخاطبك الآن ويضربك من الوراء فتصيب الضربة درعاً اخرى ويرتفع عندئذ صوت شرحبيل مستغثياً بالملك فتخرج العبيد والجواري والذعر يملأ قلوبهم ولكنهم لا يبصرون شيئاً فان شرحبيل يكون قد غادر البلاط .

ــ ولكنه لا يسكت عند هذا الحد .

ــ بل يسكت كأن الحادث لم يكن ويظهر لاهل مأرب ورجال البلاط ان بلقيس قتلت في ذلك الليل .

ــ وبعد كل ذلك ؟

ــ يدخل ناشر على الملك ويلعن هذه الدرع التي كسرت شفرته ومنعتها من ان تخترق قلبك !!

ــ ومتى تعود بلقيس الى الحياة ؟..

ــ عندما يغمض الموت عيني ذي القرنين ..

قال : اتهزأ بي يا عتيك ؟

ــ لم يخطر لي ذلك ايها الامير .

ــ اذن يجب ان تختفي بلقيس وراء الجدر حتى يموت الملك وقد يعيش خمسين عاماً .

ــ بل يعيش بضعة عشر يوماً كأنه ميت ثم يصبح العرش بدون ملك حتى يعود ولي العهد .

قال : لا يعلم ذلك غير الآلهة .

ولكن هذه الآلهة وهبت لعتيك بن روضة شيئا من هذه المعرفة . ان الموت يكمن في فراش الملك ولا يلبث حتى يسلبه روحه .

فقالت بلقيس : ايستطيع الداء ان يصرع ذا القرنين في مثل هذه السرعة ؟

ــ لقد صرعه هذا الداء فاصبح هيكلا من عظام .

فارخت نظرها الى الارض وجعلت تقول : اذا كان هذا فقد تغير كل شيء

ولم يبق في الساحة غير ولي العهد .

ـ نعم لم يبق في الساحة غير ولي العهد وخير لشرحبيل بن عمرو ان يحارب رجلا من ال يحارب اثنين .

فتمتمت قائلة : اجل لقد دنت ساعة الحرب ، انعمراً الذي وعدناهبالزواج وهو ولي عهد ، سيعود من مهرا وهو ملك ، ويسأل ابي ان يفي بما وعد .

فارتسم الحقد على جبينه وقاطعها قائلا :

بل يعود من مهرا لتخرج ولاية العهد من يده ويلجأ الىجبال اليمن واوديتها فراراً من الموت .

فاخذت تتفرس في ابيها وهي لا تعلم ماذا تقول .

ولكن اللعين استطرد قائلا : لنفترض ان الجيش اليمنيظفر بعدوه فهلتعلمين ايتها الاميرة متى يعود ؟

ـ بعد شهرين .

ـ وهل يستطيع الامير شرحبيل ان يدعو انصاره الى مأرب في خلال هذين الشهرين ؟

ـ نعم .

ـ اذن فليفعل وليرسل رسله غداً الى المخاليف فتزحف قوى الانصار الىهذا البلد وتقيم به . او تقيم ببلد آخر يجاور مأربوتنتظر فيه الامر برفع راية العصيان في وجه الملك الجديد ابن ذي القرنين .

قالت : اتريد ان تفاجىء ولي العهد بالسيف .

ـ لا ، بل يدخل البلاط كأنه ملك ثم يخرج منه كأنه عدو دون ان تسيل في مأرب الدماء الا اذا شاء .

ـ اي انه يرى في بلاطه رجلا آخر قد سبقه الى العرش .

ـ نعم ويرى امراء اليمن حول ذلك الرجل وقد اعترفوا به ملكاً وعاهدوه على الطاعة حتى الموت .

ـ ومن هو هذا الرجل ايها الامير .

ـ هو شرحبيل بن عمرو وقد ينزل شرحبيل عن حقه بالملك بعد ذلك لابنته

بلقيس ! ! .

ــ ولكن ارجو ان تعمد الى الجلاء في كل ما تقول .

قال : الم يجعل الملك ناشراً اميناً له بعد ذهاب الجيش ؟

ــ واين ذهب نديمه وامينه الاخر ؟

اتعنين حاشداً ؟ انه اصبح بعد مرض مولاه صديقـــا لولي العهد وهو معـــه في مهرا .

ــ حسناً . وماذا يفعل ناشر اذا كان امينا لذي القرنين ؟

ــ يقول لاهل البلاط ووجوه القوم في مأرب ان الملك قبل ان يلفظ روحه جعل شرحبيل بن عمه وكيلا للعرش .

ــ ويقوم وتار ذمر فيقول غير ذلك .

ــ ولكنه لا يجد حوله من يصدق قوله . ان البلاط اليوم في يد ناشر وعتيك وستجيء رجالها بغد شهر لينضموا الى رجال شرحبيل ويقسموا له يمين الوفاء .

ــ وبعد ان يتم كل هذا كما تظن يجيء ولي العهد .

ــ نعم يجيء لتقع عينه على ذي مغار وابن عمه ياسر ، وعتيك بن روضةوامير ظفار الذين هم اعداء ابيه .

ــ ولا تنس الغوث بن راهط وابن دوير .

قال : وهل اصبح الاثنان من المتآمرين ؟

ــ اجل والغوث اليوم في مأرب ، بل في هذا القصر !

فابتسم قائلا : مسكين ولي العهد لقد خسر جميع الامراء والملك حي ، ومن بقي للملك ؟؟ بقي له عبد شمس ومعدي كرب ووتار ذمر . اما حاشد فلا يملك شيئا ولا يصلح لشيء .

ــ وهنالك امير آخر يبذل حياته في سبيل شرحبيل .

انه ذو تبع وقد نسيناه . ولكن لا نعده الان فرجاله في همدان ولا نستطيع وهو بعيد ، ان ندعوهم الى مأرب .

ــ كفى فقد تهيأنا الآن لكل شيء وسيستقيم لنا الامر .

ثم قالت : واذا لم يمت الملك يا عتيك ؟

ـ نفضح مؤامرته بعد ان يعود ولده فتنشب الحرب ، ثم نخوض غمارها عندما تفد جيوش الامراء .

قالت : سنجعل هذه الجيوش في مخلاف مغار وسيقول القوم انهم ذاهبون الى حرب الحبشان .

فعاد عتيك الى مزاحه قائلا : اريد ان اسألك سؤالا واحداً قبل ان انصرف ، من هو الرجل الذي سيسلم اليه مولانا الملك الجديد امور بلاطه ؟

ـ هو انت فقد لا يجد الملك رجلا اشد دهاء منك .

ـ ومتى يترك ابوك تاجه ويدفعه اليك ؟

ـ عندما يأمره بذلك عتيك بن روضة .

قال : اراك تهزأين ايتها الاميرة .

ـ انها ساعة مزاح واستهزاء .

ولكني ساكون جاداً واطلب الى مولاي الملك قبل أن يستوي في العرش ان يعدني بامرين اثنين هما كل ما ارجوه منه .

فاجابه شرحبيل : قل وكن كيف شئت .

ـ عدني بانك ستفعل يا مولاي .

ـ ولكنك تعلم ان الملوك لا يعدون .

قال : اذن اسألك ان تجعل فاتحة ملكك اطلاق جميع الجواري اللواتي يكرهن الاقامة بالبلاط .

فاعجبت بلقيس هذه العاطفة وقالت له :

وما هي غايتك من ذلك ؟

ـ ان يظهر الملك شرحبيل لاهل اليمن انه اعظم نفساً من ذي القرنين وانه لا يبالي بالنساء.

قال : والآخر يا عتيك .

ـ ان تأمر بقتل خاشد ووتار ذمر عندما تستولي على الملك .

ــ ولماذا تريد ان يموت الاثنان .

ــ لان التاج لا يثبت على رأسك وهمافي الوجود .

ــ اذن تؤثر ان نفتح عهدنا بالقتل !

ــ بل افترض انك لا تصير ملكاً الا بقوة السيف . الم تكن غايتك يامولاي اشعال النار في مأرب ؟

ــ بــلى !

ــ الم تكن تظن ان حاشداً وتار ذمر سيكونان عدوين يحمــلان السيف مدافعين عن عرش ذي القرنين ؟

ــ بــلى .

ــ وماذا كنت تصنع لو حدث ذلك ؟

ــ اقتلهما اذا قدرت .

ــبل تقتل الالوفوتصعد الى عرشك على جثث الابرياء .

فقالت بلقيس : لقد اصاب الامير فيما يقول ولكنه نسي ان هـناك رجـالاً آخرين يستحقون الموت ..

ــ لم يبق من هؤلاء الرجال غير اثنين هما معدي كرب وعبد شمس والرجلان اضعف من ان يتآمرا على العرش ..

قالت ليس لنا الا ان نختار واحداً من امرين ، اما ان تسفح الدماء في مأرب وتملأ الاسواق ثم يلبس ابي التاج بعدذلك ، واما ان يعصب بهرأسههادئاً مطمئناً دون ان يلجأ الى القوة ، ويكتفي بابعاد ولي العهد ورجاله الى الابد . اسمــع يا عتيك ، ان العرش سيكون لنا ــ اذا مات الملك ــ لقمة سائغة غير مخضبة بدماء اليمنيين ، والا فنحن مكرهون على التقتيل والتدمير حتى يتم لنا الامر كما نشاء .

ــ افعلي ما تشائين على ان تقتلي الرجلين اللذين ذكرتهما الآن او تندمي .

فقام في ذهن بلقيس ان عاطفة خاصة تمــلي على امير نخلة تلك اللجاجــة في الطلب ، فقالت له :

يخيل الي ان في الامر سراً يدعوك الى ذلك .

فتنهد قائلا : اما سري فهو مصلحة العرش ليس غير !
ـ وماذا يستطيع ان يفعل الاثنان واليمن كلها لنا .
قال ان للكهانة سلطاناً لا يحجبه غير سلطان الملك ووتار ذمر خادم الآلهة ورئيس اولئك الكهان المنتشرين في المخاليف ، فاذا نفخ في صدور رجاله روح الثورة والعصيان استطاع اولئك الرجال ان ينشروا تلك الروح السامة في السهل والجبل ، ثم يقوم اليمنيون بعد ذلك يطالبون خلع الملك الجديد وارجاع ولي العهد الى عرش آبائه .
فقاطعته قائلة : ولكن الملك الجديد يرسل جيشه فيخنق الاصوات المرتفعة ويخفض الرؤوس التي تجول فيها فكرة العصيان .
ـ خير للملك ان يخمد النار قبل ان تمتد السنتها الى الاقاليم .
ـ بل خير للملك ان يصافح اعداءه ويبتسم لهم لتعلم اليمن انها انتقلت من عهد الجور والقساوة الى عهد الرحمة واللين .
ـ ولكن اخشى ان يحسب الناس رحمة الملك ولينه خوفاً وضعفاً فتسوء العاقبة ويرجع عندئذ عهد القساوة الذي تذكرين .
ـ وهل يجسر وتار ذمر على الظهور بمظهر المتمرد كما تقول ؟
ـ اعتقد انه يفعل كل شيء ولا يبالي .
ـ اذن فالملك يشتريه بالمال ؟
ـ في خزانته من المال اكثر مما في خزانة الملك . ومع ذلك فهذا هو الضعف ايتها الاميرة .
ـ اذن ننزع عنه هذه الكهانة التي جعلها سلاحا له .
ـ اي انك توغرين صدره وترسلينه لينشر فساده .
غير ان وتار ذمر كان صغيراً في عيني بلقيس فلم تحفل بنصائح عتيك ولم تعبأ بذلك الدهاء الذي يمليه عليها .
وتعب عتيك كثيراً فضاع تعبه .
ان لبلقيس رأياً يناقض رأيه .

كانت ترى قتل الكاهن الاعظم يغضب القوم وتهيج له الصدور ، ومـا هو الذنب الذي يحمل الملك على القضاء عليه ؟ . انه بريء في نظر اهل مـأرب واصحاب المخاليف وليس من الحكمة ان يهرق الملك دم بريء !

وكان عتيك يرى غير ذلك كما قرأت ، ومن الصعب ان يتفق الاثنان .

ولكنه حاول من الناحية الاخرى ان يقتل نديم الملك فقال :

وحاشد ؟؟

ـ لقد قلت ان حاشداً لا يملك شيئاً ولا يصلح لشيء فلماذا ترغب في قتله ؟

ـ لانه قاتل الالوف من الرجال والنساء ارضاء لمولاه .

قالت : هذا جناه في الزمن الذي مضى ونحن لا شأن لنا به ، اتريد ان يطلب شرحبيل بدماء الذين غدر بهم ذو القرنين ؟

ـ بل اريد ان ينقذ اليمن من هؤلاء الخونة .

قالت : طب نفساً فكل رجل تحدثه نفسه بالخيانة يموت .

قال : اصغي الي ايتها الاميرة فانا اعرف الرجلين .

ـ اعود فأقول لك اما ان تهرق الدماء واما ان تسود السكينة في مأرب فلا يجرد سيف ولا يرتفع صوت .

ـ اتمنى اذن الا يموت الملك ، ليقوم السيف مقام الهدوء ، وتغوص مأرب في اللجة الحمراء ، وتدوس الخيل جميع الذين اخشاهم على ملك شرحبيل بن عمرو ..

ثم قال : ان الملك الذي يبنيه الآن آل يعفر ، بالصمت والهدوء ، سيقوض السيف اركانه بعد حين

فضحكت قائلة : اما انت فسترى بعد حين ان الرأي الذي تراه مصـدره الخوف الذي يستولي عليك الآن .

وكانت عينا شرحبيل في تلك الساعة تنظران الى الرواق وهو يفكر في العرش الذي يعده لابنته .

فقال له عتيك : انظر في امر ملكك يا مولاي قبل ان يمر الزمان .

قال : ماذا ؟

ـ اضرب اعداءك ليسلم عرشك .

ـ اعداء العرش كثار فيجب اذن ان يحصدهم السيف .

فوضع رأسه بين يديه وسكت قليلا ثم قال :

نعم يجب ان يحصدهم السيف جميعهم دون ان يستثني احداً . لقد غيرت رأيي الآن ، فليمت ولي العهد قبل ان يموت وتار ذمر ، وليمت بعده معدي كرب وعبد شمس فتنجو اليمن ويخلو لك الجو .

فتصدت بلقيس قائلة له : سننظر في هذا مرة اخرى عندما يموت الملك والا فالحرب لا بد منها وسيموت جميع من ذكرت .

فنهض وهو يقول : ساعود بعد ايام عندما يهم الملك بتنفيذ احكامه . امـــا الان فلم يبق لي ما اقوله .

قالت : ارى انه لم يتغير شيء مما مضى وان الملك سيعيش !

ـ اما انا فارى غير ما ترين والى اللقاء .

وخرج وهو يخاطب نفسه قائلا :

ستكون بلقيس ملكة سواء ألبس ابوها التاج أم لبسته هي . انها تأمر وهو يطيع ، ولكن ثقتها بنفسها تجاوز الحد .

وكان شرحبيل عندئذ يقول لابنته :

لقد رأيت الصواب فيما ذكره عتيك وأنا اخشى ان نبقي على انصار الملـــك فيهيجوا اليمن ويحملوا علم الثورة .

قالت : افترض يا مولاي ان ولي العهد استسلم اليك أفنقتله بعد هذا الاستسلام ليقول الناس انك اظلم من ذي القرنين ؟

ـ وهل نطلقه ليضع يده بيد اعدائنا ويشهر على العرش حرباً تتكسر فيها السيوف وتهتز لها اليمن ؟

ـ وكيف يقدر على ذلك يا مولاي ونحن احياء ؟ انه لا يرفـــع رأسه حتى تخفضه الضربات ، ولا تخرج من فمه كلمة حتى يقطع لسانه بالسيف !

ثم قالت : لنترك هذا الآ ن يا مولاي ولنتدبر امر هذه المؤامرة التي يعدها الملك

قال : يظهر ان هنالك شيئاً تخافينه يا بلقيس .

ـ نعم يا مولاي اخاف ان نقتل هؤلاء الامراء فتضمر لنا المخاليف عداوة لا تزول آثارها من الصدور .

ـ مع اننا كنا عولنا على الحرب ولم تخافي !

ـ انها حرب يشترك فيها معظم ابناء اليمن ويذهب ضحيتها المجرم والبريء!

وتمادت بلقيس في اصرارها على العفو ، وهي الفتاة التي كان قلبها قطعة من الفولاذ لا يلين ولا يعفو !

وتلك خاطرة خطرت للاقدار التي تهزأ بالناس .. والتي بدأت تهزأ باعظم فتاة في دولة حمير !..

فلم ير شرحبيل بداً من السكوت وقام فخرج وهي تتبعه الى قاعة اخرى ينظران بالاشتراك مع ضيفيهما في امر العرش ، من وجه آخر .

وكان الغوث وذو مغار في القصر ، وقد عولا في صباح اليوم الثاني على الرحيل .

* * *

٤٥

لقد اذنت لك في الرحيل غداً يا ابن راهط .

فنظر الغوث الى شرحبيل وهو يعجب لذلك الاذن الفجائي .

اما ذو مغار فقال : لو لم يحدث في مأرب حادث جديد لما خطر لك ان تأذن له في الانصراف اليوم ، ماذا جرى ايها الامير ؟

ـ ان ساعة ذي القرنين قد دنت كما قلت منذ ايام .

فاهتز الغوث لهذه الكلمة قائلا :

اهلا بهذه الساعة التي ينتظرها بنو سعد . قل ايها الامير ماذا يجب ان نصنع

لتكافىء الملك ؟ .

ـ تدعو جيش براقش الى بلاد ذي مغار ، وتمكث بها معهم ريثما يصل اليك الامر بالزحف الى مأرب .

ـ وجيوش بينون ؟

ـ ستنقل الى جبار بن دوير ما سمعت فيفعل كما تفـعل وتتـلاقى الجنود في البلاد التي ذكرت .

ـ اذن ستكون حرباً حامية تميد لها الجبال .

ـ من يعلم فقد لا تشتعل النار الا لتخمد ؟ او تندلع السنتها فتحرق هذه البلاد ومجاوزها الى الاقطار .

ومن يشعلها ايها الامير ؟

ان ولي العهد سيعود من حرب الحبشة بعدشهرين اوثلاثة وسيطلب يدبلقيس عند وصوله الى البلاط .

وكان ذو مغار قدخبر الغوث حكاية الزواج فقـال : وسيكـون السيف جواباً له .

ـ لا بل يتولى الملك عنا امر هذا الزواج ، فامـا ان يجاربه في امره فنشهر السيف على الاثنين ، واما ان يغضب فيشهر ولي العهد سيفه ونشاركه في الدفاع ثم ننقلب عليه عندما يكتب له النصر .

ـ ومن هو اكثر جنوداً نحن ام الملك .

ـ نحن . فقد تهيأنا للحرب والملك لا يعلم ، ومعظم جنوده في مهرا بقيـادة ولي عهده .

ـ وهذا معناه ان الملك لا يستطيع ان يجول في الميدان جولة واحدة .

ـ وقد يفاجئه الموت قبل ان تشهر السيوف .

قال : اتمنى ان يظل حياً لاعلمه كيف يستخف بالرجال .

قال : لا تجر على الملك فهو ميت وان يكن بين الاحياء .

ـ وهل يستحق هذا اللعين الرحمة وقد ملأ اليمن ظلماً وجوراً ؟

قال : لقد كان قاسيا ولكن القدر اشد قساوة منه وسيجازيه . متى تبلغ مع جنودك ارض مغار ؟

ـ لا اعلم الآن ولكني سأبذل جهدي كله لاكون فيها قبل ان تنقضي الاشهر الثلاثة .

قال : تعجل في الامر قبل ان يرجع ولي العهد وتفضح الاسرار .

ـ اتخاف يا مولاي ان يفضح سرك وجيش براقش وبينون ينتقل في وضح النهار من بلد الى بلد آخر وعيون الناس تنظر اليه ؟ وكيف تستطيع كتمان هذا السر وانت تأمر بان تتلاقى الجيوش في مغار وتغطي خيامها سهلها الفسيح ؟ ان سرك يا مولاي سيعرفه القوم ولكننا لا نخاف . . .

ـ اخطأت، فهم لا يعرفون الا امراً واحداً هو ان الجيوش التي تمر تسير الى الحرب بامر الملك، وقد صدر اليها ذلك الامر بالبقاء في مغار ريثما تجتمع جميع الصفوف .

قال : هذا هو الرأي .

ـ ولكن احذر ان تترك بلاد ذي مغار قبل ان يصل اليك ولدي الهدهاد حاملا هذا الخنجر الصغير .

وأراه خنجراً موضوعاً في قطعة من الجلد .

ـ اتجعل هذا الخنجر رسالة السر ؟

ـ نعم فاذا رأيته مع الهدهاد فلا تتردد في المجيء مع جبار !

ـ ولماذا لا تجعل غير الهدهاد رسولك الينا ؟

ـ لاني لا اثق في شؤون الحرب الا بولدي .

قال : لي كلمة اقولها ايها الامير .

ـ قل كلمتين .

ـ خير لك ان تبعث الى مغار رجلا من رجالك من ان تقذف بولدك الى اودية اليمن وجبالها لينقل الينا خبراً منك .

ـ قلت لك ان هذا الخنجر سر الحرب وهذا السر لا يحمله غير الهدهاد .

ـ ولكن قد تعرض للهدهاد اخطار .

ـ اجل وسيكون عند هذه الاخطار رجلا .

ـ واذا حمل الي خنجرك رسول آخر ؟

ـ لا تصدق غير الهدهاد وهذا يكفي .

ثم صافح الاميرين قائلا :

اذهبا عند الفجر وسنلتقي في مأرب ولكن على مرأى من القوم ، وسنجعل بلاط ذي القرنين مجلساً لنا .

فهتفا قائلين : ليمت ذو القرنين وليعش شرحبيل .

فقالت بلقيس : قولا ليعيش الملك .

فرددا تلك الكلمة وهما يبتسمان .

وانصرفت بلقيس الى غرفتها لتناجي الحبيب .

اما شرحبيل فخرج ليأوي الى فراشه ويستسلم الى النوم الهادىء الذهبي الاحلام .

* * *

٤٦

قال عتيك لناشر :

سيصعد شرحبيل الى العرش ، ثم يتخلى عنه لبلقيس ، ولكن لا يلبث هذا العرش حتى يسقط ويهوي الى الحضيض .

فأجابه قائلا : ويلك من اوحى اليك هذا ؟

ـ اوحته بلقيس نفسها فهي تريد ان تضع يدها على الملك وتبقى اعداءها واعداء ابيها احياء !

وقص عليه ذلك الحديث الذي جرى بينه وبينهـــا وزاد قائلا : وسيكون استخفاف الامير وابنته سبباً لذهاب الملك الحميري !

قال : لا تبالغ في الخوف يا عتيك .

قال : ليس ذلك خوفاً ولكن الملك الذى لا تسقط رؤوس خصومه عنـــد قدميه لا يطول عمره .

قال : سيعرف الاثنان كيف يحفظان الملك .

ـ بل سيقضيان ايامهما حاملين السيف مدافعين عنه والويـــل للرجل الذي يسلب الملوك تيجانهم ويهب لهم الحياة .

ـ اذن نقتل من نشاء وينتهي الامر !

ـ اجل ، وهذا ما اردت ان اقوله لك ، ان وتار ذمر وحاشداً اذا بقيا كانا اشد وطأة من ذي القرنين واكثر دهاء !

قال : كما يتآمر الكاهن والملك على شرحبيل نتآمر نحن على هذا الكاهن ونبعث به الى حيث يذهب غلامه عباد !

ـ ونفعل ذلك قبل ان يرجع الجيش ، ثم ننظر في امر حاشد عندما يعود .

ـ ولكن نسينا ان هنالك ملكاً واننا لا نستطيع ان نقتل كاهنه وهو حي .

ـ لماذا ؟

ـ لانه سيعلم ان رجال البلاط يخونونه وليس في البـــلاط غير اميرين هما انا وانت . . .

قال : سنقتل الرجل خارج البلاط .

ـ لا يخدع الملك ولو قتلته في قصره : اسمع ماذا يحـــدث يا ناشر . سيفشل الملك في قتـــل شرحبيل كما تعلم ، ثم يبلغه بعد ذلك ان وتار ذمر سقط ميتـــاً فيدب الريب في صدره ويأمر رئيس شرطه بالقبض على جميع الرجال الذين يعيشون في ظله .

ـ ولكننا لا نعترف له بشيء .

قال : يكفي ان يظن الملك الظنون لتسوء العاقبة .

ـ ورأيك ؟

ـ لم يبق الا ان يمضي الملك في امره الى النهاية . ثم نتهيأ نحن بعد ذلك للقضاء على الاعداء .

ـ ويغضب شرحبيل ..

ـ ليغضب ولتغضب بلقيس فوتار ذمر وحاشد يجب ان يموتا وليخسر ابن يعفر العرس .. ماذا سمعت عن الملك في هذا الليل ؟

قال : أري الحياة تجول بتعب وضعف في عينيه الغائرتين حتى ليحسب الناظر اليه انه سيموت الليلة !.

ـ ومع ذلك فهو لا يخاف الموت ولا يريد الا ان يغذي حقده بالغدر والقسارة والقتل !

ـ ذلك ما تعوده في حياته ، وهي صفات جعلها ارثاً لولي عهده النذل الذي هو سر ابيه !

واحمرت عينا ناشر واصفرت شفتاه .

فقال : كلما ذكرت عمراً نم عليك الحقد الذي يملأ صدرك .

ـ اجل وسيظل هذا الحقد حيا نامياً حتى يكتنف الشقاء عمراً وأراه بين يدي اذل من عبد !

ـ اذن فانك لا تفكر في قتله ..

ـ اهم بان افعل ثم يقوم في الذهن ان الموت راحة لـــه ، فاعدل عن رأيي واصر على قهره وتعذيبه كما قهرني وعذب هاتكة !

ـ وكيف تستطيع ان تفعل ذلك ؟

ـ يكفي ان اراه ذليلا يائساً لا عرش له ولا تاج !

ـ اما انا فلا اخاف احداً مثلما اخاف هذا الذليل الذي لا عرش له .. ان اليأس مصدر القوة ، وقد يكون مفتاحاً للعجائب في كل زمان .

قال : ستري ان هذا الفتى اضعف مما تظن !

قال : حسبي اني لم انس شيئاً وستثبت لك الايام اني كنت على صواب .

ونام الاثنان في غرفة واحدة اما الملك فلم ينم .

وكيف ينام ، والحقد ، والخوف ، والعلة ، عناصر جبارة تتآمر على حياته، ولا يغمض لها جفن ؟

***

٤٧

غادر ذو مغار والغوث قصر شرحبيل قبل ان يتنفس الصبح وفي صدر كل واحد منهما عقيدة ثابتة وايمان لا يتزعزع .

وقام شرحبيل في الصباح يختار له درعين اثنين يلبسهما من الامـــام والوراء عندما يدعوه ذو القرنين الى الموت .

وكان واثقاً بان الملك سيعيش وان الداء لا يستطيـــع ان يحطم ذلك الجسد الجبار ، كما يظن عتيك بن روضة .

اما بلقيس فقد ارادت ــ في ذلك الزمان .. ان تتعلم فن التمثيل .

كانت حجرتها حجرة ملكة ، فيها جلود الظباء والسباع ، وتقوم على جدرها النقوش والصور ، ولها بابان يطل احدهما على الرواق والآخر على تلك الغرفة التي جعلتها لنعمى بنت الريان .

وباب الرواق في وسط الجدار ، وله من اليمين والشمال زاويتان فسيحتان تسع الواحدة منهما عشرة رجال .

فعمدت الى الزاوية اليمنى وجعلت فيها ، بالاشتراك مع نعمى ونائلة ، ستاراً اسود كبيراً يتدلى الى الارض ويحجب جانباه ما وراءهما .

ونعمى ونائلة لا تعرفان ما هي الغاية من وضعه في ذلك المكان .

ثم قالت بلقيس لجاريتها : اين اخوك نائل .

ـ في القصر .

ـ اذهبي الساعة وَقولي له ان يختار ثلاثة من الغلمان الاشداء الذين يستلذون الدماء وليحضروا جميعهم الآن ، ولكن احذري ان يعلم احد غير هؤلاء .

فخرجت نائلة ثم لم تمر لحظة حتى اقبل نائل ومعه رفاقــه ، فاومأت اليهم بالوقوف وراء الستار وهي تقول :

لنفترض ان في يد كل واحد منكم خنجراً ذا حدين .

فمد احدهم يده الى حزامه قائلا .

هذا خنجري يا مولاتي !

قالت : دعه في حزامك الآن ، ثم لفتت نظرهم الى السرير العاجي القائم في الزاوية الاخرى قائلة :

ـ اترون هذا ؟

ـ نعم .

اذن لنفترض اننا في ليل ، وان الظلام يسود هذه القاعة .. وانتم لا تبصرون شيئاً ...

ـ نعم .

ـ ولكن شتعرفون ، وانتم ساكتون ، ان هذا الباب ، باب الرواق قدفتح ، وتسمعون صوت نعمى يهمس قائلا : ادخلوا .. فيدخل ثلاثة رجال بينهم عباد غلام الملك الذي كان غلاما لكاهن مأرب .. اتعرفونه ؟

ـ نعرفه .

وتتقدمهم نعمى الى هذا السرير ثم تتراجع الى الرواق ويغلق الباب ..

فقال نائل : لقد عرفت ما يريده هؤلاء الرجال ، انهم يريــدون ان يقتلوا مولاتنا بلقيس التي تكون نائمة !

ـ بل يغمدون خناجرهم في صدرها وتسمعون انتم وقع هذه الخنــاجر تمزق ضحيتها ...

فجعلوا يتفرسون فيها والذعر يملأ قلوبهم .

اما هي فابتسمت قائلة : ولكن بلقيس ايها الغلمان ستكون وراء هذا الستار حيث هي الآن ، وخناجر الاشقياء لا تقع الا على الوسائد !

فصاحوا جميعهم قائلين : وماذا نصنع بعد ذلك ؟

ـ يرفع هذا الستار فجأة وترفعون الايدي لتغمدوا شفاركم في الظهور أفهمتم الآن ؟

ثم اومأت اليهم بان يفعلوا ما امرتهم به ، واعادت ذلك المشهد مرتين حتى اتقنوه وخرجوا عندئذ من مخبأهم وهم من اعظم الممثلين .

ثم خاطبتهم قائلة : ليس في هذا القصر احد يعرف هذا السر غير مولاكم شرحبيل فاذا خطر لاحدكم ان يحدث به نفسه فليودع الحياة عندما يفعل وليعلم ان الملك نفسه لا ينقذه من الموت . وآمركم بان تلزموا القصر كل ليلة ولا تخرجوا منه الا الى الفناء .

وصرفتهم وهي تقول في نفسها :

لو كتب لذي القرنين ان يرى هذا الستار الاسود لمات رعباً .

ومشت تريد قاعة ابيها لتلمس بيديها تينك الدرعين اللتين اعدهما لليوم العصيب ، وتقوم بنفسها ايضاً ، بتمثيل الدور الذي سيمثله ناشر وعتيك ،وهي شديدة الاعجاب بذكاء امير نخلة ودهائه .

وكان شرحبيل يعالج درعيه ، فلما اقبلت ابتسم لها قائلا : لا اعلم كيف يستطيع الرجل ان يحمل درعين .

قالت : يستطيع ذلك عندما يعلم ان خناجر الملك ستطعنه من الامام والوراء البسها يا مولاي !

ففعل ، فتناولت من الجدار خنجراً عريض الشفرة ووجهته الى صدره وهي تقول :

انت الان في رواق الملك . أأضرب ؟

ـــ اضربي ولا تخافي .

ولكنها لم تجسر على الضرب ، بل مدت يدها حتى لامس الخنجر صدره واصاب الفولاذ . ثم ضغطت بيديها الاثنتين وشرحبيل يبتسم ويدفع خنجرها

بصدره حتى كادت الشفرة تصبح قطعتين . ثم ضربت بجوف فوقع الفـولاذ على الفولاذ وكانت نتائج ذلك الضرب ان الشفرة التـوت ومزقت الرداء ليس غير .

ثم اقبلت تطعن اباها من الوراء حتى ايقنت بان الخناجر ، وان تكن حادة لا تؤثر في الدرعين .

فألقت الخنجر من يدها وقالت :

اضرب الآن ايها الملك ما طاب لك الضرب ، واغمس يديك بدماء ابن عمك ليبقى التاج لولي عهدك !

وقالت لابيها : اما انت يا مولاي فاذهب الى حيث تشاء فـذو القرنين لا يستطيع ان يمد يده الى شعرة من رأسك .

وطابت نفس بلقيس ، وارتاحت الى ذلك « التمثيل » الذي قامت بـه ، ورجعت تشرح لوصيفتها فكرة الملك ، وتصف لها تلك المـؤامرة الهائلة التي اخترعها دماغه الجاني وهو على فراش الموت .

وأوصتها بان تظهر لذي القرنين ، عندما يدعوها اليه ، انها تطيعه الطاعـة العمياء ، وانها ستكون عونا له ولعباد في القضاء على بلقيس .

ومرت بضعة ايام وشرحبيل ينتظر دعوة الملك ، ونعمى تسأل سيدتهـا ان تأذن لها في الذهاب الى البلاط وهي لا تفعل .

حتى رأت اخيراً ان تأذن لها ، فانصرفت نعمى لتمثل بين يدي ذي القرنين وتصغي الى نصائحه .

* * *

٤٨

كان ذلك العام في اليمن ، عاما اسود ، قل فيه الشتاء ، واجدبت الارض ، فعم الضيق معظم المدن والقرى في جهات اليمن الاربع !

وكانت القبائل النازلة في الطرف الشمالي من اليمن قد احتملت الجدب من قبل واحتملت الضيق ، ولكن الطبيعة غلبتها على امرها فانتشرت في بلاد الله تطلب الحياة .

من هذه القبائل ، قبيلة مذحج ،وهي احدى القبائل المعروفة في التاريخ الغربي، اجل ، لقد ضاقت الارض بمذحج ، فلم يبق لها الا ان تنزح عن اليمن وتجعل تهامة وطنا لها .

فعلت ذلك منذ عامين ، ولم تستطع القبائل المجاورة بل لم يستطع ذو القرنين نفسه ان يمنعها من الجلاء .

وكيف يستطيع ذلك ، وهي كثيرة للعدد ، ومهددة بالجوع ، والضيق يتبع الضيق وليس في اليمن سهل فسيح خصب تلجأ اليه .

على انها لم تنتقل فجأة الى تهامة ، بل مكثت بوادي نجران بضعة اشهر ، ثم عولت اخيراً على تركه والنزول في تلك الارض الواسعة ، التي هي ملك لقبائل معد،

وكانت عدوان ، احدى هذه القبائل ، تسود تهامة في ذلك الزمن ، وعلى رأسها امير عظيم عرفت فضله العرب ، واعترفت بحكمته هو عامر بن الظرب .

وعدوان ، قانعة راضية بما قسم لها الله ، وقبائل معد الاخرى ، تعيش حولها كأنها رعية لها .

وليس في تهامه كلها من يخالف امير عدوان في امر ، او يرد له نصحا ،ان عامراً بن الظرب سيد العقلاء ، وسيد الحكماء .

فلما ضربت مذحج خيامها في تلك الارض ، ونظرت عدوان الى تلك الصفوف الكثيرة تدور حول الخيام ، استيقظت في صدور رجالها تلك العاطفة التي لا تموت ، عاطفة تنازع البقاء ، وبدأوا ينظرون الى تلك القبيلة الغريبة كما ينظر العدو الى العدو .

ومذحج لا تبالي ولا تهتم إلا للحياة تطلبها ولو كانت بين براثن الاسد ، بل لو كانت في جوار القمر .

فاقبلت عدوان تقول لاميرها :

اتريد ايها الامير ان ينازعنا بنو مذحج عيشنا ويستثمروا ارضنا ، ثم ينصرفوا الى اليمن حاملين خير تهامة ؟

فاجابهم قائلا : اطلبوا اليهم ان يرحلوا فتبقى تهامة لاصحابها .

فذهب وفد منهم يسأل امير مذحج ، وهو جابر بن مفروق ، ان يترك ذلك السهل ويختار لقومه بلداً اخر يصارعون الفقر فيه .

ولكن جابراً لم يسمع لهم .

فقال عامر : نسأله فلعله يريد الحرب !

واجتمع الاميران في ظل خيمة بين الحيين .

وكان سيد عدوان في فجر كهولته ، وسيد مذحج في زهرة العمر ، غير ان الكآبة جعلت جبينه فبدا كانه كهل .

وعامر بن الظرب لا يتكلم الا بعد روية ولا يخاطب جليسه الا بعد تفكير .

وليس عجباً ، فهو حكم العرب المشهور وقاضيها الاكبر ، فقال لجابر : لماذا تركت اليمن ايها الامير ؟

قال : ضاقت اليمن باهلها فلم نر ألا ان نتركها على امل ان نعود .

قال : مرحباً بك وبقومك تقيم بضيافتنا بضعة ايام لا تنحر جزوراً ولا تذبح شاة حتى ترحل عنا !.

لقد رأيت خصباً ومرعى فلا ارحل حتى يكتفي القوم !

قال : الا ترى تهامة تكاد تضيق بقبائل معد كما ضاقت بكم بلاد التبابعة ؟

قال : نتخذ نحن ناحية منها وتتخذ هي ناحية اخرى فيعيش الفريقان .

لقد كانت تهامة لنا من قديم الزمان .

ـ بل كانت لتبع وهي له الى الآن .

قال : كلمة اخرى يا جابر لا اقول سواها ، اما ان ترحل بعد ايام او تأخذ

ارضنا بقوة السيف!

فغمرت الكآبة وجه جابر وارتجفت شفتاه .

لقد جارت الطبيعة عليه في بلاده وجار عليه في تهامة بنو عدوان ، فخير له ان يرد بسيفه جور الطبيعة وجور الانسان فقال :

السيف يا عامر .

قال : السيف ...

وانصرف يقول لقومه : اما لكم او لمذحج .

ثم خرجت رجاله ينادون :

يا قبائل معد . هذا سيف اليمن تشهره مذحج وتريد ان تخضع به تهامة، فمن كرهت نفسه فليرحل قبل ان تستعر نارها او فاجتمعوا تحت لواء عامر بن الظرب واطيعوه .

فتشاور القوم ، وقبائل معد لم تجتمع قبل ذلك اليوم تحت لواء واحد ، بل لم تجتمع في الجاهلية غير ثلاث مرات ، الاولى تحت لواء عامر في حرب مذحج ، والثانية تحت لواء ربيعة بن الحارث في قضاعة ، في يوم يقال له يوم السلان ، والثالثة بقيادة كليب بن ربيعة في حرب اليمن ، كما ذكرنا في رواية الحارث الاكبر!

ثم قالوا : اطعنا عامراً ونحن جنوده .

فجمع ابن الظارب تلك القبائل في موضع يدعى « البيضاء » وخرج جابر بن مفروق بجيشه والفقر واليأس يدفعانه ويدفعان ذلك الجيش الى اقتحام غمرات الموت .

وامر عامر فجردت السيوف من اغمادها وارتفعت الاصوات : يا لقحطان . يا لعدنان . ثم اهتزت الارض وتلاحم الجيشان .

ولكن اليمنيين غرباء واهل فاقة ، وبنو معد اصحاب البلاد واهل سعة وغنى ، وقد وفر عددهم حتى كان الفارس من مذحج يصارع اربعة من اعدائه!

فلم تغب الشمس حتى صبغت تلك الارض البيضاء بالدماء ، وترك جابر بن

مفروق الساحة مع بقية جيشه ، وقد سحقتهم الحرب ، وخيبت املهم بالبقاء في ذلك القطر .

وماذا يفعل جابر بعد فشله ؟ لم يبق له الا ان يرجع الى ذلك الوادي الذي خرج منه ، وادي نجران ، ثم يسير منها الى مأرب سائلا مولاه ذا القربين خرج لن يطلب بدماء قومه وينظر في امره .

ولم يتردد في تنفيذ ما خطر له ، وقد وصل الى مأرب وولي العهد في مهرا ، والملك المريض ، المائث ، يتآمر على ابن عمه ، وهو لا يعلم شيئاً من ذلك .

• • •

لم يكن مفروق وحده من المنكوبين

بل كانت هنالك وفود من جميع البلدان ، اقبلت تسأل الملك الحميري العظيم ، الرفق والاحسان .

وقد استقبل امير ظفار تلك الوفود باسم ذي القرنين ، وطلب اليها ان تذكر حاجاتها ليخبر بها مولاه .

فقال له جابر : اما انا فحاجتي ان ارى تبعاً .

ـ ولكنه مريض ولا يأذن لاحد في الدخول .

ـ قل له ان امير مذحج لا يخرج من البلاط حتى يراك .

فالتفت الى الآخرين قائلا : وانتم ؟

ـ نطلب ان يهب لنا الملك ما تعود ان يهبه كلما بخلت السماء بالغيث .

فمضى ناشر ينقل الى ذي القرنين ما سمع . ولكن ذا القرنين كان في تلك الساعة في ثورة جنون . فقال :

قل للوفود ان يرجعوا بعد ان تعود الينا العافية فليس عندنا اليوم مال نجود به على الناس .

وتلك كلمة تغضب الوفود . وناشر اللعين يريد اغضابهـا ليخسر مولاه

جميع العشائر كما خسر معظم النبلاء ،

فلم يزد كلمة على ما قال .

ثم تمتم الملك وقد ضيع صبره : اما امير مذحج الذي يملي علينا ارادته . فليحضر ليسمع ما لا يحب !

ــ وهل أصرف الوفود يا مولاي ؟

ــ أجل ، ولتعد في وقت آخر كما امرنا . اما انت فارجع مع جابر بن مفروق لتساعدنا في اسكاته . انه كثير الكلام وكثير الدلال .

فقال ناشر في نفسه : سارجع ولكن لاساعد الاقدار في ابعاد الناس عنك ، وعن ولدك اللئيم الغدار .

وخرج وقلبه يخفق من الفرح ، ثم صرف الوفود كما امره الملك ورأى علائم الامتعاض والخيبة تبدو على الوجوه .

وأومأ الى جابر بان يتبعه ثم دخل الاثنان تلك الحجرة الصامتـــة التي يبسط الموت في فضائها ظله الرهيب .

غير ان امير مذحج ، لم يستطع ان يصدق عند دخوله انه بحضرة تبع الحميري ملك سبأ وحضرموت !

وكان ذلك الملك شبحاً خارجاً من القبر ، وعهده انه كالاسد في الغاب ، اذا نظر الى احد ! .

وتردد قليلا في امره . ثم عاد الى نفسه فخضع وتراجع الى الوراء .

فحدق اليه ذو القرنين بعينين تشبهان عيني النسر الذي دب فيه الهرم وقال له: ابن مفروق ؟؟

ــ نعم يا مولاي .

ــ ألم تترك اليمن الى تهامة ؟

ــ بلى يا مولاي .

ــ وهل امطرتك تهامة ذهباً ؟

فعجب سيد مذحج لتلك اللهجة التي يخاطبه بها الملك وقد تعود ان يرى على

وجهه البشاشة والانس .

ولكن فانه ان الالم واليأس اللذين تذوب معهما حياة الملك ، جعلاه مجنوناً ضيق الصدر لا يهش الا للمؤامرات ، ولا يبتسم الا لحقده .

وجعل جابر ينظر الى جانبيه وهو مضطرب ، ثم قال .

بل امطرتنا تهامة جرباً يا مولاي .

ــ اذن خرجت من اليمن لتخوض مجال الحرب في سبيل طمعك . من هو عدوك ؟

ــ بل خرجت من اليمن لاحارب الجوع الذي يهدد بني مذحج . ان عدوي في تهامة عامر بن الظرب.

قال : ويلك هذا سيد عدوان وحكم العرب فماذا لقيت منه ؟

ــ لقيت سيفاً قاطعاً وفرساناً مغاوير هم اكثر من نجوم السماء .

ــ واين تقيم مذحج اليوم ؟

ــ في وادي نجران وقد لجأنا اليه بعد ان لفظتنا تهامة .

فضحك شامتاً وهو يقول : هكذا تلفظ بلادالعرب كل يمني يرحل عن وطنه. لقد نصحنا لك بالبقاء فلم ترض ، فاشق ، فليس لنا يد في شقائك !!

فاغمض عينيه كانه يستجمع قواه ثم قال :

حسبي ، وانا في هذا الشقاء ، ان يكون الملك راضياً عني وان تشفيه الآلهة من دائه .

قال : اما نحن فحسبنا ما سمعنا من اطراء ودعاء كاذبين !! اذكر حاجتك !

وهذا اغرب ما سمعه جابر بن مفروق في حياته .

فقال : متى كان امير مذحج كاذباً ايها الملك ؟

قال : لقد ضاق صدر الملك فاذكر ما قدمت لاجله .

واومأ اليه ناشر بان يفعل ، فاجابه وجسمه يهتز وصوته يرتجف : اطلب من مولاي ان يطلب بدم قومي وينتصر لمذحج .

ــ اي انك تريد ان تشهر السيف في وجه معد ؟

ـ يكفى ان تشهره في وجه عدوان يا مولاي .

ـ ومن يسكت العرب بعد ذلك ؟

ـ وكيف يستطيع قومك ان يعيشوا في بلد تحميهم فيه هيبة الملك ؟

فانتهره قائلا : تغزو الناس في ديارهم يا ابن مفروق ثم تسأل الملـك أن يجاريك في هذا الغزو ويبذل دماء جنوده في سبيل مذحج ؟ وهل تظن ان تبعا يغضب قبائل معد ليرضيك ويشعل النار في تهامة دفاعا عنك ؟ انك اذن مـن اولئك الناس الذين يستغلون العرش لغاياتهم الخاصة ثم يتركون هـذا العرش واصحابه عندما تقضى الحاجات .

واستوى جالسا وهو يقول :

تريد الآن ان يوجه الملك جيشا الى تهامة أليس كذلك ؟ ولكن الملك يأمرك ايها الامير اليمني بان تقود قومك بني مذحج الى تلك الارض، ومع ذلك فنحن قادرون على الحرب والعيش بدونك ، فحـارب انت من شئت وعش كيف شئت دون ان يكون للملك رأي في ذلك .

وكان ناشر يخشى ان يخفو جابر ، فيابن ذو القرنين وهو لا يريد ان يلين كما رأيت ، فقال : ابقي لك شيء آخر تذكره يا ابن مفروق ؟

وغمزه بعينيه .

فقال : الا ينتصر لي مولاي الملك ؟

اذهب غداً واغز الحيرة او الفرس ثم عد الى مولاك قائلا له : انتصر لي .

لا . ان الملك لا ينتصر الا لمن ينتصرون له ...

ـ اذن فاعطني يا مولاي !

ـ وماذا نعطيك !

ـ شيئا من المال استعين به على امري وامر قومي .

ـ لقد قلنا للوفود الآن ان ترجع الى مأرب بعد حين فارجع معهـا فليس عندنا ما نعطيك اياه الآن :

قال : ارجع عندما تجود السماء بالبركات ايها الملك ؟

فاجابه قائلا : هذا ما نقوله لك فانصرف ولا تزد .

فنهض ناشر وهو وراءه ، والدنيا تسود في عينيه لذلك الرد القهيـــح الذي فاجأه به ذو القرنين .

غير ان ناشرا عرف كيف يستميله فقال :

ابق في البلاط الليله فانا بحاجة اليك .

ـ ولكني لا اطيق الاقامة ببلاطه . لقد فعلها ذو القرنين ، فواحدةبواحدة وسيتغير الزمان .

وكان يقولها وصوته يملأ الرواق .

فهامسه ناشر قائلا : اسكت اذا اردت ان تعيش .

ودله على حجرة يقيم بها وهو يقول :

سأراك الليلة بعد ان تغرب الشمس .

وتركه ومضى ، لينظر في شؤون القوم الذين يروحون ويجيئون .

* * *

٤٩

كانت نعمى قد قابلت الملك في ذلك اليوم .

وقد قص عليها خبر مؤامرته ولم ينس شيئا ، واوصاها بان تهيء لعباداسباب القضاء على بلقيس .

فخرجت نعمى من غرفته وهي تعجب للاشباح كيف تتآمر وللاموات كيف يفكرون في العروش .

وراحت تصف لمولاتها خال ذلك الشبح المتآمر ، والملك الفاني الذي يطمع بالحياة وهو يموت..

وخبرتها بان عباداً وغلامين معه سيزورون القصر بعد ايال ، تلــك الزيارة

الغربية ويجربون خناجرهم بوسائد الفرش ...

ولم تكن نعمى تعلم ان سيد مذحج قدم مأرب وان الملك اغلظ له في القول واسمعه ما يكره .

على ان عتيكا اقبل على القصر عند المساء في الساعة التي كان فيها الملك يهامس عباداً وروى لشرحبيل وابنته حكاية جابر مع ذي القرنين ، كما رواها امير ظفار .

وسأل الاثنين ان يجاملا جابراً ويحسنا اليه .

ثم عاد الى البلاط دون ان يعلم غلام الملك .

أما ناشر ، فقد دعا الى غرفته ، عند ما غربت الشمس ذلك الامير الذي استخف به مولاه ، وكان لم يزل ثائراً ، وقال له :

الم تنس ما حدث لك ايها الامير .

ــ وكيف انسى وقد أهينت مذحج وخرج اميرها من البلاط مهشم الكرامة ذليلا لا يحمل لقومه الا العار ؟.. قل لي ايها الامير ماذا اقول لمذحج ؟ أأقول لهم ان ملككم لا يجسر على اغضاب تهامة ولا يريد ان يحسن اليكم ؟ ام اقول لهم أغزوا قبائل معد واسترجعوا الشرف الذي فقدتم ؟؟ خير لي ان اعود محمولا على الاعواد من ان ارجع حاملا ذلي وازدراء ذي القرنين بي !!

ــ بل تقول لهم ان في مأرب ملكين أحدهما على العرش يزرع البغض في الصدور والآخر لا عرش له ولكنه يملك القلوب .

فنظر اليه اليه مستغرباً ثم قال : من هو هذا الملك ؟

ــ شرحبيل بن عمرو !!

ــ هذا كبير الامراء وابن عم ذى القرنين .

ــ نعم فاذا طاب لك ان تعود الى قومك حاملا لهم ما يساعدهم في هذا الضيق فاذهب اليه !

ــ أيستطيع شرحبيل ان يفعل هذا ؟

ــ اجل فهو زعيم اليمن اليوم وسيد المحسنين .

ـ ولكن امير مذحج لا يمد يده الا الى الملوك .

ـ لا تنس ان شرحبيل ملك وهو ابن يعفر .

ـ ومن يتقدمني اليه ؟

ـ الا تعرفه ؟

ـ بلى ، غير ان الحاجة تخرس اللسان .

ـ ولكنها عادة للعرب فلا تغير العادات ، قم فاذهب الان فهو في القصر واذا حدثته فحدثه والناس لا يسمعون .

ـ واقص عليه ما جرى لي مع ابن عمه ؟؟

ـ قل له ما تشاء فالصدر رحب يتسع للاسرار .

ـ اخشى ان يردني كما ردني تبع .

ـ بل تخرج من قصره وانت شاكر وشديد الاعجاب .

فقال : انها ساعة وتمر ، فاما ان نهجر اليمن الى الابد ثم نكافيء ذا القرنين على احسانه ، واما ان ينسينا ابن يعفر هذا الذل الذي رأيناه .

ونهض ، فالتف بعباءته وهو يقول :

اشهد ايها القصر الشاهق اننا لا نرجع اليك وذو القرنين حي ، واشهد يا امير ظفار ان الطعنة التي وجهها الينا مولاك ستنزل معنا الى القبر . امـا انت فكريم وستعترف مذحج بفضلك اذا قدرت .

وخرج وصدره يغلي ، وهو لا ينظر الا الى الباب الذي سيخرج منه .

***

كان كاهن مأرب يعلم مما يراه كل يوم ان الملك سيموت وولي عهده بعيد عنه .

بل كان يحصي الايام التي بقيت لذي القرنين على الارض .

على انه لم يكن يعبأ بحياته وموته ، بل قل انه كان يتمنى ان يموت ، ليصير ملكاً ، بالوكالة ، كلما غاب ولي العهد عن مأرب .

ولم يكن له في ذلك سياسة ، بل كان يريد ان يضع في خزانته كل ما في اليمن من مال .

ولا يتم له الامر كما يشاء الا اذا ضم الى الكهانة الكبرى وكالة الملك .

وكان يعلم ايضاً ان ذا القرنين لا يوصي لشرحبيل بشيء ، اذا بقي شرحبيل حياً ومع ذلك فموت شرحبيل في نظره خير من حياته ، ليخلو له الجو ، وينام قرير العين .

وهب انه لم يكن نائب الملك ، فوجوده في البلاط مع الملك الجديد ، ولا وجود لشرحبيل وبلقيس ، يجعله نصف ملك ، ويضمن له النفوذ الذي يكثر معه ذهبه لوهاج .

اجل ، كان وتار ذمر في ذلك الحين نافذاً وبعيد الصوت ، ولكن ذلك النفوذ يضمحل عندما تصبح بلقيس ملكة . ويمد ابوها اصبعه في شؤون الملك .

اذن فليمت ابن يعفر وابنته قبل ان يعود ولي العهد ، وليمت الملك بعدهما . ولتصبح اليمن كلها ميداناً لنفوذ ذلك الكاهن العظيم .

هكذا كان وتار ذمر يوغر صدر الملك كلما وقف الى جانب فراشه ، ويسأله ان يتعجل في الامر .

حتى عول ذو القرنين على تنفيذ الحكم بالاعدام ، وطلب اليه ان يختار رجلين يكونان مع عباد .

ففعل الكاهن ما امره به ، وجاء الى البلاط بعد خروج امير مذحج منه ليصف للمتبع ذينك الرجلين .

فقال له الملك عند دخوله :

ماذا فعلت ايها الكاهن ؟

ـــ رأيت الغلامين اللذين ذكرت يا مولاي .

ـــ ممن هما ؟

ـــ الواحد من عبد القيس ، والآخر من كندة .

ـــ وليس لهما أهل ؟

ـ لا يا مولاي فاذا قتلا بعد القضاء على بلقيس فلا يسأل عنهما احد .

ــ وهل بحت لهما بالسر ؟

ــ كيف ابوح به قبل ان تأتي ساعته . ان عباداً وحده يعرف سرنا وسيقوله لهما عند ما يمسي الثلاثة في فناء قصر شرحبيل .

قال : أحسنت فانت كثير الحذر ايها الكاهن ، ولكن مـــا هو رأيـــك فيما ذكرته لك عن قتل ابن يعفر ؟

ــ ليس لي رأي في هذا فالملك أعلم باخلاص ناشر وعتيـــك اللذين يعيشان في البلاط .

قال : ان ناشراً اخلص الناس ، وهب ان امير نحلة غير مخلص فهو لا يجسر على الخروج عن الطاعة .

ــ ولكن القتل في الرواق يهز من في البلاط وتضطرب له الجواري والغلمان.

ــ بل يحدث في لحظة دون ان يرتفع للقتيل صوت .

ــ ولماذا لا يكون خارج البلاط ؟

ــ اذا جرى خارجه تبعته الفضيحة والملك لا يريد ان يفضح نفسه .

ــ اخشى ان يستغيث القتيل فيحدث ما تخافه .

ــ وكيف نمنع هذه الاستغاثة ؟

ــ يتولى امر القتل ثلاثة بدلا من اثنين .

ــ لا نجد في البلاط رجلا ثالثاً نعهد اليه في قضاء هذا الامر . بل يوجـــد هنالك رجل هو انت !

ــ انا يا مولاي ؟!

ــ اجل انت فليس عندنا من نثق به .

ــ ولكن لا اطيق حمل الخنجر يا مولاي ولست من اولئك الرجال الذين ألفوا الطعن والقتل .

قال : تكون في حجرة الملك عندما يكون فيها شرحبيل ثم تخرج وراءه لتضع يدك على فمه اذا حاول الاستغاثة !

ــ بل اقف عند الباب يا مولاي فارى جثة اللعين تهوي الى الارض .

فهز رأسه قائلا : قف حيث تشاء فانت لم تخلق لتكون من رجــال السيف .

وقبل ان ينصرف قال له : تهيأ فستستفيق مأرب على هذا الحادث العظيم بعد يومين ، وينتهي امر ابن يعفر .

وجرب الملك ان ينام بعد ان ارتاحت نفسه فلم يقدر ، وعين القضاء كانت ساهرة لا تنام .

• • •

٥٠

لم يظهر شرحبيل لجابر بن مفروق انه يعرف شيئا من امره .

بل استقبله كما تعود ان يستقبل امثاله من الامراء ولم يكتمه استغرابه ، ذلك القدوم الفجائي .

فقال سيد مذحج : كنت في قصر الملك ولم اشأ ان ارحل الى نجران قبل ان ارى كبير الامراء .

ــ ومتى قدمت ؟

ــ منذ بضعة ايام فأنزلني الملك في حجرة تحاذي حجرته ليراني في كل لحظة واحاطني بعنايته واحسانه .

قال : ليس في ذلك شيء من العجب فانت اهل لعطف الملك ورضاه . ألم تكن مذحج احدى القبائل التي يستند اليها عرش تبع ؟

ــ كانت كذلك فيما مضى ايها الامير !

ــ واليوم ؟

ــ اما اليوم فقد اكتنف بني مذحج الضــيق فرحلوا عن اليمــن يطلبون الحياة بالسيف .

ـــ عرفت انك فعلت هذا في العام الماضي ، اتقيم الان بنجران ؟
ـــ بواديها الذي تبدأ عنده تهامة .
ـــ ولكن هذا الوادي لا ينبت زرعا .
ـــ ان المال الذي اعطانيه الملك يخلق هذا الزرع .
قال : لم اسمع قط ان اهل نجران يعيشون بسعة فانصح لك بان تنقل الى بلد آخر تغلب فيه جور الزمان .
ـــ فعلنا ذلك فغلبتنا معد .
ـــ وماذا صنع الملك ؟
ـــ امر بالجيوش فتهيأت للحرب وستسير بعد يومين الى الميدان لتكون عونا لمذحج ...
قال : لست ملكا يا جابر لارسل معك جيوشا ولكني املك سيفي فأهبه لك واساعد جنود الملك في الدفاع عنك .
فاختلجت عينا الامير الفتى وجعل يقول :
لتهنأ مذحج بهذا السيف الذي وهبه لها ابن يعفر .. لقـــد طوقتني يا سليل الملوك فضلا لا انساه ورفعت رأسي بين القوم .
ـــ واي فضل لهذا السيف وقد سبقه سيف الملك ؟
فقال : وهل صدقت ايها الامير ما قلته لك ؟
ـــ وكيف لا اصدقه وانت قائله .
قال : خرجت من بلاط ذي القرنين صفر اليدين وليس في كمي ما اشتري به خبز يومي .
قال : جابر بن مفروق ؟؟!
ـــ نعم لقد خرج جابر بن مفروق من غرفة الملك كما يخرج المعوز المستعطي الذي تطرده الغلمان !!
قال : هذا هو القول الذي لا اصدق منه كلمة .
ـــ اقسم لك بشرف مذحج ان الملك لم يسمعني كلمة رضى ولم يعطني درهما

حتى ظننت انه سيكرهني على ترك البلاط والرجوع من حيث اتيت !!

فبان الغضب في وجه شرحبيل وقال :

أفعلها ذو القرنين ولم يذكر من انت ؟

ـ اي وتربة حمير فعلها ولم يبال .

فاطرق الامير وطال اطراقه .

فقال : في اي شيء تفكر يا مولاي .

ـ في هذا الملك الذي يغضب رجال عرشه ودعاتم ملكه .!!

ـ ولكن سيأتي يوم يندم فيه على ما فعل وهو يوم قريب كما رأيت .

قال : لا تغضب يا سيد مذحج فلعل الداء الذي يعاني الملك آلامـــه ينسيه نفسه ...

ـ لا يتسع لي في هذه الساعة مجال الغضب يا مولاي ، على اني لن اسكت عن هذه الاهانة ولن تصبر مذحج على ذل !

فضحك قائلا : أتشهر الحرب على تبع .

قال : لا تستخف بي يا مولاي فانا ان لم اشهر الحرب على الملك استطعت ان أهزأ به كما هزأ بي واستعيد كرامتي بعد موته !

ـ اي انك ستحارب ولي عهده يوم يصبح الملك له .

قال : يكفي اني لا اعترف بمن ذكرت ولا ابايعه الملك ما بقيت مذحج .

ـ ولكن تبايعه اليمن ويصير ملكا وتخرج مذحج من بلادها الى الابد وهي بدون ملك .

ـ سأفعل هذا وانا لا ابالي .

قال : الا تجعل لك مرجعاً تلجأ اليه يوم تجور الاقدار .

ـ كان ذو القرنين مرجعاً لنا فطردنا من بلاطه ومع ذلـــك فانت مرجعي وملكي منذ الان وهذا السيف لا يخرج من غمده الا في سبيل طاعتك !

قال : ان ملكك يا ابن مفروق بدون تاج .

ـ قل كلمتك يا مولاي تجعل لك مذحج وغيرها من عشائر اليمن تاجـــاً لا

لتزعه يد الزمان .!

ــ وولي العهد ؟

ــ ليمت فلاخير بولي عهد يحفظ ابوه الذهب في خزانته ورعيته يهددها الجوع

ــ ومن يقول من امراء اليمن مثل قولك ؟

ــ سمعت ناشراً امير ظفار الذي هو وزير الملك يقول مثل هذا .

ــ ان امير ظفار عدو لي .

ــ وماذا تريد يا مولاي اكثر من ان يشهد لك عدوك ويعترف بانك رجل الساعـــة ؟

فاكتفى شرحبيل بما سمع ولم يشأ ان يتمادى في امره فقال : جئتك الي لاهب لك سيفي فوهبت لي سيفك .

ــ واجود لك بدمي يا ابن حمير .

فقال : يا غلام . ادع بلقيس .

فاقبلت تلك الاميرة الحسناء فبهر جمالها عيني جابر وجعل يتفرس فيها وقد ملأ الاعجاب نفسه .

فقال شرحبيل : هذا امير مذحج وقد اقبل من نجران يسأل الملك ان يحسن الى قومه .

فانحنت الفتاة .

فقال : ولكن الملك رده ولم يشأ ان يجود بشيء .

قالت : انه ملك . فهو يجود على البعض ويبخل على البعض الاخر . وماذا تريد ان تفعل انت يا مولاي ، اترده كما رده ابن عمك ؟

فقال جابر : حسبي ان يكون ابوك راضياً .

ــ اما هو لا يرضى الا ان تعود الى قومك وانت مكثر ، قل يا مولاي ماذا اعددت لامير مذحج .

قال : كل شيء يملكه شرحبيل بن عمرو هو له .

فقال : أليس من العار على اليمن ان يكون ذو القرنين ملكها وتكـــون انت

رعية له ؟

ـ لقد ورث هذا الملك ولم يأخذه قهراً . ومن يعـلـم فقد ينتقل الملك الي اذا ساعدني سيف جابر وسيوف امثاله من امراء العشائر في الحصول عليه .

قال : سأزحف على رأس جيشي الى مأرب عند اول خبر يرد علي منك .

ـ واثق بان هذا الوعد وعد حر ؟

ـ نعم يا مولاي واقسم لك .

فقال : كفى ، اعطيه يا بلقيس ملء جرابه ذهباً .

ـ هذا كثير يا مولاي .

ـ بل قليل عليك ،واعطيه طائفة من دروع جدلنا الخالب ومائة سيف من سيوف أبين وريام .

فحاول الرجل ان يتكلم فاسكته قائلا .

وقولي لنائل ان يعد له خمسين بغلا تحمل المؤونة ومعها تلك الناقة التي اهديت الينا من مكة والتي لا نملك سواها .

فصاح قائلا : اسألك يا مولاي بتربة حمير ان تأذن لي في الذهاب فانا اخشى ان يقتلني هذا !!

قال : تبقى ثلاثة ايام ثم تذهب ، ماذا نعطيك بعد يا ابن مفروق اتأخذ ولدنا الهدهاد فتجعله ولداً لك ام تريد ان يسير معك شرحبيل بن عمرو فيكون الى جانبك في ايام الضيق ؟ قل ماذا تريد بعد ولا تخف فالي كله ابذله لك لتستطيع مذحج ان تفاخر العشائر بان اميرها سيد الامراء !.

فتفجرت الدموع من عيني ذلك الفتى وجعل يتمتم الفاظاً لم تصل الى الاذان.

فقالت بلقيس : امير مذحج يبكي !

ـ نعم ابكي فقد ضيعت الزمان في خدمة ملك لا يعرف قدر الرجال .

وجرد سيفه فوضعه عند قدمي شرحبيل قائلا :

دمي حلال ان لم يكن هذا السيف لك والمذحج الى الابد .

فتناول الامير السيف وقلده اياه وهو يقول :

خذه فانه سيف شريف .

ومعنى هذه العادة ان السيف اصبح لشرحبيل وقد وهبه له ليضرب به اعداءه

وكانت ساعة اصبح فيها الامير عبداً لابن يعفر ومذحج وسيوفها ملكاً له .

وانقضت الايام الثلاثة وجابر لم يخرج من القصر .

وفي اليوم الرابع خرج من مأرب وتقدمته المؤونة والمال على ان يعود مع جيشه اذا قضت الحاجة .

وكانت بلقيس تقول لابيها :

لقد اشتريت بالمال الذي بذلته لابن مفروق عرش حمير .

* * *

٥١

هذا غلام الملك يا مولاي .

ـ عباد ؟

ـ نعم وهو يستأذن بالدخول .

فابتسم شرحبيل ابتسامه قصيرة لنائل : لقد اذنا له ، ثم قال لبلقيس : لقد ارسل اللعين يدعو ابن عمه الى القبر .

فاجابته بابتسامة تشبه ابتسامته ، ثم دخل عباد فقال :

امرني الملك بان ادعوك اليه هذا المساء .

ـ وكيف هو الملك اليوم ؟

فظهرت الكآبة على وجهه وأجابه قائلا :

لا ادري يا مولاي فحال الملك حال تعب دائم والم مستمر واخشى ان يفاجئه الموت في هذا الليل .

فقطب حاجبيه وقال : احذر ان تقول هذا مرة اخرى فالموت لا يجسر على الدنو من ذي القرنين .

فقال في نفسه : ولكنه يجسر على الدنو منك .

ثم ارخى نظره وهو يقول : بماذا اجيبه يا مولاي ؟

ــ ساكون بين يديه بعد ساعة . ولكن كنت اوثر انابقى الليلة على اناذهب اليه عند الصباح .

ــ ولكنه يلح في طلبه يا مولاي .

ــ عجباً وماذا حدث للملك ؟؟

ــ من يعلم اي خاطر خطر له .

ــ أهو وحده ؟

لقد دخل وثار ذمر البلاط عندما خرجت منه وقد يكون الان عند فراشه !

فقالت بلقيس : لا تتردد في الذهاب يا مولاي فلو لم يكن الملك بحاجة اليك لما ارسل غلامه الساعة .

ــ اذن قل له اني ساجيء .

فخرج عباد ومشى شرحبيل الى غرفته ، ليلبس درعيه اما بلقيس فدعت نائلا والغلمان الثلاثة ووصيفتها نعمى لتعيد تمثيل ذلك الدور العجيب .

وأوصت اباها بان يحذر اعداءه ، وبان يقرأ مظاهر ذلك الكاهن الغدار بل يقرأ ما في نفسه اذا استطاع .

وانصرف الامير وخنجره في حزامه ، وساد قصره بعد ساعة ، ظلام وصمت رهيبان .

وكان ناشر وعتيك في الرواق المؤدي الى غرفة الملك ، فلما وصل شرحبيل هامسه ناشر قائلا :

استعد انت للموت ؟

فاجابه وشفتاه ترتجفان : كلنا فداء ذي القرنين .

قال : احذر ان تبدر بادرة غضب وانت عنده .

قال : ولكنه سيكون الليلة كثير العطف علي وخفيف الظل .

ــ كما انك ستكون ليناً وصادق الطاعة .

واستأذن شرحبيل ودخل والاميران وراءه وكان وتار ذمر جالساً عند قدمي الملك وليس في الحجرة من الرجال والنساء سواه .

فافتر ثغر ذي القرنين واذن لهم في الجلوس ثم مد يديه الى ناشر فاجلسه وكان يقول :

من كان يظن يا ابن العم ان الملك يمسي عاجزاً عن القعود في فراشه ؟

فقال : انها ايام قصيرة وتزول يا مولاي .

— بل تنتهي هذه الايام بانتهاء هذا الليل . لقد دعوناك الان لتنظر النظرة الاخيرة الى ملكك قبل ان يلفظ روحه !!

وكان وجه الملك عندئذ وجه ميت .

قال . دعوتني يا مولاي لتأمرني بمهمة اخدم بها عرشك .

وقال الكاهن والاميران : يعيش الملك .

اما هو فاستطرد قائلا : لقد تركنا العرش لصاحبه ولي عهدنا الذي يحارب الحبشة من اجله والذي يعود بعد ايام ليلبس تاج ابيه وتكونوا انصاراً له كما كنتم انصاراً لنا .

فقال وتار ذمر: ودعوتني انا يا مولاي لتقول لي هذا ؟

— اجل ، وللملك رأي آخر يريد ان يقوله وانتم تسمعون . اننا نموت وعمرو بعيد عنا وليس في اليمن من احفاد حمير غير شرحبيل بن عمرو ، فاسمع ياشرحبيل، انك نائب الملك منذ الان حتى يعود ولي العهد ولك ان تفعل في اليمن ما تشاء دون ان يكون لاحد نفوذ يشبه نفوذك ورأي فوق رأيك !!

فصاح قائلا : العرش لك ولولدك من بعدك وستملك قواك غداً او بعد غد فلا تحتاج الى شرحبيل وسواه !

قال : اسمع واطع فالملك يتكلم الان .

فسكت ، وقد راى ان يصبر على هذا الاستهزاء ، ولكن وتار ذمر لم يشأ الا ان يمد اصبعه لتتم حيلته وحيلة مولاه ، فقال : لقد جعلته نائبا منذ الان . والعرش لا يحتاج الى نائب والملك حي !.

ـ لو لم نحس بمخالب الموت تنشب في هذا الصدر لما فعلنا .

ـ فليكن نائباً بعد ان يموت الملك .

فنظر اليه نظرة غضب وقال : ويلك يا وتار ذمر أتخالف مولاك في قول يقول وهو يوصي ؟ اننا نعهد لابن عمنا في امر الولاية عندما نشاء فليس عليك الا ان تعطيه كما تعطينا وتخضع له خضوعك لنا فهو ملكك حتى يعود عمرو كما قلنا ...

والتفت الى الاميرين الآخرين قائلا : اشهد ان شرحبيل نائب الملك منذ هذه الساعة والويل لمن لا يعترف به ...

فقال شرحبيل : الا يجوز لي يا مولاي ان انزل عن حقي لمن هو اعظم مني شأناً وابعد صوتاً و قرب الى البلاط ؟

ـ من هو هذا ؟

ـ وتار ذمر نفسه يا مولاي الذي يبدأ نفوذه بعد نفوذ الملك .

قال : لينظر وتار ذمر في امر هياكله وكهانه . . ان العرش لا يسلم الا الى سليل الملوك الذي هو انت والحق لك وحدك بعد ولي العهد ... ماذا تقوله ايها الكاهن ؟ ؟

ـ من يجسر على اغضاب الملك ؟ . لقد قلت كلمتي وانا واثق بانك باق وبان الموت اضعف من ان يمد يده اليك .

ـ بل قلتها وانت تريد نيابة الملك لنفسك !

ـ عفوك يا مولاي فانا لم افكر في هذا .!

ـ اذن فانت تعترف بان شرحبيل مولاك .

ـ نعم .

ـ وستكون عوناً له في كل ما يأمرك به ؟

ـ نعم فهذا ما يريده الملك .

ـ وانت يا شرحبيل اذكر انك ابن يعفر وان العرش عرش اجدادك الذين بنوه بالسيف .

قال : لم انس قط ما يقوله مولاي .

ـ واذكر ان لهذا العرش اعداء يصلونه الحرب من وراء الستار وانت تعلم من هم فلا تغمض عينك عنهم .

فكرهت نفسه ان يعترف بهذه العداوة ، فقال :

لا اصدق يا مولاي ان في اليمن اعداء لك .

ـ بل يجب ان تصدق وتكون سياجاً لعمرو الذي سيتولى امر الملك وهـو في فجر شبابه .

فاجابه قائلا : ان الفتى الذي يحسن قيادة الجيوش الى الميادين يحسن في الوقت نفسه الجلوس في كرسي ابيه .

فقال وهو لا يبالي : لقد خبرنا قبل سفره انه سيتزوج بلقيس وانك وعدته بهذا الزواج فقل له عند رجوعه ان يجعل زواجه في العام المقبل .

وقال للآخرين : هذه هي ارادة الملك التي نأمركم بان تنقلوهـا الى ولده . عار على ولي العهد ان يحيي الافراح في البلاط وابوه نائم في قبره منذ ايام ...

وبكى اللعين عندئذ ولا يعلم احـد اية عاطفة جالت في صدره ، في تلك الساعة

على انه لم يلبث حتى تبسم لخاطر آخر جديد فقال :

سنترك هذا العالم ونحن لا نعرف ابنة عمنا التي ستسمى ملكة .

ـ خير لك ان لا تعرفها يا مولاي فقد تكون على غير ما وصفت لك .

قال : لتهنأ بالملك وليهنأ عمرو بها فهي اهل له .

وجعل يقص عليهم حكايات ماضيه وهو ولي العهد حتى كاد ينقضي المربع الثاني من الليل ، وحتى ايقن بان جميع من في البلاط يغطون في النوم .

فاومأ الى الاميرين بان يخرجا قائلا لهما : انصرفا فقد بقيت لنا كلمة نقولهـا لنائب الملك ولكاهن مأرب .

فعرف ناشر وعتيك ان ساعة شرحبيل قد دنت ...

وقاما فخرجا ، فقال :

بايع مولاك ولي العهد يا وتار ذمر .

قال : اقسم بالالهة اني سأكون عبداً للملك عمرو بن ذي القرنين .

ــ واقسم انت يا شرحبيل.

فقال : اقسم اني سأكون مخلصاً لعرش الملك .

ومد يده الى حزامه ليرى اذا كان خنجره فيه ...

فقـــال الملك : أذنّا لكما في الذهـــاب الآن على ان تعودا فقـــد نعيش الى الصباح !!

اما شرحبيل فلم يجب ، واما وتار ذمر فقد ابتسم له ابتسامة خفية ثم توارى الاثنان عن نظر الملك الغدار .

* * *

٥٢

لم يدخل شرحبيل الى البلاط في ذلك الليل حتى خرج منه عباد يريـد قصر وتار ذمر وعلى وجهه حجاب .

غير انه لم يبق في ذلك القصر غير لحظة فقد تركه من باب آخر لا يطل على السوق ومشى وراءه غلامان محجبان هما مع عباد عصابة السوء .

ثم سار الثلاثة الى قصر شرحبيل وغلام الملك في الطليعة والجميع ساكتون كأنهم سائرون وراء نعش .

حتى اقبلوا على الفناء فرأوا ثلاثة اشباح وقفوا كالتماثيل وراء السور ، بينهم وبين هذه الاشباح بضع خطوات .

فخفق قلب عباد اولا ، ثم جعل يلوم نفسه على هذا الخوف الذي لا سبب له، ورأى باب الفناء مفتوحاً فدخل ودخل رفيقاه .

فابصروا عبداً يحمل سراجاً فقال الغلام :

نحن من غلمان الملك ايها العبد وقد ارسلنا الامير شرحبيل ننقل الى وصيفـة ابنته كلمة قالها لنا .

فحنى العبد رأسه ولم يجب ، كأن امراً خفياً صدر اليه من ربة القصر ،وتقدمهم الى البهو المظلم ليدعو نعمى .

ثم جاءت نعمى فقالت : من انتم ايها الغلمان ؟

فاجابها عباد وهو لا يضطرب ولا يرتجف صوته :

اذكري امر الملك !

قالت : عباد ؟؟

ــ نعم .

فصرفت العبد وهامستهم قائله : لقد نامت الاميرة ونام اخوهـا فاحبسوا انفاسكم واحذروا ان يسمع لكم همس .

ثم مشت امامهم في ذلك الرواق الطويل حتى وقفت بباب بلقيس وقالت :

ليدن غلام الملك فسافتح الباب .
وكان همسها مسموعاً من الداخل .
فدنا ذلك الغلام وفتحت الباب وهي تقول :
ادخلوا .! !
وكان ظلام تلك الحجرة موحشاً يبعث الهيبة والذعر .
ثم جعلت تنقل قدميها ببطء وهم وراءها حتى امست عنـــد سرير بلقيس.
فقالت : هذه هي فاضربوا .
وتراجعت . ثم اغلق الباب .
فسقطت خناجر الاشقياء على ذلك الجسم الناعم النائم في الفراش ولكن ذلك الجسم كان جماداً فقد مزقته الشفرات وهو في موضعه لم يتنفس ولم تخرج كلمة من فه .
فصاح عباد : خيانة للملك .
وفي تلك اللحظة نفسها ارتفع الستار الاسود وبرزت من ورائـــه بلقيس وغلمانها الاربعة وهي تقول ، خيانة للملك ؟ . .
وقبل ان ترتفع الايدي ، فتح الباب الآخر الذي يؤدي الى غرفة نعمى وظهر منه نور جعل الليل نهاراً .
ثم اغمدت الخناجر في الظهور .
انها ساعة .صبغت فيها الدماء سرير بلقيس وغرفتها وملأت اصوات الاستغاثة فضاءها وليس من مغيث .
ثم خدت تلك الاصوات وامسى غلمان الملك تحت الاقدام .
فقالت بلقيس لرجالها كأنها لا ترى شيئاً ولم يحدث شيء .
أحملوا هذه الجثث واطرحوها خارج الفناء دون ان تقولوا كلمة ، وارجعوا الى القصر اما انت يا نائل فافعل ما امرتك به ولا تعـــد الي حتى يغيب التراب هذه الاجسام .
فطرحت الجثث عند السور كما قالت بلقيس .
ولكن تلك الاشباح التي رآها عباد كانت قداعدت لها حفرة واحدة نقلتها اليها

وأسدل الستار على مؤامرة الملك من هذه الناحيه .

ولم تكن هذه الاشباح غير ثلاثة رجال ، من اتباع ناشر امير ظفار .

• • •

٥٣

وقف كاهن مأرب عند باب الملك وكان ناشر وعتيك قيد ذراعين منه كأنهما ارادا ان يقتلا ابن يعفر على عتبة ذلك الباب .

اما شرحبيل فمشى خطوتين اثنتين ثم رأى الشفرة تلمع في يد احدهما ، فقال وهو يتظاهر بالخوف : من انت ايها الرجل ؟

فاجابه ناشر قائلا :

فتى من مأرب يجرب ان يغمد خنجره في صدرك يا ابن عم الملك .

قال : الصوت صوت ناشر وانت تمزح .

ـ أجل، ولكن تعودت ان اسفك الدماء بعد كل مزاح، وعاجله بضربة سمع لها صوت . ثم سمع صوت آخر لضربة اخرى وقال الاثنان :

هذا اول رجل رأيناه يلبس درعين وقد كسر الخنجران .

قال : ولكن خنجري لا يكسر وسأجربه الان .

وكان الملك جالساً في فراشه وهو يسمع كل شيء .

فلما قال شرحبيل كلمته الاخيرة ، عرف انه لم يمت ، وان ذينك الامـيرين يخونانه ويعبثان به وهو غافل عنهما .

فارتخت يداه اللتان يستند اليهما وسقط بين وسائده .

وكان ناشر يقول في تلك اللحظة : قلت لك اننا نمزح مع نائب الملك لنختبر شجاعته في مواقف الخطر .

ـ بل ضربت وضرب ابن روضة ولولا هذان الدرعان لغاص النصـلان في

جسدي وغصت في دمي وخلا لكما الجو .

فقال عتيك : اخفض صوتك فالملك لم ينم وسيستيقظ جميع من في البلاط ..

ولكنى اريد ان يسمع المالك ويعرف ان امراء البلاط يتآمرون على الرجل الذي جعله نائباً له .

وجرد خنجره وهو يهدد ويتوعد .

فركض عتيك الى حيث يقف وتار وذمر واحتمى به قائلا :

اين خنجرك يا مولاي الكاهن ؟

فلم يقل الكاهن كلمة لان الذعر عقد لسانه .

ثم لحق ناشر بعتيك وهو يقول : عفواً ايها الاميرفلقد اخطأنا في مزاحنا وهذا الكاهن يشهد اننا لم نرد لك سوءاً .

ـ بل كان هذا الكاهن شريكاً لكما فليدافع عن نفسه او فدافعا عنه .

وهم بضربه : فتراجع وتار ذمر الى الوراء ثم لم يجد له ملجأ غير حجرة الملك فدار من وراء شرحبيل ثم وثب اليها وثباً وفتح الباب ودخل .

ولم يتردد المتآمرون في الدخول خلفه .

ثم فعل شرحبيل مثلهما والخنجر في يده .

غير ان الرعب استولى عليهم عندما رأوا ذا القرنين .!

رأوه مستلقياً على وسائده وهو مطبق العينين ، ولكنه لم يكن نائماً ، بل كان قد مات . فرفع شرحبيل صوته قائلا :

مولاي . !

غير ان مولاه لم يجب .

فأعاد قوله وهو لا يصدق ان يد الموت امتدت الى تبع العظيم الذي كان الموت نفسه يخاف غضبه .

ولكن النائم لم يسمع ذلك القول .

فنظر الى الثلاثة نظرة يأس ، ثم دنا من السرير ووضع يده على جبين الملك وجعل يهز رأسه .

ثم ذهل عمن حوله واخذ يتفرس في تلك الجثة الخرساء التي كان صاحبها اعظم سيد في العرب.

فقال عتيك وهو خائف :

أمات الملك ؟؟

فأجابه هامساً : لا اعلم فقد يستفيق بعد ساعة !

فابتسم اللعين ابتسامة خبث وهو يقول :

انها يد الموت وهذه هي...

ورفع تلك الوسائد التي تسند الجثة ، فسقط ذو القرنين على الفراش ولم يطرف له جفن .

فقال : لقد مات الملك وانت خليفتة يا مولاي .

ـ بل انا نائبه والملك لولي العهد .

ـ أجل يا مولاي وهذا ما اردت ان اقول .

وكان وتار ذمر يتراجع الى الوراء ليستند الى الجدار ، وقد ارتسم الذعر على وجهه. ان ركبتيه كانتا ترتجفان وقد أحس انهما لا تطيقان حمله ٠

وقد عرف شرحبيل ان الرجل يكاد يموت من رعبه .

بل عرف ، في تلك اللحظة ، ان كل شيء قد تغير وانه امسى ملكاً . فقال للقوم :

اتذكرون ايها الإمراء آخر كلمة قالها الملك ؟

ففهم عتيك غايته من ذلك السؤال ، فأجابه قائلا : نذكر انك القائم بأمر الملك .

ـ وتشهدون غداً ان الملك امر بهذا ؟

ـ نعم يا مولاي .

ـ وانت ايها الكاهن ؟

ـ فتمتم قائلا : انا اول من يعترف بذلك !

قال : لقد نسينا ما حدث الساعة في هذا الرواق فلا نسألك يا ابن روضة الا

عن الغاية التي اردتها من قتل شرحبيل بن عمرو .
فأطرق الرجل وتظاهر بالخوف .
فقال : وانت يا امير ظفار ماذا تقول ؟
ـ كنا نمزح يا مولاي كما قلنا لك .!
ـ ولكنه كان مزاحاً غريباً كما ترى! انك اول عربي يداعب الناس ويمازحهم بخنجره . !
وكان عتيك يرتجف من خوفه . فقال له :
اعترف يا عتيك بما اراد امير ظفار ان يكتمنا اياه والا فنحن لا ننسى ما حدث وسنخبر ملكنا عمراً كل شيء .
فقال وصوته يضطرب : عفوك يا نائب الملك .
ـ لقد عفونا فاذكر ما تعلم .
ـ أقسم بهذه الجثة انك ستعفو .
قال : ان نائب الملك يأمرك بان تبوح له بالسر فهل تفعل ؟
فتردد قليلا ثم قال : كنا نحن الاثنين يا مولاي ، آلة في يد رجل قوي قاهر لا يرد له في اليمن امر .
قال : اهذا هو ذلك الرجل ؟
وأشار الى وتار ذمر .
فقال : كان هذا من المتآمرين يا مولاي ، اما ذلك الرجل الذي سلح ايدينا ودفعنا الى القتل فهو هذا !
وأشار الى الجثة .
فتراجع قائلا : الملك ؟ ؟
ـ نعم الملك !
قال : لا اصدق حتى يعترف الاثنان .
فقال ناشر : صدق عتيك يا مولاي .
فأيقن وتار ذمر بأن شريكيه في المؤامرة كانا خائنين وهما من رجال شرحبيل.

والا فأي شيء يمنعها من قتله في تلك الساعة وهو عند فراش الملـــك الميت
وليس هنالك من يدافع عنـــه .
وكان يقول في نفسه :
لو لم يكونا من رجال شرحبيـــل لما لبس درعين .
وخاف المسكين ان يقتله الثلاثة ، ويضعوا جثته حيث اراد الملك ان يضع
جثة ابن عمه .
وزاد خوفه عندما ابصر شرحبيل يدنو منه .
فصاح قائلا : لقد عفوت ايهـــا الامير وانتهى الامر .
ــ أجل ، ولكن لنا كلمة نقولها قبل ان نهب لك الحياة أتريد ان تسمع ؟
ــ نعم يا مولاي .
قال : تحلف بالآلهة انك تطيعنا ما بقيت ، طاعة عمياء ، لاترددفيها ولارياء.
فهم بأن يحلف بآلهتـــه .
فأسكته قائلا : ولكن يجب ان تعلم ان هذه الحياة التي وهبناها لك الان ملك
لنا نسلبك اياها عندما يخطر لك ان تهزأ بنا وتنكث العهد .
فحلف اللعين ، وسمى الآلهة باسمائها عند حلفه .
ثم تظاهر بأنه نسي امراً ، فقال :
من هو ملك اليمن يا مولاي ؟
ــ ملكها عمرو بن ذي القرنين .
قال : واليمنيون رعية له كما كانوا رعيه لابيه اليس كذلك ؟
ــ بلى .
ــ اذن يجب ان اطيعه ولو اراد قتلي .
ــ نعم فالملك يجب ان يطاع .
ــ واذا سألني هذا الملك قضاء امر ثم سألتني انت قضاء أمر آخر فماذا أصنع ؟
فأدرك الامير ان الكاهن يريد ان يأخذ منه دون ان يعطيه ، فقال : الملك
قبل كل شيء .

قال : رضيت فأنا عبد للملك ثم لـــك .

ــ ولكن بقي شيء آخر .

ــ ماذا يا مولاي ؟

فلم يجبه ، بل قال لامير ظفار : اعطنا يا ناشر قلماً وورقاً فالكاهن الاعظم يريد ان يكتب عهداً .

فدهش وتار ذمر لما سمع ، ولكنه لم يصح من دهشته حتى احضر ناشر القلم والرق ووضعها بين يدي شرحبيل ، فقال :

خذ هذا القلم واكتب ايها الكاهن !

فتناول القلم دون ان يتردد وهو لا يعلم ماذا يكتب .

فقال له : ابدأ :

« وتار ذمر كاهن اليمن الاعظم ، وناشر امير ظفار ، وعتيك بن روضـــة امير نخلة ، يعترفون بان الملك ذا القرنين جعل شرحبيل بن عمه نائباً للملك ريثما يعود الملك عمرو من مهرا . »

فكتب الكاهن ما امره به وهو يضطرب .

فاستطرد شرحبيل قائلا : ضع اسمك وليضع الاميران اسميهما .

ففعلوا ذلك والقى وتار ذمر القلم من يده ، وقد عرف انه مغلوب .

لكن الامير لم يكتف بما جرى ، بل كان في تلك اللحظة ملكاً ، في عظمته ومظاهر سلطانه ، وكان يقـــول :

اكتب ايضاً يا سيدي الكاهن .

ــ وهل بقي هنالك عهد آخر ؟

ــ لقد انتهينا من العهود الان فاكتب :

« انا وتار ذمر اعترف بأني كنت شريكا للملك ذي القرنين في المؤامرة في ..

فرفع رأسه قائلا : ما هذا يا مولاي ؟

قال : اعتراف بأنك ساعدت الملـــك في الامر الذي اراده الليلة .

ــ ولكني لم احمل خنجراً كما رأيت ولم ادن منك

قال : يكفي انك ارسلت الى الملك غلامك عبادا ليكون آلة اعدام في يده.
ــ لقد امرني بان اجعله من غلمان قصره ففعلت .
ــ وأمرك بان تبعث به الليلة الى قصر شرحبيل ليغمد خنجره وخنجر رفاقه في صدر بلقيس ؟؟

فسقط قلم وتار ذمر وأرخى نظره الى الارض وهو يقول: نعم يا مولاي ذلك امر الملك . !

ــ وما هي غايته من القضاء على بلقيس التي ستزف الى ولده بعد حين ؟
ــ لم يكن يطيق ان يرى ابنة شرحبيل جالسة في عرش حمير !
ــ اكتب اذن :

« في المؤامرة على شرحبيل وبأني بعثت غلامي عباداً ليقتل بلقيس وهي نائمة»
فتردد المسكين في الكتابة .

فقال : خير لك ان تفعل دون تردد في الامر .
ــ وماذا يريد الامير من وراء هذا الاعتراف ؟
ــ ستعلم كل شيء عندما يمسي اعترافك في يدي . .

فتمشى الحقد في عروق الكاهن وجعل يكتب تلك الكلمات والنار تحرق احشاءه.
حتى وضع اسمه في آخر السطور وسلم اعترافه الهائل الى شرحبيل وهو يقول:
لقد أردت هذا يا مولاي فليكن ما أردت .

فوضعه الامير في كمه وقال : نستطيع الان ان نتحدث بما يطيب لك، اتريد ان تعلم غايتنا مما كتبت ؟

ــ نعم .

قال : اما العهد فقد امرناك بكتابته لاننا خفنا ان تقول لاهل البلاط ولليمن كلها ان شرحبيل بن عمرو اغتصب نيابة الملك اغتصاباً . واما هــذا الاعتراف فلكي نضمن اخلاصك لنا لانه قد يخطر لك غداً ان تنسى ما وعدتنا به .

فتجاهل اللعين قائلا : ولكني لم افهم شيئاً .

قال : الا تعلم ان الملك عمراً يحب بلقيس وسيجعلها زوجة له فتصبح ملكة ؟

ـ بـــلى .

ـ اذن فاذا تصنع عندما نقول لهذا الملك : اقرأ اعتراف كاهنك الذي اراد ان يقتل الفتاة التي احببت ؟

قال : يخيل الي انك تفكر في القضاء على كاهن مأرب .

ـ اجل ولكننا لا نعطي الملك هذا الاعتراف الا اذا عمدت الى الخيانـــة ، أفهمت الان ؟

قال : سأكون اشد اخلاصاً لك من المدهاد .

قال : وسنكون اشد وفاء لك من نفسك . ولكن الا تريد ان تعلم ماذاجرى لبلقيس مع عباد ؟

ـ وهل تعلم انت يا مولاي ماذا جرى لها ؟

ـ يخيل الينا ان عباداً ورفيقيه يرقدون الان تحت التراب .

فاسودت الدنيا في عينيه وجعل يقول : اذا كان هذا فالاميرة ساحرة وقـــد تهيأت للأمر قبل حدوثه .

ـ اصبت فقد يكون هنالك شيء من السحر كما ذكرت .

ثم قال للاميرين : اما انتما فلا نخشى ان تسعيا بنا . ان الملك قـــد مات الان وليس لكما غرض بالبلاط الا ان تقيما به . اخرج الان ايها الكاهن على ان تعود عند الصباح لنعلن على اهل مأرب موت الملك .

فخرج وهو يتعثر بفشله وحقده وكان يقول في سره : اهنأ بنيابـــة الملك يا شرحبيل وابن بالحيلة والدهاء ، ذلك العرش الذي تحلم به ويحلم به الخونـــة الذين حولك . ولكنك لا تنس ان وتار ذمر في الوجود ، وانه لا يعبأ بالعهد الذيكتبه والاعتراف الذى انتزعته منه .

وكان قد وثق الوثوق كله ، بان ذا القرنين كان على صواب عندما اراد ان ينجو من ابن عمه .

اما الامراء الثلاثة ، فقد ابتسموا ابتسامة الظفر بعدخروجه ، وجعلوا ينظرون الى الملك الغائص بين وسائده ، وفي صدر كل واحد منهم عاطفة لم يكن يحسها

من قبل .

ثم قال عتيك : ماذا رأيت يا مولاي ؟ أيستطيع عتيك بن روضـــة ان يقرأ الزمان الآتي كأنه يراه ؟

ـ اجل ، ويستطيع ايضاً ان يقرأ لنا من جديد اسرار هذا الزمان .

قال : لقد مات الملك يا مولاي ولم يبق الان الا ان تعد العدة .

ـ وهل يجور زمانك ام يصفو ؟

فهز رأسه قائلا : لقد لمست شيئاً من جوره في هذه الساعـــة وانا اخشى ان يتمادى في هذا الجور .

ـ وكيف ذلك ؟

ـ الم تعف الان عن هذه الافعى التي تنفث سمها في ظلام الليل .

ـ ولكنها ستصبح بدون سم .

قال : انك ستجعل العهود سلاحاً لك .

ـ نعم وهي سلاح امضى من السيف ! .

فضحك وهو يقول : اذن سيكون لك ملك واسع يا مولاي يبدأ في الحجاز وتنتهي حدوده عند الحبشة .

قال : أتستخف يا عتيك ؟

ـ اجل يا مولاي وكيف لا افعل وقد بدأت عهدك بالعفو عن اعداء عرشك واطلقت الكاهن الاكبر الذي يستطيع وحده ان يهدم ما تبنيه .

وسكت قليلا ثم قال : وما هو هذا العهد الذي وضعته في كمك يا مولاي ؟ ! انه رق مكتوب ستمحو الايام سطوره غداً او بعد غد ولا يبقى منه غير أثره .

قال : هات رأيك فيه .

ـ بل هات رأيك انت يا مولاي . اتريد ان تدفع عمراً على خيانة وثار ذمر وتآمره على بلقيس كما قلت ؟

ـ لا ، بل هي كلمة قلتها للكاهن لابعث الخوف الى قلبه واسكت عاطفـــة الطمع والبغض في صدره .

ــ ولكن هذا الخوف سيزول عندما يعلم ان عمراً ابن ذي القرنــين لم يبق له تاج وان العرش صار ملكاً لك .

فأطرق الامير مليا وقــد رأى ، مرة ثانيــة ، ان امير نحلة ابعد نظراً منــه واكثر دهــاء .

وماذا ينفعه هذا العهد الذي يحمله ، عندما يمسي ابن ذي القرنين طريداً في جبال اليمن لا يخافه الكاهن ولا يخشى جانبه يمني .

ثم رفع رأسه ولبث ساكتا .

فقال عتيك : الم يقم في ذهنك يا مولاي ان وتار ذمر سيضع يده بيــد عمرو ويمضي الاثنان في أمرهما حتى يظفرا بالعرش او يمــوتا ؟؟ الا تظن ان وتار ذمر سيستحق رضى مولاه وشكره على هذه المؤامرة التي تهدده بفضح سرها والتي خانه القدر فلم يبلغ غايته منها ؟؟ ان في حياة هذه المؤامرة حياة ولي العهد وفي موتها موتــه كما سترى بعد حين .

ــ اذن ترى ان نقتل الكاهن الاعظم وينتهي الامر ؟

ــ كما اني ارى ان تتهيأ لقتل عمرو عندما يضع قدمه في البلاط .

ففاجأه ناشر بقوله : بل اسأل مولاي ان يحفظ حياته .

قال : العلك تريد ان تصير امينا لسره وهو ملــك كما كنت امينا له وهــو ولي عهد ؟ .

فأجابه عتيك قائلا : بل يريد ان تحفظ هذه الحياة لتكون حياة عذاب وشقاء!

قال : وأراك تذكر عاتكة كلما ذكرلك عمرو؟

ــ نعم يا مولاي وان أنسى ذلك الحادث الغريب الذي جرى في خيمتــه وعيني تراه .

فمشى شرحبيل الى الباب وهو يقول ليقم احد الحراس بباب الملك ولنذهب الى القصر لنرى ماذا حدث لبلقيس مع غلمان الملك .

فقال امير ظفار : خير لنا ان ننظر في امرنا الساعة من ان نضيع الزمــان . ان عباداً وشريكيه سبقوا ذا القرنين الى القبر .

ـ ولكن يجب ان ننظر في الامر الذي ذكرتماه الان .. فاما ان نقتل وتار ذمر او يبقى .

فابتسم عتيك ابتسامة الاستخفاف وقال :

سنقتله ولو امرتنا وامرتنا بلقيس بان نعفو عنه .

ففتح الباب دون ان يجيب وكان يقول في نفسه :

اصاب الاميران واخطأت بلقيس فوت الرجل لا بد منه .

وتبعه الاثنان الى الرواق ، ثم دعا ناشر احد الحراس وقال له : ابق عند باب الملك ولا تنقل من موقفك قدماً وامنع الجواري والغلمان واهل البلاط كلهم من الدخول ... أسمعت ؟

ــ واذا امرني الملك بان ادعو احداً منهم ؟

ــ الملك نائم فلا يستفيق الا عند الصباح ...

واجتازوا الرواق والظلام ينشر ظله والصمت الرهيب يملأ البلاط وفي نفس كل واحد منهم رهبة الموت .

* * *

٥٤

كانت بلقيس ، عندما اقبل ابوها ومن معه الى القصر ، تنظم الاشعار ، مع نعمى ونائلة ، في رثاء عباد .

وقد همت بان تبعث نائلا الى البلاط لينقل اليها اخباره ، في ذلك الليل .

فلما رأت اباها والاميرين ايقنت بان ذا القرنين قد مات ، وبان ذلك المنهاج الذي وضعته مع انصارها الكثار قد امحى ولم يبق منه شيء .

ولم تلبث حتى فاجأتهم قائلة : انقل اليكم خبر موت عباد ، وتنقلون الي خبر موت الملك ..!

فقال شرحبيل : من قال لك ذلك يا بلقيس ؟

ـ دلني عليه قدوم هذين الاميرين في مثل هذه الساعة .

فنظر اليها الثلاثة نظرات الاحترام والاعجاب .

ثم قال عتيك : اجل لقد مات الملك وقد تركنا جثته واتينا اليك لنسألك سؤالا .

ـ اسأل . .

قال : اتفكرين في الجلوس على العرش ام ماذا ؟

قالت : العرش الان لشرحبيل بن عمرو .

ـ وهل تريدين ويريد الملك شرحبيل بن عمرو ان يثبت عرشه ويهزأ بجميع من حوله من خصوم واعداء ؟

ـ اجل .

ـ اذن فاعلما ان هنالك اميرين كبيرين يجب ان يموتا وقد ذكرتهما لك قبل هذه الساعة .

قالت : لقد رجعت يا عتيك الى ذكر وتار ذمر وعمرو !

ـ نعم ، وسأذكرهما لك غداً وبعد شهر وبعد عام حتى أرى جثتيهما بعيني لاثنتين .

وجعل يروي لها حكاية الكاهن في تلك الليلة .

قالت : وماذا يقول امير ظفار ؟

فاجابها ناشر قائلا : ألست من انصار الملك شرحبيل بن عمرو ؟

ـ بلى .

ـ أفلا استحق ان يهب لي حياة رجل يمني ؟

ـ بلى .

ـ اذن اسأله ان يهب لي حياة عمرو بن ذي القرنين .

فعرفت بلقيس اية عاطفة املت عليه سؤاله .

فقالت : انت تطلب ان يعيش ، وامير نحلة يطلب ان يموت !!

ـ : ولكن امير نحلة يخاف شره وانا لا اعبأ به !
ـ : وبلقيس مثلك لا تعبأ به ... ان حياته في يدك فافعل ما تشاء ..
فقطب عتيك حاجبيه قائلا : اذكري ابنتها الاميرة انه وارث عرش حميروان هذا العرش امسى ملكاً لسواه .
ـ : واذكر انت ان الوارث الضعيف .. العاشق الذي يبيع اليمن كلها بنظرة واحدة تجود بها عليه بلقيس ! ..
قال : سينسيه العرش غرامه يا مولاتي .
ـ بل ينسيه هذا الغرام ، كل ما عـلى الارض من عروش .. فكاد عتيك يضيع هدوءه .. ان هذا الاستخفاف معنـاه القضاء على الملك الذي وضع ابن يعفر يده عليه .. وكيف يسلم هذا الملك وابن ذي القرنين الذي هو صاحبـه ، ينظر اليه ، ويبذل الجهد كله ليسحق القوم الذين اغتصبوه ؟
فقال : لقد رأيتم جميعكم غير ما أراه فافسحوا لابن ذي القرنين مجال الحياة وليعذرني نائب الملك اذا عصيت امره .
ـ ومن هو نائب الملك يا ابن روضة ؟
ـ هو ابوك فقد فوض اليه ذو القرنين امر الملك قبل ان يلفظ روحه .
قالت : ذلك هو الدهاء الذي لا نصدق منه كلمة .
ـ ولكن الملك فعل ذلك وهو يعلم ان الخنجرين سيمزقان جسد ابن عمه وان هذه النيابة لم توجد الا لتموت .. واعاد عليها حديث الملك ثم قال :
اما الزواج فلا يتم في هذا العام وهذه ارادة الملك .
فضحكت قائلة : ومتى يكون ذلك ؟
ـ في العام المقبل لان ذا القرنين لا يطيق ، وهو في قبره ، أن يرى الافراح بعد موته تسود البلاط ...
قالت : مسكين ذو القرنين ان له ولداً لا يحترم وصيته ولا يبالي بالاقوال التي ينقلها اليه رجال ابيه .
ـ لا يـا مولاتي ، ان الولد الذي يخلف اباه ، لا يستطيع ان يجلس على

العرش قبل ان ينفذ ارادة الملك الراحل ، تلك هي شروط الملك في حمير منذ اجيال .

ـ اذن ترك لنا الملك عاماً كاملا نتهيأ في خلاله للامر .

ـ بل تركت لنا الاقدار شهراً واحداً نعد فيه العدة قبل ان يعود ولي العهد

ـ ولكنك لم تقل لي كيف تعصى امر نائب الملك .

قال : تهيئون انتم لابن ذي القرنين اسباب الحياة واهيء انا له اسباب الموت ثم نرى بعد ذلك لمن يكون الفوز .

فقال ناشر : اما انا فسأحميه وسأقول له في كل يوم انظر الى اين انتهى ملكك ايها السفاح !

وقالت بلقيس : وأما انا فأوصيك من الان بان تفعل كل ما نأمرك به لئلا تفسد علينا الامر ... وكان الناظر اليها في تلك الساعة يحسب انها ملكة حمير تصدر لانصار عرشها أوامرها المقدسة ! فحنى عتيك رأسه دون ان يجيب .

وقد عرف انه لا يستطيع ان يخالف الملكة ، في الامر الذي تشاء .. ثم تمتم قائلا : وكاهن مأرب ؟

فأجابته ولهجتها لاتتغير : وهذا يبقى حياً حتى نرى ان موته خير من حياته. والتفتت الى ابيها قائلة :

أتريد ان تلطخ العرش بالدماء يا مولاي ؟

فتردد قليلا ثم قال : اريد ما تريدين يا بلقيس .! وكان جوابه كما ترى ، جواب رجل ضعيف الارادة ، لا يصلح للعروش .

فقالت : لقد انتهى الامر من هذه الناحية ، فلنبدأ بالعمل من الناحية الاخرى ، هات يا ابن روضة ... فقام في ذهن الرجل ، انه اذا دار حول القضية دورة دهاء ، استطاع ان يجعل ترددها حزماً ، ولينها شدة فقال : لمن الملك ؟ ألك ام لابيك ؟

فرفعت صوتها وهي تقول : لي انا !

قال : سمعنا وأطعنا .. اذن يتولى نائب الملك اليوم امر اليمن حتى يعود

الجيش من ساحة القتال .

ـ وماذا يصنع قبل ان يعود هذا الجيش ؟

ـ يرسل رسله الليلة الى انصاره في الاقاليم ، وتصبح مأرب بعد شهرين ملجأ لثلاثين الفاً من الرجال .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ ثم يجيء عمرو مع جنوده ، فيرى حول البلاط سوراً من اليمنيين يمنعه من الوصول اليه .

ـ ويعلم عندئذ ان الملك خرج من يده وتنشب الحرب .

ـ نعم ، وتعرفين عندئذ الخونة والمخلصين .

قالت : لا يطيب لعتيك الا ان تسفح الدماء في مأرب ويسقط السيف على رأس ولي العهد ورأس وتار ذمر .. انه رأي لم ترد فيــه غير الحرب ونحن لا نريد ان نشهر حربا .

وما هي القوة التي تخضع عمراً ؟

قالت : ندعو انصارنا ليقيموا بحرثة التي تبعد عن مأرب ثلاثة ايام وتبقى مأرب كما هي اليوم .

ـ واذا رجع عمرو ؟

ـ يرجع فيرى العرش ويتربع فيه ، ويرى التاج فيعصب به رأسه ، ثم يأمر جنوده بالانصراف الى المخاليف فيخلو لنا الجو .. ثم هامسته قائلة اسمع مــاذا يحدث بعد ذلك .. تمر ايام والملك الفتى يستقبل الوفود ويصافح المهنئين وهو يبتسم ابتسامة الزهو والغرور بهذا الملك الواسع الذي تركــه ابوه .. ولكنه لا يفتح عينيه ، في صباح يوم ، الا ليرى الرجال يحيطون بقصره كما قلت ، وقــد زحفوا من حرثة الى مأرب في ظلام الليل .. ثم يبصر حوله امــراء اليمن وهم ينحنون له قائلين : لقد اختارت اليمن ملكة من ولد حمير هي بلقيس بنت شرحبيل فلم يبق لك الا ان تنصرف آمنا وتترك العرش الى الابد .

فصاح قائلا : وتظن بلقيس ، التي تطمــع بالملك ، ان الامر ينتهي عنــد

هذا الحد ؟

ـ نعم ، فان عمراً عندما يرى اعداء ابيه يهددونه بالسيوف وليس في بلاطه من الانصار غير وتار ذمر ، تتساقط دموعه على خديــه ، ثم يستسلم الى اولئك الامراء خاضعاً للقوة التي لا ترد ، ويخرج من قصره وهو لا يصدق انه حي ! .

ـ كما ان عتيكاً لا يصدق كلمة واحدة من هذه الحكاية التي تقصينها عليه .

ـ لماذا ؟

ـ لانها حلم ايتها الملكة وانا لا اؤمن بالاحلام !

ـ ومع ذلك فقد اصبح هذا الحلم عقيدة في النفس لا يتغير شيء منهــا ولا تزعزعها الحادثات .

قال : انصح لك يا مولاتي بان تنظري في الامر نظرة اخرى قبل ان يخرج من يدك ويفوت الزمان .

ـ فعلنا ذلك قبل الان ، فلم نجد له وجهاً آخر .

قال : استحلفك لآخر مرة بشرف يعفر ان تعمدي الى السيف خوفاً من ان تخسري كل شيء .

ـ وانا استحلفك بتربة ابيك روضة ان تكف عن هذا وتضع قدمك حيث يضع نائب الملك قدمه ،. ولم تشأ ان تسمع اكثر مما سمعت ، بل زدت غلامها نائلا قائلة له : ادع اخي الهدهاد ثم قالت لابيهــا : اترى يا مولاي ان نبعث رسولا الى مذحج ؟

قال : عند الغوث وجبار وذي مغار من الجيوش اكثر مما في مهــرا فلنترك بني مذحج الان

ثم اقبل الهدهاد ، فقال له ابوه : تركب فرسك غداً ، عند الفجر ، ويتبعك، على بعد فرسخين عبدان من عبيد القصر ينقلان الزاد على ثلاثة بغال .

قال : الى اين يا مولاي ؟

ـ الى مخلاف مغار فجبار بن دوير والغوث بن راهط يقيمان به . وهــذا هو الخنجر الذي تسلمه الى ذي مغار قائلا له : « هذا خنجر ابي فارحل الى حرثــه

وامكث بها مع القوم حتى يرد منه امر آخر ولكن اعلم يا بني ان العرش الحميري في يدك الان فكن ذلك الرجل الذي يثــق به قومك ولا تنس ان وراءنا عدواً لا يستهان به .

قال : اعرف ذلك يا مولاي .

ـ واحذر ان تتصدى لاحد في رحلتك هذه فالساعة التي تصيبها وانت ذاهب يضيع بعدها نفوذ ابيك وسلطانه .

ـ واذا عرض لي وحش او عدو يا ابي ؟

ـ اما الوحش فسيفك يكفيه مؤونته ، واما العدو فليس لابيك خارج مأرب اعداء ويكفي ان تذكر لليمني اسم ابيك ليتخلى عنك .. واوصيك بالخنجر يــا بني ، ان صاحب مغار لا يصدق ما تقوله له الا اذا كان الخنجر في يدك .

قال عتيك : ليذهب مع الهدهاد بعض الرجال .

ـ لا فالرجال الكثار يلفتون نظر القوم ، ونهض قائــلا : لنرجع الان الى البلاط قبل ان يعرف اهله ان الملك قد مات . فلم يبق لعتيك الا ان يخضع مكرهاً لبلقيس كما خضع لها شرحبيل وناشر ولكنه كان واثقاً بانها ستخسر العرش .. وعندماهم بالانصراف قال لها : اذكري دائماً يا مولاتي اني نصحتك لك بالعدول عن هذا الرأي ، فلم تجب ، بل ابتسمت لمظاهر اخلاصه ، وكانت تهزأ في سرها بذلك الخوف الذي لا معنى له ..!

* * *

٥٥

عندما كان شرحبيل والاميران يتحدثون ، في تلك الليلة ، عند جثة ذي القرنين بعد خروج وتار ذمر ، كان رجل ، في القاعة المجاورة ، التي هي قاعة سلاح الملك ينصت الى ما يقولون ، ويصغي الى ما يدور بينهم من احاديث واسرار ...

وقد سمع كلما ذكروه عن ولي العهد وكاهن مأرب ... فلما تركو البلاط الى قصر شرحبيل ، خرج من تلك القاعة كما يخرج اللص الخائف ، ومشى وراءهم متحجباً ، بالاشجار والجدر ، كي لا تقع عليه العيون ، حتى دخلوا ذلك القصر ، فوقف عند باب الفناء ينتظر خروجهم منه .

ثم خرجوا بعد ساعة كما رأيت ، وهم يذكرون ، حرثة ، والهدهاد ، وذامغار وخنجر شرحبيل ، وقد قام في اذهانهم ، ان عاصمة اليمن قد نامت ، ولبس هنالك من يحصي عليهم الانفاس ...

ثم ارتفعت اصواتهم وهم يقولون : اذا كان الغوث بن راهط وجبار بن دوير في مغار ، استطاع القوم ان يبلغوا حرثة ، قبل ان ينقضي الشهر .

وكان عتيك يقول : ولكنهم لا يفعلون شيئاً ولو بلغوها بعد عشرة ايام ... ان التاج لا يثبت على رأس بلقيس ما دام عمرو ووتار ذمر في الوجود ! . والرجل يسمع كل شيء وركبتاه ترتجفان .. وهو يخشى ان يقع على الارض ويسمع القوم صوت سقوطه !

اتعرف من كان هــذا الرجل ؟ انه وتار ذمر نفسه الذى حكم عليه عتيك بالموت !!

وقد استطاع في الساعتــين اللتين انصت فيهما الى همس اعدائه ، ان يعرف كل مــا هنالك من اسرار ، ويلمس بيديه مكر شرحبيل ودهــاءه ، في وعده ولي العهد بالزواج وخضوعه الكاذب لذي القرنين ، وهو على فراش الموت !

ولو قدر احدهم في تلك الساعة ، على ان يبصر ذلك الكاهن العظيم الذي تخافه اليمن كلها ، لابصر رجلا صعلوكاً يبدو الفقر على ثوبه ، وتنطق اطماره البالية بما في داخله من مرارة وألم ، وقنوط ويأس .

كان يلبس لباس اهل اليمن القدماء ، وقد وضع على كتفيه عباءة سوداء يحسبها الناظر من عهد قحطان ، . وكان يعلم ان الموت يكمن له عند كل خطوة يسمع لها صوت ، ومع ذلك فلم يبال ، بل كان جريئاً يقتحم الاخطار ليبلغ الغاية .. حتى انتهى القوم الى البلاط فتغللوا فيه ، اما هو فانصرف الى قصره ، لانه رأى انه لم يبق له اليوم امل بذلك البلاط ، واحيا الليل كله وهو يفكر في امره ، حتى ارتاحت نفسه اخيراً الى رأي آنس فيه الفوز والظفر باولئك الاعداء .. فاغمض عينيه مستلذاً ذلك الرأي ، ولكنه لم يفعل حتى اقبل عبيد ذي القرنين يدعونه الى البلاط .

فقال في نفسه : يريد اللعين ان اشهد له امام اهل مأرب بنيابة الملك . . نعم يا شرحبيل انك اليوم ملك اليمن رضي وتار ذمر او لم يرض ! ! ولكن هذا الملك قصير العمر وسترى وترى بلقيس ان ايديكما لا تصل الى تاج حمير وانا حي .. وضحك في سره ، لبلاهة شرحبيل وابنته في العفو عنه! ! ثم قام فخرج واوصى غلمانه بالا يفتحوا لاحد ابواب القصر . ومر بذهنه ، في تلك اللحظة ذلك المسكين عباد ، ولكن كما يمر السحاب .. ولولا الحاجة اليه ، لما خطر له ان يفكر فيه .

* * *

٥٦

استيقظ جميع من في البلاط لصوت ناشر :

انهضوا ايها الناس فملك حمير العظيم قد مات ...

واي انسان في البلاط يسمع هذا النداء ولا يخرج مذعوراً ؟ ان موت الملك الفجائي يهز اليمن كلها من الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق الى الغرب ،فغص

رو ق الملك بالجواري والغلمان وعرف كل من في البلاط ان شرحبيل يقوم مقام ذي القرنين في ادارة الملك .. ثم اقبلوا جميعهم ينظرون الى ملكهم الظالم الذي صرعه الردى ، وليس في القلوب عاطفة حزن ووفاء ، بل كانت مظاهر الدهشة على وجوههم المختلفة الالوان ، وليس غريباً ان يضطرب القـــوم لموت الملك ، فقد عرف بعضهم انه مريض وان الداء ينهش جسمه الجبار ، ولكن لم يقم في اذهانهم ان هذا الداء سيقوده الى القبر .. فلما هـــدأ روعهم ، امرهم ناشر بان يعدوا السلاح والآنية التي يدفنونها مع الجثة ، تبعاً لعادة الحميريين في دفن الملوك والامراء ، فدخل الغلمان قاعة السلاح ، واختاروا من السيوف الكثيرة سيفـــين قبضتاهما من الذهب كانا احب سيوفه اليه ، ورمحاً لم يكن يفارقـــه في الميادين ، وطائفة من آنية الذهب ، كانت الخمر تتلألأ فيها في مجالس الشراب، ثم وضعت الجثة في قاعة تجاور قاعة العرش ، وخرج الناعي ينعى الملك العظيم لاهل مأرب ولامراء الاقاليم ، فاندفعت مأرب الى البلاط تحمل البخور والعـــود وصنوف الطيب اليمني لتحرقه عند نعشه ، وتهتف لولده الذي سيلبس التاج بعـــده . . وعلى رأس الجموع وتار ذمر ،سيد الكهان تبدو على وجهه دلائل الكآبة ، ولكنها لا تحجب دلائل الخبث والدهاء .

فلما اصبحوا في تلك القاعة، دنا الكاهن من نعش مولاه وجعل يصلي ويخاطب آلهته ، ولو سمع الناس صلاته ، لعرفوا انها كانت لعنة يستنزلها على شرحبيل بن عمرو ومن حوله من انصار ..ثم أجال اللعين نظره بين القوم فأبصر شرحبيل بن عتيك وناشراً ، والى جانبهم بعض الشيوخ من اصحاب المناصب في البلاط فانحنى كما كان ينحني امام الملك ورفع صوته قائلا :

يا اهل اليمن ، اشهد امامكم ان مولاي ذا القرنين ، جعل ابن عمه نائبـــاً للملك ريثما يعود الملك عمرو . . .

فهتف القوم قائلين : يعيش ملك حمير .

ثم قال : وقد امرني الملك بان اطيعه واخضع له فاسمعوا له واطيعوه واعلموا انه ملككم اليوم !

فقال عتيك : يعيش شرحبيل ابن عم الملك ..
فردد الناس هتافه وفي اصواتهم نغمات الابتهاج ..
ثم مشى بخطى هادئة حتى داني شرحبيل فقال :
ألا ترى يا مولاي ان تبعث رسولا الى مهرا يحمل الى الملك عمرو نعي ابيه ؟
قالها الداهية ليعرف ما في نفسه ...
فأجابه قائلا : ان النعي يا سيدي الكاهن لا يرسل الى الميادين ..
ــ ومتى تأذن في دفن الجثة ؟
قال : ضعوا الطيب في اوعيته واحرقوا البخور ..
ــ وهل تريد ان يطوف الناس في مأرب كما يفعلون كل ما مات ملك ؟
فاستغرب شرحبيل هذا السؤال وقال له :
وما الذي يمنعنا ان نفعل هذا ؟ اتظن ان وكيل العرش الذي هو سليل حمير يرضى بان يدفن ملك عربي كما يدفن ذو القرنين . وهل قام ابن يعفر ليغير عادات اليمنيين في دفن ملوكهم ؟؟ انها كلمة لا نعرف اي خاطر خطر لك عندما لفظتها شفتاك !! ..
قال : عفوك يا مولاي فقد ظننت .
فقاطعه قائلا : ماذا ؟
ــ لا يا مولاي لم اظن شيئاً ولكنه سؤال تعجلت فيه وانا لا اعلم ما وراءه ..
فقال عتيك : اي انه لا يعلم يا مولاي ما هي الغاية من سؤاله .
فحول شرحبيل نظره عنه وقال : الطيب يا قوم ..
فملأت رائحة الطيب اليمني تلك القاعة الواسعة .. ثم قال : والبخور ...
فتصاعد الدخان في الفضاء والناس ساكتون .. وعندما عبقت القاعة بالبخور والطيب ، دنا شرحبيل من النعش ووراءه وتار ذمر والامراء وجثا عند قدمي الجثة وتمتم يقول : اعاهدك يا مولاي الملك على الوفاء للعرش الذي تركت ...
ولم يقل « ولولدك الذي اصبح ملكاً .. »
وفعل الآخرون مثله ، وتلك كانت عادة الامراء اصحاب الشأن والنفوذ في

اليمن ، فعرف وتار ذمر عندئذ ، ان « ولي العهد » قضى عليه ، لان شرحبيل ومن معه لم يذكروه في ذلك العهد الذي رددوه .

ثم حمل شرحبيل سيفي الملك ، وحمل ناشر رمحه ، وعتيك آنية الذهب ، وداروا بهذه الاشياء حول ماكهم ثلاث دورات ، وكانوا يقسمون في كل دورة انهم سيكونون اوفياء لصاحب التاج الحميري ! ثم عـــادوا الى مواقفهم ، وبقي الكاهن بالقرب من الجثة يتمتم صلاته ، والناس يرددون تلك الصـــلاة بخشوع وايمان حتى مرت الساعات وهم يصلون .

فخرجوا عندئذ من البلاط والنعش على اكف الامراء وطافوا في جميع احياء مأرب ، طوافاً صامتاً لم يرتفع فيه صوت وانتهى طوفهم عند الظهر ، الى تلك القبور العظيمة التي يرقد فيها التبابعة العظماء ..

وحجبت جدر القبر ذا القرنين عن عيون شعبه ، وسدل الستار .

ثم عاد شرحبيل الى البلاط يصافح وفود المعزين حتى غربت الشمس ولم يبق في قصر تبع غير سكانه .

ونام شرحبيل في تلك الليلة ، وهو يحلم بالتاج تلمع جواهره على رأس بلقيس ..

* * *

٥٧

لم يتردد وتار ذمر في امره ، ولم يضيع ساعة واحدة ، بعد رجوعه الى القصر دعا غلمانه وقال لهم : سأترك القصر الساعة وقد لا اعود الا بعد شهرين ، فاذا خطر لاحدهم ان يسألكم عني فقولوا : ذهب الى الحجاز ... ولم يزد على ما قاله كلمة ، بل خرج من الباب وثباً واخفاه الظلام عن العيون . ولسور مأرب بابان ، من الشمال والجنوب ، فاتجه الى الباب الشمالي وتجاوزه الى الخلاء ، والحراس

يعجبون لخروجه وحيداً في ذلك الليل ، على انه لم يكن وحده ، بل كان هنالك وراء السور ، رجلان لهما قامتان طويلتان وصدران عريضـان ،وبالقرب منهما بغلة سوداء ترعى العشب .

ويعلم الناظر الى ذينك الرجلين، انهما من اولئك الرجال الاشقياء الذين يطيب لهم القتل ويستلذون الدماء ... فلما ابصرا وتار ذمر ، عمدا الى البغلة فأعداها للركوب ، فعلا الكاهن ظهرها وهو يقول : تقدماني الى الطريـق الاخر الذي يؤدي الى مغار !

فقال احدهما : لقد وصفت لك هذا الطريق يا مولاي .

قال : لا بأس فالذي يمشي بقدم ثابتةوعزيمة جبارةالى غاية لا يبالي بالشدائد والاخطار . ثم قال : ألم تذكر لي انه اقرب من الطريق الاخر ؟

ــ نعم يا مولانا

ــ اذن فامشيا واعلما اننا نريد ان نسبق رجـلا خرج من مأرب في هـذا الصباح والويل لكما اذا كان هو السابق .

فسبق الاثنان البغلة ، وهزها الكاهن الاعظم فاندفعت وراءهما في ذالـك الطريق الوعر الذي تكثر فيه اصناف الحيوان .. وانقضى الليل كله وهم يمشون، ووتار ذمر لا يأذن في الراحة ولا يعبأ بتعبه وتعب رفيقيه .

ثم طلعت الشمس وهم ينحدرون من جبل عال الى واد بعيد الغور يلتقي في ساحته طريقان .

فقال الشقيان : سترى صاحبك يا مولانا في هذا الوادي .

قال : لنلبس اذن هذه الثياب التي تحملان ، ولنضـع العمائم على الرؤوس والوجوه .. وقفز الى الارض فلبس ثوب فلاح يمني ولبس الاثنـان مثله ، ثم خاطبهما قائلا : ان الفتى الذي نتبعه لا يخرج من مأرب الا مع بعض عبيده ، فيجب ان يقتل هؤلاء العبيد وتحفظ حياة الفتى كما اوصيتكما في الليل الماضي .

ــ ولكن مهمتنا لا تنتهي الا بعد شهر !

ــ اجل ، تقيدانه.. ثم تحملانه الى احدى مغاور هذا الوادي وتمكثون فيها

انتم الثلاثة حتى يمر شهر كامل .

ــ وبعد ذلك ؟

ــ تعيدان اليه السلاح الذي سلبتماه اياه ثم ينصرف آمنا الى حيث يشاء ... وانا الان اعيد ما قلته امس ، اذا خطر لكما ان تفكا الاسير قبل الموعـــد الذي ذكرت فقد خنتما الملك وانتما تعرفان قسوته الـــتي لا تذكر معها قسوة ابيـــه ذي القرنين .

ثم قال : وعندما يعود الملك من مهرا ، ترجعان الى مأرب فاعطيكما ضيعتين كما وعدت ، ويهب لكما الملك قبضتين من الذهب تعيشان به كما يعيش الامراء

فقالا : ليمت كل من يخون الملك، ولكن لماذا لا تأمرنا بقتل هذا الرجل؟

فاكتفى بان يقول : لاني اريد ذلك .

ثم كف فجأة عن الكلام ، فقد ابصر في اسفل الوادي فتى يقـــود فرسه ، فقال لهما : اي ورب اليمن هذا هو . وانحدر معهما ماشياً حتى توسطوا الوادي فرأوا ذلك الفتى جالساً على صخر وكان ينتظر عبديه .. فهامسهما وتـــار ذمر قائلا : اتعرفان هذا الوجه ؟

ـ ومن لا يعرف الهدهاد بن شرحبيل .

قال : ابدأ بما امرتكما به واسألاه اذا كان معه أحد العبيد ،وتنحى اللعين مع بغلته وجلس بعيداً وهو مطمئن ، فتقدم الاثنان قائلين : ابن الامير شرحبيل ؟

فأجابهما الفتى وهو يبتسم : اجل فمن انتما ؟

ـ فلاحان من فلاحي مأرب كما ترى ، وانحنيا فقبلا ركبتيه .!

فقال : الى اين ؟

ــ الى مغار .. وانت يا مولانا ؟

ـ الى واد يبعد بضعة فراسخ عن هذا الوادي يكثر فيه الصيد .

ـ وكيف يذهب الامير الهدهاد الى الصيد وحده ؟

ـ تقدمت عبدين من عبيدي الى هذا الموضع وسيصلان عند المساء .

فجلس الشقيان عند قدميه وهما يظهران الخضوع والاحترام .

اما هو فابتسم ابتسامة اخرى وقال :

من هو ذلك الفلاح الآخر الذي يداعب بغلته ؟

– رجل غريب عن مأرب رأيناه في قمة الجبل .

– واي غرض لكما بمغار ؟

– نطلب اسباب العيش في كل بلد ننزل فيه .

– وما هذه العمائم التي جعلتموها انتم الثلاثة على الوجوه ؟

– نتقي بها حر الشمس ..

ونهض احدهما فوضع يده على كتفه !

فقال : ويلك ..

ولكنه لم يتم كلمته حتى وضع الآخر يده على كتفه الاخرى وقال له : لاتعمد الى الشدة والعنف ايها الامير فنحن لا نريد قتلك !!

فحاول الفتى ان يجرد سيفه ، فمنعته الايدي القوية من تجريده ، وقيد الحبل في لحظة ، ذراعيه اللتين كانتا ترتجفان .

فصاح قائلا : انا ابن الملك ايها الشقيان !

فقال احدهما هازئاً : ابوك نائب الملك في مأرب ونحن ننوب عنه في هـذا الوادي فامش او نحملك .

غير ان الفتى الشجاع لا يستسلم الا اذا اكرهته القوة ، فجعل يضربهما بقدميه حتى تلاشت قواه وسقط على الارض .

فحملاه الى موضع بعيد في هذا المضيق ثم عاد احدهما الى وتار ذمر يصغي الى اوامره ، فقال له :

سأتولى أنا امر حراسته .

– ونحن ؟

– تقيمان هنا حتى يجيء العبدان ..

ونهض فذهب الى الحراسة ومكث رفيقاه بأول المضيق حتى رأيا العبدين مقبلين وهما يقودان ثلاثة بغال .

فكمنا لهما ، وعندما وصلا جعلا يطعنانهما بخنجريهما حتى ماتــا ، ثم حفرا للجثتين حفرة تحت الطريق وقذفا بهما اليها وغطيا دماءهما بالرمال ! وقادا البغال الى المضيق فاخذا الزاد الذي تحمله واعدا لها مغارة في الصخر يمكثان بها مــع الاسير ... جرى كل ذلك ووتار ذمر لا يقول كلمة ، غير ان عينيه ــ من وراء العمامة ــ كانتا ترسلان الى الهدهاد نظرات الحقد ..

فلما هيأ الاثنان كل شيء ، اومأ اليهما بحمل الفتى الى المغارة ، ثم هامسهــما قائلا : اذا اردتما ان تعيشا فاحفظا ما قلت .

ولم يشأ ان يتمادى في النصح ، بل ركب بغلته وخرج من ذلك الوادي الذي جعله مقاماً للهدهاد وهو يقول في نفسه : لقد اردت يا شرحبيــل ان تعفو عني فعفوت عن ولدك ... ولكن قتله خير لك من هذا العفو .

وجعل يخاطب بغلته قائلا : اما ان تبلغي مهرا بعد عشرة ايام او تموتي ، ولم تمر ساعة حتى مد الظلام رواقه المخيف .

* * *

٥٨

كان الملك عمرو ، او ولي العهد ، قد شفي من جرحه ، والجيش يهم ، بعد شفائه بالرجوع الى مأرب .. ولم يكن عمرو يصدق ، متى يشفى هذا الجرح ، ليعود الى البلد الذي تقيم به حبيبة قلبه ، وفاتنة لبه .. وقد قال لذي تبع : ليتهيأ القوم فسنترك مهرا بعد ثلاثة ايام تخفق فوقنا رايات الظفر والفخار .

قالها في اليوم الذي خرج فيه من خيمته ، الى الخلاء ، بعــد ذلك الشفاء ، ولم يسأل احــداً عن ابيه ، بل لم يخطر له ، كما علمت ان يفكر في ذلك المسكين الذي انشب الداء مخالبه في عنقه ، قضى نهاره خارج المعسكر ، وهــو يحس انه اصبح قادراً على الركوب ، وذو تبع معه لا يفارقه .

فلما كان المساء لجأ الى خيمته ، واستلقى على فراشه يبتسم لامله ، وللغرام الذي يتغلل في صدره ، حتى جن الليل ، فقيل له ان بالبـــاب رسولا من مأرب يحمل اليك اخبارها ولا يريد ان يذكر اسمه او يظهر وجهه . فخفق فؤاده لذكر مأرب ، مأرب ، مهد عزه ، ومهد حبه ، مأرب الجميلة التي ستدعوه ، في يوم لا يعرفه الى الجلوس في عرشها الذهبي الذي ملأ بلاد العرب ، بل الشرق كله ، عظمة ، وجلالا ، وهيبة ، ثم قال لحراسه : ادخلوه ولا تسألوه عن اسمه .

فمثل بين يديه رجل بثياب فلاح ، تضطرب يـــداه من التعب ، وترتجف ركبتاه ..

وفي الخيمة معدي كرب ، وذو تبع ، وعبد شمس ، وغيرهم من القـــواد ، فاجأه بقوله : رسول من مأرب كما يقولون ؟ فاجابه الرجل بصوت هادىء نعم يا مولاي .

ــ ومن ارسلك ؟

ــ اني رسول نفسي ايها الامير !

ــ ونحن نرى انك تخاف ان تظهر للامير وجهك . . .

ــ اجل يا مولاي فقد يكون هذا الوجه مظهر شؤم .

فخيل الى القوم انهم يعرفون هذا الصوت .

فقال الامير : احجب وجهك واذكر ما قدمت لاجله .

ــ لا افعل يا مولاي حتى يخرج هؤلاء الامراء ! فاومأ الى القوم بالانصراف دون ان يتردد ، ولكن امر ذا تبع بالبقاء ثم قال : هذا امين سرنا ونحن لا نكتمه امراً فهات ما عندك الان .

قال : ان السر الذي احمله اليك لا يذكر الا للامير وحده .

ــ ولكن صاحب همدان لا يخرج من هنا وسنأمر حراسنا بان ينتزعوا سرك على الرغم منك .

فتردد الرجل قليلا كأنه يستعرض ماضي الهمداني ومواقف اخلاصـــه في البلاط ، ثم عمد الى عمامته ، فانتزعها وجثا على ركبتيه قائلا :

مولاي الملك ! فاستوى الامير جالساً في فراشه وقال : وتار ذمر ؟ !
— نعم وتار ذمر نفسه يا مولاي .
فتراجع ذو تبع الى الوراء وقد استولت عليه الدهشة والاستغراب ، ولكنه لم يلبث حتى عاد الى رشده خوفاً من ان تنم عليه المظاهر ، فيفضح نفسه ، ويضيع الماضي بكل ما فيه .
وكان عمرو يحدق الى الكاهن وقلبه يكاد يخرج من صدره لشدة خفقانه ، ثم استطاع ان يقول :
ماذا حدث في اليمن حتى يترك كاهنها الاعظم قصره ويجيء الى مهرا بثوب فلاح ؟! ويظهر انه لم ينتبه لتلك الكلمة التي خاطبه بها وتار ذمر عندما جثا على ركبتيه .
فقال الكاهن : جئت انقل الى مولاي الملك خبر موت الملك ... فلمعت عينا ذلك المغرور وشعر عندئذ بأنه آله اليمن مالك رقاب اليمنيين واموالهم وان الكلمة التي تلفظها شفتاه تكون قضاء ، فقال : ومتى كان ذلك ؟
— منذ بضعة عشر يوماً يا مولاي ، فأنهضه واجلسه عن يمينه وهو يقول : حدثنا بما جرى واذكر لنا قبل كل شيء سبب قدومك انت !
— أأقول كل ما اعلم يا مولاي وانا آمن ؟
— أجل .
وكانت الابتسامة البادية على ثغر الملك الفتى ، تقوم مقام الدموع التي يذرفها الولد البار عندما يحمل اليه نعي ابيه .
فقال : قدمت لاقول لمولاي الملك ان في مأرب رجالا يريدون ان يسلبوه ملكه ويستأثروا به !! فاحمرت عيناه ، ومد يديه الى الامام قائلا :
ويل لك ، خبر لك ان تقول خربت اليمن !
— نعم يا مولاي ، ستخرب اليمن ان لم تكن ذلك الملك القوي الذي يصون ملكه بسيفه ويبعث بأعدائه الى القبور .
— ومن هم هؤلاء الاعداء ؟

ـ امير ظفار ، وامير نحلة ، على رأسهما شرحبيل ابن عمك الذي هو اليوم نائب الملك !

فاستند امير همدان الى سيفه كي لا يقع على الارض ، ثم رأى ان يقعد عند الفراش ويتظاهر بالاصغاء وهو غاضب ، اما عمرو فقد خشي ان يتمزق جرحه ويقذف بالدماء فيضطر الى البقـــاء في مهرا ويضيع تاجه ، فلجأ الى الهدوء وقال :

احذر ان تخدعنا بكلمة واحدة ايها الكاهن ، فوتربة حمير لئن كان كل ما تقول كذباً لنجعلن جثتك مئة قطعة على سور مأرب ولنهدمن هيا كل اليمن كلها فنمحو كل اثر لك ولكل من ينتمي اليك !

قال : أقسم بتربة ذي القرنين ، ورأس ولده الملك اني لا اقص عليك غير ما سمعت ورأيت ..

قال : أبدأ بنـــاشر فنحن نريد ان نعلم كيف تخطر الخيانة لهذا الرجل الذي احطناه بعطفنا وملأنا قصره في ظفار مالا ونعماً .

ـ لا اعلم من امره يا مولاي غير مظهر واحد هو انه يجاري شرحبيل وعتيكاً في هواهما ويحيي الليالي معهما بالهمس والاسرار .

ـ وماذا يريد شرحبيل وعتيك ؟

ـ آه يا مولاي انهما يريدان ان ينزعا التـــاج عن رأسك ليضعاه على رأس بلقيس فاهتز الملك فوق فراشه وجعل يقول : اخطأت ايها الكاهن فلبلقيس تاج يشبه تاج زوجها الذي هو الملك !

ـ لو كان الامر كما تقول لما تآمر الثلاثة على حياتك وحياة كاهن اليمن الماثل الان بين يديك .

قال اتصدق كلمة مما تسمع يا ذا تبع ؟

ـ وكيف استطيع ان اصدق يا مولاي والرواية رواية عرش وتاج بطلتها بلقيس التي ستكون زوجة لك ؟!

قال : لننظر في الامر من وجه آخر ، قل يا وتار ذمر ، من جعل شرحبيل

نائباً للملك ؟

ـ ابوك يا مولاي .

ـ وكيف فعل ذلك وهو لا يحبه ولا يطيق ان يراه ؟ فكره ان يقص عليه خبر المؤامرة التي دبرها ذو القرنين وكان شريكاً له فيها ، ان الآية تنقلب اذا دب الشك في صدر عمرو ، وما الذي يريده وتار ذمر ؟ كان يريـــد ان يكتم مولاه هذه الاسرار ، ليوغر صدره على شرحبيل ومن معه ، فيدخل عاصمـــة ملكه ثائراً غاضباً ويبدأ بالتقتيل والتدمـــير دون ان يسأل احـــداً او يسمع لاحد ...

وتدور الدائرة ، في ذلك ، على شرحبيل وبلقيس وعتيك وناشر ويخلو له الجو ، اي ان عمراً يلبس التاج ، ويكون هو سيد اليمن لا يرد له امر .

فقال : من يعلم اي خاطر خطر للملك في تلك الليلة .

ـ وكنت حاضراً ؟

ـ نعم يا مولاي وقد طلب الي ابوك في تلك الساعة ان اخضع لابن عمه كما اخضع له واطيعه كما اطيعه .

ـ الم يقل ابي شيئاً غير هذا ؟

ـ بلى ، لقد امرنا بان نقول لك ان تجعل زواجك بعد عام لئلا تهزأ العرب بملك حمير ، وكان قوله هذا وصية، فلم يضطرب العاشق ، لكل ما قاله وتارذمر مثل اضطرابه لهذه الكلمة التي كانت جرحاً فوق جرح .

ان لطمع بلقيس وشرحبيل بالعرش ، اذا صح هـــذا الطمع دواء ، هو السيف ، ثم يتزوج بلقيس بعد ذلك ، بقوة السيف نفسه ، ولكن وصية ابيـــه ليس لها دواء ، ولا يجوز ان يكون ملكاً وهويدوسهابقدميه، ولم يهدأ اضطرابه الا عندما قال ذو تبع : يجب ان يشهد بهذا اثنان من الامراء يا مولاي .

قال : أيشهد شرحبيل ايها الكاهن ؟

فاطرق ملياً ثم قال : لا اعلم .

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ مات الملك ، فخرجت من حجرته الى قاعة السـلاح ، وكنت وانا في تلك القاعة اسمع عتيكاً يقول : يقتل ولي العهد ووتار ذمر فيسلم العرش !
ـ وشرحبيل ؟
ـ اما شرحبيل فلم يكن يريد ، على ما ظهر لي ، ان تبدأ بلقيس عهد ملكها، بالقتل وسفك الدماء !
ـ وهل اراد امير ظفار ما اراده امير نحلة ؟
ـ خيل الي انه اراد ذلك .. فتغلل الشك الذي يخافه الكاهن في نفس ملكه، فقال : اذن فشرحبيل ابن عمنا قد عفا عنا كما تقول : فهدت الحيرة على وجهه، ثم قال : نعم ..
ـ وانت لست واثقاً بان ناشراً اراد لنا الموت ؟
ـ بلى ... اراده ... يا مولاي .
قال: لقد خيل اليك ذلك ونحن لا نثق الا بما تثق به... ومن بقي في الساحة؟ بقي عتيك امير نحلة وهذا لا نعبأ به ولا نخافه اذ لا يستطيع وحده ان يسلبنا هذه الحياة . وكانت لهجته لهجة استهزاء، فتمشت قشعريرة الخوف في عروق وتار ذمر وصاح قائلا :
ولكن بقي امر آخر يا مولاي هو انهم اذا كانوا قد عدلوا عن قتلك فقد ارادوا ، مع هذا العدول ، ان يحولوا بينك وبين التاج الذي خلق لك !
ـ وكيف يستطيعون ذلك ؟
ـ اسمع يا مولاي ، ان ذلك الحديث الذي بدأوا به في تلك الساعة لم ينته عند جثـة ابيك بل انتهى في قصر شرحبيل بالاشتراك مع بلقيس ، وفي ذلك القصر وضعوا خطتهم وأرسلوا الى مغار يدعون انصارهم الى مأرب ليمنعوك من الدخول الى البلاط .
ـ وكنت تسمع ايضاً ما قيل في ذلك القصر ؟
ـ بل سمعت ما كانوا يقولونه وهم خارجون منه ، وعرفت ان الهدهاد ابن شرحبيل كان رسولهم الى مغـار وهو يحمل الى الانصار خنجر ابيـه الذي هو

رسالة السر .

فد عمرو عنقه وهو يصغي الى تلك الحكاية الجديدة ، واستطرد الكـــاهن قائلا ،وهل تعلم يا مولاي ماذا صنعت ؟؟ شهدت في اليوم الثاني مأتم ذي القرنين ثم خرجت من مأرب ، عندما بسط الليل جناحيه ، وبت اركض بغلتي ومعي رجلان حتى لحقت بالهدهاد الى وادي عجف .

قال : وقتلت الهدهاد ؟

ـ لا يا مولاي ، بل قتلت عبديه ،وجعلته ضيفاً على عجف يحف به الاجلال والاحترام حتى يمر الشهر وترجع انت الى مأرب فتجلس في عرشك .

ـ ومن يضمن بقاءه في الوادي الذي ذكرت .

ـ الرجلان اللذان اخترتهما لهذه الغاية .

ـ وهل تعرف من هم انصار شرحبيل ؟

ـ كنت اسمع اباك يقول : ان الغوث ابن راهط ، وجبـــار ابن دوير ، وذا مغار انصار له ، فوضع رأسه بين يديه وغاص في لجة التفكير .

انه نبأ خطير يحمله اليه الكاهن الاعظم من بلاد قومه ، يموت ابوه اويغتصبون عرشه ولا يبالون به ؟! وهل يعده شرحبيل بابنته امس ، ليخونه اليوم ، ويسلبه الملك الذي اعدته له الآلهة من قديم الزمان ؟ ومن يصدق ، ان بلقيس الفتانـــة الحسناء تجسر على حمل التاج ورجال اليمن الاشداء لا يجسرون على حمله .

وطال سكوته وتفكيره ..غير ان وتار ذمراراد ان يستغل الموقف ، فاخرجه عن سكوته قائلا :

لا تتردد في امرك يا مولاي فانا اخشى ان يغفل الرجلان عن حراسة الهدهاد فيصل الى مغار قبل ان تخرج انت من مهرا فيسبقك الاعداء الى مـــأرب ، فرفـــع رأسه وهو يقول : صدقت فهرا ابعد من ذلك الاقليم ويجب ان نرحل غداً عند الصباح ... أخرج الآن وسنأمر الحراس بان يعدوا لك خيمة تأوي اليها الليلة .

قال : أرجو من مولاي الملك ان يأذن لي في ارجاع العمامة الى وجهي .

ـ لماذا ؟

ـ لان لي غرضاً بذلك يا مولاي .

ـ افعل ، وتهيأ للرحيل قبل طلوع الشمس .

ـ ولكن لم اعلم يا مولاي على اي شيء عولت .

ـ وعلى ايشيء يعول الملك الذي يريد اعداوءه ان يستأثروا بعرشه ؟؟عولنا على القتل والهدم والتخريب حتى نجعل اعداءنا موطئاً لحوافر الخيل .

فبدت على وجهه دلائل الفرح الوحشي وخرج من الخيمة وقد اخفى وجهه، وقد تقدمه الحراس ليعدوا له فراشاً .

فقال الملك لامين سره : قل لحاجبنا ان يدعو للقواد ، ففعل ذو تبع ما امره به ، ولم تمر ساعة حتى كان القواد جميعهم بين يديه وهم ينظرون الى وجهه المتجهم المكفهر .

وقلب ذي تبع لا يهدأ في داخله ، وقد خطر له ان يفسد على الكاهن الاعظم امره ، ولو كان وراء ذلك ، الموت .

• • •

٥٩

دعوناكم ايها القواد لنقص عليكم ما قصه علينا الرسول الذي رأيتم ، ان الملك ذا القرنين قد مات !

وكان يخاطبهم وهو مالك .. فعقدت الدهشة السنتهم ، ثم انطلقت هذه الالسنة بعد قليل فخروا ساجدين وهم يهتفون : ليعش الملك .

غير انه لم يبال بذلك السجود ، بل كان يقول : انكم تهتفون لملك يتآمر عليه بعض امراء اليمن ويحاولون ان يغلقوا في وجهه ابواب مأرب الى الآبد .

فقال عبد شمس : لا يجرؤ على هذا غير شرحبيل بن عمرو .

ـ اصبحت فشرحبيل ابن عمنا يحمل راية العصيان .

ـ ولكنه لا يستطيع ان يخطو خطوة الى الامام ونحن احياء ، وفي ايدينا السيوف التي لا ترتوي من الدماء .

لقد كان ابوك الملك يقول ان ابن عمه يطمع بملك حمير ونحن لا نصدق قوله ، وكان شرحبيل يظهر الطاعة وابوك يهزأ بطاعته ويعلم انها طاعة كاذبة .

فاجابه ذو تبع قائلا : لو كان يطمع بالعرش لنفسه لهان الامر وقلنا ان الرجال في كل زمان يحلمون بالعروش ، ولكنه يريده لابنته كأن وارث الملك لا وجود له ، وكأن ابنته خير من جميع اليمنيين !

قال : أيجعلون العرش الحميري لفتاة ؟

ـ هكذا يقول رسول الملك .

قال : اخشى ان يكون في الامر خدعة يا مولاي .

فقال ذو تبع : لقد خطر لي منذ ساعة ما خطر لك ...

فقال الملك وقد استيقظ غرامه : وهل تظنون ان هذا الفلاح الذي قص علينا اخبار مأرب يمشي الى مهرا بضعة عشر يوماً ليكذب ، ويخدع مولاه ؟

فقال معدي كرب : يجوز ان يكون هو نفسه مخدوعاً يا مولاي ، فاعاد عليهم ما سمعه من وتار ذمر ثم قال : وماذا ترون الان ؟

فقال امير همدان وكان اجرأهم جميعاً . ارى ان يرجع الجيش الى مأرب كما تعود ان يرجع من الميادين دون ان يعمد الى الشدة والعنف .

واذا كانت جيوش الاعداء قد سبقتنا اليها ؟

ـ واين هي هذه الجيوش يا مولاي وذلك الفتى الذي ارسلوه اليها اسير في صجف يحرسه رجلان .

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم يلجأ الملك الى قراءة الاسرار ، من وراء الستار فيضرب حين تدعوه الحاجة الى الضرب ، ويغفر عندما يرى ان مصلحة العرش في هذا الغفران ، فالتفت اليهم قائلا : اهذا ما تريدونه ايها القواد ؟

ـ نعم يا مولانا فخير للملك ان يدخل عاصمة ملكه دخول ظافر بعدوه ، من ان يدخل دخول ثائر على رعيته .

ـ اذن فليعلم الجيش الليلة انه راحل غداً ، وعليكم ان تقولوا له ان في مأرب عدواً آخر يجب ان يظفر به ، وكانت جلسة الشورى قصيرة كما رأيت، فقد صرفهم جميعهم ليفكر في حبيبته ، ويعتبها على هذه الخيانة التي نقلوا خبرها اليه ، ويخاطبها باحلامه ، كأنها باقية على عهده ، لا تطمع الا بغرامه والجلوس معه على العرش ...

* * *

خرج ذو تبع الى خيمته والنار تتأجج في صدره ، وقد اراد ان يمضي في الامر الذي خطر له م حتى يكيد وتار ذمر او يخيب امله .

ودعا حاجبه وقال له : ألم تقل لي ان لك في الجيش أخاً قطع ذو القرنين يده اليمنى وهو ولي عهد ؟

ـ نعم يا مولاي ولكن القواد لم يجعلوه جندياً لانه لا يستطيع ان يخوض المجال ويحارب بيسراه .

ـ واين هو الان ؟

ـ مع اولئك الرجال الذين يمشون وراء المؤونة .

ـ ولكنه يستطيع على الاقل ان يحمل الى مأرب رسالة يملأ صاحبها راحتيه مالا ويجعله من غلمانه .

ـ ومتى تريد ان ادعوه اليك ؟

ـ في هذه الساعة ، ولكن قل لي ، أيعرف اخوك الاخلاص والوفاء للقوم الذين يثقون به ؟

ـ اجل يا مولاي ولولا وفاؤه لما خسر احدى يديه .

ـ اذن فليحضر دون ان يعلم أحد اني ادعوه ، فخرج الحاجب ولم يلبث حتى عاد ومعه اخوه ، فابصر امير همدان ، كهلا ربعة ممتلىء الجسم ، ذا عينين

تطل منهما الجرأة والاقدام ، ويلمع فيهما الذكاء ، فأشرق جبينه وقال : خبرني اخوك انك تحمل الحقد والبغض في صدرك منذ اعوام لذي القرنين ! فنظر الكهل الى اخيه نظرة عتاب .

فقال : لا تخف فأنا مثلك احمل هذا البغض ، اتعرف لماذا دعوتك ؟فأجابه وهو يبتسم : دعوني لتسألني رايي في غزو الفرس او فتح الحبشة !! أجل يا مولاي انا اعلم لماذا يدعو الامراء مثلك ، الصعاليك مثلي ، في ظلام الليل ... يدعونهم ليجعلوهم رسلا ويبعثوا بهم في المهمات . فضحك قائلا : أحسنت فسأجعلك رسولا الى مأرب على ان تكون اخرس اصم بعد ساعة وتترك مهرافي هذا الليل .

قال : ابعث بي الى حيث تشاء الا البلاط فانا لا ادخله ولو قتلت ، فأراد الامير ان يفاجئه بتلك البشرى التي تطيب لها نفسه فقال : ولكنك تستطيع ان تروح وتجيء في البلاط لان الملك قد مات وليس في بلاطه ما تخشاه .

فركع يقبل قدميه ويقول : اني عبدك منذ الان فافعل بي ما يفعله المولى بالعبد ...

قال : اتعرف شرحبيل بن عمرو ؟

ـ واعرف الهدهاد وبلقيس وكل غلام من غلمان ابن يعفر .

قال : سيترك الجيش هذه الارض عند الصباح راجعاً الى مأرب ، وتتركها انت الليلة كما قلت لك ، فهل تعلم متى تصل انت ويصل الجيش ؟

ـ يريد مولاي ان اكون السابق اليس كذلك ؟

ـ بلى

ـ اذن فاعلم ان الجيش لا يصل الى مأرب الا بعد ان يمر علي وانا فيها اربعة ايام ...

قال : سيعطيك شرحبيل من الذهب ما لا تحلم به .

ـ يكفي اني سأعود الى مأرب وليس في البلاط ملك يظلم الناس ويقطع ايديهم يسمونه ذا القرنين .

قال : اما الرسالة التي ساسلمها اليك الان فسيبقى امرها سراً لا يعرفه احد ، أتعدني بهذا ؟

ـــ اعدك يا مولاي بان هذا السر سيموت كما مات الملك .

فايقن ذو تبع عندئذ ، ان البغض الذي يضمره الرجل لآل ذي القرنين ، جعله من اتباعه المخلصين له ، ولم يبق الا ان يكتب رسالته ، وقام فكتبها ، ثم ناوله اياها ووضع في يده شيئاً من المال وهو يقول له : سنلتقي في مأرب بعد ايام ، فاكتفى الرجل بان يقول : سنلتقي في مأرب ، ثم قبل يده وتغلل في الظلام ...

* * *

٦٠

كان شرحبيل ، قد اعد في مأرب كل شيء : المال ، والمؤونة ، والسلاح ، في سراديب قصره ، والعقيدة الثابتة ، والايمان في صدره وصدور من حوله من الرجال ، وكانت بلقيس تتهيأ للجلوس في ذلك العرش العظيم ، الذي جعله حمير الجبار مفخرة من مفاخر ذلك الزمان ، ثم تصفو لها الحيـــاة ، وتزف الى ذلك الحبيب النبيل ، الذي وهبت له الآلهة ، جمال الوجه ونبالة الاخلاق ، واذا اجتمع الجيش جيش الانصار في «حرثة» كما علمت ، فليس في اليمن قوة تستطيع ان تبعدها عن ذلك العرش .

على ان هنالك امراً واحداً كانت تخشاه ويخشاه القوم هو ان يتردد الغوث وجبار في الزحف الى مأرب، فيخسر المتآمرون قوة لا يحل محلها غير بني مذحج، ومذحج في ذلك الوادي البعيد لا تعلم من امر المؤامرة شيئاً ، ولكن الغوث نفسه اقسم لشرحبيل انه سيكون عند حسن ظنه به ، فلم يبق مجـــال للخوف ، ولتهنأ بلقيس فقد فتحت لها الجنة ابوابها وفتح لها المجد ذراعيه !

اما مأرب ، فقد كانت هادئة ، لم يتغير فيها شيء بعد الملك، ولم تنم مظاهر

المتآمرين فيها ، على شيء ... بلى هنالك شيء جديد ، هو ان الارض ابتلعت وتار ذمر فلم يقف القوم له على اثر ! وقد بذل عتيك جهده كله ليعرف مقره ، فلم يفلح ولم يزد غلمان قصره على قولهم انه ذهب الى الحجاز ، وخبره حراس السور ، انهم رأوه خارجاً منذ ليال ، فقام في ذهنه ، ان الرجل لجأ الى موضع يحفر لهم فيه الحفائر ويمهد الاسباب ليوم عصيب ، وجـاء الى شرحبيل وناشر يقول لهما :

اقسم انه ذهب الى مهرا ، ايوغر صدر ولي للعهد ، ويخبره ما رآه ...

ولكن القوم لا يصدقون ان الكاهن الذي هو في قومه نصف ملك يكلف نفسه مشقة السفر الى ذلك الساحل النائي ليكون نماماً وساعياً ، وبلقيس ايضاً لم تصدق ما سمعت ... حتى مرت الايام الكثيرة وهو غير موجود ، وكاد ينقضي شهر كامل والهدهاد لم يعد ، ولم يصل الى شرحبيل خبر منه ، ولم يخطر لاحد من القوم ، انه اسير في واد موحش ، بفضل ذلك الرجل الذي ذهب الى الحجاز .

وبدأ القلق والاضطراب يتغللان في النفوس ، وكاد اليأس يقوم مقام الامل في الصدور !

فبينما هم في قصر شرحبيل ، في احدى الليالي ، وقد كثرت الاراء والظنون، اقبل ذلك الكهل واسمه « رعين » يستأذن في الدخول ، فتسابق الغلمـان يقولون لمولاهم : رسول من مهرا !

فنهض الجميع يستقبلون ذلك الرسول ... ثم عادوا الى مجالسهم وعين بلقيس تنظر اليه ، وقلبها يخفق ، ذعراً .. وغراماً .. وقد دلها القلب ، على انه رسول الحبيب .. ثم قال شرحبيل : اذكر اسم من ارسلك .

ـ امير همدان يا مولاي . فحبست بلقيس انفاسها .

ثم قال : وكيف تركته ؟

ـ انه يطوف في الجيش يا مـولاي كالاسد يطوف في اوديـة اليمن ، فتنهدت الاميرة ، ووضعت يدها على صدرها تسكت قلبهـا المضطرب . . ان ذا تبع حي .. فلتسقط السماء بعد ذلك على الارض ، وقبل ان يقول الامـير

للرجل كلمة اخرى مد يده الى كمه ، فقال له : أتحمل رسالة منه ؟

ــ نعم يا مولاي .

ــ وهل انتهت الحرب بفوز الجيش اليمني ؟

ــ نعم يا مولاي وفرت الحبشان .

ــ ومن قتل من القواد ؟

ــ القواد جميعهم احياء يا مولاي ، غير ان ولي العهد قد جرح وشفته الآلهة ولولا امير همدان لخسر حياته عندما جرحوه ... فتمتمت شفتنا عتيك الفاظ اللعنة ... واخرج رعين عندئذ رسالته ، فأوما شرحبيل الى ناشر بأن يقرأها فقرأ :

« الى الامير شرحبيل بن عمر ... « وتار ذمر في مهرا ... ولي العهد يعرف ان اباه قد مات وانكم جميعكم ستغصبونه العرش لتجلس فيه الاميرة ... ولدكم الهدهاد في مضيق عجف يحرسه رجلان فارسلوا من يفكه ويقتل حارسيه قبل ان نصل الى مأرب ... ليبتعد الانصار اليوم عن مغار وليرجع كل امير الى مخلافه فالامل قد خاب ... استقبلوا عمراً كما كنتم تستقبلون ذا القرنين وتهيأوا للجواب عن كل سوأل ... الشك موجود في صدره على رغم مساعي الكاهن النمام والحب ينمو في قلبه على مر الايام ... حامل الرسالة من اخلص الناس فأحسنوا اليه واجعلوه من الغلمان ... وهو يقول لكم متى نصل الى مأرب ... اذا استطعتم ان تحفروا قبر وتار ذمر فافعلوا فلا راحة لنا وهو حي ... ولا تشردوا في أموركم ساعة واحدة .. »

فاصفرت وجوههم وجعل الواحد منهم ينظر الى الآخر وقد استولى عليه الذهول ... لقد تهدم البناء العظيم الذي شيدته المخيلة .. واستيقظ النائم فاضمحلت تلك الصور الخلابة التي كانت احلاماً ... هذا عرش بلقيس تتصدع أركانه ... وهذا تاجها ، بين ليلة وضحاها ، بين اليقظة والحلم ، يتدحرج تحت الاقدام ، نعم .. ولكن بلقيس لا تسقط اذا سقط العرش ، ولا تستسلم الى الضعف عندما تدور الايام ويتغير الزمان ... كانت كبيرة عندما يكفهر الجو ،

كما هي كبيرة عندما يصفو ، وليس بين الشدائد التي تعرض لها شدة تستطيع ان تضيع لها الرجاء .

انظر ... لقد اصغت الى رسالة الحبيب بهدوء وصبر ، ثم جعلت تقول لابيها وللقوم : ان الاقدار تخدم اليوم عمرا وتخدمنا غداً ، ولكنهم لبثوا ساكتين ... فأعادت قولها وهي تبتسم ، ثم قالت لرعين : قم ايها الرجل وادع غلامي نائلا. فدعاه ، فقالت له : اتعرف مضيق عجف ؟

ـ نعم

ـ ان مولاك الهدهاد أسير فيه ، فخذ ما تشاء من العبيد وما تشاء من السلاح ، واقتـــل في ذلك المضيق من تراه من الرجال على ان يصبح حراً ، اذهب الان وليذهب معك هذا الرجل فهو من رجال القصر .

قال : ومن هو آسره يا مولاتي ؟

ـــ رجلان لا اعرفهما ، فحنى رأسه وهم بالانصراف ، فقالت : ولكن لا ترجع انت الى مأرت ، بل ترسل مولاك مع العبيد اليها ، ثم تسير الى مغار فتدفع الى سيدها الذي تعرفه ، كتاباً أكتبـــه الساعة وتقص عليه خبر مولاك الهدهاد أفهمت ؟؟

ـــ أجل يا مولاتي ، فقامت فكتبت :

من شرحبيل بن عمرو الى الامير ذي مغار :

عندما يصل كتابي اليك ، اصرف الغوث وجباراً الي مخلافيهما مع الرجـــال الذين يقودان ، ولا تتردد انت في المجيء الى مأرب » . وناولت اباها ما كتبت قائلة له : اكتب اسمك يا مولاي ، فقرأ الامير ذينك السطرين ووضع اسمـــه ، وخرج رعين ونائل ليختارا الرجال .

فصحا عتيك من ذهوله قائلا : يجب ان نعلم متى يصل جيش مهرا .

فعاد رعين يقول : بعد اربعة او خمسة ايام .

قال : اتحسن الضرب بالخنجر ، بيسراك ؟

ـــ كما تضرب انت بيمناك يا مولاي .

ـــ سنرى اذن كيف تضرب الرجلين اللذين ستزورهما ، والتفت الى بلقيس وقال : لقد ارادت الاقدار ان ننظر في امرنا من جديد فقولي الان ما تشائين .

ـــ بل تقول انت ما تشاء ايها الامير فالرأي لك .

ـــ لقد تعلمت يا مولاتي الا اقول كلمة بعدالان ،طلبت قتل ولي العهد ووتار ذمر فهزأتم بي وهذا يكفي .

قالت : اقسم لك اني لا اخالفك في امر بعد اليوم ..

ـــ وتعدني انت بذلك ايها الامير ؟

فاجابه شرحبيل قائلا : لك ان تفعل ما يطيب لك .

فقال : هات الرسالة يا ناشر ، وأخذها وجعل يقرأها سطراً سطراً ثم قال: ماذا بقي من رسالة امير همدان ؟؟ لقد انتهى الان أمر الهدهاد وذي مغار وبقي ان نستقبل عمراً كما نستقبل أباه ... وونحفر لوتار ذمر القبر ... بل بقي ان نتهيأ للجواب عن كل سوال ... أجل سنعرف كيف نستقبل مولانا الملك ، ونحفر القبر لمولانا الكاهن ، ونتهيأ لكل شيء .

ثم جعل يصف لهم حال عمرو ، وغضبه ، وثورة نفسه ، وانتقل بعد ذلك الى وصف غرامه حتى انتهى الى قوله :

ومهما يكن امر تلك الثورة وهذا الغضب فغرام مولانا الملك يضمن لنـــا الفوز ، « وذلك الحب الذي ينمو في قلبه » سيخمد النار .

وأخذوا يتهامسون ويتشاورون ، حتى طابت النفوس ، واطمأن الجميع الي ذلك المنهاج الذي وضعوه والذي يبلغون به الغاية .

وكان الليل قد انقضى ، فرجع ناشر وعتيك الى البـــلاط ، وآوى شرحبيل وبلقيس الى فراشيهما ينامان حتى تطلع الشمس .

* * *

٦١

كانوا ثلاثة عبيد وغلامين ... وهم يحملون انواع السلاح كأنهم ذاهبون الى حرب ، ومضيق عجف طويل لكنه ضيق وسهل ، فلم يتوغلوا فيه حتى ابصروا الهدهاد وحارسيه ، على كثيب صغير في بطن الوادي ، وكان ذلك عند الظهر ، فصاح نائل : مولاي الهدهاد .

وقال الآخرون : مولانا .. ثم انقضوا والسيوف في الايدي وبدأوا يضربون قبل ان يعمد الرجلان الى الدفاع .

وكان الامير الفتى مقيد اليدين ، فلما فكوه ، تساقطت دموعه على خديه وقال لعبيده : عودوا الى مأرب وقولوا لابي اني ذهبت الى مغار لاحمل خنجره الى القوم ..

فقال نائل : بل تعود انت بأمر مولاي واذهب انا .

ـ وماذا تحمل ؟

ـ احمل هذا الكتاب ، ولكن اين فرسك يا مولاي .

ـ اكلته السباع ولولا هذه المغارة التي جعلوها بيتاً لي لما وجدتم لي في هذا الوادي اثراً .

قال : لقد احضر رعين فرساً آخر هو هنا .

ـ من هو رعين هذا ؟

ـ يمني ، كان في مهرا ، في خدمة امير همدان وقد اقبل يحمل منه رسالة الى ابيك ستقرأها بعد رجوعك .

قال : الا تحتاج الى خنجر مولاك ؟

ـ لا ، فقد امرت بان احمل هذا الكتاب ليس غير . قالها ، ومشى الجميع الى الطريق ، ثم غادرهم نائل ذاهباً في مهمته ، وعاد الآخرون الى مأرب ، والهدهاد كأنه في حلم يكاد لا يصدق ما جرى له ، وهو لا يعلم ما الذي جناه .

وما هي الغاية من اسره ! .

وقد ترك القوم جثتي الرجلين طعاماً للوحش والطير ، وكان الهدهاد يسألهم عن ذلك الرجل الثالث الذي كان يأمر حارسيه بما يشاء ، والعبيد ساكتون لا يعرفون من هو .

فقال رعين : لقد كتب امـــير همدان يقول ان الفضل في اسرك يعود الى وتار ذمر .

فوضع يده على جبينه قائلا : لقد ذكرت الآن تلك القامة ، فهـي قامته ، وتلك البغلة السوداء فهي بغلته .. واين هو اليوم ؟

ــ ذهب الى مهرا وهو عائد مع الجيش .

فقال في نفسه : لقد سعى ونم فلم يبق لبلقيس امل بما فكرت فيه فالويل له ، وقضى الوقت كله وهو مطرق لا يرفع رأسه ولا يخاطب احداً حتى دخلوا القصر بعد نصف الليل وابوه والقوم ينتظرون وصوله ، فعانقه ابوه وهـــو يقول : لا تذكر ما جرى فقد عرفنا كل شيء ؛ ولكن ألم تر وتار ذمر في عجف ؟

ــ لم أر له وجهاً يا مولاي فقد كان الثلاثة في ثياب الفلاحين تستر وجوههم العمائم وكان احدهم بعيداً ولكنه صاحب الامر .

فقالت بلقيس : اسأل امير نحلة سوآلين خطرا لي امس .

قال : الاول ؟

ــ من خبر وتار ذمر ان هنالك موآمرة على العرش ؟

قال : لقد اعددت لنفسي جواب هذا السؤال قبل الان .

ــ ما هو ؟

ــ هو ان الرجل خرج من حجرة الملك بعد موته وجعل يصغي الى مـــا نقوله ونحن فيها .

ــ وكنتم تذكرون ولي العهد والعرش في تلك الساعة ؟

ــ اجل ، وذكرنا ايضاً هذا اللعين الذي عفوتم عنه .

ــ وكيف استطاع ان يعلم مهمة الهدهاد وهذه المهمة لم تذكر الا همساً ، في

هذا المكان ؟ !

ــ بل ذكرت ايضاً عندما خرجنا منه نحن الثلاثة في تلك الليلة، وكنا نتحدث بهذا ونحن ذاهبون الى البلاط .

قالت : اتظن انه سمع ما تحدثتم به ؟

ــ اجل ولولا ذلك لما عرف شيئاً الا اذا كان احدنا يخون الآخرين والآخرون لا يعلمون ! . فابتسمت قائلة : الناس الذين يملأ الايمان قلوبهم لا يخونون ... ولكن اتستطيع ان تعلم اية عاطفة احس بها وتار ذمر في حفظه حياة الهدهاد وقد كان قادراً على قتله ؟

ــ لقد عرف ان الامير شرحبيل اراد ان يحفظ حياته فحفظ حياة ولده وهي مأثرة له ...

ــ بل كانت له غاية اخرى هي ان نفس ملكه عمرو ستثور فيأمر بقتل شرحبيل وولديه في ساعة واحدة ، وهذا ابلغ جزاء يرضي حقد الكاهن النذل .

قال : اصبت فتلك كانت غايته وسنرى من يكون القتيل هو ام شرحبيل .

قالت : افعلوا بعد مجيء الملك ما عولتم على فعله وعلي الباقي ، ثم ناولت اخاها رسالة الهمداني قائلة له : اقرأ هذه وانظر في الامر .

فقرأها وقال: ان لم نستطع ، بالحيلة والصبر ، ان نفسد على ابن ذي القرنين أمره ، ونبلغ الغاية من عرشه ، فخير لنا ان نترك اليمن ، ونعيش في صحراء نائية لا نرى فيها احداً من الناس ! فلمعت عيناها وهي تقول : اسمعتم رأي الهدهاد؟ انه رأي اخته ، وستكون الحيلة والصبر سلاحاً لنا في حربنا مع الملك .

ثم قالت : اما الان فلم يبق الا ان تحسنوا استقبال ملككم الظافر الذي قهر عدو ملكه وتكونوا من اهل الطاعة وستعالج بلقيس امر هذا الظافر بقوة الغرام.

فقال ناشر : واذا خطر لهذا المجنون أن يأمر بقتلنا جميعاً عندما يعصب رأسه بتاج ابيه ؟.

ــ وهل تظن انه يفعل بنا ما فعله بعاتكة ؟

ــ من يعلم فلهذا الفتى ساعات يصبح فيها كالنمر الجريح لا يعبأ باحد .
قالت : اذكر ما ورد في هذه الرسالة .
قال : اتعنين الحب الذي تضطرم ناره في صدره ؟
ــ نعم فهو السلطان القوي الذي ليس لنفوذه حد .
قال : ما احسست زماني كله ان لعمرو عاطفة .
ــ أخطأت فقد قرأت عاطفته في عينيه ، وخيل الي ان قلبه ينوب عن لسانه، في وصف هواه .!

فقال : لتفعل الاقدار ما تشاء فاما ان نموت كلنا او نبقى . وناموا تلك الليلة وقد عرف كل واحد منهم ما يجب ان يقول ويفعل .

* * *

٦٢

لم يرسل الملك عمرو ، الى وكيل عرشه ، واهل عاصمته ، نبأ بوصوله ، كما هي عادة الملوك ، في مثل هذه الحال .

كأنه كان يريد ان ان يفاجىء المدينة بالجيش ، ويتبين ما على الوجوه من الوان ، وما وراء الافق من مظاهر الخيانة التي وصفت له ، ولكن اهل مأرب رأوا الجيش ، فنقلوا الى البلاط خبر قدومه ، وهم متحيرون في أمر هذا الرجوع الفجائي ، وكان الجيش يبعد مقدار فرسخ واحد عن مأرب ، فخرج من في البلاط ، من امراء وعبيد وغلمان ، يتقدمهم حراس الملك بالحراب ، وانضمت اليهم طوائف كثيرة من السكان ، حتى امسوا جميعهم جيشاً يقابل جيشاً ، وينشد له اناشيد النصر ..!

وامر شرحبيل فزين في لحظة واحدة ، باب السور ، وابواب القصر ، وتدلت فوقها الاغصان النضيرة الخضراء .

ثم وقفت الصفوف كلها خارج السور ، وعندما اطل الملك ، هتف شرحبيل وهتفت وراءه : يعيش ملك حمير ، وردد الهتاف ثلاث مرات ، ثم ارتفعت الاصوات بالاهازيج ، وكان وتار ذمر عن يمين عمرو ، وذو تبع عن شماله ،وقد خلع الكاهن عنه ثوب الفلاح ، وبدا بثوبه الذي يعرفه اليمنيون ، والقواد الآخرون يتقدمون الفرق الظافرة ، التي تتلألأ سيوفها وحرابها كما تتلألأ البهجة والغرور في العيون .

فلما ابصر الملك شرحبيل ، واميري نحلة وظفار ، ورأى الثغور المبتسمة ، والوجوه الضاحكة الطافحة بالبشر التفت الى كاهنه وهمس قائلا : اى ملك يصدق ان الخيانة تملي على هؤلاء القوم ما نراه ...؟

فأجابه اللعين قائلا : ان الخيانة في الصدور يا مولاي وليست على الوجوه .

فقال ذو تبع : دع عنك هذا الان ايها الملك فستعرف كل شيء ، ودنا الامراء منه ، فترجل ، ومد اليهم يده يقبلونها ويقولون : لقد اصبحت ملكنا بعد موت ابيك فهذه سيوفنا نلقي بها عند قدميك ونعاهدك على الاخلاص للعرش ..!

فابتسم وهو يقول: لقد عرفنا ان والدنا الملك قد مات ونحن في مهرا..خذوا سيوفكم فانتم ابطال حمير وحراس الملك ! ولم يشأ ان ينظر الى تلك السيوف . .

فاطبق ذو تبع شفته وجعل ينظر الى شرحبيل كأنه يسأله ان يغض طرفه .

ثم صافحهم بدوره ، وانثنوا الى وتار ذمر يصافحونه والايدي ترتجف ...

وكان شرحبيل يقول : لم نعلم يا مولاي انك ستقدم اليوم .

ـــ وكيف خرجتم من مأرب وانتم لا تعلمون ؟

ـــ لقد قال لنا الناس انهم يرون جيشاً فأقبلنا الان .

قال : اردنا ان نرجع دون ان يعلم احد .

ـــ لماذا يا مولاي ؟

ـــ لاننا لا نحب ان نعكر على الناس صفو يومهم ! .

فتجاهل قائلا : الناس يعدون قدوم الملك نعمة من السماء ، ومع ذلك

فكيف عرف وتار ذمر انك رجعت ؟

قال : كان وتار ذمر في مهرا يا ابن العم .

ـــ ولكن غلمانه يقولون انه في الحجاز .. وقد خيل الي انه عاد الى قصره في الليل الماضي ، ثم ركب اليوم بغلته ليستقبل الملك ، فضحك اللعين ولم يجب.

ثم قال شرحبيل : أهو الذي نقل اليك يا مولاي خبر موت ذي القرنين ؟

ـــ اجل وكان يجب ان توجه انت الى مهرا احد الأمراء ليخبر الملك .

قال : أأرسل الى مولاي خبر الموت وهو يحارب اعداءه ؟

ـــ بل ترسل الى مولاك تقول له وهو في الميدان انه صار ملكا .

ـــ لقد كنت يا مولاي في مهرا قائداً وولي عهد ، فخفت ان يضطرب لذكر الموت قلب ولي العهد ، ويتضعضع فكر القائد ! .

فاشرق جبين الهمداني لجواب شرحبيل وهامس مولاه مرة ثانية قائلا له : ألا ترى يا مولاي ان هذا الحديث يفضح السر ؟

ـــ بلى ، فقد انتهينا منه الآن .. كيف انت يا ناشر ؟

ـــ كما تعلم وترى يا مولاي . اخلاص صادق لآل البيت الحميري العظيم ، ووفاء للعرش لا ينطبق صدر عبد على مثله !

ـــ هذا ما كنا نعلمه قبل الآن . وانت يا عتيك ؟

ـــ اما انا فسأقضي ايامي كلها في طاعتك ، كما قضيت ماضي في طاعة ابيك وكما قضى ابي ايامه في طاعة جدك .

فخطرت له تلك المؤامرة وهم بان يبوح بها على مرأى ومسمع من اهل مأرب والجيش دون ان يبالي باحد ، ولكنه عاد فذكر انه لم يتوج ، وان الحكمة تقضي عليه بالصبر ريثما يتربع في العرش ، ومشى على رأس موكبه ساكتاً لا يقول كلمة ، حتى دخل بلاطه ودخلت صفوف الناس وراءه وهي لا تكف عن الهتاف والدعاء ، ولم يتردد في الذهاب الى قاعة العرش ، والجلوس في كرسي ذي القرنين .

فعمد ناشر وعتيك الى التاج فدفعاه الى وتار ذمر ، فوضعه هـذا باسم الالهة

على رأس الملك ، واقبل الامراء ، وشرحبيل في المقدمة يسجدون للفتى المستهتر الذي رفعته الاقدار الى سماء اليمن ، ويقسمون من جديد انهم سيكونون حراساً لعرشه ، وتبعتهم طوائف الناس ففعلت كما فعلوا . ثم تراجعت الى الساحـــات والاسواق لتجعل ذلك اليوم عيداً تقدسه اليمن في كل عام . ولم تمر ساعتان حتى خرجت جميع الصفوف ولم يبق في ذلك القصر العظيم غير وتار ذمر والامراء .

وكان عتيك ، قبل ان ينصرف القوم ، قد خبر امير همدان كل شيء ، ونقل اليه حديث بلقيس ورأيها في الفشل الذي فوجئوا به .

فقال : اذن فوتار ذمر حفر قبره بيده وهو يظن انه حفر قبور الاخرين .

ــ وكيف ذلك ؟

ــ سيجازيه الملك بالموت .

ــ ولكنك لا تستطيع ان تعلم اي خاطـــر يخطر لهذا الملك عندما تفضح الاسرار .

ــ بل اعلم انه في يد بلقيس تفعل به ما تشاء ...

ــ وهل تجول في صدر هذا المغرور عاطفة حب ؟

ــ بل تختلج في ذلك الصدر عواطف هي الغرام المبرح الذي لم يحس مثلـــه من قبل .

ــ غير ان العرش في نظره اعظم شأناً منه .

قال : لا تخف فهو أعجز عن ان يفعل أمراً ونحن احياء ، وخلت القاعة كما علمت ، وأتت الساعة التي يعرف فيها الملك ، اعداء عرشه والمخلصين له .

* * *

٦٣

افتتح الملك عمرو عهد ملكه بالنظر في المؤامرات ... وكـــان وتار ذمر ، وشرحبيل ، والامراء الثلاثة ، عن يمينه وشماله ، وليس في القاعة من الغلمان غير اولئك الحجاب الذين يحرسون بابها بالحراب .

فقال عمرو لشرحبيل والتاج على رأسه :

الا تصف لنا يا عم تلك الليلة التي مات فيها مولانا ذو القرنين ؟

ـ اظن ان وتار ذمر وصفها لك يا مولاي .

ـ بل وصف لنا شيئــاً آخر سنسألك عنه الان ، قل يا عم أكنت حاضراً عندما أغمض الموت عيني الملك ؟

ـ لا يا مولاي ، بل كنت في تلك الساعـــة ، اصارع الموت بالخنجر ، وأنا في الرواق وكـــان ابوك يصارع داءه وهو في الفراش ، فاصفر وجه الكـــاهن وارتجفت شفتاه ... لقد كـــان يظن ان عمراً لا يدخل عاصمة ملكه حتى يـــأمر بضرب اعناق الثلاثة الذين يخونونه دون ان يسمع لاحدهم كلمة .

أجل ، هكذا كان يظن وهو في مهرا ، ولم يقم في ذهنه قط ، أنه سيعمد الى اللين ، وهو القاسي الذي لا يعرف ليناً ، والى الحكمة وهو المغرور الذي يهزأ بالحكماء .. وقد قال شرحبيل كلمته وهو ينظر اليه .

فأجابه الملك قائلا : اي رواق هذا ؟

ـ رواق الملك نفسه يا مولاي ، فقد دعاني اليه في تلك الليـــلة ، وهؤلاء في غرفتـــه وأمرنا بان تنقل اليك وصيته بشأن الزواج ، ثم عهد الي في نيابة الملك ريثما تعود ...

ـ وبعد ذلك ؟

ـ اشار بالانصراف يا مولاي ، ولم اكن اعلم اني اخرج لأرى الموت فاغر فاه ، وفاتحاً لي ذراعيه الهائلتين ... فعرف عندئذ ان هنالك اسراراً لم يذكرهـا

له وتار ذمر ، فقال : اذن كان الموت عند باب الملك ؟!

ـ اجل ، فقــد رأيته بعيني يلمع على شفرتين حادتين يحملها عتيك وناشر ، ورأيت وتار ذمر واقفاً ينتظر ان تسفح الدماء والابتسامة على شفتيه !

ـ أي ان الثلاثة كانوا يريدون قتلك .؟

ـ وكان الملك يصغي الى صوت الاستغاثة ثم الى حشرجة الموت .. فتظاهر عتيك وناشر بالخوف وخفضا رأسيهما ينظران الى الارض ، فالتفت الملك الى الثلاثة قائلا : ماذا تقولون ؟ فتلجلج صوت عتيك وهو يقول : لا نستطيع الا ان نعترف بما جرى يا مولاي .

ـ وفعلتم ذلك بامر الملك ؟

ـ نعم وهذا ما املاه عليه وتار ذمر نفسه ، فاكتفى الملك بان يقول :

انه امر الملك ، وليس في اليمن من يجسر على ان يعرض له ، ولكن كيف نجوت من الخنجر يا شرحبيل ؟

ـ كنت البس درعين يا مولاي .

قال : انس ما مضى فحسبك انك نجوت .

ـ لقد نسيت يا مولاي وهذا عتيك وناشر يشهدان لي .

ـ كما انهما يشهدان عليك .

ـ بماذا يا مولاي ؟

ـ بانك اردت الاستئثار بالملك بعد موت ابن عمك !

ـ انا ؟

ـ نعم انت ...

ـ وكيف افعل ذلك وللملك ولي عهد والملك له وحده ؟

قال : تذهب حياة ولي العهد كما ذهبت حياة ابيه ، وعندك رجــال كثار يعرفون كيف يقتلونه على رأسهم هذان الاميران الخائنان ، واشــار الى عتيك وناشر ... فرفع الاثنان رأسيهما وصاحا قائلين :

لتقتل الالهة من يفكر في قتل الملك الذي لا نريد ملكاً سواه ، اما هو فكان

يقول وهو هادىء :

ألم يطلب اليك عتيك قتلنا وقتل وتار ذمر قبل ان نلبس تاج الملك ؟

ـ انها حكاية غريبة تقصها علينا يا مولاي .

ـ بل هي حكاية جرت كما تقول عند سرير الملك الميت وكان وتار ذمر يسمع ما تقولون وهو في قاعة السلاح . فوقف عتيك وقال : ليبق الكاهن وامير همدان في هذه القاعة وليخرج ناشر وشرحبيل اذا اراد الملك ...

ـ لماذا ؟

ـ لاني اريد ان اروي لمولاي كل ما حدث وهما لا يسمعان .

قال : اخرجا ، ثم قال عتيك : أتأذن لي في القول الان ؟

ـ افعل .

قال : لقد كانت هذه الرواية رواية نمام كاذب اراد ان يوغر صدرك على المخلصين لك ليخلو له الجو وهذا النمام هو هذا ...

ـ ويلك انه كاهن اليمن !

ـ ليكن اعز مقاماً من الملك فانا لا اعبأ به وسأبوح لك يا مولاي بكل شيء ولو خسرت حياتي بعد ذلك .

ـ قل ما تعلم فقد تخسر هذه الحياة ..

ـ بل يخسرها هذا الكاهن الذي تآمر عليك بالاشتراك مع مولاي ابيك ... ألم تكن لك يا مولاي رغبة في بلقيس ابنة عمك وقد عرف ابوك ووتار ذمر هذه الرغبة قبل سفرك ؟

ـ بلى

ـ اذن فاسأل كاهن اليمن عن ذلك الاخلاص الذي اوحى اليه بان يرسل غلامه عباداً ليقتل تلك الفتاة التي احببت ..

فغضب قائلا : احذر يا ابن روضة .

ـ وماذا احذر يا مولاي وانا اقسم برأسك اني صادق . لقد تآمر ذوالقرنين ووتار ذمر على شرحبيل وابنته يقتلانهما في ليلة واحدة ليكيدا ولي العهد ويحرماه

الاميرة التي اراد ان يجعلها ربة قصره وسيدة قومه .

قال : أفعلتها يا وتار ذمر ؟ فتردد قليلا ثم قال : تلك هي ارادة الملك .

فقال عتيك : نعم وكانت ارادة الملك ايضاً ان نقتل شرحبيل فلم نقتله رفقاً ببلقيس التي احبها مولانا واحبته وستكون له أتعرف يا مولانا ماذ فعلنا ؟ لقد عمدنا الى شفرتين مكسورتين ضربناه بهما ونحن نعلم انه يلبس درعين ولم نذكر له حتى هذه الساعة كلمة عما فعلناه .

ـ ومن يضمن لنا انك لا تكذب ؟

ـ لقد مكثت في بلاط ابيك بضعة اعوام لم ير مني في خلالها غير الطاعة والوفاء والصدق والاباء .. ومع ذلك فستسأل ناشراً عما اقوله لك الان .

فنظر الى الكاهن وقال : ألم تكن تعلم يا وتار ذمر اننا نحب بلقيس ونريد ان نجعلها ملكة ؟

ـ بل كنت أعلم يا مولاي انك تريد ان تجعلها حظية لك لتقهر أباها الذي هزأ بابيك . !

ـ وكنت تستطيع ان تعفو عن هذه الحظية ، خدمة لولي العهد .

ثم قال : وماذا صنع عباد يا عتيك ؟

ـ قتل في قصر شرحبيل يا مولاي مع الغلامين اللذين كانـــا شريكيه ، بامر مولاه .

قال : يظهر ان غلمان شرحبيل لا ينامون .

ـ لا اعلم يا مولاي كيف حدث القتل ، ولكني عرفت ان وتار ذمر اوصى عباداً بان يهشم بخنجره جسم بلقيس ويرمي بها الى الكلاب في سوق مأرب .

فاصفر جبين الملك واخذ يتفرس في ذلك الكاهن الذي استخف به .

وقال عتيك ايضاً : وكان يقول لابيك خير لك ان تقتل بلقيس من ان يخرج الملك من يد ولدك الى ايدي ابناء شرحبيل وفي هـــذا القول اغواء يعرفه الملك ويعرف الغاية منه .

فقاطعه وتار ذمر قائلا :

كذبت فالملك نفسه كان يقول لي ذلك وكان يكره ان تصبح بلقيس سيدة العرب .

ـ وكنت انت تجاريه في هواه ولم يخطر للك ان تخدعه في مؤامرته كما خدعناه أو تسأله الرحمة بالفتاة العاشقة التي لا ذنب لها في هذا العشق ، فامتــلاء صدر الملك غيظاً ومد يده الى سيفه قائلا :

لا نعلم على اي رأس يسقط هذا السيف بعد قليل .

فقال عتيك : قلت انه سيسقط على رأس الخائن ولو كان اعز الناس عليك

وقال الكاهن : الخائن هو الذي يرغب في قتل مولاه .

فقال الملك : اكنت ترغب في قتلنا يا ابن روضة ، كما يقول ؟

ــ بل كنت ارغب في قتل هــذا الرجل يا مولاي ، وقد قلت لشرحبيل ، عندما اعترفت له بذنبي ، وذنب ناشر ، ان يطلب اليك بعد رجوعك ان تكفي اليمن شره .

فاجابه وثار ذمر قائلا : بل قلت له ان العرش لا يثبت وولي العهد حي .

ــ بل قلت ان عرش ولي العهد لا يثبت وانت حي ، فأسكتهما الملك قائلا: سنسأل ناشراً عن هذا وسنعرف بعــد قليل كل شيء ... ولكن قل لنا يا ابن روضة ماذا فعلتم في قصر شرحبيل بعد موت الملك ؟

ــ ذهبنــا اليه مع صاحبه يا مولاي لننقذ بلقيس وكان امر عباد ، في تلك الساعة قد انتهى .

ــ وما هو السبب الذي قضى بخروج الهدهاد من القصر عند بزوغ الفجر؟

فابتسم قائلا : اما هذا السبب فقد لا يريد الملك ان اذكره الان .

ــ بل نريد ان تذكر الساعة كل ما تعلم ... وبدا الغضب في عينيه .

فقال : لقد خرج الهدهاد بامر ابيه ذاهباً الى مغار .

ــ صدقت ، وماذا يصنع فيها ؟

ــ يحمل الى اميرها خنجر شرحبيل ليعطيه ذلك الامير بعض المال ، فقهقه ضاحكاً وهو يقول : يخيل الينــا ان الفقر عض شرحبيل بن عمرو وجار عليه

الزمان فجعل يسأل المحسنين من العرب ان يعطوه .

ـــ لا يا مولاي فشرحبيل من اغنياء مأرب ولكنه لا يستطيع ان يعطي كما تعطي الملوك !!

قال : لم نفهم شيئاً من حكايتك .

ـــ ستفهم كل شيء يا مولاي ... اتعرف امير مذحج ؟

ـــ جابر بن مفروق ؟

ـــ نعم، فقد جاء الى مأرب وهو محتاج ، وقد ظفر بمذحج عامر بن الطرب وطلب الى ابيك الملك ان يكفيه مؤونة قومه .

ومتى جاء هذا الرجل ؟

ـــ منذ ايام يامولاي ، وكان ناشر في البلاط وهو الذي استأذن له ومثل معه بين يدي ابيك .

ـــ واعطاه ما تعود ان يعطي امثاله .. ثم ماذا ؟

ـــ لم يعطه شيئاً يا مولاي ، بل امر ناشراً بان يدعو اليه شرحبيل ابن عمه ، ففعل ، ولعله اراد ان يمتحن اخلاصه على هذه الصورة ، فطلب اليـــه ان يعطي جابراً ضعف ما كان يعطيه هو في كل عام يشتد به الضيق !

ـــ اذن فقد خرج جابر من البلاط صفر اليدين .

ـــ نعم غير انه عرف ان للملك غاية في رده ، فتبع شرحبيل الى قصره وهو راض، وذو مغار في ذلك القصر، ولكن شرحبيـــل لم يكن قادراً على اعطـــاء مذحج ضعف ما كان يعطيها الملك فسأل صاحب مغار ان يرسل اليه مالا يرده اليه في العام المقبل ، وتعاهدا ، على ان يكون الهدهـــاد رسول ابيه ، وان يكون خنجر شرحبيل رسالته اليه .

ـ ولم يرد في ذلك الحديث ، يا عتيك ، ذكر حرثة ؟

ـ بلى يا مولاي ، فقد وعد ذو مغار ، بان ينقل هذا المال الى حرثة ، مع فريق من جنوده ، ثم ينقله شرحبيل بدوره منها الى مأرب !

ـــ ولكن وتار ذمر خبرنا غير ذلك ، ماذا سمعت ايها الكاهن ؟

ـ سمعت ان انصار شرحبيل يقيمون بمغار حتى اذا ذهب اليهم الهدهاد حاملا لخنجر ابيه زحفوا الى حرثة .

قال : لم ار قط يا مولاي رجلا يكذب مثل هذا الرجل وله وقاحته ، أكنا نعلم من قبل يا مولاي ان وتار ذمر يسمع ، من قاعة السلاح ، وفي قصر شرحبيل ، ما نتحدث به ؟

ـ لا ـ وهل خطر لنا ، ان مولانا الملك سيسألنا ؛ بعد رجوعه من مهرا مثل هذا السؤال ؟

ـ لا ـ اذن ارجو ان تأذن لناشر وشرحبيل في الدخول ، ثم تستعيد هذه الحكاية منهما فتعلم من هو الكاذب ، بل اطلب اليك امراً آخر يا مولاي ، ارسل من تشاء من الرجال الى مغار اليوم لترى اذا كان فيها جنود لصاحبها او اسواه ، ثم افعل بعد ذلك ما تريد ان تفعله .

فاراد الملك ان يمعن في الاختبار فقال : بل ننتظر رجوع الهدهاد من مغار لنرى ما له .. ونسأله عما رآه .

ـ ولكنه لم يذهب اليها يا مولاي ، فتظاهر بالاستغراب قائلا : أنسيت ما قلته منذ لحظة ؟

ـ قلت انه لم يذهب لان شقيين من اشقياء اليمن سلباه ما معه وجعلاه اسيراً لهما في مضيق عجف .

ـ وهو باق الى الان في ذلك المضيق ؟

ـ لا ، فقد عاد الى مأرب منذ يومين ، وخبرنا ان بعض رجال بينون رأوه ففكوه ، فرجع الى ابيه يجر اذيال خيبته .

فرأى الملك عندئذ ، ان عتيكاً صادق فيما رواه ، ولكنه لم يشأ ان يصدر حكمه ، قبل ان يسمع اقوال الاميرين واقوال الهدهاد نفسه ، في تلك الساعة ، وكان وتار ذمر يهم بالكلام ، فاومأ اليه بان يسكت ، وصدره يغلي من الغضب ، ثم امر حجابه بان يدخلوا ناشراً وشرحبيل ، فدخل الاثنان فقال : علينا بالهدهاد يا عم .

قال : ليرسل الملك اليه احد الغلمان .

ـ متى رجع من مغار ؟

ـ كان في عجف يا مولاي وعاد منذ يومين .. فاشرق جبينه قائلا : يا غلام ادع الهدهاد . وساد الصمت قاعة العرش حتى اقبل . وعند الهدهاد ، من الدهاء ، ما عند ابيه ، فهو لم يضع قدمه عند العرش حتى جثا على ركبتيه ، وقبل ثوب الملك .

فانهضه قائلا : كنت تظن يا ابن العم ان هذا العرش سيكون لابيك بعد موت ذي القرنين ، ثم لك !!

ولم يذكر بلقيس ... فاجابه الفتى دون ان يتردد : بل كنت اظن ايها الملك اني سأغصب سابور تاجه ثم ازحف من ارض فارس الى الشام فأقذف بجنود قيصر الروم الى البحر .. اي شأن لابي بالعرش يا مولاي ؟

قال : اذكر ان الحظ لم يكن عوناً لك في ذهابك الى مغار .

قال : اذكر ذلك يا مولاي واكاد ابكي شرف ابي الذي لوثته الاقدار .

ـ شرف ابيك ؟

نعم ، فقد وعد ، باسم الملك ذي القرنين ، اميراً من امراء اليمن ، بان يرسل اليه مالا يطعم به قومه ، فخانته الحادثات .

فقال في نفسه : صدق عتيك وتربة الملك .

ثم قال له : لقد سمعنا هذه الرواية الان .

قال : ان ابي كان قد امرني بان اكتمها جميع الناس ، ولكن الملك اراد ان يسمعها الساعة فالملك قبل ابي وسابوح له بكل شيء ، فجعل يقول ، وقداعجبه هذا التملق : انه حديث اهل الشرف والاخلاص ... ولكن اية صلة لحرثة ، بوعد ابيك ؟

ـ خفت يا مولاي ان انقل المال ، مع عبدي ، فتسلبني اياه احدى العشائر ، فأراد ذو مغار ان يرسل معي بعض الجنود الى حرثه ، يحرسونه لي .

ـ وهل تعلم من هو الامير صاحب هذا المال ؟

ـــ جابر بن مفروق .

فقال : اجلس ، وليذكر لنا ناشر بعض ما ذكره عتيك .. لمـــاذا ضربت شرحبيل يا امير ظفار ، بخنجرك المكسور ؟

ـــ لاني لم ارد قتله يا مولاي ، فهو والد بلقيس ، وبلقيس امينة ولي العهد وامله ...

ـــ ولكن لولا الدرعان اللتان تحفظان ظهره وصدره لخر مضرجاً بدمه .

ـــ لقد كنا نعلم يا مولاي انه يلبس درعين ، ومع ذلك فالذي يضرب الصدر فيصيب الدرع ، يستطيـــع ان يضرب الرأس والوجه والعنق فيقتل عـــدوه ، ولكننا لم نفعل ذلك يـــا مولاي بل اكتفينا بما جرى ليعلم الملك ان شرحبيل طويل العمر ...

ـــ وما هو الحديث الذي جرى عند جثة الملك ؟ فوضع الفتى يده على جبينه كأنه يستعرض ذلك الموقـــف الذي ذكره الملك ، ثم قال : كنا نتحدث بامر العرش يا مولاي .

ـــ اذكر كلمة واحدة مما تحدثتم به .

قال : كان عتيك يقول : ان الخطر يكمن تحت قوائم عرشك اذا بقي وتار ذمر في الوجود .

ـــ وكيف انتهى الامر بعد ذلك ؟

ـــ بان نقص عليك ما فعله مع بلقيس فترى رأيك فيه ، فأطرق الملك ساعة طويلة يفكر في امره ، وقد عرف امير همدان ، من اختلاج عينيه ، ان صدره سينفجر بعد ذلك الاطراق .

وكان وتار ذمر خائفاً ، وكلما هم بان يبرىء نفسه ، تقف الالفـــاظ ، من اضطرابه وخوفه ، عند شفتيه ، لقد عرف المسكين في تلك اللحظة ، ان أعداءه اقوياء ، وانهم تهيأوا لكل امر قبل وصول الملك ، فمن الصعب ان يخـــرج من موقفه ظافراً ، ولكنه عاد فذكر قوته في اليمن ، ومنزلته في الدولة ، وقام في ذهنه ان الملك لا يجسر على ان يعرض له في شيء ، الا اذا أراد ان يجعل عرشه

على شفير الهوة .

ولبث ساكتاً حتى يخرج الملك عن سكوته ، غير ان الملك لم يأذن لاحد في الكلام ، بل رفع رأسه وقال لناشر : من هو الكاهن الذي يخدم الالهة في ظفار ؟

ـ هو سرح ابين يا مولاي .

ـ وهل هو كهل ام فتى ؟

ـ في ربيع العمر يا مولاي .

فقال : اكتب اليه باسم الملك ان يتعجل في مجيئه الى مأرب .

قال : سيأتي يا مولاي ليظهر خضوعه وطاعته .

ـ ولكن لا نريد ان نصبر حتى يجيء .. اكتب اليوم فنحن نريد ان نرسله الى مغار ولا نثق الا بالكهان . فابتسم عتيك ابتسامة خفية واجابه قائلا : ليذهب وتار ذمر بنفسه اذا اراد الملك .

قال : سنرسله في مهمة اخرى اصعب من هذه . ثم رفع صوته وقال : انصرفوا الان واعلموا ان الملك نسي كل شيء . اما انت يا ذا تبع فابق فنحن بحاجة اليك ، فقام الامراء وهم يقولون في انفسهم : لقد ارسلت الينا الاقدار ملكاً آخر يشبه ذا القرنين ، في كل شيء .

ولم يستطع احدهم ان يعلم ما يضمره الملك من خير وشر .

* * *

٦٤

ماذا رأيت يا ذا تبع ؟ . قالها الملك وعيناه ترسلان النار .

فقال ذو تبع : اخشى ان اذكر ما رأيت فيغضب الملك .

ـ ولكن نأمرك بهذا فلا تتردد ولا تكتمنا شيئاً .

قال : رأيت مكراً وخبثاً وسمعت كذباً .

ــ ممن ؟

ــ من هذا الرجل الذي يتولى امر الكهانه في دولة حمير .

ــ اتظن انه يخدع الملك ؟

ــ بل اقسم برأسك انه لم يرد الا ان يفسد عليك امر ملكك .

ــ وتثق ببراءة شرحبيل ورفيقيه !

ــ كما اثق بالشمس التي ترسل اشعتها الى هذه القاعة .. لقد تبينت الصدق يا مولاي في حديث عتيك ، ثم لمسته في اقوال الهدهاد وناشر وكدت اخرج عن حدي وانا بين يديك واصفع هذا الكاهن اللعين الذي يهزأ بمولاه ويعكر عليه صفو ملكه .

ــ اما نحن فقد خيل الينا ان بلقيس تطمع بالعرش !

ــ وهل سمعت يا مولاي ان المرء يطمع بشيء هو له ؟ الا تعلم بلقيس ، ان العرش هو لولي العهد وان ولي العهد سيصبح زوجها وسيدها ، ويصبح له الملك ولها ؟ أتؤثر ان تلبس التاج ملطخاً بالدماء وهي قادرة على لبسه ابيض طاهراً لا اغتصاب في امره ولا اكراه ؟ ان هذا الطمع يا مولاي لا وجود له الا في صدر وتار ذمر الذي يريد ان يبعد جميع الناس عن عرشك ليثب هو الى هذا العرش عندما تساعده الاقدار .

قال : لا تجاوز الحد في ظنونك يا ذا تبع .

ــ ولكن وتار ذمر شر الناس وستعلم يا مولاي انه لا يحبك الا على قـــدر حاجته اليك والى النفوذ الذي يستمده منك .

قال : لنترك الان وتار ذمر فقد نسيناه ونحن لا نريد ان نفكر فيه بعدا لان، بل قل ان هذا الرجل غير موجود وان في مأرب كاهناً آخر يخدم الالهة ويعنى بامور اليمنيين ... أفهمت ؟

ــ نعم يا مولاى .

ــ ولننظر في امر آخر يهم له الملك اهتمامه لنفسه .. أتعلم ماذا قيل لنـــا في

مهرا عن بلقيس ؟

ـ وماذا قيل يا مولاي

ـ قالوا ان لبلقيس عاشقاً غير عمرو بن ذي القرنين ، وانها تبذل الجهد كله لتتربع في العرش وتجعل عاشقها زوجاً للملكة ..

فخفق قلب الفتى واجابه قائلا :

يجب ان يكون العاشق اجمل اهل زمانه لتؤثره الاميرة على اجمل فتيان اليمن وأعظمهم مقاماً .

قال : لعلها خدعت بغير الجمال .

ـ اذا كان هــذا يا مولاي فقد استهوتها العظمة والشرف وليس في العرب رجل اعز منك واشرف نسباً .

ـ اذن فالرجال الذين يعيشون في ظلنا لا يسمعوننا غير الاكاذيب !

ـ اتعني جميع من حولك يا مولاي ام وتار ذمر نفسه ؟

ـ هو وسواه فقد قل وجود المخلصين في هذا الزمان ... الا يخطر لك ايها الهمداني ان الملك يعرف ما في صدور رجــاله ، من حب وبغض ، وصراحة وخبث ، واخلاص ورياء ، فخاطب نفسه قائلا : يخطر لي انك لا تعرف شيئاً ايها الملك ولا تبالي بشيء .. وقال له :

بل اعلم يا مولاي انك تعرف ما تعرفه الالهة والويل لمن يظهر لك الطاعة وهو يضمر العصيــان .. ولكن كيف ذكروا لــك يا مولاي ما ذكروه عن بلقيس وانت تعلم اي خفقان يخفق قلبها على الغرام ؟!.

قال : الملك لا يعلم من امر بلقيس الا ما تصفونه له .

قال : يظهر انها تكاد تذوب غراماً يا مولاي !

ـ ومن قال لك ذلك ؟

ـ عتيك امير نحلة .

ـ اليوم ؟

ـ نعم في هذا الصباح عندما كان الناس يهتفون لك في هذه القاعة ويجثون

عند قدميك ..

ـــ اعد علينا قوله .

ـــ لقد بكت بلقيس يا مولاي عندما نقلوا اليها ان اباك الملك اوصى بجعل الزواج في العام المقبل .! فأطل هواه من عينيه وجعل يقول : ما سمعنا منذ تركنا مهرة ،خبراً يعيد البهجة الى القلب مثل خبرك اتقول ان امير نحلة قص عليك هذا؟

ـــ اجل يا مولاي وكان ابوها يقول لها : لقد جعلني الملك شاهداً فلا حيلة لي في رد وصيته .

قال : سنستعيد هذا القول من فم شرحبيل نفسه ، ولكن ماذا نستطيع ان نفعل بوصية الملك والامر كما ذكرت ؟

ـــ لا تستطيع اليمن كلها ان تفعل شيئاً يا مولاي .. ان الكلمة التي ينطق بها الملك الماثت تخرج من فم الاله .

ـــ واذا رأينا ان نمحو ، بامرنا ، هذه الكلمة ؟

ـــ يثور الكهان والامراء في جميع الاقاليم ، بل تثور العرب كلهـــا من الشام الى الحبشة ، وتردد الالسنة في كل قطر ان الملك عمــراً بن ذي القرنين انتهك حرمة ابيه .

قال : سنفعل ذلك ولا نبالي اذا رضيت بلقيس .

ـــ ولكنها لا ترضى يا مولاي فأبوها من الاشراف بل هو من سلالة حمير ، وسليل الملوك لا ينتهك حرمة الملوك !

قال : يصعب على الملك ان يصبر مكرها على امر ، وهو سيد اليمن .

ـــ اما انا فأرى ان تصبر يا مولاي،لان بلقيس لك ، وستبقى على عهدك ما بقيت لا يغيرهـــا شيء .. ألم ينقل اليك ما فعله سابور قاهر العرب ، بعد موت ابيه ؟ لقد لبس تاجه ، ثم خرج وهو متوج الى القبر ، واقسم لابيه النائم تحت التراب انه سيحترم وصيته ويفتك باعدائه .. فافعل انت مثله يا مولاي ،اخرج الى قبر ذي القرنين وخاطب الملك الذي يرقد فيه قائلا له :

ليعلم العالم كـــله اني اقدس الكلمة التي لفظتها شفتاك قبل ان يغمض الموت

عينيك واني سأكون جلاداً لاولئك الرجال الذين هم اعداء العرش .. افعل ذلك يا مولاي ليهابك القوم ، وتعلم اليمن ان عمراً الذي خلف اباه ، لا ينسى شيئاً .

فسكت الملك سكوت تردد وضعف وقال له : لم يقل لنا احد ان ولي العهد يزور قبر ابيه ، بعد ان يصبح ملكاً .. سنفعل ذلك يا ذا تبع .. سنفعله اليوم .. وسننظر ، بالاشتراك مع شرحبيل والاميرين الاخرين في امر الزواج .

ـــ ولا تنس مولاي ان تشاور وتار ذمر .

ـــ قلنا لك ان وتار ذمر غير موجود .. وهذا ما اراد ان يعرفه امير همدان فقال :

ان للكاهن رأيه في الوصية يا مولاي .

ـــ ولكن الملك يستطيع ان يستعين برأي سواه ..

ـــ وهل وثقت يا مولاي باخلاص شرحبيل ؟

لم نثق بعد باخلاص واحد من الامراء ، كلهم خونة يبتسمون لنـــا برياء ، ولولا هذا الزواج الذي يعلل شرحبيل نفسه به ، لكان اول رجل يشهر السيف في وجه مولاه ، وينفخ في صدور قومه ، روح العصيان ، فقال وهو لا يريد ان يغضبه : وناشر وعتيك ؟

ـــ اما ناشر فلا نشك فيه، واما عتيك فقد قضى ايامه في البلاط وهو ساكت، والناس لا يعرفون عنه الا ما يعرفونه عن الاموات ... ومع ذلك فقد كان يطيب له ان يرى شرحبيل على العرش . وجعل يهز صولجانه ويقـــول : اما وتار ذمر فالويل له .. وكاد ذلك الصولجان يصبح في يده قطعتين لشدة غضبه . فلم يعبأ الفتى بذلك الغضب ، بل كان يريد ان يقرا جميع اسراره ، ليتدبر رفاقه الامر ، ويحتاطوا له من جميع نواحيه ولو كان غضب الملك ناراً قاتلة .

لقد عرف ذو تبع هوى ذلك العاشق وعاطفته ، ودرس حياتـــه في خلال الشهرين اللذين قضاهما معه في مهرة فهو قادر بقوة هـــذا الدرس ، ان ينـتزع الاسرار من صدره ، دون ان يبدو على وجهه اثر واحد من اثار رغبته . كان هادئاً في طلبه ، هادئاً في حديثه ، وذلك الاخلاص البادي في عينيه ، يدفع الملك

الى الوثوق به . فلما ابصر غضب مولاه ، قابله بابتسامة هي ابتسامـــة الخضوع والاستسلام وقال : اذن قضي على كاهن اليمن .

ــ اجل وعندما تنتهـي منه يجيء دور سواه .

قال : لقد ثبت لك يا مولاي ان اولئك الامراء ابرياء فمن هو هـــذا الرجل الذي استحق غضب الملك ؟

ــ هو عتيك امير نخلة ، الذي سمعنا عنه ما نكره ، ونحن لا نعلم عن ماضيه ما يمحو حاضره . !

ــ ولكنك لم تجد عليه ذنباً يا مولاي ، نعم سأضرب عنقه بهـــذا السيف عندما يأمرني الملك بذلك ، غير اني اخشى ان يخلق موته للعرش اعداءهم اليوم انصار له . . أنسيت يا مولاي كيف كان ابوك يجاري اعداءه ويتملقهم وهو واثق بانهم لا يحبونه وليسوا اوفياء لملكه ؟ اكان ابوك يخاف الابطال في ساحات الوغى وهو الذي خاض الميادين ظافراً يبسم له النصر في كل مكان يضع فيـــه قدمه ؟ بلى يا مولاي كان يخاف شيئاً هو الثورة تستعر نارها في الاقاليم ثم تمتد الى مأرب وتسيل دماء اليمنيين .

فقاطعه قائلا : اي انك تخشى ان تخرج نخلة عن الطاعة ويجرد ابناؤها السيف . . .

ـ نعم يا مولاي وقد يخرج غيرهم كما يخرجون وتخفق اعلام الثورة في كل الفضاء . . .

قال : احذر يا ذا تبع فانت تدافع عن الرجل .

ـ بل ادافع عن الملك الذي ابذل دمي في سبيل هنائه وظفره باعدائه ، مرني يا مولاي بالموت تجد اني لا اتردد في اقتحام غمراته ليكون مولاي الملك راضياً ويمسي عرشه ثابت الاركان يهزأ بالحادثات . ثم قال : اتريد يا مولاى ان اخرج الساعة الى الرواق فاقتل شرحبيل وعتيكاً وامسح السيف بثوبيهما ؟

ـ بل نريد ان تقتل عتيكا وحده اذا طاب لك القتل الان .

فنهض قائلا : أأفعل ؟ ومد يده الى سيفه .

فابتسم وقال : لقد عرفنا من قبل انك تتصدى للموت حتى لا تصل يده الى مولاك كما فعلت في ميدان مهرة .. انك وفي للملك وطائع له .. ولكنك لم تخف ان يموت وتار ذمر وهو الكاهن الاعظم ، كما خفت ان يموت عتيك وهو أمير !

ـ ان وراء عتيك مخلافاً فيه الجيوش يا مولاي .

ـ ووراء وتار ذمر كهاناً يملأون المخاليف .

ـ ولكنهم لم يكونوا قط من رجال السيف .

ـ بل كانوا اصحاب نفوذ يوغرون الصدور عندما يشاؤون .

ـ اما النفوذ يا مولاي فلا يملك احد منه شيئاً وانت ملك حمير ، الا تعلم يا مولاي ان هؤلاء الكهان يأخذون نفوذهم من صاحب السلطان الاكبر الذي هو الملك ؟.

اذن نأمر بقتل وتار ذمر ولا نبالي ؟

ـ اذا اراد الملك ان يفعل فهذا السيف يخمد اصوات الكهان الى الابد ، ومع ذلك فـأنا اضمن لمولاي انه لا يرتفع لاحدهم صوت بعد موت سيدهم وتار ذمر .

قال : سنأمر بقتله بعـد حين وليبق عتيك .. انك انقذت حياتنا من سيف ذلك الحبشي فنحن ننقذ لك حياة من تشاء .. ولكن لاتنس ان تضمن اخلاص صاحبك اذا اردت ان يعيش .

قال : وهبت لي حياته يا مولاي ؟

ـ اجل فليتآمر على الملك ما طابت له المؤامرات ، ونهض عن العرش وهو يقول : نسألك الان عن الحب الذي يملأ هذا القلب ، الا يستطيع ان يرى من يحب ؟

ـ وكيف لا يستطيع ذلك والعالم كله بين يديه ؟

ـ واين نرى بلقيس وهي في قصر ابيها لا تخرج منه ؟

ـ في هذا القصر نفسه يا مولاي ؟

ـ ولكن يقولون ان الملك لا يزور احداً .

ـ بل يزور من يشاء عندما يشاء .

ـ وهل تجيء بلقيس الى البلاط اذا دعوناها اليه ؟

ـ لا اظن يا مولاي فالاميرة مثل بلقيس لا تدخل بلاط الملك الا عندما يصبح هذا البلاط ملكاً لها كما تعلم ، وما الذي يمنعك يا مولاي من الذهاب الى قصر شرحبيل وشرحبيل ابن عمك وهو سيد النبلاء ؟ فاستند الى عرشه قائلا : ادع شرحبيل وناشراً فقد نسينا الان كل شيء وسننظر في امر هذا الحب ليس غير .

ـ وهل عولت على الصبر الى العام المقبل يا مولاي .

ـ سنصبر اذا كان لا بد لنا من الصبر . . فخرج الفتى الى الاروقة ، لينقل الى الامراء بشرى الحكم بالموت على وتار ذمر ، والعفو عن عتيك ، ورغبة الملك في تأجيل الزواج ، وقد عاد الامل الى صدور القوم عندما سمعوا تلك البشرى ، ومشى شرحبيل وناشر وراء الامير ليمثلا من جديد بين يدي الملك المستسلم لهواه ، وكانت الابتسامة في تلك الساعة تغمر ثغره المقدس وقد صبغ الغرام وجهه بلونه العجيب الفتان .

* * *

٦٥

قرأ ذو مغار كتاب شرحبيل الذي يحمله نائل ، والدهشة تملأ نفسه ، وهو لا يصدق ان امل ابن يعفر بالملك قد ضاع ، وكيف يضيع ذلك الامل وقد هيأ له القوم كل شيء ؟ بل كيف تخسر بلقيس العرش وقد كادت الايدي القوية ان ترفعها اليه ؟؟ ان في القضية اذن واحداً من امرين ، اما ان تكون هنالك خيانة فضحت الاسرار ، واما ان تكون قوة غريبة جديدة ، خلقها القدر لعمرو بن ذي القرنين ووهبها له الزمان !

ولولا ذلك لما تراجع شرحبيل ومن معه من الميدان ، ولما خطر لبلقيس ، وهي التي لا يلوى لها عود ، ان تترك الساحة .

وكانت مغار ، في ذلك الحين ، تغص بالانصار ، من براقش وبينون وما حولها من مخاليف ، على رأسهم جبار والغوث ، ينتظران قدوم الهدهاد ، فتحير ذو مغار في موقفه ، أيقول للناس انصرفوا وقد تركوا اهلهم وارضهم وتهيأوا للحرب ، ام يزحف ثائراً غازيا ليسحق الجالس على العرش ولا يسأل عن شيء؟ ولكن امر شرحبيل صريح لا ابهام فيه ولا الغاز ، وليس من الرأي ان يخالف الرجل الذي عاهده على الوفاء ، فيما يرد عليه منه ، فقال للغلام : مــاذا جرى يا نائل في مأرب ؟

ــ لا تسألني عما جرى يا مولاي فانا لا اعلم شيئاً ، ولكني رأيت ان السحب السوداء تحجب وجه الافق .

قال : اذكر ما رأيت .

ــ رأيت مولاي الهدهاد اسيراً في عجف !

ــ ابن شرحبيل ؟

ــ نعم يا مولاي وكان ابوه قد ارسله اليك حاملا خنجره ومعه عبدان له .

وقص عليه حكاية انقاذه من ذلك المضيق وذكر له تلك الرسالة التي حملهــا رعين من مهرة ، فقال : ليس في مهرة من يكتب الى شرحبيل غير ذي تبع ؟

ــ اجل يا مولاي فقد كانت الرسالة منه ويخيل الي ان يد وتار ذمر في كل ما جرى .

قال : اصبت فتلك آثار الكاهن الاعظم الذي لا يطيق ان يرتفــع في اليمن رأس قبل رأسه . ودعا الغوث وجباراً فقال لهما : لقد استولى عمرو على عرش ابيه وانتهى الامر . فذعر الغوث قائلا : ومتى رجع من مهرة ؟

ــ انه لم يرجع بعد ولكن خائنا من مــأرب مهد له سبيل الظفر باعدائه وهو بعيد . . .

ــ ومن هو هذا ؟

ـ كاهن اليمن الاعظم الذي كان عوناً لذي القرنين والتفت الى نائل قائلا: أعد حكايتك ، فأعادها الغلام ثم قال : ولكن سمعت مولاتي بلقيس تقول لامير ظفار : اصبروا فسيخسر ابن ذي القرنين العرش بعد قليل، فقال جبار بن دوير: وماذا نصنع الان يا ذا مغار فناوله رسالة شرحبيل وهو يقول : يعود الجيش الى المخاليف التي خرج منها وانصرف انا الى مأرب كما ترى في رسالة ابن يعفر ، فقرأها قائلا : وبعد ذلك ؟

ـ ومن يعلم ماذا يحدث بعد ذلك ، ان السر في مأرب ، وسأحمل اليكما منها اخبار هذا الفشل الذي فوجئنا به .

قال: اخشى ان يتزوج الملك بلقيس، فتسكت مطامعها ومطامع ابيها وتدور الدائرة على اولئك الانصار الذين حملوا السيف للدفاع عنهما !

قال : لو استطاع ابن ذي القرنين ان يهب لبلقيس تاج سابور لما رضيت به، انها تريد ان تكون هي الملكة ، ويكون الفتى الذي تختاره زوجاً لها خاضعاً لسلطانها كما يخضع له كل يمني .

ـ وهل انت واثق بهذا ؟

ـ نعم واضمن لكما ان الحادثات لاتستطيع ان تمحو حرفاً واحداً مما كتبه شرحبيل بن عمرو .

ـ اذن فنحن باقون على عهده حتى يرد علينا خبر آخر منه .

ـ وماذا تفعل اذا سكتت المطامع التي ذكرت ؟

ـ تستيقظ في صدري وصدر الغوث مطامع اخرى لا تسكت .

ـ أتجرد السيف يا جبار في وجه الملك ؟

فأجابه الغوث قائلا : بل نجرده في وجه كل يمني ، يطيع ابن ذي القرنين ولو كان شرحبيل نفسه !

ـ اي ان براقش وبينون لا تعترفان بعمرو ؟

ـ لا ، وسيخرج من براقش علم العصيان ثم يخفق في كل فضاء حتى يصل الى مأرب وهو يظلل الالوف من رجال الحرب ... اتظن ان بني سعد ينسون شرفهم

الذي داسه الملك قبل موته ويعترفون بولده ملكاً ؟
ــ ولكن تعدني انك لا تفعل شيئاً قبل ان اعود .
ــ اعدك بهذا وليعلم شرحبيل اننا خصوم له اذا اصبح هو عوناً لملكه .
ــ قال : وسيكون ذو مغار نفسه خصماً له اذا فعل ذلك .
ــ اذن فقد تعاهدنا من جديد ... متى تعود انت ؟
ــ من يعلم فقد امكث بمأرب شهراً كاملا أعود بعده حاملا ارادة الامـــير التي لا تتغير بعد ذلك ، ثم قال لنائل : أما انت فخبر مولاك ان الغوث بن راهط لا يعترف بالملك اذا هواعترف به ولا يضع قدمه في مأرب الا يوم يزحف عليها على رأس رجاله ليحطم العرش المخضب بدماء الابرياء .

قال : اذا اعترف مولاي بابن ذي القرنين كان اعترافه هزءاً به ودهاء يتبعه السيف الذي لا يغمد !

ـ ومع ذلك فلا تنس ان تقول له ما ذكرت ، وقل لبلقيس ان الضعف لا يبني الملك الذي تطمع فيه ..

ــ ان بلقيس لا تعرف ضعفاً ، ولكن بقاء مولاي الهدهاد في عجف تحت رحمة الرجلين اللذين اشتراهما وتار ذمر هو الذي ابقى العرش لصاحبه .

قال : يبقى هذا العرش اليوم ثم يسقط غداً !

ــ اجل يا مولاي وهكذا كان الامراء يقولون قبل خروجي من مأرب وهم في قصر مولاي شرحبيل ، فأراد ذو مغار عندئذ ان يسبر غور الغوث وجبـــار فقال : ستبذل براقش وبينون الكثير من المال ايها الامير .

ــ وكيف ذلك ؟

ــ سيرجع الجيش اليوم ثم يتهيأ للحرب من جديد وهذا هو البذل .

ــ ولكن الذي يحارب الملوك لا يسأل عن الذهب ... ان في براقش وبينون من المال ما لا يوجد مثله في بلاط ذي القرنين .

فقال لنائل : انقل ايها الغلام ما سمعت ، ولتثق بلقيس بان الغوث وجباراً هما الرجلان اللذان سيرفعانها الى العرش .

فقال جبار : والآن ؟ فأجابه قائلا : اما الان فلم يبق الا ان ينصرف الجند.

ـ اليوم ؟

ـ نعم اليوم فقد يخطر لعمرو ، عند وصوله الى مأرب ان يرسل الى مغار من يحمل اليه اخبارها .

ـ وهل تظن ان شرحبيل أراد ذلك ؟

ـ اجل وهذا معنى رسالته التي قرأت .

فنهض الاميران وهما يقولان : ليبعث الملك من يشاء فهو لا يجد في مغار جندياً واحداً بعد هذا اليوم ، وخرجا ، ثم تبعهما ذو مغار ونائل، وطافت الغلمان بين الصفوف تحمل امر الاميرين بالرحيل ، في ذلك الليل ، ولم يطلع صباح اليوم الثاني ، حتى كان الجيشان في طريقهما الى براقش وبينون ، ولم يبق في مغار ، غير رجالها الاشداء ، فقال ذو مغار عندئذ لرسول شرحبيل : ارجع انت الان وقل للامير اني ذاهب اليه ، فانصرف نائل ، وفي تلك الساعة نفسها كان الامير يتهيأ للرحيل الى مأرب ، لينظر مع القوم من جديد في امر الحرب .

* * *

٦٦

عندما اصبح الامراء في قاعة العرش ، نهض الملك قائلا لهم : امكثوا هنا فسأعود بعد ساعة ! قالها ولم يتردد في الخروج .

فقال ناشر : ان في خروج الملك الان سرا من الاسرار .

فقال ذو تبع : ليفعل ما يطيب له ولتكن حياته كلها اسراراً فنحن لا نعبأ بما يصنع .

فهم بان يخرج وراءه ليتبين امره ، فنعه الفتى قائلا :

لا تمازح الاسد يا ناشر فهو لا يحب المزاح . ولكن الملك لم يلبث حتى عاد

وهو يقول لشرحبيل : لقد ثبت لنا الان يا عم - من ناحية واحدة - انك تحب الملك وتطيعه . ولكن بقيت هنالك ناحية أخرى لم نعلم عنها شيئاً .

ـــ ما هي يا مولاي ؟

ـــ سنقولها لك بعد حين !

ـــ بل أسأل مولاي الملك ان يذكرهـــا الساعة لاثبت له امام امرائه اني اشد وفاء له من جميع اليمنيين !

ـــ ولكننا سنعرف هذا الوفاء دون ان نسألك .

قال : كلمة واحدة يا مولاي .

فابتسم وقال : يريد الملك ان يسمع باذنه ويرى بعينه ، جميـــع ما جرى في مأرب وهو بعيد عنها .

ـــ اجمع اهل مأرب كلهم تعلم كل شيء .

قال : لقد جرت بعض الحادثات خـــارج مأرب فأطرق ملياً ثم قال : يخيل الي اني عرفت ما اراده مولاي . أتأذن لي في القول ؟ ـــ افعل .

فقال : بقيت مغار التي قيل للملك ان فيها اعداء عرشه أليس كذلك ؟

ـــ ثم ماذا ؟

ـــ وقد احببت ان تبعث اليها احد رجالك لترى اذا كان وتار ذمر صادقاً فيما نقله اليك . فابتسم مرة ثانية ولم يجب .

فقال : ولكني اقول لك من الان انه كاذب وسيرى رسولك الى مغار ان صاحبها من اخلص الناس لمولاه !

ـــ اما نحن فنخشى ان يجد فيها جنوداً .

ـــ وماذا تصنع الجنود في ذلك المخلاف يا مولاي؟ أتظن ان شرحبيل المتمرد يجمع جيوشه في ذلك البلد النائي الذي تفصل الجبال والاودية بينه وبين مأرب ؟ وهل يطيب لي يا مولاي ان اجعل انصاري في اقصى اليمن ، وانا اريد ان اخلع مليكي عن عرشه كما يزعم وتار ذمر ؟ ! اني اسألك يا مولاي ان تجود علي بوعد لا اسألك سواه .

قال : اسأل ما تشاء .

ــ اطلب ان يضرب الملك عنقي في ساحة قصره اذا كان في مغار جيش !

ــ بل تفعل غير ذلك يا عم . .

ــ وانا خاضع وراض بما تفعل ، ولكن اذا لم يجد رسولك جيشاً ؟

فادرك الملك معنى طلبه فقال : نضرب اذن عنق رجل آخر .

فقال : هذا ما التمسه من مولاي الملك فاما ان اموت او يموت وتار ذمر الكاذب الذي سعى بي . فالتفت الى ذي تبع وناشر وقال لهما : أتسمعان ؟

فقال الهمداني : وهل تعد يا مولاي بقتل وتار ذمر اذا ظهر كذبه ؟

ــ لقد وعدنا الان وانتهى الامر .

ــ اذن لم يبق الا ان يختار الملك كاهناً سواه فهو سيموت .

ــ اي انك واثق بكل ما يقوله شرحبيل

ــ نعم يا مولاي فابن عم الملك لا يكون خائنا .

ــ وماذا يقول ناشر ؟.

ــ مثلما قال ذو تبع يا مولاي وأزيد عليه ان وتار ذمر يريد ان يستأثر بنفوذ البلاط ليكون سيد اليمن .

ــ بقي ان تقول انه يطمع بتاج حمير !!

ــ لقد كرهت ان اقول هذه الكلمة يا مولاي .

قال : كــان الكاهن الاعظم ملكاً صغيراً يعيش في ظل ملك آخر هو ذو القرنين افلا يرضى بأن يبقى كما كان ؟

قال : تأبى نفسه ان يظل بدون تاج !

ــ ولكنه سيلبس تاجاً لم يلبس مثله ملك ... ثم قال : اتركوه الان فسيأتي يوم نتحدث فيه بأمر الكهان ... وقال لشرحبيل : اتأذن لنا يا عم ان نسألك عن بلقيس ؟.

ــ ان في سؤال الملك نعمة لآل شرحبيل !

قال : انسيت بلقيس انها عاهدت ولي العهد على الوفاء ؟.

ــ وهل تستطيع يــا مولاي ان تنسى ملكها الذي شرفها بحبه . انها كانت تلعن الحبشة التي سعرت نار الحرب وقضت بذهاب ولي العهد الى مهرة !!

قال : لقد وعدها ابن ذي القرنين بالزواج وهو ولي عهد ، ولم يعلم انــه سيعود من مهرة وهو ملك ، وحاول عندئذ ان يكون ملكاً في غرامه فلم يقدر ، فقال :

ولكن وصية ذي القرنين محت ذلك الوعد واكرهتها على الصبر عاماً آخر لم يكن لنا رأي فيه ... ماذا تقول يا عم ؟

ــ ليس لاحد ان يقول كلمته في هذا الامر غير الملك .

ــ ألم تذكر لبلقيس هذه الوصية ؟

ــ بلى يا مولاي ؛ واذكر انها بكت عندما نقلت اليها حديث ابيك وكان بكاؤها بكاء عاشقة برح بها الغرام !

فقال في نفسه : لقد صدق هؤلاء في كل ما يقولون .. واطرق ملياً ثم قال : لقد رأينا ان ننسى وصية الملك ونتزوج بعد شهر فهل ترى انت ما نراه ؟

ــ يقدر ان يفعل الملك ما يشاء دون ان يكون لاحد رأي ، ولكني اخشى ان تستخف بنا العرب وتقول : لقد انتهك ملك حمير حرمة ابيه !

ــ اذن فالملك يفعل ما تراه بلقيس وسنذهب اليها في الليل عندما ينام من في البلاط .

قال : سمعتها تقول يا مولاي انها لا تطيق البقاء في مأرب بعد وصية الملك!.

فجعل يتفرس فيه وهو يقول : والى اي بلد ترحل !

قال : قد يطيب لها ان تسير الى الحجاز وتمكث به سنة .

ــ وماذا تصنع في بلاد لا تعرف من اهلها أحداً

ــ تزور البيت الذي زرته قبلها مرتين :

ــ ولكن نساء العرب لا يفعلن ما تقول .

ــ الا تستطيع المرأة العربية ان تسجد لآلهة الكعبة كما يسجد الرجال وتنذر لها النذور كما ينذرون .

ــ ومن يذهب معها الى ذلك القطر ؟

ــ انا والهدهاد يا مولاي ..!

ــ ولا يبقى في القصر احد ؟

ــ يبقى العبيد والغلمان ليس غير .

قال : اما الملك فلا يأذن لها في هذا .

قال : اشكر مولاي الملك وأسأله ان يمنعهـا من الذهاب ، فاهتز الهمداني لهذه الحكاية الجديدة التي لم يذكرها له عتيك ، .. ولكنه لم يشأ ان يقول كلمة خوفاً من ان يعثر لسانه فيفضح نفسه ، غير ان الملك لم يقف عند هذا الحد ، بل كان يقول : نصبر عاماً آخر على ان تبقى بلقيس في مأرب ، واما أن ترحل عنها الى الحجاز فهذا لا نسلم به .

فقال شرحبيل : ايريد الملك ان اتقدمه الى القصر الان ؟

ـ لا ، بل تذهب معنا وسيتقدمنا احد الحجاب . . . وكان ذلك دهاء من الملك ، فقد اراد ان يفاجىء بلقيس بذكر المؤآمرة وحديث الغرام ، وفاته انها سيدة المتآمرين وان القوم اشد دهاء منه . وقد عرف الامراء ما يعنيه ، فسكتوا وهم يهزأون ببلاهته التي يظنها دهاء . ثم قال ذو تبع : من هو رسول الملك الى مغار ؟

ـ انه معدي كرب وسيترك البلاط عند الصباح .

قال : رسول امين صادق لا يذكر الا ما يراه .

ـ وهل يطيق الملك ان يكون في بلاطه غير الامناء ؟ ان هذا الشهر يمر وسترى بعده كيف ينحي الملك الخونة ويقرب المخلصين .. ولمعت عيناه فاصبحتا مثل عيني الذئب .. وارتسمت على جبينه دلائل القسوة الوحشية التي كان يراها الناس على جبين ابيه. فايقن القوم بان ظلم الولد سينسيهم ظلم الوالد ، وان صدر ملكهم الجديد لا ينطبق على عاطفة انسان ! ! ولكنهم كانوا مكرهين على احتمال ما يرون ويسمعون والظهور بمظهر الاوفياء المخلصين ، وهم الأعداء المتآمرون .

مسكين ملك حمير ، كان غريباً في بيته ، وعدواً بين رجاله . وهو يظن انه

قادر على تقريب الاصدقاء وابعاد الخونة عن العرش ! . وكان واثقا ، كما قرأت ، بذلك الامير الهمداني ثقته بنفسه ، يستشيره في شؤونـــه ويطلعه على اسراره ، و مير همدان اشد اعدائه خطراً وابعدهم عن الوفاء له ! على ان وثوقه بالاخرين الذين حوله ، كان قلقا واضطرابا ، بل كان وثـــوق الذئب « بابناء عمه » .. بل هو وثوق الرجل الذي يعد جميع المظاهر مظاهر كذب ورياء .

وقد اعمى القدر بصيرته فلم ينظر الى ذي تبع نظره الى هؤلاء ، ولم يقم في ذهنه انه سيد المتآمرين . وكانت نفسه في ذلك الحين ، نفساً ثائرة ! . ثائرة على ابيه ذي القرنين الذي قتل قبله بوصيته ، وعلى وتار ذمر الذي هزأ به ، بتلك الروايات الكاذبة التي قصها عليه ، وعلى شرحبيل بن عمرو الذي جعلته الالهة أبا لبلقيس ! وعلى ذلك الغرام نفسه ، الذي يمنعه من ارسال صواعق غضبـــه الى الرؤوس ، بل كان ثائراً على جميع اليمنيين الذين لا يعدونه الها ، وكانت نفسه ظمآنة الى الدماء . دماء المجرمين ، دماء الابرياء ، كأنه يريد ان يبدأ عهد ملكه بالترويع والقتل .

اجل ، لولا تلك العاطفة التي كان يسميها غراما ، لكان في قسوته وحشا ضاريا يفترس كل من يدنو منه ، وليس في ذلك شيء من الغرابة ، بل الغريب ان ذلك الفتى الطائش ، استطاع ان يخفي ما في نفسه ، ويكتم رجال بلاطه ، تلك الثورة التي تجيش في صدره .

كان يبتسم كأن شفتيه ألفتا الابتسام.. وكان هادئا كأن الهدوء من طبعه ، واللين شيمة له . !

ولم يخطر لآلهة اليمن ، ان تنزع الحجاب عن ذلك الهدوء الكاذب ليتبين الناس ما وراءه . . . انه هدوء الليث يتحفز للوثوب . . . وانه سكون يتقدم العاصفة ! . ذلك هو الملك الجديد الذي عصب رأسه بتاج حمير ، وذلك هو اليمني الذي يجلس مع الآلهة على عرش واحد .

لقد قال له وتار ذمر ان شرحبيل وعتيكا يسعيان لينحيـــاه عن العرش ، فصدق اولاً ذلك القول ، ثم تغلل الشك في قلبه . . ثم لمس كذب وتار ذمر

بيديه . . .

ولكن يكفي ان يصبح شرحبيل وعتيك متهمين ... بل يكفي ان يظن وتار ذمر ، وهو يمني ، ان في اليمن رجلا يجسر على التفكير في اغتصاب العرش .

ألم تكن تلك التهمة الكاذبة من الذنوب التي لا تغفرها الالهة !! وهل يجوز في نظر الملك العادل ... ان يبقى المتهم حيا ، وان يكن بريئا ، لا !! فوتار ذمر يجب ان يموت ، وشرحبيل وعتيك يجب ان يموتا !! ثم يبعد ناشر عن البلاط فهو فتى لا خير فيه !

ولكن الحكم لا ينفذ بشرحبيل الا عندما تصبح بلقيس داخل البلاط، وتملأ قاعاته أنسا وبهجة !.

واما الآخرون ، فليرحل بعضهم عن مأرب ، وليحصد السيف البعض الآخر ولو ثارت اليمن ، تلك هي الفكرة الهائلة التي خطرت للملك عندما قال كلمته . وقد امتزجت تلك الفكرة بعاطفة غرامه ، كما رأيت ! غير ان تلك السحابة ما لبثت حتى اضمحلت، ورأى القوم ذلك الجبن المكفهر ،يزهو ويعود الى اشراقه. ثم سمعوه يقول : ايطيب لك يا امير ظفار ان ترافق الملك الى قصر شرحبيل في هذا الليل ؟

قال : افعل ما يأمرني به مولاي الملك .

ــ ولكن الملك يخشى ان تطعنه بخنجرك من الوراء ... فملأ الرعب قلب الرجل وهو يقول : ان الملك يريد ان يمازح عبده واصدق المخلصين له .. أليس كذلك يا مولاي ؟

ــ بلى يا ناشر بلى ، لقد اردنا المزاح ... ومــع ذلك فنحن لا نخافك ولا نبالي بما تضمره لمولاك .

قال : يعلم الملك اني لم افكر الا في طاعتــه ، ولا اضمر له الا ما يضمره الجندي الشريف لقائــده البار .. فأومأ اليه بالسكوت قائلا لشرحبيل : ليبق ناشر فلا حاجة لنا اليه وليذهب معنا ذو تبع فهو الذي انقذ حياة الملك في الميدان والملك لا يطيق ان يفارقه .. لقد جعلناك يا ناشر حارساً للبلاط حتى نعود ...

اسمع . جعلناك جارساً ولم نجعلك نائباً لنـــا !! وهذا معناه ان نائب الملك يفكر كثيراً في العرش ونحن لا نريد ان تمتد الافكار الى العروش .! فرفـــع شرحبيل رأسه وقال : ألم يقل الملك اني بريء مما نسب الي ؟

ــ اجل ولكننا نردد قول وتار ذمر الذي سعى بالابرياء .

فلم يشأ شرحبيل ان يجيب بـــل كان يقول في نفسه : الويل للرجال الذين يعيشون في ظلك يا ابن ذي القرنين . ثم ذكر الملك حديثه مع امير همدان فقال: انهضوا . فسنزور قبر ذي القرنين قبل ان تغيب الشمس ، فاجابه ذو تبع قائلا : صبراً يا مولاي حتى يتهيأ الحراس ورجال البلاط .

فقال : بل نزور قبره غداً بعد ان نسمع رأي بلقيس .. ولكن لا النـــذهب الساعة ولنترك الحراس

وتقدمهم خارجا من القاعة وهو لا يلتفت الا الوراء فتبعوه وقد خفضوا الرؤوس وهم يتبادلون النظرات ، ويبتسمون ابتسامات السخرية والاستخفاف، حتى جاوز الباب الخارجي ولا موكب له ، ولا حراس حوله ، كأنه رجل من رجال البلاط ذاهب الى الصيد !

وكان القبر وراء القصر ، على قمة تشرف على مأرب من الجنوب ، وحوله طائفة من الحراس يحملون الحراب .

وتلك هي عادة من عاداتهم، يجعلون الجنود عن جانبي القبر من الشرق والغرب ويقف قائدهم في الجانب الشمالي ، ويبقى الجنوب ممراً للامراء ، يفعلون ذلك شهراً كاملا ، ثم يعودون لينام الملك وحده في حفرته ، فلما دنا عمرو من الضريح رفع الجنود حرابهم الى العـــلاء ، ثم جثو على ركبهم امام الههم ، والعيون تنظر الى الارض .

فوضع الملك سيفه عند الباب ، كما اشار عليه شرحبيل ، وهامس ذا القرنين قائلا : نقسم اننا سنغمد هذا السيف في صدور اعدائك وسنلقي الرعب في قلوب الرجال الذين يترددون في الطاعة والخضوع لولدك .

والتفت الى الامراء وهو يقول : لقد حلفنا الان يميناً لم يحلف مثلها ذوالقرنين عند قبر ابيه ولا نزيد كلمة .

فهامسه ذو تبع : والوصية يا مولاي ؟

فقال وقد رفع رأسه : لا نذكر هذه الوصية قبل ان نرى بلقيس . فخاف الفتى ان يعدل الملك عن رأيه ، فقال له : خير للملك ان يذكرها الساعة لتردد مأرب هذه اليمين التي حلفت .

فتناول سيفه وقال : ليس في اليمن كلها من يجسر على ان يقول كلمة ! نحن اليوم نفعل ما نشاء رضيت اليمن ام لم ترض . أليس لعمرو بن ذي القرنين ، هو وارث التبابعة وملك سبا وريدان وحضرموت ، ان يخاطب اباه بما يشاء ؟ فسكت الامير على غل وقلبه يضطرب في صدره ، اما هو فمشى راجعاً والزهو في بردتيه ، فلم ير القوم الا ان يمشوا مطرقين خلفه ، كما فعلوا عند مجيئه .

وكان الناظر اليه في تلك الساعة ، يحسبه في عيد .

* * *

٦٧

أملى الدهاء على الملك ان يفاجىء بلقيس في ذلك الليل ، بتلك الزيارة التي لم يذكرها لها احد ، حتى انه ابى ان يرسل اليها احد حجابه كما هي عادة العظماء والملوك ، وقبل ان يغادر البلاط وضع يده على كتف ناشر قائلا له : ابق مع عتيك الليلة ولكن لا تتآمر على مولاك .

وهكذابدأ بالقاء الرعب ، دون ان يكون واثقاً بخيانة رجاله ، ودون ان يشك في امين سره الاول ورفيق صباه .

فقال ناشر : الا ترى يا مولاي ان القتل خير لي من هذا ؟ فضحك وقال : وهل تظن ان الملك لا يعرف الرجال الذين يستحقون القتل ويستحقون الحياة ؟.

ابق .. واحذر ان يمسك سيف الملك عندما يخرج من غمده ! وخرج ولم يأذن له بالجواب ، وكان يمازح شرحبيل وذا تبع وهو يمشي بينهما الى ان امسوا في فناء القصر ، فقال لشرحبيل : قل لاحد عبيدك ان يخبر بلقيس وكان غرضـــه الا ترى بلقيس اباها قبل ان يراها هو .

ان الشك الذي تشتعل ناره في داخله لا يزول الا اذا سمـــع كل شيء من فم بلقيس . ففعل شرحبيل ما امره به ورفع صوته مخاطباً احد عبيده : قل لولدي ان مولانا الملك في القصر !

ولكن دهاء الملك المغرور لا يذكر مع دهاء بلقيس ، فلم ينقل اليها العـــبد خبر وصوله حتى عرفت غايته من هذه المفاجأة ونادت اخاها الهدهاد قائلة :

تهيأ لاستقبال تبع !.

ولم تشأ ان تقول للعبد كلمة فقد احست ان حبيبها يرافق مليكه وهذا ما تريد ان تسأل عنه ، ثم ركضت ركضاً الى قاعة الجلوس فرأت الملك واقفاً بين ابيها وذلك الحبيب ، فتلعثم لسانها بالدعاء له كأن الغرام يعقد ذلك اللسان ، او كأنها لم تستطع ان تدفع تلك الروعة ، روعة اللقاء .

وارتجفت ركبتا ملك حمير عندما رأى ذلك المظهر الغريب الذي يدل عـــلى الجنون بالعشق ! .. ومد يده المضطربة ليهز يدها . ويلمس ذلك الهوى الجاري مع دمها ولكنها لم تلتفت اليه ، بل سجدت عنـــد قدميه قائـــلة : مرحباً بمليكي الظافر الذي رقصت لظفره قلوب اليمنيين .

فانهضها قائلا : لقد اظفرتنا بلقيس باعداء اليمن ! وجعل يحدق اليها وهـــو يكاد يفترسها بعينيه .. ثم قال :

أكنت تظنين يا بلقيس ان عمراً يعود من مهرة وهو ملك ؟ فاجابته وهي تبتسم : الالهة ارادت ان تنظر الي .. ولكن يكفي انك عدت حيا يا مولاي .

ورفعت نظرها الى حبيبها قائلة له : اذكر ايها الامير انك صاحب همدان وقد زرت هذا القصر من قبل مع ولي العهد !

فقال الملك : اصبت يا بلقيس انه ذو تبع الهمداني وهـــو الذي انقذنا من

الموت ولو لم يفعل لخسرت حمير ملكها .

فقالت : سلمت يد الامير المخلص للملك ، ودخل الهدهاد في تلك اللحظة وفعل كما فعلت اخته ،فأمره الملك بالنهوض ثم جلس وأومأ اليهم فجلسوا وجعل يقول ، وهو لا يعلم ما يقول : يقسم الملك بتربة ذي القرنين ان عينه لم تقع على مثل بلقيس ... وخرج غرامه عندئذ من صدره فلأ وجهه وعينيه ، وجعل لصوته نغمة اشد وقعاً في النفس من صوت المزمار .

فقالت دون ان تتردد : وانا اقسم برأس ابي اني لم ار احداً يشبه مولاي الملك .!

ــ ولكن ... قيل لنا انك تؤثرين عليه فتى آخر لا نعرف من هو ! فنظرت اليه وفي عينيها العتاب واللوم ثم قالت : لا اصدق يا مولاي ان ملك حمير نفسه يقول هذا القول .

ــ ومع ذلك فقد سمعناه ونحن نعيده الان .

ــ لقد كذب قائله .

ــ لو كنت تعرفين قائله كما يعرفه الملك لما خطر لك انه من الكاذبين .

ــ من هو يا مولاي ؟

ــ هو هذا .. وأشار الى ذو تبع !

فأيقنت انه يعبث بها ، ولكنها تظاهرت بالغضب قائلة : ومتى كان امير همدان يعلم الاسرار ويقرأ ما في القلوب يا مولاي بل كيف يجوز له ان يتحدث بأمر بلقيس وهذا الامر لا يعني غير الملك الذي له وحده ان يسأل عن ابنة عمه ...

ــ ولكن نحن الذي سألناه .

ــ اذن يأذن لي الملك ان اقول انه من الوشاة الذين لا يطيقون ان يروا المخلصين حول ملكهم .! فقال له : ماذا تقول يا ذا تبع ؟

ــ مولاي الملك يتولى عني امر الدفاع ، قالها الامير وهو لا يجسر على الابتسام فقالت : بل تدافع انت عن نفسك وتذكر الان ، ذلك الفتى الذي آثرته انا

على مولاي ..! فتحير الامير في امره وجعل ينظر الى الملك والملك لا ينظر الا الى وجه بلقيس الذي يطفح جمالا ، غير ان الاميرة لم تسكت عند ذلك الحد ، بل كانت تقول : اما ان يعرف صاحب همدان بأنه كـــان واشياً او يذكر اسم الرجل .

قال : لا افعل الا اذا امرني مولاي ، فاجابه الملك قائلا : اسكت فقد علم الملك ما أراد ان يعلم .

قالت : ولكني لا ارضى بهذا .

ـ اما الملك فقد رضي بما سمع وانتهى الامر ، فأطرقت ، وخيل الى الملك ان الدموع تتـــلالأ في عينيها الصافيتين ، فقال والفرح يملأ نفسه : اتبكين يا بلقيس ؟

ـ وكيف لاابكي يا مولاي وقد بدأ الوشاة ينفثون سمهم ويختلقون الاكاذيب ليبعدوا عني الرجل الذي احببت .

ـ ان امراء اليمن جميعهم اضعف من ان يغيروا رأي الملك .

ـ ولكنهم يهكرون الجو والملك ساكت عنهم وهذا يكفي .

ـ وماذا تريدين ان نصنع ؟

ـ اسأل مولاي الملك ان ينحي هؤلاء الكذبة .

قال : امير همدان بريء وقد نقل الينا رجل آخر ما خبرناك اياه الان وزاد عليه انك تطمعين بالعرش ، وانك أرسلت اخاك الهدهاد الى مغار ليدعو انصار عرشك الى حرثة ، ومنها الى مأرب ليفصلوا بيننا وبين التاج . فامست تلك الفتاة الفتانة لبؤة جرحت عزتها وانتهكت حرمتها ، وجعلت تنظر اليه بعينين ملتهبتين يلمع فيهما الغضب والكبرياء ، ثم قالت : اي عرش هذا الذي اطمع به ايهـــا الملك ؟؟

فقال هادئاً : عرش حمير !

ـ ولكن عرش حمير لي ... لي انا ... ولا تستطيع فتـــاة من العرب ان تسبقني اليه . ! فكاد الملك يفتح ذراعيه ليضمها الى صدره ، ان ذلك الجواب

كان في نظره ، ابلغ وصف للهوى الذي تتأجج ناره في قلبها العاشق ، ولكنه تجاهل ليسمع من فمها كلمات الحب ، فقال :
اذن فانت تعترفين بما قيل .
ـ نعم اعترف بأني لا اريد ان يكون العرش لسواي ، ولكني لم اطمع به ولم المكر فيه ، بل احببت صاحبه . وطمعت بان اقيم بقصرة ، اسمع صوتـه العذب ، وارى وجهه الوضاح كل يوم ، واكون له جارية صادقة مخلصة لا تبالي في حياتها الا بما يرضيه .، اتريد ان تسمع يا مولاي اعترافـاً آخر؟.. اني طمعت بالعرش ، لا لاتربع فيه ، بل لاصونه من اعدائه الذين يكيـلون له ، واطرد من البلاط اولئك الخونة الذين لا يحبـون الملك الا اذا كانت لهم وراء ذلك الحب اغراض وغايات ، وسكتت قليلا وهي ترسل الزفرات ، ثم قالت :
وكيف تستولي الفتاة مثلي على العرش الحميري اذا طمعت فيه ، أبالجيوش وانا في قصر ابي لا جيوش لي ولا قوة ، ام بالسلاح أضعه بين ايدي الجن فتحطم العروش وتغتصب التيجان ؟ ان الرجال الذين يسمع لهم الملك لا يصلحون لخدمة الملوك بل يجب ان تسفح دماؤهم على مرأى ومسمع من الناس ليهاب اليمنيون ملكهم ويعلموا ان الموت جزاء الذين ينمون ويكذبون .. فتمادى في تجاهله قائلا:
من هم هؤلاء الرجال الذين تذكرين ؟ .
ـ لا اعرف احداً منهم غير صاحب همدان الماثل بين يديك . ! اليس هو الذي قال لك ان لي جيوشاً في مغار ؟
ـ لا ، بل خبرنا اعظم رجل في اليمن بعد الملك هو وتار ذمر سيد الكهان .
ـ بل قل ايها الملك سيد الكذبة .
ـ ولكن الا تذكرين لنا غاية الهدهاد من ذهابه ؟
ـ بلى اذكرها .. انها غاية رجل شريف امره ابوك الملك بان يبـذل كل ماله في سبيل الاخلاص له ، ففعل .
قال : كفى لقد صدقنا الان والويل لكاهن مأرب .
ـ ولكني اريد ان اقص عليك حكاية الهدهاد .

ـ لقد قصها علينا هو نفسه وقصها سواها ، فأخذت تهز رأسها وتقول : هذه اول خطوة يخطوها بعض المقربين الانذال . اني خائفة يا مولاى .

ـ تخافين ماذا ؟

ـ ان يسعى بي وبأبي وتار ذمر مرة اخرى فتضيع حياتي وحياته ، واستغل من غرامي الموت ، كما يموت المجرمون .

ـ انت ؟ . نعم انا ، فالذي قدر ان يصرف عني وجه الملك في المرة الاولى يقدر ان يوغر صدره علي في المرة الثانية .

ـ بـ هو اعجز عن ذلك يا بلقيس . لقد قال لنا كلمة لا يستطيع ان يقول سواها بعد الان وسيعرف الملك كيف يجازي الخونة ويكافيء المخلصين ، ثم هم بان يبوح لها امام القوم بما يجول في صـــدره ... ثم تردد في امره ، ولم يشأ ان يتمادى قبل ان تشرح له هواها ويسمع من فمهـــا نغمات ذلك الهـــوى ، فقال لشرحبيل : يريد الملك ان يحدث بلقيس حديثاً لا يسمعه احد ، فنهض القـــوم فخرجوا وقد خلا الجو للاثنين ، فقال : ايطيب لك الان يا بلقيس ان ننظر في امر الزواج ؟

ـ قالت : لينس الملك اليوم هذا الزواج اذا شاء . . ـ لماذا ؟

ـ لان اباك ذا القرنين اوصى بان تموت عواطف العاشقين في هذا العام . . ورفعت يدها لتمسح دموعها الكاذبة .

فايقن في تلك الساعة ، بانها بكت ، عندما نقلوا اليها خبر الوصية كما قالواله، فأجابها وهو يبتسم : ذو القرنين يوصي ، وعمرو يمحو وصيته .

ـ ولكنك لا تقدر يا مولاي فوصية الملك امر تلفظه الالهة كما تعلم وكل كلمة يقولها عند موته تقدسها العرب .

ـ غير اننا لنغضب الالهة والعرب اذا رضيت بلقيس ولا نبالي .

ـ مولاي ؟.

ـ نعم ان رضى بلقيس قبل رضى الالهة .

ـ وهل تأمر بان يكون الزواج بعد شهر ؟

ـــ بل نأمر بان يكون الليلة ، بل الان ، فقولي كلمتك .

فقالت في نفسها : لقد اتت الساعة التي نستأثر فيها بارادة هذا المغرور وعقله ثم قالت له : أما انا فلا اريد الا ان اصبح زوجة لك .

ـــ ومتى تريدين ذلك ؟

ـــ اريده الساعة ... وصبغ دم الخجل وجنتيها ، ثم اخفت تينك الوجنتين بيديها وجعلت تقول: ويل لي لقد اغضبت آلهتي ونسيت نفسي .. لا يامولاي. الي لا اريد الا ما اراده ابوك .. فلتكن مشيئته وليختنق غرامي في صدري عاماً كاملا ولو كان وراء ذلك القبر .. فحاول ان يجيب ، فاسكتته قائلة :

لا تزد يا مولاي فبلقيس لا تستطيع ان تغضب آلهتها وتجعل ملكها مضغة في افواه العربان .

ـــ ولكن الملك لا يعبأ بهذا كما قلت لك الان ، فلترقد تلك الوصية في حفرة ذي القرنين الى الابد .

ـــ بل تجعل تنفيذها فاتحة ملكك ليقول الناس ان ابن ذي القرنين طعن قلبه بيده ولم يشأ ان يغضب روح ابيه .

قال : ليس لي طاقة على الصبر يا بلقيس . فهزت رأسها قائلة : وماذا تفعل بلقيس اذن ؟ ان هذا الغرام الذي تضطرم ناره في الاحشاء ليس في صدر عاشق شيء منه .. انه غرام قاتل يـــا مولاي تمر الايام والاعوام وهو باق لا تغيره الحادثات ، ومع ذلك فسأصبر .. كما يصبر الظمآن يجف المـــاء من حوله ، وكما يفعل اليائس من حياته ، عندما يجور الزمان .

فخدع الملك . ومن لا تخدعه تلك المظاهر الخلابة ، تعالجها فتاة مثل بلقيس فقال : اتحبيننا يا بلقيس مثل هذا الحب ونحن لا نعلم ؟.

ـــ وهل حسبت يا مولاي ان حبي يشبه حب اولئك الرجال الذين قربتهم اليك قبل ان تتربع في العرش ؟. الا تعلم يا مولاي ان بلقيس اذا احبت ذاب قلبها مع هذا الحب وبذلت نفسها في سبيل الحبيب ؟.

قال : ان قلباً تخفق فيه هذه العاطفة لا يستطيع ان يصبر .

ــ ولكن عظمة الملك ومجده قبل عاطفتي ، ولا تلمع العظمة ، ويتلالأ المجد، الا اذا احترم ملك حمير وصية ابيه .

قال : العام اطول مما تظنين .

قالت : تقدر يا مولاي ان تقضي ايامه باللهو والصيد حتى يذهب ، فتبسم لنا الحياة التي يعبس وجهها اليوم .

ــ وانت ؟

ــ اما انا فقد كنت منذ ايام بين عاملين ،عامل الشرف وعامل الغرام ، وقد انتصر شرفي على غرامي ، الآن .. لقد كدت انسى ، في هذه شرف مولاي ، فأرضى بأن أزف اليه وتداس ارادة ذي القرنين ، ولكني عـــدت الى نفسي ، وخطرت لي تلك الفكرة القاسية ، التي خطرت لي ليلة اغمض الموت عيني ابيك العظيم .؟

قال : ما هي ؟

فقالت وهي تتنهد : هي ان ارحل عن مأرب .

فذعر الملك وقال : لقد سمعنا اليوم من شرحبيل هذه الكلمة .. أترحل بلقيس عن مأرب ويبقى الملك فيها ؟

ــ بل ترحل والملك راض ، وكأن بلقيس لا وجود لها في اليمن !

قال : هذا حديث لا يريد الملك ان يسمعه .

قالت : لقد نذرت للآلهة يا مولاي وانتهـى الامر .

قال : يظهر ان الالهةلا يطيب لها الا ان تتصدى للملك فيغرامه كأنها لا تجد في اليمن احداً سواه .

ــ وما حيلة بلقيس في امر لم يكن لها فيه رأي ؟ لقد اراد ابـــوك ان اشقى عاماً كاملا فليكن ما اراد وليس للملك ان يمنعني من الاستسلام الى امر فيـــه حياتي وهناؤه .

ــ لا يهنأ الملك الا بالقرب من بلقيس .

ــ سينغص هذا القرب عيش الملك ، اني لا اطيق ان ابقى في مأرب وانا لا

استطيع الدخول الى البلاط .
ــ ولكن الملك يجيء كل يوم الى قصر بلقيس .
ــ وهذه هي اللوعة والالم يا مولاي ، اتريد ان اراك ساعة ، في كل يوم ، تحجبك جدر البلاط عن عيني ساعتين ؟ ام تريد ان تقضي ايامك كلها في قصر شرحبيل وانت ملك اليمن الذي لا ترحل الوفود من بابه ولا يستطيع ان يترك قاعة جلوسه الا اذا جن الليل ، اعلم يا مولاي اني سأعيش بالذكرى ، وانا بعيدة عنك ، وسأتعزى بذرف الدموع حتى يمر العام فأعود اليك .

وكانت في تلك الساعة، اعظم عاشقه عرفتها التواريخ .. النار على خديها .. والغرام في عينيها .. وألحان الحب الكثير الفياض تخرج من شفتيها .. فتستهوي العاشق المغرور .. واما عمرو ، فلا يستطيع قلم الوصاف ان يكتب عنــه شيئا ، لقد كانت حاله حال ملك يجود بتاجه ليسمع كلمة ، ويبذل ملكه في سبيل تلك الساحرة التي جعلته اسير الهوى .

وقد احس في ذلك الحين ، انه ملك لا سلطان له ولا قوة ، بل احس انه عبد ذليل خاضع لبلقيس ، حسناء اليمن .

اجل ، ان ذلك الملك الجائر ، الذي تغذي نفسه فكرة الانتقــام ، والذى يلتهب صدره عطشاً الى الدماء ، كان بين يدى بلقيس غلامــاً سهل المراس ، مستسلماً الى عاطفة الحب الذى يخفق عليه قلبه ! ولكنه اراد ، عــلى رغم ذلك الاستسلام ، ان يثبت وجوده بالاصرار على القول انه لا يأذن لها في الرحيل .

غير ان بلقيس لم تعبأ باصراره ، بل كانت تقول : سأذبح في هذا العام مئــة ذبيحة للآلهة ليبقى الملك لي .

قال تستطيعين ان تفعلي ذلك وانت في مأرب .

ــ بل اذبح ذبائحي وانا عند كعبة العرب في مكة !

قال : لا تنسي انك من النساء ، والقوم في الحجاز لا يأذنــون لنسائهم في الدخول الى الكعبة .

ــ لا يجسر القوم على ان يمنعوا النذور .. ومع ذلك فقد سمعت غــير مرة

ان بعض نساء العرب يرافقن ازواجهن الى البيت .

قال : في مأرب هيا كل واصنام !

ــ ولكن لا يطيب لي الا ان اسجد عند قدمي هبل .

ــ واذا منعك الملك من الذهاب ؟

ــ خير له الا يفعل لانه اذا لج في طلبه خسر بلقيس !

قال : اتعاهديننا على الوفاء ثم تنكثين العهد ؟

ــ لا يا مولاي ولكني اقتل نفسي وانا وفية فتخسرني الى الابد .

ــ وما الذي يدفعك الى هذا ؟

ــ يدفعني اليه امران ، اولها اني لا اطيق فراقك لحظة واحدة وانا قريبة منك ، وثانيهما اني نذرت .

قال : لتعلن الآلهة هذه الوصية التي تفصل بين حبيبين .

ــ اما انا فاقول : لتبارك الآلهة هذه الوصية التي تحفظ للملك حمير شرفه وشرف آبائه ، اسمع يا مولاي الا تريد ان تكون بلقيس زوجة الملك ؟

ــ لا نريد غير ذلك .

ــ اذن دعني اذهب الى حيث اشاء ، لتغمرك الآلهة بفيض من النعم ، وتجلس على العرش طاهر العرض عالي الجبين .

قال : نخشى ان تذهبي فيتغير الملك على جميع من حوله من الرجال والغلمان.

ــ لماذا يا مولاي ؟

ــ لانه ظمآن الى الدماء وهذا الوجه الفتان وحده ، يخمد النار التي تحرق حشاءه .. فنظرت اليه ، فاذا عيناه مخضبتان بالدماء .. فدبت قشعريرة الخوف في جسم بلقيس .. ان عاشقها نمر شرس يلبس ، في غرامه ثوب انسان . . . ولكنها ابتسمت قائلة : ومن هم الذين حولك يا مولاي ؟ هم ذو تبع امير همدان النمام الذي اراد ان يحول وجه الملك عن بلقيس .. وامير ظفار الذي كنت اسمع من قبل انه اصدق الامراء في خدمة ولي العهد ، وعتيك بن روضة الذى قضى في بلاطك الاعوام ساكتاً هادئاً لا يقول كلمة .. ووتار ذمر الذي شرفني بتلك

التهمة الغريبة تهدة طمعي بعرش الملك . هؤلاء هم الرجـال الذين هم وزراء الملك واعوانه .. ولكن لا ، فقد بقي معدي كرب وعبد شمس اللذان لم ار لهما وجهاً . اذن فليتغير الملك على جميع من ذكرت فانا لا ابالي ، بل ليقتل منهم من يشاء وليبق من يشاء الا ابي الذى ارجو ان تحفظ حياته ، كي لا تزف بلقيس الى قاتل ابيها فتقول العرب انها الفتاة للتي لا كرامة لها ولا شرف .. نعم يا مولاي لك ان تضع النطع في ساحة مأرب وتطرح بين يدى الجلاد امراء اليمن كلهم واحداً بعد واحد .. بل لك ان تملأ السوق جثثاً ، وتجري الدماء حول قصرك انهاراً ان كل هذا لا يغير بلقيس ولا يبعد هذا القلب عن الملك قيد ذراع ... وجعلت تحدق اليه وتقول : اجل اشرب دماء اليمنيين يا مولاي .. وكن سفاحاً تهاب اليمن ان تنظر الى وجهه ، وانزع اكتاف الابرياء كما فعل سابور الفارسي . بل ابن القصور من جماجم البشر وارفع أبراجها الى السحاب ان كل هذا لايمنع بلقيس ابنة عمك من ان تبقى لك ... فاشرق جبين الملك لهذا الاعتراف البليغ الصريح الذى املاه الغرام ، ثم ارتجفت شفتاه .. ثم نسي نفسه ... فجثا على ركبتيه وجعل يقبل ثوبها كما تقبل الرعية ذيل ردائه .. فتراجعت الى الوراء قائله : مولاي الملك ماذا تفعل .

قال : نجثو عند قدمي الحبيبة الساحرة ملكة حمير ، ونخضع لها كما تخضع لنا اليمن .. فخافت ان يتمادى في وصف غرامه .. فقالت له : انهض يا مولاي فالملك لا يسجد لجاريتـه ولا يخفض رأسه الا لتاجه الذهبي الذي تركـه له التبابعة العظماء .

قال : انك يا بلقيس أعز علينا من التاج ..

ــ انهض يا مولاي فقد يمر بالرواق احد الغلمان ، فيرى سيد اليمن يخاطب عبدته وهو ساجد لها ..

قال : سأدعو صاحب همدان وشرحبيل فأقول لهما : انظر ماذا يفعل الحب بالملوك ...

ــ : ولكن الملوك لا يبوحون بحبهم لجميع الناس بل يعترفون به في ساعات

تشبه هذه الساعة . . وكانت متحـيرة في امر هذا الملك الذي تعقب عاطفة غرامه ، عاطفة انتقامه وتجيء مظاهر انسانيته ، ووراء مظاهر الوحشية التي تتجلى في وجهه وعينيه . ثم قالت : اي رجل من رجالك يستحق الموت ؟ وهي تريد ان تعلم جميع اسراره قبل ان يخرج من القصر .

فنهض عندئذ ، وقد تجهم وجهه ، واختفى غرامه ، واخذ يقول : سلبدأ بوتار ذمر الكاذب الذي استخف بسيده .

ـ أتقتله يا مولاي .

ـ أجل ، وكما نقتل العبد الخائن الذي يزعزع اركان العرش .

قالت : لا تنس ان في البلاط طوائف كثيرة من الكهان ، يتبعها جيش من أبناء اليمن هم انصار له ، فضحك ضحك الساخر الهازىء وأجابها قائلا : ان اليمن كلها ، لاتستطيع ، اذا اجتمعت ، ان تقف في وجه عمرو بن ذي القرنين.

ـ يكفي ان تستبدله بسواه وتبعده عن البلاط .

ـ بل نريد ان نقذف بكل خائن الى هوة الموت لننشر الذعر في الاقاليم ونملأ قلوب الناس خوفاً ورعباً ؟. فتمادت في الدهاء قائلة : الا يهب لي الملك حياة هذا الكاهن ؟

فقطب حاجبيه وقال : نفعل على ان تنسي مكة وتوافقي الملك في قضية الزواج .

ـ لو كان الامر في يدي لما ترددت في الطاعة . . اني لا استطيع ذلك يا مولاي .

ـ والملك لا يستطيع ان يهب لك حياة وتار ذمر .

ـ وماذاتصنع بعد ان ينتهي امره ؟ فقال بهدوء : نعمد الى عتيك بن روضة فنضرب عنقه . . فأجابته بمثل هدوئه دون ان يطرف لها جفن : وهل خان عتيك الملك ؟

ـ قالوا انه خائن وهذا يكفي .

ـ كذلك قيل لك يا مولاي ان بلقيس وأباها يخونان .

قال : ليس لعتيك جمال مثل جمال بلقيس ، وثغر مثل ثغرها ... فعرفت ان غرام ذلك العاشق غريب في نوعه ، فقالت : اذن قضي عليه يا مولاي .

ـ نعم وليس هنالك من يمنع سيف الملك من السقوط على رأسه ، ثم قال: وفي البلاط رجل آخر يستحق الموت .. ولكن الملك يذكر ان هذا الرجل كان خادماً له .

ـ من هو يا مولاي ؟

ـ امير ظفار .

فرددت : امير ظفار ؟ انه من اقرب الناس الى صاحب التاج .

ـ لقد كان كذلك قبل ان يصبح عمرو ملكاً .

ـ قلت لك يا مولاي ان جميع الناس يقولون عنه انه اشد اخلاصاً للعرش من جميع الامراء المقيمين بالبلاط .

ـ لو كان صادقاً لما تآمر مع ذي القرنين ووتار ذمر على شرحبيل الذي هو والد بلقيس ،ولما سلح بالاشتراك مع عتيك ، يد الغلام عباد ، ليقتل بلقيس نفسها في ظلام الليل

ـ اما انا فقد عفوت .

ـ واما الملك فقد عفا عن حياته ، ولكنه لم ينس ذنبه ، فخير له ان نسلبه امارة ظفار ، ونطرده من اليمن ، من ان يموت .

قالت : بل الموت خير من هذا .

ـ وكيف يهاب القوم ملكهم ويخشون غضبه ؟ ان السيف وحده جزاء الخونة فليشكر امير ظفار ملكه على هذه النعمه .

قالت : والاخرون يا مولاي ، وخفق فؤادها خوفاً على ذي تبع .

فقال : ليس بين الآخرين من يخون الملك ... ان معدي كرب وعبد شمس كانا في طليعة الجيوش التي هزمت الحبشة ، وصاحب همدان كان رفيقاً للملك في ساحة القتال وهو الذي انقذه من السيف .

ـ ولكنه نمام وانا اخافه على غرامي .

ـــ قلنا لك بريء وقد اردنا بما ذكرناه عنه ، ان نعبث به ‥ آه يا بلقيس ان امرأ هائلا يشغل بال الملك ولكنه لا يجسر على المضي فيه ٠

قالت : ابن ذي القرنين لا يخاف شيئاً ٠

ـــ بلى ، فهو امر يقشعر له جسم بلقيس ويضطرب له القلب ! فبذلت جهدها كله لتخفي مظاهر الرعب والبغض وقالت له :

لقد عرفته يا مولاي . ان الملك كان يفكر في قتلي قبل ان يجيء الى هـذا القصر . ولكن يجب ان تعلم يا مولاي اني استلذ الموت اذا كنت راضـيا . ولا خير في الحياة اذا غضب علي الرجل الذي اعيش لاجله .

قال : اتظنين ايتها الحبيبة ان الملك يطعن قلبه بيده ؟ اننا لم نفكر قط فـيما تقولين ولم يخطر لنا الا ان نعد لك تاج الملك .

ـــ اذن ماذا ؟

ـــ خطر لنا ان نرسل عمنا شرحبيل الى الهوة التي يسبقـه اليها وتار ذمر ، فخيل الى بلقيس ان ارض القاعة تنحدر الى الاعماق ، اجـل ، ان تلك الفكرة الهائلة التي خطرت للملك الظالم خطرت لها من قبل ، وكانت تخاف ان يلجأ عمرو الى السيف قبل ان تراه ، فتخسر اباها . وتضيع الامل الذي عللت نفسها به :

ثم اصفر وجهها وتمتمت تقول : أقتل ابي يا مولاي ان شئت فاجسام اهل اليمن وارواحهم للملك ولكن ضع جثة بلقيس عند جثته فهي تؤثر الموت بعده على البقاء ساعة واحدة . آه يا مولاي ، ان في قتل شرحبيل سهمين يخترقـان قلب الفتاة التي تخاطبك الان . سهم الردى الذي يصرعه ، وسهم الهوى الذي يخنق غرامي ويبعدني عنك . نعم يا مولاي ، يموت شرحبيل بن عمرو كما يموت سواه ، ولكن .. لا ذنب له ، ولا ذنب لهذا الحب الذي لم يبزغ فجـره حتى خنقه الملك الحبيب بيديه ، ثم داسه بنعليه !

وكانت تحاول في تلك اللحظة ، ان تجعله مرة اخرى ، انساناً . . له شعوره وعاطفته . وساعدها الحظ في ذلك فقد سمعته يقول :

نقسم بتاج حمير ان شرحبيل سيبقى ولكن دون ان يكون له مقعد في البلاط

ودون ان يكون له رأي في شؤون الملك .

قال هذا وهو واثق بانه ارضى غرامه .

فاكتفت بلقيس بما سمعت ورفعت يديها الى السماء تسأل الآلهة ان تصون عرش الملك وتحفظ حياته . ! ثم خطر للملك ان يعود من جديد الى ذكر مكة وكان يفكر في ان يمنعها من الرحيل ، ثم يخاف ، اذا فعل ، ان تقتل نفسها كما قالت ، فتحرمه الاقدار اجمل فتاة عرفتها العرب ، في ذلك الجيل ،

فقال : والآن قد عولت على الرحيل أليس كذلك ؟

ــ نعم يا مولاي ارحل مكرهة كأني ذاهبة الى الموت .

ــ وكأن في هذا الرحيل موت الملك . ومتى تذهبين ؟

ــ بعد شهر يا مولاي ، اي بعد ان يطمئن الملك ويرى حول عرشه الرجال الامناء الذين لا ينمون ولا يكذبون !

قال : نهب لك من الان غلامين من غلمان البلاط يذهبان معك الى مكة ويكونان عوناً لك على قضاء الحاجات ، فخافت ان ترفض هذه الهبة فيسوء ظنه فاجابته قائلة : سأذكر مولاي كلما نظرت الى غلاميه .

ــ ونعطيك الاموال لتبذليها لخدام الكعبة وتذبحي الذبائح الكثيرة كما تفعل الملكات . فكرهت ان تأخذ ماله ثم تخونه . فقالت : لا احتاج الى شيء من هذا يا مولاي .

ــ وهل كان ذو القرنين محتاجا الى مال شرحبيل عندما امره بان يحسن الى جابر بن مفروق ؟

ــ كان يمتحن في ذلك اخلاص ابي يا مولاي ، اما انت فقد امسيت واثقا باخلاص بلقيس وحبها اللذين ليس لهما حد .

ــ ومع ذلك فنحن نريد ان تخلبي الباب القوم بما تبذلين ليعرف اهل الحجاز ان الفتاة التي تعطي بدون حساب ستصبح ملكة الحميريين .

ــ التمس من مولاي ان يبقي ماله لابناء قومه . ان البذل يطيب لي ولك عندما أزف اليك .

ـ عندنا مال نبذل منه كل يوم دون ان ينقص ، وماذا تقولين يا بلقيس اذا خطر للملك ان يزور البيت في هذا العام ؟ فذعرت قائلة : اتريد ان تفضحني بين العرب يا مولاي ، وهل يخرج الملك العربي الاكبر الى الحج مع فتاة ليست زوجة له ؟ انك لا ترضى بهذا وليس من الرأي ان تزور الكعبة قبل ان يمر العام الاول على جلوسك في العرش .

قال : تسبقينا الى مكة ثم نتبعك اليها والناس لا يعلمون شيئاً .

قالت : لقد عمدت الى السفر كي لا اراك وانت تحاول ان تلحق بي الى حيث اذهب ... كأنك تريد قتل الفتاة التي اذابها هواك .. لا يا مولاي ، اني سأبتعد عنك عاماً كاملا لا ترى في خلاله وجه بلقيس ولا تقع عين بلقيس على الملك .

فقال في نفسه والفرح يملأ قلبه : فقد اذابها الغرام كما تقول وهي تطمع بان تبرد الغليل بالبعد والاسفار .

ثم قال لها : ليكن ما تريدين ولكن الملك لا يعلم كيف يستطيع العيش وانت بعيدة عنه .

قالت : ليتعلم من هذه العاشقة كيف يجب ان يصبر . وكانت بدورها تقول في نفسها : هنيئاً لمن هو بعيد عنك ايها الظـالم السفاح ، وسكتا قليـلا وهما يتبادلان النظرات ، وقد قال في ذهنه . ان بلقيس « اذابها الغرام » لا تلبث حتى تعدل عن الرحيل وتـتسلم اليه .

ثم قال : ليرجع القوم الان فسنحدث عمنا بما جرى .

ـ اتقول له يا مولاي انك تريد ان تقتل من حولك ؟

ـ لا ، بل نقول له ان وصيـة الملك ستنفذ كما هي وكما ارادت بلقيس ، واصدر أمره برجوع شرحبيل والاميرين ، فأقبلوا ، وصاحب همـدان يبتسم ابتسامة اليائس الذي منعته الاقدار من ان ينظر الى حبيبته ويسمع نغمات الحب وقلب بلقيس يكاد ينقطع لوعة وغراماً .

* * *

٦٨

لقد ارادت بلقيس يا عم ان يكون الزواج في العام المقبل كما أراد ذوالقرنين قبل موته .

فقال شرحبيل : ومولاي الملك ؟.

ــ وأراد الملك ان يتم القول الذي تقوله ملكة حمير ... ولكنها قصت علينا حكاية ذلك النذر الذي ذكرته لنا ونحن في البلاط وسترحل الى مكة بعد شهر وهذا ما لا نحب ، فجعل صاحب همدان يصغي الى حديث الملك وقلبه يرتجف في داخله .. ان ذلك الفراق الفجائي معناه القضاء على امله اذ لا يستطيع ان يكون بعد الان من الصابرين .

اما شرحبيل فكان يقول : مُر بلقيس بان تبقى يا مولاي وتفي بنذرها في عام آخر لانه لا يطيب لي ان احج في هذا العام .

قال : لقد انتهى هذا الامر فلننظر في أمر آخر ... ماذا تعلم عن صاحب مغار يا عم وما هو رأيك في صاحبي براقش بينون ؟.

فأدرك الاميران الشك يدب في صدر الملك ، فقال : أي امر يريد مولاي ان اصفه له ؟

ــ يريد ان تصف له اخلاص هؤلاء للعرش !

قال : اصف لك الماضي يا مولاي فقد كان ذو مغار بعيداً عن ابيك ذي القرنين ولكنه لم يضمر له قط ما يضمره الامير الخارج عن الطاعة .

ــ وما هي اسباب هذا البعد ؟

ــ لا اعلم يا مولاي فقد بقيت هذه الاسباب سراً بين الاثنين .

ــ ولكن ذا مغار لم يكن يزور البلاط ولم نره قط في مجلس الملك مع امراء المخاليف الذين كانوا يجيئون من جميع الاقطار .

ــ اصبت يا مولاي وهذا هو البعد الذي ذكرت .

ـ وكيف كان ذو القرنين ساكتاً عنه ؟

ـ أيسألني ابن ذي القرنين نفسه عن هذا وهو اعلم مني ، باغراض ابيه الملك واسرار ملكه ؟

ـ نعم نسألك عن هذا لاننا نعلم ان ذا مغار احب الناس اليك .

قال : اعترف يا مولاي اني احب ذا مغار ولكن هذا الحب لم يكن مهنياً على غاية لاحدنا بل يرجع عهده الى زمان الشهاب الذي قضيناه في مأرب ، وفي جبال اليمن ، نصيد الحيوان والطير .

ـ وماذا تقول عن حاضره ؟

ـ لا اقول غير كلمة واحدة هي انه سيكون اقرب الناس الى مولاي الملك واصدق الاشراف في الخضوع له .

ـ وكيف يقولون انه سيحمل لواء العصيان ؟

قال : اضرب يا مولاي عنق شرحبيل عندما يحمل ذو مغار هذا اللواء .

ـ اذن تضمنه يا عم وانت غير خائف ؟

ـ اجل يا مولاي ، واضمن قومه ، وكل من ينتمي اليه .

قال : اتسمعين يا بلقيس ؟

ـ نعم يا مولاي ولم يبق الان الا ان يثق الملك بما سمع .

ـ ولكن نخشى ان يضيع رأس شرحبيل بعد حين .

قالت : لو لم يكن ابي واثقاً باخلاص ذي مغار لما اقدم على هذا . ان بلقيس نفسها تضمن جميع الرجال الذين يضمنهم ابوها وتضع عنقها تحت سيف الجلاد اذا خان احدهم الملك .

قال : وماضي الغوث وجبار .

فقال شرحبيل : اما الغوث فلا اعرفه كما اعرف ذا مغار ولكني اعلم ان أباك قتل اثنين من سعد براقش دون ان يسأله فعد عمل الملك استخفافاً به وبقومه .

قال : ايريد ابن راهط ان يشاوره الملك كلما حكم على مجـــرم بالموت ؟ انه اذن شريكاً له في تاجه وليس له الا ان يجلس معه على سرير الملك .

ـــ لقد كانت هذه عادة ابيك يا مولاي .

ـــ ولكنها عادة لا نرضاها ولا نريد ان يرفع احدهم رأسه الا اذا اذن له الملك في رفعه .

فدت بلقيس اصبعها قائلة : لا اظن ان بين ملوك العرب واحداً يرضى بمثل ما كان يفعل ذو القرنين أيكون الملك في بلاطه مقيداً بارادة امــراء العشائر المنتشرين في الاقاليم ؟ لا يا مولاي انك اذا فعلت ذلك طمعت بك العــرب وقال الناس عنك ان الملك الذي يخاف قومه ولا يجسر على المضي في امر له الا اذا وافقوه فيه . وكانت غايتها ان توغر صدره ، فيثور ، وتتناقل الافــواه اخبار ثورته فيكثر خصومه .

فارتسم الغضب على جبينه وقال : نقسم بتاج حمير انه اذا خطر لاحد الامراء ان ينقل من بلده الى بلد آخر بدون اذن الملك كان الموت جزاء له .

فنظرت بلقيس الى حبيبها وابتسمت له ابتسامة خفية كأنهـــا تقول له : ان ملكاً يقول هذا القول لا يثبت التاج على رأسه .

ولكن ذا تبع ، كان في تلك الساعة ، ذاهلا عن كل ما يجري حوله ، وقـــد انتقل بقلبه وروحه الى مكة التي سترحل اليها بلقيس ، وهو يعد شهور العام التي ستمر دون ان يرى فاتنة لبه .

ثم تمادى الملك في غروره فقال : سنصبر الان على جفاء هــؤلاء الامراء ثم ننظر في امرهم بعد ذلك ، فضمن شرحبيل الغوث وجباراً كما ضمن ذا مغـــار وهو يقول : سيرى مولاي الملك ان هذا الجفاء لا وجود له .

قال : لا يزول جفاؤهم حتى يطرحوا سيوفهم على قدمي ملكهم الجديـــد ويعاهدونه على الخضوع والطاعة .

ـــ وهكذا سيفعلون يا مولاي .

قال : احذر يا عم فالملك لا يعفو اذا خدعته !

ـــ لقد جعلت رأسي رهنا وانا غير مكره .

ـــ اذن لا بد من الصـــبر شهرين اثنين حتى يقدم اصحابك ويقسموا يمين

الاخلاص .

ــ بل يقدمون بعد شهر ، اي قبل ان نرحل الى الحجاز واني موجه اليهم رسولا عندما يطلع الصباح .

ــ افعل والويل لهم اذا عمدوا الى العصيان ، وكان الليل قد ذهب نصفه ، فقال لبلقيس : لقد رأينا الان ان تفي بالنذر ثم تعودين الى قضاء العام في مأرب حتى تتم وصية الملك .

ــ سأفعل ذلك اذا لم يستطع هذا القلب ان يصبر على الفراق .

فقال : قلب العاشق لا يعرف الصبر ... ونهض وهويكاد يفترسها بعينيه .

اما هي فقد عجبت لذلك الهدوء الذي أبداه في حديثه معها وعهدها انــه الفتى الطائش الذي يستحل كل شيء ، واستطاعت ان تهامس امير همدان وهو يتبع الملك قائلة له : لن اذهب الى الحجاز ، وستنقل اليك غداً جميع الاسرار .

وخرج الملك من القصر ، وهو يفكر في تلك الحسناء الساحرة التي جعلتــه أسير الهوى ، ويلعن في سره ، وصية ذي القرنين .

* * *

٦٩

انه ملك مجنون يامولاي ...ولولا هذا الغرام الذي تختلج عاطفته في صدره ، لكان جنونه احدى عجائب الزمان .

فأجابها ابوها قائلا : وماذا نصنع الآن ؟

ــ خير لنا ان ننصح لعتيك وناشر بالفرار من بلاطــه ، ونرحل نحن عن مأرب لنتهيأ للحرب من جديد !.

ــ ولكن الى أين ترحلين يا بلقيس ؟ لقد قلت للملك وانا في قاعة عرشه ، كما قلت له الان ، انك ستحجين مكــة وانا لا اصدق انــك تفكرين في هذا

الحج ؟...

ــ سنذهب الى مغار يا مولاي ونقيم بها حتى تأتي ساعة الملك !

ــ ولماذا لا نبقى في مأرب الى ان تأتي هذه الساعة ؟

ــ لاننا لا نستطيع ان ندعو اليها رؤساء العشائر والملك يسمع ويرى ... ولان هنالك أمراً آخر اشد خطراً مما ذكرت .

ــ وما هو هذا الامر ؟

ــ هو ان هـــذا المجنون سيعمد الى سيفـــه بعد قليل فيضرب رقاب بعض الرجال الذين حوله ، ويبعد البعض الاخر ، ، سيتغير على جميع الناس وقد يتغير على بلقيس !

ــ ومن اين لك ان تعلمي ما يجول في صدره ؟

ــ لقد باح لي بما في نفسه ، وسيكون وتار ذمر اول رجل تزهق روحـــه ، تحت سيف الجلاد !

ــ اذن فالملك يساعد بلقيس في امرها وهو لا يعلم .

ــ بل يرضي قسوته ويبرد غليله بالدماء .

ــ وبعد وتار ذمر ؟

ــ يجيء دور عتيك بن روضة فيضعه في حفرة تجاور حفرة الكاهن الاعظم ، ثم يسلب ناشر امـــارة ظفار ويقذف به الى قطر غير القطر اليمني ، فاستولت الدهشة على شرحبيل وجعل يقول : لم تر العرب قط مثل هذا الجنون .

ــ ولكن الامر لم ينته عند هذا الحد ، فقد كان يفكر في قتل شرحبيل نفسه وجعل بلقيس بعد ذلك القتل زوجة له !

ــ ثم عدل عن رأيه ارضاء لزوجته ؟

ــ نعم ، على ان يلزم شرحبيل قصره بعد زواج ابنته دون ان يكون لـــه الحق بدخول البلاط .

قال : انها نعمة لا اغمطها ولن انسى فضل مولاي الملك . وماذا يحدث الان لذلك المسكين صاحب همدان ؟

ـ لقد انقلبت الاية يا مولاي فاصبح ذو تبع اميناً لسره وموضع ثقته ، بعد ذلك الاخلاص الذي اظهره له في حرب الحبشة فانا لا اخاف الملك عليه ، ولا اظن ان يمد يده بسوء اليه .

ـ وهل يرضى هذا الامير العاشق ان تبتعدي عن مأرب ؟

ـ لقد رضي الملك بذلك ، وهو صاحب العاطفة الوثابة ، والشعور الوحشي والغرور الذي ليس له حد ، وحسبي هذا .

قال : اخشى ان يعمد الى ما لا تريدين .

ـ ماذا ؟ أيقتل نفسه ام يفر من البلاط ؟ انك ستقول له كل شيء وانـا واثقة بانه سيستسلم الى مشيئة الاقدار . ثم قالت : ولكن يجب ان يحـذر الملك ويحاربه في هواه .

ولم تشأ ان تصف لابيها ، تلك اللوعة التي تسود فؤادها المضطرب ، وذلك الالم الغريب الذي يتمزق له الصدر .

فقال شرحبيل : وفي اي يوم يفر عتيك وناشر ؟ ففكرت قليلا ثم قالت : يبقى عتيك حتى يدحرج رأس وتار ذمر ، ثم يعمد الى الفرار في ظـلام الليل لاجئاً الى مغار لانه صاحب رأي ويجب ان نستشيره في كل امر . . . اما ناشر فليبق فلا خوف عليه ، وليخرج من البلاط بعد ذلك طريداً مغضوباً عليـه ، وليقم باي بلد شاء .

ـ واهل ظفار ؟

ـ يأمرهم سيدهم منذ اليوم ، بان يتحفزوا للوثوب ، ويتهيأوا لحمل السيف عندما يرد عليهم امر شرحبيل بن عمرو .

قال : بقي امر آخر لم اسألك عنه .

ـ هات يا مولاي ؟

ـ كيف نستطيع الوصول الى مغار دون ان يعلم الملك ؟

فضحكت قائلة : تلبس بلقيس ثوب رجل ويلبس ابوها واخوها ثياب اهل تهامة ، ثم يسيرون في طريق الحجاز مع عبيدهم وغلامي الملك يوماً كاملا تضيع

بهذه الاثار ...

ــ واي شأن لغلامي الملك ؟

ــ لقد وهب لي اثنين من غلمانه يرافقاني الى مكة .

فاستغرب شرحبيل امر تلك الهبة ، اما هي فاستطردت قائلة : ولكن هذين الغلامين لا يصلان الى مغار بل يموتان في واد مظلم لا تبصر ارضه نور الشمس !

قال : لنفرض ان واشيا من اهل مغار انفسهم خبر الملك اننا مقيمون بين قومه في ذلك الخلاف فماذا يصنع ؟

ــ يرسل من يدعونا اليه فنقول : لا نرجع حتى ينقضي العام .

ــ واذا ارسل جنوده ؟

ــ نقتل اولئك الجنود وندعو الملك الى البراز في مغار .

ولكن نسيت يا مولاي ان ذا تبع باق في البلاط وانه سيبعث الينا كل شهر باخبار مليكه ، مع غلماننا الذين نتركهم في مأرب ، لهذه الغاية ، فاشرق جبينه وقال : لقد وثقت الان بالنصر فسنكون في مغار احراراً نروح ونجيء ونجمع الاتباع والانصار ، ثم ذكر حديثه مع الملك ، فقال :

لقد نسيت اني وعدت الملك باستقدام ذي مغار والاميرين الاخرين .

اما انا فلم انس ، ان ذا مغار سيصل مع نائل بعد ايام وسنرسل غداً غلاما آخر يدعو ابن راهط وابن دوير .

ولكني اخشى ان يقتل الملك الامراء الثلاثة .

قالت : لقد امسيت كثير الظنون ، وكثير الخوف يا مولاي !

قال : اخاف ثورة المجانين يا بلقيس . فلمعت عيناها وهي تقول : سترى اليمن ان ملكها المجنون في يد بلقيس تعبث به كيفما تشاء ، عندما تشاء ...

وخرجت من القاعة وهي تخاطب نفسها قائلة : صبراً ايها الحبيب ولو جار القضاء وطال الزمان .

* * *

٧٠

خرج رسول شرحبيل عند الصباح حاملا امره الى الغوث وجبار ، وخرج شرحبيل نفسه من قصره ذاهباً الى البلاط ، ليقص على انصاره ، تلك الحكاية الغريبة التي قصها الملك على حبيبته ، وكان وتار ذمر قد سبقه اليه ،فهش له الملك وأجلسه عن يمينه ، وهو يمازحه ويسمعه كلمات التكريم والاحترام .

وكانت الوفود تتبع الوفود ، الى ذلك القصر العظيم الذي هزأت آثاره الباقية الى اليوم ، بالاعوام ، والاجيال ، ووتار ذمر لا يعلم شيئاً ، ولكن نفسه كانت تشعر من حين الى حين ، باضطراب لا يعرف اسبابه ، ولو استطاع ان يقرأ سطور الحكم عليه ، تلك السطور الحمراء المكتوبة في صدر الملك لفاضت نفسه وهو عند العرش .

اجل ، كان يحس ان الملك لم يطمئن الى الحديث الذي حدثه به وهو في مهرة وقد حاول غير مرة ، ان يثبت له صدقه فيما رواه ، فلم يأذن له ، غير ان القلق الذي يستولي عليه من اجل ذلك ؛ كان يضمحل عندما يبتسم له مولاه تلك الابتسامات الكاذبة التي تخدع الناظرين ، وكان يقوم في ذهنه ، ان عمراً لا يعرف الدهاء ، وان مظهر وجهه ، صورة لما في قلبه ، وهذا ما يحمله على الرجاء فلما وصل شرحبيل ، مد الملك يده اليه وهو يقول :

اجلس وحدث الوفود بما يطيب لك لان الملك يريد ان يخاطب الكاهن الاعظم بأمر لا يعني سواه .

فقبل الامير تلك اليد المقدسة الممدودة اليه وجعل يستقبل الناس ويحدثهم باسم الملك والملك لا ينظر الا الى كاهنه، وكان عتيك بين القوم ، وقد ايقن بان الحديث الذي يدور بين الاثنين ، حديث قتل جديد ، وجرائم ودماء .

ثم لم يلبث حتى رآهما ينظران اليه نظرات الغضب والاستهزاء .

فخفق قلبه ، وأخذ يقول في نفسه : يظهر ان ساعة عتيك بن روضة قد

دلت الان .

ثم ذكر قول امير همدان : ان الملك لا يريد قتله ، فهدأ قلبه الخافق ، وارخى نظره الى الارض يصغي الى اقوال الرجلين .

ولكنه لم يستطع ان يسمع كلمة لانهما كانا يتهامسان .

غير ان شرحبيل سمع الملك يلفظ اسم عتيك، ورآه يبتسم لذلك الاسم ابتسامة غريبة معناها القضاء على صاحبه ، فلم يبال بما رأى وسمع ، بل كان يبتسم بدوره لوفود الناس ، وبينها وفد ظفار ، ويسأل رؤساءها عن حاجات قومهم وامير همدان يكتب هذه الحاجات .

وكأن الملك غير موجود ... الناس يدخلون ويخرجون وهو لا يخاطب أحداً ولا يلتفت الى احـــد ، حتى غضب القوم لكرامتهم الجريحـــة واستغربوا هذا الاستخفاف .

وقـــد ظهر ذلك الغضب على وجوه اهل ظفار ، وهمّ اشرافه ان يذكروا ذلك لاميرهم ناشر الجالس بين الامراء فأومأ اليهم ينهاهم عن الكلام ، واستطاع ان يهامس احدهم قائلا :

سأراكم بعد ساعة خارج البلاط .

وظل القوم يروحون ويجيئون كما رأيت، حتى وقف الحجاب بالباب يقولون: لقد انصرفت الوفود ولم يبق في الرواق أحد يريد الدخول .

فنهض الملك عندئذ قائلا : امكثوا هنا فقد يجيء وفد آخر . وتقدم وتار ذمر الى قاعة الشراب ، ثم لحق بهما عبد شمس .

فقال عتيك وهو يخفض صوته : الملك وكاهنه يحفران القبور للابرياء .

فاجابه شرحبيل قائلا : بل يحفرانها للمتآمرين على الملك واولهم انت !

فقال ذو تبع : لقد وعدني الملك بانه سيعفو عن عتيك ولو لمس ذنبه بيديه، اما وتار ذمر فسيموت .

ـــ ثم يموت عتيك وراءه .

ـــ ولكنه كان صريحاً في وعده وعفوه .

فجعل شرحبيل يقول : لقد قال لك انه سيعفو ، ثم قال لبلقيس في الليـل الماضي انه سيقتل . فلا نستطيع الا ان نصدق قولـه لبلقيس لانه قول ملك عاشق لا يكتم حبيبته الاسرار .

واعاد عليهم حديث الملك كما روته له ابنته ، ثم نصح لعتيك بان يهرب بعد قتل وتار ذمر ، ولناشر بان يبقى خوفاً من ان يسيء الملك ظنه ببلقيس فتسوء العاقبة .

فاسود وجه عتيك في بادىء الامر واطرق يفكر في امره ، ثم انطلق لسانه فقال لهم وعيناه تلمعان : كذب الملك فابن روضة لا يقتل كما يظن ثم قهقـه ضاحكاً كأن ذلك الملك يدعوه الى شرب الخمر .

اما ناشر فلم يعبأ بما يضمره له مولاه بل كان يقول : يطردني ابن ذي القرنين من هذا الباب فارجع الى اليمن من الباب الاخر وشهر في وجهه السيف .

واما ذو تبع فكانت نفسه حزينة حتى الموت ، لانه سيبقى في بلاط الملك وحده ، ولو بقيت بلقيس في مأرب لهان الامر .

وكان شرحبيل يحادثه بلسان بلقيس ويبعث الى قلبه الامل والرجاء .

* * *

٧١

مرت ايام ، كان الملك فيها يشرب الخمر مع امراء قصره كل مساء ، وكان ناشر يسقيه ، فقد تغير على حاشد ، بعد ان اصبح ملكاً ، ليس لذنب جناه ، بل لانه لم يكن يثبت على امر ، حتى امسى حاشد في القصر رجلا لا شأن له .

ألم يكن عمرو ، وهو ولي عهد ، يعد عبد شمس ومعدي كرب جاسوسين لابيه قبل موته ، ثم وثق بهما بعد موته وجعلهما اقرب الناس اليه .

لقد عرف رجال البلاط ملكهم وخبروه ، فهم لا يستغربون مظهراً مـن

مظاهره الكثيرة ، ولا يبالون بما يرون .

فبينا هو يشرب ، استأذن الحجاب لمعدي كرب الذي رجع من مغار ، في ذلك المساء .

فقال لهم والكأس في يده : ادخلوه فنحن ننتظر وصوله ، فدخل الرجل وسجد له فقال : اذكر كل ما رأيت الان دون ان تخفي شيئاً . ماذا رأيت في مغار ؟

وكان شرحبيل في القاعة ، فقال معدي كرب : رأيت اهل مغار يحرثون ارضهم وليس في ذلك الخلاف رجل واحد يحمل سلاحاً ، كما قيل لك !

فشرب كأسه قائلا : واين اولئك الجنود الذين سيزحفون الى خرثة ومنها الى مأرب ليخلعوا الملك عن العرش ؟!

فأجابه شرحبيل قائلا : لقد ابتلعتهم الارض يا مولاي .

قال : بل ارتفعوا الى الغمام ... اين وتار ذمر اللعين بل اين كاهن ظفار مرح أبين ؟.. ان الملك يريد ان يرى الاثنين في هذا الليل ، وكان ناشر قد أوصى اهل ظفار بما يجب ان يفعلوه بعد ان يطرده الملك ، ودعاهم الى الهدوء، فقال : لم يصل سرح أبين الى مأرب يا مولاي ، فخرج من صدره صوت يشبه زئير الاسد وسمعه القوم يقول :

ولكنه سيصل غداً او بعد غد .

ثم وقفت الفاظ اخرى ، همّ بان يقذف بها .. عند شفتيه ... فملأ ناشر قدحه وناوله اياه ، فجرع ما فيه قائلا : وهل خطر لك يا معدي كرب ان ترى ذا مغار ؟.

ــ اجل يا مولاي ولكني لم اره بلّ رأيت ولده غالباً .

ــ وبأي امر حدثته ؟ . سألته عن ابيه فقال : انه في ارض له وسيذهب بعد رجوعه منها الى مأرب ، ليظهر خضوعه لملك حمير !

ــ أغالب قال ذلك ؟

ــ نعم وقد اردت ان اخدعه بقولي له : لقد ابصرت جيشاً خارجاً من مغار

وذاهباً الى حرثة فهزأ بي قائلا : انه اذن جيش من الجن يظهر الك ويستخفي عن عيون الناس .

ـ وكان ياسر موجوداً ؟

ـ قيل له اني في قصر اخيه ، فأقبل يرحب بي ، ويسألني ان امكث بمغار ريثما يعود اخوه .

ـ وتلك المخاليف التي مررت بها ؟

ـ مثل مغار لا سلاح فيها ولا جيش ؟

فقال : لقد اكتفينا بما سمعنا فاجلس واسقه يا ناشر فقد طابت الخمر ... وأما انتم فاشربوا جميعكم اذا اردتم ان تشاركوا الملك في افراحه ! ونظر الى ذي تبع فقال له :

قم ايها الهمداني واذهب الى قصر عمنا شرحبيل وقل لبلقيس ان معدي كرب قد عاد وان وتار ذمر أكذب الناس . فنهض الفتى وهو يشكر الخمر التي اسكرت مليكه واملت عليه ان يعهد اليه في قضاء ذلك الامر .

وخرج وهو لا يدري في اي مكان يضع قدمه .. حتى دخل القصر ووقعت العين على العين ..

وأي قلم يصف الان لقاء الحبيبين .

لقد كانت ساعة قصيرة ، شكا فيها الحبيب غرامه ، الى تلك الحبيبة القاسية التي حجب طمعها وطموحها ذلك الهوى المبرح ، عن عيني امير همدان .

وكادت بلقيس تضع بين الشكوى والنجوى ، ثم عادت الى نفسها وقصت عليه كل شيء ، ثم سألته أن ينصرف قبل ان يظن الملك الظنون ، فخرج ، وهو يظن انه يبكي ، ولكن الدموع لم تظهر في عينيه .

وكان الملك قد ارتوى من الخمر ، فلم يسأله عما فعل ، بل نهض متثاقلا ومشى يريد حجرته وتفرق القوم ، ولم يجسر شرحبيل على ان يحدث انصاره ، خوفاً من معدي كرب وعبد شمش اللذين هما على غير دعوته .

* * *

٧٢

كان القضاء الغادر ، الساخر بجميع الناس ، يدفع الملك من الوراء ، بيديه الاثنتين ، ليدحرجه عن العرش .

ان صفات الملك الحميري ، لم تكن صفات ملك يحبه شعبه ، ويفديه بالروح ، عندما يجور الزمان

اجل ، كانت الايام تمر ، وهو يزداد عطشاً الى الدماء وميلا الى القسوة ، والظلم والجفاء ، كانوا يقولون له : هذا رجل سرق بغل جاره ، وهذا آخر لطم جندياً من جنود الملك على خده . فيعمد الى السيف دون ان يسأل الرجلين عن الذنب ، او يبحث عن الامر ، قائلا لجلاده : اقتل الاثنين لنرى الدم جاريا على ارض هذا الرواق .

واذا نطح ثور احدهم رجلا ، او عجز يمني عن دفع بعض ما عليه لبيت المال ، فصاحب الثور وهذا العاجز يستحقان القتل ، لا يشفع لهما احد بالنجاة ! حتى انتشر الذعر في كل بلد ، واضطربت الافكار الحرة ، وثارت النفوس الابية ، ولكن ... وراء الجدران .

وبلقيس ! اما بلقيس فكانت توغر صدره على رعيته ، وتنفخ فيه ، بقوة الدهاء وقوة الغرام ، روح التشفي والانتقام ، وهو الملك الصعب الشديد المراس ، مع كل الناس ، والرجل الضعيف العاجز مع ابنة عمه الفاتنة المحاسن ، الخلابة الجمال .

ولم يبق لامير من امراء البلاط نفوذ سلطان ، بل لم يبق لاحدهم ظل ، مع ظله ، ووجود مع وجوده ، كأن اليمن كلها ملك له ، الاجسام والارواح والمال ، بين يديه الحديديتين .

وذلك كله باغراء بلقيس التي كانت تقول له كلما اجتمعا : اريد ان تكون

ايها الحبيب ، إله اليمن الاكبر ، لا تسقط شعرة من رؤوس اهلها الا بامرك . !
وسمع الملك واطاع ، وتغلت الثورة في النفوس .

* * *

٧٣

لم يجرؤ سرح أبين كاهن ظفار ، في باديء الامر ، على المجيء الى مأرب ، ليمثل بين يدي الملك ، انه لم يكن يعلم ما الذي يريده مولاه ، من دعوته اياه ، الى البلاط .

بلى لقد اراد من قبل ان يرأس وفد المهنئين ، ويكون اول الهاتفـين بمدح مليكه العظيم . ولكنه عدل عما هم به ، عندما بلغه الامر القاضي بسفره .

ثم اوصى وفد ظفار ، بان يستشير ناشراً في ذلك ، فدعاه ناشر مرة اخرى الى التعجل في المجيء . ولم يترك بلده الا بعد ان رجع الوفد .

فلما وصل الى البلاط ، لم يأذن له ناشر في ان يراه ، بل طلب اليـه ، ان يستأذن على الملك ، قبل ان يرى احداً . وكان الملك بين حظاياه ، فأقبل والغضب على جبينه وقال له : أأنت سرح أبين ايها الكاهن ؟

ـ نعم يا مولاي .

ـ لماذا لم تحضر وقد دعوناك ؟

ـ كنت اذبح الذبائح للآلهة لتبارك الملك !

فاشرق ذلك الجبين المكفهر والتفت الى حجابه قائلا :

ليحضر وتار ذمرالساعة وليحضر الامراء ، ودخل القاعة واومأ اليه بالدخول خفق قلب المسكين من الخوف وجعل ينظر الى جانبيه لعله يبصر أحداً فيسأله عن الذنب الذي جناه ، ورأى الملك مظاهر خوفه ، فابتسم وقال : قل لنا الان

من هو الرجل الذي يصلح لامارة ظفار بعد ناشر ؟ فلم يدر المسكين ماذا يقول. غير أن الملك أعاد سؤاله وزاد عليه : لقد نحينا ناشراً عن الامارة ونحن نريد ان نستبدله بسواه .

فقال : ان في ظفار ابن عم لناشر .

ــ لا تذكر لنا ابناء عمه فقد قضي على هذا البيت !

فتردد قليلا ثم قال : وفيها ذرعة بن جباة وهو احد الاشراف الذين تهابهم ظفار .

ــ أكان في الوفد الذي جاء الينا منذ ايام ؟

ــ نعم يا مولاي وكان من رؤسائه .. ولم يقل كلمة أخرى ، لان الامراء ، وعلى رأسهم شرحبيل كانوا قد دخلوا ، ثم دخل بعدهم وتار ذمر ، وقد اصفر وجهه عندما ابصر سرح ابــين ، ولكن ، لم يقم في ذهنه قط ، كما علمت ، ان الملك ، وان يكن اظلم الملوك ، يجسر على ان يستخف به .

فبدأ الملك حديثه قائلا لشرحبيل :

اتعرف سرح ابين يا عم ؟

ــ نعم يا مولاي كما اعرف معظم قومه .

ــ وهل تعلم لماذا دعاه الملك ؟

ــ لا يحق لاحد من امراء اليمن ان يعلم ما في نفس الملك .

ــ دعوناه ليجتمع مع وتار ذمر فنري ايهما افضل لكهانة اليمن !

فجحظت عينا الكاهن الاعظم وأخذ يقول :

اريد مولاي الملك انيعزلني عن الكهانة وقد ورثتها من ابائي وخدمت آلهتي خمسة عشر عاماً لم انكث لابيك عهداً ولم اخلفه ما وعدت ؟

قال : اخفض صوتك ايها الكاهن وخبرنا من جديد كيف ارسلت عبــاداً لقتل بلقيس ، امينة ولي العهد .

ــ ابوك الذي ارسله !

ــ ولماذا لم تفعل كما فعل عتيك وناشر ؟

ــ لاني لم اخن مليكي ولم أتآمر عليه وعلى ولي عهده .
ــ انذكر بعد هذه المؤآمرة وقد رأيتاها حكاية كاذبة اخترعتها نفسك ؟.
قال : لا تعجل ايها الملك فهؤلاء هم الكذبة وقد استطاعوا ان يخفوا الاثار قبل رجوعك من ميدان الحرب .
ــ ولكنهم لم يعلموا انك ستفضحهم وتسعى بهم !.
قال : لقد خطر لي خاطر يا مولاي ارجو ان تنظر فيه .
ــ انها اذن حكاية اخرى يا وتار ذمر .
ــ لا يا مولاي .. خطر لي ان ذلك الفتى الذي سمع باذنيه حكاية المؤآمرة في مهرة ، كان ايضاً من المتآمرين !
ــ ويلك من هو هذا ؟
ــ الا تذكر يا مولاي ان صاحب همدان كان في خيمتك عندما مثلت بين يديك ، ولم تشأ ان تأمره بالانصراف ؟؟. انــه شريك هؤلاء وهو الذي أرسل اليهم ليخفوا جميع الاثار .
فابتسم الهمــداني ابتسامة استخفاف ، ونظر الى مولاه ، اما الملك فقال : كانت غايةهؤلاء انيقتلوا الملك او يخلعوه عن عرشه كما تقول ، أليس كذلك ؟
ــ نعم يا مولاي .
ــ وكانت هذه الغاية نفسها ، غاية ذي تبع ؟
ــ نعم .
قال : كذبت فلو كانت هذه غايته يا لعين لتخلى عنا عندمـــا هوى سيف القائد الحبشي فوق هذا الرأس ، ولما اقتحم الموت بصدره لينقذنا منه ، فخانت الالفاظ وتار ذمر وترددت في حلقه .
فقال الملك : دلنا على امر واحد يثبت هذا القول .
قال : لقد سمعت كل شيء ورأيت كل شيء ، قبل ان اذهب الى عجف ، ثم الى مهرة ، ولكن الملك لم ير بعد رجوعه شيئاً مما ذكرت، فقام في ذهني ان امير همدان حذر القوم كما قلت .

فهز رأسه قائلا : ولكنك لم تذكر لنا في مهرة ، ان ذا القرنــين وامراءه وانت منهم ارادوا قتل شرحبيل وبلقيس !

ــ لا يا مولاي لم افعل هذا ... لاني ...

ــ لانك ماذا ؟

ــ لاني رأيت الا ابوح لك بهذا الامر الا في مأرب .

ــ ومع ذلك فقد رجعنا اليها ولم تبح بشيء الا عندما سألناك .. والتفت الى امينه وهو يقول : انها تهمة توجه اليك يا ذا تبع .

وكالت عيناه تختلجان كأن الشك تغلل في نفسه .

فقال : ليس لي ان اقول كلمة يا مولاي فقد دافع الملك عن عبده بما يعلم عن ماضيه ، وبما يراه في حاضره .

قال : اصبت فانت البريء بين هؤلاء ، قل يا وتار ذمر اين وضعت مالك الذي جمعته من اليمن ؟

ــ ويريد الملك ان يسلبني مالي ؟

ــ بل نريد ان نعيده الى خزانة الهيكل التي تمد يدك اليها في كل حين .

فكره وتار ذمر ــ وهو سيد الكهان الذي كان ذو القرنين نفسه يستشيره في اموره ــ ان يستسلم الى الضعف فقال : ولكنه مالي ايها الملك .

ــ وهل تستطيع ان تملك شيئا ايها اللعين والملك لا يريد ؟ قل اين خبأتــه او نهدم القصر الذي جعلته مثل قصر مولاك .

فعمد الى الاستعطاف فقال : اذكر يا مولاي اني كنت اقرب الناس الى ابيك ، بل اذكر اني حملتك عــلى ذراعي وانت طفل، وان ابي كان يدعوك ابن الاله .

ــ لا نذكر غير امر واحد هو انك اردت ان تقتل الفتاة التي ستجلس على عرش حمير، ثم رحت تسعى بها وبابيها بعد ان نجت من الموت .

قال : اقسم بتربة ذي القرنين ورأس الملك عمرو اني كنت صادقاً فيما رويته لك ! ونحن نقسم بشرف التاج الحميري انك كاذب .. اسمع لقد ولينا مرح أبين

منذ الان امر الكهانة الاولى في اليمن، ووهبنا له قصرك وارضك واموالك وجميع ما هو لك دون ان يبقى لآ لك شيء مما جمعت في حياتك !

فسجد سرح ابين قائلا : اني لا استحق هذه النعمة يا مولاي .

ولكن النار اشتعلت في صدر الكاهن المغضوب عليه وجعل يقول : لا تقدر ايها الملك ان تنزعني من منصبي لان آبائي لم يأخذوه من آبائك بل ورثوه كما ورثت ملكك .

ــ اذن تبقى لك كهانتك على رغم الملك ايها اللعين .

ــ قال : للكهان وحدهم ان يولوا سيدهم ويعزلوه .

ــ ولكنك قلت الان انك ورثت هذا المجد الذي يحيط بك .

ــ اجل ، فقد اراد الكهان ان اكون وارثا له !

ــ اما نحن فسنفعل ما يطيب لنا ولا نبالي بارثك .. ادخلوا ايها الغلمان ..

وقد تحول هدوء الملك الى جنون . بل قل رجع الوحش الى طبيعته !

فدخل الحجاب ، فقال : قيدوا هذا الرجل الذي يعد نفسه من الملوك ...

قال : احذر يا عمرو فستغضب اليمن لكرامة كاهنها وستندم بعد ايام على ما فعلت ، فقال : قيدوه فهو يهذي كما ترون .

فالتفت الكاهن الى الامراء قائلا لهم : لقد كنت اميناً فقتلت ، وكنتم خونة فنجوتم من الموت ، ولكن الزمان لا يصفو لاحد في ظل هذا الفتى المجنون الذي يقتل انصاره ويبقي على اعدائه ... وقال للملك : اما انت فتستطيع ان تقتل الان ثم يقتلونك بعد ذلك .

فنهض الملك وهو يتميز غيظاً ويداه ترتجفان، واومأ الى الحجاب بان يخرجوه الى الرواق ويخرج الامراء خلفه . ثم مشى ساكتاً لا ينظر الى شيء ووتار ذمر يلعن تلك الساعة التي اظهر فيها اخلاصه لملك لا يعرف الوفاء ، حتى توسطوا الرواق الكبير الذي يؤدي الى جناح الملك فقال : عليها بالجلاد ، وليحضر من سكان البلاط من يشاء .

فهامس عتيك ناشراً قائلا له :

سينتهي امزنا غداً او بعد غدكما انتهى امر وتارذمر، فقال ذو تبع : وسيجيء دور امين سره الذي يقول اله احب الناس اليه وأقربهم الى قلبه .

قال : الى الرحيل ، قال : مهلا وسننظر الليلة في هذا الامر .

وكان الجميع مطرقين الا الملك الذي كان يروح ويجيء ، حتى ان الكـــاهن الذي يرى الموت بعينيه ، لم يشأ ان يزيد على ما قاله كلمة واحدة فقد احب ان يموت كما يموت الابطال .

وجاء الجـــلاد .. واطلت الجواري والغلمـــان ، ثم خرج ءاشد الى احدى الشرفات ينادي بأمر الملك : لقد قتل وتار ذمر خائن العرش .

فأقبل القوم حتى ملأوا الرواق ،وكان الموت قدبسط جناحيه وفصل رأس الكاهن العظيم عن جسده .!

ووقف الملك يقول : يا اهل مأرب : انظروا الى هذا الكاهن القتيل واعلموا ان كل من تحدثه النفس بخيانة الملك يقتل مثله ... ثم قال لحراسه :

احملوا جثته الى السوق ، ثم ادفنوها عند المساء خارج السور فليس في ارض مأرب موضع لقبر الخائن ، وفي لحظة واحدة فعل الحراس ما امرهم به ، وحنى القوم رؤوسهم عندما سمعوا ملكهم يلفظ خطابه القصير .. ثم تفرقوا ، والثورة في النفوس.. واللوعة في القلوب ، وهم لا يعلمون ما هو ذنب ذلك الكاهن الذي كان رأسه ثمناً له .

وعند المساء ، سدل الستار كأن وتار ذمر لم يكن موجوداً ، ولم يبق غـــير لواعج الاسى والنار المضطرمة في الصدور .

* * *

٧٤

أصبح سرح ابين بين ليلة وضحاها سيد الكهان .. ولكنه كان يعلم انه عبد الملك القاسي الذي لا يجسر ان يخطو خطوة واحدة بدون اذنه ، بل كان يعلم ان كهانته اسم لا سلطان لها ولا نفوذ ، وان الاقامة بظفار ، عند هيكلها الجميل الصغير ، خير من الاقامة بمأرب عند هيكلها العظيم العجيب !

كان في ظفار حراً ، فصار في مأرب اذل من عبد!! وكان سيدقومه فاصبح خادماً للملك ، فليت الملك لم يجد بعطفه ولم يخصه بنعمته ورضاه ، وماذا يفعل سرح ابين بعد الان ؟ ايفر ، وسيف الملك يتبعه كالظل ، وطوائف الناس ببابه؟ ام يسأل مولاه ان يولي سواه وليس بعد ذلك السؤال غير الموت ؟

خير له ان يبقى ، ويخضع لمشيئة الاله القوي القادر على كل شيء ... بل خير له ان يستسلم استسلاماً تاماً الى الطاغية الذي لا يلين ... حتى تخلق الآلهة الحادثات،وتجود بالفرج .

ذلك ما قاله له ناشر عندما انصرف من البلاط الى قصره الجديد .

وانت ترى ، ان القدر كان يخون الملك في كل ما يفعل ، فان كاهن ظفار الذي رفعه الى المنصب الاول ، اصبح عدواً له ومن المتآمرين عليه،الذين يرغبون في خلعه عن العرش ، لقد جرب الملك ان ينام ليلته فلم يقدر،ليس لان شبح الكاهن القتيل كان ماثلا أمام عينيه ، بل لان الشك في جميع رجاله ملأ نفسه ، حتى انه استلذ في آخر ليله ، فكرة رهيبة هائلة ، هي القضاء على كل امير في البلاط ، ما عدا معدي كرب وعبدشمس ،أجل ، وكان يستعيد في ذهنه تلك الكلمة التي قالها وتار ذمر في قاعة الجلوس : ان ذا تبع يماشي المتآمرين .

فالويل اذن للذي تبع اللابس لباس المخلصين !

ولكن لماذا أنقذه في الميدان ؟ بل لماذا كان خادماً له في مهرة ، يعالج جرحه، ويسهر على حياته ، وهو قادر على قتله في ظلام الليل ؟

ان وتار ذمر يكذب حتى عند الموت ..!

ومع ذلك ، فليس له ان يفكر في قتل هذا الهمداني ، الا اذا شاور بلقيس ! أليست هي التي تغذي حقده، وتوغر صدره ، وتدفع وحشيته الى سفك الدماء؟ أليست هي التي أرادت ان تجعله الهاً ، مستبداً ، قاهراً يحيي ويميت بكلمة واحدة تلفظها شفتاه المقدستان .

اذن فلينظر في امر هذا الخائن الجديد ، على مهل ، بعد ان يشاور ابنة عمه صاحبة السلطان !

وتعب ملك حمير من التفكير .. فأغمض عينيه عندما بزغ الفجر ، وظل نائماً حتى استيقظت مأرب ، وطلعت الشمس .

* * *

٧٥

في تلك الليلة نفسها ، خرج شرحبيل وعتيك من البلاط ليقصا على بلقيس حكاية ذلك الحادث الذي سيهز اليمن .

وكانت تعلم من قبل ، ان وتار ذمر سيموت في ذلك اليوم ، فلم تستغرب حكايتهما ، ولم تختلج في صدرها تلك العاطفة الراقية عاطفة الرحمة والاشفاق ..

ولكن ، عندما خبرها عتيك بتلك التهمة التي وجهها الكـــاهن الى صاحب همدان ، تجهم وجهها وجعلت تقول :

هذه هي الريبة تدب في صدر الملك ، وهي لا تزول حتى يزول امير همدان من الوجود .!

قال : ولكن يد بلقيس توقف يد الجلاد عند رأسه .

ــ وهل تريد ان ادافع عن ذي تبع ليلتهب صدر الملك بنار شك جديد تخرق احشاءه وتثير جنونه ؟

ــ وماذا تصنعين اذن ؟

فأطرقت ، ثم اصيبت بذهول غريب نسيت معه العرش والتاج ، واليمن ، وكل ما على الارض من عظمة ، وطموح ، وعز . فخيل الى عتيك انها نسيت نفسها فقال :

أتستطيعين يا مولاتي ان تنتزعي الريب من نفس هذا السفاح ؟ فصحت من ذهولها قائلة :

ــ لا ، فانا أخشى ان انتزعه اليوم ، ثم يعود فجأة الى تلك النفس ، في ساعة سوداء تذهب بعدها حياة الحبيب .

ــ اذن لم يبق الا ان نترك البلاط الليلة ، على ان نلتقي في مغار ، بعد شهور ، او بعد اعوام !

ــ الليلة يا عتيك ؟

ــ نعم يا مولاتي فقد نستفيق عند الصباح والجلاد في الرواق .

فهزت رأسها وهي تقول : ولكن الى اين ؟

ــ اقسم لك اني لا اعلم الى اين نذهب . اترين ان نلجأ الى جابر بن مفروق صيد مذحج في اسفل نجران ؟

ــ لا ، فنجران بعيدة وبينها وبين مغار مراحل وايام .

ــ اذن نسير الى مغار نفسها فنمكث بها حتى ترحلوا اليها جميعاً .

قالت : لقد ضيعت الرأي ايها الامير .. الا تعلم ان الملك سيوجه جنوده عند الصباح الى مغار التي قيل له انها ملجأ اعدائه .

ــ وفي اي مكان نستخفي ونحن لا نثق الا بمن ذكرت ؟

فلمعت عيناها قائلة : في هذا القصر ! ونظرت الى ابيها لتسمع جوابه فقال: ليس لهم الا ان يلجأوا اليه اذ لم يبق امامهم سواه . وقال عتيك : صدقت يا مولاتي فنحن لا ننجو من الموت الا اذا حجبنا قصر شرحبيل عن العيون ... ولكن ماذا تقولين للملك ؟

قالت : دع عنك هذا فبلقيس لا تتردد في الجواب ، عن كل سؤال يوجهه

اليها ملكك العاشق .. ووضعت يدها على جبينها كأنهـا نسيت امراً آخر ثم قالت : بقي ان نبحث عن رجل نجعله عينا على الملك .. ان ابي وحده لا يكفي وامير همدان سيترك البلاط .. ومعدي كرب وعبد شمس اللذان سيبقيان بين يديه هما اخبث الناس .

ــ وهل نسيت ان الملك لا يفعل امراً الا اذا كان لك رأي فيه ؟

ــ لو كان هذا صحيحاً لما كنا نحتاج الان الى احدهم . ان هذا الملك يتغير في كل ساعة .

قال : ادلك على رجل عظيم قادر هو احد الانصار .

ــ اذكر هذا الرجل .

ــ سرح ابين .

ــ ومن يضمن وفاءه ايها الامير ؟

ــ امير ظفار نفسه فقد كان من اتباعه .

ــ ولكن الملك جعله اعظم الناس في اليمن .

ــ ومع ذلك فهو يؤثر كهانة ظفار على هذه العظمة الجوفاء التي لا يملك من امرها شيئاً .. قالت : لقد بدأ الحظ يخون الملك .. قـل لناشر ، اذا كان واثقاً به ، ان يطلعه على كل شيء ، وان يوصيه الليلة قبل مجيئه ، بكلي شيء .

قال : الا ترين ان جنود الملك وحراسه سيدخلون عند الصباح قصور مأرب واكواخها مفتشين عن الامراء الخونة الذين فروا من البلاط !

ــ بل ارى ان هؤلاء الجنود سيطلبونكم غداً في الاودية وعلى رؤوس الجبال ثم يتفرقون في كل اقليم وهم يحملون في حرابهم الموت .

ــ وهل يجرؤ المجنون على ارسال جنوده الى هذا القصر .

ــ لو طاف هو وجنوده في جميع حجراته ودهاليزه لما عثروا على احد ... ان بين السراديب التي اعدها جدنا يعفر لمثل هذه الغاية ، واحداً ينتهي عنـد الوادي المظلم القائم جنوبي مأرب ولا يستطيع الساحر ان يتبين بابه من الخارج .

ــ اذن سنخرج عندما نشاء الخروج من هذا الباب .

ـ نعم وقد نرحل في هذين اليومين عندما يصل الغوث وذو مغار ، وجبار، ويظهرون خضوعهم لملكهم ، زوج بلقيس .

فنهض قائلا : اني راجع الان على امل ان نكون في هــذا القصر قبل ان ينقضي الهزيع الثاني من الليل .

قالت : احذروا الحراس ايها الامير فكلمة واحدة تقولونها لهم تبعث بنــا جميعنا الى القبر في ساعة واحدة .

ـ سلتدبر الامر فليس بين الحراس من يخطر له اننا نخون الملك ، وخرج وشرحبيل يقول لابنته : اخشى ان ينتهـي بنا الامر الى غير ما نحب .

ـ بل ينتهي كما نحب يا مولاي فقد بدأت نار الثورة تستعر في صدر القوم كما رأيت .

قال : عجباً ، لقد عاد معدي كرب من رحلته ولم يحضر ذو مغار .

ـ اظن انه يقرأ ، وهو قادم ، اسرار الامراء في المخاليف ولا يلبث حتى يجيء ، ثم يلحق بهالغوث وابن دوير ، ولم تنتظر جوابه ، بل دعت نعمىونائلة وامرتهما بان تتهيأ لاستقبال ثلاثة اضياف من الامراء .

ثم هامستهما قائلة : علي ان يبقى امر هؤلاء الاضياف غير معروف وعــلى ان تحذرا جميع الناس .

وجعلت تتمشى مع ابيها في الرواق حتى انتصف الليل واقبل الحجــاب يستأذنون لثلاثة من عبيد صنعاء .

فعرفت بلقيس ان هؤلاء العبيد امراء البلاط ، وأذن لهم في الدخول .

* * *

٧٦

عندما استفاق الملك من نومه ؛ بعد طلوع الشمس ، خطر له ان يداعب امير همدان ، ويعبث به، على مرأى ومسمع من القوم ، وكان معدي كرب وعبدشمس امام قاعة الجلوس ، وقد دخل شرحبيل في تلك الساعة ، ووقف حيث يقفان .

فاقبل الملك فقال: ادع رجال البلاط يا عبد شمس فقد ترون اليوم ايضاً سيف الجلاد مخضباً بالدماء .

ومشى الى القاعة وهو يقول : سنسمع يا عم اعتراف ذي تبع في بادىء الامر ثم يجيء بعد ذلك دور عتيك بن روضة .

ـ وبأي شيء يعترف الاثنان يا مولاي ؟

ـ ألم تسمع وتار ذمر يتهمه امس ؟ انه اذن شريك لكم فيما فعلتم وقد نبهكم لتتهيأوا للامر .

وضحك ضحك الساخر الذي لا يعبأ بأحد .

فقال شرحبيل : خير لك ان تقتلنا جميعنا يا مولاي ليزول هذا الشك الذي يعكر عليك صفو العيش .

ـ اما انت فقدوهبنا حياتك لبلقيس ، ! واما الاخرون فلا نظن انهم ينجون من الموت ولو كانوا ابرياء .

قالها بوقاحة لم يسبقه الى مثلها ذو القرنين ، فعض الامير على شفتيه وعمد الى الدهاء فقال : سمعت بلقيس تقول : ان ذا تبع يستحق الموت لانه نمام يريد ان يفسد على الملك امر غرامه ! فلم يشأ الملك ان يثبت له براءته من هذا وهو يعلم انه بريء ، ودخل في تلك اللحظة عبد شمس وانحنى قائلا :

لم اجد احداً من الامراء يا مولاي ! .

قال : ايخرجون من البلاط بدون اذن الملك ؟

ـ لا اعلم ، كما ان الغلمان لا يعلمون .

ــ ويلك وويل الغلمان .. اسأل الحراس ، فخرج ليسالهم ثم عاد والحراس معه وجعل يقول :

لم يخرجوا من البلاط كما يقول هؤلاء .

فقال : من كان يقوم منكم بباب القصر امس ايها الفتيان ؟

فأجابه أحدهم : نحن الاربعة يا مولاي .

ــ وهل تعرفون جميع من في البلاط من امراء .

ــ نعم يا مولاي .

ــ وكيف لم تر واحداً وقد خرجوا جميعاً ؟

ــ اقسم برأس الملك انه لم يخرج من الباب غير العبيد .

فقال : اجمعوا يا عبد شمس عبيد القصر الساعة ، فدعاهم فحضروا وملأوا القاعة ، فقال لرئيسهم : اي عبد منكم خرج الى مأرب في الليل الماضي ؟

فقالوا جميعهم : لم يرسلنا احد الى الخارج يا مولانا ولم نغادر البلاط قط .. واقسموا برأسه كما اقسم الحراس .

فقال : صف لنا ايها الحارس اولئك العبيد الذين رأيت .

قال : كانوا ثلاثة يا مولاي ، خرج احدهم اولا ثم تبعه الآخران وهما يحملان بضعة سيوف ! فجعل يضرب مقعده بيده والنار تنبعث من عينيه وهو يتمتم قائلا : لقد فروا ورب اليمن ، فويل لهم .

ثم قام فتناول احدى حراب الحراس واخذ يطعنهم بها وهو لا يبصر اين تقع ضربته حتى صبغت ارض القاعة وتخضب رداؤه بالدماء !

وهم يصيحون من الذعر ويثبون الى الرواق فراراً من تلك الحربة الحادةبل من تلك الصاعقة التي انقضت عليهم من سماء قاعة العرش !

ويظهر ان الدماء بردت غليله فرمى بالحربة والتفت الى شرحبيل قائلا له : أتستطيع ان تعلم معنى ذلك يا عم ؟

ــ معناه انهم خافوا غضب الملك فآثروا الفرار .

ــ والى اي بلد يفرون ؟

ــ من يعلم الى اين يا مولاي ؟ ان في مأرب رجالا كثاراً فارسل من تشاء منهم الى المخاليف واملأ بيوت مأرب جنوداً حتى تعرف الموضع الذي لجأوا اليـــه . . .

ــ بل نرسل الجن فتغوص في الارض وترتفع الىالسحب حتى تضع الايدي على هؤلاء الجبناء .

فقال معدي كرب : اظن انهم خرجوا في هذا الصباح ثم لا يلبثون ان يعودوا بعد قليل .

قال : اسكت ، أفلم تسمع الحراس يقولون انهم لم يروا احداً ؟ لقد صبغوا وجوههم كما يفعل اللصوص والصعاليك وتركوا قصر سيدهم كما يتركه الانذال. أما والذي جعل لحمير هذا الملك لنعلقن رؤوسهم بالحبال فوق باب مـــأرب ، ونهدمن قصورهم ونسلب اهلهم جميع ما يملكون .

وقال لمعدي كرب : قم الان ، واجعل مدينة الملك ضمن نطاق من الرجال ، وادخل بيوتها بيتاً بيتاً واذا رأيت ان تضرب الاعناق وتصلب الرجال والنساء في سبيل غايتك فافعل ولا بأس عليك !

وانت يا عبد شمس ! خذ من تشاء من الجند ، وابدأ بظفار حتى تنتهي الى براقش وبينون واذا اكرهت على الطواف في اليمن كلها فلا تتردد في ذلك . . . اخرجا ! . فقبل الامير ثوبه وانصرفا .

فقال : لم يبق في مأرب من نستشيره في شؤون الملك غير شرحبيل وبلقيس فماذا ترى انت ؟

ــ لقد سلمت اموري كلها الى بلقيس يا مولاي كما تعلم لاني لست مـــن اصحاب الراي في الحادثات .

قال : اصبت فسنرى بلقيس الليلة ونسألها عما دفع هؤلاء الانذال الى الفرار.

ــ وهل تعلم بلقيس ذلك يا مولاي ؟

ــ اجل ، فقد قام في ذهن الملك الساعة انها باحت لهم بمـــا خبرها اياه منذ ايام ! .

قال : مولاي ..! أتسيء ظنك ببلقيس وهي التي قالت لابيها ان اليمن كلها لا تساوي في نظرها قلامة من ظفرك ؟ فاشرق جبينه قائلا : أهي قالت هذا ؟

ـ نعم ورددت قولها امام اخيها وجميع من في القصر من الجواري والغلمان. ومع ذلك فالفتاة التي لا تبوح لابيها بما قاله لها الملك لا تجد من الرأي ان تبوح به لجميع الناس .

ـ ومن هو الفاعل اذن ؟

ـ ليأذن لي الملك ان اسأله سؤالا ألم تخبر أحداً غير بلقيس يا مولاي ؟

ـ بلى ، قلنا للذي تبع ما اردنا ان نفعله .

ـ اذن هو الذي خوف ، رفيقيه وبلقيس لا تخون ملكها الذي تحبه ، وبينـا هما يتحادثان دخل الحاجب يقول للملك : هذا ذو مغار بالباب ، فنظر الى شرحبيل وعبناه تدمعان .

فقال له : ألم اذكر لمولاي ان هذا الرجل من المخلصين ؟

ـ سنرى اخلاصه عندما نسمع اقواله ونرى وجهه .. أدخلوه ..

وكان ذو مغار قد مر بقصر شرحبيل وقصت عليه بلقيس جميع ما حدث في مأرب بعد رجوع الملك من مهرة ، وهي التي اوعزت اليه بالذهاب الى البلاط في تلك الساعة ليظهر لملكه ذلك الاخلاص الذي لا وجود له ، فدخل وابتسامة الفرح والاستبشار على شفتيه ! وكانت عينا الملك ترسلان أشعة الهيبة وعظمـة الملك ..

فجثا ذو مغار على ركبتيه ووضع سيفه عند قدمي مولاه وهو يقول : ليحيى ملك حمير .

وردد هتافه ثلاث مرات ، فمد الملك اليه يده فقبلها... وتلك احدى مظاهر الرضى . ثم امره بالنهوض قائـلا : اكنت تعلم من قبل يا ذا مغار ان في مأرب ملكاً ؟ !.

فقال : وكيف لا اعلم ذلك يا مولاي وانا من عبيد العرش الحميري .

ـ ولكن لم نرك قط في هذا البلاط ولم نسمع لك في سبيل هذا العرش صوتاً

واحداً يثبت قولك .

ــ اصبت يا مولاي فقد كنت بعيداً عن البلاط ولكني لم اخن ملكي ولم افكر في الخروج عن طاعته .

ــ ونحن نسألك عن اسباب هذا البعد .

ــ قال التمس من مولاي ان يترك ماضي ويسألني عن حاضري .

ــ وما هو حاضرك ؟

ــ خضوع لارياء فيه واستسلام لا حد له !

قال : نسمع هذه الالفاظ ثم نلمس الخيانة والمؤآمرات بيدينا الاثنتين ... أتعرف امير همدان ، وناشراً امير ظفار وذلك اللعين امير نحلة ؟

ــ اعرفهم يا مولاي .

ــ وهل تعلم ماذا صنعوا ؟؟ انهم خرجوا من هذا القصر ، في الليل الماضي ، كما تخرج اللصوص ، وهم الذين قربهم ذو القرنين من قبل وجعلناهم نحن سادة البلاط وسادة الناس واحطناهم بالنعم ! فاخذ الرجل ينظر الى شرحبيل والدهشة في عينيه .! ثم قال الملك ، ومع ذلك فقد كانوا امس يقولون: ان استسلامهم لا حد له وان خضوعهم لا رياء فيه .

ــ اما انا فاذا قلت كلمة فاليمن كلها لا تستطيع ان تمحو منها حرفاً ... اني مخلص يا مولاي وهذا السيف الذي تدوسه قدماك يشهد لي .

قال : خذ سيفك . فأخذه ، فقال : اقسم بالآلهة انك ستضرب به اعداء الملك ؟.

فقال : اقسم بهذا العرش الذي رفعه حمير اني سأضرب به اعداءك ولو كانوا احب الناس الي .

قال : اضرب هذا فهو عدو العرش !

وأومأ الى شرحبيل .. فتراجع الى الوراء قائلا : عم مولانا الملك ؟!

ــ اجل ، فاضرب اذا كنت من المخلصين ، فجرد الامير سيفه ورفعه قائلا: ليمت ولو كان من ولد يعفر .

وكان شرحبيل هادئاً ، وقدرأى الملك ان السيف سيسقط على رأسه ، فقال: مهلا يا ذا مغار فانما الاثنين من الانصار . وقال لشرحبيل : الا تخـاف الموت يا عم ؟

ــ ولماذا اخافه وهو اذا لم يجيء اليوم جاء غداً .

ــ ولكن كان عليك ان تدافع عن نفسك في هذه الساعة .

ــ ليس للعبد ان يفعل غـير ما فعلت . . ثم قال : والبريء لا يخاف يا مولاي .

قال : لقد انتهينا من هذا الان ... حدثنا يا ذا مغار بما كان بينك وبـين شرحبيل منذ شهرين .

ــ بيني وبين شرحبيل يا مولاي ؟ لقد كنت منذ شهرين في مغار ولم اره الا الان ! ماذا حدث يا مولاي ؟

ــ سمعنا انك تتهيأ للحرب مع صاحبي براقش وبينـون ، فجعل يقول : احلف برأس الملك اني لا افهم شيئاً مما يذكره لي .

قال : خبرنا بهذا رجل ضربنا عنقه امام هذه القاعة فهل تظن انـه كان كاذباً ؟

ــ أيقول اني اتهيأ للحرب وهو صادق ؟ من هو الرجل يا مولاي ؟

ــ هو الكاهن الاعظم الذي قص علينا حكاية غريبة لم يثبت منهـا كلمة واحدة .. كان يقول انك حملت مع شرحبيل لواء العصيان وان الجيش الخارج على ملكه مقيم بمغار وسيزحف منها الى مأرب ليستولي على العرش !

ــ وقتل وتار ذمر يا مولاي ؟

ــ اجل وقد همنا بقتل عتيك بن روضة لو لم يعمـد الى الفرار ، فلم يشأ الامير ان يتمادى في الاستغراب ، بل قال له : وهل كان ناشر وامير همدان من رجال ذلك الخائن ؟

ــ لا بل وجهت اليهما تهمة الخيانة وليس من الرأي ان تعلم اكثر مما علمت . قم يا عم والحق بعبد شمس قبل ان ينصرف وقل له ان يولي ذرعة بن حمـاة ،

باسم الملك ، امر ظفار ، ويسلب ناشراً جميع ما هو له من عبيد واموال ، فخرج شرحبيل حاملا امر مولاه ، وقد وضع يده على صدره ليسكت قلبه المضطرب وعاطفته الثائرة ، وعزه الجريح .

فقال الملك عندئذ لذي مغار : لولا هذا القلب الخافق على الغرام لضربنا عنق هذا الرجل الذي ينتمي الى حمير والذى يقال انه عم الملك !

قال : مرني يا مولاي بان اضرب هذا العنق الساعة ..

قال : صبراً ايها الامير فسيأتي يوم يخسر فيه هذا اللعين رأسه ولو مدت بلقيس نفسا يدها لانقاذه .. لقد وثقنا بك الان .. وسنرى الليلة ماذا يحدث في مأرب أيقبض معدي كرب على الخونة الثلاثة ام يخرجون منها كما خرجوا من البلاط .. انك امين الملك منذ الان يا ذا مغار وسنعهد اليك في ادارة الامور التي كانت في يد ذي تبع ! . نعم كنت في نظرنا يا ذا مغار خائناً فاصبحت الان احب الناس الى الملك . أفهمت ؟ ! ألا ترضى بان تكون السيد الاول في البلاط لا يشهر سيف في سبيل مولاك قبل سيفك ولا يرتفع صوت في اليمن قبل صوتك ؟!. ولكن لا .. لا يا ذا مغار .. لقد جعلناك قائد الجيش الحميري في السلم والحرب وسيكون جناح ولي العهد في القصر مقراً لك ولولدك غالب وأخيك ياسر اذا اراد ان يترك مخلافه ..

هكذا كان الملك الحميري ينتقل في لحظة واحدة ، من ريب قاتل الى ثقة عمياء وهو مجنون في الحالين لا يعلم في اي موضع يضع قدميه .

فذعر ذو مغار لتلك الصراحة الغريبة التي لفظتها شفتا المجنون وظهرت على وجهه دلائل التردد والخوف .. ولكنه كان مكرهاً على الجواب ، بل كان مكرهاً على الاستسلام الى تلك الارادة المقدسة التي خرجت من فم الله ! .

ايقول له : لا ارضى بهذا فلا يبقى بينه وبين الموت غير ذراع ام يقول لقد رضيت فيأمره الملك بالبقاء في البلاط ثم يدعو ولده غالباً ليكون الى جانبه ؟..

ان في الجوابين خطراً وليس من الحكمة ان يقذف بنفسه الى الهوة فقال : ليس لي ان اخالف مولاي الملك في كل ما يأمرني به .. ولكني التمس منه ان

يصغي الى هذا الرجاء الذي اذكره الان .

قال : ماذا ؟

ـ اعود الى بلاد قومي فأنظر في امر مغار ثم اسلم الى اخي ياسر امر الولاية وارجع مع ولدي غالب لنعيش الى الابد في ظل الملك

ـ اتعاهد مولاك على هذا ؟

ـ نعم فلا يمر شهران او ثلاثة حتى يصبح ذو مغار وولده من رجال البلاط.
وكان شرحبيل قد عاد وهو يقول : لقد اوصيت عبد شمس بما اراد مولاي .

ـ ونحن قد اوصينا ذا مغار بما يجب ان يفعل .. الا تعلم ماذا جرى الان . لقد انعم الملك على صاحبك فجعله قائداً للجيش وسيقيم بهذا القصر ،فانحنى ابن يعفر قائلا : انه احسان لا تنساه مغار ، قالها وصوته يرتجف .

ثم قال الملك : ولكنه سيعود الى مخلافه ليتدبر امر قومه .

فأيقن الاميربان هذا العود حيلة يستعين بها ذو مغار ليهرب من الملك ،فقال: ومتى يرجع الى مأرب يا مولاي ؟

ـ يرجع حينما يشاء فقد عاهدنا الان على الوفاء وانتهى الامر ، فصافح شرحبيل الرجل وجعل يقول : لقد عرف مولانا الملك كيف يختار رجاله .. وماذا تصنع بمعدي كرب وعبد شمس يا مولانا ؟

ـ يكفي ان الاثنين من رجال البلاط .. ومع ذلك فالملك ينحي من يشاء ويبعد من يشاء ولا يسأله احد ... لقد فكرنا الان في امر يا عم .

ـ ما هو يا مولاي ؟

ـ هو ان نزور بلقيس الساعة ثم نسألها رأيها في ناشر ورفيقيه ... ثم نطوف في أروقة القصر ودهاليزه فقد نعثر على الثلاثة .!

قال : مر الجند بأن يفعل ذلك يا مولاي .

ـ بل يفعله الملك نفسه فجند مأرب لا يدخل قصر شرحبيل والملك حي .

قال : ايشك الملك في بلقيس ؟

ـ بل يشك في عمه الذي يخاطبه الان .!

ونظر الى ذي مغار قائلا : لقد دب الريب في صدر الملك حتى ليظن ان جميع الرجال الذين يحيطون به يخدعونه بمظاهر وفائهم ولا يحدثونه الا بالاكاذيب ..
قم يا عم وامش مع الملك اما انت ايها القائد فاحمل سيفك واتبعنا الى الدهاليز .
وضحك ضحكاً ملأ القاعة ثم اكفهر وجهه فجأة واخذ يقول :
ويل لك يا صاحب همدان وويل لقومك ..
وتقدم الاميرين خارجاً الى الرواق ثم الى الباب الخارجي ، وهو لا يلتفت الى احد حتى توسط ساحة القصر فقال :
يخيل الينا اننا سنرى اعداء الملك وراء الجدران السوداء .. فماذا تقول يا فرحبيل اذا صدقت هذه الظنون ؟ .
ــ اضع عنقي تحت قدميك ليبريه السيف .
ــ فمشى ولم يجب حتى دخل الثلاثة القصر ومثلت بلقيس بين يدي عاشقها لتبسم له ابتسامة الاعجاب والحب !
فخمدت في تلك اللحظة نار صدره ، واحس بالحب الفياض يغمر قلبه ونفسه ، ثم هامسها قائلا : أتعلمين يا بلقيس اي خبر يحمله اليك الملك .
فرفعت صوتها قائلة : يحمل الي هذا النور الذي ترسله عيناه ، وهذا الجمال الخلاب الذي يتدفق من وجهه .
فرفعته الخيلاء الى السماء ، وجعل ينظر الى عطفيه ويقول : بل يحمل اليك نبأ خيانة جديدة ابطالها رجال البلاط المقربون .
ــ لا تذكر الخيانة يا مولاي ، ان الذي يخون الملك يطعن بلقيس في هذا القلب .
ــ ولكنهم خانوه .. وجعلوا الليل ستاراً لهم في فرارهم من البلاط .
ــ من هم يا مولاي ؟ فذكرهم لها ثم قال : وقد اصبح الملك واثقا بان وتار ذمر كان بريئاً وان هؤلاء الثلاثة ــ مع عم الملك ــ كانوا متآمرين .
ــ وندمت يا مولاي على قتل كاهنك ؟
ــ اجل فقد مات وهو يقول انه بريء .

فاطرقت وهي تقول في نفسها : لقد عرفت داءك ودواءك ايها المغرور .

ثم تمتمت قائلة : اذن لم يبق الا ان تثأر به يا مولاي .. هذا ابي فاقتله الساعة أمام عيني بلقيس وذي مغـــار ، ولتدخل جنودك قصور اليمن واكواخها حتى تقبض على الامراء الكذبة وتجعل جثثهم طعاماً لثعالب الليل .

ـ ولكن الملك لا يقتل شرحبيل لانه ابو بلقيس !

فلمعت الدموع في عينيها وقالت له : لا خير في بلقيس اذا كان أبوها عدواً للعرش .. اني سأموت الليلة يا مولاي فافعل بشرحبيل ما تشاء !

فذعر قائلا : ماذا ؟

ـ وهل يطيب العيش للفتاة التي تصبح ملكة اليمن وهي ابنة خائن ؟؟ اين خنجرك يا ابي خذه واغمده في صدرك فوتك خير من حياة العار .

قال : اصبت فليذهب شرحبيل وولداه من الوجود وليهنأ الملك بعـــدهم بالعرش الذي تركه له آباؤه .

ومد يده الى حزامه فأخرج خنجره وهو يقول: اشهد يا ذا مغار ان شرحبيل ابن عمرو يموت الان وهو اشد اخلاصاً للعرش من الملك نفسه .

فعمدت بلقيس الى الخنجر وانتزعته من يده قائلة :

لا تستطيع بلقيس ان ترى أباها مخضباً بدمه .. اموت انا الان ، ثم تلحق بي انت بعد ساعة فيصفو عيش الحبيب .

ونظرت الى ذلك العاشق نظرة التوديع ، ثم اغمضت عينيها على شبح الموت يتراءى لها بصورته المروعة .. ورفعت يدها لتغمس خنجرها في القلب .

فجحظت عينا الملك من الخوف وقبض على تلك اليد الناعمة بيده القويـــة وصاح قائلا : خير للملك ان تحطم الاقدار عرشه من ان تحطم قلبه .. لقد نسينا الان كل ما جرى ونقسم بتاجنا ان الريب لم يبق له ظل في هذا الصدر .

قالت : دعني يا مولاي فأنا لا اخشى الموت وقد رأيته بعيني .

ولكنه لم يسمع ، بل اخذ الخنجر من يدها ورمى به بين الوسائد وهويقول: نريد ان تبقي ويبقى شرحبيل فكل شيء قد تغير الان .

فارخت نظرها الى الارض والبكاء يتردد في صدرها المضطرب .
وكان الملك في تلك الساعة انساناً .. حياً .. كامل الخلقة .. تخفق في فؤاده عواطف الحب ، ويبسم على وجهه شرف الملوك .. ومروءة الرجال .
ولم يتردد عندئذ في الجلوس ، ويده بيد بلقيس يدعوها الى القعود بالقرب منه ، ثم اومأ الى الاميرين بان يفعلا كما فعل ، فاطاعاه ، وساد السكوت .
ثم قال : امسحي دموعك يا بلقيس وحدثينا بما ترين .
- وماذا ارى يا مولاي ..بلى رأيت الدنيا تسود .. ثم رأيت جناحين هائلين بالآن جانبي هذه القاعـــة .. ثم رأيت .. آه يا مولاي ، ثم رأيت مولاي الملك باسطاً لي ذراعيه . فأغمضت عيني لاموت ولكنك صفعت الموت ففر من بـــين يديك كما يفر الجبان .. ولم احس الا وقد عادت الحياة الي .
قال : انسي ما مضى كأنه لم يكن .. ماذا ترين ان نصنع بأعداء الملك الذين لجأوا الى الفرار خوفاً من الجزاء .
فخفضت صوتها قائلة : لا يستطيع الطير ان يفلت من يدي الملك .. اجعل يا مولاي بيوت مأرب مقراً لجنودك ، وابدأ بقصر شرحبيل بن عمرو !.
ــ اي انك تريدين ان يظهر الملك لقومه انه يشك في زوجته .
ــ بل اريد ان يقول لقومه : انظروا فقد بدأت بنفسي .. انهض يا مولاي وادخل قاعـــات القصر ودهاليزه وأبراجه وابحث عن اعدائك فقد تجدهم في السقوف او وراء الجدران .
ــ لقد كنا همنا بان نفعل هذا قبل ان نجيء .
ــ وستفعله الساعة لتزول الريبة .. ولكني اسألك ان تدفع الي اعداءك اذا كتب لك الظفر .
ــ لماذا ؟
ــ لان بلقيس التي احببتها تريد ان يكون لها يد في التعذيب .
قال : لقد اعددنا لهم عذاباً لم يخطر لعربي .. قومي الان .
ونهض،فنهض الجميع وراحت بلقيس تدله على الحجرات والاروقة والشرفات

عيناه ترسلان النظرات الحادة وهي تقول له :

انظر يا مولاي هذا قصر شرحبيل لم يبق فيه دهليز لم تره . بنى بقي مم بناه جدنا يعفر يمتد في جوف الارض ونحن لا نعلم ما في داخـــله اتريد ان تراه ؟ .

فبزقت عيناه قائلا : والى اين ينتهي ؟

ــ الى الجبل الشرقي التي تطلع الشمس من ورائـــه . هكذا يقولون لنا يـــا مولاي وليس في هذا القصر من يعرف ما فيه .

وكانت ركبتا شرحبيل ترتجفان فقد قام في ذهنه ان الجنون فاجأ ابنته ... ولكنها كانت تبتسم وزاد ابتسامها عندما قال الملك . يكفي فأولئك الانذال لا يجسرون على الاستخفاء في قصر عم الملك ... ثم قال : ولكن الى اي مكان يلجأون والجنود من ورائهم وهم لو ارتفعوا الى السحب لما وجدوا لهم نصيراً . اسمعي يا بلقيس لقد امرنا معدي كرب بالطواف في مأرب وبعثنا عبد شمس الى الاقاليم يقيمها ويقعدها مع جنوده حتى يستسلم الثلاثة او نخرب اليمن .

ــ احسنت يا مولاي .

ــ وسيتبع عبد شمس ، قائد جيشنا ذو مغار الذي وثقنا به .

ــ متى جعلته قائداً لجيشك يا مولاي ؟ .

ــ في هذا الصباح وسيترك مخلافه ليعيش في بلاط مولاه .

وكانوا عندئذ ، في برج يطل على مأرب فقالت بلقيس : لو كنت انا الملك لما وهبت له القيادة الا اذا قاد الامراء الى البلاط كما تقاد الافراس ! .

قال : اسمعت يا ذا مغار ؟

ــ سمعت يا مولاي .

ــ وماذا تقول ؟

ان القول للملك فليأمر بما يشاء .

قال : لقد عزلناك الان ، على ان تبقى القيادة لك ! فعرف ذو مغار غايـــة بلقيس ، فقال : ولكن الملك لا يعزل قائده بدون ذنب ، ولا يمنـــع احسانه الا اذا ضاع هذا الاحسان ، وجعل يتظاهر بالرغبة في القيادة ويستحلفه الا يفعل ،

غير ان الملك لم يلن ، بل كان يقول : هكذا ارادت بلقيس ..

قال : ارجو ان تستعطف الاميرة الملك على القائد الذي لم تجلس في كرسيه، فاجابته قائلة : لا يستحق القيادة في نظار باليمن غير الذي يقبض على الرهبان الثلاثة الذين غمطوا نعمة ملكهم واستخفوا به .

وملأت الخيلاء بردتي الملك فقال : هذه هي ارادتنا التي لا ترد فالعلي ما تقوله بلقيس ولا ترد :

ــ ولكني مقيم بمأرب ولا جنود لي .

ــ واذا امرنا اهل اليمن كلهم بان يكونوا جنوداً لك .

ــ استعين عندئذ بالآلهة واجعل اهل اليمن رسلا لي حتى اظفر .

ــ اذن سنرسل الى عمالنا بان يطيعوك كما يطيعون الملك ارضيت الان .

ــ اني لراض يا مولاي وانا اعاهدك على الاخلاص حتى اجعل جميع اعدائك عبيداً أذلاء واجعل رقابهم موطئاً لقدميك .

فقالت بلقيس : ولكني اخشى امراً واحداً لا اجسر على ذكره !

ــ بل تقولينه الساعة .. ما هو ؟

ــ سيقولون لك يا مولاي ان ذا مغار يجمع الجنود ..

ــ ثم ماذا ؟

ــ وانه سيزحف بجنوده الى مأرب ليخلع مليكه عن العرش .

قال : أيظهر في اليمن وتار ذمر آخر يقول هذا ؟

ــ اجل يا مولاي وقد يصدق الملك هذا القول فيقيل قائده ! .

ــ اما الملك فلا يصدق شيئاً بعد الان ، ولكن لماذا يجمع ذو مغار الجنود وليس في اليمن حرب ؟

ــ لانه سيعلم ان خونة البلاط لجأوا الى احد الامراء وان هذا الامير الذي جعلهم جيرانا له لا يسلمهم الا بقوة السيف .

فقال ذو مغار : أصابت الاميرة يا مولاي فسأضطر عندئذ الى دعوة قومي ومن يجاورهم من الانصار ثم اغزو أعداءك بالجيوش كما يغزو الملك الحبشة .

قال : لك ان تفعل ذلك بأمر الملك .

ــ ولا تسمع للواشين يا مولاي ؟

ــ لا نسمع لاحد فقد وعدناك .. متى ترحل ؟

ــ عندما يأمرني مولاي بالرحيل .

ــ سيرجع الليلة معدي كرب من طوافه وسيقص علينا ما حدث له في مأرب ثم نأمرك بعد ذلك بالرجوع الى قومك .

ــ وتأذن لي يا مولاي في ان اقتل واهدم واشعل النار ؟

ــ نأذن لك في كل شيء .

فسجد الامير الداهية ، وهو يبتسم ابتسامة الحقـــد ، ثم قبل رداء الملك ثلاثاً وجعل يقول : اذا طـــال الزمان ولم يرد على الملك خبر من مغار فمعنى ذلك اني اطوف في الاقاليم مستخفياً عن العيون .!

ــ وهل تبتلع الارض الخونة حتى يطول هذا الزمان ؟

ــ لا اعلم شيئاً ولكني استأذنك قبل ان أنصرف .

قال : ليمر الزمان كله على ان تقود الثلاثة الى مأرب ليراهم القوم قبل ان تعلق جثثهم فوق السور .

ــ سيتم كل ذلك يا مولاي او اخسر القيادة .

فضحك قائلا : القيادة في يد بلقيس تهبها لمن تشاء . !

ورجعوا الى القاعة والحبيب يحادث حبيبته بامر الرحيل الى الحجاز .

وكانت تقول : ان يوم الرحيل قد قرب .!

ثم جعل يقرأ لوعتها في عينيها .. او يهتز لابتسامات الحب البادية على شفتيها حتى سكر ، وارتسمت على وجهه دلائل السكر .

فخافت ، ولكن خوفها لم يطل لانه قام فخرج ، وهو يفكر في حملهـــا الى الملاط بقوة الرجال .. ثم يضعف ، فتنتصر عاطفة غرامه على وحشيته ، ويؤثر الصبر على التعجل في الامر .

فلما انصرف ، قالت بلقيس للاميرين : لو خيروا هذا المغرور بـــين عرشه

وبلقيس لاختارها وترك العرش لمن يطمع فيه ... انه الان في يدي وقد خسر كل شيء .

واجتمع في ظلام الليل ، في قصر شرحبيل ، اعضاء الشورى .. بينهم ناشر وعتيك وذو تبع سكان السراديب .. ووضعو بالاجماع منهاجهم الاخير ، وقد تهيأوا للسفر الى مغار يوم يجيء الغوث بن راهط وجبار بن دوير .

وقد خلا الجو للحبيبين فباحا بكل ما في الصدرين ... وانشدا جميع اناشيد الحب ..

* * *

٧٧

رجع معدي كرب عند المساء وهو يتعثر بخيبته .

فقال له الملك : ماذا صنعت ؟

ــ قضيت نهاري كله في اكواخ مأرب وقصورها وكأني لم افعل شيئاً .

فتجلد قائلا : وهل تظن انهم خرجوا من مأرب في الليل الماضي ؟

ــ هذا ما يخطر لي يا مولاي

ــ الم تسأل حِراس السور عن ذلك ؟

ــ لم ير الحراس احداً يا مولاي .

ــ اذن فهم في مأرب وقد كنت جباناً في البحث .

قال : لقد ضجت مأرب كلها لهول ما رأت من جنود الملك ، ومــع ذلك فأنا واثق بانهم تركوها الى بلد آخر .

ــ وكيف يخرجون والحراس بالباب ؟

ــ يستعينون بالحبال ويخرجون من موضع آخر لا تراه العيون .

قال : يخيل الى الملك انك تخفي ما تعلم .

ـــ لو وقعت عيني على احدهم يا مولاي لشربت دمه قبل ان احمله اليك ،

فهز رأسه قائلا : ولكن هذه العين لم تقع على شيء . وسيجيء عبد شمس بعد ايام ويضون لملك ما تقوله انت فلا يبقى الا ان تنصرفا من البلاط وتعيشا في الجبال حتى لا يرى الملك في قصره وجه خائن او وجه جبان !

قال : اقسم برأس مولاي اني اقذف بنفسي من احدى شرفات هذا القصر اذا كان واحد من الثلاثة في مأرب .

قال : كنا هممنا بان نجعلك قائماً مقام الملك في قيادة الجيش . اما الان فليكن سواك وسنختار ذا مغار هذه القيادة !.

ـ أتحرمني نعمتك يا مولاي ؟

ـ اجل ، فالرجل الذي لا يستطيع ان يقبض وهو في مأرب ، على ثلاثة رجال ، لا يستطيع ان يتولى قيادة الصفوف في الميادين .

ـ ارسلني الى الاقاليم يا مولاي فهؤلاء الرجال ليسوا في مأرب كما ذكرت

ـ لقد ارسلنا سواك وسيعود كما عدت .. اخرج الان ولا تدخل هذه القاعة الا اذا دعوناك . اخرج فلا خير فيك ولست اهلا لثقة مولاك ،

فحنى الامير رأسه وانصرف وكان يقول في نفسه : هنيئاً للامراء الذين لا يرون وجهك ايها الملك المجنون ! .

وانزوى في غرفته وهو يفكر في الخروج عن الطاعة .. ولكنه لم يكن يجسر على ان يبوح بسره لاحد من الناس .

* * *

٧٨

أرأيت كيف كان الملك يخسر رجاله الواحد بعد الاخر دون ان يكون في عمله شيء من حكمة الملوك ؟

أرأيت كيف نفر بقسوته اهل اليمن ، وحمل بعض المقربين اليه اعداء له ؟ ذلك هو القدر ، يشهر سيفه في وجوه الملوك وأصحاب السلطان ، ثم يدحرجهم بقوة وعنف عن العروش التي كانت تسندها الالهة .

كان طاغية عباثا بكل شيء ، ومستبدا وقحاً يستخف بكل شي . ، ومغروراً جاهلا يعتب الالهة التي لم تجعل اهل الارض كلهم عبيداً للذته .

بلى . كانت له صفة واحدة من صفات الرجال هي تلك الشجاعة التي جعلته في الصف الاول بين ملوك ذلك الزمان . ولولا هذه الصفة ، لكان حاشد ذلك النديم المغنية زينب تليه ، خيراً منه ، ومع ذلك فقد كان يريـــد ان تغضب اليمن كلها اذا غضب ، وتماشيه في هواه ، وتجاريه في كل خاطر يخطر له ، كما قرأت، فعل وثار ذمر وهو المخلص له ، وعفا عن الاعداء الخونة الذين يكيدون له ، ثم رأى ان ينهي جهله ، بتقريب ذي مغار وإغضاب معدي كرب وهو لا يعلم ان يد الدهر تمتد اليه من وراء الستار ، وان تلك الابتسامة الخلابة التي ابتسمها له الملك ، كانت ابتسامة النمر يكشر عن اسنانه .

* * *

٧٩

مرت ايام كان خلق الملك يزداد فيها سوءاً ، وغضبه يشتد على جميع من حوله حتى دب الذعر في قلوب اهل البلاط ، وتمنى الغلمان ان تفتح الارض فاهـــا وتغيبهم في الاعماق .

انهم لا يستطيعون ان يحتملوا جفاء ملكهم وعربدته القاسية .

أجل ، كان يجفو اذا صحـــا ، ويقسو اذا سكر ، وهو بين صحوه وسكره مستهين بطاش لا يبالي باشراف قومه ، ولا يعبأ الا بنفسه

ولم يكن يهتم الا لامرين ، امر غرامه وامر كبريائه ، فهو يريد بلقيس ليرضي

هواه ، ويريد ان يستسلم اليه الناس استسلاماً تاماً مطلقاً ليرضي عزته ، ولم يخطر له قط ، ان الزمان يدور وان الاقدار تستطيع ان تنزع تاجه وتعبث به كما يعبث باليمنيين . بل لم يخطر له ان الاشراف الذين يطرحون بسيوفهم عند قدميـه ، يهزأون به ويظهرون له ذلك الاخلاص الكاذب الذي يذر الرماد في عينيه . هو يثق من هذه الناحية ، ثم يشك من الناحية الاخرى ، في جميع الذين حوله ، كأن النقيضين يجتمعان في طباع الملك الحميري الذي ليس لاخلاقه الشاذة قياس ونظام ألم تر كيف يغضب ويرضى في لحظة واحدة ويجود ويمنع في ساعة واحدة ؟! انه مجنون ولم يخلق ليكون ملكاً .

• • •

دخل قصر شرحبيل ، في احدى الليالي ، جبار بن دوير والغوث بن راهط وهما متنكران ، كأنهما كانا يعلمان ان زيارة ذلك القصر ذنب لا يغتفره ابن ذي القرنين .

وقد كمل بوجودهما عدد الاشراف المتآمرين ، الذين تبادلوا الاسرار في ذلك الليل ، واقسموا بشرفهم ورؤوسهم ، انهم يبذلون مالهم ودمهم ، في سبيل خلع الملك ، وسهر الجميع حتى بزغ الفجر ، وقد درسوا كل شيء ، وتهيأوا لكل شيء وقبل ان يطلع الصبح ، خرج اميران يريدان البلاط ، وهما يبتسمان لتلك الحكاية الغريبة ، التي اوصتهـما بلقيس بأن يقصاها على حبيبها عمرو ... على انهما لم يقابلا ذلك الحبيب ، الا عندما غمرت أشعة الشمس ، أبراج القصر العظيم وقبابه وشرفاته ، وكان الملك في ذلك اليوم ، يداعب غلمانه ، ويبتسم لجواريه ، ولكنه تغير عندما اذن لهما في الدخول ، وعبس ذلك الوجه حتى لتستطيع أن تقرأ الغضب بين عينيه البراقتين .

يعيش مولانا الملك .

قالها الاميران وهما ساجدان ، عند قدميه !

فرأى المجنون ان يتدلل ، فقال : ايكما الغوث بن راهط ؟
ــ انا يا مولاي .
ــ وأنت ابن دوير امير بينون ؟
ــ نعم يا مولاي .
ــ انهضا ، فلك حمير وحده لا يعرف أشراف بلاده !
فأجابه الغوث قائلا : ألم ير مولانا الملك هذين ، قبل اليوم ؟
ــ رأيناهما ونحن نلعب مع الغلمان ... ثم انسانا اياهما مر الزمان ... الا تعترفان بهذا ؟
وكان يريد عندئذ ان يمثل الدور الذي مثله مع ذي مغار يوم مثل بين يديه .
فقال الغوث : كان ذلك يا مولاي وقد مضى الان .
قال: ويلك يا ابن راهك! يقتل ذو القرنين رجلين من بني سعد فتغضب ، وتقول للناس ان ذا القرنين انتهك حرمة براقش ؟
ــ أأقول ما يخطر لي يا مولاي وانا آمن ؟
ــ قل
ــ لقد كان جدك العظيم يستشير اصحاب المخاليف قبل ان يحكم بالموت على واحد من قومهم ولو كان صعلوكاً .
ــ ولكن ذا القرنين لم ير ان يفعل ذلك ، فماذا تصنع ؟ اتحمل لواء العصيان ولتنفخ في صدور القوم روح الثورة ؟
ــ ان الغوث لا يخرج عن طاعة مولاه .
ــ اذن تغضب لكرامتك وانت داخل الجدران !
ــ بل اكتفي بالعتب يا مولاي حتى يدعوني الملك اليه فيزول كل شيء .
ــ قل انه يدعوك ليظهر لك ندمه على مـــا فعل ! .. انكم معاشر الامراء ملوك في المخاليف وقد يقوم في اذهانكم ان ملك حمير يخافكم على عرشه ! اما والذي بسط سهول اليمن ورفع جبالها لئن خطر لاحدكم ان يرفع احدى اصابعه بدون اذن الملك لسلبناه مخلافه وحصدنا قومه بحد السيف !

فارتجفت شفتا الغوث وظل ساكتاً .

واستطرد الملك قائلا : ويلكم ، ايكون ملك حمير آلة في أيدي الاشراف لا يستطيع ان يقتل احدا الا اذا قالوا له ؟ انه اذن عبد لهم يمتثل عندما يأمرون ، ويعفو عندما يعفون ليس له في ذلك لا امر ولا رأي ؟ ! قل لنا الان ، أتنحب براقش الى السيف بعد ايام عندما يبلغها ان [illegible] ابن دي القرنـين قتل اميرها الغوث بن راهط ؟ .

فارخى الرجل نظره الى الارض ليخفي ذلك الشعاع الغريب الذي اتقد في عينيه ...

ولكن الملك لم يسكت، بل كان يقول: يخيل الينا انك لا تجسر على الجواب، فاسمع اذن ، ان الملك لا يطيق ان يخونه يمني ويسكت على هذه الخيـانة ، هو يجلد ويميت ، ويسفك الدماء ، عندما يشاء ، دون او يستشير في ذلك احد او يذكر ذلك لاحد ، أترضون بهذا يا اشراف اليمن ؟

فانتصرت حكمة الامير على عزته فقال : نرضى بكل مـا يفعله الملك ولكن اين هي الخيانة التي ذكرها مولاي ؟

ـ جعلناها لك مثلا لتصغي الى ما نقول : لقد خاننا وتار ذمر وهو اعظمكم شأناً فقتلناه ولم نبال بعشيرته وكهانه ! ثم خاننا ثلاثة من الامراء فهممنا بقتلهم لو لم يعمدوا الى الفرار اتريدون ان يدعو الملك عشائر هؤلاء الخونة فيقول لها : مري الملك بان يقتل الذين خانوه ؟.

ـ يخونون الملك ؟ من هم يا مولاي ؟

ـ اصحاب ظفار ونحلة وهمدان !

فنظر الغوث الى جبار . . كأنه يقول له : لقد اتت الساعة فاذكر وصية بلقيس

فقال جبار مستغرباً : ناشر وعتيك وذو تبع ؟

ـ اجل ، هؤلاء هم الانذال الذين ملأوا قصورهم اموالا من فضل الملك .

ـ وتقول يا مولاي انهم لجأوا الى الفرار ؟

ـ اجل فقد خرجوا من البلاط يسترهم الظلام ومزّقنا اليمن جنوداً فلم نجد

لهم اثراً ! فانتفض جبار قائلا : ويل للكذبة ... لقد رأيناهم يا مولاي !
ـــ ماذا ! رأيتما ناشراً ورفيقيه ؟
ـــ نعم وقضينا معهم ليلة واحدة بالقرب من حصن نشق ! فاكفهر جبينه وجعل يقول : فروا .. وابتعدوا عن مأرب .. وسليجأون الى الجبال والاودية بعد القصور .. ولكن سيف الملك سيوضع على رؤوسهم ولو لجأوا الى السماء.. ومن كان معهم من اليمنيين ؟
ـــ عبد واحد يقود بغلا وليس معهم افراس !
ـــ سيطوفون في جميع المخاليف يا مولاي ليجمعوا الخراج للملك ! فأطرق ملياً ثم قال : يقولون ذلك ليخفوا امر الفرار .
ـــ نعم يا مولاي ولو عرفنا انهم خونة لضربنا اعناقهم في ذلك الليل .
قال : اتريدان ان ينسى الملك الماضي ويغفر لكما ؟
فقال الغوث : ونطلب غير ذلك .
ـــ اذن فالملك لا ينسى شيئاً الا اذا قبضتما على هؤلاء ، فابتسم ابتسامةالوثوق بنفسه واخذ يقول :
الا يأمرنا الملك الا بهذا ؟
ـــ لا ، فهذا يكفي، وقد اعددنا لكل منكما خير ما نعده لرجالنا الاوفياء، ستصبح انت يا ابن راهط قائد الجيش اليمني ... ويصبح جبـــار وزير الملك وصاحب الرأي الاول في بلاطه ... ولكن لا تذكرا لذي مغار كلمة مما تسمعان الان ، فقد وعدناه بالقيادة ، ونحن نخشى ـــ اذا عرف شيئاً من هذا ان يمهد للثلاثة سبيل الفرار !
فتظاهر الاثنان بالتفكير .. ثم قال الغوث :
الا تظن يا مولاي انهم سيجدون بين اصحاب المخاليف واحداً يفتـــح لهم ابواب قصره وينزلهم على السعة والرحب ؟
ـــ بلى،ولكنه عندما يعلم ان الملك يلج في طلبهم يغلق تلك الابواب ويطردهم كما يطرد عدوه .

ـــ واذا لم يفعل مولاي ؟

ـــ تشهران في وجهه السيف ، وتخوضان غمرات الحرب .

ـــ اذن اسألك يا مولاي ان تكتب لنا عهداً اننا نستطيع باسمك ان نجمع الجنود وندفعها الى الميادين .

قال : نفعل ذلك في هذه الساعة ... يا غلام ، ادع معدي كرب ، فلما اقبل قال له : اجلس فقد رضينا عنك الان ... فجلس وهو لا يقول كلمة ، وقد عد رضى الملك ، على هذه الصورة ، جرحاً فوق جرح ، ثم قال الملك : كان الثلاثة في نشق يا معدي كرب .

قال : وهذا هو سبب رضاك يا مولاي ؟

ـــ اجل فقد عرفنا انك لم تكن مخطئاً فيما فعلت ، ولكن اكتب : « هذا عهد تبع عمرو بن ذي القرنين ملك سبا وحضرموت وريدان للغوث بن راهط ، وجبار بن دوير ، انهما يستطيعان ان يجمعا الجيش من اليمن كلها باسم الملك ويبعثا به الى الميادين ... » والتفت الى الغوث قائلا : وهل تطلب شيئاً بعد ؟

ـــ لا يا مولاي ، بل اعدك منذ الان اني ساظفر باعدائك او أموت .

قال : اعرفت يا معدي كرب غاية الملك من هذا العهد ؟ فاحس الرجل ان ذلك العهد شرك لملكه .. ولكنه لم يشأ ان يبدي رأيه فيه ، لان نار الحقد كانت تلتهم احشاءه .. فقال :

نعم يا مولاى فقد اطلقت ايدي الاميرين ليقبضا على الخونة ثم قال : ألم اقل لك يا مولاي انهم خرجوا من مأرب .

ـــ وهل تريد ان يقول لك الملك انك كنت على صواب ؟ لقد انتهينا من هذا الآن فلننظر من جديد فيما نصنع ، ان اربعه من الامراء يطلبون ناشراً ومن معه فكونا ايهـا الاميران اسبقهم جميعاً لتصبحا احب الناس الى الملك ... متى ترحلان عن مأرب ؟

ـــ بعد يومين يا مولاي .

ـــ اعطهما يا معدي كرب فرسين من افراس الملك ورمحين من رماحه ،

فاثنى الاثنان وشكراً ... ثم قال : ولكن لا تنسيا أن تخبرا الملك كل ما يحدث لكما ...

قال : من هم الاربعة الذين يطلبون القوم ؟.

ــ انت وجبار ، وذو مغار وعبد شمس .

ــ واين هو عبد شمس اليوم يا مولاي ؟

ـ لا نعلم اين هو الان فقد يكون في ظفار بل قد يكون في براقش . سيطوف الاقاليم كلها ولا يرى احداً .

قال : اسبقاه ، واذكرا القيادة والوزارة ... وطابت نفس الملك ، فقد ايقن بأنه سيظفر باعدائه ويصفو له الزمان ، ثم ذكر كلمة بلقيس ، فقال : العرفان شرحبيل بن عمر ؟

ــ اعرفه انا ولا يعرفه جبار .

قال : اذهبا الى قصره الساعة وخبرا ابنته بلقيس ما امركما به الملك وقولا لها : « سيكون لك يد في تعذيب المجرمين . »

قال : سنفعل ، وسنرحل دون ان نرجع الى البلاط ، وحني رأسه ليقبل يده وهو يقول : ليثق الملك باخلاص عبده الغوث الى الابد ، وفعل جبار كمافعل، والملك يبتسم لهما ، ويشيعهما بنظرات الرضى ، ولكنه ، عندما جاوز الرواق ، انثنى الى معدي كرب وهو يضحك كما يضحك السكارى قائلا له : لقد انصرفا وهما يحلمان بقيادة الجيش ووزارة الملك ، ولا يعلمان ان ملكهما يعبث بهما كما عبث بذي مغار ، فقال معدي كرب في نفسه : سنرى ايها الملك مظاهر طاعة واخلاص يا مولاي .

ــ اجل ، وكانت مظاهر الملك مظاهر عطف ورضى كما رأيت ، ولكن القيادة لن تكون للغوث ، والوزارة لن تكون لجبار .

ــ اري ان احدهما ستكون لعبد شمس .

ــ وتكون الاخرى لك اذا عرفت ان تخدم مولاك .

ــ أرأيت يا مولاي اني لم اكن مخلصاً للعرش في كل ما فعلت ؟

ــ لا ، فقد زال الريب الذي دب في الصدر الان فليفعل الامراء ما امرناهم به وسننظر بعد ذلك في امر القيادة التي هي امنية الجميع ، ثم حول وجهه عنه ذاهباً الى تلك الحجرات ليلهو بما فيها عن شؤون الملك ، وينسى ولو بضع ساعات ، ذلك الغرام الذي تزداد ناره ضراماً وسعيراً .

* * *

•

اتعرف يا نائل باب السرداب الذي تحجبه صخور الوادي ؟

ــ نعم يا مولاتي .

ــ اذن تذهب وحدك وتقف بالقرب منه من الصباح حتى يبزغ فجر اليوم الثاني

ــ وماذا تصنع ؟

ــ تراقب الوادي بحذر فنحن نخشى ان يجعل الملك ذئاب الغاب ، جواسيس له .

ــ وبعد ذلك ؟

ــ يكون رعين عند الباب من الداخل فتقول له : « ليخرج الامراء فليس في هذا الوادي كائن حي . . » افهمت الان ؟

ــ اجل ، وسأنصرف قبل ان يطلع الصباح ، فانثنت توصي غلمانها بما أرادت ان تفعله ثم رجعت الى تلك القاعة المظلمة التي جلس فيها المتآمرون قائلة : تهيأوا للخروج غداً عند الفجر فقد اعد كل شيء ، فقال ذو تبع واللوعة في عينيه : وانت يا بلقيس ؟

ــ اما نحن فسنلحق بكم بعد ثلاثة ايام .

ــ ولكننا نخاف ان يتصدى لك الملك في الساعة الاخيرة ويمنعك عن الذهاب

ــ لقد عرفت وعرف جميع الامراء ان الملك اعجز عن ان يملي ارادته . .

قلت اننا سنرحل بعد ثلاثة ايام وسيتم الامر كما قلت .

قال : أما انا فسأبقى ريثما تغادرون هذا القصر !

ــ بل تخرجون جميعكم من السرداب عند بزوغ الفجر ، ثم تركبون البغال التي ترونها في الوادي وتسيرون اثنين اثنين دون ان تترددوا في الامر ، فقال الغوث لقد أراد امير همدان ان يكون حارساً للاميرة ...

ــ قل ان بلقيس ستحرس اليمن كلها وهذا يكفي ... فـأطاع المتآمرون ملكتهم . وقضوا ذلك الليل والليل الثاني يتهيأون للرحيل حتى اتت ساعته ، فأقبل رعين يقول كلمته فنهضوا جميعاً يخفون سلاحهم تحت الثياب ، ومشوا في ذلك السرداب الطويل حتى انتهـوا الى الوادي ففعلوا مـا امرتهم به ، وهم متنكرون بلباس تجار اليمامة وتجار الحجاز ، ولم تطلع الشمس حتى اصبحوا وراء الجبل الذي يحجبهم عن عيون اهل مأرب .

أما بلقيس فأوفدت نعمى الى البلاط تقول لابن ذي القرنين :

ان مولاتي سترحل الى مكة عند المساء اذا اراد الملك ..

فاضطرب العاشق . وتناول سوطه ، ووثب كالمجنون الى الخـارج قاصداً قصر سرحبيل .

•كان الناس يرونه سائراً فيحنون الرؤوس له وهو لا يبصر احداً !... حتى دخل القصر ، فرأى بلقيس تبكي في قاعة الجلوس ، ورأى اباها واضعاً وجهه بين يديه كاليـائس يستسلم الى كآبته !! فلما أقبل ، تراجعت بلقيس الى الوراء وهي تغتصب الابتسامات .. وصاح شرحبيل قائلا بدهشة : مولانا الملك ؟!

فقال وقد خدعته من جديد ، مظاهر حبيبته : أجل ، لقد جاء مولاك الملك يسأل بلقيس عن ساعـة الرحيل ! فرددت بلقيس كلمته كما يرددها الصدى ، وظلت ترددها وهي ذاهلة حتى خنقها الدمع ! فحملت اجنحة الحب ذلك الفتى المفتون الى الاعالي وجعل يقول :

ايعجز ملك حمير عن منع هذا الرحيل وهو الذي يجود بما يشاء ، ويمنع مـا يشاء عندما يخطر له ؟؟

ـ بـل هو يعجز عن ان يخمد النار التي تحرق بلقيس !! قلت لك يا مولاي اني لا اطيق البقاء في مأرب ، في هذا العام ، ولا اريد .. نعم لا اريد ان يصدر الملك امره بهذا البقاء ، خوفاً من ان يقتل الفتاة التي احب !

ـ ولكن نراك تبكين .

ـ وكيف لا ابكي يا مولاي وقد صفعتني وصية ذي القرنين هذه الصفعـة الدامية واكرهتني على ترك مأرب عاماً كاملا لا ابصر فيه وجه الحبيب !

ـ اذن فابقي واستعيني بالصبر كما يستعين الملك به .

ـ ولكن نسيت يا مولاي ان هنالك نـذراً تعجلت فيه ، وغراماً لا يعرف الصبر وانا قريبة من البلاط ، بل يعرفه وانا بعيدة عنه .

فقال في نفسه : لم ار زماني كله حباً يشبه هذا الحب !

ثم قال : لم يبق الا ان يسكت الملك ولو قتله سكوته .

ـ لا تذكر القتل يا مولاي فأنا لم اهم بالرحيل الا بعد ان رأيت امراء المخاليف يخضعون لك ويلقون بسلاحهم عند قدميك ، ولمعت عاطفتها بعينيها حتى تردد البكاء في صدر الملك وتمتم قائلا :

ارحلي ايتها الحبيبة ، فيجب ان يشقى الملك لتهنأ بلقيس ، ويتعذب ليصفو لها العيش .. ان العرش لا خير فيه ، في نظر الملك ، ان لم يكن لك ، في هـذه الحياة ، ما ترغبين فيه .

ـ بل يهنأ مولاي بما في بلاطه من وسائل الهناء ، فعرف انها تعني نساء هذا البلاط ، فقال : ليس في بلاطنا من يستطيع ان ينسينا ساعة واحدة ، جمال هذا الوجه ، وعذوبة هذه الالفاظ ... فغيرت الحديث قائلة : سنرحل عنـد المساء يا مولاي . ـ نؤثر ان يكون هذا الرحيل في الصباح .

ـ لا يا مولاي فشرحبيل وولداه لا يريدون ان تعلم مأرب بامر هذا الرحيل

ـ لماذا ؟

ـ خوفاً من ان تظن مأرب الظنون ، وتكثر الاقاويل .

ـ نراك شديدة الحذر يا بلقيس !

– وهل تريد يا مولاي ان يتحدث الناس بغرام الملك ويجعله اهل مأرب مضغة في الافواه ؟

فسكت قليلا ثم قال : ومن يجسر على هذا ؟

– لا يتحدثون به في الاسواق ، بل يتهـــامسون وراء الجدران ، والملك بغنى عن ذلك الان .

– ومتى نرسل اليك الغلامين اللذين وعدنا بهما ؟

– ليبقيا في البلاط الان فنحن لا نحتـــاج في سفرنا الا الى عبدين من عبيد القصر .

– بل نبعث بهما بعد ساعة لان الملك يريد ان يكثر الغلمان ، في مكة ، حول ملكة اليمن . وسنعود نحن الى هذا القصر قبل غروب الشمس .

ولم ينتظر جوابا بل خرج والسوط في يده ، وعلى وجهه كآبة العاشق ، وتردد العاجز الضعيف .

* * *

٨١

بسط الليل جناحيه ، فنشرت السكينة ظلها فوق مأرب ، وكـــان الملك في قصر شرحبيل ، وقد قدمه قبل ان يجن الظلام ، فلمـــا خرج اصحاب القصر ، مشى الملك معهم في طريق الحجاز ، ليقوم بواجب التوديـــع والغلامان اللذان اهداهما الى بلقيس يتقدمان القوم ، حتى جاوز المدينة وامسوا في الخلاء .

فقالت بلقيس : استحلف الملك ، بهذا الحب الذي يربط القلبين ، ان يرجع الان . فوقف قائلا : لقد اسودت مأرب يا بلقيس .

– ستبتسم بعد انقضاء العام .. ثم هامسته قائلة :

اذكر بلقيس يا مولاي ولا تنس هذا الحب .

ــ بل اذكر انك ستكونين لي الى الابد .

ــ واتربع في العرش بالقرب منك .

ــ اجل فالعرش للاثنين ، عمرو وبلقيس .

ــ ولكني لا اطيق ان يكون لي شريك فيه .

قال : لا تجلس عليه انثى ، غير بلقيس بنت شرحبيل .

وكانت تعني شيئاً ، وهو يعني شيئاً آخر ، كما رأيت .

فلما قال كلمته الاخيرة ، همزت فرسها قائلة : الى اللقاء ايها الحبيب .

فوقف ينظر اليها وعيناه تخترقان الظلام . ثم بات يسمع وقع حوافر الخيل وقلبه يخفق . ولم يلبث حتى انثنى راجعاً وهو يقول : ان في البلاط طائفة من الحسان ، فلنعالج هذا الغرام ريثما تعود الملكة .

وهذه اطيب ذكرى يحملها في قلبه الملك المجنون ! .

* * *

٨٢

مضى من الليل نصفه . فجعلت بلقيس تهامس اباها واخاها . ثم امرت القوم بالوقوف . وبعد ساعة .. اجل بعد ساعة واحدة ، كان غلاما الملك قد قتلا ، ودفنا وراء احد الصخور . ثم تحولت طريق الحجاز الى طريق مغار . ! فاصبح الشمال جنوباً ، بفضل ذلك التدبير الذي اعدته بلقيس من قبل .

ولم تمر الايام القليلة حتى كان القوم جميعهم في ذلك المخلاف البعيد عن مأرب وكان الناظر الى بلقيس يحسبها غلاماً امرد من غلمان الشام .

اما صاحب همدان فكان قد برح به الهوى ، فاقبل في احدى الليالي ، يسأل

تلك الحبيبة الطامعة ، ان ترضى بالزواج، ثم تخوض بعد ذلك غمار الحرب وتثب الى العرش وهي اميرة همدان ، فقالت له : لقد اقسمت ايها الحبيب اني لا اتزوج الا وانا ملكه .

ـ ولكننا لم نخط بعد الخطوة الاولى في سبيل هذا الملك .

ـ لقد قربت الايام كما ترى فلا تعجل في الزواج .

ـ واذا خاننا الحظ يا بلقيس ؟

ـ امامنا واحد من امرين يا ذا تبع ، اما ان نظفر فيستقيم لنا الامر كما نشاء واما ان نفشل فنموت ونحن مجتمعان في الحالين .

ثم قالت : اتريد يا ذا تبع ان تزف اليك بلقيس اليــوم ، والامراء يتهيأون للقتال وعشائر اليمن تحمل السيوف لتجلسها او تجلس اباها على العرش الحميري؟ افلا تستطيع وانت احب الناس الى بلقيس ، ان تصبر كما يصبر الملك المستهتر المجنون الذي تخضع له نساء اليمن ورجالها كما يخضعون للآلهة ؟ ان الملك يقدر اذن ، على رغم استهتاره ، ان يغلب غرامه ، اما انت فلا تبالي الا بهذا الغرام ، تغذيه وتجاريه ، ولو خسرت بلقيس التي احبتها تاج الملك ! .

فحاول ان يجيب فاسكتته قائلة : اعلم ايها الحبيب ان الحب الذي ينمو في صدرك ينمو مثله في صدر بلقيس ولا تستطيع العروش وقوى الملوك ان تنتزعه منه . ولكن .. ولكن شريعة القدر ، شريعة جــائرة لا ترحم احداً فخير لي ولك ان نخطو الخطوة الاخيرة في سبيل المجد وليفعل القدر بعد ذلــك ما يطيب له ... نعم ايها الحبيب ، لم يبق الا ان اثب كما يثب الليث، فاعصب رأسي بتاج اجدادي او اموت .

فنسي ذو تبع غرامه ولوعته واجابها قائلا : سيرفعك سيف امير همدان الى العرش الذي تطمعين فيه .

قالت : انه سيف الحبيب الذي سأعيش العمر كله وفية له . وكانت في سرها تلعن المطامع والعروش التي تبعدها عمن تهواه .

ثم اقسم الاثنان ، قبل ان ينصرفا الى القاعة التي يجتمع فيها الامراء ، انهما لا

يذكران الزواج ، الا بعد ان يصبح بلاط عمرو بن ذي القرنـين ، ملكاً لآل شرحبيل بن يعفر .

ولم تشأ بلقيس ، ان تكتم رجالها الاسرار ، فخبرتهم كل شيء ، وقصت عليهم الحديث كما جرى بينها وبين الهمداني لم تنقص منه كلمة . وقد وافقها الجميع في الامر وآثروا قضية العرش على قضية الزواج .

• • •

٨٣

طالت الاقامة بمغار حتى كاد العام ينقضي وجيوش المتآمرين لم تنقل الى مأرب قدماً ، ولم يسمع لها صوت !

انه لم يكن من السهل على الامراء ان يجمعوا الجيوش ، بعد ان تفرقت ، في بضعة اشهر ، فللعشائر مواسم وحاجات لا يريدون ان يحرموها اياها ، وغلال يجب ان تحفظ في المخاليف قبل ان تخرج الرجال الى الحرب .. ومن يعلم ، فقد تمر سنة كاملة والجيش في الميدان ، فيجوع الشيوخ والنساء ، ويكتنفهم الضيق الذي يرافق الحروب .

أجل ، لم يشأ المتآمرون ، ولم ترد بلقيس ، ان تزحف الرجال الى مأرب ، قبل ان تضمن الراحة للمرأة ، والشيخ ، والضعيف.

وهذا لا يتم الا في خلال عامين .

وكانت تقول : خير لنا ان نصبر عامين ، من ان نندم على ما نفعل بعد شهر ولكن ، ماذا يصنع الملك ، وكيف يهدأ غرامه ؟

لقد مر العام ، وبلقيس لم تعد ؛ وليس في مأرب رجل يحمل اليه أخبار الحجاز . حتى ان الغوث ، وجباراً ، وذا مغار ، منعوه اخبارهم !

بلى ، كان عبـــد شمس قد رجع وهو يجر اذيال خيبته ، ولم يسلم من ذلك الغضب الناري الذي ينزله الملك بجميع المقربين اليه .

ولكن هذه الخيبة لم تكن كاملة ... فقد خدمه الحظ بجعل ذرعة بن حبـــاة اميراً لظفار ، وذرعة من رجال ناشر كما علمت .

فكأن عبد شمس ، في هذا الاستبدال ، يستجير من الرمضاء بالنار .. اي انه استطاع ، بعد تطوافه في اليمن ، اثني عشر شهراً ، ان يستبدل عدواً فاراً من وجه الملك ، بعدو مقيم !! وهذا هو الظفر الذي يرغب فيه ابن ذي القرنين ...

وكانت الايام تمر ، والملك لا يسمع خبراً ، حتى ضاق صدره ، وعادالريب القاتل المضنى الى ذلك الصدر .

ومعـــدي كرب وعبد شمس لا يجسران على النظر اليه ، بل لا يجسران على المثول بين يديه ، الا اذا امرهما بذلك .

فبينا هو ، في صباح يوم ، يروح ويجيء في رواقه ، والهموم تملأ نفسه ،أقبل حاجبه يقول له : ان نائلا غلام عمك شرحبيل يستأذن عليك ، فبرقت عيناه .. ومشى بخطى مضطربة الى قاعة الجلوس وهو يقول :

ليأت نائل فهو رسول خير ، فدخل نائل وجثا عند قدميه ، ففاجأه بقوله :

هات يا نائل ، انك غلام بلقيس أليس كذلك ؟

ــ نعم يا مولاي .

ــ وما وراءك ؟

فناوله الغلام رسالة صغيرة جاء فيها :

« مولاي الملك ... ان غلامي نائلا يمثل بين يديك وينقل اليك كل شيء »

وليس في الرسالة توقيع .

فقال : ويلك من هو صاحب الرسالة ... اشرحبيل ام ابنته ؟

ــ مولاتي بلقيس !

ــ واين هي بلقيس الان ؟

ــ لا اعلم يا مولاي ، فقد اقبل عبدها امس يحمل هذه الرسالة ويـــأمرني

باسمها بان اقص على الملك بعض الاخبار :
ـ ولم يقل لك العبد اين هي مولاته ؟
ـ لا يا مولاي لم يقل شيئاً من هذا ، وعندما هممت بان اسأله ، خرج من فناء القصر كما يخرج اللص الخائف وحجبه الظلام عن عيني .
ودخل ، في تلك اللحظة سرح ابين كاهن مأرب .
فمد الملك اليه يده قائلا :
اجلس ايها الكاهن واصغ الى حديث هذا الغلام فقد تعلم من الاسرار اكثر مما يعلمه الملك ... قل يا ناثل ، ماذا خبرك عبد السوء ؟
ـ لقد رجع مولاي شرحبيل وولداه من الحجاز ! ولكن مولاتي بلقيس لا تفكر في الاقامة بمأرب الا بعد ان تدفع اليك أعداء العرش !
فجعل يضرب مقعده بسوطه ويقول : من قال لبلقيس ان الملك يرضى بان تطوف هي في اليمن لاجل هذه الغاية ؟
فسكت الغلام ولم يجب .
ثم قال الملك : ألم تعلم بلقيس ان قواد الجيش عجزوا عن هذا ؟
فقال سرح ابين : ولكنه اخلاص لا يظهر مثله القواد الذين ذكرهم الملك . لقد ارادت بلقيس يا مولاي ان تدخل قصرها والملك ناعم البال ، ثم تزف اليه واليمن كلها خاضعة له ، واعداؤه مستسلمون .
ـ على ان في ذلك عاراً على ملك حمير .
ـ وما هو وجه العار يا مولاي ؟ الم يكن شرحبيل بن عمرو وفياً لعرشك ؟
ـ بلى .
ـ اذن هو لا يريد ان يجعل ابنته ملكة قبل ان يثبت لمولاه من جديـــد امر هذا الوفاء .
ـ ولكن الملك لا يحتاج الى وفائه ولا يفكر فيه ، لترجع بلقيس الى مأرب وهذا يكفي . . وقال لناثل: قل لنا ايها الغلام ، أتؤثر الحياة على الموت ام ماذا؟
ـ الحياة يا مولاي فانا لا ارغب في الموت اليوم . وارتسم الذعر على جبينه.

فقال : وكيف تسلم هذه الحياة اذا لم يبق عليها الملك .

ـ وهل يقتل مولاي غلام زوجته ؟

ـ نقتله اذا خطر له ان يخدع الملك ، بالامر الذي نعهد اليه فيه !

ـ مر يا مولاي .

ـ تخرج الان وتترك قصر مولاك . ثم تطير في فضاء اليمن كما يطير الجنّي حتى تعرف مقر بلقيس .

ـ ولكني لست من الجن يا مولاي !

ـ كن جنياً فالملك يريد ذلك ! اجل ، قد يخطر لك الان انك ستنجو من ملكك بان تجعل جوف الارض ملجأ لك ، فوتربة ذي القرنــين لئن خطر لك هذا لنحفرن الارض كلها حتى ننتقم منك .

ـ اذن يأذن لي الملك في ان اضيع بضعة اشهر لابلغ الغاية .

ـ امهلناك شهرين اثنين ليس غير

ـ اجعلهما ثلاثة يا مولاي .

قال : ما هو رأيك ايها الكاهن ؟

ـ الامر صعب يا مولاي فليجد الملك بشهر آخر .

قال : ليكن الاثنان ثلاثة فماذا ترى ؟

ـ ارى ان الموت ينتظرني في هذا البلاط ! سأكون جنياً يـــا مولاي بل سأكون عقاباً يطير من قطر الى قطر حتى ارى مولاتي بلقيس بعيني الاثنتين .. ولكن سأعود عندما يخيب رجائي ، الى مولاي الملك واضع عنقي على عتبة هذه القاعة قائلا له : اضرب يا مولاي فقد خانني الحظ ! .

ـ لقد رضينا الان فاحذر ان تقول لبلقيس كلمة مما سمعت .

وهم بان يأمره بالانصراف ، فقال الحاجب: رسول من الجنوب يا مولانا .

فقال : ماذا في الجنوب ؟ اعادت الحبشة الى الظهور على الشاطىء ؟ . ادخل يا غلام ، فدخل ، فقال الملك : انك يمني فمن ارسلك ؟

ـ عامل مولانا الملك .

ـ خذ يا سرح ابين رسالته واقرأ :

« الى تبع العظيم ملك سبا وحضرموت وريدان من عامله في جنوب اليمن : لقد ظهرت في البحر سفن الحبشة ثلاث مرات ثم اختفت، ولم تلبث حتى ظهرت اخيراً بالقرب من الساحل وهي باقية الى الان » .

فرمى السوط من يده وجعل يقول : انها طلائع حرب فثأر الحبشة لا يموت. اين معدي كرب وعبد شمس .

فحضر الاثنان ، فقال : ليبد كل منكما رأيه .. لقد استعادت الحبشة قواها وارسلت سفنها الى الشاطىء الجنوبي .

فأطرق الرجلان ،وكان معدي كرب يقول في نفسه : لو كان لك ايها الملك قائد جيش لما شاورت سواه .

فأدرك الملك معنى ذلك الاطراق ، فقال : اتضمن الظفر بالحبشان يـا عبد شمس اذا جعلناك قائد الجيش اليمني ؟

فخاف الامير ان يعده بالنصر ثم يمسي وعده فشلا وخيبة ، فقال :

احارب حتى اقتل يا مولاي .

ـ وانت يا معدي كرب ؟

ـ اضمنه يا مولاي وستنتهي الحرب اليوم كما انتهت بالامس .

قال : لو استطاع الملك ان يقود جيشه هذه المرة الى الميدان لهـان الامر ، ولكن شؤون الملك تقضي علينا بألا نترك البلاط .. اعد ما قلت .

ـ اعيد قولي اني اضمن النصر للملك .

ـ اذن فأنت قائد اليمن مذ الان وسنلبسك غداً طوق العاج الذي يضعـه الملك في عنقه ، في الميادين .. ولكن اضرب ايها القائد ولا ترحم فاذا فازت الحبشة اليوم تزعزعت اركان العرش غداً وضاع ملك حمير ؟

قال : لو كانت لنا سفن تحملنا الى بلاد النجاشي لانتزعنا تاجه !

ـ احسنت فقد وثقنا بك كما نثق بالآلهة .. اكتب الان ، الى ذي مغار ، والغوث بن راهـط ، وجبار بن دوير ، وذرعة بن جباة ، والى جميع اصحاب

المخاليف ، ومرهم باسم الملك بان يجمعوا الجيوش ويتهيأوا لخوض الغمرات .
ـــ سأفعل يا مولاي .
ـــ ادعهم الى مأرب فالملك يريد ان يرى بعينه اعلام قومه تخفق في الهواء .
ـــ لقد رأيت رأياً يا مولاي .
ـــ ما هو ؟
ـــ هو ان اتعجل في السفر ، مع عبد شمس ، والجيش المقيم بمأرب ، وبما يجاورها من الاقاليم ، ليعود الامل الى صدور اهل الجنوب .
ـــ ثم يلحق بك الامراء بعد ذلك ؟
ـــ نعم يا مولاي .
ـــ انه رأي لا يجد فيه الملك الا الخير .. أتستطيع ان تجمع من مأرب والاقاليم التي ذكرت عشرة الاف رجل ؟
ـــ بل اجد فيها اكثر من خمسة عشر الفاً .
ـــ اذن فافعل ما امرناك به ، ولا تنس ان تأمر الامراء بالمجيء الى مأرب ليراهم الملك قبل الذهاب الى الحرب .. اخرج الان ، وانصرف انت يا عبد شمس لتعد الجنود .. اما انت ايها الفتى ، فارجع من حيث جئت وقل لمولاك ان يثبت في وجه عدوه ريثما تصل جنود الملك .
فخرج الثلاثة ، فقال : أرأيت يا سرح أبين كيف يجور الزمان على الملوك؟
ـــ أين هو هذا الجور يا مولاي ؟
قال : يفر رجال البلاط من يد الملك ويتبع هذا الفرار احتجاب بلقيس ، ثم تهددنا الحبشة وتتوعد وتقول اين هو هذا الجور ؟؟ ان في صدر الملك من الهم ما لا يطيق حمله الجبل العظيم الذي ينطح رأسه السحاب !
فقال في نفسه : ذلك شأن الملك الضعيف الذي ليس له رأي .
ثم قال : ستظهر بلقيس بعد هذا الاحتجاب يا مولاي ويظهر معها رجال بلاطك الخونة ، ثم يسقط تهديد الحبشة في البحر وينتهي الامر .
وكأنه ندم على ما ظهر منه فقال : اجل سيتم الامر كما يريد الملك ولو حاربته

قوى الارض والسماء. .اذهب يا نائل ولا تتردد في امرك ... اما انت ايها الكاهن فاسأل الالهة ان تجود على جيوش الملك بالنصر .

وأومأ اليه بان يناوله سوطه ثم خرج على عادته الى ذلك الملهى الذي اعده له ابوه في القصر

* * *

٨٤

عندما يجن الظلام يا نائل .. أسمعت ؟

ـــ نعم يا مولاي .

وعندما جن الظلام ، كان نائل في قصر سرح ابين الكاهن الاعظم وقد كتب هذا الكاهن رسالة طويلة يحملها نائل الى بلقيس .

وهذه هي رسالته :

لقد ملأت سفن الحبشة بحر الجنوب . الملك يطلب جميع الامرّاء مع جيوشهم ليوجههم الى ساحة القتال.. معدي كرب وعبد شمس يسبقان الجيش بعد بضعه ايام .. ان الساعة التي تطلبها الاميرة قد اتت الان .

وبعد هذه السطور ، سطور اخرى كثيرة ، وصف بها سرح ابين حال الملك وهمه وحياته في البلاط ، فاخذها نائل ، ولكنه لم يذهب في ذلك ، بل استخفى في القصر حتى غادر معدي كرب وعبد شمس ارض مأرب ، فغادرها هو بدوره ذاهباً الى مغار .

وكانت جيوش المتآمرين ، تجتمع في سهل فسيح ، بين براقش ومغار ، تقوم فيه بعض الصخور السوداء ، كالتماثيل التي تهزأ بالاجيال ، وكان الجنود يقولون : دعينا للقضاء على اعداء الملك الذين لا نعلم من هم !

اما شرحبيل وولداه ، فلم يعلم غير الامراء ، ورجال قصر ذي مغار ، انهم يقيمون بذلك القصر ..

تنكروا حتى جهل المقربون امرهم . وقام في الاذهان انهم من اهل صرواح وقد جار عليهم الدهر ففتح لهم ذو مغار ابواب بيته !

اجل ، كانوا ضيوفاً غرباء ، غير ان الامر والنهي في ايدي هؤلاء الضيوف الغرباء ، لا ينقل جندي من صف الى صف الا باذن ذلك الغـلام الامرد ذي العينين الساحرتين ، والوجه الجذاب الفتان ...

وكانت بلقيس ، عندما قدم نائل ، تنتظر اخبار سرح ابين ، ذلك الرجل الكبير في مقامه ، والمقرب الى مليكه .

فلما قيل لها جاء نائل : التفتت الى ذي تبع قائلة له : يخيل الي ان اليوم الرهيب قد اقبل ، ونادت نائلا فتناولت رسالته وهي تكاد تفترسه افتراساً ثم افتر ثغرها وقالت لابيها : اقرأ يا مولاي وقل لامرائك ان ينفخوا في الابواق .

فقرأها شرحبيل ويداه ترتجفان ثم جعل يخاطب ملك حمير قائلا :

لقد جاء يومك يا ابن ذي القرنين !

وقبل ان يعقد مجلس الحرب ، في ذلك المساء ، اقبل رسول الملك ، يحمل اوامره وامر قائد الجيش معدي كرب ! الى اصحاب المخاليف ، فدعاه ذو مغار وقال له : الم يعطك الملك رسالتين تسلمهما الى صاحبي براقش وبينون ؟

ــ بلى يا مولاي .

ــ اعطني اياهما وقل لمولانا الملك ان الجيوش ستزحف الى مأرب ...

ــ ولكن الملك امرني بحمل الجواب .

ــ سيحمل هذا الجواب رسول من براقش .

ثم قال : ان الغوث وجباراً مقيمان بهذا القصر ، ادع الغوث ياغلام .

فلما حضر الغوث قال الرسول : لقد صدقت الان وهذه هي الرسائل .

وعرف الفتى ان مهمته قد انتهت ، فبات ليلته في القصر ، ثم تركه عنـــد

الصباح راجعاً الى مــأرب ، ولم يخطر له ان شرحبيل وبلقيس يقــيمان بذلك القصر نفسه .

* * *

٨٥

« اعترف بذنبي الان يا مولاي فقد اخطأت فيما فعلت ، ولكني لم أشأ الدخول الى مأرب كما قال لك نائل ، واعــداء الملك احرار .. اني اليوم في مغار . وقد قبض جندهــا على ناشر ورفيقيه الذين كانوا يجمعون الخراج باسم الملك ، في اطراف اليمن .!

لقد امنهم ابي يــا مولاي على ان يكون للملك رأيه فيهم عندمــا يدخلون البلاط ... قرأت اوامر مولاي التي ارسلها الى الامراء في هذه الاقاليم ، واني أرى الجيوش تجمع بسرعة لتكون في مأرب بعد شهر ومنها الى ساحة الحرب ، وكنت أؤثر يا مولاي ان يتوجه الجند الى القتال دون ان يذهب الى مأرب ولكن هي ارادة الملك الــتي تنفذ في الامة والجيش والتي تسكت عندهــا اراء القواد والمقربين فاهنأ يا مولاي بما وهب لك من عظمة وقوى وليمت عدوك ذليــلا عند قدميك »

هذا هو كتاب بلقيس الى حبيبها الملك .. وهو كتاب صريح يحمل معــاني الاستسلام ، والاخلاص والغرام .

وأوصت غلامها بما يجب ان يقول عندما يقابل ذلك الخبيب .

وقد رأت ان يكتب ابوها الى جابر بن مفروق وامير مذحج ، فــلم يوافقها الامراء في ذلك الرأي وكانوا يقولون :

الجيش كثير ونحن نضمن خلع الملك المجنون .

* * *

مشت الصفوف من مغار وهي تهتف للملك الحميري ، وقد كتموهـا السر الذي تزحف الى مأرب من اجله .

كانت واثقة بانها زاحفة بأمر الملك لتحارب الحبشة ، وان العداوة التي اوقد نارها ذو القرنين ، بينه وبين اشراف ذلك القطر ، قد زالت الان .

غير ان بلقيس لم تشأ ان يمعن الجيش في وثوقه ، خوفاً من ان تسوء العاقبة، عندما يطرد الملك من البلاط .

فدعت القواد ، عند حصن نشق قائلة لهم :

يجب ان يعرف الجيش كل شيء قبل ان نصل الى مأرب .

فطاف القواد بين الخيام يهامسون الرؤساء .. ثم جعل الرؤساء يهـامسون الجماعات ، حتى عرفت الصفوف كلها ان ميدان الحرب قد يكون في مـأرب وليس في الجنوب .

ولم يبق ، بعد ان احتاطت بلقيس للامر ، من كل نواحيـه ، الا ان تمشي الى غرضها على مهل ، مع جيشها الخاضع في ظاهره ، والثائر في داخله .

وكان نائل في ذلك اليوم ، قد دخل البلاط ، فاشرق جبين الملك وهو يقول له : لو لم تكن قد بلغت الغاية لما رجعت ، قل اين تركت بلقيس ؟

فقال : تركتها على رأس جيوش الملك التي دعاها الى الحرب !

ـ جيوش مغار وبراقش ؟

ـ نعم يا مولاي ، ومعها امراؤك الخونة الذين فروا من يدك .

فابتسم ابتسامة فيها العز والكبرياء ثم قال : وهل رأيتها انت .

ـ نعم وهذه هي رسالتها اليك •

فأخذ العاشق يقرأ وابتسامته تزداد ، والبشر يغمر وجهه حتى خيل الى نائل انه سيسقط على الارض من فرحه •

ثم تمتم قائلا : وامنهم شرحبيل ؟

ـ اجل يا مولاي ولكنه لم يفعل باسم الملك فلك يا مولاي ان تهدم هذا الامان اذا شئت •

قال : الويل لمن يخاطب الملك بأمر العفو عن هؤلاء ٠٠ أيفرون ثم يجمعون الخراج ليزعزعوا بيت المال ونعفو ؟؟ قتلتنا الالهة ان لم نقتلهم كما يقتل الخولة الاوغاد ٠٠٠ متى يصل الجيش يا نائل ؟

ــ بعد خمسة ايام يا مولاي

ــ ولكن رسولنا الى الاقاليم لم يذكر لنا كلمة عن هذا الجيش .

ــ وماذا يذكر لك يا مولاي وهو لا يعلم شيئاً عنه، ان مولاتي بلقيس ارادت ان تفاجىء الملك بالبشرى فمنعت ذا مغار من ان يكتب اليك !

قال : نراها تهتم لشؤون الملك ولا تبالي بما هنالك من شؤون الحب . فليس في هذه السطور ذكر للزواج !

فعجب الفتى لخفة هذا الملك يحادث الغلمان بامور غرامه فقال :

لقد امرتني بان انقل اليك ان هذا الزواج سيكون في هذا الشهر وهي لم ترد ان تصف شوقها على الرق .

ــ وكيف يتزوج الملك وقواده في الميادين ؟

ــ اذن يتزوج مولاي عندما ينقلون اليه اخبار الظفر .

ــ سننظر في هذا بعد رجوع بلقيس .

وقال لحاجبيه : ليحضر حاشد .

فلما جاء قال له : ان الملك سيطعم الناس بعد ستة ايـــام فتهيأ للامر وانقل الى غلمان البلاط .

وقال لنائل: لم يبق ما نقوله الساعة فانصرف الان وكن مع حاشد يوم يحضر الجيش .

فخرج الغلام اللعين وهو يخاطب نفسه :

سيكون البلاط في ذلك اليوم ايها الملك لشرحبيل ابن عمك !

* * *

٨٦

اختلف المؤرخون في ذكر الزمان الذي قضـــاه عمرو بن ذي القرنين على العرش هذا يقول عشرة اعوام ، وهذا يقول غير ذلـــك ، الامر الذي يدل على اختلاف مصادر المؤرخين .

لنفترض ان القوم اعدوا عدتهم ليخلعوا ملكهم عمراً ، بعــد ان طوى من سني الملك اعواماً عشرة .

ان الزمان بين جلوسه وخلعه ، لا نحدده ولا نعرض له فافترض ما شئت ، على ان لا تزيد السنين على العشر . هذا جيش المتآمرين.. اطل على مأرب يحجب الافق ، واهازيجه تملأ الفضاء ، وليس فيه من يهتف لغير الملك .

وكان عمرو ، على احدى الشرفات ، يسمع الاصوات القائلة : الى الحبشة ! وليمت النجاشي ! والزهو يرنح عمراً ، والخيلاء تملأ بردتيه . حتى دخل القواد وطائفة من الجيش ، من باب السور ، وبقيت طائفة اخرى وراءه كأنها تحاصر عاصمة الحميريين .

ودار الجيش في الداخل حول البلاط يجعله ضمن نطاق من السيوف والحراب ويمنع الناس من الدخول والخروج .

والملك لا ينظر الى كل هذا ، بل كان يرسل النظرات المضطربة الى الصفوف ليتبين بينها تلك الحبيبة الحسناء .

ولكن بلقيس كانت غلاماً .. ضائعاً بين الغلمان .. وقد استطاعت ان تقف لحظة عند باب القصر ، مع ابيها واولئك الانصار ، ثم اومأت الى الهدهاد ونائل بان يتبعاها ، وهمزت فرسها راجعة الى البيت الذي خرجت منه ..

غير ان نائلا لم يلبث حتى رجع الى البلاط ، ليحمل الى سيدته اخباره .

وكان الملك قد مل وتعب نظره .. فانثنى الى تلك القاعة الفسيحة التي يجلس

فيها لرعيته ، وسوطه في يده وهو يعبث به .

واقبل شرحبيل في مقدمة الاشراف ، ثم تبعه الغوث ، وجبار ، وذو معار وياسر وايديهم على السيوف ... ثم ظهر بعدهم ناشر ، وعتيك ، وذو تبع ، ولا سيوف معهم . ثم دخل على الاثر ، سرح ابين وذرعة بن جباة .

فوقف الملك وقد لمع الشرر في عينيه .. وعرف القواد اسباب غضبه ولكنهم لم يكترثوا له ، بل سجدوا كما كانوا يسجدون ، وسلموا كما كانوا يسلمون .. الا ناشراً ورفيقيه فقد وقفوا مطرقين وايديهم على الصدور ، فرفع الملك صوته قائلا : ما هذا يا شرحبيل ؟

ــ ماذا جرى يا مولاي ؟

ــ اتدخلون قاعة الملك والايدي على السيوف ؟

ــ نعم فرجال الحرب لا يتركون سيوفهم في الميادين ! .

ــ ولكنكم في بلاط الملك الان .

ــ ولكننا ذاهبون الى القتال ونحن قواد اليمن واشرافها فلا نضع سيوفنا حتى نجعل رقاب اعدائنا مواطىء للنعال .

وكانت لهجته لهجة قائد بين جيشه ، لا لهجة امير بين يدي مليكه .

فقال : لم يفعلها التبابعة قبلنا حتى نفعلها نحن .. ضعوا سيوفكم في الرواق. خذها يا غلام ..

ــ بل نضعها هنا عند قدميك ، وجرد سيفه والقى به الى الارض ، ففعل الامراء كما فعل وهم يبتسمون ابتسامات الاستخفاف .

ثم جلس الملك وامرهم بالجلوس وهو يقول : هذا انت يا امير ظفار ؟

ــ كنت اميراً يا مولاي ..

ــ واليوم ؟

ــ اما اليوم فقد اصبحت صعلوكاً لا امارة لي ولا مال ...

قال : اما المال فقد جمعتم منه الشيء الكثير ... اين الخراج الذي سرقتموه من رعية الملك ؟

ــ احتفظ به كله امير همدان ... فنظر الى ذي تبع نظرة الذئب .. ثم قال لناشر : ولماذا فررت من قصر مولاك ؟

ــ اغراني بهذا الفرار امير همدان !

فامتلأ صدر الملك غيظاً من امير همدان ... انه بطل الرواية على ما ظهر له، وهو سبب البلاء ، فقال له : ادن منا ايها اللعين !

فدنا وهو ساكت ، وعلى ثغره تلك الابتسامة التي ذكرت لك .

ــ ادن ايضاً .. فظن ذو تبع انه سيفاجئه بضربة من خنجره . ولكنه دنا وهو حريص على حياته حتى اصبح بين الاثنين قيد ذراع ، فقال وصوته يرتجف: قل الان يا خائن لماذا فررت ؟

ــ لاني رأيت الملك يسفح دماء قومه ويشرب هذه الدماء !

ــ ويلك أتجرؤ على ان تقول هذا والموت ينظر اليك ؟

ــ اقوله لان الموت ينظر الي ولا ابالي .

قال : كان عليك ان تعلم أن الملك يسفح دمـــاء الخونه مثلك . . اكان وتار ذمر بريئاً ؟

ــ لقد تآمر مع ابيك على شرحبيل وبلقيس ولم يتآمر على الملك

ــ اذن كنتم انتم الكذبة !

ــ وكنا متآمرين .!

قال : اسمع يا شرحبيل !

ــ انه يهذي يا مولاي فاضرب عنقه .

قال : سنفعل بعد ان نسمع اعترافه : . هات ايضاً .

ــ اسأل ايها الملك !

ــ هل كان هذان الاثنان شريكين لك في المؤامرة ؟

ــ كان عتيك سيد المتآمرين وناشر صاحب سره .. وضحك قائلا : ولماذا لا تسألني عن عمك شرحبيل وهو الذي كان يأمر ونحن نطيع .. عمك هذا ايها الملك الا تراه ؟! فتلفت الملك خائفاً كأن تلك الكلمة انذار له .. ولكن هدوء

شرحبيل ، اعاده الى هدوئه ، فجعل يقول : انه اعتراف غريب نخشى انتكون صادقاً فيه ، فقهقه كأنه بين قومه ، وهي المرة الاولى التي يقهقه فيها رجل امام تبع العظيم إله اليمن .

والملك يحتمل ويقول : اضحك للموت يا لعين .

ــ بل اضحك لهذه الحكاية التي كاد الملك يؤمن بها كما يؤمن بالالهة .. اسمع يا مولاي ، ألم انقذ حياتك وانت في مهرة من سيف ذلك الحبشي ؟

ــ وهل تمن على الملك يا ابن همدان .

ــ بل اسأله ان يجود علي بالحياة كما فعلت معه .. فضاق صدر الملك وقال : ليس لمن يخون الملك حياة ، اعطنا سيفك يا ذرعة .

ــ بل يبقى هـــذا السيف في موضعه ربما ابوح لك بكل ما اعــلم ... ان شرحبيل بن عمرو امنني كما أمن رفيقي فهل تريد ان نعيش ؟

ــ لا

ــ وما هو الذنب الذي نستحق القتل من اجله ؟

ــ ذنب الخيانة .

ــ اذن فالخونـــة يريدون ان يموتوا دفعـــة واحدة ايها الملك.. ابدأ بعمك شرحبيل فقد تآمر عليك لان أباك اراد ان يعبث بشرفه .!

فاحمرت عينا الملك وقال: أخذ انفاسه ياعم ، فاجابه شرحبيل قائلا : صدق الرجل فقد فعلت ما ذكره لك.. فعض على شفته قائلا : ولكنك والدبلقيس، وامعن ذو تبع في اعترافه فأخذ يقول : والغوث خائن لان اباك جرح كرامته وانتهك حرمته .

قال : يا غوث ؟

قال : أجل،واستخففت انت بي فلم تعتذر ولولا دهائي لقتلت وسال دمي في هذه القاعة .. الا تذكر هذا يا ملك حمير ؟ فـــأيقن المسكين عندئذ بانهم جميعهم جلادوه ، وجعل ينظر الى جانبيه وقد اصفر وجهه وذهبت عزة الملك .

اما ذو تبع فاستطرد قائلا :

اسمع اعترافي يا عمرو ! انك الان بين ايدي قواد اليمن الذين يخضعون جميع المخاليف بقوة السيف على الرغم منك .. ألم تسلب ناشراً حبيبته وتهشم جسدها الندي بخنجرك ؟ ألم يقتل آل بيتك والد عتيك بن روضة افظع قتل وقد صبر عتيك هذه الاعوام كلها ليثأر به ؟ قل يا عمرو اتستعين الان بسرح ابين وهو عين لنا عليك ، ام بلدرعة بن حباة وهو من رجال ناشر ؟

فحاول الملك ان يخفي اضطرابه فلم يقدر .. ثم قام في ذهنه انه بين يدي الجلاد ، فجعل يصيح قائلا : يخونون الملك ويقتلونه في بلاطه وليس في هذا البلاط رجل واحد يدافع عنه ؟

قال : لو اردنا قتلك لما ابقينا عليك الى هذه الساعة .. لقد وهبت لك بلقيس الحياة ، فلا تخف ، وكن شجاعاً كما كنت فالملوك لا ينسون عزهم اذا اكلهر وجه الزمان !

فزاد اضطراب المسكين ودمعت عيناه .. ان يد بلقيس تلعب من وراء الستار وهو لا يعلم .. وقد ضاع امله بغرامه كما ضاع امله بالعرش .

واخذ يردد كلمة الفتى : لقد وهبت لك بلقيس الحياة .. ثم قال :

اذن فانتم تفعلون هذا باسم بلقيس ؟

ــ اجل فهي صاحبة الامر في كل ما تراه الان ولا نعلم اذا كانت عاطفة الحب هي التي اوحت اليها بان نعفو عنك .

فعادت اليه ، عندما كمل يأسه ، عظمة الملك فقال :

أتهزأ بملكك يا ابن همدان وقد كنت عبداً له ؟ اقتلوني ايها الانذال فأنا اعزل وهذه سيوفكم عند قدمي .

ــ بل تنزل عن العرش وتطرد من مأرب .. هكذا ارادت بلقيس .

ــ ومن يجلس على عرش حمير ؟

ــ تجلس فيه بلقيس ايها الملك .

ــ وهل تزوجت ؟

ــ لا ، ولكنها ستزف الى الفتى الذي يخاطبك الان !

فحنى رأسه للقدر الجائر ثم وضعه بين يديه واستخرط في البكاء .

وليس في ذلك ما يدعو الى الاستغراب فبعض النفوس وان كبرت ، تصغر عند الاهوال .

ولكن الغرابة ، ان غرام الملك استيقظ في تلك الساعة الرهيبة ، واستيقظت معه ذكرياته واحلامه التي عقبتها الخيبة القاتلة .!

ولعل الكبرياء وحدها هي التي استيقظت فيه .

فنهض عن مقعده قائلا لشرحبيل : هذا هو المقعد الذي اعده الملك لبلقيس فلتجلس ، فقد تخلى لها عنه .

غير ان ذا تبع كان قاسياً اذ قال : بل تنزع منه نزعاً يا ابن ذي القرنـــين .. قيد يدي هذا الرجل يا ابن جباة .

فقام ذرعة ففعل والملك مستسلم هادىء لا يقول كلمة .

ثم قال صاحب همدان لسرح ابين : اليس لك ما تقوله ايها الكاهن ؟

فنهض وقال : اخلعتم ملككم ايها الامراء ؟

فقالوا جميعهم : اشهد ولتشد الالهة اننا خلعناه !

فقال : اذن تخرج الان يا عمرو من مأرب على ان لا تعود اليها الى الابد..

قال : لي كلمة لا اعلم لمن اقولها .

فأجابه شرحبيل وهو يبتسم : قل كلمتك .

ــ ارجو ان ابقى في البلاط حتى تتربع بلقيس في العرش .

ــ مهما تكن هذه الغاية فلا بد من قضائها .

فاحس شرحبيل ان قلبه يتمزق فقال : ابق وسترى بلقيس رأيها ، ثم قال لذي تبع : ادع اشراف مأرب .

وقال للقواد : واركبوا انتم ايها القواد افراسكم وخذوا مركبة الملك لاحضار بلقيس بين صفين من الجنود .

فانصرف القوم ولم يبق في القاعة ، غير الملك ، وشرحبيل ، وسرح ابين ،

وكان الملك واقفاً ، وعيناه تنظران الى الارض .

* * *

يقول بعض مؤرخي العرب ، ان ملك حمير ، انتقل بعد عمرو بن ذي القرنين الى شرحبيل بن عمرو ، ثم الى الهدهاد ، ثم الى بلقيس .

ويقول البعض الاخر انه انتقل الى الهدهاد ، ثم الى بلقيس ، ولم يملك ابوهما بدليل انهم لم يذكروه .

غير ان مؤرخي اليونان ، وبعض المستشرقين الذين قرأوا ما على الاثار من اسماء ، يقولون ان هذا الملك انتقل اولا الى بلقيس ، ثم الى اخيها الهدهـاد ، يثبت قولهم انهم لم يروا اسم شرحبيل بـين اسمـاء الملوك التي عثروا عليها بين الانقاض في مدن اليمن ..

* * *

٨٧

انتقلت مأرب كلها الى البلاط .. لقد كان الغلمان ينادون في الاسواق : خلع عمرو بن ذي القرنين عن العرش وخلفته بلقيس بنت شرحبيل . وهو نبأ تهتز له اليمن كلها كما اهتزت له مأرب .

ثم رأى الناس بلقيس ، على مركبة حمير ، يحيط بها النبلاء والحراس ، وينشر وجهها اشعة البهاء والجمال .

فارتفعت اصوات القوم : تعيش بلقيس !

وهكذا يفعل الناس في كل زمان ومكان .

وكان القصر العظيم يغص بطوائف اليمنيين ، فلما اقبلت بلقيس ، حملهـا

قوادها ورفعوها فوق الرؤوس ثم انزلوها في تلك القاعة التي ينتظرها فيها الكاهن الاعظم ، والملك ، سيد الاشراف والكهان .

وقد اصطف الحجاب بباب القاعة يمنعون العامة من الدخول .

فمشت بلقيس كما تمشي الملكات ، وعندما توسطت القاعة انحنى لها سرحابين قائلا : لقد عهد الي اشراف اليمن وامراؤها ، بعد خلع ملكهم في ان انادي بك ملكة .. فلتعش ملكة حمير .

فتمتمت بلقيس الفاظ الشكر وقبل ان تجلس في مقعدها ابصرت عمراً مقيد اليدين والذل يبسط فوقه ظله .

فقطبت حاجبيها وقالت للغوث : تخلعون ملككم يا امراء اليمن وتبقونه في قاعة العرش ؟

ـــ لقد امره والد الملكة بالبقاء .

فقال شرحبيل : طلب الي ان ابقيه ريثما تدخلين البلاط ، ففعلت .

فاقبل عمرو يقول : اردت ان ارى التاج فوق جبينك الزاهي يا ابنة العم ثم أنصرف حيث تشائين !

فحولت وجهها عنه ثم خفضت صوتها قائلة : اخرجوه ..

قال : الى اين يا بلقيس ؟

ـــ الى البلد الذي تطيب لك الاقامة به !

ـــ وهل تريدين ان ينزل ملك حمير عن عرشه ويخرج من بلاطه صفر اليدين وهو الذي يملك جميع ما في اليمن ؟

قالت : اذا كان لك مال فخذه على ان لا تمس مال اليمنيين .

ـــ آخذ مال ابي .

قالت : اعطوه اياه وليخرج الان ! .

ـــ ولكن لي كلمة اخرى لا اخرج قبل ان تسمعها الملكة ... ألم أعدّ لك العرش برضاي لتصيري ربة اليمن كما اصبحت الساعة ؟

ـــ بلى ، ولكنك ، في الوقت نفسه ، اعددت الموت لابي وللامـــراء الذين

حولك لانهم مخلصون لي ولآل شرحبيل !
ـــ ولماذا لم تسأليني ان اعفو عنهم ؟
ـــ لاني خفت ان يقودني هذا السؤال الى القبر .
ـــ بل لانك تحبين صاحب همدان وستتخذينه زوجاً لك !
قالت : اعطوه ماله وليخرج .
ـــ سأخرج يا بلقيس .. ولكن اذا كان ابن ذي القرنين سيحتمل بصبر زوله عن العرش فهو لا يحتمل ان يراك زوجة لسواه .
ثم قال : هذا قصر آبائي فخذيه ، وهذا عرشي وتاجي فاهنإي بهما ولكن اذكري هذا ولا تنسي .
ومد يديه كالمستعطي قائلا للامراء : اعطوا ملك حمير مال ابيه ليقدر ان يعيش !!.
فتردد شرحبيل في الامر وجعل ينظر الى ابنته .
وقام ناشر فقال : سيشتري بهذا المال اعداء للملكة !
وقال جبار : ليبق في مأرب وعين الملكة تراه .
وقال الغوث : اجعليه يا مولاتي في احد الحصون بين حراب الحراس .
اما عتيك فكان ارحمهم اذ قال :
بل اقتليه في هذا الرواق الذي تعود ان يسفح فيه الدماء .
فأجابتهم قائلة : اعطوه ماله .. وليشتر به انصاراً له .. وليسترجع العرش واومأت الى ناشر بأن يفعل ، وهي تكره ان تظهر بمظهر الخائف ، في اليوم الذي ترفعها الايدي الى عرش حمير .
وساد السكوت فقد امرت الملكة ولا مرد لما تأمر به .

* * *

٨٨

هؤلاء اهل مأرب ، الذين هنأوا ، بالامس عمراً الملك ، يهنئون بلقيس ...

وتلك هي الرواية التي مثلت بالامس ، في قاعة العرش ، تمثل اليوم لم يتغير فيها شيء إلا وجه المالك سعيداً

وقد خرج عمرو يحمل المال الكثير ، وهو حر يروح ويجيء ، ويهامس ويتآمر على هواه ، دون ان تراه العيون !

انها خطيئة لا تغتفرها الحكمة لبلقيس .

أجل ، لقـــد وضعت يدها على الملك ، وأمست حراب الجنود وسيوفهم سوراً منيعاً يرد غوائل الزمان .

ولكن هـــذا السور لا يلبث حتى تتفرق اجزاؤه . واولئك الامراء الذين يحمون العرش بالقوة والنفوذ ،لا يلبثون ان يعودوا الى مخاليفهم لينظروا في امور القوم الذين يسودون ، وماذا تصنع بلقيس ووراءها ملك حر ، غلب على امره وغصبوه ملكه ؟! اتطوق العاصمة ، بصفوف من الجند ، في الربيع والخريف ، والصيف والشتاء ، والليل والنهار ، لتمنع عدوها المغلوب المقهور من استرجاع حقه ؟؟ام تخلد الى الحياة الهادئة ، والعيش الرغيد ، ثم تفتح الارض فاهاوتبتلع العرش ؟

ألم تكن تعلم ، وهي نابغة العرب في ذلك الجيل ، ان الاقدار جعلت جيش اليمن فريقين هذا في يدها وهذا في يد الملك فهي اذن في حالة حرب دائمة لا يهدأ احد الفريقين حتى يسحق الفريق الاخر ؟

ألم تكن تعلم ، ان الغوث وجباراً ومن معهم ليسوا اليمن كلها بل هناك امراء كثار ، ومخاليف لا تعد ، تقذف المال والرجال ؟

ــ بلى ، كانت تعلم كل هذا ، ولكنهـــا لم تشأ الا ان تستسلم الى الكبرياء ،

ولم يشأ رجالها الا ان يثقوا بنفوسهم الوثوق الغريب الذي لا حكمة فيه ! لكل نابغ زلة ... ولكل عظمة ساعات جهل وضعف .. لقد زلت بلقيس ، كما زل سواها من ابطال التاريخ ... وما كان القدر ليرحم ملكاً او يثبت على عهد ...

• • •

٨٩

بكى الملك بكاء الطريد الذليل الذي لم يبق له ملجأ في عاصمة ملكه ،وعندما وقف فرسه وراءالجيش خارج السور ، لينظر النظرة الاخيرة الى مأرب ،كانت الشمس تحتجب وراء الافق ، وقد بدأ الليل يرخي على العاصمة جلبابه الاسود .

فتنهد قائلا : لئن نعمت عينك يا بلقيس بالعرش فهي لا تنعم بهذا الزواج الذي تفكرين فيه ... اذكري هذا يا بلقيس ولاتنسي،ولوى عنق فرسه ليختفي في الظلام ... ولكنه ابصر شبحاً يدنو منه ثم تبينه فمسح دموعه وقال مضطربا : هذا انت يا حاشد ؟

ــ نعم يا مولاي وانا ابحث عنك !

ــ اذن حدث حادث في مأرب ..

ــ لم يحدث شيء يا مولاي ولكني خرجت من البلاط لاكون بين يدي ملكي فانا لا اطيق الاقامة بقصر لا يقيم هو به . فجعل يشهق ويقول : لقد بقي للملك حمير صديق في بلاطه ...

ــ لم اكن قط صديقاً يا مولاي ، اني عبد طائع اريد ان اقضي العمر كله نائماً عند قدميك كما ينام الكلب الامين .

ــ وهل نسيت يا حاشد ان حياة الملك امست شقاء وذلا ؟

ـــ كانت حياته مجداً وستعود .. الى اين انت ذاهب يا مولاي ؟

ـــ الى حيث يقودني هذا الفرس فليس للمالك غاية في ذهابــه ولا يعــلم اي موضع يضع فيه قدميه .

قال : أتأذن لي يا مولاي أن اقول كلمة ؟

ـــ قل

ـــ الا تذكر انك ارسلت معدي كرب وعبد شمس الى الجنوب ليحاربا الحبشه على رأس خمسة عشر الف رجل من ابطال مأرب ؟

ـــ بــلى

ـــ الم يكن هؤلاء الجنود رجال الميادين في كل زمان ؟

ـــ لا اعلم .

ـــ انهم جنود ابيك يا مولاي وقد خاضوا معه الغمرات .

ـــ وماذا يرجو الملك اذا كانوا كما وصفت ؟

ـــ يستعين بهم على استرجاع التاج والقضاء على الغاصب .

فهز رأسه قائلا : انك تريد ان يهزأ الملك بنفسه وبقومــه ! . ماذا يفعل جيش الجنوب مع جيش مأرب ؟ ألم تر فرق الجند التي تطوف وراء السور ؟ انها وحدها اكثر من جيش الجنوب الذي تذكر واعظم شأناً منه .

ـــ ولكن لم اقل بعد ما اريد ان اقوله .

ـــ وهل بقي شيء لم تقله ؟ ستقول ان شجاعة معدي كرب وعبــد شمس تغلب كثرة هؤلاء أليس كذلك ؟

ـــ لا يا مولاي بل اقول ان عندك جيشاً آخر يفديك بدمه .

ـــ دلني على هذا الجيش .

ـــ ألم يجد عليك الغاصب بمال ابيك ؟

ـــ بلى وهي نعمة اذكرها لبلقيس ..

ـــ اذن تستطيع ـــ كما قال ناشر ـــ ان تشتري بهذا المال جيشاً اوله في مأرب وآخره في الجنوب .

فخفق قلب الملك واصغى الى نديمه . وكان حاشد يقول : وسترى يا مولاي ان اليمن كلها ليست لبلقيس وان في المخاليف امراء لا يعلمون من امر خلعك شيئاً .

قال : كان الملك قد ضيع امله ثم وجده الان .

ـــ نعم يا مولاى فالمال الذي يحمله فرسك يكفي ليشتري اليمن .

قال : هات ايضاً يا حاشد .

قال : سيشتري حاشد غداً فرساً آخر يركبه ليرافق مولاه الى ساحة القتال

ـــ ثم ماذا ؟

ـــ ثم نقص على القائدين حكاية بلقيس وتأمرهما بالرجوع مع الجيش الى مأرب لتستعيد العرش الذي سلبتك اياه .

فذكر الملك عندئذ سفن الحبشة التي تملأ البحر ، فقال : لنفترض ان الجيشين يتحاربان اليوم ، فماذا نفعل ؟

ـ يترك جيشك ساحة القتال لعدوه ، وليستول الحبشان على ذلك الاقليم بدون حرب .

قال : ويلك يا حاشد أأتخلى مختاراً للنجاشي عن الجنوب الذي يطمع فيه أرأيت ملكاً تخرج بلاده من يده وهو قادر على حمل السيف ؟

ـ ولكنك اليوم يا مولاي لست ملكاً كما تظن .

ـ ولكنى بني .! اجل بني خسر اليمن كلها دفعة واحدة . . فجعل ينظر اليه وهو ساكت.

فقال : كنت ملكاً يا مولاي فسلبوك تاجك اي انهم سلبوك بلادك وقومك وكل ما هو لك ولآبائك .

ـ نعم

ـ وأمسيت يا مولاي طريداً ولا بلاد لك .

ـ نعم

ـ اذن فخير للملك الذي سلبوه ملكه ان يسحق عدوه ، ويسترجع هذا

الملك ولو خسر اقليماً واحداً من هذه الاقاليم الكثيرة التي تمتد وراء الافق ... ولكن لا يا مولاي فأنت قادر على استرجاع هذه الاقاليم من يد الحبشان عندما تظفر بعدوك .

فرأى الملك ان الفتى مصيب في رأيه ، فقال :

ومتى نجمع جيوش المخاليف ؟

قال : نذهب الى الجنوب ساكتين لا نقول كلمة ، ولكن عندما نعود ، تعود انت يا مولاي على رأس الجيش ثم تقول للامراء الذين تمر بهم : لقد خـان الملك ، شرحبيل بن عمرو ، وابنته بلقيس ، فهلم الى مأرب .. ثم تملأ ايـديهم مالا فيطيعونك ويلتف حولك رجال يهدمون سور مأرب في ليلة واحدة وينتزعون بلقيس انتزاعـاً من العرش ولو حرستها الجن ، فطابت نفس الفتى الشقي ... وقال لخادمه :

من علمك هذا الوفاء يا حاشد وقد كان الملك متغيراً عليك ؟

قال : ما نسيت قط اني ربيت في نعمة مولاي ذي القرنين .

ـ ولكني لم احسن قط اليك ... ـ احسن ابوك وهذا يكفي .

قال : لقد سلمت امري اليك فافعل ما انت فاعل .

قال ستهز يا مولاي مرة ثانية صولجان الملك .. وبات الاثنان ليلتهما في احد الاودية ثم رحلا عند الصباح .

* * *

٩٠

البحر في الجنوب ، هادىء صاف ، لا تصخب امواجه ، ولا تهب فوقه الرياح الهوج ، وليس على مياهه الصامتة ظل لسفن الحبشان !

وكل شيء في ذلك القطر على حاله الماضية .. انظر الى الشاطيء ، فليس في جوه غبار المتحاربين . ونظر الى السهول الجرداء فليس فيها اشلاء الاجساد وآثار دماء .. وهذه خيام الجنود .. جنود الملك ، يستسلم اصحابها الى الكرى عند الصباح وتخفق فوقها رايات حمير ، اذن ليس في الجنوب حرب يا حاشد.

ــ هذا ما يظهر يا مولاي ولعل الالهة تريد ان تضع يدها بيدك لتعود الى مأرب بعد شهر .

قال : مهلا فهؤلاء هم حراس الخيام ، وكان هنالك صف مستطيل من الحراس ، فدنا الملك وخادمه من ذلك الصف وقفزا الى الارض .

فقال احد الجنود لرفاقه : اثنان متنكران .. فاقبلوا والرماح في الايدي ، وقال رئيسهم لحاشد : من انت ايها الفتى ؟

ــ نديم الملك عمرو بن ذي القرنين !

فالتفت الى الحراس قائلا : وماذا يفعل في هذا الاقليم نديم الملك ؟

فقال حاشد وهو يريد ان يرى تأثير كلمته : يتبع مولاه الى الميادين ! .

ــ ولكن الملك في مأرب .

فرفع الملك قناعه وقال : بل هو هنا . فعرفه الحارس وصاح برجاله: الملك، فخروا ساجدين ثم جعلوا يهتفون له .

فهامسه حاشد قائلا : أرأيت يا مولاي انك لم تزل ملكاً ، فلم يجب ، غير ان عز الملك مر امام عينيه كما يمر الظل ، فمشى الى الامام وهو يقول :

دلوني على خيمة القائد فانا لا ارى رايته .

فساروا امامه وقد عادوا الى الهتاف ، فاسكتهم قائلا في نفسه : لو عرفتم ايها الحراس ان بلقيس سلبتني العرش لما هتفتم لي .

ومر بين الجنود الذين سمعوا الهتاف وهو لا يلتفت الى احد حتى انتهى الى خيمة معدي كرب فاذا القائد بالباب وعبد شمس بالقرب منه ، ورأى الاثنان وجه الملك الاصفر .. وشفتيه المرتجفتين .. فخفق قلباهما وهما ينحنيان له ، ثم جعلا ينظران بدهشة واستغراب الى ذلك الوجه ، اما هو فدخل وامرهما بالدخول وارخى حاشد ستار الباب ووقف وراءه ، كأنه لا يريد ان يدخل الخيمة احد الجنود ، ثم قال الملك : اين سفن الحبشة وصفوف جيشها يا معدي كرب ؟

قال : لم نبصر لهذه السفن اثراً يا مولاي .

ــ وماذا يقول عامل الملك ؟

يقول ان هذه السفن ظلت في البحر بضعة ايام تروح وتجيء ثم اختفت كأنها غاصت في الاعماق !

ــ اين هو الرجل الان ؟

ــ في المعسكر يا مولاي .

ــ اخشى ان يكون كاذباً فيما كتبه الى الملك ألم تسألوا سواه من اهل الشاطىء الذين يصيدون الاسماك .

ــ لا يا مولاي لم يخطر لنا ان نفعل ذلك . قال : علي به الساعة ، فتسابق الغلمان يطلبونه فحضر ، فقال له : ألم تذكر في رسالتك الى الملك ان الحبشان في البحر ؟

ــ بلى يا مولاي .

ــ واين هم ونحن لا نرى في الجنوب وجهاً اسود ·· وكان يخاطبه وهو ملك ··

ــ لا اعلم يا مولاي فقد رأيتهم بعيني واعددت العدة للقتال ريثما يصل الجيش ثم احتجبوا لا يبين لهم اثر وكأني لم ارهم قط .

ـ ومن رآهم ايضاً ؟

ـ جميع اهل الشاطىء والجنود .

قال : ليحضر بعض الصيادين يا عبد شمس ، فاقبلت طائفة منهم فقال لهم : من رأى منكم سفن الحبشة على الماء ؟ فقالوا جميعاً : رأيناها كلنا وقد ظلت اشرعتها بضعه ايام تصفقها الريح . فاكتفى بهذا السؤال واومـأ اليهم والى عامله بالانصراف ثم جعل يقول : لقد حسبنا انه يتـآمر على ملكه مع غاصبي العرش ، فقال معدي كرب : من هو اليمني الذي يستطيع ان يغصب الملك عرشه؟

ـ غصبونا اياه وانتهـى الامر !

فنهض قائلا : لا تهزأ بقوادك يا مولاي، قال : اجلس واسمع فالذي يخاطبك الان كان ملكاً لحمير اما اليوم فهو يمني عـادي يدعى عمراً وكان ابوه يدعى ذا القرنين ..

فنسي القائد عندئذ كبرياء الملك ولم يذكر غير اخلاصه له ، فقال : ومن هو الرجل الذي يخلف عمراً ؟

ـ لم يجد المتآمرون رجلا يولونه الملك فوضعوا تاج التبابعة على رأس فتاة

قال : بلقيس . فقال : بلقيس ؟..

ـ اذن فقد عرفت الخونة يا مولاي ، ان ذا مغار في المقدمة .

ـ ويتبع ذا مغار جميع الامراء الذين يجاورونه ، عدهم يا جاشد ، فاخذ الفتى يعدهم حتى انتهـى الى ذكر مرح ابين وذرعة بن جباة .

فقال معدي كرب : ويخون الملك رجال ظفار وقد اجاطهم بالنعم ؟ .

ـ اجل وبلقيس نفسها التي اراد الملك ان يرفعها الى العرش تقود المتآمرين

فاطرق ملياً ثم قال : وماذا يريد مولاي ان يفعل الان ؟ فاجابه عبد شمس : يستعين بالامناء من شعبه فيزحف بهم الى مأرب .

قال : مغار ، وبراقش ، وبينون ، وهمدان ، ونحلة ، وظفار .. ستة مخاليف هي اقوى مخاليف اليمن ... اذن يجب ان نغزو هذه القوى باربعين الفاً مـن الرجال ...

وانتقل بالفكر والروح ، الى الاقاليم الباقية ، فقال حاشد : سيكون عدد الجيش اكثر مما تظن .. وابدى للقائدين ذلك الرأي الذي ابداه لمولاه ...

فدبت نخوة العرب في صدريهما وقالا : لم يخسر الملك تاجـه كما يظن ، بل هي تجربة من تجارب الاقدار . انهض يا مولاي واعرض جيشك ، ولنبذل المال في الاقاليم لتبذل لك الدماء .

فعادت الى الملك قوته ، ووثب كالليث الجريح ليستعيد شرفه ومجده .

ودعي الجيش المقيم في الجنوب الى السلاح .

* * *

٩١

كانت بلقيس ملكة . ملكة في كل شيء ، اذا استثنيت الضعف الذي رأيت.

الامن في اليمن ، يمد رواقه في ظل بلقيس ، والنـاس في كل مكان وصلت اليه اخبار الملك المجنون يدعون لها بالعز

وقد سارت الرسل الى اقاليم اليمن كلها تحمل بشرى جلوسها على العرش . والامراء في اليمن ، والاشراف ـ ان لم يكونوا اصحاب حاجات ـ لا يبالون بالجالس على العرش،سواء أكان من صلب ذي القرنين ، ام من صلب شرحبيل، حقهم محترم ، وارادتهم في اماراتهم لا ترد ، وهم يدفعون الخراج في كل عام ، من خير ارضهم وبركات الالهة ، الا الذين يبغضون آل البيت المالك ، فهؤلاء لا تنعم لهم عين الا اذا احطوا ابناء هذا البيت، عن المقام الذي يتمتعون بنعمه.

وكانت بلقيس تحفظ الوفاء لأولئك الانصار ، ويقضي هذا الوفاء بأن تأذن لبعضهم بالرجوع الى البلاد التي لم يخرجوا منها الا ليولوها الملك .

وماذا تخشى بلقيس واصوات الدعاء لها يحملها الهواء الى البلاط ؟!

ان امرآً واحداً تخشاه هو ذلك الفراغ الذي يحدثـــه رجوع الاشراف الى المخاليف وهذا ما ستحتاط له ولتنظر في امره .

ولم تكن تفعل شيئا الا اذا شاورت ذا تبع ، ورأت ان الامراء يريدون ان يفعلوه ... فدعتهم اليها في احدى الليالي قائلة لهم :

ألا ترون ان اليمن هادئة وان الرأي ان تعودوا ؟

فقال الغوث : نخشى ان نعود فيعود الملك .

قالت : اذا عاد هذه المرة لقي الموت .. ان الجيش الذي يبقى في مـــأرب يصرعه خارج السور .

ــ ومن يبقى يا مولاتي ؟

ــ اهل همدان وظفار ونحلة !

ــ انهم اضعف من ان يتصدوا لملك ثائر وراءه الجنود .

ــ ولكن اين يجد هؤلاء الجنود وقد خرجت اليمن من يده ؟

فأجابها عتيك وهو يبتسم: يجدهم في الجنوب بقيادة معدي كرب وعبدشمس.

فضحكت قائلة : ايجسر الرجلان على العصيان يا عتيك ؟

ــ اجل يا مولاتي فقد كان الاثنان من اشد المخلصين لذي القرنين .

فالتفتت الى ناشر قائلة : ألم تكتب اليهما ؟

ــ بلى ، وامرتهما باسم الملكة ، بأن يصفا لك حرب الحبشة .

فقال عتيك : يخطر لي ان الملك في الجنوب اليوم ، وسيقرأ الكتاب المرسل الى القائدين ويهزأ بكاتبه .

قالت : لقد دبت قشعريرة الخوف في جسم ابن روضة .

ــ ان الذي لم يخش الملك وهو على عرشه ، لا يخشاه وقد انزل عنه ، ولكن قلبي يحدثني بأن هذا الملك الذي خلعناه وسلحناه بالمال لا يلبث حتى يعود حاملا غضبه وحقده ، وثورة نفسه ، على شفرة السيف .

ــ ثم يهدم البلاط على رأس الملكة ويبني له بلاطاً آخر من جماجم اليمنيين ..

ــ بل يسترجع تاجه اذا استخفت الملكة براي ابن روضة !

قالت : وما رأيك ؟
ـ ان يبقى في مأرب وخارجها ثلاثون الف جندي .
ـ اذن نبقى في حالة حرب الى الابد .
ـ نعم ... ولا تتغير هذه الحال الا اذا وضع الملك في قفص او قتل .
فنظرت الى الامراء وهي تقول :
احرسوا الملكة اذن واجعلوا مخاليفكم نهباً للعشائر الطامعة .
ـ بل نجود بهذه المخاليف على ان نحمي هذا الملك الذي بنيناه .
فقالوا جميعهم : صدق عتيك .
قالت : اذا كان هذا فلننظر في الامر من وجـــه آخر .. هل كتبت يا ناشر الى جابر بن مفروق امير مذحج ؟
لم تأمرني الملكة بأن افعل .
ـ وكيف نسيناه وهو عدو ذي القرلين وعدو نسله ؟.. اكتب اليه الساعـــة وقل له ان يحضر مع عشيرته كلها ليقيم وراء مأرب .. أترضى يا ابن روضة بان يكون جابر مع قومه حراساً للعرش ؟
ـ ارضى بان يصون هذا العرش ثـــلاثون الف سيف لا تنقص حتى يموت عمرو كما قلت .. او فاتركي يا مولاتي هـــذا البلاط وارجعي الى القصر الذي ولدت فيه !
ـ وتأذن الان للامراء في الرجوع .
ـ ليرجعوا عندما تشائين فلم يكن عتيك بن روضة غير رجل يجود بروحـــه في سبيل الملكة .
فقالت : ليعد الغوث ، وجبار ، وذو مغار ، وياسر ، وليبق الاخرون .
فقال شرحبيل : لا تتعجلي في الامر يا بلقيس .
فلم تسمع ، وكانت تلك العجلة استخفافاً لا يليق بملكة حمير .
وهذا خطأ آخر كان الاجدر بها ان تبتعد عنه .

• • •

٩٢

مرت الشهور وذو تبع العاشق . على نار .

ان مطامع بلقيس التي تصدت من قبل ، لامر زواجـــه ، قد انتهت الان ، ولكن بقي شيء آخريتصدى له من جديد ، هو الخوف من رجوع الملك غازياً اعداءه ! وبين تلك المطامع ، وهذا الخوف ، يذوب القلب ، وينفد الصبر .

كانت تقول له :

مهلا ايها الحبيب فسيعود الرسول من الجنوب .

وكان يقول : اذا كان الملك موجوداً في ذلك الاقليم فخير لي ألا يعود ..

ومعنى ذلك ان وجود الملك يمنع زواجه .

وهي تدعوه الى الاحتمال ، فيحتمل يوماً ثم يضعف ، فهو لم يكن ذلك الفتى القادر على خنق الغرام .

وذلك الرسول ؟.. ان ذلك الرسول ضيع الطريق الى مأرب فلم يعد !

مسكين ذو تبع ! فهو لا يعلم ماذا جري له ، في ذلك القطر البعيد .. وكيف يعلم انه وقع بين ايدي الملك وقائديه ، وجرى له ما جرى للحمل التائه يقع بين ثلاثة ذئاب ؟!

قتلوه في الخيمة عندما قرأوا رسالته ، ودفنوه تحت الفراش الذي ينام فيـــه معدي كرب ثم غطوا دمه بالتراب... كي لا تهيج تلك الوحشية الكامنة في صدر الملك الطريد الذي يشتد عطشه الى الدماء .

ولو عرف الشقي ان الملك وصل قبـــله الى ذلك المكان ، لآثر الرجوع الى مأرب حاملا رسالة بلقيس ، محتملا غضبها ، على المثول بين يدي ذلك الطاغية المفترس الذي لا يرحم امه ، لو كان له ام .

مهلا ايها الحبيب فسيعود الرسول من الجنوب .!

تلك هي كلمة بلقيس التي بدأت تظن ، بالجنوب ، الظنون .

حتى مل ذو تبع الولهان ، وضاق صدره ، وهم بان يرسل برجلين من همدان يسألان عن ذلك الفتى الذي لن يعود!

ولكن البلاط اهتز في ذلك الحين ، لخبر ورد من ظفار الثائر على الملك .

وهلعت قلوب الامراء ، لهول ذلك الخبر ، الذي حملته الى بلقيس ، فتاة سمراء ، هي اخت ذرعة بن جماة سيد قومه .

ان الملك ..! زاحف الى مأرب ، على رأس جيش يغطي الجبل والسهل !

واخت ذرعة تعيد هذه الكلمة في مجلس الملكة ثم تقول :

لقد رأيت الملك بعيني يا مولاتي ورأيت جيشه !

وبلقيس مطرقة تبحث عن الرأي فلا تجده .. وتستعرض بالفكر جيش مأرب فتراه اضعف من ان يثبت في المجال .

والامراء مضطربون وقد اصيبوا بالذهول .

غير ان ذلك اليوم كان كثير المفاجآت ، فقد اقبل في تلك الساعة ذلك الغلام الذي ارسل الى نجران ، حاملا جواب جابر امير مذحج ، وواصفاً للملكة رجاله الاشداء .

وقد جاء في ذلك الجواب ان الامير قادم مع مذحج كلها ليعيش في ظل بلقيس وابيها شرحبيل .

فعاد الامل الى الصدور ، ورفعت الملكة رأسها تسأل غلامها قائلة له :

اين تركت القوم ؟

ـ وراء معين يا مولاتي .

ـ اذن تمر بضعة ايام ثم نراهم في مأرب ... وانت يا اخت ذرعة ، اين رأيت الملك ؟

ـ كنت في شبوة مع عم لي فوصل اليها ونحن نهم بالمجيء .

ـ وماذا فعلت شبوة ؟

ـ اظهرت خضوعها له كما كانت تخضع لابيه .

فهزت رأسها وهي تقول : هكذا فعلت الاقاليم التي مر بها ابن ذي القرنين،

أين انت يا عتيك بن روضة ؟

ـ نعم ايتها الملكة .

ـ لقد كانت الملكة على ضلال فيما رأت وكنت على صواب !

فلم يشأ الرجل ان يذكر الماضي فقال : نحن الان في عهد جديد يا مولاتي فلننظر في امره .

ـ عهد جديد ؟؟

ـ نعم فقد خلعنا ابن ذي القرنين عن عرشه من قبل ، ونحن مكرهون على خلعه مرة اخرى اليوم .

ـ وهذه اصعب من الاولى .

ـ اجل ايتها الملكة وهي كثيرة الخطر .

ـ الا اذا اقبل جابر بن مفروق قبل جيش الملك .

ـ ان جيش الملك سيصل قبله ، وعندما يجيء جابر تكون الحرب قد نشبت بيننا وبينه والاسوار مصبوغة بالدم !

ـ وكيف عرفت هذا ؟

ـ الا تعلم الملكة ان ابن ذي القرنين الثائر يقلد الطير في مشيه وامير مذحج يمشي كما تمشي السلحفاة ؟ ومن اين لامير مذحج ان يعلم ان الخطر موجـود في مأرب ليطير اليها والسيف في يده ؟ نعم انه اقرب الينا من الملك ولكن هـذا سيسبقه وسيدكّ الاسوار قبل وصوله .

قالت : جنودكم ايها الامراء

فاجابها عتيك وهو هادىء : اذا ارادت الملكة فلتأمر بما التمسه منها التماسا .

قالت : ماذا ؟

ـ ارجو ان تكتب الملكة ، الان ، الى الغوث ومن معه تأمرهم بالرجوع الى مأرب مع كل حامل سيف .

ـ اكتب يا ناشر ، وبعد ذلك ؟

ـ وان تغلق ابواب مأرب وتجعل الجيش المقيم في الابراج وعلى الاسوار .

ـ افعل ذلك يا ذا تبع.

ـ واعطي كل رجل من اهل مأرب قوساً وجعبة سهام ، واجعلي لكل من يقتل جندياً من جنود الملك قبضة من المال .

ـ سنفعل هذا ايضاً فماذا تريد بعد ؟

ـ اريد ان تقف الملكة على احدى الشرفات لترى ما تفعله نبال امير نخلة في صدور الاعداء .

ـ وهل يثبت الجيش فوق الاسوار ريثما يصل الغوث ومن معه ؟

ـ لا اراه يثبت حتى يصل جابر بن مفروق كما قلت ، ولكن للغوث وللامراء شأن بعد ان يدخل الملك ظافراً ويستوي في عرشه من جديد !

قالت : ماذا تقول يا عتيك ؟

ـ اقول ان الملك سيجلس ثانية على مقعده في هذه القاعة وسيفر جميع الامراء الذين ترين وانا في المقدمة .

ـ ومن يبقى في البلاط ؟

ـ بلقيس بنت شرحبيل التي كانت ملكة .

فقام ذو تبع فقال : بل يبقى ذو تبع ليموت عند قدميها او ليقتل الملك عندما يدخل البلاط .

قال : مري هذا العاشق يا مولاتي بان يسكت بل ارجو ان تأمريه بان يطيعني طاعة لا رأي له فيها ولا ارادة .

قال : لا اطيع احداً فالملك الظالم سيموت من يدي .

ـ ولكنك تموت بعده بسيوف رجاله وتخسر ... بلقيس ...

فهم بان يجيب فقال عتيك : كلمتك يا ملكة حمير .

قالت : تريد ان يفر الجميع ونبقى ؟

ـ اجل فاذا دخل عمرو بلاطه هذه المرة ولم تكوني فيه ، فاليمن كلها ، اذا اجتمعت ، لا تستطيع اخراجه منه .

ـ نفر وجميع الجيوش ، ثم نوقد نار الحرب .

قال : ان الملك في ظفره غداً ، يسترجع وثوق الناس به ، ويستعيد نفوذه وقوته ، ثم ينضم اليه معظم الامراء فيكثر جيشه ونضعف نحن ثم نخسر كل شيء ونُقتل الواحد بعد الآخر وتتلاشى الاحلام .

ثم نهض قائلا :

لتأذن لي الملكة في كلمة اقولها لها دون ان يسمعها احد .

فخرج القوم ، فجعل يهامسها حتى انقضت ساعة كاملة ثم اذنت لرجالها في الدخول وهي تقول :

لقد انتهى كل شيء الان فالملكة باقية في البلاط .

فاضطرب ذو تبع وقال : ونحن ؟.

ـ اما انتم فتبقون الان ريثما يجيء عمرو ويبتسم له الظفر .

ـ ثم نستسلم اليه وتضيع رؤوسنا في هذا الرواق !

ـ بل تلجأون الى السراديب التي ترونابوابها وراء مرابط الخيل والتي تنتهي وراء الاسوار من الجانب الشرقي وتنضمون الى جيش جابر بن مفروق .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ لا تسل ايها الامير عما يحدث بعد ذلك فقد تزف بلقيس الملكة الى عمرو الثائر وتخضع له كما تخضع الزوجة للزوج !

فجحظت عيناه واستند الى مقعده كي لا يسقط على وجهه ثم وضع يده على جبينه وتمتم قائلا :

وقد تزف بلقيس الى عمرو الثائر وتخضع له ...! انها اذن عاطفة تظهرها الملكة لامير همدان .

ثم نهض ووضع يده على سيفه وجعل يحدق اليه وهو ساكت .

فقالت : نراك تعمد الى السيف ايها الامير !

قال : وهل بقي لامير همدان غير سيفه ؟؟ ان الامال العذبة التي عللت بها النفس قد تحطمت الان ، والحلم الخلاب الذي استسلمت اليه تلاشى كما يتلاشى الظل فما هي غير ليلة او ليلتين حتى اقتحم بفرسي جيش ابن ذي القرنين فأموت

ويخلو لك الجو !

ـ ولكنك لا تستطيع ان تفعل ذلك .

ـ لماذا ؟

ـ لان الملكة لا تريده .

فضحك ضحكة اليائس وجعل يقول : لقد خرجت من الان عن طاعة هذه الملكة فلتأمر بضرب عنقي اذا طاب لها ان تخمد نار الثورة المتأججة في هـذا الصدر أو فلتجعلني اسيراً في هذا القصر حتى يجيء عمرو فتدفعني اليه .

ـ واذا امرتك بلقيس بغير هذا .

قال : لقد حجبت ملكة حمير بلقيس بنت شرحبيل) فلم يبق لها أثر .

قالت : اني الان بلقيس التي عهدت ، فكن انت ذا تبع الصادق وكن واثقاً بان الفتاة التي تخاطبك الان لا تتغير الى الابد .

ـ ولكن ستتزوجين عمراً .

ـ اجل غير ان هذا الزواج سيكون احدى الحيل التي تعمد اليها الملكة .

ـ ومع ذلك فستكونين زوجة لسواي .!

قالت : اتريد ان تثق بما اقوله لك الان ؟

ـ اثق باني خسرت كل شيء .

ـ بل تثق بانك لم تخسر شيئــاً .. اسمع ، اني سأتزوج عمراً كما قلت ، اذا اكرهني الزمان ، وسأكون في نظره ونظر اليمن كلها جارية طائعة له ، اترضى بهذا ؟

ـ لا

ـ واذا قلت اني سأبقى لك على رغم هذا الزواج ؟.

فتردد في الجواب وجعل ينظر الى القوم نظرات الاستغراب ، ثم قال :

اقسم لك اني لا افهم شيئاً مما تقولين .

ـ وانا اقسم لك اني لا انكث لك عهداً ولو قتلت .. اشهدوا ايها الامراء واضمنوا الملكة .

وكان قلبها يتقطع لوعة وغراما .

قال : كلمة اخرى يا بلقيس .

ـ لا ازيد كلمة على ما قلت فهذا يكفي .

فقال عتيك : لقد رضي الامير يا مولاتي .

ـ اريد ان اسمع كلمة الرضى من فمه .

قال : قل كلمتك ايها الامير وانا اضمن لك ما تشاء .

فتمتم قائلا : لقد رضيت .

فتنهدت بلقيس والتفتت الى ابيها قائلة :

سيتولى الجيش الباقي في مأرب ، امر الدفاع من وراء الاسوار حتى تخفق ألوية النصر فوق جيوش الملك .

ـ وعندئذ ؟

ـ يتراجع الجيش عندئذ الى البيوت فيحتجب فيهـا عن العيون ، ويعود هؤلاء الامراء الى البلاط لاجئين الى السراديب التي تنتهي الى الخلاء .

ـ وانا ؟

ـ اما انت فلا تشترك في الدفاع بل لا تفارق الملكة .

ـ وما هي الحكمة من ذلك ؟

ـ ان الملكة مريضة وهي في فراشها تقاسي الاوجاع والالام .

ـ ثم يدخل عمرو ظافراً ويضع يده على كل ما في مأرب .

ـ ولكنه لا يبالي بما يراه بل يدخل البلاط وثبا باحثا عـن بلقيس التي صيراها بين ذراعي المرض الحديديتين .

ـ ويأمر عندئذ بضرب الاعناق .

ـ انه اضعف من ان يمد الي والى ابي يداً .

وجعلت تحادثهم وهي واثقة وتتنبأ لهم بما يحدث بعـد دخول عمرو حتى اطمأنت القلوب وافتر ثغر امير همدان .

وكانت تقول : سينقل امير نخلة اخبار البلاط الى جيش امير مذحج .

فقال ناشر : ولكنه سيفر كما نفر نحن .

ــ ومع ذلك فسيعرف كل شيء وسيكون في ذلــك الجيش ، نائب الملك

ونهضت قائلة : لننصرف الان ولنتهيأ لكل امر ، فخرجوا وراءها وقد عادت الثقة الى النفوس

* * *

٩٣

استيقظ اهل مأرب بعد ثلاثة ايام فأبصروا الجيش يحيط بالمدينــةمن الشمال والجنوب ، والملكالثائر على رأسه ، وكان جيشالملكة في الابراج وعلى الاسوار ووقفت طائفة منه تحرس الابواب التي اغلقت في وجوه الزاحفين .

ثم رأى القوم فارساً من فرسان الملك يصيح قائلا :

لقد عاد ملك حمير فاطرحوا السيوف واطيعوه .

فارتفعت عندئذ اصوات الجنود .

هذا يقول : انا على عهد مولانا الملك فليدخل .

وهذا يقول : لقد امرتنا بلقيس بفتح الابواب !

ولكن ، كانت هنالك اصوات اخرى تقول :

سنطيع قوادنا فقد خرج الامر من يد بلقيس الان .

حتى آنس الملك ، في هذه الاصوات ، ضعفا في الجيش القائم علىالاسوار .

فقال لمعدي كرب وعبد شمس : يظهر ان بلقيس لا تريد الدفاع .

فاجابه معدي كرب قائلا : اخشى ان تكون هنالك خدعة يا مولاي .

ــ لو كان الامر كما تقول لسمعنا جوابا واحداً يقوله قائله باسم الجيش كله .

لقد اصبح القوم في الداخل فريقين احدهما مخلص لبلقيس طائع لها والاخر غير

مخلص وستفتح لنا الابواب بدون قتال .

واعاد الفارس نداءه مرة ثانية .

فسمع في هذه المرة اصوات تقول : افتحوا الابواب باسم بلقيس !!

وسمعت من الناحية الاخرى اصوات تشتم بلقيس وتقول :

الموت في سبيل امير همدان وامير ظفار .

وكل ذلك يمليه عتيك الداهية .

فقال الملك : سهامكم ايها الجنود .

واشار الى الناحية المتمردة التي لم تظهر الخضوع .

وسكتت في تلك الساعة الالسنة ، لتنطق السهام .

ولكن جيش الملك كثير وكل سهم يرسل من جيش الاسوار يقابله ثلاثة سهام من الجيش الاخر .

وتلك الناحية التي اظهرت رغبتها في الاستسلام لا ترسل سهامها ولا تشارك الفئة الاخرى في القتال .

حتى قام في ذهن الملك ان الفتنة ستشتعل نارها في جيش بلقيس !

فقال للقائدين : اريد ان يحطم الجيش ابواب السور !

فقالا : سنفعل ذلك عندما يجن الظلام اما الان فيجب ان نتراجع الى الوراء لتضيع سهام العدو في الفضاء .

قال : افعلا .

فتراجع الجيش باشارة من قائديه . وسمعت من جديد اصوات الجيش من الداخل :

افتحوا الابواب للملك .

ثم رأى الملك جنود بلقيس يغادرون الابراج والسيوف والرماح في الايدي حتى حجبهم السور عن عينيه .

ثم علا الصياح وارتفعت اصوات الاستغاثة كأن المدينة في فتنة .

فأشرق جبين عمرو وايقن بالنصر .

وبينا هو على فرسه يحلم بالتاج ويفكر في بلقيس ، فتح الباب الجنوبي فجأ وهتف فاتحوه : يعيش ملك حمير !

فوثبت الخيل الى ذلك الباب وهتف الجيش في الخارج ، كما هتف الجيش في الداخل ، يعيش ملك حمير .

ولم تمر ساعة حتى كان ابن ذي القرنين في ساحة البلاط وحوله قواده وانصاره البسلاء ! .

ثم قال لاولئك الذين القوا سلاحهم ، من جيش بلقيس : اين قوادكم ؟

فقال احدهم : لتقتل الالهة هؤلاء القواد فقد كادوا يحرقون اليمن .

ــ ولكن نريد ان نرى الموضع الذي لجأوا اليه .

فاقبل آخر فقال : لقد خرجوا من الباب يا مولاي بعد دخول جيشك !

ــ ويلك وكيف يستطيعون الفرار والجنود بالباب ؟

ــ رأيتهم بعيني يا مولاي يركضون افراسهم والجند لا يعبأ بهم كأنه لا يعرفهم .

فقال عبد شمس : ستنظر في امرهم يا مولاي في حين آخر .

ــ وجنود هؤلاء القواد ؟؟

فقال الرجل : فروا مثل قوادهم يا مولاي قبل دخول الجيش .

ــ اذن هم في مأرب .

ــ بل تدلوا بالحبال من السور الشرقي وهذه خيولهم في السوق .

فنسي الملك القواد والجنود وخفض صوته قائلا له :

وبلقيس ؟

وكان يخشى ان يفاجئه بخبر فرارها من البلاط .

فقال انها في قصر الملك مع ابيها شرحبيل وهي التي امرتنا بفتح الابواب لجنود مولاي ! .

فعض على شفتيه قائلا : لقد خافت الملكة فآثرت الاستسلام على الدفاع .. قالها والغرام يلمع في عينيه السوداوين .

فدنا الرجل منه وقال أيأذن لي الملك في ان اذكر له كل ما اعلم ؟

ــ قل

ــ لقد امرت بلقيس امراء المخاليف بطرح السيوف عند قدمي الملك فـلم يرضوا فطردتهم من البلاط ومنعت اباها من الاشتراك فى الدفاع .. ثم اغمي عليها وهي الان في فراشها تعالج داءها بالصبر .. وقد سمعتها تقول للقوم دعوا التاج لصاحبه فهو اهل للملك واليمن ملك له .

ــ ولكنك جندي والجنود لا يشهدون مجالس الملوك .

ــ اني من حراسها يا مولاي .

فأومأ الى قواده بان يدخلوا وراءه ويمكثوا بالرواق ، وأمر الجنود بان يحرسوا الابواب ويمنعوا المتمردين الباقين في مأرب من الفرار ، ثم دخل والسيف في يده كأنه في ساحة حرب ، وكأن الجيش ينتظره في اروقة البلاط .

وتقدمه الرجل حتى وقف بباب بلقيس فقال : انها هنا يا مولاي .

قال : افتح الباب .

ولكن الباب فتح من الداخل وظهر نائل غلام بلقيس على عتبته وهو يتظاهر بالبكاء ... ثم سجد عند قدمي عمرو قائلا : مولاي الملك .

فضربه بعرض السيف ضربة اصابت جبهته ووثب الى داخل الحجرة التي هي حجرته وهو يقول : اين بلقيس ؟

وكان شرحبيل بالقرب من سرير المريضة فقال :

لقد عدت يا مولاي فستنجو بلقيس من الموت .!

فهم بان يفاجئه بالسيف ، غير ان بلقيس المتألمة ، بلقيس الضعيفة الصفراء الوجه ، المضطربة الاعضاء ، فتحت عينيها اللتين تنطقان بالالم ومدت يدهـا المرتجفة قائلة له : اعطني يدك لتعود الي الحياة .!

فلم يستطع المجنون الثائر الا ان يصافح تلك اليد التي امتدت اليه .

ثم احس بالغرام يغمر قلبه .. كأن الفتاة المضجعة بين وسائد الخز والديباج لم تسلبه بالامس تاج الملك .

وظلت يده في يدها وهي تنظر اليه نظرات الحب حتى سكر وترنح عطفاه وهي تراه .

فقالت لابيها : دعني احدث الملك يا مولاي .

وكانت تغتصب الكلمات اغتصاباً من شدة الالم ..

فوقف شرحبيل بالباب وهو ينظر الى الارض .

فقالت : الا تجلس يا مولاي ؟

فصحا الفتى من سكره لحظة واحدة وجعل يقول :

أأنت ملكة حمير يا بلقيس وانا الطريـد المخلوع اللاجيء الى امراء اليمـن لينتصروا لي ؟

ــ بل انت الملك لا يجلس احد في العرش الحميري وانت حي !.

ــ ولكني رأيت هذا الملك يخرج من يدي ، ورأيت صولجان آبائي في يد بلقيس وهي تأمر بطردي من مأرب !

وابتسم مستخفاً كأنه يبتسم للموت الذي اعده لاعدائه .

فابتسمت مثله ، وارسلت مع تلك الابتسامة زفرات الغرام .

فارخى الفتى نظره كأنه يستعيد قواه .

أما هي فقالت له : أسمعت يا مولاي ان رجلا يخلع ملكاً عن عرشه ، ثم يملأ جرابه ذهباً ويرسله حراً الى البلد الذي يشاء ؟

فرفع رأسه قائلا : وما وراء هذا السؤال يا بلقيس ؟

ــ قل نعم او لا يا مولاي ،

قال : لا ..

ــ وهل يجهل الطامع في العرش ان الملك المخلوع ، الحر ، سيبذل ماله لرؤساء شعبه ليكونوا عوناً له على استرجاع ملكه ؟

ــ لا

ــ اذن فبلقيس لم تكن جاهلة عندما أعادت اليك مال ابيك وقالت لك : افعل ما تشاء واذهب الى حيث تشاء !

ـــ وماذا اذن ؟

ـــ كانت لها غاية اخرى هي ان تمهد لك سبل الرجوع الى مأرب والجلوس في العرش الذي ورثته من حمير ، فجعل ينظر اليهـــا والاستغراب في عيليه ... واستطردت هي قائلة : ولو لم تكن الغاية ما ذكرت، لامرت الجلاد بان يضرب عنقك وانت في قاعـــة الجلوس ، او يجعلك اســـيراً في هـــذا القصر الى آخر الزمان ... ماذا تقول الآن يا مولاي ؟ فتردد قليلا ثم قال : اقول انك لم تجسري على ذلك .

ـــ وماذا اخاف ؟

ـــ ان يثور الشعب فيحطم العرش .

ـــ لو خطرت لي هذه الثورة لما فعلت ما فعلت ولما اقدمت على سلبك تاج الملك .. لقد كان امراء اليمن في يدي كما رأيت وكانوا جميعهم يطلبون الي ان احكم بالاعدام على خليفة ذي القرنين ، فبحث عمرو كثيراً عن الجواب يرد به ذلك القول ، فلم يجد .

فقالت : انشك ايضاً يا مولاي ؟

قال : لا اعلم الا ان الملك انتزع من يدي انتزاعاً وطردت كما يطرد السائل الوقح من هذا القصر الذي هو قصر اجدادي ملوك اليمن .

ـــ ولكن هذا الطرد كان دهاء من بلقيس فقد ارادت ان ينجو ملكها من الموت الذي كان كامناً له في هذا القصر نفسه ..

ـــ اذن سلبتني ملكي ولك في ذلك فضل !

ـــ نعم يا مولاي فانت اليوم حي بفضل بلقيس !

ـــ واي شيء دعاك الى ان تهبي لي هذه الحياة ؟

ـــ الحب الذي تموت عنده المطامع والاغراض ...

فقهقه ضاحكاً ثم قال : ما رأيت عاشقاً يصف حبـــه بمثل ما تصفينه به ! لقد كان حبك يا بلقيس قضاء على الملك وهو حب عجيب يتحدث به الناس بضعة اجيال .. وضحك من جديد ضحك السخرية والاستهزاء .

فقالت : لا تهزأ يا مولاي فالزمان يفعل العجائب والحب الذي عدده قضاء كان حياة جديدة كما قلت .. ماذا ترى يا مولاي ألم نتعاهد نحن الاثنين على الوفاء ؟

ــ بلى ــ ألم نجعل للزواج موعداً عرفه الامراء وعرفته اليمن ؟

ــ بلى ــ ولكن هؤلاء الامراء لم يرضوا وقد اقسموا لي ان الملك سيموت قبل ان ازف اليه .

ــ ومتى كان ذلك ؟

ــ قبل ان احج كعبة العرب .

ــ ولكنك لم تذكري للملك شيئاً من هذا .

ــ لم اشأ ان افعل لاني كرهت ان تشتعل النار من اجل بلقيس

ــ ثم ماذا ؟ ــ ثم رجعت فرأيت البغض في القلوب ، والثورة في النفوس ، والسيوف في الايدي ورأيت القوم ينضوون تحت لواء الحرب وهم يتهيأون للزحف الى مأرب ليقتلوا ملكهم ويجعلوا ذا تبع الهمداني سيد هذا القطر ! وكانت تخاطبه بلهجة جذابة عذبة يظهر معها التعب والضعف ...

ــ ثم رأوا ان يبعدوا ذا تبع عن العرش ويضعوا التاج على رأسك يا ملكتي الحسناء أليس كذلك ؟!

ــ بل رأوا ، بعد رجوعنا من الحجاز ، ان يجعلوا ملكهم شرحبيل بن عمرو لانه من احفاد البيت المالك وليس فيهم خير منه .

ــ ولكنه لم يرض .

ــ طلبت اليه ان ينزل لي عن حقه ففعل ، وسكت ذو تبع على امل ان يمسي بعد موت الملك ، زوجاً لبلقيس .

ــ وكيف عدل القوم عن قتل الملك واستبدلوه بخلعه عن العرش ؟

ــ لقد كان الجيش فريقين يا مولاي ، احدهما ترأسه بلقيس وهو يميل الى السلم ، والاخر يرأسه ناشر وعتيك وذو تبع وهو يميل الى الحرب والقتل ، ولكني استطعت بالدهاء يا مولاي ان احول رأي هذا الفريق ، ثم اطلقت الملك

حراً وانتزعته من ايدي الذئاب بعد ان سلحته بالمال الكثير يشتري به جيشاً من الانصار المخلصين ، وكانت الرواية خلابة في ظاهرها يقبلها العقل ، فخفق قلب عمرو ومال الى الايمان بما سمع ... وكيف لا يفعل وقد فاضت عواطف غرامه وسحرته النظرات ... لكنه اراد ان يستوثق ، فقال : كان على بلقيس ان تقص كل ذلك على الملك برسالة تبعثها اليه قبل ان تجيء الى مأرب .

ـــ لم استطع يا مولاي لانهم احاطوني بالرجال وهم الذين املوا علي ذلك الكتاب الذي حمله نائل اليك ... ومع ذلك فلنترك الماضي يا مولاي فقد رجعت الى ملكك وتم لي الامر كما اردت دون ان تسيل دماء اليمنيين ... ألم يفتح لك جيش بلقيس ابواب مأرب لتدخل دخول الظافر وتتربع في العرش ؟ ألم تسمع هتافه لك من وراء الاسوار وقد سمعته انا من هذه الحجرة وقلبي يضطرب في صدري وعيناي تدمعان ؟

ـــ ولكني لم اكن عاجزاً عن تحطيم هذه الابواب في ساعة واحدة .

ـــ اجل يا مولاي غير اني كنت اخشى ان يصيبك سهم من سهام القواد الخونة الذين اظهروا العصيان في الساعة الاخيرة فيضيع الامل الذي اعلل نفسي به واخسر كل شيء ، فضيّع عمرو هداه وجعل ينظر الى عينيها الدامعتين وهو يقول : اذكري لي يا بلقيس هذا الامل فقد كدت اصدق ما تقولين ... فابتسمت قائلة : اذن فالريب لم يضمحل من صدرك يا مولاي .

ـــ اظن انه سيضمحل بعد حين ! فعرفت الداهية ان غرامه انتصر على ثورته، فقالت: ولكن هذا لا يكفيني ايها الملك ولست من النساء اللواتي تغرهن الظواهر ويستسلمن الى الاحلام !

ـــ وماذا تريدين الان ؟

ـــ اريد ان تقسم لي انك صدقت كل ما سمعت ونسيت ما مضى .

قال: اسألك سؤالا واحداً قبل ان افعل.. اين هم الامراء الخونة؟ فصاحت صيحة ذعر ثم قالت : الم تقبض على هؤلاء يا مولاي ؟

ـــ لم اقبض على احد لاني لم ار احداً فكأنهم غاصوا في جوف الارض ،

لجعل صدرها يعلو ويخفض من التعب ، ثم اغمضت عينيهــا تفكر فيما سمعت وشفتاها ترتجفان ...

قال : بلقيس .. ـ نعم يا مولاي

ـ أتخافين هؤلاء الامراء الذين تعودوا ان يفروا كل يوم من غضب الملك ؟

ـ لا يا مولاي ولكني كنت اؤثر ان اغمس خنجري في صدورهم وعندما يستقيم الامر من جديد لمولاي الملك !

ـ ستفعلين غداً ما لم تفعليه اليوم .. والان ..

ـ اما الان يا مولاى فاقسم لي .

ـ وان لم افعل

ـ استحلفك بشرف ملكك وشرف اجــدادك ان تغمد سيفك في جسمي الضعيف فأطبق جفني واسلم الروح ! فخاف العاشق الجلد ، فقال : اقسم لك اني نسيت الماضي بكل ما فيه فاذكري الامل الذي عللت نفسك به ، فخفضت صوتها قائلة : ليس لي في هذه الحياة امل الا ان امسي زوجة لك ، فالقى السيف من يده وقال : لقد محت هذه الكلمة ريبة نفسي ، انك الان للملك يا بلقيس ، وسأدعو الكاهن في هذه الساعة ليكتب عقد الزواج !

ـ الان يا مولاي ؟

ـ اجل الان فقد يبخل الزمان غداً بما يجود به اليوم .

قالت : اصبر يا مولاي ريثما تشفيني الالهة ..

وهي تريد من وراء هذا القول ان يلج في طلبه .

فقال : يكتب العقد وانت في الفراش لا تغادرينه الا عندما تعــود اليك العافية وترجع النضارة الى هذا الوجه . فأخفت وجهها بيديها وتمتمت الفاظاً لم يفهمها المسكين ، فقال : ماذا يا بلقيس ؟

قالت : ادع الكاهن يا مولاي وليكن ما تشاء ، ولكن الجواري اللواتي في القصر ... فاستغرب قائلا : واي شأن لهؤلاء ؟ فخرجت بلقيس عندئــذ عن

هدوئها وظهرت بمظهر المرأة التي تقتلها الغيرة وجعلت تقول : اني لا اطيق ان اری واحدة منهن في البلاط . .

قال : احلف لك اني لا انظر اليهن .

ــ ومع ذلك فانا اخشى ان تدفعني الغيرة الى قتل المرأة التي تجسر على الدنو من الملك ، فرقص قلبه من الفرح وقال : انهن جميعهن ملك لك فاقتلي منهن من تشائين واطردي من تشائين، فحاولت ان تجلس فلم تستطع . فقالت: لتباركك الالهة ايها الملك فقد اعدت الي الامل ثم قالت : ولي رجاء آخر يا مولاي .

ــ ما هو ؟

ــ هو ان تنحي خاشداً في ساعات الشراب .

ــ ومن يسقي الملك ؟

ــ غلامي نائل الذى اثق به .. ولكن لا يا مولاي فبلقيس نفسها تسقيك كلما خطر لك ان تشرب .

ــ يظهر انك تكرهين الخمر ايتها الحبيبة .

ــ نعم ايها الحبيب ولكني سأحبها واشربها اذا اردت ، ونادت اباها قائلة : لقد استجابت الالهة دعائي يا مولاي .

قال : وهل ذكرت لمولانا الملك كل شيء ؟

ــ نعم ورضي بي زوجة له ، فانحنى شرحبيل امام ابن عمه قائلا له : لقد نجت بلقيس من الموت بفضلك يا مولاي .

ــ بل هي التي انقذت حياة الملك يوم زحف اليه اولئك الجهناء ولو لم تعمد الى الدهاء لخسر هذه الحياة .

ــ كذلك فعلت انت يا مولاي فلو لم تصدق ما ذكرته لك وتعدها بالزواج لخسرت حياتها في هذه الساعة .

قال : اما الزواج فسيتم الان وسنأمر سرح ابين بان يجيء ...

ــ ولكن بلقيس مريضة كما ترى .

ــ ان مرضها لا يمنع الكاهن من ان يجعلنا زوجين.. ادع نائلا ولكن صف

لنا قبل ان تدعوه حياة هذا الكاهن في مأرب ، بعد ذهاب الملك .

ــ لقد كان سرح ابين في داخله ، من انصار مولاه .

ــ وكان في ظاهره خصماً له ؟

ــ اجل يا مولاي وذلك قبل ان يعرف غاية بلقيس .

قال : الجبناء مثله كثار في اليمن. اين نائل ؟ فدعي الغلام فاقبل وهو يتظاهر بالخوف ، فقال له : قل لمعدي كرب وعبد شمس ان يحضرا وليحضر سرح ابين غير خائف ونحن ننتظر الثلاثة في هذه القاعة .

فقالت بلقيس : من هما الرجلان اللذان ذكرت ؟..

ــ قائدا الجيش المخلصان للملك .

ــ وهل تأذن لقائديك يا مولاي في ان يدخلا حجرة زوجتك وهي في الفراش ؟

ــ نأذن لكل يمني في ان يرى ملكة حمير في الساعة التي يشاء ... وبينا هما يتحادثان ، اقبل قائدا جيش الجنوب .. فأومأ اليهما بعظمة قائلا : لقد كانت هذه الفتاة امس بلقيس بنت شرحبيل ، وستمسي بعد لحظة ملكة اليمنيين !

فجعل الاثنان ينظران الى ذالك الوجه الفتان ، ولا يقولان كلمة . وماذا يقولان وقد عقد الاستغراب لسانيهما ؟ كانا واثقين بان رأس بلقيس سيتدحرج عند قدمي العرش فاذا هذا الرأس ثابت في مكانه ، وصاحبته صاحبة القوة والسلطان ، وهل يجسر القائدان ، على ان يذكرا لملكهما البطاش ، ما خطر لهما في تلك الساعة ؟؟ ان الموت ينتظرهما في تلك القاعة اذا فعلا .

نعم ، كانا يعلمان ان الغرام الذي يملأ قلب الملك ، اوحى بذلك الزواج ، وكانا يخشيان ان ينتهي الامر بين الملكين ، الى ما يرضاه المخلصون ولا تريده اليمن ، ولكن ، هب ان اليمن كلها ستغوص في الاعماق،فليس لها الا ان يخضعا مكرهين خضوعاً اعمى ليس فيه رأي ، وينظرا الى بلقيس نظرهما الى المرأة التي سيعصب الملك جبينها بالتاج الحميري !

هكذا اراد مولاهما الثائر ، فلا مرد لما اراد .. ولم يترددا كثيراً في الامر ،

بل انحنيا هاتفين : تعيش مولاتنا الملكة ، في ظل مولانا الملك ، ثم قال عمرو : لقد دخلنا البلاط على امل ان نضرب رقاب الذين غصبونا اياه ، بهذا السيف ، ولكننا عرفنا ان شرحبيل وبلقيس كانا من انصار الملك ، وان اولئك الغاصبين لجأوا الى الخلاء واستبدلوا البلاط بالمغاور القائمة في ظلال الصخور ..

والتفت الى شرحبيل قائلا : انس يا عم ما بدر من الملك عند دخوله فقد كانت تلك الساعة ساعة غضب لا ترى مثلها بعد الان . وقال للقائدين : واما انتما فقولا للجيش ان يكف عن الاذى وليعلم القوم ان بلقيس هي التي امرت رجالها بفتح ابواب مأرب للملك ... ووضع الغرام حجاباً كثيفاً على بصيرته وبصره فلم يدب الريب في صدره ، ولم يظن الظنون ! .

وسكت القائدان على غل كما رأيت ، وانتهى الفصل الاول من تلك الرواية العجيبة التي لم تخطر لاحد من العقلاء . وتساقطت دموع بلقيس على الوسادة وكانت تقول : هذا فعل الصداع الفجائي يا مولاي .

* * *

٩٥

انظر .. هذا سرح ابين الكاهن الاعظم ، يلامس وجهه الارض عند قدمي الملك ، وكان الملك يقول له : انهض فقد ثبت لنا انك من المخلصين ، وبلقيس تئن من الالم ... وتذرف الدموع ، ثم غصت القاعة بالقواد والانصار والجميع يعلمون ان بلقيس ستزف الى الملك وهي في الفراش ، وستحتفل مأرب بهذا الزواج ، عندما تشفي الالهة الملكة الفتاة ..

ثم وقف سرح ابين بامر الملك ، وقبل ان يكتب العقد خاطبه قائلا : اذكر

يا مولاي المال الذي تهبه لزوجتك .. فقال : عشرة ضياع بما فيها من العبيد والاموال ، وجعل يسميها واحدة واحدة ، ثم قال : وجـواهر تساوي نصف جواهر التاج الحميري .. هاتها يا حاشد ، وكان حاشد يحملها في كمه وهي مـن جواهر ذي القرنين التي وهبتها بلقيس لعمرو عندما خلعوه ...

ــ وماذا بقي يا مولاي ؟

ــ لم يبق في يد الملك مال يهبه لزوجتـه الان .. فنظر الكاهن الى شرحبيل وقال : وانت ايها الامير ؟

ــ اعطيتها نصف ما اعطاها مولانا الملك ، فكتب العقـد ، وسجد القوم يسألون الالهة ان تشمل العروسين بالبركات .. ثم انصرفـوا وفي الصدور اشياء واشياء ... ولم يبق في القاعة غير الملك وشرحبيل ونائل ، ونعمى بنت الريان ، فقالت بلقيس : لو لم يكتب الكاهن عقد الزواج الساعة لقتلني هـذا الصداع ، اعطني يدك يا مولاي! . فمد الملك يده فوضعتها على فمها ورأسها علامة الخضوع، ولم يستطع الملك عندئذ الا ان يطبع على يدها المرتجفة قبلة الحب ... وقد احس ان الدنيا لا تتسع لامانيه ، واحست هي ان السماء سقطت على الارض. ولكنها ابتسمت لهذا السقوط . ثم استأذن الملك وخـرج لينظر في شؤون ملكـه ، من جديد ، ووعدها بانه يعفو عن جميع افراد الجيش الذين لم يلجأوا الى الفرار ، ولمعت عينا العروس بعد خروجه ببارق غريب وهامست نائلا قائلة : خبر القوم ما رأيت ، وعدهم بالظفر بعد ان يمر هذا الشهر .

وقالت لنعمى : اما انت فـلا تخرجي من هذه القاعة الا عندمـا آمرك بالخروج ، ولا تنسي ان تعدي عـدة الشراب في كل مساء .. وكان شرحبيل يعرف واجبه ، فلحق بالملك الى قاعة الجلوس ، وعلى جبينه آثار الفرح تمازجها آثار التعب والهم ، كأنه يخشى عاقبة ذلك الصداع ، الذي اصاب بلقيس ! .

* * *

٩٦

كانت سراديب القصر الحميري ، مجالا رحباً لنائل ، يروح فيه ويجيء حاملا الى القوم اخبار البلاط ، عندما يشاء ، وكان امير مذحج ، قد عرف كل شيء ، واقام بذلك السهل الذي يجاور اسوار معين ، ريثما يرد عليه الامر بالزحف الى مأرب .

اما حراس السراديب ، فكانوا من رجال بلقيس الامناء ، يتناوبون على الحراسة وراء مرابط الخيل ، في الليل والنهار ، ليخفوا اعمال نائل من العيون ، والملك لا يعلم شيئاً ولا يبالي الا بالخمر يشربها صرفاً كل مساء حتى يصرعه السكر او يدب النعاس في جفنيه ، فكأنه كان يعالج بالخمر ، ذلك الغرام الذي يضيع معه الصبر .. وبلقيس لا تريد ان يشرب ، الا في غرفتها ، لتشاركه بالروح ، في لذته ولهوه .. وتمتع نظرها بوجهه الجميل الفتان ! . ويجب ان تعلم ، ان ذلك الملك العاشق ، استسلم الى بلقيس استسلاماً غريباً في نوعه ، واضحى الملك الثائر نعجة وديعة تقوم وتقعد بارادة الملكة الحسناء ! فهو لا يذكر غرامه الا اذا ارادت ان يذكر ذلك الغرام ، وهي لا تريد ان يفعل الا عندما يفارقها ذلك الصداع ! .

ان الالم يزول شيئاً فشيئاً يا مولاي ، وستحتفل مأرب بالزواج يوم تراني الى جانب الملك في قاعة العرش .. تلك هي الكلمة التي كانت بلقيس ، تعلل بها العاشق المفتون .. وهو يستعين بالخمر ، على الرضى بكل ما تأمره به ، وهذا هو موضع الغرابة في الامر ، كما ترى .

ولم يشرب الملك وحده قط ، بل كانت قواده وامناؤه يشاركونه في الشراب ، ونائل غلام الملكة ، يملأ اقداحهم كلما نظر الى عيني بلقيس ... حتى كاد الشهر ينقضي والصداع يزول .

ففي احدى الليالي ، قالت بلقيس لغلامها :

قل لعتيك : « اعطني دواء الصداع واعلم ان الملكة ستترك فراشها في الليلة القادمة عند نصف الليل ، وتجلس للناس ... في الليلة القادمة يا نائل فلا تنس .. واعطه هذين القرطين .. اذهب الان »

ففعل الغلام ما امرته به وحمل اليها ذلك الدواء العجيب الذي يشفي كالسحر جميع الادواء ..! وأوصاه عتيك بأن يقول للملكة : لقد عاد ذو مغار ومن معه وسينزلون في رجوة « ورجوة سهل يبعد ثلاثة فراسخ عن عاصمة الحميريين »

واصبح الصباح .. فقيل للملك : هذه عشيرة مذحج وراء الاسوار يقودها جابر بن مفروق ، فقال : احرسوا الابواب وانتظروا اوامر الملك .

ثم اقبل على حجرة بلقيس وقد عادت اليها العافية ، واسترجع وجهها البهاء والسحر ... والهيبة والجلال .. وكانت تهم بترك الفراش والجلوس بين الوسائد كما يجلس الناقه الضعيف الذي نهك المرض قواه ، فقال لها :

لقد طابت الحياة للملكة . ما وراءك يا مولاي ؟

قال : انك تعرفين امير مذحج أليس كذلك ؟

ــ بلى يا مولاي فأنا ما نسيت حكاية اخي الهدهاد يوم بعث به ابي الى مغار يحمل اليه المال كما علمت .

قال : انه مع عشيرته بباب مأرب ، فتظاهرت بالتفكير ثم قالت : لا يترك جابر بن مفروق نجران الا لامر ، وسكتت قليلا ثم قالت : وهل اذنت له في الدخول ؟

ــ لا ، فقد رأيت ان استشيرك في هذا لان قلبي يحدثني بأن جابراً يحمل الويل لمأرب ... فضحكت قائلة : لقد اخطأ قلبك في حديثه يا مولاي ، ان ابن مفررق لا يخرج عن طاعة ملكه وهو لم يقدم الا ليظهر خضوعه له ويعرض سيفه عليه وعلى زوجته بلقيس المحسنة اليه .. اني اضمن جابراً يا مولاي فمره بالدخول ..

ــ ومذحج ؟

ــ اما مذحج فتبقى خارج السور ريثما تعرف الغاية من مجيئه .
ــ ولكنه لم يستأذن بعد .
قالت : لا بد له من ان يفعل في هـــذه الساعة فأرجو ان يبتسم لـــه الملك ويقرب مجلسه فهو من اشراف اليمن ومذحج من اقوى عشائر العرب .
فهم الملك بالانصراف . فاستوقفته قائلة : وارى يا مولاي ان تدعوه الليلة الى الشراب لتعلم مذحج ان الملك يعطف عليها وان لها مقاماً في البلاط ، فخرج وهو يقول : سأفعل .. وسأقرأ ما في نفس الرجل .
وكان حاجبه ينتظره ليستأذن لجابر ، وجابر بالباب وهو يقول للحراس : لم اسمع قط ان اليمنيين يستأذنون في الدخول الى مأرب الا في ايام الحرب .
ولبث واقفاً ويده على سيفه حتى رجع احد الحراس واذن له ، فمشى دون ان يلتفت الى احد حتى اضحى في الرواق فعرف ان الملك في قاعة الجلوس ، وفي القاعة شرحبيل ومعدي كرب وعبد شمس .
فوضع سيفه في الرواق وتقدمه كبير الحجاب الى الداخل وهو يقول : جابر ابن مفروق سيد مذحج ، فنهض الملك عن مقعده وخطا خطوتين كأن القـــادم اعظم امراء اليمـــن او كأنه احد ابناء البيت المالك ! فقال الامير في نفسه : هذه يد بلقيس فيما اراه ، ثم سلم ساجداً ولم يرفع رأسه حتى امره الملك بالوقوف قائلا :
أهلا بسيد مذحـــج ، متى قدمت ؟ ومد اليه يده فقبلهـــا وقال : امس يا مولاي .
قال : لقد مر عهدان على مأرب ولم نرك فيها فهل كان هنالك ما يمنعك من المجيء ؟قال : لقد جار الزمان يا مولاي واكرهتنا الاقدار على الرحيل الى وادي نجران نعالج فيه طوارىء الحدثان .
ــ ألم تر الملك ذا القرنين قبل موته ؟
ــ بلى يا مولاي رأيته وسألته ان يكون عونا لي على عدوي ثم مكثت بمأرب يومين رجعت بعدهما الى ديار قومي .

ـ وماذا اعطاك الملك في ذلك الحين ؟
ـ لم يعطني شيئاً يا مولاي بل امر ابن عمه شرحبيل بن عمرو الجالس بالقرب منك بان يجود علي من ماله بما يساوي عطية الملك !
ـ وفعل ؟
ـ نعم يا مولاي وانا اعيش بفضل ما اعطاني الى هذه الساعة .
ـ اذن انت تحفظ المعروف لابن عم الملك !
ـ بل احفظه لمولاي الملك اولا فتلك العطية كانت بامر ابيه .
ـ وماذا تريد الان ؟
ـ جئت يا مولاي لاظهر خضوعي لملك حمير واطرح عند قدميه سيفي وسيوف ابناء قومي ، واسأله ان يأذن لي في الرجوع الى الاقاليم التي تجاور اقليم مأرب ...
ـ اي انك تريد ان تكون من جيران مولاك .
ـ اجل فليس لي حياة الا بهذا .
ـ اذكر الارض التي تؤثرها على نجران .
ـ ارضى بالارض التي يهبها لي مولاي ، على ان يهب بلاد مذحج لمن يشاء من الناس . قال سنفعل كما فعل ذو القرنين .
ـ ماذا يا مولاي ؟
ـ نطلب الى شرحبيل ان يعطيك ارضاً تكفي قومك ، وقد اراد بذلك ان يختبر اخلاص شرحبيل دون ان يتردد : لقد نزلت عن ضياعي كلها في اقليم صرواح وجعلتها باسم الملك ملكاً لابن مفروق .
فقال الملك : وهل تطلب يا جابر شيئاً آخر ؟
ـ اطلب ان تحرسك الالهة وتحرس عملك المحسن الي .. متى تأذن لي في الانصراف .
ـ الى صرواح ؟ ـ نعم يا مولاي .
ـ تنصرف اليها غداً فستبيت الليلة في البلاط وتشرب مع الملك ، ثم ضحك

قائلا : كان خيراً لك لو بقيت في نجران !

قال : أندم الملك على احسانه ؟

ــ لا ، ولكن الحرب ستنشب بيننا وبين الحبشة وستخوض معنا المجال !

قال : ليس احب من الحرب الى مذحج .. ان سيفي لك يا مولاي سواء أكنت في نجران ام في مأرب وسترى ان رجال جابر رجال حرب .

قال : سنجعلك اذن من قواد الجيش فانت رئيس الرماة منذ الان .

قال : لقد انعمني مولاي بما لا استحق وشرفني بين العرب .

ــ ولكن ستكتنفك النعم عندما نشهد قتالك فيالساحات .. ودخل الحاجب في تلك الساعة وهو يقول : وفود مأرب .

قال : ماذا تطلب هذه الوفود ؟

ــ تخضع من جديد للملك الذي استرجع عرشه .

فغضب قائلا : وهل يظن اهل مأرب ان العرش خرج من يد صاحبه حتى يظهروا خضوعهم له ؟ لقد كان العرش لنا ولم يزل فلينصرفوا ، فنقل الحاجب الى القوم كلام مولاه .

فسمع صوت احـــدهم يقول : اسأل مولاي الملك ان يأذن لي في الدخول فقد ظلمت .

فقال الملك من الداخل : ادخـــلوا الرجل ، فدخل رجل جاوز الستين من السنين ، تملو الكآبة جبينه وتجول الدموع في عينيه ، ففاجأه الملك بقوله : أأنت مظلوم ؟

ــ نعم يا مولاي فقد قتل ولدي على الاسوار ورأيت جثته تسقط على الأرض عند قدمي قاتله اللعين .

ــ اذكر قاتله .

ــ ناشر امير ظفار السابق !

فاهتز الملك لذكر ناشر وقال : وكيف قتله ؟

ــ امره كما امر سواه ، بأن يصوب سهامه الى صدر مولانا الملك قبـــل ان

تفتح ابواب مأرب فلم يفعل . فقال هادئاً : ولكن كان عليه ان يطيع قائده ويرسل هذه السهام الى حيث يشاء .

ــ لم يكن قادراً على ذلك يا مولاي .

ــ لماذا ؟

ــ لان الملكة امرت ولدي ورجاله بان يعصوا القواد ويمهدوا للملك سبل الدخول الى مأرب والظفر باعدائه ، وهذا دليل آخر جديد ، يثبت للملك بعد شهر ، صدق بلقيس ووفاءها له ، ووقوفها في وجه قواده الخونة ، فقال : الم يقتل غير ولدك ؟

ــ بلى يا مولاي .

ــ وهل رأيت يمنياً يعبأ بدم ولده المسفوك في ساحة الحرب ؟

ــ ان ولدي لم يقتل من يد عدوه بل قتل انتقاماً من يد قائده .

ــ وماذا تطلب الان ؟

ــ اطلب ان ينصفني الملك من ناشر الظالم .

ــ سنفعل اذا اظفرتنا الآلهة به .

قال : هب لي شيئا من ماله يا مولاي .

ــ لم يبق لناشر مال .

ــ اذن ضيعة من ضياعه .

ــ ولكنه خسر ضياعه ولم يبق له شيء .. بل بقي له دمه وستشارك الملك في شربه بعد حين ..! اخرج الان فان لم يقتل عدوك اليوم قتل غداً ، والتفت الى شرحبيل قائلا : هذا شاهد لك يا عم وللملكة .. وجعل يردد اسماء قواده الخونة واللعنات تخرج من فمه ، ثم نهض ليسمع حديث بلقيس فتخمد النار المتأججة في صدره ، وخرج شرحبيل وابن مفروق يتمشيان في الرواق ، اما عبد شمس فكان يقول لمعدي كرب : ويل لنا وللملك من هذه الفتاة التي جعلها زوجة له ...

* * *

٩٧

لقد جن الليل يا نائل فهل فهمت ؟

ــ نعم يا مولاتي ان النعجة ستسقط بعد نصف الليل بين براثن الاسد اذا بقي هذا الاسد حياً .!

ولكن احذر ان تضطرب يدك وينم عليك الخوف ، فابتسم قائلا : وهل اضطربت يدا الاسد عندما مزقتا اجسام الابرياء ؟؟ ان الملك سيموت في الهزيع الثاني من الليل ، وستقول اليمن غداً : لقد قتلت الخمر ملك حمير !

قالت : ولاتنس ان تسقي معدي كرب وعبدشمس وحاشداً ضعف ما كنت تسقيهم كل مساء .. اسقهم اياها صرفاً وليشربها ابي وابن مفروق ممزوجة حتى يخفض السكر الرؤوس ويغمض الجفون ويعقد الالسنة في الافواه .. ان بلقيس لا تنام على ذل فهي تمشي الى غايتها على الرقاب ولا تبالي !

أجل ، كانت القساوة احدى طبائع بلقيس كما علمت ، فهي تغوص في بحر من الدماء ، اذا اكرهتها الاقدار ، ولا ترجع الى الوراء !

ثم قالت: سيشربون الليلة في قاعة الشراب وسأنحي الحجاب فلا يبقى بالباب غير نعمى ونائلة ..

ــ سيتم الامر يا مولاتي كما تشائين .

ــ ورعين ؟

ــ لقد فهم رعين كل شيء وسيحمل امر الملكة الى امير نحلة .

ــ والحراس ؟

امرتهم بان يكونوا عوناً للامراء عندما يدخلون السراديب .

ــ اذن فانصرف الان واعلم ان عين بلقيس لا تنام ، وبينا هي تهامسه ، سمعت وقع قدمين ، فعرفت ان الملك آت ، فرفعت صوتها قائلة : لا تسق مولاك

الليلة فأنا لا اريد ان يشرب !! فظهر الملك على العتبة وهو يبتسم ثم قال : لم تطب الخمر للملك قط كما تطيب له الليلة .. اني سأشربها حتى يـــدب النعاس في عيني هذا الغلام .

قالت : ارفق بنفسك يا مولاي فالخمر داء !

ــ بل هي الحياة للقلوب العاشقة التي برح بها الحب .. وكنت اوثر ان اشرب في هذه القاعة وعيناك تنظران الي .

ــ اتدعو امراء العشائر الى الشراب في قاعة الملكة ؟

قال : لو لم يكن جابر بن مفروق في البلاط لما نقلت من قاعة الملكة قدماً .. الى اللقاء يا بلقيس ! .

ــ الى اللقاء يا مولاي .

ووثب الى الرواق وثباً وهو يقول : عجل يا نائل ، كأنه كان يريد ان يلهو بالخمر ليقصر الليل .. وكان القوم قد أمسوا في مجلس الشراب ، فأقبل قائلا لامير مذحج : اذا استطعت يا ابن مفروق ان تجاري الملك الليلة في الشراب ، فـــانت تستطيع ان تجاريه في الميادين عندما تجول الخيل .

قال : اعترف اني اضعف من مولاي الملك عندما تتلاحم الصفوف ، واما الخمر فقد خلقت لها وخلقت لي وسترى اني سأبيت اريقها في حلقي الى ان يبزغ الفجر .. ثم استدرك قائلا : ولكني اشربها ممزوجة يا مولاي ، فقهقه ضاحكاً ثم قال : اجلس اذن بالقرب من شرحبيل فقد اعترفت بعجزك وشرحبيل يشربها مثلك ... وانت يا عبد شمس ؟

ــ اما انا فاشربها كما يشربها الملك ، وهكذا قال حاشد ومعدي كرب .

وكان الملك طروباً مزاحاً في تلك الليلة ، فقال : هات يا نائل ، فملأ الغلام الاقداح وشرب القوم ، وهم يصفون حفلة الزواج التي تتم غداً كما تراها المخيلات .

وقلب الملك يرقص فرحـــاً وعيناه تنظران الى نائل القائم بين زقين ... ولم يكن يعلم كيف يشرب ..! يجرع الكأس وراء الكأس ويأمر القوم بان يشربوا كلما شرب فهو عطشان والخمر حياة القلوب العاشقة .. حتى وضعت الخمر يدها

على رأسه ورؤوس انصاره وقامت العربدة مقام جلال الملك وهيبته ، ثم اخذ يقول :

ليس لليمن عدو غير الحبشان فيجب ان يموت العلى اسكندي وتنقل جواهر اكسوم وعرشها الى مأرب اتعلمون ماذا يفعل الملك بعد شهر ؟؟ انــه سيزحف الى الحبشة على مراكب يعدها لهذه الغاية وستكون الملكة على رأس الجيش ويبقى عمنا شرحبيل نائباً للملك فهو يحب الجلوس على العرش .!

فقال شرحبيل : بل احب ان يتبع فرسي فرس الملك في ساحات الشرف .

ـ ولكنك تستصعب الاسفار في البحار .

ـ بل استسهل الموت في سبيل التاج الحميري ..

ـ وانت يا ابن مفروق ؟

ـ سأكون اول رجل يضع قدمه في ارض الحبشان ، فقال ولكن عبد شمس سيغضب على معدي كرب والويل له من غضبه !؟

ـ انا يا مولاي ؟

ـ نعم انت فالملك سيجعل معدي كرب نائبا له في اكسوم فتوغر هذه النيابة صدرك ويقذف بك الحسد الى الهــوة ! قال لو جعلت الحبشة كلها ملكــاً لي ولقومي لما خطر لي ان اترك مولاي الملك ساعة واحدة ، فارتجفت الكأس في يده وكان يقول : احسنت فانت خير القواد .. اشربوا يا قوم واملأ لجابر كأسه ايها الغلام .

فشرب وقال : اسأل مولاي ان يجود على عبده بما يطلبه الان ، ـ بماذا ؟

ـ بان تنقل الى اكسوم زقاق الخمر اليمنية ، على مراكب الجيش !

قال : لا نفعل حتى تشربها صرفاً .

قال : شربتها في حياتي مرة واحدة وانا في الحجاز ، فكدت اموت .

ـ وكيف لا يموت الملك وهو يشربها كل يوم ؟

ـ لانه حفيد الالهة والالهة تقوم على حراسته ! فاعجبه جوابــه ، وانتهر الغلام قائلا : عجل يا نائل فسيلتصف الليل قبل ان يفرغ الزقان وقبل ان يروي

حفيد الالهة ظمأه . وقد بدأ الملك يمضغ الالفاظ كما يمضغها السكران ، ثم دارت الخمر دورتها الاخيرة .. فحنت الرؤوس الى الصدور ، ثم خنقت الاصوات .. وساد السكوت .. ولو وقع نظرك على القوم في تلك الساعــة ، لرأيت عيونـاً حمراء تتفرس في الارض وتلمع فيها حمى السكر ، الا جــابراً وشرحبيل ، فلم تستطع الخمر الممزوجة ان تفقدهما الرشد ، وكان الملك قد استلقى على وسائده وهو يصارع حماه ، وقد اراد ان يشرب كأساً اخرى قبل ان ينتقل الى قاعــة بلقيس ، فقال لنائل والكلمات تخرج مبتورة من فمه : كأساً احرى يا غلام :

فبرقت عينا الفتى وعمد الى كمه فاخرج منه ما يشبه الكحل ووضعه في القدح ثم صب الخمر حتى امتلأ ومد يده قائلا لملكه: اشرب يامولاي ، فشرب السكران ثم استوى جالسا كأنه صاح ونادى حاشد قائلا له : اعطني يدك ايها اللعين فانا لا استطيع النهوض ، ثم نادى قائديه وامرهما بالانصراف ، فقــام حاشد وهو يتمايل وركبتاه ترتجفان، اما معدي كرب وعبد شمس فلم يستطيعا ان ينقلاقدما، فحاول الملك عندئذ ان ينهض مستنداً الى الجدار ، ولكنه شعر بان ارض القاعة تنحدر به الى الاعماق ، وبان السقف والجدران تتساقط على رأسه ، ثم احس بان يدين حديديتين تقبضان على عنقه ، وان حرابا حادة تمزق احشاءه ، فهم بان ن يستغيث فوقفت الالفاظ في حلقه . ثم تراجع وهوى دون ان يقول لرجاله كلمة واحدة .

فتظاهر شرحبيل وابن مفروق بالسكر وقاما وهما يصيحان : لقد أغمي على الملك ، وكان نائل يصيح بدوره : مولاي الملك . مولاي الملك ! ودخلت نعمى ونائلة في تلك الساعة وارتفعت الاصوات .. ثم صحا السكارى عندئذ واقبلوا ينظرون الى الملك الحميري عند الاقدام

والملك الشاب ، يتلوى وعيناه مغمضتان .. وقوة الشباب تصارع قوتــين هائلتين : قوة الخمر ، وقوة السم ، حتى انتصرت الاثنتــان ، وانطرح عمرو بن ذي القرنين بين ذراعي الموت .

وبينا القوم يصيحون ويطلبون ان يحمل الملك الى حجرة بلقيس ، حــدث

عندئذ ما يشبه السحر ، فقد اقبلت ملكة حمير يتبعها ذو تبع وناشر وعتيك وهم يحملون السيوف ... وقبل ان يقص عليها نائل مـــا جرى لمولاه ، بل قبل ان تخرج صيحات الاضطراب والذعر من افواه رجال الملك ، احاط انصار الملكة باولئك الرجال ، وطوقت ايديهم سلاسل الحديد ، وسمع القوم ملكتهم تقول : احملوا الملك فقد اراد ان يموت ... ولعله ابلغ رثاء رددته تلك الاجيال ... ثم خرجت من القاعة كأنها لم تبصر الموت وقالت لهم : اتبعوني الى قاعة العرش ..

وامرت الحجاب ، قبل ان تدخل ، بان يغلقوا ابواب القصر . ثم دخلت ، وعلى ذلك العرش الذي شهد مجـــد ذي القرنين وعز خليفتـــه ، جلست بلقيس وضحيتها عند قدميها ونظرت الى الرجال المقيدين قائلة : انظر يا معدي كرب الى ملكك الذي اراد ان يذل بلقيس واختر لك مع رفيقيك واحدة من حالتين، اما ان تموتوا جميعكم في هذه الساعة وترقدوا حيث يرقد عمرو وامـــا ان تقيموا بالبلاط رهائن حتى نرى دلائل الاخلاص والوفاء .

وكان الرجال الثلاثة قد صحوا فجأة كما قرأت كأنهم لم يذوقـــوا الخمر ، فعرف معدي كرب ان الموت والحياة بين شفتي الملكة ، فآثر ان ينسى ملكه ، ويخسر قيادة الجيش ، ويعيش ، على ان يظهر العصيان ، ثم يموت ، فقال : لقد اخترت يا مولاتي ان اكون عبداً لك الى الابد واقسم بالالهة .

قالت : احذر ان تخدعنا فتخسر كل شيء ...

قال : لقد كنت من قبل يا مولاتي من رجـــال الملك ولو استطعت لقتلتك وانت في الفراش ، اما الان فليس في اليمن قوة تستطيع ان تفسد علي اخلاصي الجديد لهذا العرش الذي تجلسين فيه .. ان معدي كرب اذا وعد وفى بوعده ، فافعلي الان ما تشائين وسترين اني من اصدق الرجال .

فقالت : فكوه ، فقد صدقناه ، وستبقى يا معدي كرب قائداً كما كنت . وانت ماذا تقول يا عبد شمس ؟

ـــ لا ازيد كلمة على ما قاله معدي كرب ، وتذكر الموت .

ـــ لا اذكر الا اني انتقلت من عهد ملك الى عهد ملكة تكافىء الاوفياء .

وقال حاشد كما قال رفيقاه وكانت دلائل الاخلاص على الوجوه ...

فقالت لناشر : افتحوا الابواب لمذحج واجعلوها حول البــلاط ، وليكن معدي كرب وعبد شمس عوناً لابن مفروق اما حاشد فسيعلن الناس عند الصباح، موت الملك .

وقالت لنائل : ادع اربعة من عبيد القصر ليحملوا الملك الى قبره قبل بزوغ الفجر وسيقف الامراء عند جثة سيدهم حتى يغيبها التراب .

فجعل الامراء ينظرون الى الملك دون ان يخفق لهم قلب او تدمع لهم عين ، الا شرحبيل فقد احس ان قلبه يضطرب بين ضلوعه .

ودفن الملك بعد ساعة ، في قبر آبائه ، ولم يشعر القوم ، بعــد رجوعهم الى البلاط ، انه كان هنالك ملك يدعى عمراً ، اجل ، لقد ضيع المسكين هيبته ، في حياته ، وبعد موته ، ولم يعرف ، وهو حي ، ان يبعث هذه الهيبة ، الى النفوس، الا بوسائل الترويع ، وعلى حد السيف !

وطابت نفس ذي تبع ، في ذلك الليل ، ونام ملء جفنيه ..

* * *

٩٨

كانت مأرب قد تهيأت لحفلة الزواج ، في اليوم الثاني ، فلما طلعت الشمس ، سمع القوم حاشداً يقول : مات الملك عمرو بن ذي القرنين وخلفته الملكة بلقيس

فجعلوا يتهامسون ويعجبون من هذا الموت الفجائي الذي دهم الفتى القوي.

ثم تناقلت الافواه خبر السكر الذي شهــده مجلس الشراب امس ، وكانت النفوس في خلواتها تذكر السم ... ولا تجسر الالسنة على النطق بهذه الكلمة التي تغضب الجالسة على العرش .

وكان بنو مذحج يطوقون البلاط بالحراب ، وجيش معدي كرب وعبد شمس قد استسلم طائعا مختاراً الى قائديه،ثم اقبل ذو مغار وياسر وجبار والغوث وهم يهتفون مع جيشهم الكثير لسيدتهم الملكة ، وقد ظن القوم ان الاحتفال بالزواج مات بموت الملك ، غير انهم رأوا سرح أبين وكهانه وغلمانه يدخلون للقصر ، فايقنوا بان ذلك الاحتفال لم يمت ، وجعلت جواري البلاط وعبيده يرددون اسم همدان . وصدقت الظنون ، فقد كتب الكاهن الاعظم العقد ، وحمل الصدى هتاف الامراء والاشراف الى الوادي ، ولم تمر ساعتان ، حتى اصبح ذو تبع امير همدان زوجاً للارملة العذراء ، بلقيس بنت شرحبيل ، كأن عمراً ابن ذي القرنين ، لم يكن ، وكأن ذلك الحادث الغريب الذي طوته الليلة الماضية ، حادث عادي ، لا تعبأ بلقيس بأمثاله !!

ومهما يكن شأن هذا الحادث ، في نظر التاريخ . فهو في نظرنا مظهر من مظاهر النفس البشرية الضعيفة ، التي تثبت في كل زمان ومكان ان الكمال لله .

* * *

٩٩

لقد قرأت ، في الجزء السابق ، ان سني عمرو بن ذي القرنين على العرش ، كانت عشراً ، على رأي معظم المؤرخين ، اي انه تولى الملك سنة ٣٢٠ بعد المسيح ، ومات مسموماً سنة ٣٣٠ ، التي يفتر ثغرها لبلقيس ، وتبسم لها كما تبتسم الاحلام والامال ، وماذا بقي لبلقيس في الافق ؟! كانت هنالك ذروة من ذرى الشرف فجلست فوقها ، وكان هنالك عرش فتربعت فيه ، وذلك المجد الذي علت نفسها به انقادت اليها اسبابه صاغرة .. تعشقت المعالي ، فوضعت قدمها في الموضع الذي اوحت به المطامع الجبارة ، وأحبت اميرهمدان

فزفت اليه ، وكان الدهر عبداً لهذا الحب .. فلم يبق اذن الا ان ترتفع في فضاء المجد حتى تبلغ السماء ، وحتى تضفر لها الاجيال اكاليل النصر ... وكانزوجها طامعاً مثلها ، ليس لانه من اولئك الرجال الذين يركبون الاخطار ليجلسوا في عروش العظمة والفخار ، بل ليمهد لزوجته سبل الارتفاع .ويجعل اسمهاوهيبتها، ملء المسامع والاذهان ! كأنك تقول ، ان مطامعه كانت صورة لتلك المطامع التي يلمسها في نفس بلقيس ، ويرى أثارها كل يوم ، في حياتها على العرش ، فهو فتى خلق ليكون وفيا ، لتلك الفتاة الساحرة التي سادت اليمن ، بارادة حديدية بعزعزع الجبل ولا تتزعزع ، وكانت حياتهما كزوجين ، حياة عاشقين ، يمد الحب الدائم فوقهما رواقه ، واما العرش ... ان العرش لها وحدها ، والهمداني مثل جميع امراء المخاليف رعية له ، يخضع للارادة العالية .. وينفذ الامر الصادر من الشفتين المقدستين ، ولكنه لا يسجد في مجلس الملكة كما يسجد الاخرون !

انه سيد امراء اليمن ، كما هو شرحبيل والهدهاد ، وظل بلقيس يغطي اليمن من السهول الى الاودية ، ومن الشاطىء الى الجبل ، ظل خفيف محترم ، تبسطه ايدي الحكمة : واللين والدهاء ، وقد جعلت رجالها جميعهم امناء لها ، لا تكلم احدهم سراً ، ولا تنفرد في رأي ، كأن اولئك الامناء مجلس شورى هي رئيسته وفكره الناضج الرشيد .

ولكل رجل عمله في الدولة ، معدي كرب وعبد شمس قائدا المشاة والفرسان يرجعان الى قائد هام هو ذو تهم نفسه ، وناشروعتيك مستشارا العرش،وحاشد قهرمان البلاط يعاونه نائل ، اما أبوها وأخوها فليس لهما الا ان يشهدا مجلس الملكة ، ويشاركاها في الرأى ، ويكونا قائدين في ساحات الحرب ، اذا ظهر لبلقيس عدو .

واما الانصار الذين عرفت ، من ذى مغار الى جابر بن مفروق،فقد انصرفوا الى ارضهم يساعدون الملكة في حفظ الامن ونشر هيبتها في كل فضاء ، ولم يكن في اليمن ما يعكر على القوم صفو العيش ،الارض والسماء حليفتا بلقيس ،والناس عبيد لها يذكرون اسمها في الهيا كل على مسمع الالهة .. ووفود الامة العربية ،

من جميع الإقطار تحج اليمن لترى الملكة الحسناء ، حتى قيل انه لم يمر يوم الاوفي البلاط وفد عربي ، وحتى اعجب العلي اسكندي وسابور ذو الا كتاف بما سمعاه عن فتاة حمير فارسلا الى مأرب رسلا يحملون اخبارها اليهما .

اجل ، كانت مأرب في عهد بلقيس محجاً للغرباء ، حتى اذا رجعوا الى بلاد قومهم رجعوا حاملين الوية الاعجاب والثناء .. وبلقيس في ايام السلم لا تنام . كانت تشيد الحصون وتبني القصور ، وتجعل للجيش اليمني نظاما يشبه نظام جيش الفرس ، وتعني في اصلاح الداخل ، وتمهيد سبل السعة والرفاه لرعاياها اليمنيين ، وفي اليمن اليوم بقايا قصور يسمونها قصور بلقيس .

• • •

١٠٠

مرت عشرة اعوام جديدة على ملك بلقيس وكأنها في نظر اهل اليمن عام واحد كانت كلها اعوام بهجة ورخاء الا عامين اثنين قلَّ فيهما الغيث واجدب القوم ففرجت الملكة عنهم الغم ، واسكتت ، بالعطايا والاحسان ، اصوات الشكوى .

على ان العام العاشر كان عام حرب ، فقد اقبلت الرسل تقول : لقد عادت الحبشة الى الظهور في البحر ، على مراكب كثيرة يلاعب اشرعتها هواء الجنوب الحار .. وليس غريبا ان تشهر الحبشة سيفها على اليمن، في كل زمان ،فالحبشان يذكرون دم قومهم الذي شربته رمال الشاطىء اليمني ولا ينسون الثأر ! اضف الى ذلك ان قسطنطيوس قيصر الروم ،كان قد بعث رسله الى الحبشة يبشرون بالمسيح ، وينشرون النصرانية في تلك الاقاليم الواسعة ، وقد وعد الامراء والاشراف الذين يفكرون في فتح اليمن . بارسال الطوائف من جيشه تساعدهم

في ذلك الفتح ، وفوض الى كاهنه فرومنتوس سيد المبشرين ، الذي امسى بعد ذلك أسقفاً في اكسوم ، ان يغري الحبشان بالوعود والعهود ، فلقي فرومنتوس في الحبشة ارضا خصبة ، وارتفعت اصوات الاشراف عند قصر النجاشي قائلة: النصرانية واليمن .. ثم تغللت فكرة الفتح في الامة ، حتى اضطر العلي اسكندي المريض ، الذي يصارع الموت ، الى ارسال مراكبه الى الساحل اليمني تحمل الجيش الفاتح ! وكان العلي ، عميدة ، ولي عهد الحبشة ، فتى بعيد الخطر كبير الهمة ، يطمح الى التوسع في السلطان ونشر النفوذ الحبشي في كل قطر ، وهو الذي مهد الكاهن الرومي سبيل الفوز في مهمته ، على رجاء ان يمد للقيصر يده الى النجاشي . في حربه مع بلقيس .

على ان العلي عميدة ولي العهد ، لم يستطع ان يرافق الجيش الى الميادين ، بل لم يستطع ان يغادر قصر العلي اسكندي الذي لا يلبث حتى يلفظ الروح ..

ان الملك قبل الحرب ... ومن الحكمة ان يضع يده على العرش والتاج ، عندما يغمض الموت عيني النجاشي المسكين ! وكان اثنان من رجال النجاشي يقودان الجيش ، وهما يعلمان انهما يقودان الالوف التي تحارب هذه المرة عن عقيدة وايمان ، وقد ايقنا ، كما ايقن النبلاء والمقربون في اكسوم ، ان جنود القيصر ، ستتبع جنودهما الى الجنوب .

وكانت بلقيس قد عبأت جيشها وجعلته فرقاً اربعاً يقودها زوجها والهدهاد، ومعدي كرب وعبد شمس ،ولم يرض رجالها بأن تغادر البلاط وتعيش في الجنوب بضعة اشهر ، كما يعيش الجندي الذي نشأ في ساحات القتال : واوصت زوجها واخاها بان يعجل الجيش في الرحيل ، ليتهيأ ، في ذلك الشاطيء لخوض المجال، قبل ان تنزل الحبشة الى البر . وكانت واثقة بان الاثنين سيشرفان اليمن .

* * *

١٠١

كان العلي عميدة ، يكره احد القائدين اللذين وجها الى حرب بلقيس والقائد يعلم ان ولي العهد لا يحبه ولا يطيق ان يراه .. غير ان النجاشي كان راضياً عنه ، فلم يشأ الا ان يبعث به الى ساحة الشرف ، ليتم له الظفر ، على يد من يحب .

فلما وصل الجيش اليمني ، كانت الحبشة قد تركت مراكبها واعدت العدة للقتال ، بعد ان فتكت بعض حراس الشاطيء ، ولم يبق امامها الا ان تضع ايديها على الحصون والابراج التي آثر اصحابها الموت بعد الدفاع ، على الاستسلام وكان ذو تبع يعرف حيل الحبشان وعاداتهم في الميدان ، فامر اهل الابراج بالخروج الى الساحة ، وجعل الجيش قسمين يحمل احدهما السيف في هذا اليوم ، ويحل الاخر محله في اليوم الثاني ، وكانت الواقعة الاولى التي لم تتغير فيها مواقف الجيشين ، ولم ينل الخصم غرضه من الخصم .

ثم عقبتها واقعة اخرى اشد هولا واكثر خطراً ، فغطت الجثث ذلك الميدان الفسيح ، وكادت الحبشة تستظهر على صفوف اليمنيين . على ان ذا تبع كان يرى كل شيء ، وكان يعلم ان ذلك الاستظهار دفاع بائس ، وان جيشه الاخر الذي يتحفز للوثوب ، يستعيد مناعة صفوفه ، في لحظة واحدة ، عندما يأمره بالهجوم على عدوه ، ولكنه لم يحتج الى ذلك ، فقد ثبت اليمنيون كالجبل يثبت امام العاصفة ، ولم تستطع الحبشة ، تجاه هذا الثبات العجيب ، الا ان تتراجع الى الوراء ، عند غروب الشمس ، وتكف عن القتال ، قبل ان يسدل الليل ، ستاره الرائع ، وشاء القدر ، ان يحمل ذلك الليل الى الحبشان نعي النجاشي العلي اسكندي وجلوس العلي عميدة على العرش ، ويحمل اليهم نبأ آخر هو امر الملك بعزل القائد الذي مر ذكره ، عن القيادة وخضوعه لملك آخر هو حامل النعي نفسه ! . فاستولت الدهشة على الصفوف ، وأمست الحبشة حزبين هذا

يرى الخضوع للقائد الجديد وهذا يؤثر العصيان على الطاعة والالتجاء الى البحر راجعاً الى اكسوم ، ولم يطلع الصبح حتى عمد المتمردون الى الماء وتفرقت صفوفهم فوق سطحه ، فحسب ذو تبع ان في الامر خدعة ، ولكنه لم يلبث حتى رأى الذعر باديا على الوجوه ، فامر بجيشه كله بان يحيط بعدوه من الجهات الثلاث ، ويقذف به الى البحر كما تعود ان يفعل ، وتم لذي تبع ما اراد ، فان اهل الحبشة لم يثبتوا في المجال ، ولم يستطيعوا الا ان يلجأوا الى الفرار .

وقد قبض جيش بلقيس على طائفة من الفرسان ، وقادهم اسرى حرب الى مأرب لترى الملكة رأيها فيهم ، وجعل هؤلاء الاسرى يقصون على اليمنيين ، اخبار هذا التفرق ، ويصفون لهم العلي عميدة ، ملكهم البطاش الجديد ، وهكذا انتهت الحرب ، ولم تخسر بلقيس الا القليل من الرجال .

* * *

١٠٢

ارسلت اخبار جلوس العلي عميدة على العرش ، الى جميع الاقطار ، وكان قسطنطيوس ، اسبق الملوك الى ارسال الهدايا يحملها اليه بعض وجوه دولته ويهنئونه باسم امبراطور الشرق والغرب .

اجل ، كان العلي عميدة احب الى القيصر من العلي اسكندي واقرب اليه منه ، ان الاول جريء في نشر الدعوة وتعبئة الجيش ، اما الاخر فكان ضعيفاً متردداً في الامرين ، وملك الروم لا يريد ان يجفوه . وكانت بلقيس تعرف ماضي العلي عميدة وتسمع عن هوسه وميله الى الحرب ، الحكايات والاقاصيص ، ينقلها اهل مارب ، عن الحبشان ، لاجل ذلك لم تغتر بالنصر الذي تم لها ، يوم وصل الجنوب نبأ جلوسه ، ان ذلك النصر كان غفلة من غفلات القدر ، وهي لا تريد

ان تستسلم كل مرة الى الاقدار .

وكـانت تقول لمن حولها : اذا لم تعمد اليمن كلها الى السيف لتصون ملك حمير خسرنا كل شيء .

كأنها كانت ترى بعين الحكمة ، ان الذي يستطيع ان يفعله جارها الملك الجديد لم يستطيع ان يفعل مثله العلي اسكندي الميت ، وقد رأت اخيراً ان تبعث الى اكسوم طائفة من الجواسيس يرأسها حاشد ، واوصت الجميع بان يحفظوا ما يبصرون وينقلوا اليها ما تسمعه الاذان وتراه العيون ، والبستهم لباس التجار من اهل الهند وكانوا جميعهم يحسنون اللغة الحبشية ، كما يحسنها ابناء اكسوم ، فعلت ذلك في آخر العام الاول للملك الحبشي ، ولم يعد الوفد الا في منتصف السنة الثانية حاملا اليها اخبار القوم .

فقالت لحاشد ورجال البلاط في المجلس : ماذا رأيت في بلاد جيراننا ، قال: رأيت القوم يمشون بخطى واسعة الى النصرانية مذهب الروم !.

ــ ومن ينشرها ؟

ــ رجل ارسله القيصر يدعى فرومنتوس هو سيد الكهان في الحبشة .

ــ والملك ؟

ــ اما الملك فقد اصبح نصرانياً يا مولاتي وهو الذي يغذي مذهب القيصر ويمد يده الى كاهنه الذي يقضي ايامه كلها طائفاً في الاقاليم .

قالت : لينشروا المذهب الذي يشاؤون فهم احرار في بلادهم وليس لنا ان نهتم لمثل هذا .. قل الان الا يتحدث الناس في الحبشة بأمر الحرب ؟

ــ الحرب حديث الناس كلهم ايتها الملكة وتلك هي ارادة الملك الذي يعد العدة للزحف الى اليمن بكل ما في الحبشة من فيلة ، وشباب ، ورجال ، فاشرق جبينها قائلة : لا تستطيع الحبشة كلها ، ولو اجتمعت ان تجاوز الشاطىء ..

ــ ولكن هنالك طوائف الروم .

ــ ماذا ؟

ــ نعم يامولاتي فقد ارسل القيصر بعض رجاله يجعلهم العلي عميدة في مقدمة

الجيش .

ـ ورأيت انت هؤلاء الرجال ؟

ـ اجل ، ثم سمعت انه سيجيء الى اليمن طوائف اخرى في العام المقبل حتى يصير عدد الروم في الحبشة عشرين ألفاً ..! فاطرقت بلقيس ، تفكر فيما سمعت ، وقلبها يضطرب ، ان اليمن اذا ثبتت في وجه الحبشان فهي لا تستطيع ان تثبت في وجه الرومان .

واي نبأ هو الذي يحمله حاشد ؟ ايطلق القيصر جنوده على اليمن وبلقيس في مأرب لا تطوف في الاقاليم ولا ترى الرؤساء والزعماء ؟ ايحشد الجيش في البلاط أتهيأ بلادها لرد الغزاة وهي بين الوصائف والعبيد والغلمان ؟. لا .. ان بلقيس لم تخلق لتتمرغ في احضان الدلال بل لتخوض المجال تحت ظلال السيوف وتصعد في سلم المجد الى السماء ! ثم رفعت رأسها قائلة : اتظن يا حاشد ان الحرب ستنشب في هذا العام ؟

ـ لا يا مولاتي فالحبشة اضعف من ان تتهيأ للحرب المقبلة في خلال عامين.

ـ اذن لم يبق الا ان نتهيأ لها بدورنا ، في هذين العامين .. ورأت ، قبل ان تمضي في امرها ، ان تسترشد برأي رجالها ، فقالت لعتيك : رأيك الان ايها الامير وكان الرجل غائصا في لجة التفكير ، فقال : ارى ان تبعث الملكة وفداً الى العلي عميدة ينظر معه في وضع حد للحرب حقنا للدماء .

قالت : هذا هو الذل الذي لا تريد الملكة ان تلوث شرفها به •

ـ بل هو الدهاء يا مولاتي تستعينين به على بلوغ للغاية ••

ـ لا نعمد الى الدهاء ، في مثل هذه الحال ، الا اذا غلبنا على امرنا ، ونحن لم نغلب بعد •

ـ ولكن اليمن لا تستطيع ان تتصدى للقيصر ••

قالت : خير لنا ان نموت ونحن شرفاء ، من ان يستخف بنا صاحب الحبشة اتراه نسي ان الجيش اليمني تعود ان يصبغ البحر ، كل مرة ، بدماء قومه ؟؟

ـ وهل نقدر ان نصبغه هذه المرة بدماء الروم ؟

ــ من يعلم فقد تكون رقاب الروم ثمنا لهذه العداوة التي يظرهـا القيصر ، لشعب ليس له معه شأن ٠

فقـال ذو تبع : سيظن العلي عميدة ، اذا ارسلنا اليه من يحدثه بأمر الصلح ، ان الملكة تخاف الحرب ، وتخشى ان تلعب بالنار ٠٠

وهكذا قال معدي كرب وعبد شمس ، وظل شرحبيل والهدهاد ساكتين لا يقولان كلمة ولا يبديان رأيا ، اما عتيك فقال : رأي آخر ايتها الملكة ٠

ــ اسمعنا اياه

ــ الا ترين ان نضع ايدينا بيد قسطنطيوس نفسه ؟

ــ وكيف يكون ذلك وهو حليف الاعداء ؟

قال : من مصلحة الروم يا مولاتي ان يحالفوا أصحاب القطر العربي ليكونوا اعوانا لهم على سابور الفاتح ٠

قالت : انسيت ان القيصر يدعو الناس اليوم الى اتباع دينه ؟

ــ ليفعل ما يشاء فليس لنا في دينه رأي ٠

ــ ولكنه سيشترط علينا ان ينتصر اليمنيون كما يتنصر الحبشان ٠

قال : اجعليني رسولك اليـه يا مولاتي تري غير ما تظنين ، فعلت اصوات القوم قائلين : ما لنا وللروم فنحن لا نترك آلهتنا ! فأسكتتهم قائلة : لقد انتهينا الان فسنحارب الدولتـين وننتصر على الملكين ولو جعلا جيشهما من عصائب الجن ٠٠ وجعلت تنظر معهم في شؤون الجند القادر على حمل السيف ، ثم طلبت اليهم ان يتهيأوا للطواف معها في المخاليف لتنفخ في صدور القوم روح الحرب ٠

وقالت لابيها : اما انت يا ابي فقد عهدنا اليك في امر العرش ريثما نعود ٠٠

ولم تتردد فيما فكرت فيه ، بل نهضت لتعد عدة الرحيل ، وتبعها زوجهـا والهدهاد ليساعـداها في ذلك الامر ٠ واما عتيك فمشى متثاقلا وكان يقول لشرحبيل : ويل اليمن اذا خرجت من يد بلقيس ...

* * *

١٠٣

نحن الان في سنة ٣٤٥ ، وقد مر على الحبشة ، بعد موت العلي اسكندي ، خمسة اعوم كاملة ، كان العلي عميدة يتهيأ فيها الحرب ! حتى ملأ جيشه اكسوم وما حولها من جبل وسهل ، وحتى روضت الاميال على القتال . وكان القيصر قد ارسل جنوده ، ليخضعوا اليمن لحليفه النجاشي ، وهم بضعة عشر الفا جميعهم رجال شدة وبأس ، وقد استطاعت بلقيس ، في السنواتي الخمس التي مضت ، ان توجه الى الميدان جيشا لم تر اليمن مثله منذ وجد حمير .

ولكن جسدها النضير الغض ، هوى تحت وطـأة الطواف الشاق ، والسهر المضني ، والجهد المستمر ، حتى انها لم تستطع الرجوع الى مأرب ، الا في محفة يحملها الرجال ! . كأنها ارادت ان تخسر حياتها ، قبل ان تخسر المجـد الذي تربعت في قمته ، فبذل الكهان ــ وهم الاطباء ــ جهدهم كله ليعيدوا النضارة الى ذلك الوجه ، والقوة الى ذلك الجسم الهاوي ، فلم يقدروا ، وضاعت صلوات اليمنيين وادعيتهم كما يضيع الصدى في الوادي ، وكما ضاع مجهود زوجها وابيها واخيها ، في معالجة المرأة التي عبدوها كما عبدوا الالهة .

مسكينة بلقيس ، انها لم تبلغ الخريف من العمر ، فهـي في العقد الخامس وطموحها العجيب لم يرتو من العز .

مسكينة بلقيس ، فقد مضى على زواجها وملكها خمسة عشر عامـا ولم تنعم الالهة عليها بولد يرث العرش ، فجعلت اخاها ولياً لعهدها ، وفوضت اليـه ، عندما صرعها الداء ، ان يشهر باسمهـا الحرب ، ويعقد للصلح كأنـه هي ، وشرطت عليه ، ان يشاركه زوجها في الرأي .. على ان صـاحب همدان لم يكن يبالي الا بزوجته . واي طمع له في ابهـة الملك اذا كانت جواهر التـاج

الحميري لا تتلألأ فوق رأس بلقيس ، بل اي طمع له في اليمن كلها اذا اغمض الموت عيني بلقيس وانطفأ ذلك الشعاع الذي كان نـوراً لنفسه وقلبه ! اجل ، لقد جاوز ذلك الزوج الوفي ، جميع حدود الوفـــاء وكان يقول لرجال البلاط : اقسم بالالهة اني ساحب الموت اذا وضع الموت يده على من احببت ، ولم يشأ ان يرافق الجيش الذي خرج للدفاع عن الوطن ، لانه كان واثقا بان هذا الوطن سيضيع اذا لم تكن بلقيس حية تحت سمائه ! كذلك فعل شرحبيل الشيخ ... ارادت ابنته ان يرأس مع الهدهـــاد جيش الجنوب فلم يرض ، ومكث الاثنان بالبلاط يعالجان الملكة الجبارة بالعناية والحب ، مع طائفة من الوصائف الكهان. وعندما كان الجيش اليمني يمشي بخطى سريعة الى غايته ، كانت حسناء اليمن ، ولؤلؤة العرب ، تمشي بخطى سريعة ، الى القبر ، فالمجد والعز لله الذي لا يموت .

• • •

١٠٤

تراجع جيش الهدهاد ، مضطربا مغلوبا ، والذعر يملأ قلوب رجاله .

وماذا تفعل اليمن وروما والحبشة تمتشقان الحسام ومراكبهما تتهادى فوق المياه وهي تقذف الجنود كالجراد الى الشاطئ. ؟؟

وكيف يكتب النصر لبني حمير وملكتهم المعبودة التي يهب وجهها لهم النصر، تتقلب بين ذراعي الموت ، وابوها وزوجها اللذان هما سيدا الميادين ، يقيمان بالبلاط فريسة للالم والكآبة ؟

ان لكل جيش ، قوة معنوية تكمن في شخصيات بعض رجاله لا تذكر معها السيوف والحراب .

لقد كان كل شيء ،في ذلك الميدان النائي ، يحارب الهدهاد ، الهم من جانب وحراب العدو من جانب ، ولا تنس الافيال فقد كانت وجدها جيشا مدربـــا تحسبه جلاميد صخر ...

لاجل ذلك خسر الهدهاد الحرب ، بل خسر البلاد التي جعلته الاقدار سيدها بعد اخته ، وخسر ما ورثه من تلك الاخت من العز ..

كان الغازي ينتقل من فتح الى فتح ، ومن نصر الى نصر ، والهدهاد يتراجع هاربا من ضرباته ، حتى استسلمت شواطيء الجنوب على طول الخط ، وخضعت لسيف الغالب للقوي ، تريم ، وشبام ، وشبوة ، القريبة من مأرب والتي جعلت مقراً لجنود الفاتح .

ثم اطلقت مراكب النجاشي ، رجالها من الجانب الاخر ، فاستولى اولئك الرجال ، على مخا ، ثم انتقلوا الى ظفار ، ونزل جيش آخر في صنعاء ثم توغل فضرب خيامه في صرواح ، ومعنى هذا ان اليمن خرجت من ايدي اصحابهـــا واصبحت مأرب من نواح ثلاث ضمن نطاق من السيوف .

وكان الهدهاد مع فلول جيشه ، قد رجع الى مأرب وهو دامي الفؤاد ، دامع العين ، رجع ليحتمي وراء سورها المنيع مـــع انصاره الامناء ، ويقص على شقيقته اخبار تلك الهزيمة التي لوثت حمير بالذل والعار .

ولكن تلك الاخبار كانت تبلغ بلقيس وهي تودع الحياة ، ولم يدخل الهدهاد البلاط الا ليرى صاحبة العظمة والسلطان ، جثة خرساء ..

اجل .. ماتت بلقيس وهي ترى الدموع في عيون ابيها وزوجها ووصائفها وغلمانها .. ماتت وهي تنظر الى التـــاج ، نظرة المستخف بالحياة ، وكـــانت تقول:

سأموت وسيموت بعدي مجد حمير ، فلتذكر اليمن ماضيها ولتسترجع هذا المجد .

ولم يذكر التاريخ ، كيف مات ذو تبع وشرحبيل ، بل لم يذكر بعدها أحداً من رجالها غير الهدهاد ، وكأن موتها موت لجميع اولئك للرجال ..

ولبس اهل مأرب السواد على ملكتهم ، وحملوا نعشها ثلاثة ايام يطوفون به في ساحات القصر ، ثم دفنوها وهم يعلمون انهم دفنوا الامال ...

* * *

١٠٥

ظل الهدهاد ملكاً ولكن بالاسم ... واي شأن للملك المغلول اليدين ؟

نعم ، لقد رحمه التاريخ فأحصى سني ملكه ، بعد موت بلقيس ، وكانت هذه السنون ، ملكاً لسواه ...

على ان القريب الى الذهن ، انه كان مالكاً في ظل الحبشة ، بل قل كان عاملا للنجاشي ، يخضع لارادته كما يخضع الضعيف للقوي .

نقول هذا ، والتاريخ يشهد ، ان «العلي عميدة» تولى امر اليمن والحبشة ، بعد ذلك الظفر ولكنه لم يعش غير ثلاثة اعوام ، توفي سنة ٣٤٨

وخلفه ولده « عبز اناس » اي اذينة ، كما يقول « غلازر » من سنة ٣٤٨ الى سنة ٣٦٥ ، ثم جلس على العرش بعده اخوه سازاناس « شاذان » الى سنة ٣٧٤ ، حيث توفي وتوفي الهدهاد .

وفي خلال التسعة والعشرين عاماً ، التي مرت على وفاة بلقيس ، كانت اليمن تتمخض لتلد رجلا حميرياً يرث عرش آبائه ، ويعصب رأسه بتاجهم الذهبي ، وقد انبتت اليمن هذا الرجل ، فهو تبع « ملكيكرب ينعم » تولى الملك بعد موت شاذان والهدهاد وطرد الحبشان من بلاده ، ومع ذلك التاريخ ، الى سنة ٥٢٥ ، واليمن في قبضة الحميريين ، ثم فتحتها الحبشة ، آخر مرة كما سيجيء .

اما الملوك الذين خلفوا ملكيكرب ، فهم ولده ابو كرب اسعد ، ثم حسان بن اسعد ، ثم شرحبيل بن اسعد ، ثم شرحبيل بنوق ، ثم معدي كرب ينعم وابنه

لهيعة وثم مرثد اللات ينوف ، ثم ذو نواس ويسميه اليونان دميانوس ، الذي انتهى ملكه سنة ٥٢٥ .

ويذكرون بعد ذي نواس ، ذا جدن ، ولكن هذا لم يكن له حكم .

• • •

١٠٦

لقد ذكرنا ،لقراء الليالي ، في رواية الملك الغساني « الحارث الاكبر » شيئاً عن هذا الفتح الاخير الذي مر ذكره .

ولكننا لم نتبسط في ذكر الاسباب كما نتبسط الان .

اقرأ هذا الفصل ، عن كتاب العرب قبل الاسلام :

«اختلف الرواة في سبيل هذا الفتح ، فالمؤرخون العرب ينسبونه الى اضطهاد اليهود للنصارى وكانت اليهودية قد دخلت اليمن على يد احد ملوك حمير ورغب فيها الناس فانتشرت في اليمن كلها ، وكانت دولة الروم قد تنصر قياصرتها واخذوا يهتمون بنشر النصرانية وتأييدهـا ويستعينون بها ، على نشر نفوذهم وتوسيع دائرة تجارتهم ، فارسل بعضهم فرومنتوس « الذي ذكرناه » الى الحبشة فنشر النصرانية فيها ، ثم اخذت تتسرب الى جزيرة العرب ، وخصوصاً نجران وعدن ، وارسلوا اليهما الكهنة ،وبنوا في نجران مزاراً عرف بكعبة نجران ، فيه القسيسون والرهبان ، وأفضت حكومة حمير ، في اوائل القرن السادس « سنة ٥٢٥ » الى ملك منهم ــ قرأت اسمه الان ــ هو ذو نواس وكان شديد التعصب لليهودية ، فغزا اهل نجران ، ثم حصرهم ، ثم ظفر بهم ، فخدد لهم الاخاديد ، وعرض عليهم اليهودية فامتنعوا فحرقهم ، وحرق الانجيل ، وهدم بيعتهم ثم انصرف

الى اليمن . وافلت منه رجل اسمـــه دوس ثعلبان على فرس أركضه حتى اجعز القوم في الرمل ومضى الى قيصر الروم يستغيث به .

فاعتذر القيصر ببعد الشقة ، ولكنه كتب الى ملك الحبشة يحرضه على نصرته وفتح اليمن . فلما وصل كتاب القيصر الى النجاشي ، امر احد قواده « ارباط » ان يخرج معه فينصره .

فخرج ارباط في سبعين الفاً وقود على جنـــده قواداً من رؤسائهم ، واقبل بفيله وكان معه ابرهة بن الصباح .

وكتب ملك الحبشة لارباط عهداً جاء فيه :

« اذا دخلت اليمن فاقتل ثلث رجالها ، وخرب ثلث بلادها ، وابعث الي بثلث نسائها ... »

فخرج ارباط في الجنود ،فحملهم في السفن في البحر ، وعبر بهم حتى وردوا اليمن وقد قدم مقدمات الحبشه ، فراى اهل اليمن جنداً كثيراً فلما تلاحقـــوا قام ارباط في جنده خطيباً فقال :

« يا معشر الحبشة انكم لن ترجعوا الى بلادكم ابداً . هذا البحر بين ايديكم ان دخلتموه غرقتم وان سلكتم البر هلكتم واتخذتكم العرب عبيداً فليس لكم الا الصبر حتى تموتوا او تقتلوا عدوكم » فجمع ذو نواس جمعاً كثـــيراً ثم سار اليهم فاقتتلوا قتالا شديداً فكـــانت الدولة للحبشة فظفر ارباط وقتل اصحاب ذي نواس وانهزموا في كل وجه .

فلما خاف ذو نواس ان يؤسر ، أركض فرسه واستعرض به البحر وقال : الموت في البحر احسن من الاسر ، ثم اقحم فرسه لجـــة البحر فمض به الفرس وكان آخر العهد به .

ثم خرج اليهم ذو جدن الهمداني في قومه ، فناوشهم وتفرقت عنه همدان ، فلما تخوف على نفسه قـــال : ما الامر الا ما صنع ذو نواس واقحم فرسه البحر فغرق ...

ودخل ارباط اليمن ، فقتل ثلثاً وبعث ثلث السبي الى ملك الحبشة ، وخرب

ثلثاً ، وملك اليمن ، وقتل اهلها وهدم حصونها .

* * *

١٠٧

ذلك ما ترويه العرب عن اسباب الفتح ، واما اليونان فينسبونه الى سبب تجاري مالي .

وذلك ان اليمنيين لما تضعضعت احوالهم بتقهقر دولتهم وخروج مقاليد التجارة من ايديهم ، كان الروم قد اخذوا ينشرون نفوذهم في الشرق بواسطة النصرانية ، وتيسر لتجارهم المرور في بلاد اليمن ، بين خليج العجم والبحر الاحمر ، يحملون تجارة الهند الى الحبشة ، ثم الى مصر ، والعرب يشق ذلك عليهم ولا حيلة لهم في منعهم فجعلوا يضايقونهم في الرواح والمجيء .

وأراد الفرس في اثناء ذلك ان يعرقلوا مساعي الروم اعدائهم القدماء في متاجرهم ، عن طريق جزيرة العرب ، فنزل جند منهم بشواطيء خليج العجم من جزيرة العرب . فارسل القيصر يوستين الى بني حمير ان يردوا الفرس عنهم ، وبعث من جهة اخرى الى الحبشان ان يأخذا بأيدي تجار الروم في ذلك السبيل ، كذلك فعل يوستنيان لما ولي ، ولم يطل عهد الوفاق فعادت العرب الى معارضة قوافل الروم ، قال تيوفانس : واتفق في اوائل القرن السادس ، ان الحميريين تعدوا على تجار الروم ، في اثناء اجتيازهم اليمن ، بتجارتهم الهندية ، وقتلوا جماعة منهم ، فتوقفت حركة التجارة ، فشق ذلك على الحبشة ، فتجندت لفتح الطريق ، وقطعت البحر الاحمر ، تحت راية ملكها هداد ، وحاربت حمير ، فقتلت ملكهم دميانوس « اي ذا نواس » وجددوا المعاهدة مع قيصر الروم يوسنتيان ، على شرط ان ينتصر اهل اكسوم .

وارسلوا الى الاسكندرية وفداً يطلبون قسيساً يعمدهم ويعلمهم فارسل اليهم رجلا تقياً اسمه يوحنا صار بعدئذ اسقفاً على اكسوم ، وبعد ان اقتصت الحبشة من الحميريين، انسحبت الى بلادها فعاد الحميريون الى ما كانوا عليه وعادت التجارة الى الانقطاع .

فأعاد اليسباس ملك الحبشة الكرة ، وفتح بلاد اليمن فتحاً بحملة كبيرة حارب بها الحميريين وغلبهم على بلادهم وولى عليها اميراً مسيحياً اسمه اسيافيوس، واوعز اليه ان يحمل اهلها الى النصرانية استنجاداً بالدين على السياسة ، وقد استعان باسقف اسمه جريجنتوس كان خطيباً مفوها وعالما كبيراً على ان يبذل جهده في ذلك السبيل .

ولم يطل حكم اسيافيوس على حمير ، لانهم ثاروا عليه وخلعوه ، فارسل اليسباس جنداً لاخضاعهم ، فانضم الجند الى العصاة ، ولكنه عندما يئس من اذلالهم ، قنع بعقد الصلح بينه وبينهم .

تلك هي اقوال اليونان عن اسباب الفتح ، ولعلها اقرب الى الوقائع لانها مأخوذة عن مصادر كتبها اصحاب الشأن المعاصرون ، وقد عثر الضابط ولستد، في شواطىء اليمن ، على مرتفع اسمه حصن غراب ، او حصن الغراب ، عليه نقوش بالحميرية قرأها المستشرقون بعد ذلك فاذا فحواها :

« ان سميفع أشوى واولاده .. نقشوا هذا التذكار في حصن مويجت «حصن غراب » لما رمموا اسوارهم ورواياهم ودروبهم في الجبال وتحصنوا فيه بعد ان فتحوا اليمن وغلبوا اهلها وفتحوا طريق التجارة في ارض حمير وقتلوا ملكها واقياله الحميريين والارحابيين » .

فاذا كان المراد بالسميفع واولاده قواد حملة الحبشة فيكون ذلك اقرب الى ما ذكره اليونان لان السميفع يشبه لفظ اسيافيوس ، المتقدم ذكره .

لكنهم قرأوا على آثار اليمن ، اسم القائد الحبشي ، كما ذكره مؤرخو العرب « ابرهة » مكتوباً في « خرطوش » بالخط الحميري ، كما كان الفراعنة يكتبون اسماءهم ،وبجانب اسم ابرهة ، خرطوش ، باسم اراحميس زبيمان ، الملك الحبشي

الذي ارسله .

وقد وصف العرب تمرد بعض الحبشان ، المشار اليهم ، على البعض الاخر ، قالوا :

ان بعض قواد ارباط ، نقموا عليه تميز بعضهم بالعطاء او الغنائم ، فاجتمعوا بقيادة احدهم ابرهة وحاربوه .

قال الطبري في تاريخه ، عن ابن اسحق :

« انحاز الى كل واحد منهما ، اي ارباط وابرهة ، طائفـة من الجيش ، ثم سار احدهما الى الاخر ، فلما تقارب الناس ودنا بعضهم من بعض ، ارسل ابرهة الى ارباط :

ان الحبشة اذا اشتبكت سيوفها تفنى ، فابرز لي وابرز لك فأينا اصاب صاحبه انصرف اليه جنده .

فأرسل اليه ارباط : لقد انصفتني فاخرج .

فخرج اليه ابرهة ، وكان رجلا قصيراً لحيماً ، وكان ذا دين في النصرانية ، وخرج اليه ارباط وكان رجلا عظيماً طويلا ، وفي يده حربة ، وخلف ابرهـة ربوة تمنع ظهره وفيها غلام يقال له عتودة .

فلما دنا احدهما من صاحبه رفع ارباط الحربة فضرب بها على رأس ابرهة يريد يافوخه ، فوقعت الحربة على جبهته فشرمت حاجبيه وعينه وانفه وشفتـه فبذلك سمي ابرهة الاشرم .

وحمل عتودة غلام ابرهة على ارباط ، من خلف ابرهة فقتله وانصرف جند ارباط الى ابرهة وانضوت الحبشة في اليمن تحت لوائه ، وكان كلما صنع ابرهة ، بغير علم النجاشي ، فلما بلغه ذلك ، غضب غضباً شديداً وقال : عدا على اميري فقتله بغير امري ؟!

ثم حلف لا يدع ابرهة حتي يطأ بلاده ويجز ناصيتـه ، فلما بلغ ذلك ابرهة حلق رأسه ، ثم ملأ جراباً من تراب اليمن وبعث بذلك الى النجاشي وكتب اليـه :

ايها الملك ، انما كان ارباط عبدك وانا عبدك فاختلفنا في امرك وكل طاعته لك الا اني كنت اقوى منـــه على امر الحبشة ، واضبط لها واسوس لها ، وقد حلقت رأسي كله حين بلغني الملك وبعثت اليـــه بجراب من تراب اليمن ليضعه تحت قدميه فبر في قسمه ...

فلما انتهى ذلك الى النجاشي ، رضي عنه وكتب اليه : ان اثبت على عملك بارض اليمن حتى يأتيك امري .

فلما رأى ابرهة ان النجاشي ، قد رضي عنه وملكه على الحبشة وارض اليمن بعث الى ابي مرة ذي يزن ، فانتزع منه امرأته ريحانة ابنة علقمة بن مالك بن زيد ابن كهلان وكانت قد ولدت لابي مرة ، معدي كرب ، فولدت لابرهة مسروقاً وبسباسة ، وهرب منه ابو مرة .

وظل ابرهة على عرشه عشرين سنة ، وخلفه ابنـــه يكسوم فملك تسع عشرة سنة ، ثم ملك اخوه مسروق اثنتي عشرة سنة .

ونشرت الحبشة ، النصرانية في حمير ، في اثناء هذا الحكم ، فبنى ابرهة في صنعاء كنيسة كبيرة سماها « القليس » تحريف اسم الكنيسة في اليونانية ، وبالغ في تزيينها واتقانها فنقشها بالذهب والفضة والزجاج والفسيفساء وألوان الاصبـــاغ وصنوف الجواهر ، وجعل فيها خشباً له رؤوس كرؤوس الناس ، وجعل على خارج القبة برنساً فاذا كان يوم العيد كشف البرنس عنها فيتلألا رخامها مـــع الوان الاصباغ حتى تكاد تخطف البصر .

وكتب على بابها بالحرف المسند :

« بنيت هذا لك من مالك ليذكر فيه اسمك وانا عبدك » كما يقول يا قوت.

وطال البلاء على اليمن ، فقد ذلت في ذلك الفتح الاخير ، اربعاً وسبعين سنة ، من ارباط الى مسروق . وكان بين امراء حمير ، رجل اسمه سيف بن ذي يزن ، فاستنجده قومه ، فخرج حتى قدم على قيصر الروم ، فشكا اليه ما هم فيـــه ، وطلب ان يخرج الحبشة ويليهم هو ، ويبعث اليهم من شاء من الروم فيكون له ملك اليمن ، فلم يجد عند القصر شيئاً مما يريد .

فخرج حتى قدم الحيرة ، على النعمان بن المنذر ، فشكا اليه مـــا هم فيه من الذل والبلاء ، فقال النعمان : ان لي على كسرى وفـــادة في كل عام فأقم عندي حتى يكون ذلك فأخرج بك .

فأقام عنده حتى خرج النعمان الى كسرى ، فخرج معه ، فلما قدم النعـــمان على كسرى وفرغ من حاجته ذكر له سيفاً وما قدم له ، وسأله ان يأذن له في المثول بين يديه ، ففعل ، وكـــان كسرى اذا استوى في مجلسه ، ادخل رأسه في تاجه المعلق الذي لا تستطيع عنقه ان تحمله ، فلما دخل ابن ذي يزن ، سجد له ثم قال : ايها الملك ، غلبتنا على بلادنا الاغربة ، اي العبيد الذين يشبهون الغربان،

فقال كسرى : اي الاغربة ، الحبشة ام السند ؟.

ـ الحبشة يا مولاي فقد جئت لتنصرني عليهم وتخرجهم عني ويكون ملك بلادي لك فأنت احب الينا منهم ، قال : بعدت ارضك من ارضي وهي ارض قليلة الخير انما بها الشاء والبعير وذلك مما لا حاجة اليه .

ثم امر له بعشرة الاف درهم وكساه كسوة حسنة .

فخرج سيف وجعل ينثر دراهمه للنـــاس ينهبها الصبيان والعبيد والاماء .

فقيل لكسرى : العربي الذي اعطيته ما اعطيته ينثر دراهمه للناس ينهبها العبيد والصبيان !!

فقال ان لهذا الرجل شأناً ائتوني به .

فلما دخل عليه قال : عمدت الى حباء الملك الذي حباك به تنثره للناس ؟

قال : وما اصنع بالذي اعطاني الملك وجبال ارضي فضة وذهب ؟ انما جئت ليمنعني الملك من الظلم ويدفع عني الذل !! فجمع كسرى ومرازبته واهل الرأى الذين يستشيرهم في امره وقال : ما ترون في هذا الرجل وما جاء لاجله ؟

فقال قائل منهم : ايها الملك ان في سجونك رجالا قد حبستهم للقتل فلو انك بعثبهم معه فان هلكوا كان الذي اردت بهم وان ظهروا على بلاده كان ملكـــاً ازددته الى ملكك .

فقال : هذا هو الرأي احصوا لي كم في سجوني من الرجال .

فوجدوا في السجون ثمانماية رجل ، فقال : انظروا الى افضل رجل منهم حسباً وبيتاً واجعلوه عليهم .

فوجدوا رجلا يـدعى وهرز وكان ذا سن ، فبعثه مع سيف وامره على اصحابه ، ثم حملهم في ثماني سفائن في كل سفينة مائة رجل .

فخرجوا حتى اذا خاضوا البحر غرقت سفينتان بما فيهما ، فخلص الى ساحل اليمن من ارض عدن ست سفائن فيهم ستمائة رجل .

فلما انتهوا الى ارض اليمن ، قال وهرز لسيف :

ما عندك الان ؟

قال : ما شئت من رجل عربي وفرس عربي ثم اجعل رجلي مع رجلك حتى نموت جميعا او نظهر جميعا .

وجمع سيف من استطاع من قومه ، وسمع بهم مسروق بن ابرهة فجمع اليه جنده من الحبشة ثم سار اليهم .

فلما تقارب الناس بعث وهرز ابناً له كان معه يقال له نوزاد على جريدة خيل وقال له : ناوشهم القتال حتى ننظر كيف قتالهم .

فخرج اليهم فناوشهم شيئا من قتال ، ثم تورط في مكان لم يستطع الخروج منه فقتلوه ، فزاد ذلك وهرز حنقاً عليهم . ثم اصطفت الصفوف فقال وهرز: اروني ملكهم .

فقالوا : ترى رجلا على فيل عاقداً تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء ؟

قال : نعم .

فقالوا : هذا ملكهم .

قال : اتركوه ... ثم وقفوا طويلا ، فقال : على ما هو ؟

قالوا : قد تحول على الفرس .

فقال : اتركوه ... فوقفوا طويلا ، ثم قال : على ما هو ؟

قالوا : قد تحول على البغلة .

قال : ابنة الحمار ؟ ذل وذل ملكه هل تسمعون ؟ اني سأرميه ، فأن رأيتم

اصحابه وقوفاً لم يتحركوا فاثبتوا حتى اتكلم فاني قد اخطأت الرجل ، وان رأيتم القوم قد استداروا به فقد اصبت الرجل فاحملوا عليهم ، ثم اوتر قوسه وكانت لا يوترها غيره من شدتها ...

ثم امر بحاجبيه فعصبا له، ثم وضع في قوسه سهما فغط فيها حتى اذاملأ ها ارسلها فصك بها الياقوتة التي بين عينيه فتغلغل السهم في رأسه حتى خرج من قفاه وتنكس عن دابته ، واستدارت الحبشة به .

فحملت عليها الفرس ، فانهزم الحبشان وقتلوا وهرب شريدهم في كل وجه. فأقبل وهرز يريد صنعاء يدخلها ، حتى اذا اتى بابها قال لا تدخل رايتي منكسة ابداً اهدموا الباب .

فهدم باب صنعاء ، ثم دخلها ناصباً رايته يسار بها بين يديه .

فلما ملك اليمن ونفى عنها الحبشة ، كتب الى كسرى :

لقد ضميت لك اليمن واخرجت من كان فيها من الحبشة .

وبعث اليه بالاموال .

فكتب اليه كسرى يأمره بان يملك سيفاً على اليمن وارضها وفرض كسرى على سيف خرجاً وجزية يؤديها اليه في كل عـــام ، وقد قرأت شيئاً من هذا في أول من هذه الرواية .

وكتب كسرى الى وهرز ان ينصرف اليه فانصرف واستوى سيف بن ذي يزن في العرش اليمني ، عرش اجداده الحميريين .

وفي ذلك يقول امية بن ابي الصلت الثقفي من قصيدة :

لا يطلب الثأر الا كابن ذي يزن	في البحر خيم للاعداء احوالا
اتى هرقل وقد شالت نعامتهم	فلم يجد عنده بعض الذي قالا

ومنها :

من مثل كسرى شهنشاه الملوك له،	او مثل وهرز يوم الجيش اذ صالا
لله درهم من عصبة خرجوا	ما ان ترى لهم في الناس امثالا
غر جحاجحة ، بيض مرازبة ،	اسد تربب في الغيضات اشبالا

ومنها :

فاشرب هنيئاً عليك التاج متكئاً، في رأس غمدان داراً منك محلالا

ثم عدا سيف على الحبشة . فجعل يقتل رجالها ويبقر نساءها عما في بطونهن حتى اذا افناها الا بقايا منها قليلة ذليلة فاتخذهم حراساً وخولا يسعون بين يديه بالحراب .

ومكث على ذلك حيناً غير كثير ، ثم خرج يوما وحراسه الحبشان معه يسعون بالحراب . حتى اذا كان في وسط منهم جعلوا يطعنونه بحرابهم حتى قتلوه ، ووثب رجل منهم فقتل باليمن وافسد .

فلما بلغ ذلك كسرى ، بعث اليهم وهرز في اربعة الاف من الفرس وامره بان لا يترك في اليمن اسود ولا ولد عربية من اسود الا قتله صغيراً او كبيراً ولا يدع رجلا جعداً قد شرك فيه السودان الا قتله .

فأقبل وهرز حتى دخل اليمن ، ففعل ذلك ولم يترك بها حبشيا الا قتله ، ثم كتب الى كسرى بذلك .

فأمره كسرى عليها فكان عليها حتى هلك .

ثم خلفه ابنه المرزبان حتى هلك .

وقام بعده حفيده خرّ خسره ، فغضب عليه كسرى فعزله عن الامارة وولى رجلا يدعى باذان لم يزل عليها حتى بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم .

وكانت الحبشة قد جعلت صنعاء عاصمة لليمن ، والملك يجلس في قصر غمدان العظيم الباقية اثاره الجبارة الى اليوم .

وصنعاء مدينة طيبة الهواء تغنى الشعراء في وصفها واطراء هوائها وطقسها، قال ابو محمد اليزيدي من قصيده ذكرها ياقوت :

قلت ونفسي جم تأوهها ، تصبو الى اهلها ، واندهها

سقياً لصنعاء لا ارى بلداً ، اوطنه الموطنون يشبهها

خفضا ولينا ولا كبهجتها، ارغد ارض عيشا وارفهها

كأنها فضة مموهة ، احسن تمويهها مموهها

الى آخر ما جاء فيها من وصف محاسنها الخلابة ...

هذا هو تاريخ بلقيس ، وتاريـخ اليمن القديم ، قرأتهما في ثلاثة اجزاء ، وستقرأ عن اليمن اشياء اخرى ، في الروايات التي تصدرها دار الأندلس .

ولقد ذكرنا لك من قبل ، انه لم يبق من دول العرب ـ قبل الاسلام ـ غير دولة اليمن ، ولكن نسينا ان هنالك دولة عربية مثلت دوراً سياسيا خطيراً تحت سماء بلاد العرب ، هي دولة .

تمت رواية بلقيس ملكة اليمن

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١/ ٢
- زينب ملكة تدمر ١/ ٢
- حسناء الحجاز ١/ ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١/ ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وعد
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع